

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد العاشر

من أول الشعراء إلى آخر الأحزاب


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (٢٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الشعراء) هي السورة السادسة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الواقعة)، وقبل سورة (النمل).

وهي مئتان وسبع وعشرون آية في العدد الكوفي[1].

وهي ألف ومئتان وتسع وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وخمس مئة وأربعون حرفًا.

وسُمِّيت سورة (الشعراء)؛ لأنها تفرَّدت بذكر كلمة (الشعراء)، وقد كان شعراء مكة: كالنضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب، زوج أبي لهب، يهجُون النبي ﷺ وهم المعنيُّون -وقت التنزيل بآية: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة، أما شعراء المدينة فقد أسلموا قبل الهجرة، ومنهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وهم المعنيُّون -وقت التنزيل- بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في آخر السورة.

وشأن علماء بني إسرائيل كان مشهورًا بمكة، وكان لأهل مكة صِلات ومراجعة مع اليهود بالمدينة في شأن بعثة محمد ﷺ.

نزلت سورة (الشعراء) على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، وهو مُهتمٌّ بأمر المشركين، يُجهِد نفسه في إيمانهم، وكان ﷺ يَلْقى منهم العنَت، والتكذيب، والأذى في صباحه ومسائه، فنزلت سورة (الشعراء) كغيرها من السور المكية التي تُعزِّي الرسول ﷺ وتُطيِّب خاطره من تكذيب المشركين له وللقرآن.

فهي تقصُّ على رسول الله ﷺ سبع قصص من قصص الأنبياء والمرسلين على غير ترتيبهم التاريخي، كما جاء في السورة: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) والشامي والمدني الأول، ومئتان وست وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير.

وكل رسول منهم جاء ليقول لقومه ما قاله نوح عليه السلام كما ذكرت السورة: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾. فكلُّ رسول لا يطلب من قومه إلا الإيمان والتقوى، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وأنه لا يطلب منهم أجرًا على تبليغ الرسالة، ومع ذلك فقد قوبلوا بالرفض، وعوملوا بغلظة، وقُتِل بعضهم وهو يبلغ رسالة ربه، فكانت عاقبتهم ما نطقت به الآية: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

وكل قصة من هذه القصص انتهت بما يُلْفت الانتباه إلى أخذ الموعظة والعبرة مما لَحِق بهذه الأمة، جرَّاء تكذيبها لرسول من رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فانتهت كل قصة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾، تعقيبًا على أحداثها.

وقد تكرر هذا التعقيب ثماني مرات في السورة: سبع مرات منها بعد ذكر أحوال الأمم الماضية، ومرة واحدة في أول السورة بعد ذكر الأرض التي نعيش فوقها، ومنها بدأنا، وإليها نعود.

وشأن سورة (الشعراء) شأن السور المكية في عناصرها الأساسية، فقد عالجت أصول الدين من إخلاص التوحيد، وعدم الشرك بالله تعالى، في مثل قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

وعالجت قضية البعث والحساب والجزاء، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وعالجت قضية الوحي والرسالة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

وخوَّفت من عاقبة التكذيب بالله ورسله بعذاب يدمر المكذبين ويهلكهم في الدنيا، أو بعذاب ينتظرهم في الآخرة ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾.

والدعوة الإسلامية تلقى مقاومة شديدة من أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ فهم لا يُصدِّقون بالآخرة، ولا يُصدِّقون بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ.

ولذا: أعرضوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة، ومنهم من جعل الإسلام رسالة خاصة بالعرب، ويمقدار ما يحرص الإسلام على دعوتهم وإيمانهم بمقدار ما يُكذِّبون ويُكابرون.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ الدالة على رسالته وَحْيًا يُتلى، حيث تستمع الأجيال المتقدمة والمتأخرة إلى هذا القرآن الذي يخاطب العقول، ويهاجم الخرافات الشائعة.

وتنقسم آيات سورة (الشعراء) إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- مقدمة السورة التي جاءت في تسع آيات من أولها.

٢- ثم موضوع السورة الذي اشتمل على سبع قصص من الأمم القديمة مع أصحاب الشرائع السماوية، وهي: قصة موسى مع فرعون، وإبراهيم مع قومه، ونوح مع قومه، وقصص: عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

وقد استغرقت هذه القصص السبع من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والتسعين بعد المئة.

٣- أما القسم الثالث فهو التعقيب على ما جاء في السورة، من الآية الثانية والتسعين بعد المئة إلى نهاية السورة، الآية السابعة والعشرين بعد المئتين، وهو يتضمن حال المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كلٍّ من الفريقين يوم الدين، بالإضافة إلى التنويه بشأن القرآن ونزوله بلغة العرب.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

حُرُوفُ الْهِجَاءِ فِي فَوَاتِحِ السُّوَرِ

١- ﴿طسٓمٓ[1] ①﴾

ابتدأت سورة (الشعراء) بحروف ثلاثة من حروف الهجاء هي: الطاء، والسين، والميم.

وهذه الحروف الله ﷻ أعلم بمراده منها، فهي من المتشابه في القرآن الكريم.

ولعلها تشير إلى أن القرآن الذي عجز أرباب الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، مكوَّن من هذه الحروف: الطاء والسين والميم، ومن الألف واللام والراء، وغير ذلك.

وفيها إيقاظ وتنبيه للعقول والأفهام لتأمُّل ما فيه وتدبره، وكأن الله تعالى يقول لمن ينكرون أن القرآن من عند الله: هذا هو القرآن مكوَّن من حروف وألفاظ تعرفونها، وتنطقون بها، فإن كنتم في شك في أنه من عند الله فأتوا بمثله، فإن عجزتم فأتوا بمثل عشر سور منه، فإن عجزتم فأتوا بمثل أقصر سورة منه، فإن عجزتم ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

التَّنْوِيهُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ

٢- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

تشير هذه الآية إلى تعظيم القرآن الكريم وما اشتمل عليه من المقاصد الشرعية والأخبار الغيبية بلا أدنى شك ولا شبهة فيما أخبر به وما شرعه للناس، وما بشرهم وأنذرهم به.

أي: ومما يدل على أن هذه الحروف نزلت للإعجاز والتحدي، ولَفْتِ أنظار المكذبين إلى الاستماع إليه والتأمل فيه، أن الآية التالية لحروف الهجاء في أكثر السور التي افتتحت

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على حروف الهجاء الثلاثة من (طسم) بدون تنفس، وقرأ بإمالة الطاء شعبة وحمزة والكسائي وخلف، وفتحها الباقون.

هذا: وقد عدّ المصحف الكوفي (طسم) آية، ولم يعدّها غيره.

بحروف التهجي، تشير إلى القرآن الكريم ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الدخان] أي: هذه هي آيات القرآن تُقرأ عليكم بلُغتِكم، وهذه حروف هجائها، فَأْتوا بسورة من مثلها، فهي تشير إلى أن القرآن مكوَّن من هذه الحروف، وهذه هي آيات القرآن التي فَصَّل الله فيها أحكام التشريع، وأوضح الهُدى من الضلال، والحلال من الحرام، والحق من الباطل، وهي آيات دالة على صدق محمد ﷺ، ولا يجحدها إلا مكابر، فآمنوا بها واتقوا لعلكم ترحمون.

وقد كان النبي ﷺ يحرص على هداية الناس ويحزن على عدم إيمانهم.

حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ النَّاسِ

٣- ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

توجَّهت السورة إلى مرادها، فوجَّهت الخطاب إلى رسول الله ﷺ: لعلك -أيها النبي الكريم- مُهْلِك نفسك بسبب عدم إيمان المكذبين بك، ولعلك من شدة حرصك على هداية قومك ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكُها ومجهدُها بسبب عدم إيمانهم في الحاضر والمستقبل؛ لأنهم لم يصدقوا بك، ولم يعملوا بدعوتك، ولم يهتدوا بهديك، فلا تُتعب نفسك، ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإن ذلك بيد الله.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]. لعدم تصديقهم بالقرآن، وما فيه من: التوحيد، والبعث، والنشور والحساب والجزاء.

ولفظ: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يفيد تأكيد واستمرار عدم إيمان من لم يؤمن من الكفار إلى يوم القيامة.

ولأن سورة (الكهف) متأخرة في النزول عن سورة (الشعراء)، فقد جاء في سورة (الكهف) بلفظ الماضي ﴿لَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]. وجاء هنا بلفظ: ﴿أَلَّا﴾ وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لما كان فيه من القلق، والحرص على إيمان الناس، أي: فلا تفعل ولا تحزن، فإن الهداية بيد الله، وقد أديتَ ما عليك، فليس بعد القرآن المبين شيء يُنزّل عليهم حتى يؤمنوا، فإن فيه الكفاية لمن أراد الهداية.

الإِنْسَانُ حُرٌّ مُخْتَارٌ

٤- ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ[(١)] عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً[(٢)] فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾

قال الله تعالى لرسوله ﷺ: لا تحزن على تكذيبهم لك، ولا تقتل نفسك همًّا وغمًّا؛ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وإنك لا تستطيع أن تهدي أحدًا ولكن الله يهدي من يشاء، فلو أردنا أن ننزل على المكذبين بك آية مادية قاهرة من السماء تلْوي أعناقهم، وتضطرهم إلى التسليم والإذعان، فيلجؤون إلى الإيمان قسرًا، وتصير أعناقهم خاضعة ذليلة لفعلْنا، ولكنا لم نشأ ذلك، فإن الإيمان النافع هو الإيمان الاختياري بالغيب والرسالة.

وقد أراد الله تعالى لهذه الرسالة أن تكون رسالة مفتوحة لجميع الأجيال إلى يوم القيامة، وليست رسالة مغلقة لأهل زمان أو مكان، فناسب ذلك أن تكون معجزته مفتوحة للقريب والبعيد، ولكل أمة وجيل، فإن الخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تُروَى، والقرآن يهدد المكذبين، بالهلاك المحسوس، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام].

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ آيات القرآن؛ لأنهم لم يقتنعوا بها، ولكن المراد آية كآية بني إسرائيل حين لم يعملوا بالتوراة، فرفع الله جبل طور سيناء فوقهم كأنه ظُلَّة، فآمنوا تحت وطأة التهديد.

والآيات المعرَّضة للنظر والفكر: كالسموات والأرض، والليل والنهار، وكذا آيات القرآن الكريم فإنه يهتدي بها من سبق في علم الله هداه، ويضل من سبق في علم الله ضلاله، فيكون لهذا النظر والفكر ثواب أو عقاب يترتب عليه.

أما الآيات التي تضطر الإنسان إلى الإيمان، كما حدث لبني إسرائيل لَمَّا آمنوا إيمان

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون النون الثانية وتخفيف الزاي من (ننزل)، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الزاي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (السماء آية) ياء، والباقون بتحقيقها.

المضطر، حين رُفع الجبل فوقهم، فهذه الآيات القاهرة تدفع ذلك الإيمان وتُلغيه حال حصولها ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على دين واحد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الإنسان حرًّا مختارًا، وأن يدخل الإنسان في الإسلام عن طريق الاختيار والرغبة والاقتناع، وليس عن طريق القسْر والإلجاء.

ولو أراد الله - سبحانه - أن يقهر هذه الأمة على الإيمان، بأن يُنزل عليهم آية خارقة تضطرُّهم إلى الإيمان، فيؤمنون تحت التهديد والتخويف، كأن يرفع الله فوقهم جبلًا ويهددهم به حتى يؤمنوا، أو يسقطه فوقهم، أو ينزِّل الله عليهم ملَكًا من السماء يجبُرهم على الإيمان، لوشاء الله ذلك لفعل، ولكنه - جلَّ شأنه - يريد من عباده أن يؤمنوا باختيارهم، وليس تحت وطأة التخويف والتهديد.

قال تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

فإن الإيمان الاختياري هو الذي ينفع العبد، وهو الذي يثاب عليه المرء يوم القيامة، وليس الإيمان القهري ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤].

وَعِيدُ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ

٥، ٦- ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾

أي: ومع أن هذا القرآن معجزة قائمة إلى يوم الساعة، فهو أيضًا منهج حياة، يستمد منه البشر ما يُقوِّم حياتهم، وهو كتاب هداية للثقلين، ولكن المعارضين للدعوة بلغ من جحودهم أنه كلما نزلت من عند الله تعالى آية بعد آية، أو سورة بعد سورة، في صورة

متجددة يومًا بعد يوم، وحدثًا بعد حدث، كانوا عن هذه الآيات معرضين، ومكذبين بما نزل على محمد ﷺ.

والمعنى: ما ينزل من القرآن محدَث، شيئًا فشيئًا، يأمرهم وينهاهم، ويذكِّرهم بالدين الحق إلا أعرضوا عنه ولم يقبلوه.

والقرآن المحْدَث: هو حديث النزول، أي: جديد في نزوله، واستهزاؤهم به يتجدد بتجدد نزوله، أما إعراضهم عنه فهو متمكن من قلوبهم.

كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء].

ويتضح من الآيتين أن الله تعالى ذكر لفظ: ﴿رَّبِّهِم﴾ في سورة (الأنبياء)، ولفظ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ هنا؛ لأن السياق هنا في مقام إعراض المكذبين عما فيه رحمة لهم وهو القرآن، وإذا كانوا لا يدركون ما فيه صلاحهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

أما في سورة (الأنبياء) فإن الآية في سياق الحديث عن يوم القيامة، وغفلة الناس عنه.

ونظير ذلك أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾ [الأنعام].

ثم يأتي إخبار بالوعيد بعد الإخبار بالتكذيب، وفيه بيان لعاقبة المعرضين عن ذكر الله ورحمته، فهددهم بعذابه وعقابه كما حدث قبلهم للأمم المكذِّبة، فقد كذَّبوا بالقرآن واستهزؤوا به، وكذَّبوا بالرسالة وبرسولها، فسوف يأتيهم مصداق ما كانوا به يستهزئون، أي: سيأتيهم أخبار ما كذَّبوا به وسخروا منه، وسيحلُّ بهم العذاب لا محالة، جزاء تمردهم على ربهم، فيعلمون علم اليقين ويرون بأعينهم نتيجة هذا التكذيب بما يلحق بهم من العذاب يوم لقاء رب العالمين، وبما يلحقهم في الدنيا من ألوان العذاب الدنيوي، وسوف يستمعون إلى أخبار الأمم التي كذَّبت رسلها كيف أهلكهم الله وأبادهم!!

ونظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٥﴾ [الأنعام] وفيها التعبير بلفظ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾، وفي هذه السورة بلفظ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فكأن الوعيد هنا أشد؛ لأن السين للمستقبل القريب.

وُجُوبُ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ

٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

ومن آيات التنزيل، إلى آيات الله في الكون، فالآيات في السموات والأرض متضافرة وكثيرة على صحة ما يدعوهم إليه القرآن من التوحيد والإيمان بالبعث، ولكنهم عموا عنها، فأشركوا بالله، وكذَّبوا بآياته، فلا عجب بعد ذلك أن يضلوا عن التصديق بخاتم الرسل، ويضلوا عن كون القرآن منزلًا من عند الله، ولو أنهم كانوا من الباحثين عن الحق لكان لهم في الآيات التي ذكَّرهم الله بها كفاية وقناعة، ولآمنوا بما أنزله الله على رسوله.

وقد أمرهم ربهم بالنظر في الكون، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال أيضًا: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس].

إن القرآن الكريم في هذه الآية يُلْفت انتباه الملحدين في أرجاء الدنيا إلى آية كونية واحدة من آيات الله العِظَام، فهي تكفي لوجود الإيمان في قلب مَن عنده استعداد لقبوله.

فهذه الأرض كيف يُخرج الله منها النبات أصنافًا وأزواجًا متنوعة، حسنة المنظر، متعددة المنافع، ونحن نتقلَّب فيها، ونمشي في جوانبها، ونعيش على خيراتها، إنها آية كافية على توحيد الله سبحانه، وعلى تقوية الإيمان في قلب العبد.

والمعنى: أغفل هؤلاء المكابرون، ولم ينظروا إلى الأرض التي أنبت الله فيها من كل نوع حسن نافع من النبات، ذكرًا وأنثى، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين.

فإخراج النبات بأنواعه من الأرض آية دالة على وحدانية الله تعالى، ولا تصدر هذه الآية إلا عن واحد لا شريك له، وهي أيضًا آية دالة على إمكانية البعث بعد الموت؛ لأن الإنبات بعد الجفاف كالإحياء بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣﴾ [يس].

فهل عمي الجاحدون عن مظاهر قدرة الله تعالى ورحمته بهم، ولم يروْا بأعينهم كيف

أخرجنا النبات من الأرض، وجعلنا فيها أصنافًا وأنواعًا لا تُحصى من النباتات الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى؟

قال مجاهد في معنى ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام(١).

وقال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم(٢).

فالزوج هو النوع والصنف من الأغذية والنباتات، كما أن الحيوان والإنسان ينبت من الأرض؛ لأن حياته تقوم على ما يخرج منها، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح].

وفي الآية توبيخ للمعرضين عن النظر في آيات الله الكونية، وتحريض لهم على التأمل فيما يخرج من الأرض، بعد أن وبَّخهم على إعراضهم عن آيات الله المنزَّلة.

آيَتَا التَّعْقِيبِ عَلَى كُلِّ قِصَّةٍ فِي السُّورَةِ

٨، ٩- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

إن في إخراج النبات من الأرض لدلالة واضحة على كمال قدرة الله تعالى، وهؤلاء يصرون على الكفر مع قيام الدليل الواضح على وحدانية الخالق، وصدق الرسالة، وما كان أكثر القوم مؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[يوسف].

وقال سبحانه: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس].

وفي الآية إخبار من الله تعالى بعدم إيمان من سبق في علم الله تعالى أنه لن يؤمن، ممن هو مطبوع على الكفر؛ بسبب فساد فطرته وسوء توجهه.

وإن الله تعالى هو القوي الغالب الذي يقهر كل مخلوق، وهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حيّ، فلا يعجل بعقوبة من عصاه، بل يمهله

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٥٠) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٥٠).

(٢) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٥٠).

ويُنظِره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

وقد قُدِّم العزيز على الرحيم في الآية؛ لبيان قدرة الله الكاملة على عقوبتهم، ومع ذلك فقد رحمهم الله فضلًا منه وكرمًا.

وهاتان الآيتان جاءتا تعقيبًا على كل قصة في هذه السورة، فذُكِرتا سبع مرات بعد هذه المرة؛ لبيان أن الله تعالى عزيز، فقد أهلك مَنْ مضى من الأمم، وانتقم من أعدائه، وهو سبحانه رحيم بالمؤمنين حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه.

فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ سَبْعٌ مِنْ قَصَصِ الْمُرْسَلِينَ
الْقِصَّةُ الأُولَى: قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام

١٠، ١١- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

بدأت السورة في الحديث عن أول قصة فيها، وهي قصة نبي الله موسى عليه السلام، وقد ذُكِرت هذه القصة سبع مرات قبل هذه السورة في سبع سور، وذُكرت بعد هذه السورة ثلاث مرات؛ ليكتمل العدد إلى إحدى عشرة سورة ذُكِرتْ فيها قصة موسى، وفي كل سورة منها تُذْكر حلقة من حلقاتها حتى يكمّل بعضها بعضًا في مجموع السور، وليس هناك تكرار بينها، وإنما هو تنوع أسلوب يناسب مقام السورة، وما أُنزلت من أجله.

وموسى عليه السلام هو ابن عمران، ينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

ويُرجِّح المؤرخون أن ولادته كانت في القرن الثالث عشر قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وأن بعثته كانت في عهد منفتاح الثاني بن رمسيس الثاني من ملوك العائلة التاسعة عشرة من عائلات فراعنة مصر، في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وقد رُبِّي موسى ﷺ في بيت رمسيس الثاني، فكان مع منفتاح كالأخ.

وقد ذُكرت قصة موسى مع فرعون وملئه في سور: البقرة، والأعراف، ويونس، وهود،

وإبراهيم، والإسراء، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والسجدة، والزخرف، والذاريات، والنازعاتن بأساليب مختلفة.

عناصر قصة موسى في سور القرآن:

وقد اشتملت هذه القصة على ثلاثة عشر عنصرًا، موزعة بين هذه السور على النحو التالي:

١- فولادة موسى ورضاعه: جاءتا في سورتي: طه، والقصص.

٢- وتربية موسى في بيت فرعون: جاءت في سورة الشعراء.

٣- وخروج موسى من مصر إلى مدين: جاء في سورتي: طه، والقصص.

٤- ونزول موسى أرض مدين، وعمله عند الرجل الصالح: جاء في سورة القصص.

٥- وعندما كان موسى في وادي طوى: جاء في سور: طه، والنمل، والقصص، والنازعات.

٦- وبعثة موسى ﷺ: جاءت في سور: طه، والشعراء، والنازعات.

٧- وعودة موسى إلى مصر، ودعوته فرعون: جاءت في سورتي: الأعراف، والشعراء.

٨- ومحاجة موسى لفرعون في وحدانية الله تعالى: جاءت في سور: طه، والشعراء، والقصص، وغافر.

٩- ومعجزة العصا، واليد، وأمر السحرة: جاء في سور: الأعراف، ويونس، وطه، والشعراء.

١٠- وإيذاء فرعون لبني إسرائيل: جاء في سور: الأعراف، وإبراهيم، والقصص.

١١- والتآمر على قتل موسى ﷺ: جاء في سورة غافر.

١٢- والمعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ: جاءت في سور: الأعراف، والإسراء، والنمل، والقصص، والزخرف، والنازعات.

١٣- وخروج بني إسرائيل من مصر، وغرق فرعون وموته: جاء في سور: الأعراف، ويونس، والإسراء، وطه، والشعراء، والدخان.

وقد ذُكرت القصة بأساليب مختلفة في الإجمال والتفصيل، مع الاشتراك في بعض العناصر بما يناسب سياق السورة والغرض المقصود منها، فقد يكون الهدف هو العبرة من

هلاك فرعون وقومه وسوء مصيرهم، وقد يكون الهدف هو استعباد فرعون لبني إسرائيل، أو معجزات موسى، أو حواره مع فرعون. . وهكذا.

والحلقة المذكورة في هذه السورة تحتوي على أربعة عناصر:

الأول: تكليف موسى بمواجهة فرعون، وما حدث بينهما من حوار.

الثاني: معجزة موسى، وسحرة فرعون، وإيمان السحرة.

الثالث: خروج بني إسرائيل من مصر، وملاحقة فرعون وقومه لهم.

الرابع: انفلاق البحر، وغرق الظالمين، ونجاة المؤمنين.

وقد ذُكرت هذه العناصر في سور: الأعراف، ويونس، وطه من الجانب الذي يناسب السورة.

الْعُنْصُرُ الأَوَّلُ: تَكْلِيفُ اللَّهِ لِمُوسَى بِمُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ

بدأت القصة في سورة الشعراء بإرسال موسى نبيًّا، وأمْرِ الله له أن يذهب لتبليغ الرسالة إلى فرعون، حين ناداه الله نداءً مباشرًا بكلام سمعه من غير واسطة مَلَك.

فالمعنى: واذكر -يا محمد- لقومك وقت أن نادى ربك موسى من جبل الطور، عند الشجرة المباركة، حيث ناداه الله وكلَّمه، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة، وجعله نبيًّا ورسولًا، وأمره أن يذهب إلى فرعون؛ ليبلغه رسالة ربه، لعله يقلع عن ظلمه، وكان هذا النداء بالوادي المقدس في طور سيناء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾﴾ [طه]، وما بعدها.

والمقام هناك مقام إطناب؛ لبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معًا.

أما هنا فإن المقام يقتصر على دعوة قوم فرعون وإعراضهم عنها؛ للاتعاظ بعاقبتهم حين قال الله له: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: اذهب يا موسى، إلى القوم الظالمين، وهم فرعون وملؤه الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والضلال، وظلموا بني إسرائيل بالقتل والتعذيب والاستعباد، وهؤلاء الظالمون، هم قوم فرعون.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ نفى التقوى عنهم، وأمرهم بها في الوقت نفسه، أي:

قل لهم، بلين قول ولطف عبارة: ألا تخافون عقاب الله، الذي خلقكم ورزقكم، وتتركون ما أنتم عليه من الكفر والضلال؟ وقد كان موسى ﷺ مطَّلعًا عليهم لنشأته بينهم، ويرى ظلمهم لأنفسهم بالكفر، وظلمهم لبني إسرائيل بالقتل والتعذيب.

مُوسَى يَعْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ بِأَرْبَعَةِ أَعْذَارٍ

١٢، ١٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ[1] أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ[2] ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ[3] صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ[3] لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾

اعتذر موسى إلى ربه بأربعة أعذار، هي:

خوف التكذيب، وضيق الصدر، وعدم طلاقة اللسان، وقتله القبطي.

أ- فالتكذيب سبب لضيق الصدر، وضيق الصدر سبب لتعسر الكلام، وهو يخاف أن يكذبوه في تبليغ الرسالة، قال موسى ذلك لعلمه أن المرسَل إليهم يكذبون الرسل عادة، ولأنه حريص على نجاح دعوته، ويخاف من التكذيب، ويخشى من قتلهم له على وجه القصاص للقبطي.

ب - قال موسى معتذرًا إلى ربه، وهو يسألُه المعونة على الحمل الثقيل: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾: ويمتلئ قلبي غمًّا بتكذيبهم إيَّايَ، ولذا سأل موسى ربه قائلًا: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه].

جـ: وأنا أخشى - يا رب - من عدم طلاقة لساني بالدعوة، بسبب هذا الضيق، وبسبب الخوف من تكذيبي، وبسبب العقدة التي في لساني من جمرة النار التي لمستني في طفولتي، وبسبب أني نسيت اللهجة المصرية في السنوات التي عشتُها في مدْين، وهي فترة طويلة.

فأَرْسِلْ -يارب- جبريل بالوحي إلى أخي هارون؛ ليكون معينًا ووزيرًا لي؛ لأنه أقدر منى على الاستدلال والخطابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وقفًا ووصلًا في (يكذبون)، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (يقتلون) في الآية[١٤].

(٣) قرأ يعقوب بنصب القاف من (يضيق) و (ينطلق) عطفًا على يكذبون، والباقون برفعهما على الاستئناف.

فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص]. فأجاب الله سؤاله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥].

وهارون في هذا الوقت كان في مصر، وموسى كان في سيناء، وأجاب الله سؤال موسى فأرسل جبريل إلى هارون بالوحي، وجعله رسولًا ونبيًا يعين موسى في تبليغ رسالته.

د- وأنا أخاف - يا رب - أن يقتلوني بسبب قتل القبطي قبل أن أكون نبيًا:

١٤- ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾

هذا هو العذر الرابع من موسى ﷺ؛ لبيان ذنبه حين دفع القبطي الذي كان يتقاتل مع الإسرائيلي فأدَّتْ هذه الدفعة إلى قتله خطأ، فإن لهم حق المطالبة بدم القتيل الذي وكزه موسى فقضى عليه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]

فالذنب الذي ذكره هنا بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

وسماه ذنبًا على أساس أن من قَتَل بغير قصاص ولا دفاع عن النفس، فإن هذا يعدُّ جُرمًا في قوانين البشر من عهد قتل ابن آدم لأخيه.

وقد كان هذا القتل خطأ؛ لأن موسى دفع القبطي عن الإسرائيلي، فأدت هذه الدفعة إلى قتله دون قصد متعمَّدٍ منه، وقال جلَّ شأنه على لسانه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

وهو يخاف من ملاحقتهم له، ولذا قال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ قبل أن أُتِمَّ ما عَهِد ربي إليَّ به من أعباء الرسالة، فأُحرَم جزيل الثواب، والدرجة العالية.

وموسى بهذا لم يمتنع عن القيام بأعباء الرسالة، ولم يعتذر عن تبليغها، وإنما يطلب العون من ربه على تحمُّل هذا الأمر، ويلتمس منه الإذن في إرسال هارون معه؛ ليكون عونًا له في مهمته، كما قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه].

طَمْأَنَةُ اللَّهِ لِمُوسَى وَإِرْسَالُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ

١٥- ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

أي: قال الله - سبحانه - مطمئنًا موسى: كلًّا، لا تخف، لن يقتلوك، ولن يضيق صدرك، وسأشرح لك صدرك، وأرسل معك أخاك هارون، وقد جعل الله لموسى سلطانًا فلم يتمكن فرعون من قتله، مع شدة عداوته له وحرصه على إبعاده من طريقه.

وأوحى الله إلى هارون أن يتلقى أخاه في (حوريب)، أي في جبل طور سيناء، وقال لهما: لا عذر لكما في التأخر عن دعوة فرعون بعد أن آتيتك سؤلك يا موسى، فاستعينا بالله واذهبا إليه؛ فإني معكما -بعوني ونصري- أسمع وأرى، وأحفظك وأكلؤك، وقد أيدتك بالعصا واليد آية بينة على صدق دعواك.

والضمير في ﴿مَعَكُمْ﴾ يعود على موسى وهارون وفرعون وقومه.

١٦، ١٧- ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ[1]﴾

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون بصحبة هارون ويبلِّغاه أنهما رسولان من عند الله، وأن الله تعالى قد أرسلهما إليه لمهتين:

الأولى: دعوته إلى التوحيد وعبادة الله وحده.

والثانية: تخليص بني إسرائيل من بطشه وقهره.

ذهب موسى إلى مصر ومعه عصاه يضع في طرفها المكتل، وعليه جبة من صوف، ودخل بيته، وبلَّغ هارون أنه مرسل من ربه، واستمعت الأم إلى كلام الأخوين، فصاحت: إن فرعون يطلبك ليقتلك، فلا تذهب إليه، فلم يمتنع لكلام أمه.

وأخذ هارون وذهبا إلى فرعون، وقالا للبواب: إنهما يستأذنان في الدخول عليه قائلين له: إنا رسولا رب العالمين، قال البواب لفرعون: بالباب رجل مجنون يقول: إنه رسول رب العالمين.

---

(١) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الأزرق بثلاثة، المد فيها.

عرف فرعون أنه موسى، فأرجأه إلى الصباح، وكان موسى قد وصل ليلًا، فلما أصبح أدخله عليه، أخذ فرعون ينظر إلى موسى، ويجادله في ملأ من قومه يَبْلُغون خمس مئة رجل.

وقد جاء في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]. بضمير التثنية مطابقًا للموصوف (موسى وهارون).

وجاء هنا ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمعنى اسم المفعول؛ لأنهما ذهبا برسالة واحدة، في مهمة واحدة، ولأن اسم المصدر يأتي تارة ملازمًا للإفراد والتذكير، وتارة مطابقًا لموصوفه.

وفي مخاطبة موسى وهارون لفرعون في بادئ الأمر، أنهما رسولا رب العالمين ما يثبت أن فرعون مربوب، وليس ربًا، وفيه مجابهة له بما يجب اعتقاده من وحدانية الله تعالى؛ لأن ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل جميع الكائنات بمن فيها فرعون وسائر معبوداتهم كالشمس وغيرها.

أرسل الله موسى إلى فرعون يأمره أوّلًا بتوحيد الله رب العالمين، وكان فرعون قد ادَّعى الربوبية لقومه، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]. كما ادعى الألوهية وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]. وهذا هو مقتضى ما بعث الله به موسى وهارون إلى فرعون في الآية السابقة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

والأمر الثاني الذي أرسل الله به موسى إلى فرعون: هو أن يُخرج بني إسرائيل من أرض مصر؛ لتحريرهم من ذلِّ فرعون، واستعباده لهم، ويتركهم يذهبون معه إلى أرض الله الواسعة؛ كي يعبدوه وحده.

وكان بنو إسرائيل أهل دين صحيح منذ أبيهم يعقوب عليه السلام، ولما فسدت عقائدهم بمخالطة الفراعنة، أرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليصحح عقيدتهم، ويعيد تربيتهم على التوحيد، وينقذهم من ظلم فرعون وبَغْيه، وجاءت هذه المهمة الثانية في تلك الآية التي معنا ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

وكان فرعون قد استعبدهم أربع مئة سنة، وكان عددهم - آنئذٍ - ست مئة وثلاثين ألفًا، فانطلق موسى برسالته إلى مصر وكان هارون بها فأخبره بذلك، وذهب إلى فرعون كما سبق بيانه. **فالخلاصة**: أن موسى أُرسِل إلى فرعون لمهمتين:

الأولى: أن يهتدي فرعون ويؤمن بالله تعالى.

والثانية: أن يخلِّص بني إسرائيل من ذلِّ العبودية والقهر.

فِرْعَوْنُ يَمْتَنُّ عَلَى مُوسَى بِتَرْبِيَتِهِ وَقَتْلِهِ الْمِصْرِيَّ:

١٨- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

عرف فرعون من خلال موسى وهارون أن موسى هو الرسول بالأصالة، وأن هارون كان عونًا له على تبليغ الدعوة، فلم يُشغل نفسه بالكلام مع هارون، ووجَّه خطابه إلى موسى وحده، كما أن فرعون لم يُشغل نفسه بإبطال دعوة موسى، وعدَلَ عن ذلك إلى تذكيره بنعَمِه عليه، وتخويفه بقتْل المصري ظنًّا منه أن ذلك سيُفحِم موسى ويُثْنيه عن دعوته، ويتلعثم في كلامه خوفًا من فرعون وبطشه.

قال فرعون لموسى ممتنًّا عليه بعد أن بلَّغه رسالة ربه: ألم يسبق لك أنك عشت في منازلنا، ورعيناك وأنت طفل صغير؟ فقد مكثتَ في رعايتنا سنين من عمرك وصلت إلى نحو ثلاثين سنة، قمنا خلالها بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك إلى أن اشتد عودك وصرت رجُلًا.

لقد رأى فرعون أن في كلام موسى جُرأة عليه، فأراد أن يُرخي له العنان في أن يَجْحد أو يُقرَّ أنه قد تربَّى في بيته، فإذا أقرَّ ولم يُنْكِر كان الإقرار سالمًا من الضغط عليه، وكان على موسى أن يقابل هذا بالبر والطاعة، وليس بالجفاء.

وهذه منة ثانية يمن بها فرعون على موسى فيقول له:

١٩، ٢٠- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾

قال فرعون لموسى: لقد ارتكبتَ جناية حين دفعْتَ رجلًا من قومي وضربته، فترتب على ذلك قتله، وأنت من الجاحدين نعمتي، المنكرين ربوبيتي.

وجَّه فرعون إلى موسى هذه الأسئلة على وجه الاستنكار، متوهمًا أنه قطع عليه طريق الإجابة.

قال موسى مجيبًا فرعون في رباطة جأش، واعتراف بفعلته وهو غير خائف من هذا الإقرار: فعلتُ ما ذكرتَ حين كنت في بيتكم قبل أن يوحي الله إليَّ، ويبعثني رسولًا،

لأن الرسول قبل أن يوحى إليه ضالٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى]. وكنت من المخطئين الناسين، البعيدين عن الصواب، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فكأن موسى يقول: أنا لا أنكر هذه الفعلة، ولكني فعلتها قبل أن يشرفني الله بالرسالة، وفضلًا عن ذلك، فأنا كنت أجهل أن هذه الوكْزة ستؤدي إلى قتله، فلم أكن أقصد قتله، ولكني قصدت تأديبه ومنعه من الظلم.

٢١- ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾

بيَّن موسى في هذه الآية ما ترتب على قتل المصري بأنه لما توقَّع الشر منهم، وخشي على نفسه من القتل، خرج من بينهم فارًّا إلى أرض مدين، ففررت منكم لما خفتُ أن تقتلوني، فكان نتيجة فراري أن أنعم الله عليَّ -تفضُّلًا منه- بالنبوة والعلم والرسالة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فالإنسان ابن يومه، وليس ابن أمسه، والأحوال بأواخرها، فوجود فضل عليَّ في الصغر، لا يقدح في رسالتي، ولا يمنعني من تبليغها إليكم.

وهكذا: فإن اعتراض فرعون على موسى غير صحيح، لأنه جعل المانع من كونه رسولًا، قتله المصريّ، فأجابه موسى مصححًا له اعتراضه، بأن قتله كان خطأً، وأنه لم يكن يقصد ذلك، وفضل الله غير ممنوع على أحد.

وكان هذا الحوار بعد أن أظهر موسى لفرعون المعجزة التي أيده الله بها، وبعد أن قال الله له: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] وبعد أن أرسله ربه إلى فرعون بقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النازعات].

ويمضي موسى في رده على فرعون، فيقول:

٢٢- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

كان موسى قد قدَّم الجواب على قتل المصري؛ ليُظهر لفرعون أنه لا يخشى من ذلك، ثقة منه بأن الله تعالى سينجِّيه من عداوتهم.

ثم أجاب بعد ذلك على امتنان فرعون عليه بالتربية في بيته، فقال: وتلك التربية التي

كانت في بيتكم تعُدُّها نعمة منك عليَّ، وقد جعلْتَ من بني إسرائيل عبيدًا لك، تُذَبِّح أبناءهم، وتستحيي نساءهم.

وقد كانت تربيتي في بيتك وليدًا بسبب استعبادك لبني إسرائيل، مما اضطر أمي أن تضعني في التابوت، وتُلقيني في اليمِّ، ونتج عن ذلك عدم تربيتي في بيت أبي، فما تمنُّ به عليَّ في الحقيقة ما هو إلا نقمة، فأيُّ نعمة في استعبادك لقومي، وأنا واحد منهم، وتربيتي في بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك، فهل تمنُّ عليَّ أن اتخذت بني إسرائيل عبيدًا لك؟

فالحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الذي عذّبته وسخرته في الأعمال الشاقة، وأنا قد سلَّمني الله منك، فما هذه المنة التي تمتنّ بها عليّ؟

ثم إن تربيتي في بيتك في الصغر لا تمنعني من تبليغ رسالة ربي، ولا من دعوتي لك إلى الإيمان بالله تعالى.

وبهذا الجواب أفحم موسى فرعون، وجعله يحوّل الحديث إلى شيء آخر.

حِوَارٌ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ

٢٣، ٢٤- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

عدل فرعون عن هذه المسألة المتعلقة بتربية موسى وقتله للقبطي، وشرع يسأله عن صميم دعوته في تجاهل واستخفاف، فقال مستنكرًا مستهزئًا: ما رب العالمين الذي تدعو إليه، ألك رب غيري؟ وقد أقام موسى ثلاثة أدلة على توحيد الربوبية:

أولها: أنه سبحانه رب العالم العلوي والسفلي وما فيهما وما بينهما:

ولما كان حرف (ما) للسؤال عن حقيقة الشيء وماهيته، وهذا لا يناسب الذات العليّة، فإن موسى عدل عن جواب فرعون، وأجابه بذكر أفعاله وآثاره سبحانه، ففرعون يدَّعي أنه إله شعب واحد، هو شعب مصر، وأنه يمتلك جزءًا من وادي النيل ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]. وهذه الملكية التي يدَّعيها فرعون على افتراض أنها له، ماذا تساوي بالنسبة للعالم العلوي والعالم السفلي ومافيهما وما بينهما،

لذا: كان جواب موسى تعريفًا بخصائص رب العالمين، حين قال مخاطبًا لجموع الحاضرين مع فرعون: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ المتصرف فيهما بالإحياء والإماتة، والخلق والتدبير، من: بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وإنسان وحيوان، وغير ذلك، فإن كنتم تعرفون مثل هذه الأدلة، فإن هذا يؤدي بكم إلى الإيمان بالله تعالى:

وما مصر وشعبها، وما وادي النيل وما حوله إلا جزءٌ من ذرة في هذا الكون العظيم، الذي هو مربوب ومملوك لرب العالمين.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

وكانت عقائد القبط؛ تقول بوجود آلهة متعددة، تقتسم التصرف في العالم وما فيه من موجودات، وهنا أثار فرعون انتباه الحضور لجواب موسى له:

٢٥، ٢٦- ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قال فرعون لمن حوله متعجبًا متهكمًا، معرضًا عن خطاب موسى، ومستثيرًا لنفوس الملأ تهييجًا لهم: ألا تستمعون إلى هذا الذي يدَّعي أنَّ له ربًّا غيري يدعو إلى عبادته من دوني، وكانوا يعتقدون أن فرعون إلههم ومعبودهم، وكان هذا الضلال سائدًا فيهم، ولذا فإن موسى زاد في إجابته دليلًا ثانيًا على توحيد الربوبية بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، سواء تعجبتم واستكبرتم أم لا. وسواء أصدقتم وأذعنتم أم لا.

لم يمهل موسى قوم فرعون أن يردُّوا عليه، بل أكد لهم وحدانية الله تعالى، وهيمنته على هذا الكون.

ولما كان فرعون قد أعرض عن مخاطبة موسى، وتجاوزَه إلى مخاطبة مَن حولَه، فإن موسى وجَّه جوابه إلى الملأ، حيث لم يهتدوا جميعًا إلى أن الله تعالى خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه.

فزاد موسى جوابًا ثانيًا على جوابه الأول حيث قال لهم: الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلقكم، وخلق آباءكم الأولين، فكيف تعبدون مَن هو مخلوق مثلكم، وله آباء قد دُفنوا كآبائكم؟! والله هو ربي وربك يا فرعون، ورب آبائكم - أيها الناس - الذين ماتوا

وسبقوا، وأنت -يا فرعون- واحد منهم، والإله أو الرب هو الذي يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وأنت لست كذلك، وهنا لجأ فرعون إلى أسلوب الإفلاس في المناظرة:

٢٧، ٢٨- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

احتدَّ فرعون لمَّا سمع موسى يذكُر آباءه المقدَّسين عنده، فلجأ إلى الردِّ الذي يدل على العجز والإفلاس، وقال لخاصة قومه يستثير غضبهم: إن رسولكم يتكلم كلامًا لا يُعقل، ففرعون يزعم أن هذا كلام من اختلَّ إدراكه، فوصفه بالجنون للتشكيك في أمره، وقد خاطب فرعون قومه بأن موسى رسولهم ليهيِّجهم عليه، وليربأ بنفسه عن أن يكون رسولًا له.

قال موسى مجيبًا لإنكار فرعون، في ثالث دليل له يُظهر فيه عجز فرعون، وأنه في غاية البعد عن دعوى الربوبية، وهو أخصُّ من الدليلين الأول والثاني، ولا سبيل إلى إنكاره، فشروق الشمس وغروبها يشاهَد كل يوم مرتين، كما انتقل إبراهيم من الاستدلال بالإحياء والإماتة إلى الاستدلال بشروق الشمس وغروبها وجهة كل منهما، فهو سبحانه رب المشرق والمغرب وما بينهما، وما فيهما، وما بينهما من نور وظلمة.

وهذه الآية لم يدَّعها أحد من الطغاة الذين ادَّعوا الربوبية أو الألوهية.

فالنمروذ حين حاجَّه إبراهيم قال له: ربي الذي يحيي ويميت، قال النمروذ: أنا أحيي وأميت، فأحضر رجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، عندئذ قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ولما كان طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن لأحد أن يجحدها، ولا أن يدّعيها لغير الله، فإن موسى عليه السلام أقام الحجة على فرعون بذلك، فهل ذهبت عقولكم حتى تنكروا خالق السموات والأرض وما بينهما، فإذا جحدتم ذلك، فبأي شيء تؤمنون؟.

وإذا كان الله تعالى هو الذي يدبرهما ويصرِّفهما فاجعل أنت -يا فرعون- المشرق مغربًا والعكس، فإن عجز فرعون عن ذلك -وهو عاجز لا محالة- فاعلموا أن ذلك مما يستوجب الإيمان بالله تعالى، فإن كنتم من أهل العقل والتدبر فأخلصوا له العبادة، فإن ذلك من أوضح الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي: مُعْجِزَةُ مُوسَى وَسَحَرَةُ فِرْعَوْنَ

٢٩- ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولما انقطعت الحجة على فرعون، ولم يستطع الحوار والمناظرة -لجأ إلى القوة، وهذا شأن الطغاة دائمًا، يلجؤون إلى القوة عند العجز عن دفع الحجة بالحجة في مثل هذه الحال، ولذا قال فرعون لموسى مهددًا له وطامعًا في أن يتخذه إلهًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ وكان سجْن فرعون أشد من القتل؛ لأنه كان يُلْقي المسجون وحده في هوة بعيدة القعر، بحيث لا يسمع ولا يبصر حتى يموت، وفي هذا تخويف لقومه كي يَبقوْا على ما هم عليه.

وهكذا لم يقف فرعون عند تحذير قومه من اتباع موسى وتخويفهم من الاستماع إليه، بل طمع في أن يتخذه موسى إلهًا، وتوعده بالسجن إن لم يفعل، وهذا ضعف وإفلاس في الحجة والمناظرة، وهنا جاء دوْر الحديث عن المعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ:

٣٠، ٣١- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

ردَّ موسى في رباطة جأش على فرعون دون خوف من وعيده وتهديده قائلًا له في تلطف وطمع في إيمانه: أتسجنني ولو جئتك بدليل بيِّن واضح، ومعجزة ظاهرة على صدق دعواي؟

فلما سمع فرعون ذلك طمع أن يجد في هذا الشيء معارضة لموسى، قال: فأت بهذا الشيء البيِّن إن كنت صادقًا في دعواك، وقد أراد موسى أن يصرف فرعون عن التهديد بالقوة المادية، ويلجئه إلى رؤية المعجزات والاطلاع عليها لعله يهتدي.

٣٢، ٣٣- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فألقى موسى العصا التي في يده، فارتفعت إلى أعلى قليلًا، وانقلبت حية حقيقية عظيمة، تدبُّ فيها الروح وهي تسعى، وتوجهت نحو فرعون فامتلكه الرعب، واستغاث بموسى أن يأخذ عنه هذا الثعبان العظيم، ويُروَى أن هذه العصا كانت عند شعيب، فأعطاها لموسى ليرعى بها الغنم، وكان في رأسها شعبتان، وهي من جملة عصيِّ الأنبياء.

قال فرعون: أو غير ذلك؟ أعندك شيء آخر؟

فقال موسى لفرعون وهو يمدُّ يده نحوه: ما هذه؟

قال: يدك، وكان موسى ﷺ أسمر اللون، ويده كذلك، فوضع يده تحت إبطه ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء كالثلج، لها شعاع كشعاع الشمس يسد الأفق، من غير برص ولا مرض. وهنا لجأ فرعون إلى اتهام موسى بالسحر:

٣٤، ٣٥- ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قال فرعون لأشراف قومه الذين حوله، خشية أن يؤمنوا، بعد أن زلْزلته معجزة موسى، ولم يجد فرعون شيئًا يعارض به موسى غير رميه بالسحر، فقال: إن هذا لساحر بارع في فن السحر، والسحرة يأتون من العجائب ما لا يقدر عليه الناس، وخوّفهم أن يتوصل موسى بذلك إلى إخراجهم من وطنهم، كي يجدُّوا في معاداته وخذلانه.

وفي موضع من سورة الأعراف آخر: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف].

لقد أراد فرعون أن يرمي موسى بالسحر خشية أن يتأثروا به، وحتى يغطي على معجزته، وأراد كذلك أن يستفزَّ قومه ضد موسى، فأخذ يؤلبهم عليه قائلًا: إن موسى يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم، بعد أن يجمع الناس حوله؛ حتى يكثُر أتباعه وأعوانه، فيأخذ البلاد منكم، فبماذا تشيرون عليَّ؟ وهي كلمة تشير إلى ضعف فرعون وخذلانه أمام قوة الدليل والبرهان.

وهذا هو حال الطغاة: يتذللون ويتباكون عندما يضيق الخناق حول رقابهم، فإذا انفك الخناق عنهم عادوا إلى فجورهم وطغيانهم.

لقد تحيَّر فرعون عندما أبصر معجزتيْ موسى، فحطَّ عنه كبرياء الربوبية والإلهية، وارتعدت فرائصه، وبلغت به الاستكانة أن يستشير عبيده رغم أنه إلههم كما يزعم! قائلًا لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟

٣٦، ٣٧- ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ[١] وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾

أشار قوم فرعون عليه بتأخير أمره وأمر أخيه حتى يجمعوا سحرة البلاد لمقاومته، حتى نغلبه بسحر مماثل له، ونصرف عنه عوام الناس.

وكان فرعون قد عزم على قتل موسى بعد أن عجز عن مقاومة معجزته، فقال له قومه حين استشارهم: لا تفعل، فإنك إن فعلت أدخلت على الناس شبهة في قتله، ولكن أمهل موسى وأخاه إلى أجل، حتى تجمع له السحرة فيقاوموه، ولا تكون له عليك حجة، وهذا معنى ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّر موسى وهارون إلى أن تجمع لهما السحرة، ولا تقتلهما، وأَرْسِلْ جنودك إلى جميع المدن كي يجمعوا لك السحرة من شتى الأرجاء في بلاد مصر، ويجمعوا لك كل ساحر فائق في سحره، عليم بفنون السحر ومداخله، متفوق فيه، فإن الساحر يقابَلُ بسحر من جنس سحره، ومناظرة السحرة لموسى، من تدبير الله تعالى كي يظهر الحق على الباطل، ويُقرُّ أهل الصنعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فأرسل فرعون بجمع السحرة من أرجاء البلاد، وجدّ واجتهد في ذلك:

٣٨-٤٠- ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

واستجاب فرعون لرأي مستشاريه فجمع السحرة، وحُدِّد لهم وقت معلوم للاجتماع بموسى، وهو وقت الضحى من يوم الزينة (العيد) الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، ويتزينون فيه احتفالًا بعيدهم.

---

(١) في كلمة (أرجه) ست قراءات على النحو التالي:

(أ) (أَرْجِهِ) بكسر الهاء من غير صلة، لقالون وابن وردان بخلف عنه.

(ب) (أَرْجِهِي) لورش والكسائي وابن جماز وخلف العاشر وابن وردان في وجهه الثاني.

(ج) (أَرْجِهْ) لحفص وحمزة وشعبة بخلف عنه.

(د) (أَرْجِئْهُو) لابن كثير وهشام بخلف عنه.

(هـ) (أَرْجِئْهُ) بضم الهاء من غير صلة لأبي عمرو ويعقوب وهشام وشعبة في وجههما الثاني.

(و) (أَرْجِئْهِ) بكسر الهاء من غير صلة لابن ذكوان.

وفي موضع آخر من سورة طه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه]. وجمْع الناس في صعيد واحد من تسخير الله تعالى له؛ لتظهر حجة موسى وبرهانه على صدق رسالته، فيظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد.

وأخذ أعوان فرعون يحضُّون الناس على حضور المباراة، ويحثونهم على عدم التخلف في ذلك اليوم المعلوم الذي يلتقي فيه موسى بالسحرة، وفيه حضٌّ للسحرة أن يبذلوا أقصى جهدهم للتغلب على موسى، وكان في هذا أمل منهم أن تكون الغلبة للسحرة.

قال أعوان فرعون للناس: بادروا إلى اجتماع السحرة بموسى؛ لكي نثْبت على ديننا إن كانت الغلبة للسحرة، فعقدوا العزم على اتباع السحرة، وليس على اتباع الحق.

ووصل السحرة إلى ساحة المناظرة من أرجاء مصر:

٤١ ، ٤٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ[١] لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ[٢] وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ولما جاء السحرة، وعلموا حرص فرعون على غلبة موسى، وخافوا أن يسخِّرهم فرعون بدون أجر، اشترطوا عليه أجرهم قبل البدء في العمل؛ ليقيِّدوه بوعده، فقالوا له: إن غلبْنا بسحرنا موسى، فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل؟

قال لهم فرعون: نعم أعطيكم ما تريدون من الأجر الذي يرضيكم، وفضلًا عن ذلك فستكونون عندي من المقربين، وسأخصكم بعنايتي ورعايتي، وأخذ يعدهم ويمنيهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف]. وهو تفنُّن في العبارة من أساليب البلاغة، فلما اجتمعوا في الموعد وعظهم موسى وذكّرهم وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]. فتنازعوا وتخاصموا وشجعهم فرعون

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل همزة (أئن) مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بدون إدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٢) قرأ الكسائي بكسر العين من (نعِم) وهي لغة كنانة وهذيل، والباقون بفتحها، وهي لغة باقي العرب.

وشجع بعضهم بعضًا.

وكان السحر هو العِلْم المعتدُّ به في هذا الوقت، وكانوا قد جمعوا السحرة من مختلف مدن مصر، وقُدِّر عددهم في أقل الأقوال باثني عشر ألف ساحر، وفي أكثرها بثمانين ألف ساحر، وحدَّدوا زمانًا ومكانًا في وقت الضحى يوم عيدهم، وهو يوم الزينة حين يجتمع المصريُّون كلهم. وهنا طلب منهم موسى أن يُلْقُوا ما بأيدهم:

٤٣، ٤٤- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

والتقى الفريقان، وقال موسى للسحرة بعد أن أعدوا له العدة لمنازلته، ومِن خلْفهم فرعون وقومه، يشد أزرهم ويشجعهم على الفوز، وموسى يريد إبطال سحرهم وإظهار أنّ ما جاء به ليس سحرًا، فقال لهم: ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر، من كل ما عندكم، وكل ما في خواطركم، فسوف تروْن عاقبة ذلك، وتعلمون علم اليقين أن ما جئتُ به ليس سحرًا، وأنكم لا تُنازِلون ساحرًا، وإنما تواجهون رسولًا مُؤَيَّدًا بمعجزات ربه.

وكلام موسى يشير إلى عدم مبالاته بسحرهم وحشودهم، فهو مطمئن إلى نصر الله تعالى له، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به.

وقد اقتصر السياق هنا على طلب موسى منهم البدء بالإلقاء، وجاء في موضع آخر تخييرهم لموسى بين الإلقاء وعدمه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف].

وعندئذ أَلقى السحرة الحبال والعصي، وقد خُيِّل للناس أنها حيات تسعى، وأقسموا بجبروت فرعون وسلطانه أنهم سيغلبون موسى، وهو قسَم جاهلي، وكانت حبالهم تقدر بالآلاف المؤلفة.

وأوجس موسى في نفسه خيفة مما خُيِّل للناس أنه سحر، فقال الله تعالى له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ﴾ [طه].

٤٥- ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ[1] تَلْقَفُ[2] مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: فألقى موسى العصا فابتلعت هذه الآلاف المؤلفة من العصي والحبال، ولم يبق لها أثر على الأرض، فقد ابتلعتْها العصا، وسمى الله الحبال والعصي إفكًا؛ لأنها كذب وزور.

ولما رآى السحرة ما جاء به موسى، تيقَّنُوا أن هذا ليس بسحر، وإنما هو معجزة خارقة ليست في طوْق البشر، فهم سحرة يميزون السحر من غيره.

ولم تُفصِّل السورة ما فصَّلتْه سورة (الأعراف) من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم، سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم، وما وضَّحتْه سورة (طه) من أنهم حين ألقوا حبالهم أوجس موسى في نفسه خيفة منهم.

إِيمَانُ السَّحَرَةِ وَتَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُمْ

٤٦-٤٨- ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ولما شاهد السحرة ما جاء به موسى، أيقنوا أنه من عند الله؛ فَخَرُّوا لله ساجدين، وذلك أن السحرة أهل علم بالسحر، وحدود السحر حدود بشَرية، وقد علموا أن ما يفعله موسى ليس سحرًا، وإنما هو شيء فوق طاقتهم، فأدركوا أن هذا أمر معجز من رب العالمين، لا قدرة لهم به، ولم يملك السحرة أنفسهم حين رأوا معجزة موسى إلا أن آمنوا به وبدعوته، وكان الله قد كشف الغطاء عن قلوبهم، وأزال الكفر عن نفوسهم، فلم يتمالكوا إلا أن خرُّوا لله ساجدين بعدما شاهدوا البرهان الساطع، والمعجزة الباهرة.

وكانوا قد جرَّبوا موسى ليلة اللقاء، وأرادوا أن يسرقوا عصاه فلم يستطيعوا، قالوا: إن سرقناها فهو كذاب وساحر، وإن لم نستطع فهو مُؤَيَّد بقوة إلهية.

وعندئذ آمن السحرة بالله رب العالمين الذي خلق موسى وهارون، وقالوا عند

---

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (هي)، والباقون بياء مدية ساكنة عند الوقف، وهي مفتوحة وصلًا للجميع.

(٢) قرأ البزي في حالة وصل (هي) بـ (تلَّقَّف) بتشديد التاء وفتح اللام وتشديد القاف، بخلف عنه، وعند الابتداء بـ (تلقف) بفتح التاء مخففة وكذا اللام، ويشدد القاف، وقرأ حفص (تلْقَفُ)، والباقون (تَلَقَّفُ) وهو الوجه الثاني للبزي.

سجودهم: آمنًا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون.

قال الطبري: لما تبيَّن للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض، خرُّوا لوجوههم سُجَّدًا لله، مذعنين له بالطاعة، قائلين: آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته دون فرعون وملئه[١].

وموقف هؤلاء السحرة يثير العجب، فقد انتقلوا في لحظة قصيرة من الضلال إلى الهدى، ومن مُمالأة فرعون والتكسب منه إلى قمة التضحية بحياتهم في ذات الله، فسبقوا سبقًا بعيدًا. وهنا هددهم فرعون وتوعّدهم:

٤٩، ٥٠- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[٢] لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

أي: إن فرعون بقي على غروره وعناده، فتساءل: كيف يؤمن السحرة بموسى دون أن يأخذوا مني إذنًا؟! وكأنه يملك قلوبهم وضمائرهم، قال فرعون للسحرة بعدما رأى ما حطَّمه وزلْزله: آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني؟! إنه رئيسكم ومُعَلِّمكم الذي تعلَّمتم منه السحر، وتواطأتم معه لإظهار أمره.

وقد أراد فرعون بهذه المكابرة أن يُلبِّس على قومه أن يكون السحرة قد آمنوا به عن بصيرة وقناعة، وبيَّن لهم أن ما جاء به موسى هو السحر بعينه، وأنه أستاذهم فيه.

والسحرة يعلمون يقينًا أنهم لم يروْا موسى ولم يجتمعوا به قبل هذا اليوم، ويعلمون أنهم على باطل، وأن موسى جاء بالحق الواضح الذي لا يمكن إنكاره.

ثم هددهم فرعون وتوعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم على جذوع النخل، كما في سورة طه ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ولكن الإيمان قد دخل قلوبهم، فَضَحُّوا بحياتهم، وقالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

(١) «تفسير الطبري» (١٩/٤٦).

(٢) لم يعدّ (فلسوف تعلمون) آية، المصحف الكوفي، وعدّها غيره.

قال عكرمة: إن هؤلاء السحرة كانوا صباحًا سحرة وأمسوا شهداء بررة، لقد توعَّدَهم فرعون بتقطيع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس، مع تصليبهم في جذوع النخل.

لم يبالِ السحرة بما هددهم به فرعون بعد أن وقر الإيمان في قلوبهم، فقالوا: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا، فستتحمَّله صابرين في سبيل الحق الذي آمنا به، إنا راجعون إلى ربنا مؤملين أن يجزينا على صبرنا.

جاء في الحديث: عن النواس بن سمعان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»** فقد يصبح العبد كافرًا ويمسي مؤمنًا، والعكس صحيح.

وكان ﷺ يقول **«يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه**[١]. قال السحرة:

٥١- ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

إنا نرجو أن يغفر الله لنا ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا، كتعظيم فرعون، والشرك بالله، وتعاطي السحر؛ بسبب مبادرتنا بالرجوع إلى الحق، وأن كنا أول المؤمنين بموسى من قومنا، وهل نفَّذ فرعون ما توعَّد به السحرة؟ قولان لأهل العلم، فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدَّهم به لقدرته على ذلك، ويحتمل أن الله منعه من ذلك، وظل فرعون على كفره، وكلما جاءه موسى بآية بينة، وعد موسى وعاهده لئن كشف الله عنه وعن قومه ما هم فيه ليؤمِنَنَّ به وليرسلنّ معه بني إسرائيل، فيكشف الله عنهم، ثم ينكثون في وعدهم وعهدهم، فلما يئس موسى من إيمانهم حقت عليهم كلمة العذاب، فأذن الله لموسى أن يخرج من مصر كي يلحق به فرعون ويكون في هذا هلاكه:

---

(١) «المسند» (١٧٦٣٠)، وصحيح سنن ابن ماجه (١٩٩) والحديث إسناده صحيح على شرط الشيخين وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٢٦٢) وابن حبان (٩٤٣) والحاكم (١/ ٥٢٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال في موضع آخر (٢/ ٨٩) على شرط الشيخين.

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصَرَ

٥٢- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِىٓ[2] إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾

بعد أن انتصر موسى على السحرة، وأسفر ذلك عن إيمانهم بالله تعالى، وكانوا أول من آمن بموسى من قوم فرعون، مكث موسى في مصر زمنًا يطالب فرعون بإطلاق سراح بني إسرائيل؛ ليخرج بهم من مصر، وفرعون يماطل، حتى رأى الآيات التسع التي أيّد الله بها موسى.

وهنا فجوة في القصة لم تذكر في هذه السورة، وذُكرت في سورتي: الأعراف وطه، فقد بقي موسى ﷺ في أرض مصر سنوات يدعو إلى الله - سبحانه -، وأيّده الله ببقية الآيات أو المعجزات التسع، التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف:١٣٣]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:١٣٠]. وقوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه المعجزات والبراهين لم تُفد فرعون وملأه، ولم تؤثر فيهم، فلم يبق لهم إلا العذاب والنكال، بعد أن رفضوا دعوة موسى وكذّبوه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى موسى أن يَخرُج ببني إسرائيل ليلًا، وألهى الله - سبحانه - فرعون وملأه في أنفسهم هذه الليلة.

قيل: إن الله تعالى جعل في كل أسرة منهم ميتًا يموت في هذه الليلة وينشغلون به.

وخرج موسى ببني إسرائيل من أرض مصر، وكان فرعون قد استعبد القوم أكثر من أربع مئة عام، يُذَبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

فقرر موسى بوحي من الله تعالى أن يَخرُج من مصر مع قومه فرارًا من ذلّ العبودية، وقد سماهم الله في الآية عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى.

ولما خرج بنو إسرائيل مع موسى من مصر بلغ تعدادهم ست مئة وسبعين ألفًا، وكانوا

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بوصل همزة (أسر) مع كسر نون (أنِ) قبلها، فإذا وقف على (أن) وابتدأ بما بعدها فإنه يبدأ بهمزة قطع مفتوحة، والباقون بهمزة قطع مفتوحة وصلًا ووقفًا.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (بعباديَ إنكم)، والباقون بإسكانها.

وقت مباراة السحرة ست مئة وثلاثين ألفًا، وكانوا قد دخلوا مصر في عهد أخيهم يوسف عليه السلام بأسرة واحدة، هي أسرة يعقوب وأبنائه.

وبيان هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه].

وقبل خروجهم من مصر استعاروا ذهبًا كثيرًا من نساء أهل مصر، ووَرَد أن القمر قد كُسف في تلك الليلة، وأن موسى سأل عن قبر يوسف فدلَّته عليه امرأة عجوز، فحمله موسى معه في تابوت، وكان يوسف قد أوصى بذلك، كما في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه ما معناه: أن النبي ﷺ نزل ضيفًا على أعرابي فأكرمه، وطلب منه النبي ﷺ أن يزوره ليردَّ له الجميل، فلما أتاه قال له النبي ﷺ: **«ماذا تطلب»**؟ قال: ناقة أو عنزة يحتلبها أهلي، فقال ﷺ: **«أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل»**؟ فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن قصتها، فقال: **«إن موسى لما سار ببني إسرائيل ضلَّ الطريق، فقال له علماؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله ألَّا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، قال لهم موسى: فأيكم يدري أين قبره؟ قالوا: لا يعرفه إلا امرأة عجوز، فأرسل إليها، وطلب منها أن تَدُلَّه عليه، فقالت: والله لا أفعل حتى أكون معك في الجنة، فانطلقت معهم إلى مستنقع ماء (بحيرة) وقالت لهم: انزحوا هذا الماء، فنزحوه؛ فقالت: احفروا، فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف، فلما حملوا يوسف إذا بالطريق كضوء النهار»**[1].

وعند خروج بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، أعلم الله موسى -عليه السلام- أن فرعون سيتبعهم وسيلحق بهم بجنوده عند وصولهم إلى البحر الأحمر، وقد تحقق ما وعد الله به، فعندما أصبح فرعون وقومه لم يجدوا أحدا من بني إسرائيل في مصر، فأرسل يجمع الناس من كل مكان ليلحقوا بموسى وقومه:

٥٣-٥٦- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده: (١٣/٢٣٦) وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم (٢٤٣٥) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٧١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٠): رجال أبي يعلى رجال الصحيح، وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جدًا، والأقرب أنه موقوف.

﴿٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ[١] ٥٦﴾

أي: ولما أصبح فرعون وعلم بخروج موسى وقومه أعلن التعبئة العامة في جميع البلاد، وجمعوا أعدادًا مهولة أضعاف عدد بني إسرائيل، حتى إنهم قالوا عن بني إسرائيل وهم ست مئة وسبعون ألفًا، قالوا عنهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ لقد خشي فرعون على مُلْكه، أن ينتشر بنو إسرائيل في مدن مصر ويستولوا عليها، فأرسل في المدائن شُرَطًا يَحشرُون الناس من المدن الهامة يومئذ: مدينة (ممفيس) وتسمى اليوم (ميت رهينة) بالجيزة، ومدينة (طيبة) بالأقصر، وأرمنت، وإسنا، وأسيوط، وبهنسا، وسخا، وأبو قير، والفيوم، وقِفْط؛ ليلحقوا ببني إسرائيل فيردوهم إلى العاصمة.

ولما لم يجدوا أحدًا من بني إسرائيل في أقطار مصر، جمعوا جيشًا جرَّارًا ولحقوا بموسى بعد أن علم فرعون بخروجه مع بني إسرائيل، متوجهين نحو البحر الأحمر، وبعد أن اكتمل عدد الجيش أخذ فرعون يُهوِّن من شأن موسى ومن معه، فقال: إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذن، هم طائفة قليلة من الخدم والعبيد، لا وزن لهم.

وهم مع قلة عددهم، وضعْف شأنهم، يغيظوننا بأقوالهم وأفعالهم، فيطلبون منا أن نترك ديننا، ونتبع موسى وهارون.

ونحن متيقظون لهم، محتاطون لمكرهم، مُمْسِكُون بزمام الأمور، وخداعهم لا يؤثر فينا، فهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.

وفرعون بهذا الكلام يستُر هلَعه وخوفه، ويُظهر أمام قومه في مدائن مصر أن سلطانه لم يُكْسر، وأنه مستعد لمقاومة الأخطار، وعقوبة المتمردين عليه كما يزعم، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم ونفير عام، لم يتخلف منهم إلا أهل الأعذار.

٥٧-٥٩- ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ[٢] ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾

أي: فأخرج الله فرعون وجنده من بساتين مصر، بحدائقها الغناء، وجناتها الفيحاء

---

(١) قرأ ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام بخلف عنه، بألف بعد الحاء من (حاذرون) اسم فاعل، أي: خائفون، وقرأ الباقون بحذف الألف صفة مشبهة بمعنى: متيقظون، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (وعيون)، والباقون بضمها.

وعيون مياهها المتدفقة، وزروعهم المخضّرة، وأخرجناهم من المساكن التي تعجب الناظرين، وترك فرعون خلْفه خزائن الذهب وقد تمتعوا بها دهرًا طويلًا، وأورثنا هذه البساتين والعيون والزروع؛ بني إسرائيل الذين كانوا مسخَّرين لفرعون وملئه في الأعمال الشاقة، فضلًا عن ذبح الرجال واستبقاء الإناث، فسبحان مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

كان فرعون وقومه يعيشون في مصر، في بساتين ونخيل على ضفاف النيل، ومنابع من العيون والآبار تُحفر على خِلجان النيل، وأموال كثيرة مدَّخرة، ومنازل حسان، فكانوا في أمن وثروة ورفاهية، فأخرجهم الله من أرض مصر بقدرته ومشيئته؛ ليتركوا هذا النعيم، وليلقوْا مصيرهم المحتوم بالغرق في البحر، جزاء كفرهم وطغيانهم، فخرجوا ولم ينتفعوا بما كانوا فيه من نعيم، وكان ذلك إجابة لدعوة نبي الله موسى عليهم حين قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس].

وإذا خرج الإنسان من ماله وحُرم منه، فإن هذا طمْس له، ولم ينطق فرعون بالشهادة إلا بعد أن رأى العذاب الأليم، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في أمواج البحر وظلماته، تاركًا وراءه ما كان فيه هو وقومه من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم.

والمقام الكريم: هو موضع الإقامة في القصور الفخمة، والكنوز هي الأموال المكدسة، كل ذلك تركه فرعون وجنوده، حين خرجوا لمطاردة بني إسرائيل، فأهلكهم الله بالغرق، ولم يرجعوا إلى شيء منه.

كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان].

وهذه الجنات والعيون، والزروع والكنوز، والمنازل الحسان -قد أعطى الله مثَلها لبني إسرائيل، مما ورثوه من الكنعانيين، حين تغلَّبوا عليهم في (فلسطين)، فآل إليهم مثل ما خلَّفه فرعون وقومه وراءهم، وأورثها الله بني إسرائيل، كما في قوله جلَّ شأنه:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان].

ومن الثابت تاريخيًا أن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى (مصر) بعد خروجهم منها بقية الدهر، فليس المراد أنهم ورثوا هذه الأشياء بعينها، وإنما المراد أن الله تعالى أعطاهم مثلها، أو أن المراد أنه بمثل ما أخرجناهم من أرض مصر جعلنا هذه الديار إرثًا لبني إسرائيل، وفي آية الدخان ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان] أي أورثنا ملكهم وديارهم قوما من بني إسرائيل والإرث يطلق على مال الميت، ويطلق على ما كان مِلْكًا لغير المعطَى -بفتح الطاء- كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [غافر: ٥٣].

والمعنى: إن الله تعالى أرزأ أعداء موسى ﵇ ما كانوا فيه من نعيم حين أهلكهم، وأعطى بني إسرائيل مثل ما كان عند فرعون وقومه من الجنات والعيون، والكنوز والمساكن، فهي وراثة لنوع ما كان فيه فرعون وقومه من البساتين والمياه، والمساكن والأموال، وليست وراثة لهذا النعيم بعينه. قال تعالى:

٦٠، ٦١- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي فلحق فرعون وجنده، موسى ومن معه، حين خرجوا متوجهين جهة الشرق من أرض مصر، فأدركوا موسى وبني إسرائيل عند شروق الشمس بعد أن قضَوْا ليالي السفر في الطريق.

لحق فرعون بموسى، فأدركه عند خليج السويس، وفي هذا المكان وقف موسى، فالبحر أمامه والعدو وراءه، ولما وصل فرعون وجنوده قريبًا من مكان جموع بني إسرائيل، وكانوا بحيث يرى كلٌّ منهم الفريق الآخر، نظر بنو إسرائيل إلى فرعون وملئه فوجدوهم قد لحقوا بهم، وعندئذ قال اليهود: إنا لمدْرَكون، أي: إن جمْع فرعون مُدْرِكنا ومُهْلِكُنا لا محالة، ولا طاقة لنا بهم، ولكن موسى ﷺ يثق في معية الله وهدايته.

(١) قرأ حفص بفتح الياء من لفظ: (معيَ) في (معي ربي)، والباقون بإسكانها.

(٢) أثبت يعقوب ياءً وصلًا ووقفًا في هذه الكلمات: سيهدين، يهدين، يسقين، يشفين، يحيين، أطيعون، في كل ما في السورة، والباقون بحذف الياء وصلًا ووقفًا.

٦٢- ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ[١] رَبِّى سَيَهْدِينِ[٢] ﴿٦٢﴾﴾

ذكرت التوراة ما أصاب اليهود من الخوف والجزع والصياح، حين رأوْا فرعون وجنده على مدِّ البصر، لولا أن موسى ردَّ عليهم بثقة وثبات قائلًا: لا تخافوا إن معي ربي بالعون والنصر والتأييد، وهو سيهديني إلى طريق النجاة، وهداية موسى هداية لقومه، ومعية الله لموسى معية لقومه أيضًا، وهي تقطع دابر العدو بقوة خارقة.

قال الفخر الرازي: قوَّى الله نفوسهم بأمرين:

الأول: أن ربه معه، وهذا دلالة النصرة، والتكفل بالمعونة.

والآخر: قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دلَّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النُّصرة[١].

الْعُنْصُرُ الرَّابِعُ: انْفِلَاقُ الْبَحْرِ وَغَرَقُ فِرْعَوْنَ

٦٣- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ[٢] كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾

كان هارون ويوشع بن نون في المقدمة، وموسى ومؤمن آل فرعون في الساقة، وقد وقفوا حيث البحر أمامهم، والعدو وراءهم، لا يدرون ماذا يصنعون، ولَمَّا لم يبق على اقتراب فرعون وجنوده منهم إلا القليل، تدخلت العناية الإلهية، حيث أوحى الله إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك.

ما هذا؟ عصًا تضرب البحر؟ وماذا عسى أن تفعل العصا في البحر؟! ضرَب موسى البحر بعصاه، فانفلق اثني عشر طريقًا بعدد قبائل بني إسرائيل، كل طريق منها قد يبس فيه الماء وتجمَّد، ووقف كالجبل، وأصبح الطريق في البحر يابسًا، فكان كل طريق منه كالجبل الشامخ الأشم.

أخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، أن موسى ﷺ لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء، والمُكَوِّنُ لكل شيء، والكائن

(١) «التفسير الكبير» (٢٤/١٣٨).

(٢) لجميع القراء في (فرق) وجهان: تفخيم الراء؛ لوقوع حرف استعلاء بعدها، وترقيقها لأن حرف الاستعلاء مكسور.

بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجًا. فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: كان البحر ساكنًا لا يتحرك، فلما كان لَيْلَةَ ضَرَبَهُ موسى بالعصا، صار يَمُدُّ ويَجْزُرُ[(٢)].

والمدُّ: هو ارتفاع نسبة ماء البحر على الشاطىء.

والجزْرُ: هو انحسار ماء البحر عن الشاطئ. قال تعالى:

٦٤-٦٦- ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾

قرَّب الله فرعون وجنوده هناك عند خليج السويس، فأدنى بعضهم من بعض، حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل، وكان موسى وبنو إسرائيل قد عبروا البحر، وخرج منه آخرهم، ثم وصل فرعون إليهم فرأى البحر يبسًا، والماء متجمدًا، والطريق ممهدة، فقال: لألْحقنَّ بعدوي فأقتله.

ولما رأى موسى أن فرعون وجنوده قد نزلوا البحر وراءهم، أراد أن يضربه بعصاه ليعود كما كان، فقال الله تعالى له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ اتركه ساكنًا كما هو ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] فانطبق البحر عليهم.

وكان فرعون قد تخوَّف من إيلاج البحر حين هاجت الرياح، وارتفعت الأمواج كالجبال، فأراد الله تعالى أن يرغبهم في دخول البحر حتى يلقى فرعون جزاءه، فأرسل الله جبريل على فرسه ليدخلَ البحر أمامهم، فلحقوه، ولذلك يقول رب العالمين: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: قرَّبنا فرعون وملأه من البحر حتى لا ينجو منهم أحد، فاقتحموه وهو على حاله اثنا عشر طريقًا يبسًا، ولما تكامل جند فرعون في البحر وهو في مقدمتهم انطبق عليهم البحر.

ولَفَظ فرعون أنفاسه بين الماء والطين، وانتهت قصة ألوهية كاذبة.

ولأنه قد آمن بلسانه في وقت (الغرغرة) أنجى الله جثته؛ لتكون آية وعبرة على مدى التاريخ لمن يدَّعي الألوهية أو الربوبية، وهو (منفتاح بن رمسيس الثاني)، وكان بعض

---

(١)، (٢) ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٧١).

أصحاب موسى قالوا: إن فرعون لم يغرق، فنبذ الله جثته على ساحل البحر حتى نظروا إليه، ولنا عبرة معاصرة في (شارون) رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق، فقد مضى عليه عدة أعوام وحتى هذه اللحظة، في ربيع الآخر عام ١٤٣١هـ وهو جثة هامدة مكبلة في الأجهزة الطبية، فاقد الوعي والإحساس، ميِّت دماغيًّا، وقد جعله الله عبرة وعظة لغيره، جَرَّاءَ ما فعل بأهل فلسطين وغيرهم من القتل والتشريد، وجَرّاء ما دنّس بأقدامه أرض المسجد الأقصى متحديا العرب والمسلمين، وصدق عليه ما قاله الله تعالى عن فرعون: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

وأنجى الله موسى ومن معه من الغرق، ومِنْ لِحاق فرعون بهم، بقدرته تعالى وحكمته، فاستمر البحر على انفلاقه حتى عبروا إلى البر.

وأغرق الله فرعون وقومه، وذلك أنهم لما تكاملوا في البحر متبعين موسى ومن معه انطبق البحر عليهم فأغرقهم أجمعين، وكان ذلك في يوم عاشوراء. قال تعالى:

٦٧، ٦٨- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

إن في ذلك الذي قصصناه عليك -يا محمد- لعبرة عجيبة، دالة على قدرة الله تعالى، تدعو إلى الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، ومع ذلك فلم يؤمن من قوم فرعون بما جاء به موسى إلا عدد قليل، مع هذه العلامة الباهرة، حيث لم يؤمن من قوم فرعون إلا زوجه (آسية)، وماشطة آل فرعون، و(حزقيل) مؤمن آل فرعون، وآمنتْ (مريم) العجوز التي دلّت على قبر يوسف عليه السلام.

وإن ربك -أيها الرسول الكريم- لهو الغالب المنتقم من أعدائه، واسع الرحمة بأوليائه.

وبعزته سبحانه أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته - جلَّ شأنه - نجى موسى ومن معه أجمعين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، ووعيد لمن عصاه.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

٦٩-٧١- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

قُدِّمت قصة إبراهيم على قصة نوح في هذه السورة؛ لشدة الشبه بين قوم إبراهيم، ومشركي العرب في عبادة الأصنام، وتمسُّكِهم بضلال آبائهم.

وقوم إبراهيم لم يُسلَّط عليهم من عذاب الدنيا، مثل ما سُلِّط على قوم نوح.

ورسالتا محمد وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- تقومان على الفطرة في الاعتقاد والتشريع، ولم يجعل الله هذه الفطرة في الإنسان ليهملها أو يضيعها، بل ليقيمها ويعمل بها.

والمقصود من القصص هنا: هو أخذ العبرة المستفادة من القصة، بخلاف سورة الأعراف فإنها تعرض لوراثة الأرض، وتتابع الرسل من آدم فما بعده.

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم في سور: البقرة، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، وفي كل منها ما يناسب موضوع السورة وجوَّها.

ففي سور البقرة، وإبراهيم، والحج: تتناول القصة جانب بناء البيت، وإسكان إبراهيم بعض ذريته عنده، والتأذين في الناس بالحج.

وفي سورة الأنعام: يقيم إبراهيم أدلة التوحيد عن طريق التأمل في مشاهد الكون.

وفي سورتي هود والحجر: بشارته بإسحاق، وضيافته للملائكة، وحواره معهم.

وفي سورة مريم: دعوته لأبيه برفق ولين.

وفي سورة الأنبياء: تحطيم الأصنام، وإلقاؤه في النار.

قال الفخر الرازي: ذكر تعالى في أول السورة حُزْنَ النبي ﷺ بسبب كُفْر قومه، ثم ذَكَر قصة موسى؛ ليعْرِف محمد أن مِثْل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم؛ ليعرف محمد أيضًا أن حُزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه؛ لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يَرَى أباه وقومه في النار، وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبيه[1].

وقصة أبي الأنبياء وخليل الرحمن، إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سورة الشعراء،

(١) «التفسير الكبير» (٢٤/ ١٤٢).

تُمثِّل حلقة من حلقات الدعوة إلى الله ﷻ، ومحاورته لقومه في عبادة الأصنام من دون الله سبحانه، حيث يوَجِّه الله ﷻ الخطاب إلى نبيه محمد ﷺ أن يتلو هذه القصة على أهل مكة، الذين يعبدون الأصنام وقت التنزيل، ويتلوها كذلك على أهل الشرك من عبدة الأوثان في كل زمان ومكان في بقاع كثيرة من الأرض.

أي: اقصص -يا رسولنا- على الكافرين، خبر إبراهيم الذي يزعم قومك أنهم ورثته، وأنهم يتّبعونه في شريعته، مع أن إبراهيم بريء منهم ومن شركهم، فما أُرسل إبراهيم ﷺ إلا لنهْي أمثالهم عن الشرك بالله تعالى، فنبأ إبراهيم، أي: قصته في دعوته أباه وقومه إلى توحيد الله تعالى، ولإبراهيم أنباء كثيرة، ولكن هذا النبأ، وهو عبادة قومه للأصنام، من أعجب الأنباء، لأنه يتضمن دعوته قومه، ومحاجته إياهم، لإبطال ما هم عليه من شرك.

وذلك حين قال لأبيه وعشيرته: ما هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله؟ يسألهم إبراهيم ﷺ، وهو يعلم ماذا يعبدون من دون الله، فهو لايسألهم سؤال مستفهم أو مستخبر، وإنما يسألهم ليقررهم بالعبادة التي يعبدونها، ويبيِّن لهم سفاهة عقولهم، ومنهم أبوه وقومه، أي: أهله وعشيرته.

وقوم الرجل هم الذين ينتسبون معه في جدٍّ واحد، ويبدو أن إبراهيم ﷺ دعا أباه أوَّلًا إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام، كما جاء في سورتي: الأنعام ومريم، ثم دعا أباه وعشيرته في ملأ واحد، كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات].

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء]. وفي هذه السورة دعاهما معًا.

وحرف (ما) يفيد الاستفهام، وكلمة ﴿ذَا﴾ تفيد التعجُّب، وتكون بمعنى اسم الموصول، إذا وقعت بعد (ما).

قال قوم إبراهيم مقرين ومعترفين بأنهم يعبدون أصنامًا لا تنفع ولا تضرُّ من دون الله، وبأنهم مقيمون على عبادتها طوال النهار، عاكفون عليها بصفة دائمة، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد أصنامًا، ولكنهم أرادوا التفاخر بعبادة آلهتهم التي ينحتونها ويصنعونها، ثم

يعبدونها، فأرادا إبراهيم عليه السلام أن يُبين لهم عدم استحقاقها للعبادة:

٧٢-٧٤- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ردَّ عليهم إبراهيم: بعد أن أقروا بعبادة الأصنام، مبيِّنًا لهم بطلان وفساد عبادتها؛ ليوقظ غفلتهم، ويؤنبهم، فقال لهم: هل تسمعكم هذه الأصنام إذا دعوتموها ولجأتم إليها؟ هل تستجيب لكم؟ هل تدفع عنكم ضرًّا أو تجلب لكم نفعًا؟ أو تفرج عنكم كربًا، أو تزيل عنكم مكروهًا؟ وقد أراد إبراهيم بهذا أن يفتح باب المناقشة معهم؛ ليثبت لهم أن هذه الأصنام لا تسمع ولا تعقل، ولا تقدم لهم نفعًا إذا هم عبدوها، ولا تصيبهم بضرٌّ إذا هم تركوا عبادتها، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]. وقال سبحانه: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣].

قال قوم إبراهيم وهم مقرون بأن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تجيب: إن هذه الآلهة كما قلتَ يا إبراهيم، لا تسمع ولا تعقل، ولا تنفع ولا تضر، ولهذا لمّا كسّرها إبراهيم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فردّوا عليه قائلين: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أي: أن هذا أمر لا يقبل الشك ولا إشكال فيه، ثم لجؤوا إلى الاحتجاج بتقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ولكنا وجدنا آباءنا يعبدونها ففعلنا مثلهم.

أي: إنهم لَمَّا لم يستطيعوا الإجابة، ولم تكن لهم حجة في عبادتها، قالوا: نحن مُقلِّدون لمن سبقنا. وتقليد الآباء والأجداد إجابة كثير من الناس حين تسألهم لماذا يصنعون الشيء الفلاني، فيقولون: هذا ما وجدنا عليه آباءنا، وهكذا يقول بعض الناس عندما تسألهم: لماذا يطوفون حول المقابر مثلًا؟ لماذا ينذرون لغير الله؟ لماذا يذبحون لغير الله؟ لماذا يدعون غير الله؟ فيكون جوابهم: وجدنا آباءنا هكذا يفعلون فنحن مقلِّدون لهم، ويمضي إبراهيم في حوار قومه، فيُعلن براءته من عبادة أصنامهم، وتوجُّهه بالعبادة إلى الله وحده:

٧٥-٧٧- ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ[1] إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قال إبراهيم متعجبًا من أحوالهم، ومنبهًا لهم على ما يجب معرفته: ما دمتم قد أبصرتم وشاهدتم أنتم ومن سلف من آبائكم الأولين أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فاعلموا أني أبغضها، وأنها عدو لي، وأن رب العالمين هو وليي في الدنيا والآخرة، فهي عبادة باطلة يجب اجتنابها، وإيثار عبادة رب العالمين.

قال إبراهيم: وكل معبود من دون الله أنا عدوه؛ لأنه إذا كان يوم القيامة فإن العابد والمعبود يتنازعان في النار ويختصمان، وكل منهما يُلْقي باللائمة على الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

وكل معبود يتبرأ ممن عبده يوم القيامة، ويكفر بعبادته، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ونظرا لأن بعض أهل الشرك يعبدون الله - سبحانه -، ويشركون معه عبادة الأصنام، فإن إبراهيم قال لقومه: إن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله عدو لي، أي: إنها كالعدوِّ لي، أسند العداوة لنفسه تعريضًا بهم، وهو أبلغ في النصيحة من التصريح، وهذا من قبيل التشبيه البليغ؛ لأن الأصنام لا إدراك لها، فلا توصف بالعداوة، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [فاطر: ٦] أي: عاملوه معاملة العدو.

أما رب العالمين، خالقكم ومالك أمركم، فهو المستحق للعبادة وحده، وهو معبودي بحق، كما قال سبحانه على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال جلَّ شأنه على لسان هود ﷺ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود].

---

(١) فتح ياء الإضافة وصلًا من (عدو لي إلا) نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، والباقون بإسكانها، ومثلها (لأبي إنه).

خَمْسُ خَصَائِصَ لِلْإِلَهِ الْحَقِّ

٧٨- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾

بيَّن إبراهيم ﷺ في هذه الآية وما بعدها صفات الإله الحق المستحق للعبادة دون سواه، مبيِّنًا لهم أن الأصنام لا تفعل شيئًا من هذه الخصائص الإلهية، وأن من لم يتصف بهذه الصفات الخمس لا ينبغي أن يكون إلهًا يُعبَد.

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْخَلْقُ وَالْهِدَايَةُ

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إن الإله هو الذي يخلُق من العدم، والله - سبحانه - قد خلقني وأوجدني، وصورني فأحسن صورتي، وهداني إلى طريق الرشاد، فهو سبحانه قد هداني بمقتضى الفطرة التي أودعها في الإنسان؛ كي يختار الإيمان، ويقترب من الخير، ويبتعد عن الشر.

والله تعالى قد هداني بأن جعل لي: السمع، والبصر، والعقل، أهتدي بها إلى التوحيد، والنور، والهدى، وأترك الشرك والضلال.

وهداني عن طريق الرسل وإنزال الكتب إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فكل هذا من خصائص الإله الحق، فهل آلهتكم متصفة بهذا؟ هل هي تخلق؟ هل هي تهدي؟

الْوَصْفُ الثَّانِي: الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ

٧٩- ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾

والله سبحانه هو الذي هيَّأ لي أسباب الرزق والمعيشة، وأنعم عليَّ بالطعام والشراب، فأنزل المطر وأخرج النبات، وهو القادر على إمساك رزقه إن شاء، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]. والقادر على تجفيف منابع المياه، والذهاب بها ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾ [الملك].

فهل من آلهتكم من يُنزل المطر، ويُخرج النبات؟

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْمَرَضُ وَالشِّفَاءُ

٨٠- ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾

إنه سبحانه هو الذي يشفي ويعافي من المرض، فإذا أصيب العبد بمرض فلا يقدر على شفائه إلا الله، والعبد ينسب المرض إلى نفسه تأدبًا مع الله - سبحانه -، وينسب الشفاء إلى الله - جلَّ شأنه -، كما في هذه الآية، وهو مطالب بالأخذ بأسباب الشفاء.

فهل الأصنام تشفي من المرض، وتفرّج الكرب والغم؟

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ

٨١- ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾

والله - سبحانه - الذي يميتني بعد انقضاء أجلي في الدنيا، ويحييني يوم القيامة للبعث، والحساب، والجزاء، كما بدأ خلْقي من ماء مهين، وأوجدني من العدم.

والإحياء والإماتة من خصائص الإله المستحق للعبادة، ولا يقدر عليهما إلا الله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: غُفْرَانُ الذُّنُوبِ

٨٢- ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

وهو - جلَّ شأنه - الذي أرجو وأطمع أن يغفر لي ذنوبي، ويستر عيوبي يوم الحساب والجزاء حين يجازي العباد بأعمالهم، وفي هذا تعليم للأمة أن يُقروا بذنوبهم ويستغفروا ربهم.

يقول إبراهيم ذلك تواضعًا وهضمًا للنفس، فالأنبياء معصومون من كبار الذنوب، وقد كان النبي ﷺ يستغفر الله تعالى في اليوم الواحد من سبعين إلى مئة مرة.

قيل: إن طلب إبراهيم المغفرة كان بسبب المعاريض الثلاثة التي عرَّض بها إبراهيم ﷺ، وظاهرها الكذب، وليست من باب الكذب، وذلك:

١- حين قال إبراهيم لقومه من عبدة الأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وكان هذا في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه؛ ليستنتج منهم بُطلان عبادة الأصنام فيُقرُّوا ويعترفوا.

ومثل ذلك حين قال لقومه: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

٢- وحين قال وهو يحاور قومه عبدة الكواكب؛ ليأخذ بأيديهم إلى عبادة الواحد الأحد، فقال عن الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦].

٣- وحين قال عن زوجته سارة لطاغية مصر: إنها أختي؛ حتى لا يعتدي عليها.

هذه المعاريض الثلاثة ظاهرها الكذب، وليست كذبًا، بل هي من باب التعريض، وإن في المعاريض مندوحة عن الكذب، ومع ذلك فقد سماها إبراهيم خطيئة، وهذا هو الذي عناه إبراهيم في هذه الآية.

ورد في صحيح مسلم وغيره: عن عائشة -ﷺ- أنها قالت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال عليه الصلاة والسلام: **«لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**[1].

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة -ﷺ- أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: **«يَلْقَى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر غَبَرة وقترة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تُخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي، الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذيخ مُتلطخٍ، فيؤخذ بقوائمه فيُلْقى في النار»**[2].

كأن الله سبحانه صوَّر لإبراهيم أباه آزر في هذه الصورة؛ لأنه كان يصنع الأصنام بيديه، وكان يصورها، ويصدِّرها للناس، وكان يعبدها وينشرها في قومه، فكان هذا مصيره، ولم يشفع له أن ابنه خليل الرحمن، وأبو الأنبياء.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤) والحاكم (٢/ ٤٠٥) والطبري (٢٤/ ٥٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥٠، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩).

وفي هذه الصفات الخمس التي وصف بها إبراهيم ربه دلالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وقد جمعت أصول النعم من أول خلق الإنسان إلى مبعثه بعد مماته، وما يتخلل ذلك من خلْق الإنسان جسدًا وروحًا وعقلًا، وإمداده بما تقوم به حياته من الغذاء والماء، وما يعتريه من المرض والشفاء، فهو وحده الذي يجب إفراده بالعبادة، لأن الأصنام، لا تخلق، ولا تهدي، ولا تُمرض، ولا تَشفى، ولا تُطعم، ولا تَسقى، ولا تُحي ولا تميت، ولا تنفع ولا تضر، ولا تكشف الكروب، ولا تغفر الذنوب.

فهذه أدلة قاطعة لا تعارض فيها، وهي توجب عبادة الله وحده، فأنتم بعبادتكم للأصنام - يا قوم إبراهيم - مشتركون مع آبائكم في الضلال، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠]

إِبْرَاهِيمُ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ بِسِتِّ دَعَوَاتٍ

٨٣، ٨٤- ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾

بعد أن وصف إبراهيم ربه بجليل الصفات، وتضمنت الصفة الخامسة الدعاء بطلب المغفرة من الله تعالى توجه إلى ربه بهذه الدعوات الخمس:

الدَّعْوَةُ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

يا رب، هب لي العلم النافع، والفهم، والحكمة، والنبوة، والرسالة، والحُكْم، والجاه في الدنيا، كي أعرف الحلال من الحرام، وأحكم بالحق بين العباد، وألحقني يوم القيامة بعبادك الصالحين مع إخواني من الأنبياء والمرسلين، الذين رضيت عنهم، ألحقني بهم في الجنة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: **«اللهم الرفيق الأعلى»**[1].

وكما جاء في الحديث عن عبد الله الزُّرقي: **«اللهم توفّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولامفتونين»**[2].

---

(١) من حديث عائشة في البخاري برقم (٤٤٣٥، ٦٥٠٩) ومسلم برقم (٢٤٤٤).

(٢) من حديث طويل عن عبد الله الزُّرقي في «المسند» (٣/ ٤٢٤) برقم (١٥٤٩٢) ورجاله ثقات، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) والنسائي في الكبرى (١٠٤٤٥) والبزار (١٨٠٠) زوائد، والطبراني في الكبير (٤٥٤٩) وابن أبي عاصم في السنة (٣٨١).

الدعوة الثالثة ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾

واجعل لي يا رب ذكرًا حسنًا، وسمعة طيبة، وأثرًا كريمًا في الأمم التي تأتي بعدي بالثناء العطِر، والذكرِ الجميل في الدنيا، إلى يوم لقاك، واجعلني في الآخرة من الصالحين، كما قال تعالى عنه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].

وقد أجاب الله دعاء إبراهيم، فجعل أثره خالدًا، ووهب له من العلم والحكمة، ما جعله من أفضل المرسلين، وألحقه بأخوانه المرسلين، وجعل الأنبياء من ذريته، وعلى رأسهم محمد ﷺ، وقد تم له الثناء الحسن لدى اليهود والنصارى والمسلمين، فإبراهيم أبو الجميع، واليهود يقولون: إبراهيم يهوديٌّ، والنصارى يقولون: إنه نصرانيٌّ، ورب العالمين يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران:].

أي: إنّ الذين اتبعوا إبراهيم على الحنيفية السمحة، دين التوحيد والبراءة من الشرك وأهله.

وما من أحد في الأولين والآخرين إلا وهو يثني على إبراهيم، ويتشرف بالانتساب إليه.

وأنت -أيها المسلم- في كل صلاة تصلي وتسلم وتُبارك على محمد ﷺ، وتُثنِّي، فتصلي وتسلم وتبارك على إبراهيم في كل ركعتين من صلاتك، وهذا ثناء حسن، وذكر جميل، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام. قال تعالى ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات].

الدَّعْوَةُ الرَّابِعَةُ:

٨٥- ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾

واجعلني يا رب، في الآخرة -عندما ألقاك- من عبادك الذين أكرمتهم بدخول الجنة، وأسعدتهم يوم لقائك، ففازوا بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، وقد أجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم، وجعله من ورثة الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

الدَّعْوَةُ الْخَامِسَةُ

٨٦- ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾

واصفح يا رب عن شرك أبي ولا تعاقبه، فقد كان من الضالين عن طريق الهداية وسبيل الرشاد، وكان إبراهيم يطمع في إسلام أبيه، فكان يتألفه ويتودد إليه.

وهذا الدعاء بطلب المغفرة من إبراهيم لآزر، كان قبل أن ينهاه رب العالمين عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. وهذه الموعدة جاء ذِكْرُها حين قال إبراهيم لأبيه مودِّعًا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧]. بعد الحوار الطويل، والنصائح المتوالية، المشحونة بعاطفته نحو أبيه، وهو يناديه مستدرًّا عطفه قائلًا: يا أبت، يا أبت، ثم وعده في النهاية بالاستغفار له، فكان استغفار إبراهيم لأبيه بناء على هذا الوعد.

قال القرطبي: كان أبوه وَعَدَه أن يؤمن به، فلذلك استغفر له، فلمَّا بان له أنه لا يفي تبرأ منه[1].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

الدَّعْوَةُ السَّادِسَةُ

٨٧-٨٩- ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

ويا رب، لا تفضحني، ولا تَخْذُلني، ولا تذلَّني يوم القيامة، يوم تبعث عبادك للحساب، بل استُرني وأجِرْني وتجاوزْ عن تقصيري، وهذا تواضع من إبراهيم عليه السلام، وإلا فقد أثنى الله عليه بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وإذا كان إبراهيم خليل الرحمن يطلب من ربه ألا يفضحه في الآخرة، فما بالكم بنا ونحن الفقراء إلى رب العالمين، وقد أثقلتْنا الذنوب والمعاصي؟

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٤).

وفي هذا اليوم لا ينفع أحد أحدًا، ولا ينفع مال ولا جاه ولا ولد، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم وسلامتها، وصيانتها من الرذائل وقبائح الأقوال والأفعال، ومهما أوتي الإنسان من المال والبنين فإن ذلك لا ينفعه في يوم القيامة، إلا من لقي ربه بقلب مؤمن سليم، أي: خالص من الشرك، والشك، والشقاق، والنفاق؛ فإن هذا هو الذي يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة، والقلب السليم، هو الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، والقلب السليم، متصف بالإخلاص والعلم واليقين وحب الخير، ومحبته تابعة لمحبة الله عز وجل.

آليَّة دعوة إبراهيم لأبيه وقومه:

وهكذا فإن إبراهيم عليه السلام وصَفَ ربه أولًا بما يدلُّ على انفراده سبحانه بالتصرف في هذا الكون، بدءًا بأطوار الخلْق الأول للإنسان، وانتهاءً بالخلْق الثاني وهو البعث.

فذكَر خلْق الجسد، وخلْق العقل، وذكَر الغذاء والماء، وبهما حياة الإنسان والحيوان.

وذكَر ما يعتري الإنسان من المرض والشفاء، وذكَر الموت الذي هو نهاية الحياة الأولى.

وأعقبه بذكر الحياة الثانية، وختم ذلك بِطَمَعِه في مغفرة الله تعالى ورضوانه يوم تزلُّ الأقدام.

ثم أعقب إبراهيم هذه النعم الخمس بسؤاله ربه ستَّ نعمٍ أخرى، ابتدأها بطلب الحكمة والنبوة، وأعقبها بطلب اللحاق بالصالحين في درجة أولي العزم من الرسل، ثم سأله سبحانه الثناء الحسن في الأمم والأجيال المتعاقبة.

وسأل ربه المغفرة لأبيه قبل سؤاله ألا يخزيه يوم القيامة، وليس في دعوات إبراهيم طلب لعَرَض من أعراض الدنيا، ولا صحة البدن.

وقد استجاب الله دعوات إبراهيم عدا سؤاله المغفرة لأبيه، ومنها ما تحقق بعد مئات السنين، فرسالة محمد ﷺ داخلة في دعائه، وقد صرح بهذا الدعاء عقب بنائه للبيت الحرام في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وفي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدء أمرِك؟ قال: **«دعوة**

أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»[١].

مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٩٠، ٩١- ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾

هذا مشهد من مشاهد القيامة، بيَّن ﷻ فيه ما أعدَّه لأهل التوحيد من النعيم المقيم، وما أعدَّه لأهل الشرك من العذاب الأليم في يوم القيامة، ففي أرض المحشر يرى كل فريق مصيره المحتوم، حيث تُقرَّب الجنة للمتقين الذين اجتنبوا الكفر والمعاصي في الدنيا، وأقبلوا على الله بالطاعة، يرونها بأعينهم لتزداد بهجتهم وسرورهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق].

وتظهر النار للكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات]. فالمؤمنون يروْن الجنة فيفرحون ويستبشرون، والغاوون يرون النار أمامهم مكشوفة ظاهرة للعيان، يرونها بأعينهم في أرض المحشر، يؤتى بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها.

والغاوون هم الطغاة الذين ضلُّوا عن الهدى، وتجرؤوا على محارم الله، وكذَّبوا رسله، وهم يسألون يوم القيامة عما كانوا يعبدونهم من دون الله، أين هم؟

٩٢، ٩٣- ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ[٢] ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ويقال لأهل النار يوم القيامة توبيخًا لهم: أين شركاؤكم وأصنامكم التي كنتم تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها تشفع لكم اليوم؟ هل تنفعكم هذه الأصنام في هذا الموقف؟ هل تستجيب لكم، أو تدفع عنكم العذاب؟ هل تنصركم، أو تنتصرون أنتم لأنفسكم؟ الجواب: لا شيء من ذلك، فقد ظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبيان ندمهم، وضل سعيهم:

---

(١) «المسند» (٢٢٢٦١) قال محققوه: صحيح لغيره، لضعف فرج بن فضالة، وأخرجه ابن سعد (١/١٤٨) والطبراني في «الكبير» (٧٧٢٩) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٥)، وأخرجه الطيالسي (١١٤٠).

(٢) انفرد البصري بعدم عدّ (ما كنتم تعبدون) وعدّها غيره آية.

٩٤، ٩٥- ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

هذا بيان ما يحلُّ بالأشقياء يوم القيامة، حيث يُجمعون جميعًا، ويُلْقى بهم في جهنم، العابد والمعبود، ومن زين لهم العبادة من شياطين الإنس والجن.

والكبكبة: هي التدحرج والإلقاء على الرأس، أو على الوجه في النار مرة تلو مرة، فيُقذف بهم في النار، ويُتركُون فيها، ويُكْبكَب في جهنم أيضًا الطغاة الغاوون الذين كانوا سببًا في كفرهم وشركهم، وهم العابدون والمعبودون، فتساقطوا في النار هم وأعوان إبليس الذين حسَّنوا لهم الشر، لم يُفْلِت منهم أحد؛ حيث يُطرح بعضهم على بعض في النار منْكبيِّن على وجوههم.

٩٦-٩٨- ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

هذا اعتراف من أهل النار بخطئهم في عبادة غير الله تعالى؛ حيث يتحاور الضالون والمضلون في النار، وهم يتنازعون فيها، ويقول العابدون للمعبودين: لقد كنا في بُعدٍ واضحٍ عن الحق حين عبدْناكم وسويناكم برب العالمين في استحقاق العبادة، وجعلناكم معادلين ومماثلين له سبحانه فأشركناكم معه، وهذا ندم منهم، ومبالغة في توبيخ أنفسهم، لقد تبين لهم ضلالهم، وأقروا بعدل الله فيهم، حيث سوّوا معبوداتهم برب العالمين في العبادة، مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وهو الذي خلقهم وخلق ما يعبدون، وهذا بدليل قولهم ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهم يعترفون بالرب سبحانه، ولذا فإنهم قالوا:

٩٩-١٠٢- ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

أي ويوم القيامة يقول أهل النار: وما أبعدنا عن رحمة الله، وعن طريق الحق والهدى، وما أوْقَعنَا في طريق الغي والضلال، وهذا المصير السيئ، إلا المجرمون الذين دعُونا إلى عبادة غير الله، من السادة والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي.

فالكافر ليس له شفيع من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا من المؤمنين يشفع له عند

الله؛ لينجو من أهوال هذا اليوم، وليس له صديق حميم مقرب يخلِّصه مما هو فيه، فقد تبرَّأ منهم جميع الخلق لَمَّا عرفوا الحق، وخلَت الساحة ممن يُشْفِق عليهم، أو يَصْدُق في مودته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

ثم إن أهل النار يندمون حين لا ينفع الندم، ويتمنوْن العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم، ويتمنوْن كذلك لو أن لهم رجعة إلى الدنيا مرة ثانية، قائلين: لو رجعنا لآمَنَّا وأحْسَنَّا العمل، فنصير من جملة المؤمنين الناجين، وهيهات هيهات أن يحدث هذا، فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وبهذا تؤذِن القصة بالانتهاء:

١٠٣، ١٠٤- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إن في هذه القصة من خبر إبراهيم وقومه لعبرة وعظة يتَّعظ بها من يتَّعظ، ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام

١٠٥-١٠٧- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

القصص القرآني في سورة (الشعراء) يسير على غير ترتيب الزمن التاريخي؛ لأن المقصود من القصص فيها هو بيان العبرة من الأمم التي كذبت رسلها، سِيَّمَا عاقبة أهل الشرك التي وقعت في كل منها.

وأشد الأمم في الشرك -حسب ترتيب القصص في السورة- هم قوم موسى عليه السلام، فالشرك قد وقع في أمته بعبادة العجل، وبقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وغير ذلك، ولم يزل الشرك قائمًا لدى اليهود إلى اليوم، فهم من أكثر الشعوب في ذلك.

وبعد ذكر بني إسرائيل في السورة يأتي قوم إبراهيم، ثم قوم نوح، وإن كان نوح عليه السلام هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى الخلق، بعدما عُبدت الأصنام في عهده، والناس قبله كانوا على التوحيد فاختلفوا، وكان منهم من أشرك، ومنهم من وحَّد، فأرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين.

وقد ذُكِرتْ قصة نوح في سور: الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، ونوح، بأساليب مختلفة، وذُكِر (نوح) في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعًا.

ومعنى الآية: إن من يكذب رسولًا من رسل الله فقد كذب المرسلين جميعًا؛ لأن كل رسول أُمر بتصديق مَن قبلَه، ولأن الرسل دَعْوتُهم واحدة، فالأصل واحد، وطريقهم واحد، كلهم جاؤوا بالتوحيد، وكلهم يصدق بعضهم بعضًا، وكلهم يأمرون الخلق بعبادة الله وحده، ويأمرونهم بتقوى الله وطاعته.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ولم يقل كذَّبوا رسولهم نوحًا، كأنهم لما كذَّبوا نوحًا كذَّبوا الرسل جميعًا، وكان نوح عليه السلام قد دعاهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا لمدة ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يؤمن به على أوسع الأقوال إلا ثمانون شخصًا في تسع مئة وخمسين عامًا.

ونوح أول المرسلين وأول المكذَّبين، فقد كذَّبوه؛ لكونه رسولًا من البشر، ولأنه عاب أصنامهم، واتبعه ضعاف الناس، وهكذا المكذبون مع كل رسول، فكان تكذيبه تكذيبًا لكل رسول.

وقد كان نوح أخًا لقومه في النسب والعشيرة، فإنه كان منهم، وليس أخاهم في الدين، وقد أمرهم نوح بتقوى الله تعالى ثلاث مرات في هذه القصة من السورة، وحثهم على عبادة الله تعالى وترك عبادة الأصنام، فقال لهم: ألا تتقون الله، فتتركون ما أنتم عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، ألا تخشون عقاب الله إياكم على أن جعلْتم معه شركاء، وهو الذي خلقكم ورزقكم، فَأَخْلِصُوا له الطاعة والعبادة، واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بامتثال أمره واجتناب نهيه.

وكان نوح مشتهرًا بين أهله وعشيرته بالصدق والأمانة، فهم يعرفون حسبه ونسبه ونشأته بينهم، وأنه أمين على تبليغ الوحي، ناصح لهم مما هم فيه من عبادة الأصنام، فهو موصوف بينهم بالأمانة، غير متهم في قومه بالخيانة أو الكذب أو غيرهما، كما كان النبي ﷺ موصوفًا في قومه بالصادق الأمين، وكون نوح كان أمينًا فإن هذا يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد ولا ينقص في الوحي، وهذا يوجب الإيمان به عليه السلام. قال لهم نوح:

١٠٨-١١٠- ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ[1] إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

أكدَّ نوح أمر قومه بالتقوى والطاعة قائلًا لهم: اجعلوا الإيمان وقاية لكم من عذاب الله، وأطيعوني فيما آمركم به من عبادة الله وحده؛ وأنهاكم عنه من عبادة الأوثان، وهذا التأكيد لأنه توقَّع عدم الاستجابة منهم لِمَا أمرهم به من تقوى الله تعالى وخشيته.

وقد ذَكر نوح لقومه أنه لا يسألهم على تبليغ الدعوة أجرًا، إنما أجره على رب العالمين، وهذا شأن رسل الله جميعًا، لا يطلبون أجرًا من الناس على رسالتهم، وإنما يبتغون المثوبة من الله تعالى.

ثم أمر نوح قومه مرة ثالثة بتقوى الله تعالى، وقد كرر نوح ذلك، لطول مكثه في قومه، وتكرار دعوته لهم ليلا ونهارا وسرا وجهارا، فلابد إذن أن يعاود نصيحتهم بين الحين والآخر، فقال لهم: احذروا عقاب الله، وأطيعوه بامتثال أمره واجتناب نهيه.

وهكذا حثهم على تقوى الله تعالى **أولًا** بعد أن بيَّن لهم أنه أخوهم، فكأنه يقول: ألا تتقون الله في مخالفتي، وأنا واحد منكم، ورسول الله إليكم؟ وهذا في الآية السادسة بعد المئة.

ثم أمرهم **ثانيًا** بالتقوى بعد أن بيَّن لهم أنه أمين على الرسالة والتبليغ كما هو معروف عنه لديهم، وذلك في الآية الثامنة بعد المئة.

ثم أمرهم **ثالثًا** بالتقوى بعد أن بيَّن لهم تعففه عن أخذ الأجر منهم مقابل الدعوة، وتصريحه بأن أجره من الله وليس منهم، وذلك في الآية العاشرة بعد المئة.

فيكون نوح قد افتتح دعوته لقومه بأمْرِه لهم بتقوى الله تعالى، ثم علل لذلك بأنه أمين على وحي الله سبحانه.

ثم عاد فأمرهم بالتقوى، وعلل لذلك بأنه لا يطلب منهم أجرًا.

ثم أتى في آخر كلامه بالنتيجة المطلوبة من دعوته لهم وهي تقوى الله تعالى، فليس هذا

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أجريَ إلا)، والباقون بإسكانها، وهكذا بقية المواضع في السورة.

من باب التكرار، وإنما لكل منها موقعه ومعناه الذي لا غنى عنه في أسلوب الترغيب والترهيب، و هنا رد عليه قومه معارضين دعوته:

١١١ ، ١١٢- ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ[١] ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

وبعد دعوة نوح لقومه، وبيان شدة حرصه على هدايتهم، وتحذيرهم من عقاب الله تعالى إن لم يستجيبوا لدعوته، تبيِّن هاتان الآيتان وما بعدهما ما دار بين نوح وقومه من حوار وجدال، فماذا كان موقف القوم وردهم على نوح عليه السلام؟

قال الأشراف والكبار من قوم نوح: كيف نصدقك ونتبعك، وضعاف الناس وفقراؤهم من أهل الحرف والصناعات الدنيئة -ويسمونهم أراذل، أي: أسافل الناس- هم الذين اتبعوك؟ فكيف نجلس معهم في مجلس واحد؟ يقولون ذلك من باب التعالي والكبرياء، ويبدو أن مسألة الطبقية، واحتقار القوي للضعيف، واحتقار الغني للفقير، واحتقار الأمم القوية للأمم النامية، يبدو أن هذا أمر قديم!

قال نوح لقومه مستنكرًا وصْف أتباعه بالأراذل: إنَّ صناعتهم وحرفتهم، وضعفهم وفقرهم أمر آخر، لستُ مكلَّفًا به، ولا مسؤولًا عنه، فإن خفاياهم وظواهرهم عند رب العالمين، والميزان عند الله تعالى ليس: بالصنعة، ولا بالحرفة، ولا بالثراء، ولا بالفقر، ولا بالقوة، ولا بالضعف، إنما هو بالتقوى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]، فأنا لا أهتم إلا بإيمانهم، ولا أعتني بظواهرهم وأعمالهم الدنيوية، ثم إن حجتهم هذه لا تصلح للمعارضة، إذ أن هؤلاء الذين تصفونهم بالأراذل، هم أرجحكم عقلًا وأفضلكم خُلقًا، فهم قد عبدوا الواحد القهار، أما أنتم فاستحسنتم عبادة الحجارة، ورضيتم بالسجود لها، فمن هم الأراذل؟ ومن هم السفهاء، أنتم أم هم؟ قال نوح عليه السلام:

١١٣-١١٥- ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠[٢]

---

(١) قرأ يعقوب (وأتباعك) جمع تابع، وهو مبتدأ، والأرذلون خبر، والجملة حال من الكاف، وقرأ الباقون (واتَّبعك) فعل ماض، والأرذلون فاعل، والجملة حال من الكاف أيضًا.

(٢) قرأ قالون بخلف عنه بإثبات ألف (أنا) وصلًا، فيصير من قبيل المد المنفصل، والباقون بحذفها، وهو الوجه الثاني لقالون، وفي حالة الوقف تثبت الألف لجميع القراء.

﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

قال نوح لأشراف قومه عن الضعفاء منهم: وأنا مُكلَّف بدعوتهم إلى الله سبحانه، والاهتمام بما يصدُر عنهم من إيمان، ولستُ مهتمًّا بالحسب والنسب، ولا بالحِرَف والمهن، وأمرهم إلى الله، فهو الذي يعلم نواياهم وضمائرهم، وهو الذي يحاسبهم ويجازيهم، فهو المطلع على سرائرهم وظواهرهم، ولو كنتم تعلمون ذلك ما قلتم هذا الكلام، وهذا كقول النبي محمد ﷺ: **«فإن قالوها -أي: لا إله إلا الله- عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[1].

قال نوح: ولست بطارد هؤلاء المؤمنين الفقراء عن مجلسي، وهم الذين اتبعوني من ضعفاء الناس، ممن أَنِفْتُم أن تجلسوا معهم، فأنا لست بطاردهم، وحسابهم على الله، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤] فهو الذي يكافئهم ويجازيهم، وأنا رسول الله لكم جميعًا أخوفكم بأس الله وعقابه، فمن أطاع الله فقد نجا، وليس هناك فرق بين غني وفقير، ولا كبير وصغير، وهكذا طلب مشركو مكة من رسول الله ﷺ أن يطرد عن مجلسه ضعفاء المسلمين: كصهيب، وبلال، وعمار، وخباب، والفقراء في كل أمة يسارعون إلى اتباع الرسل؛ لأنهم يلتمسون لديهم الإنصاف والكرامة، وهذا لا يعجب كبار القوم ويصادم سطوتهم وتسلطهم.

١١٦، ١١٧- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾

عدل قوم نوح عن الحوار معه، ولجؤوا إلى القوة والتهديد، وهذا شأن الطغاة حين تنقطع بهم الحجة فإنهم يلجؤون إلى: البطش من الضرب، والسجن، والقتل، قالوا: لئن لم تنته يا نوح، وترجع عن دعوتك لنا لتكونن من المقتولين رميًا بالحجارة.

لجأ نوح إلى ربه بعد أن سمع منهم ما يدلُّ على رسوخهم في الكفر والضلال، وبعد أن هدَّدوه بالقتل رجمًا بالحجارة، وعندئذ فقَد نوح الأمل في استمالتهم إلى الإيمان، فقال: يا ربِّ، إن قومي استمروا في تكذيبي، وأصروا على ذلك قرونًا متطاولة، فقد لبثتُ فيهم

---

(١) الحديث عن ابن عمر في البخاري (٢٥) بلفظ (فإذا فعلوا ذلك) ومسلم (٢١، ٢٢) وغيرهما وهو في مشكاة المصابيح (١٢) وغيرها.

ألف سنة إلا خمسين عامًا، أدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، فلم يزدهم ذلك إلا عُتُوًّا واستكبارًا:

١١٨- ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ[1] مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

لم يكن لنوح ﷺ بعد أن أعذر قومه، وبشَّر وأنذر إلا أن يرجع إلى ربه، ويطلب منه أن يفتح بينه وبينهم فتحًا لا استغلاق بعده، فينتصر لعباده الصالحين، ويُخزي أعداءه المستكبرين، فقد لجأ إلى ربه قائلًا: اقضِ بيني وبينهم يا رب العالمين بقدرتك العادلة، واحكم بيني وبينهم حُكْمًا تُهلِك به من جَحَد توحيدك وكذَّب رسولك، وافصل بيني وبينهم بالحق.

فدعا نوح ربه قائلًا: ربِّ إني مغلوب فانتصر لي يا ألله، فنصَره رب العالمين، وأمره أن يصنع السفينة ويركب فيها هو ومن معه، وأنجى الله نوحًا ومن آمن معه، وأنقذه من كيدهم ومكرهم استجابة لدعوته، وأغرق الله الظالمين، وكان هذا عبرة إلى يوم الدين، قال تعالى:

١١٩، ١٢٠- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: فأنجينا نوحًا ومن معه في السفينة المملوءة بصنوف المخلوقات التي حملها من: الرجال والنساء والحيوان والطيور والوحوش، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت].

وبعد نجاة نوح ومن آمن به، أغرق الله الباقين الذين ردُّوا عليه النصيحة، ولم يؤمنوا به من الذين كذَّبوا نبي الله نوحًا ﷺ. قال تعالى في نهاية القصة:

١٢١، ١٢٢- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إن في هذه القصة، وما تشتمل عليه من نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين، لَعلامة وعبرة -وأي عبرة- للبشر على مدى التاريخ.

لقد آمن بنوح قلة قليلة على مدى ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأكثر قومه لم يكونوا من المؤمنين، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]. فما أصبر الدعاة إلى الله!!.

---

(١) قرأ ورش وحفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ومن معيَ)، والباقون بإسكانها.

وإن ربك هو الغالب على أمره، المنتقم ممن كفر به وخالف حكمه، وهو سبحانه رحيم بعباده المؤمنين، ورحيم بالتائبين فلا يعاقبهم بعد توبتهم، ولا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ هُودٍ عليه السلام

١٢٣-١٢٥- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

أرسل الله هودًا عليه السلام إلى قوم (عاد)، وعاد اسم لجدِّهم، وقد سميت القبيلة باسمه، وكانوا قومًا يسكنون (الأحقاف)، وهي جبال رملية في الربع الخالي قرب حضرموت، وهم أول من عبد أصنامًا ثلاثة بعد قوم نوح، فأرسل الله تعالى إليهم نبيهم هودًا عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه.

وقد جاءت قصة هود في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، وفصلت، والأحقاف، والقمر، والذاريات.

وينتهي نسب هود إلى نوح عليهما السلام، وهو ممن أُرسل في جزيرة العرب: كصالح، وشعيب، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد بيَّن سبحانه أن قبيلة عاد كذَّبوا رسولهم هودًا، وأن من كذَّب رسولًا واحدًا من رسل الله فقد كذَّب الرسل جميعًا؛ لاتحاد دعوتهم في أصولها وغايتها.

افتتح هود دعوته لقومه بحضِّهم على عبادة الله تعالى، وإخلاص العبادة له، وكان هود أخًا لهم في النسب لا في الدين، فقال لهم: ألا تخشون الله، وتخافون عقابه وانتقامه منكم لأنكم عبدتم غيره؟

بيَّن هود عليه السلام لقومه أنه مرسل من الله تعالى لهدايتهم وإرشادهم، وهو حفيظ وأمين على رسالة الله تعالى، يبلغها لهم كما أمره ربه، لا يكذب عليهم ولا يخدعهم، فهو لهم ناصح وأمين على تبليغ الوحي من ربه، ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته:

١٢٦، ١٢٧- ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

أي قال نوح لهم: فخافوا يا قوم، عقاب الله يوم لقائه، وأطيعوني واتبعوا دعوتي، وما جئتكم به من عند الله تعالى، وأخلصوا له الطاعة والعبادة.

وأنا لا أسألكم مالًا ولا جاهًا على تبليغ الدعوة، ولا أطلب منكم غير توحيد الله - سبحانه -، فليس لي هدف مادي، ولا أدبي أسعى إليه من وراء دعوتي لكم.

وقد تكررت هذه الآية في كل قصة من قصص السورة؛ للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة، وهدفهم واحد، وغايتهم واحدة.

ثم وصف هود قومه بثلاثة أوصاف، كما جاء في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ:

١٢٨-١٣٠- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

كان قوم عاد: طوال الأجسام، أقوياء وأشداء، عضلاتهم مفتولة، وصحتهم قوية، وكانوا إلى جوار ذلك أهل دَهاء وذكاء، وقد أعطاهم الله أموالًا فأساؤوا استخدامها.

وهذه الآية وما بعدها، تذكُر الجديد في هذه السورة، من قصة هود عليه السلام، بعد دعوته لهم بتقوى الله تعالى وإخلاص العبادة له، وهذا الجديد هو بناء ما يشبه في العصر الحاضر، ناطحات السحاب، وأنهم كانوا يتطاولون في البنيان، ويَسْعَوْن وراء شهواتهم، ويَنْسَوْن ربهم، وقد أبطرهم التفوق المادي والأدبي ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فاستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه.

وهكذا يفعل طغاة العصر، فيقولون جهارًا نهارًا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟! ويُقلِّمون أظافر كل قُوَّة بإجهاضها في مهدها؛ حتى ينفردوا بما في الأرض، وكل مَن خرج عليهم يجب اجتثاثه، وعلى: وسائل الإعلام، ومناهج التعليم، والمؤتمرات الدولية، والسياسة العامة أن تسير في هذا الإطار، وإلا فالعقاب في انتظارها، ومن لم يكن معهم فهو ضدهم، ولا ينبغي أن تكون هناك ترسانة نووية لغيرهم، ومن نبغ في علم الذرة ونحوها يجب اغتياله.

وقد وصف الله تعالى قوم عاد في هذه الآيات الثلاث **بثلاثة أوصاف**:

الوصف الأول: أنهم كانوا يبنون المباني المرتفعة: كأبراج الحمام، والقصور المشيدة، والحصون المنيعة، وأحواض المياه، والسدود، يبنون في كل مرتفع من الأرض بناء شامخًا لم يُخلق مثله في البلاد، وهذا البناء لا يُقصد به منفعة الناس، وإنما هو للعبث واللهو، فكانوا يُشْرِفون على الناس من هذا البناء المرتفع، فيسْخَرُون منهم، ويؤذونهم،

كما قال رب العالمين: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: بكل مرتفع من الأرض، وكل جبل شاهق، بناء عاليًا ﴿ءَايَةً﴾ في البناء الشامخ المرتفع على الطرق الواسعة، والميادين الفسحية العامة التي يتنافس البشر على البنيان فيها، لا لمنفعة الناس، وإنما للعبث والإسراف وإظهار القوة، حيث ﴿تَعْبَثُونَ﴾ وتسْخرُون بالمارة، ولا تعود عليكم منه فائدة في الدنيا ولا في الدين، وإنما هو للترف والطغيان، واللهو واللعب، وهذا تضييع للأموال، وإتعاب للأبدان، واشتغال بما لا يُجدي ولا ينفع، وفيه تبديد للأموال والطاقات.

الوصف الثاني: أنهم يقيمون المصانع للكبْر والتفاخر، قيل عن هذه المصانع: هي قصور مشيدة، وحصون منيعة، وقيل: هي حياض أو صهاريج للمياه، كالخزانات والسدود العالية.

وهذه المصانع ليست لفائدة الناس، وإنما هي للكبر وللتفاخر، وكأنهم يعتقدون أنهم مخلَّدون في الدنيا ولا يموتون.

لقد كان قوم عاد مشركين بالله، كافرين به، معرضين عن الدار الآخرة، والنظر في العاقبة، منصرفين عن عبادة الله تعالى، منغمسين في الشهوات والتعاظم على الناس، والتفاخر بما هم عليه من حضارة مادية، مشغولين بما هم عليه من اللهو واللعب، قد بلغوا مبلغًا كبيرًا من البأس، والتغلُّب على العباد والبلاد، فطال عليهم الأمد، واشتد غرورهم، فأرضَوْا أهواءهم، وأقبلوا على ملذاتهم، وأضاعوا جانب العقل والروح وزكاة النفس، فعبدوا الأصنام، ووبَّخوا مَنْ نصحهم، ونبذوا شرع الله، وكذَّبوا رسله.

والحضارة المادية التي شيدوها جديرة بالثناء العاجل، والثواب الآجل، لو أُريد بها وجه الله ونفع العباد، ولكنها خلَتْ من المقاصد الحسنة، وأُريد بها الخلود في الدنيا.

والوصف الثالث: أنهم إذا بطشوا بغيرهم انتقموا منهم وأهانوهم، وتسلَّطوا عليهم ظلمًا وعدوانًا بغير حق، فهم قساة، جبابرة، شأنهم شأن القوة الوحيدة في الأرض في عالم اليوم، مع بُعد الزمان والمكان، إذا حاربوا أهلكوا الحرث والنسل، وإذا خاصموا لم يبالوا بما يلْقون من ذلٍّ وهوان.

وهود ﷺ لم ينكر على قومه مجرد اتخاذ المباني، والقصور العالية، وحفظ المياه في

السدود، ونحو ذلك من الحضارة المادية، وإنما أنكر عليهم جبروتهم وطغيانهم، ونسيانهم الموت، والتعالي على الناس، والعبث بتلك المباني، والبطش والتسلط على مَن هم دونهم في القوة.

وهذا هو شأن المحتلِّين في زماننا، ممن يتسلَّطون على الشعوب، فيسْلبونهم أرضهم وديارهم، ويسومونهم سوء العذاب.

وهذا الوصف لقوم عاد يتمثل في كل زمان ومكان بالذين يبْنون الأبراج العالية، وناطحات السحاب، وهم مقطوعو الصلة بالله ﷻ، لا يقصدون نفع الناس، وإذا ظفروا بغيرهم بطشوا بهم بطش الجبابرة، قتلًا وضربًا وأخذ أموال، فيتَّموا الأطفال، ورمَّلوا النساء، وهتكوا الحرمات.

قال الفخر الرازي: وصفهم ربنا بثلاثة أوصاف: اتخاذ الأبنية العالية، وهو يدلُّ على السرَف، وحب العلو.

واتخاذ المصانع -القصور المشيدة والحصون- وهو يدلُّ على حب البقاء، والخلود، والجباريَّة، وهي تدلُّ على حب التفرد بالعلوِّ.

وكل ذلك يشير إلى أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه، حتى خرجوا عن حد العبودية، وحاموا حول ادعاء الربوبية، وحب الدنيا رأس كل خطيئة[1].

وقوم عاد هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال سبحانه ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وقد غضب الله على قوم عاد وأشباههم ممن جهلوا حق الله عليهم، فنسوا لقاءه، وتجرؤوا عليه، وتطاولوا على خلق الله سبحانه، فنهاهم عن ذلك هود ﷺ وقال لهم:

١٣١-١٣٤- ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾

(١) يُنظَر: «التفسير الكبير» (١٢٤/١٥٧).

ذكَّرهم هود ﷺ بتقوى الله تعالى، وخوَّفهم من عذابه، وحذَّرهم عاقبة طغيانهم، ورغَّبهم ورهَّبهم، وقال لهم: خافوا الله، وامتثلوا أمره فإنه أنفع لكم.

وفي الآية الثانية والثلاثين بعد المئة تذكير لقوم هود بنعم الله تعالى عليهم على وجه الإجمال؛ حيث ذكَّرهم الله سبحانه بكل نعمة يعرفونها.

فاخشوا الله -أيها الناس- الذي أمدكم بهذه النعم التي تعلمونها، مما هو بين أيديكم من النعم التي لا تحصى.

وفي الآية الثالثة والثلاثين بعد المئة وما بعدها، ذكَّر الله تعالى قوم عاد بنعم أربع على وجه الخصوص، أعطاكم الله إياها يا قوم عاد، وهذه إشارة مجملة إلى هذه النعم:

أربع من نعم الله على قوم عاد:

١- الأنعام من الإبل، والبقر، والغنم، وكانت الأنعام، هي أنفَس الأموال لديهم.

٢- وأعطاكم الأولاد، فمتَّعكم بالبنين والبنات؛ ليكونوا لكم عزة وقوة، وقرة عين في الدنيا.

٣- وأعطاكم البساتين المثمرة بما فيها من: زروع، ونخيل، ونبات، وفواكه، وأشجار، متاعًا لكم ولأنعامكم.

٤- وفجَّر لكم الماء العذب من العيون الجارية لنفعكم وقوام حياتكم.

فقد أعطاكم الله - سبحانه - أصول الخيرات، وأغدق عليكم ما لا يُحصى من النعم، فهو الذي يجب أن يُعبد ويُحمد، ويُشكر ولا يُكفر.

ثم ذكَّر هود ﷺ قوم عاد بحلول عذاب الله تعالى بهم إن لم يؤمنوا، فقال:

١٣٥، ١٣٦- ﴿إِنِّيٓ[1] أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

ختم هود ﷺ إرشاده لقومه، ببيان أنه حريص على مصلحتهم، وأنه يخشى عليهم -إن لم يؤمنوا- عذاب الله في يوم تشتدُّ أهواله، فلا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إنيَ أخاف)، والباقون بإسكانها.

متاعُهم، فقال لهم: إني أخشى وأخاف عليكم العذاب يوم لقاء رب العالمين، إن بقيتم على إصراركم، واستمرَّيتم على كُفركم وبَغْيكم.

فما كان من قوم عاد إلا أن قالوا لنبيهم هود: سواء أوعظت أم لم تعظ، فإن كلامك من التخويف وعدمه يستوي، فلن نؤمن لك، ولن نتبعك، ولا فائدة فيما تقول، وقد سَمُّوا كلامه وعظًا استخفافًا بما خوفهم به؛ حيث لم يعتقدوا صحته، وقالوا: إنه كاذب في دعواه. كما قالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود]. واتهموه بالسفه والجنون، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. فلا جدوى في وعظك وتذكيرك إيانا، فإننا لا نبالي بما تقول، ولن نترك ما نحن عليه، فنحن لا نعتقد صحة ما جئت به، وأنت كاذب فيما تدَّعيه.

وهذا الكلام غاية في العُتوِّ، حيث بلغت بهم الحال إلى أن مواعظ الله تعالى التي تذيب الجبال، وتتصدع لها الأفئدة، وجودها وعدمها سواء، ثم أضافوا قائلين:

١٣٧، ١٣٨- ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ[١] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

إنَّ ما نحن عليه من التطاول في البنيان، واتخاذ القصور المشيدة، ما هو إلا حال آبائنا الأولين، ومنهج حياتهم، ونحن على آثارهم سائرون، وما تأمرنا به كذب وخرافات، هو من افترائك وادعائك.

ثم تمادى قوم عاد في غرورهم، فقالوا لنبيهم هود: إننا لن نعذَّب على هذه الأعمال التي نعملُها، والتي حذَّرتنا منها؛ فليس هناك بعث، ولا حساب، ولاجزاء كما تقول. وكأنهم بهذا يضْمَنون لأنفسهم النجاة من العذاب، وفي هذا تهكم بنبيهم، وإنكار للبعث، وادعاءُ أنهم لو بُعثوا - جدلاً - فإن نعم الدنيا ستكون معهم في الآخرة. قال تعالى مبينًا عقوبة تكذيب الرسل:

١٣٩، ١٤٠- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف بضم الخاء واللام من (خُلُق) بمعنى: العادة، وقرأ الباقون بفتح الخاء وسكون اللام، بمعنى: الكذب والاختلاق.

ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

لقد كان عقاب الله تعالى لقوم عاد سريعًا وحاسمًا؛ لتكذيبهم نبي الله هودًا عليه السلام، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة]. فلم تنفعهم أموالهم، ولا أولادهم، ولا حضارتهم، ولا قوَّتهم، حين قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ ولم يعترفوا أن رب العالمين هو أشد منهم قوة.

وقد كان عذابهم وهلاكهم من جنس ما تفاخروا به؛ حيث سلَّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد، فكان إهلاكهم بالريح الشديدةِ الهبوب، ذات البرد القارس، تقتلع الرجل من فوق الأرض، وترْفَعُه في الهواء، ثم تُنكِّسه على أم رأسه، فتشدَخ رأسه ودماغه، وكان هلاكهم بما هو أشد من عتوهم؛ حيث أرسل الله عليهم الريح الصرصر العاتية، سبع ليال وثمانية أيام ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت]. وهي الريح العقيم التي قال الله فيها: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات]. وهي ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وفي هذا الهلاك عبرة وعظة لمن جاء بعدهم، وأكثرُ قوم هود لم يؤمنوا، مع رؤيتهم للآيات الظاهرات، الدالة على رسالته لهم.

وربك هو الغالب على أمره، لا يفلت من يده ظالم، ولا يعجزه متكبر، وهو سبحانه رحيم بالناس في عقوبتهم، لطيف بهم في معاملتهم، وسعت رحمته كل شيء، وسبق غضبه رحمته.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ عليه السلام

١٤١-١٤٤- ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

ذُكرت قصة صالح مع قومه في سور: الأعراف، وهود، والنمل، والقمر، وقد أرسله الله تعالى لقوم ثمود، والثمد: هو الماء القليل. وكانوا قومًا يعبدون الأصنام، وديارهم تقع بين المدينة والشام، تسمَّى بالحِجْر، وهي معروفة بمدائن صالح، وقد مرَّ عليها النبي

ﷺ وهو في طريقه إلى غزوة تبوك.

وقد أرسل الله صالحًا إلى قوم ثمود، وهو أخوهم في النسب من قبيلتهم، فأمرهم صالح ﷺ بتوحيد الله تعالى، ونهاهم عن عبادة الأصنام؛ فكذَّبوه في رسالته ودعوته إلى توحيد الله - جلَّ شأنه -، فكانوا بهذا مكذبين لجميع رسل الله تعالى؛ لأنهم جميعًا يدعون إلى التوحيد.

وقد وعظ صالح قومه بما وعظ به هود قومه فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] كما أن هودًا نصح قومه بما نصح به نوح قومه، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال صالح لقومه: ألا تخشون عقاب الله وانتقامه منكم إن عبدتم غير الله، ولم تُفْردوه بالعبادة؟ فيا قوم، إني مرسل إليكم من عند الله، حفيظ على تبليغ هذه الرسالة كما تلقيتها عن الله، وكان صالح معروفًا عند قومه بالأمانة؛ لأن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا وهو معروف بالفضائل، وقد دلَّ على هذا ما جاء في سورة هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] أي: أن صالحًا قد اختلف - في زعمهم- عما كان يعرفه عنه قومه قبل أن يكون رسولًا.

فاحذروا عقاب الله، - يا قوم - وامتثلوا دعوتي إليكم فيما جئتكم به من عند الله، فأنا لم أطلب منكم أجرا على دعوتي لكم حتى يمنعكم ذلك من اتباعي، ولا أطلب الثواب إلا من الله:

١٤٥- ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول نبي الله صالح ﷺ لقومه: إني لا أطلب منكم أيَّ جزاء على نُصْحي وإرشادي لكم، وما جزائي إلا على الله، فهو الذي كلفني بذلك، وهو الذي يكافئني عليه.

وقد ذُكرتْ هذه الآية في نهاية كل قصة؛ للتنبيه على وحدة الهدف، ووحدة الغاية في رسالة الرسل جميعًا. ثم حذرهم صالح ﷺ من عدم شكر نعم الله تعالى عليهم فقال:

١٤٦-١٤٩ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا

هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ[١] ﴿١٤٩﴾ ﴾

أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سُدًى، دون أن تُؤمَرُوا وتُنْهَوْا؟ وأنتم تستعينون بهذه النعم على معاصي الله، إن هذا لن يكون، فاتقو الله واستجيبوا لدعوتي لكم، ولا تسيروا في ركاب المفسدين في الأرض، حتى تكونوا من الناجين يوم لقاء رب العالمين.

كان قوم ثمود قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى، وأنكروا البعث والنشور، فأرسل الله إليهم نبيه صالحًا ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء، فوعظهم بما يرقق قلوبهم، ويحملهم على شكر نعم الله عليهم.

فقد كانت أرض ثمود كثيرة البساتين، والماء، والنخل، فذكَّرهم صالح ﷺ بنعم الله الجليلة عليهم، من إنبات البساتين والجنات، وتفجير العيون الجاريات، وإخراج الزروع والثمار.

وقد وبَّخهم صالح ﷺ على إعراضهم عن عبادة الله تعالى، وإنكار البعث والنشور، وعدم شكرهم نعم الله عليهم، فقوم ثمود يُشْبِهون قوم عاد في بعض حالات التمتع بالحضارة والنعيم في الدنيا، فقد كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا فارهين، وأعطاهم الله زرُوعًا ونخلًا طلعها مثمر.

فكأن الله ﷻ يقول لهم: أتظنون أن الله تارككم فيما أنتم فيه من نعيم في الدنيا تتقلَّبون فيه صباح مساء، مع عدم إيمانكم بأن هناك بعثًا ولاحسابًا ولاجزاء يوم لقاء رب العالمين، فهل يترككم ربكم على ما أنتم عليه من استقرار ومتاع في الدنيا، ومأمن من العذاب والزوال، كأنكم باقون مخلّدون فيها، وقد تحقق لكم الأمن ورفاهية العيش، والتمتع في حدائق مثمرة، وعيون جارية، وزروع كثيرة، ونخل ثمرها يانع لين ناضج.

وإلى جوار ما سبق فأنتم ماهرون في نحت البيوت في الصخر، مع الإسراف والبطر والأشر، وعدم الشكر لأنعم الله عليكم.

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بإثبات ألف بعد الفاء من (فارهين) اسم فاعل، بمعنى: حاذقين. والباقون بدون ألف، صفة مشبهة، بمعنى: شرهين.

قال الفخر الرازي: وظاهر هذه الآيات يدلُّ على أن الغالب على قوم هود، هو اللذات الخياليَّة، وهي الاستعلاء، والبقاء، والتجبُّر.

والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسيَّة، وهي طلب المأكول، والمشروب، والمساكن الطيبة[1].

١٥٠- - ١٥٢- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

أي: فخافوا عقاب الله -أيها القوم- واقبلوا نُصْحي، بصفتي رسول الله إليكم، ولا تنقادوا لأمر من أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي، فأشركوا معه غيره، وعاثوا في الأرض فسادًا.

ولا تطيعوا أمر المشركين الكافرين، ومنهم التسعة الذين عقروا الناقة، وهم الرهط الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] وعلى رأسهم (قُدار بن سالف) الذي عقر ناقة صالح عليه السلام ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وبعد أن نهاهم الله - سبحانه - عن طاعة المسرفين، وصفهم بأنهم قوم متمادون في المعصية، دائمون على الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح فيها، وهم غالبًا أئمة الضلال وأساطين الكفر. والمراد بهم هنا: الملأ والأشراف من قوم ثمود، وهكذا لم يُفد الوعظ والإرشاد فيهم، فاتهموا نبيهم بالسحر، وطلبوا منه آية خارقة تدل على أنه رسول من عند الله، فالبشر لا يكونون رسلاً - على حد زعمهم -:

١٥٣، ١٥٤- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

اتهم قوم ثمود صالحًا بأمرين، وطلبوا منه برهانًا على صدق رسالته، والأمران هما: السحر، وكونه بشرًا، كما اتهم جميع الأقوام رسلهم بهذين الأمرين.

فقالوا له **أوّلًا**: أنت مسحور، قد غلب عليك السحر، فقد كنت فينا -قبل أن تدّعي الرسالة- ذا عقل راجح وصدق وأمانة، ولكن أوضاعك قد اختلفت بعد ذلك، وصرت تهذي.

واتهموه **ثانيًا** بأنه بشر، فقالوا: كيف تكون رسولًا وأنت بشر مثلنا، تأكل مما نأكل، وتشرب مما نشرب، فأنت من بني آدم، لا تختلف عنا في شيء، فإن كنت رسولًا حقًّا

(١) «التفسير الكبير» (٢٤/ ١٥٩).

فَأْتِ بآية خارقة تدلُّ على صدق زعمك في أنك رسول من عند الله، وهذا كقولهم عنه في موضع آخر: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر].

وطلبهم للمعجزة من باب التعنت والتعجيز، وليس من باب الاسترشاد، ومع هذا فإن الله تعالى أجابهم إلى ما طلبوا:

١٥٥، ١٥٦- ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾

كان قوم ثمود قد تحدَّوْا نبيهم صالحًا قائلين: أَخرِج لنا من هذه الصخرة -وعيَّنوا صخرة بذاتها-ناقة عُشراء، أي: حامل، فإن فعلتَ ذلك آمنا بك واتبعناك.

وهنا جاء جبريل ﷺ إلى صالح ﷺ وقال له: صلِّ ركعتين واسأل ربك، فصلى ودعا ربه، فإذا هم ينظرون إلى الصخرة وهي تتمخض عن ناقة عُشراء، تخرج من صخرة صماء ملساء، ثم ينظرون مرة ثانية فإذا هي تتمخض عن خروج المولود الذي في بطنها.

أخرج البستيّ بسند صحيح عن أبي الطفيل -عامر بن واثلة- قال: قالت ثمود لصالح: ائتنا ﴿بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض، فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفرجت، فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

وهي ناقة عظيمة ليست كنياق الدنيا، ومن خصائص هذه الناقة أن ماء القبيلة ينقسم بينها وبين القوم، فالماء قسمة بينهم، القوم كلهم يشربونه في يوم، والناقة وحدها تشربه في يوم، وفي اليوم الذي تشرب فيه الناقة تُعطيهم من الحليب ما يكفي القوم جميعًا عوضًا عن الماء الذي يفقدونه في ذلك اليوم.

وقال صالح لقومه: لا تتعرضوا لها بسوء، لا في جسمها، ولا في مأكلها، ولا في مشربها، فيهلككم الله بعذاب من عنده، ومكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر، فلما طال عليهم الأمد، تمالؤوا على قتلها.

١٥٧-١٥٩- ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

أي: عقرها الرهط التسعة، وكان في مقدمتهم رجل يقال له: قُدار بن سالف، استأجرتْه امرأة لعقْر الناقة، على أن تُزوِّجه ابنتها، ولما نحروها أصبحوا متحسِّرين على ما فعلوا، وأيقنوا أن العذاب نازل بهم، فلم ينفعهم الندم، وأخذهم العذاب في أعقاب عَقْرهم للناقة دون تراخٍ ولا إمهال.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ [القمر].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

فأنظَرهم الله سبحانه ثلاثة أيام، يأتيهم العذاب بعدها، وقد تغيَّرت وجوههم في هذه الأيام الثلاثة، من مُصْفَرَّة إلى مُحْمرَّة إلى مُسْودَّة، وهم في انتظار العذاب، فأرسل الله عليهم الصيحة، بعد أن زُلزلت الأرض تحت أقدامهم، فنزل بهم عذاب الله الذي توعدهم به صالح، فأهلكهم.

قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات].

وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

إن في إهلاك قوم ثمود لعبرة لمن اعتبر بهذا المصير، وما كان أكثر قوم ثمود بمؤمنين، وإلا لما حقَّ العذاب عليهم، وإن ربك هو القاهر المنتقم من أعدائه المكذبين، الرحيم بمن آمن به مِنْ خَلْقِه واتَّبع هداه.

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ لُوطٍ عليه السلام

١٦٠-١٦٢- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

لوط بن هاران -عليه السلام- عمه إبراهيم، خليل الرحمن، آمن لوط بعمه وبدعوته، وهاجر معه من بابل بالعراق إلى أرض الشام، نزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط بقرية المؤتفكة (سدوم) وهي قرية في وادي الأردن؛ لِتتَّسع الأرض لأغنام كل منهما.

وكان قوم لوط يأتون الذكران من العالمين، فأرسل الله إليهم نبيه لوطًا، يدعوهم إلى

توحيد الله - سبحانه -، فهذه هي المهمة الأساس للدعوة، وهي الأصل الذي يتفق عليه جميع الرسل، ثم يعالج كل رسول منهم ما يوجد في قومه من أخلاق وعادات رذيلة.

وكان لوط عليه السلام غريبًا بين أهل المؤتفكة، فقد وفد من العراق مع عمه إبراهيم، حين اعتزل أباه وقومه، وترك وطنه وأرضه، وعبَر الأردن مع عمه إبراهيم، وكذا القلة التي آمنت به، ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم، حتى أرسله الله إليهم، ليردَّهم عما هم فيه من رذائل، فإذا بهم يُهدِّدونه بالإخراج من بينهم إن لم ينته عن دعوته.

وتبدأ القصة وتنتهي بنفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبل أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح صلوات الله عليهم أجمعين؛ لتأكيد أن دعوة الرسل واحدة، وغايتها واحدة، ومنشأها واحد.

ولما كان تكذيب رسول واحد تكذيبًا لسائر الرسل، لاتحادهم في دعوى التوحيد وأصول الشرائع، ذكر سبحانه أن قوم لوط كذَّبوا رسل الله جميعًا بتكذيبهم لنبي الله لوط عليه السلام.

وقوم لوط من الكنعانيين، أهل فلسطين، ولم يكن لوط منهم، بل كان عبرانيًّا نزيلًا فيهم كما سبق بيانه، ولكنه لما استوطن بلادهم فعاشَرَهُم وحَالَفهُم وظاهَرَهُم، جُعِل أخًا لهم، كما جاء في الآية، فهو أخ لهم في الوطن، وعن هذه الأخوة يقول تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣].

وقد تُطلق الأخوّة على ملازمة الشيء وممارسته، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

دعاهم لوط إلى تقوى الله تعالى وطاعته، وحثهم على ذلك قائلًا: ألا تخافون عقاب الله إن لم تؤمنوا وتُقلعوا عما أنتم عليه من فواحش الذنوب.

قال لهم لوط: إني رسول من ربكم، وأمين على تبليغ رسالته إليكم.

١٦٣، ١٦٤- ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فاحذروا عقاب الله على تكذيبكم رسوله، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، وأنا لا أسألكم على دعوتي لهدايتكم أيَّ أجر، فأجري على الله وحده.

١٦٥ ، ١٦٦- ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

شرع لوط ﷺ في الإنكار على قومه بتوبيخهم وتقريعهم على ما انفردوا به من بين سائر الخلْق بالفعل الشنيع، فقال لهم: أتنكحون الذكور من بني آدم، وتَتْركون ما خلق الله لاستمتاعكم وتناسلكم من أزواجكم، إنكم بهذا عكستم الفطرة، وانتكستم عن جبلَّة البشر، فخرجتم عن حدود الإنسانية إلى أدنى من مرتبة البهائم، فالذكَر من الحيوان يأنف من إتيان الذكَر مِثْله، وأنتم قد فعلتم ما يتورع عنه الحيوان، وتجاوزْتم الحد في الفساد والإجرام بجريمتكم الشنيعة، فكنتم بهذا قومًا مسرفين، تجهلون سُنَّة الله في خلقه، وأنتم بفعلتكم هذه قد ارتكبتم جنايتين:

الجناية الأولى: إفسادكم للذكْران، والقضاء على رجولتهم وشهامتهم، وكَسْر ما فيهم من إباء وشمم.

قال مجاهد في معنى الآية: تركْتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء.

الجناية الثانية: تعطيلكم النساء عن التمتع بهن، وقد خلقهن الله لذلك، ويتبع ذلك تعريضهن للزنى، وتعطيل النسل، وهو المقصود الأسمى من العلاقة الزوجية، وفي هذا هدم لكيان المجتمع، ومُضارَّة لسنة الحياة، وقد قال الله عنهم: بل أنتم قوم قد تجاوزتم الحلال إلى الحرام، وبلغتم أقصى الحدود في الإجرام والفساد.

١٦٧ ، ١٦٨- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾

ونظرًا لأن لوطًا ﷺ لم يكن من القوم، فقد هدَّدوه بالطرد، وقالوا له: لئن لم تنته يا لوط، عن تقبيح فعلنا ونَهْينا عن إتيان الذكور فسنخرجك من هذه البلاد، ونطردك منها.

وكان قوم لوط يسخرون من نهيه لهم عن جريمة اللواط، إذ يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وهكذا فإن نبيَّ الله لوطًا ﷺ يدعوهم إلى الطهر والعفاف، فيهددونه بالنفي من البلاد ويتهكمون به وبدعوته، ويقولون عنه وعمن آمن به ولم يفعل الفاحشة: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يترفعون عن إتيان الذكور، ويعدُّون ذلك عيبًا وخُلُقًا ذميمًا.

ونظرًا لأن نوحًا ﷺ كان من قومه نسبًا، فلم يهددوه بالإبعاد عن البلاد، وإنما هدَّدوه بالضرب والرجم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

وهكذا قال قوم شعيب له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال جميع الأقوام لرسلهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

قال لهم لوط ﷺ: إن هذا العمل الذي تفعلونه -من جريمة اللواط- أنا مبغض له بغضًا شديدًا، ومُنكِرٌ لجريمتكم النكراء التي تُغضب رب العالمين، وأنا بريء منكم ومن عملكم القبيح، ثم سأل ربه أن ينجيه وأهله مما يعمله قومه فقال:

١٦٩-١٧١- ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾

دعا لوط ربه ليلًا أن ينجيه وأهله الذين آمنوا به من العذاب الذي يستحقه هؤلاء القوم بعملهم القبيح، وذلك بعد أن يئس من إجابتهم له، وكان لوط يتوقع أن يحلَّ بهم عذاب الله.

استجاب الله لنبيه لوط، فنجَّاه وأهل بيته -إلا امرأته- من العذاب الذي نزل بالبقية، حيث أمطر الله عليهم حجارة مطبوخة بالنار في الصباح الباكر، ونجَّى الله لوطًا وأهله -إلا امرأته العجوز- فقد كانت كافرة تُعين عليه قومه، فأصابها حَجَرٌ فهلكت مع من هلك حين أمر الله لوطًا أن يسري بأهله إلا امرأته. قال تعالى:

١٧٢، ١٧٣- ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

أي وأهلك الله قومه الكفَرة، أشد الهلاك؛ لإصرارهم على الكُفْر وعلى إتيان المنكر، فأبادهم الله عن آخرهم، ولم يبق لهم أثر.

ثم فصَّل سبحانه شيئًا من هلاكهم، حيث أمطر الله عليهم حجارة من السماء كالمطر أهلكتهم، وذلك بعد أن أمر الله تعالى جبريل ﷺ فاقتلع قُرَى قوم لوط ورفَعها إلى عنان السماء ثم قلَبها، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

ومكان هذه القرى هو بحيرة لوط (البحر الميت) في الأردن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات].

وبعد اقتلاع قرى قوم لوط، وقلْبِها رأسًا على عقب، أُتْبِعوا بحجارة معلَّمة على كُلٍّ منها اسم صاحبها، فأمطرتهم مطرًا حتى أهلكتهم، ثم ذمَّ الله عقوبتهم في قوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: قبُح المطر الذي أُمطر به مَن أنذرهم لوط ﷺ ولم يستجيبوا له، فقد أنزل الله بهم أشد أنواع الهلاك والتدمير.

١٧٤، ١٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط لعبرة وعظة يتعظ بها المكذبون، وما كان أكثر قوم لوط بمؤمنين، وإن ربك هو الغالب الذي يقهر المكذبين وغيرهم، الرحيم بعباده المؤمنين.

الْقِصَّةُ السَّابِعَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عليه السلام

١٧٦-١٧٨- ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ[1] ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

القصة الأخيرة في سورة (الشعراء)، هي قصة خطيب الأنبياء شعيب -عليه السلام- وقد أُرسل **أولًا** في أهل مدين وكان من قبيلتهم، كما قال القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤] أي: إنه أخوهم في النسب، وفي الوطن واللغة.

ثم أُرسل **ثانيًا** إلى أصحاب الأيكة، والأيكة: وهي بادية مدين، شجرة أو شجر ملتف بعضه حول بعض، يسمى غَيْضة، من شجر النبق، كانوا يعبدونه أصنامًا من دون الله.

مدين والأيكة: ومدين والأيكة، مكانان قريبان جغرافيًا يقعان في شرق خليج العقبة.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (ليكة) على وزن ليلة، اسم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ الباقون بهمزة قطع بعد (ال) هكذا (الأيكة) ورسمت في المصحف بما يحتمل القراءتين معًا، ومثلها التي في سورة (ص)، أما التي في سورة (الحجر) وسورة (ق) فليس فيها خلاف بين القراء وكلهم يقرؤونها فيهما كحفص.

ولما كان أصحاب الأيكة يعبدون الأصنام من دون الله، نزَّه الله شعيبًا أن يكون أخًا لهم.

وقد كانت آفة هؤلاء القوم واحدة، سواء أهل مدين أم أصحاب الأيكة، وهي تطفيف الكيل والميزان.

وأصحاب مدين هم أهل الحضر، وأصحاب الأيكة هم أهل البادية.

روى ابن جُريج عن ابن عباس ﷺ أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين.

بمعنى أن قبيلة مدين هم ذرية (مدين) بن إبراهيم ﷺ، وهم أصل نسب شعيب من زوجه (قطورة) وأن أصحاب الأيكة هم سكان الغيضة، أهل البادية

وأن مدين وبنيه، قد تركوها لأهلها، وبنوْا مدينة سموها باسم (رب العائلة) في شرق بلد الخليل، ولذا نُسب شعيب إلى مدين ولم يُنسب إلى الأيكة.

ولهذا قال جابر بن زيد: أُرسل شعيب إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة.

ولما كانت مدين والأيكة، مكانان متجاوران، ورسولهما واحد، هو شعيب ﷺ، قيل: إنهما أمتان.

كما روى عبد الله بن وهب، عن جبير بن حازم، عن قتادة قال: أُرسل شعيب إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة.

ووَرَدَ هذا المعنى عن عبد الله بن عمر ﷺ، كما ورد أثرًا آخر عن عكرمة.

لفظ (الأيكة) في الرسم العثماني:

وعن كتابة لفظ (الأيكة) في المصحف، قال أبو عبيد: رأيتها في مصحف الإمام -أي: مصحف عثمان الذي اتخذه لنفسه- في سورة (الحجر)، وسورة (ق) هكذا: (الأيكة)، وفي سورة (الشعراء)، وسورة (ص) هكذا: (لَيْكة).

قلت: وذلك لأن التي في سورة (الحجر) وسورة (ق) ليس فيها خلاف بين القراء، بخلاف التي في سورة (الشعراء) وسورة (ص) فقد قُرئت بالهمز هكذا: (الأيكة) وبدون

الهمز هكذا: (لَيكة) على وزن ليلة، فكان هذا الرسم (ليكة) في السورتين لاحتمال القراءة الأخرى الواردة فيها.

ومعنى الآية: كذَّب أصحاب الأرض ذات الشجر الملتف، رسولهم شعيبًا في رسالته لهم، فكانوا بهذا مكذبين لجميع الرسالات.

دعا شعيب قومه إلى توحيد الله تعالى، وحذَّرهم من عقابه سبحانه على معاصيهم ومخالفة أمره ونهيه، وعدم خوفهم من لقائه، ثم بيَّن لهم أنه مرسل إليهم من عند الله تعالى لهدايتهم، وهو حفيظ أمين على ما أوحى الله به إليه، يبلغهم رسالة ربه وهو لهم من الناصحين، قال شعيب لأصحاب الأيكة:

١٧٩، ١٨٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أي فخافوا عقاب الله -أيها الناس- واتَّبعوا ما دعوتكم إليه من توحيد الله وهدايته، واتركوا ما نهيْتكم عنه من نقص الكيل والميزان في التعامل مع الناس.

ولا أطلب منكم أيَّ جزاء على دعوتكم إلى الإيمان بالله وحسن التعامل مع الناس؛ فأجري على الله وحده، وهذا شأن الصادق في دعواه، المؤمن بما يدعو إليه من الخير، لا يسأل الناس أجرًا على تبليغهم دعوة ربه. ثم قال لهم شعيب:

١٨١، ١٨٢- ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ(١) الْمُسْتَقِيمِ﴾

شرع شعيب عليه السلام بعد دعوة قومه إلى تقوى الله تعالى وطاعة رسوله، يعالج القضية المهمة في حياتهم، وكان كلٌّ من أصحاب الأيكة وأهل مدين ينقصون حقوق الناس في الكيل والميزان، وهي أفحش الرذائل التي كانت منتشرة فيهم، فأمرهم أن يتموا الكيل للناس وافيًا، وأن يَزِنوا لهم بالميزان العدل المستقيم، وألا يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

والقرآن الكريم يولي هذه الأمور الاقتصادية، أهمية وعناية في قصة شعيب، وقصة هود، وقصة صالح، وغيرها، وتُعدُّ هذه المسألة - أي تطفيف الكيل والميزان - من كبائر الذنوب؛

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر القاف من (القِسطاس)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

لما يترتب عليها من إضرار بالناس وغَبْنهم وأكل أموالهم بالباطل، ثم قال لهم شعيب:

١٨٣ ، ١٨٤- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

أي: وبعد أن أمر شعيب قومه بوفاء الكيل والميزان، وإتمامه على الوجه الأكمل، نهاهم أن ينقصوا الناس شيئًا من حقوقهم في كيل أو وزن، أو غيرهما.

ومِنْ بَخْسِ الأشياء، أن يقول المشتري للبائع عن سلعته السليمة: إن سلعتك رديئة؛ ليصرف الناس عنها فيشتريها بأقل من ثمنها، ونحو ذلك من طُرق الغبن.

ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد: كقطْع الطريق، والقتل، والسلْب، والنصب، والنهب، وتخويف الناس، وارتكاب سائر المعاصي.

ذكَّر شعيب قومه بأحوال الأمم السابقة، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا، فأهلكهم الله بسبب كفرهم وبغيهم، وأمرهم أن يتقوا الله الذي خلقهم وخلق الأمم قبلهم، فيمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

والمراد بالجبلة: المخلوقات السابقة التي خلقها الله قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس].

فقوله: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا كثيرًا ممن كان قبلكم.

١٨٥ ، ١٨٦- ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

استمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة، ولكنهم لم يتأثروا بها، واتهموه بثلاثة أشياء وهي: أنه مسحور، وأنه بشر مثلهم، وأنه كاذب في دعواه.

حيث اتهموه **أوَّلًا** بأنه مختل في عقله، فرموه بالسحر، كما حدث لكثير من الرسل، حيث قالوا له: أنت يا شعيب، من الذين أصابهم السحر، فأنت مختل العقل، فما نَسَبْتَهُ إلى الله باطل لذهاب عقلك، وهل من يدعو الناس إلى إعطاء كل ذي حق حقه، ويرشدهم إلى استيفاء الحقوق وإعطائها يُعدُّ مسحورًا؟ إن هذا لشيء عجاب!!

واتهموه **ثانيًا** بأن الرسول لا يكون من بني آدم، فكذَّبوه وتحدَّوْه في رسالته بما كُذِّب به

غيره من رسل الله، فهم يعتقدون أن الرسول لا يكون بشرًا، وإنما يكون من الملائكة في زعمهم، وقد أجاب الرسل عن هذه الدعوى في قوله ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١] فهم ينكرون أن يختص شعيب بالرسالة من دونهم، فبعد أن اتهموه بالسحر، وقالوا له: أنت واحد منا لا تتميز علينا في شيء، قالوا له: وأكبر الظن أنك كاذب فيما تدَّعيه من الرسالة، وهذه جرأة منهم وظلم وزور، فهم يعلمون أنه ما من رسول إلا وقد أيده الله بآية تدل على صدقه وأمانته.

وقد كان شعيب خطيب الأنبياء، حسن الجدال والمراجعة، فهم متيقنون أنه صادق وأن ما جاء به حق، ولكنهم يجادلون ويعاندون، ومن العجيب أنهم يعرفون أن شعيبًا لم يكْذب عليهم في أمور الدنيا، ثم يتهمونه بالكذب على ربه في أمور الدين، فإذا كان لا يستحل الكذب على الناس، فكيف يَكْذب على الله؟ وإذا كان هذا أسلوب الكاذب، فكيف يكون أسلوب الصادق؟ وإذا كانت هذه دعوة المسحور، فكيف تكون دعوة العقلاء؟ ولماذا إذن توعَّدوه بالنفي والطرد؟ وهل مختل العقل أو الكاذب يشكِّل خطرًا عليهم؟ إن جنونه وكَذبه سيفضح شأنه ولا يحتاج الأمر إلى إبعاده أو تهديده ووعيده.

وهكذا قالوا له: إن وصفًا واحدًا كافٍ لتجريدك من نبوتك، فكيف وقد جمعْتَ بين أمرين ينفيان دعواك النبوة، وهما كونك مسحورًا، وكونك بشرًا، وهكذا قالوا له كما قال قوم ثمود لصالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ومن الأمور العجيبة أنهم يُنكرون أن يكون الرسول بشرًا، ولا يُنكرون أن يكون الإله حجرًا، ثم طلب أصحاب الأيكة من شعيب عليه السلام أن ينزل عليهم العذاب الذي توعّدهم به، حيث قالوا:

١٨٧، ١٨٨- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ[2] أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أي: إنهم تحدَّوا شعيبًا، فقالوا له: إن كنت نبيًا حقًّا، فادعُ الله أن يُسقط علينا قطعًا من عذاب النار تستأصلنا، وقد طلبوا ذلك على وجه الاستبعاد، فظنوا أنه إذا لم يقع بهم

(١) قرأ حفص بفتح السين من (كسَفا)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربي أعلم)، والباقون بإسكانها.

العذاب ظهَر كَذِب شعيب .

وهذا كقول قوم نوح له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقول قوم عاد لهود ﷺ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقول قوم ثمود لنبي الله صالح ﷺ: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وهذا يشبه قول بعض كفار قريش للنبي ﷺ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وهذا شأن الجاحدين لرسالة الرسل في كل زمان ومكان.

قال لهم شعيب : العذاب يأتي به رب العالمين، وأنا عليَّ أن أبلغكم دعوة ربي، وهو سبحانه أعلم بما تعملون من الشرك والمعاصي، والأقوال والأفعال، ويعلم ما تستحقونه من العذاب، فإن كنتم تستحقونه جازاكم به، وهو غير ظالم لكم، وإن كنتم تستحقون عقابًا آخر فإليه الحكم والمشيئة، ونظير ذلك قول نوح ﷺ لقومه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]. قال تعالى مُبيِّنًا عذاب أصحاب الأيكة:

١٨٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

أي: فاستمَروا على تكذيب نبيِّ الله شعيب، فعجَّل الله لهم العقوبة في الدنيا، حيث أرسل عليهم حَرًّا شديدًا يكتم أنفاسهم لمدة سبعة أيام لا ينفعهم فيها ظل ولا ماء، ولا غير ذلك، فخرجوا من البيوت هربًا، فأرسل الله عليهم سحابة يستظلون تحتها فيها برودة ولذة ونسيم، فنادى بعضهم بعضًا، فلمَّا تكاملوا واجتمعوا تحت هذه المظلة رجفت بهم الأرض من تحتهم، وجاءتهم الصيحة من فوقهم، وأسقطت هذه المظلة عليهم نارًا وشررًا فأهلكتهم واحترقوا جميعًا، وكان ذلك من أعظم العذاب.

أخرج البسّيُّ بسند صحيح عن الضحاك قال: حبس الله الظل والريح عن قوم شعيب فأصابهم حرٌّ شديد، ثم بعث الله - سحابة - فيها العذاب، فلما رأوا السحابة انطلقوا يستظلون بها، فاضطرمت عليهم فأهلكتهم[١].

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: سلَّط الله الحَرَّ على قوم شعيب

(١) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١٦).

سبعة أيام ولياليهن، حتى لا ينتفعون بظل بيت ولا بِبَرْدِ ماء، ثم رُفعت لهم سحابة في البريَّة، فوجدوا تحتها الرُّوح، فجعلوا يدعون بعضُهم بعضًا، حتى إذا اجتمعوا تحتها أشعلَها الله عليهم نارًا، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾(١).

وهذا العذاب هو الذي طلبوه حين قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾، فكان العذاب من جنس ما طلبوا.

وقد ذكر الله - سبحانه - صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن من كتابه، كل موطن منها مناسب لسياق الآيات قبله:

١- فقال سبحانه في سورة الأعراف بالنسبة لقوم مدين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾. وكان ذلك عقب تهديدهم لشعيب ﷺ بإخراجه من قريتهم، أو العدول عن دينه إلى دينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الأعراف: ٨٨].

٢- وجاء في سورة هود في قوله تعالى بالنسبة لقوم مدين أيضًا: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٩٤،٩٥]. وكان هذا بعد أن سخروا من شعيب، وتهكّموا عليه بأن رسالته تأمره أن يتركوا عبادة آبائهم الأولين، وألا يتصرفوا في أموالهم كما يشاؤون.

٣- وفي هذه السورة قال تعالى بالنسبة لأصحاب الأيكة: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وكان هذا العذاب بعد أن طلبوا منه على وجه التعنت والعناد أن يُنزل عليهم العذاب قطعًا من السماء، إن كان صادقًا في دعواه، ولذلك وُصِف عذابهم: بالرجفة، وبالصيحة، وبعذاب يوم الظلة، وقد اشتمل هلاكهم على هذه الثلاثة، حيث صاح بهم جبريل من فوقهم، فرجفت الأرض من تحتهم، وتساقطت عليهم قطع النار من السماء.

قال عبد الله بن عمرو، وعكرمة، وغيرهما ﷺ: إن الله تعالى سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام، لا يظلهم ظل، ولا ينفعهم شيء، ثم أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها احدهم واستظلَّ بها، فأصاب تحتها بردًا وراحة، فأعلم بذلك قومه، فَأَتَوْها جميعًا، فاستظلوا تحتها فأُجِّجت عليهم نارًا(٢).

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٧).

(٢) يُنظَر: ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١٥).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في الْمَقْلَى[١].

وهذا العذاب شامل لأصحاب الأيكة وأهل مدين جميعًا.

كما قال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عُذِّبوا بثلاثة أصناف من العذاب: وذكر الرجفة، والصيحة، ويوم الظلة[٢].

قلت: وعلى التفرقة بين أهل مدين وأصحاب الأيكة فإن وصْف العذاب المذكور في هذه السورة، يخص أصحاب الأيكة، وما جاء في سورتي الأعراف وهود يخص أهل مدين. قال سبحانه معقبًا على عذاب أصحاب الأيكة:

١٩٠، ١٩١- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

يقول سبحانه: إن في ذلك العقاب الذي نزل بأصحاب الأيكة، لعبرة ودلالة واضحة على قدرة الله تعالى في مؤاخذة المكذبين في الدنيا والآخرة، في كل الأزمنة والأمكنة، وما كان أكثرهم متعظين بما حدث، وإن ربك -يا محمد- لهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بعباده الموحدين المصدقين برسله.

وإلى هنا تنتهي القصص السبع التي أوحى الله بها إلى رسوله ﷺ؛ ليخفف عنه أحزانه وآلامه وشدة حرصه على إسلام قومه، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ حتى يمضي في تبليغ الدعوة، ولا يتحسر على من لم يؤمن منهم، ويعلم أن الله تعالى هو القاهر فوق عباده، لا يغلبه شيء، ولولا رحمته سبحانه لعجَّل العذاب لأمته، كما فعل بهذه الأمم.

مِسْكُ الْخِتَامِ: التَّعْرِيفُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: أَوَّلًا: إِنَّهُ أَعْظَمُ الْكُتُبِ

١٩٢- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾

بعد الفراغ من قصص الأنبياء يأتي تعقيب السورة عَوْدًا على بدء، فقد تحدثتْ سورة

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٦٩).

(٢) يُنظَر: ابن أبي حاتم (٢٨٥٩).

(الشعراء) في أولها عن القرآن الكريم، وحِرْص رسول الله ﷺ على هداية القوم وعلى إيمانهم، وبيَّنتْ أن الله - سبحانه - قادر على أن ينزِّل على المكذبين بالقرآن وبرسوله ﷺ آية تخضع لها أعناقهم فيؤمنوا به قسْرًا.

وبيَّنت السورة أن المكذبين بالنبي ﷺ كلما استمعوا إلى آية من القرآن الكريم أعرضوا عنها، كما بيَّنت أنه - جلَّ شأنه - سوف يقصُّ على المكذبين بالوحي والرسالة أخبار بعض الأمم السابقة التي كذبتْ رسل الله؛ ليكون ذلك عبرة وعظة لهم في مصير القوم الظالمين.

وتحدثت السورة بعد ذلك -وهي تتناول جانب التكذيب من الأمم- عن قصة سبعة من رسل الله، وهم: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ثم ربطت السورة أولها بآخرها في هذه الآية وما يليها؛ فبعد أن تحدثت عن القصص السبع، عادتْ في نهايتها للحديث عن القرآن الكريم؛ لتبيِّن أن هذا القرآن لم يأت به بشر، وما تنزَّلت به الشياطين على كاهن، وليس هو مِن قول شاعر، وإنما نزل من عند الله، مشتملًا على أخبار الأمم الماضية، وعلى أمور الغيب في المستقبل، وعلى ما يُصْلِح أحوال البشر في دنياهم وأخراهم.

ومع ذلك فقد أتى به رجل أمي لا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

وهذا العمر مدته أربعون سنة مكثها النبي ﷺ فيهم قبل أن يحدثهم بالقرآن.

فهذا القرآن - إذن - ليس من قول بشر، ولا من قول كاهن، ولا من قول شاعر، وإنما هو تنزيل من رب العالمين، وهذا القرآن المعجز، الذي ذُكِرتْ فيه هذه القصص الصادقة منزَّل من خالق الخلق، ومالك الأمر، ومدبر الكون، ورب الأرباب، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه]. فيه أخبار: الرسل والأمم، وأحوال العباد والبلاد، والذي أنزله فاطر الأرض والسماء، المربى لجميع العالم تربية بدنية وتربية

روحية، ومن أعظم ماربًا هم به: إنزال الكتاب الكريم، فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثَانِيًا: مَعْنَى نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ

١٩٣، ١٩٤- ﴿نَزَلَ[(١)] بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

أي: نزل بهذا القرآن، جبريل الأمين، على رسول الله ﷺ، ويسمى جبريل روحًا؛ قيل: لأنه خُلِق من الروح، فالملائكة عالم الروحانيات، أو لأن الوحي الذي يأتي به من عند الله هو للبشر بمثابة الروح للجسد.

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا قال: الروح الأمين جبريل، رأيتُ به ست مئة جناح من لؤلؤ، قد نشرها، وفيها مِثْل ريش الطواويس[(٢)].

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن روح القدُس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بطاعته»**[(٣)].

وقد سمى الله الوحي روحًا في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ﷺ أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: **«أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، فيَفْصِم عني وقد وعيْتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملَك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول»**[(٤)].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بتخفيف الزاي من (نزل) ورفع (الروح) و(الأمين) على أن نزل فعل ماض، والروح فاعل، والأمين صفة، والباقون بتشديد الزاي ونصب (الروح) و(الأمين)، على أن فاعل نزل ضمير يعود على الله تعالى، والروح مفعول به، والأمين صفة.

(٢) أبو الشيخ (٣٧٦).

(٣) من حديث ابن مسعود عند ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٢٧) وابن حبان كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٦٠). وانظر تخريجه في آخر سورة الشورى.

(٤) يُنظَر «البخاري» (٣٢١٥) ومسلم (٢٣٣٣) والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٥) و«المسند» (٢٥٢٥٢) والحميدي (٢٥٦) والطبراني في «الكبير» (٣٣٤٦).

وقد يكون الوحي رؤيا منامية، وقد يكون كلامًا مباشرًا كما كلَّم الله موسى عليه السلام.

وقد جمع الله أنواع الوحي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وجبريل هو الأمين على وحي الله - سبحانه -، فالأمانة وصف مميز لجبريل عليه السلام؛ لأنه ينزل بالوحي على جميع الرسل وهو مؤتمن عليه، وقد نزل جبريل بالوحي مباشرة على قلب النبي ﷺ فألقاه فيه بألفاظه، ولكن لماذا القلب؟

والجواب: لأن القلب هو مَلِك الحواس، ومَلِك الأعضاء في الجسم، ومركز الحس والإحساس.

والقلب هو موضع التمييز، وسائر الأعضاء مسخرة له، والقلب إذا غشي عليه ذهب عنه الشعور، وإذا أفاق شعَر بكل شيء، وسلمت جميع الأعضاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

وكون القلب مَضَخَّة للدم في الجسم، وإذا توقف عن هذا الضخ مات الإنسان، فهذا يشير إلى أن القلب مَلِك الجسم، وهو الذي يُغَذي العقل، فيسلم التفكير ويسلم التلقِّي والتلقين، ولذلك يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه النعمان بن بشير رضي الله عنه: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[1].

وقد نزل هذا القرآن على النبي ﷺ من أجل أن ينذر به الإنس والجن، ويخوِّفهم سوء المصير إذا استمروا على كفرهم، فقد أنزله الله تعالى على قلبه ليحفظه، وينذر به المكذبين، وليخوف به من لم يؤمن.

ثَالِثًا: اللِّسَانُ الْمُخْتَارُ لِلرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ

١٩٥ - ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

نزل القرآن على قلب النبي ﷺ مباشرة، فوعاه وحفظه وفهمه، وتدبره وعمل بما فيه، وبلَّغه للإنس والجن بلسان عربي واضح المعنى، ظاهر الدلالة في إصلاح شؤون دينهم

---

(١) البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧، ١٥٩٩) و«المسند» (١٨٣٧٤) وأوله: «إن الحلال بيِّن». وأخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٥٦٠) وأبو داود (٣٣٣٠) وابن ماجه (٩٨٤).

ودنياهم، كتاب فصيح قاطع للعذر، مقيم للحُجَّة، نزل بلغة عربيَّة واضحة ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

ولو نزل القرآن بلغة أخرى غير العربية، لم يكن نازلًا على قلب النبي ﷺ، بمعنى: أنه يسمع أصوات الحروف وأجراسها، ولا يُدْرِكُ لها معنى، فلم يكن القرآن في هذه الحالة نازلًا على قلبه، وإنما يكون نازلًا على سمعه فقط؛ لأنه لا يفهم له معنى، ولا يمكنه أن يبلِّغه لغيره، فيتعذر الإنذار به.

وذلك أنه إذا كان الإنسان يعرف عدة لغات، فإنه حينما يُخاطَبُ بِلُغَتِه التي وُلِدَ ونشأ فيها، فإنه يفكر في المعنى ولا يفكر في اللفظ.

أما إذا كان يُخاطَبُ بلغة غير لغته الأصلية، فهو وإن كان يعرفها ويجيدها لكنه لا يفكر في المعاني مباشرة، وإنما يفكر في الألفاظ أوَّلًا، ثم يفكر فيما تشير إليه هذه الألفاظ من معنى، فيكون نزول الكلام على السمع، وليس على القلب.

لذلك: نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين؛ ليبشِّر به الرسول ﷺ من آمن، وينذر به من كفر.

وقد أنزل الله قبل القرآن بعضًا من الرسالات بلغة العرب على بعض الأنبياء، وهم: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، فهؤلاء الرسل الأربعة كانت رسالتهم بالعربية في جزيرة العرب، وكذلك الرسول محمد ﷺ كان ينذر الناس بلسان عربي بيِّن.

فاللسان العربي هو أفضل الألسنة، والقرآن الكريم أفضل كتاب نزل من عند الله، وجبريل الذي نزل به من عند الله هو أفضل الملائكة، ومحمد الذي نزل عليه القرآن هو أفضل رسول، والأمة التي أُنزل عليها القرآن هي أفضل أمة أُخرجت للناس، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

رَابِعًا: تَصْدِيقُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِلْقُرْآنِ

١٩٦- ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

يبيِّن سبحانه في هذه الآية أن هذا القرآن موجود ذِكْره وخبره في كتب الأنبياء السابقين في قديم الدهر وحديثه، فقد صدَّقتْه هذه الكتب، وبشَّرتْ به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى

﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهذا معنى: وإنه -أي: هذا القرآن- لفي زبر الأولين، أي: في الكتب السابقة، مثل: التوراة، والإنجيل، والزبور، وفي سائر كتب الأنبياء التي نعلمها إجمالًا.

وليس معناه: أن ذات القرآن بسوره، وآياته، وألفاظه ثابت في كتب الأنبياء السابقين، وإنما المعنى أن اسمه، ووصفه، ومعانيه، وذِكْر خبره موجود في كتب الأولين، فقد جاءت البشارات بالرسول، والقرآن فيها:

قال موسى عليه السلام: قال لي الرب: أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتك مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أُوصيه به[١].

وقال عيسى عليه السلام: (ويقوم أنبياء كذَبة كثيرون، ويُضلُّون كثيرًا، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى) أي: إلى آخر الدنيا (فهذا يخلِّص ويكْرَز) أي: يدعو (بشارة الملكوت هذه في كل المسكونة) أي: الأرض كلها (شهادة لجميع الأمم) أي: رسالة عامة (ثم يأتي المنتهى)[٢] أي: نهاية العالم.

فنعْتُ القرآن، ونَعْتُ الرسول ﷺ موجود في الكتب السماوية السابقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦].

خَامِسًا: شَهَادَةُ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْقُرْآنِ

١٩٧- ﴿أَوَلَمۡ يَكُن[٣] لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾

أولَم يكف في الدلالة على أنك رسول الله، وأن القرآن حق من عند الله، أولم يكفهم في ذلك عِلْمُ علماء بني إسرائيل، وصحةُ ذلك لدى من أسلم منهم؟

(١) سفر التكوين، الإصحاح الثامن عشر.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح الرابع والعشرون.

(٣) قرأ ابن عامر (يكن) بتاء التأنيث، و (آية) بالرفع، على أن كان تامة، وآية فاعل، و (لهم) متعلق بيكن، وقرأ الباقون بياء التذكير وآية بالنصب. على أن كان ناقصة، وآية خبر مقدم.

قال ابن عباس ﷺ: بَعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لَزَمانُه، وإنا نجد في التوراة نعته وصفته، فكان ذلك آية على صدقه ﷺ.

قيل: إن هؤلاء اليهود كانوا خمسة: عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد[1].

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وأهل الكتاب كانوا أعلم الناس قبل الإسلام، إليهم انتهى العلم، فكانوا أهل الخبرة والدراية، وقولهم حجة على غيرهم، فهم أهل رسالة، وسواهم وثنيُّون.

سَادِسًا: لِمَاذَا لَمْ يُنَزَّلِ الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ؟

١٩٨، ١٩٩- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن هذا القرآن لو نزل على رسول أعجمي لا يعرف العربية، فقرأه على المكذبين به من العرب قراءة صحيحة فصيحة، لما آمنوا بأنه رسول الله، ولا آمنوا بأن القرآن من عند الله، وذلك عنادا منهم وجحودا، ولالتمسوا لجحودهم عذرًا، وكانوا أخسر الناس به؛ لأنهم لا يعرفون العجمية.

ولو نزل القرآن بالفرنسية مثلًا لقالوا: لِمَ لا ينزل بالتركية مثلًا؟ ولو نزل بالتركية لقالوا: لِمَ لا ينزل بالأُرْدية؟ وهكذا يدور السؤال.

ولو اختار الله نبيًّا آخر، أو شَعْبًا آخر ينزل عليهم الكتاب الخاتم، لَدَارَ السؤال أيضًا.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن بلسان العرب، على رسول من العرب، في مكان يتوسط العالم عند بيته الحرام، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

الْمُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَلَوْ عَرَفَ صِدْقَهُ وَإِعْجَازَهُ

٢٠٠-٢٠٣- ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

---

(١) يُنظَر: عبد الرزاق (٢/٧٦) والطبري (١٧/٦٤٧).

يبيِّن سبحانه أنه كما فَهم المؤمنون القرآن، وعرفوا أنه كتاب معجز مُنزَّل من عند الله، فقد فهمه - أيضًا - المجرمون، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه، ثم لم يؤمنوا به، وهذا معنى ﴿سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أدخلنا القرآن في قلوبهم، ففهموه وأدركوه، ثم كذَّبوا به وجحدوه ولم يؤمنوا به، وذلك بسبب ظلمهم وإجرامهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الإنكار حتى يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به.

ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر]. والمعنى واحد، وإن كان السلوك في قلوب المؤمنين يختلف عنه في قلوب المجرمين، فالأول يُسْفر عن الإيمان به، والثاني لا يكون معه إيمان به، ولذا قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ مع تصديقهم، واعترافهم بالرسول والقرآن، وسيظلون كذلك ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فلا ينفعهم الإيمان عند نزوله بهم، وهذا تهديد لهم بأن العذاب سيحل بهم، وهذا العقاب يَصْدُق على عذاب الدنيا، ويصدُق على عذاب الآخرة، فهم لا يؤمنون بالقرآن ويستمرون على تكذيبهم له حتى يروا العذاب بأعينهم في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا فيأتيهم بغتة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر].

وكما أن الموت يأتي فجأة، والناس لا يعرفون له موعدًا، والساعة تأتي فجأة، فكذلك العذاب يأتي بغتة، وهم لا يعلمون بمجيئه قبل حلوله، وعندما يفاجأ الكفار بالعذاب، يتحسرون على ما فاتهم من الإيمان، ويَسْألون النظرة والتأجيل، ويتمنوْن أن يُمهَلُوا ويتأخروا في الدنيا، حتى يتوبوا من شركهم، وحتى يراجعوا أنفسهم فيستدركوا ما فاتهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. ولكن الوقت قد فات، وحل عليهم العذاب.

وهذا مثل قوله سبحانه عن الكافر: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. ثم يأتي:

إنْكَارٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ يَسْتَعْجِلُونَ نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا

٢٠٤- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

يقول ﷻ مذكِّرًا للمكذبين بالسخرية والاستهزاء من النبي ﷺ وهو يتوعدهم في الدنيا بنزول العذاب بهم يوم لقاء ربهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يس]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص]. وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد، إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟! فنزل قوله سبحانه موبِّخًا لهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ أي: هذا هو العذاب الذي كانوا يستعجلونه في الدنيا، إن من يستعجل هلاك نفسه، ويسعَى إلى حتفها، لا يُعد من العقلاء أبدًا.

غَمْسَةٌ لِلْكَافِرِ فِي النَّارِ تَذْهَبُ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا

٢٠٥-٢٠٧- ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

بيَّن سبحانه أن ما فيه المجرمون المكذبون بالله واليوم الآخر من متاع ونعيم في الدنيا -مهما بلغ- فإنهم سينسوْنه نسيانًا تامًّا عندما يمسُّهم شيء يسير من العذاب الذي أعدَّه الله لهم يوم لقائه، فلا يبقى لهذا النعيم الذي كان في الدنيا أثر، أو بقية من لذة، وكأنهم لم يروا متاعًا قط، ولا عاشوا لحظة سعادة أبدًا.

صحَّ عن رسول الله ﷺ: من حديث أنس بن مالك أنه قال: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيُغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا، والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان في الدنيا، فيُصبَغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله يارب**»[1].

---

(١) من حديث أنس بن مالك ﷺ في «المسند» (٣/ ٢٠٣). وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (٨٠٠) عن أحمد، ومسلم برقم (٢٨٠٧) بنحوه، والنسائي، وابن ماجه (٤٣٢١) وصحيح ابن ماجه (٣٤٨٨) وصححه الألباني أيضًا في السلسلة الصحيحة (١١٦٧).

وكذلك الأمر لو أن الله تعالى متَّع الكافرين بالحياة سنين طويلة، فأطال في أعمارهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأخَّر نزول العذاب بهم في الدنيا، ثم جاءهم العذاب في الآخرة، فإن هذا النعيم لن يغني عنهم شيئًا، وكأنهم لم يروا نعيمًا قط في دنياهم.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: أجل مسمى ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ فعقَّب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

والمعنى: أفعلمت -أيها المخاطَب- إنْ مَدَّ الله للكفار في أعمارهم، مع وُفُور الصحة، وسعة الرزق، ومتَّعهم بالأرزاق والأموال، والترف والشهوات، ثم جاءهم بعد هذا العمر الطويل العذاب الذي وُعدوا به، فماذا يغني عنهم هذا العمر؟ وماذا تغني عنهم هذه المتع والشهوات إن لم يؤمنوا ويتوبوا من كفرهم وشركهم؟ وهل هذا النعيم السابق سينفعهم في تخفيف أحزانهم، أو دفع العذاب عنهم؟ ولو شاء الله لأمهلهم، ولكن ذلك لا يفيدهم شيئًا عند حلول العذاب بهم، فهو واقع بهم لا محالة، إن عاجلًا أو آجلًا.

هَلَاكُ الْأُمَمِ يَكُونُ بَعْدَ إِعْذَارِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ

٢٠٨، ٢٠٩- ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن سنته في خلقه لا تتخلف، وأن المكذبين برسالة محمد ﷺ في طول الأرض وعرضها عليهم أن يقيسوا حالهم بحال الأمم التي سبق ذكرها في السورة، فقد أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسل الله، فما من قرية من القرى، ولا أمة من الأمم أهلكها الله تعالى في حال من الأحوال، إلا وقد أرسل لها رسلًا وأنزل عليها كتبًا، وأخذ العهد والميثاق عليهم بالتوحيد وهم في أصلاب آبائهم، ولفَتَ أنظارهم إلى أدلة الكون العظيمة الدالة على الواحد القهار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقوله ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

وهؤلاء الرسل يبشرون من آمن بدخول الجنة، وينذرون من كفر بعذاب النار، وفي هذا إقامة للحجة عليهم، وفيه دلالة على كمال عدل الله تعالى، وأنه لم يوقع عذابًا بأمة إلا بعد أن أعذرهم وأنذرهم، وبعث إليهم الرسل يرشدونهم إلى طريق السعادة.

ويختم الحق ﷻ هذا الشطر المتكامل من الآيات بقوله سبحانه: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي: أن في إهلاك الأمم المكذبة لرسل الله ذكرى لكمَ - أيها المكذبون بالقرآن - فهو خبر لمبتدأ محذوف، كما قال تعالى: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: ٤٩]. ومثله قوله تعالى: ﴿بَلَـٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: هذا إبلاغ للناس.

فلفظ: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إما أن يكون بمعنى: تذكرة، أي: من الرسل المنذِرين، وهو الأقرب، وإما أن يكون بمعنى: عبرة وعظة، أي: من القرى المهلَكة.

ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مفعولًا لأجله، فيكون المعنى: إن الله تعالى لم يهلك أمة من الأمم إلا بعد أن يرسل إليهم رسلًا ينذرونهم ويذكّرونهم بالدين الحق؛ ليكون في هذا تذكرة لهم، وتنبيهًا على ما فيه نجاتهم، وليكون في هلاك الأمم المكذبة تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يَعصون ربهم، وفي هذا تحقيق للعدل والإنصاف؛ إذ ليس الظلم من شأن الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

وبعد هذا الإعذار بالقرآن والإنذار به، فلا ظلم في تعذيبهم إذا لم يؤمنوا، والله تعالى لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وهذا معنى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ أي في تعذيبهم؛ فقد أقمنا الحجة عليهم وأعذرناهم.

الْقُرْآنُ فَوْقَ قُدْرَةِ الشَّيَاطِينِ

٢١٠-٢١٢- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ[1] ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

---

(١) لم يعدّ (وما تنزلت به الشياطين) آية، المدني الأخير والمكي، وعدّها غيره.

ولما بين سبحانه كمال القرآن وعظمته، نزهه عن كل نقص، وحماه وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الإنس والجن، فقد أبعد الله الشياطين عنه، وأعد لهم الرجوم لحفظه، نزل به جبريل أقوى الملائكة، ولا يمكن للشيطان أن يقربه أو يحوم حول ساحته ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

وفي هذه الآية ردٌّ على من قال: إن القرآن من إلقاء الجن والشياطين، وهو مِثْلُ ما ينزل على الكهنة.

فقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد قال: زعموا أن الشياطين تنزلت به على محمد ﷺ، فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك ولا تستطيعه، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا، وهو معجوز عليهم[1].

وقد ملئت السماء حرسًا شديدًا وشُهُبًا في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلُص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه؛ لأنها عُزلت عن مقاعدها التي كانت تسترق منها السمع منذ بعثة النبي ﷺ.

والحق ﷻ في هذه الآيات يوضح لنا حقيقة الجن قبل عهد النبي ﷺ، وما وهبه الله لهم من القدرة على استراق السمع في الملأ الأعلى، وأنهم كانوا يأتون بالخبر الواحد صِدْقًا، ويضيفون عليه تسعًا وتسعين كذبة، يَنزِلون بها على الكهنة، وهم الذين يستعملون الشياطين ويستخدمونهم، حيث ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذه الآية عطف على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾. وذلك أنه بعد أن بيَّن سبحانه أن هذا القرآن نزل به جبريل الأمين بلسان عربي مبين، على قلب رسول الله ﷺ، ونظرًا لأن المكذبين بالقرآن كثيرًا ما يرمونه بالسحر والشعر والكهانة، فقد بيَّن سبحانه هنا حقيقة التكهُّن ودوْر الشياطين فيه، وأنه ليس في وسعهم أن يأتوا بشيء منه؛ لأنهم قد مُنعوا استراق السمع بعد بعثة النبي ﷺ، كما قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن].

---

(١) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٢٤).

وكانت هند بنت عتبة قبل أن تتزوج بأبي سفيان قد رماها زوجها الأول بالزنى، فذهب أبوها إلى الكاهن، فقال له: إنها ليست بزانية، وإنها سوف تلد ولدًا يكون مَلِكًا ويُسمَّى معاوية، فأراد زوجها أن يستعيدها فأبت، وتزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية، فكان هذا سبب قولهم: إن محمدًا كاهن يتلقى الأخبار من السماء، ويتلقفها من الشياطين.

وكانت العوراء بنت حرب امرأة أبي لهب، لَمَّا تخلَّف رسول الله ﷺ عن قيام الليل لمرض أصابه، قالت: أرجو أن يكون شيطانك قد تركك.

وكان المشركون قد نفَوْا أن يكون النبي ﷺ ساحرًا أو شاعرًا أو كاهنًا ،حين شاورُوا الوليد بن المغيرة فيما يصفون به النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور].

فمعنى الآية: لا يصح، ولا يستقيم، ولا يمكن أن تتنزَّل الشياطين بهذا القرآن كما يزعمون، فهو يدعو إلى الهدى والشياطين تدعو إلى الضلال، فضلًا عن أنهم لا يستطيعون ذلك أصلًا، والشياطين محجوبون، ومعزولون عزلًا تامًّا عن سماع القرآن، ولو حاولوا ذلك -أثناء التنزيل- لأحرقتهم الشهب، فقد صان الله كتابه صيانة تامة، وحفظه عن عبث الشياطين، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والشياطين ممنوعون من استراق السمع، ومن يحاول ذلك منهم فإنه يُرْجم بالشهب.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك].

قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من **ثلاثة أوجه**:

الأول: أنه ما ينبغي لهم؛ لأن سجاياهم الفساد وإضلال العباد، والقرآن فيه نور وهدى وبرهان عظيم.

الثاني: أنه لو انبغى لهم لَمَا استطاعوا ذلك، وهذا من حفظ الله لكتابه، وتأييده لشرعه.

الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حَمْلَه وتأديته، لَمَا وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشُهُبًا، فلم يخلُص أحد من الشياطين

لاستماع حرف واحد منه؛ لئلَّا يشتبه الأمر[١].

وقد أخبر الله - سبحانه - أن الوحي المنزل من السماء يُحاط بسياج مانع من بين يديه ومن خلفه يمنع وصول أي كائن إليه، فيبقى الوحي محفوظًا حتى يصل إلى النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن] أي: مما يتنزل به الوحي من الأمور المستقبلية التي لا علم لأحد بها، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ الذُّنُوبِ

٢١٣- ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

ولأن الشرك بالله تعالى أقبح الذنوب وأكبرها، فقد خاطب الله - سبحانه - الخلق جميعًا في هذه الآية إلى يوم القيامة، خطابًا ممثَّلًا في شخص رسولها ﷺ؛ لأنه المبلغ عن الله، خطابًا ينهاه الله فيه وينهى أمته عن دعاء غير الله وأن ذلك يوجب العذاب الدائم يوم لقاء الله، والخطاب في الآية لغير معين، وقد ثبت أن القرآن منزل من عند الله تعالى، بشهادة الكتب السابقة، وشهادة علماء بني إسرائيل، وقد أمرالله تعالى الجميع أن يُخلصوا له العبادة وألا يعبدوا معه غيره؛ لئلَّا يقع بهم ما وقع بالذين عبدوا مع الله إلهًا غيره، ممن سبق ذكرهم في السورة.

قال ابن عباس ﷺ في توجيه النهي عن الشرك في الآية للنبي ﷺ: يحذِّر به غيره يقول: أنت أكرم الخلق عليَّ، ولو اتخذت إلهًا غيري لعذَّبتُك[٢].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر].

وقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٦٥).

(٢) «زاد المسير» (٦/ ١٤٧).

وقوله ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]

وفي الآية تعريض بالمشركين أنهم سَيُعَذَّبون؛ لأن النبيَّ ﷺ وأصحابه غير مشركين.

والمعنى: فَأَخْلِص العبادة لله، وَاحْذَر أن تشرك معه غيره في عبادتك، فيحبط عملك، وتخسر دنياك وأخراك.

أَمْرُ الرَّسُولِ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ لِأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ

٢١٤- ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

أعلم اللهُ رسولَه بأنه ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أي: من المبلِّغين رسالة الله إلى الناس بصفة عامة.

١- قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢- وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

٤- وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

٥- وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

٦- وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وبعد هذا الأمر العام بتبليغ الرسالة في هذه الآيات، ذكرت هذه السورة أَمْرَ الله تعالى لرسوله ﷺ أن يبدأ دعوته بأقرب الناس إليه وأحقهم بإحسانه، وذلك أن يبلِّغ رسالته إلى أهله وعشيرته وأقاربه على وجه الخصوص؛ فهم أولى الناس بقبول دعوته وتعزيرها، ولئلَّا يسبق إلى أذهان الناس أن التخويف والوعيد لمن لم يمتثل أمر الله تعالى، ولم يستجب لرسوله ﷺ لايعم الجميع، القريب والبعيد، ولأن الأهل والعشيرة هم أولى الناس بالاهتمام، لهذا وغيره نزل الأمر الخاص بدعوتهم إلى الإسلام أوّلاً في هذه الآية، ثم يدعو سائر الناس بعد ذلك، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فدعا سائر بطون قريش، فعمّ وخصّص، وذكّرهم ووعظهم، وبذل جهده في نصحهم وهدايتهم، فاهتدي من اهتدى وأعرض من أعرض.

والمعنى: حذِّر -يا محمد- الأقرب فالأقرب من قومك، حذرهم من عذابنا أن ينزل بهم إن لم يؤمنوا بك وبدعوتك، وفي معنى هذه الآية وردت **أحاديث وروايات** كثيرة نكتفي باثنين منها:

١- عن ابن عباس ﷺ لما نزلت هذه الآية صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يَخْرُج أرسل رسولًا؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[(١)].

ومقتضى هذا الحديث أن سورة (الشعراء) نزلت قبل سورة (أبي لهب)، مع أن سورة (أبي لهب) هي السادسة في ترتيب النزول، وسورة (الشعراء) هي السابعة والأربعين، ويجيب على هذا ما جاء في صحيح مسلم، عن ابن عباس ﷺ: لما نزلت: (وأنذر عشيرتك الأقربين ورهْطك منهم المخلصين)[(٢)] خرج رسول الله حتى صعد الصفا، فهتف: «**يا صباحاه**»، فقالوا: من هذا؟ واجتمعوا إليه، وذكر نحوه[(٣)].

فيبدو أن هذه الآية نزلت مع الزيادة المذكورة، قبل سورة أبي لهب، ثم نُسِخت، وأعيد نزول بعضها في سورة الشعراء بعد ذلك.

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: أنه لما نزلت الآية قام ﷺ، وقال: «**يا معشر**

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٤٧٧٠، ٤٨٠١) ومسلم برقم (٢٠٨) و«السنن الكبرى» برقم (١١٧١٤) والترمذي برقم (٣٣٦٣).

(٢) هذه الجملة لم ترد عند البخاري، قال القرطبي: وظاهر هذا أنه كان قرآنًا يتلى، ثم نسخ، إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر، ويلزم على ثبوته إشكال، وهو أنه كان يلزم ألا يُنذِر إلا من آمن من عشيرته، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم، مؤمنهم وكافرهم. القرطبي (٣/ ١٤٣).

قلت: إن الرهط المخلص يمكن تفسيره بأنهم الأقارب المحبون له، الذين يرجى إيمانهم، بخلاف غير المخلصين منهم كأبي لهب، ولا دخل لهذا بالإيمان والكفر، فهذا كان في بدء الدعوة، وجملة (ورهطك منهم المخلصين) ليستْ قرآنًا بالإجماع، وهي تخالف رسم المصحف، وهو من أركان صحة القراءة ولعلها كانت قرآنا ثم نسخت كما قال القرطبي.

(٣) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٠٨).

قريش»، أو كلمة نحوها **«اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا»**[١].

وجاءت طُرق متعددة لرواية هذا الحديث عن عليٍّ ﷺ، وفيها أن النبيَّ ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية، أخبر عليًّا ﷺ أنه يخشى إن بدأ قومه بالدعوة أن يجد منهم مايكره، فطلب من عليٍّ أن يصنع له طعامًا، وجمعهم وهم أربعون رجلًا، يزيدون رجلًا أو ينقصون رجلًا، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب فأخذ رسول الله ﷺ قطعة وشقها بأسنانه، ونثرها في جوانب الجفْنة، وقال: **«كلوا باسم الله»** فأكلوا وشربوا، وبقي الطعام والشراب كأن لم يُمسَّ، ولما أراد أن يُكلِّمهم صدَّه (أبو لهب) قائلًا: سَحَركُم صاحبُكم، وتكرر ذلك، وفي المرة الثالثة تكلَّم رسول الله ﷺ، فقال: **«يا بني عبد المطلب، قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله - جلَّ شأنه - أن أدعوكم إليه»**، وطلب منهم أن يسمعوا، ويطيعوا، ويؤازروه في دعوته، وطلب منهم أن يقضوا ديْنه، وأن يخلُفوه في أهله بخير إن قُتل في سبيل الله[٢].

والظاهرمن مجموع الروايات أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا قومه عدة مرات في صور مختلفة، مرة مِنْ فوق جبل أبي قبيس، ومرة مِنْ على الصفا، ودعاهم إلى الطعام في بيته أكثر من مرة.

والإيمان بدعوة خاتم المرسلين لابدَّ منه لكل إنسان منذ بعثته ﷺ.

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«والذي نفس محمد بيده،**

---

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٢٧٥٣، ٤٧٧١) ومسلم برقم (٢٠٦).

(٢) يُنظَر «مسند الإمام أحمد» (١/ ١١١) و (١/ ١٥٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٠٢): رجاله ثقات، وفي بعض طرق هذا الحديث عند الطبري وابن إسحاق وغيرهما عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم، وهو متهم بالوضع، ويُنظَر: البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٧٨) و«تفسير الطبري» (١٩/ ٤٠) ورواه محمد بن إسحاق ص (١٢٦) عن عليٍّ ﷺ.

لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[١].

الأَمْرُ بِلِينِ الجَانِبِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ

٢١٥، ٢١٦- ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبدأ بدعوة الأقرب فالأقرب من عشيرته؛ حتى لا يَظُن به أحد المحاباة واللطف معهم، أمره بعد ذلك بخفض الجناح ولين الجانب لجميع المؤمنين.

أي: ألنْ جانبك وكلامك تواضعًا ورحمة لمن ظهرت لك منه بوادر إجابة دعوتك.

وخفْضُ الجناح مَثَلٌ يُضرب للمعاملة باللين والتواضع.

وقد جاء الأمر به بالنسبة للوالدين في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وجاء أيضًا بالنسبة للمؤمنين بصفة عامة في قوله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي: اخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم، كما وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ووصف الله به رسوله في قوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وهنا يقول تعالى لنبيه ﷺ: إذا دعوت عشيرتك الأقربين وأنذرتهم فاخفض جناحك وتواضعْ وألنْ جانبك لمن يدخل منهم في حظيرة الإيمان، وتودَّدْ إليه وتحبَّب.

أما من عصاك منهم، وخالف أمرك، ولم يطعك فتبرأ من شركه وعمله.

قال أبو حيان: لما كان الإنذار تترتب عليه الطاعة أو العصيان -جاء التقسيم عليهما، فكان المعنى: من اتبعك مؤمنًا فتواضع له، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم[٢].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ٤٦).

والمعنى: فإن عصاك أهلك وعشيرتك فتبرأ منهم، وأعلن عداوتك ومجافاتك لهم.

وبهذه الأخلاق تحصُل المنافع، وتُدفع المضار، فلا يليق بالمؤمن أن يكون شرس الأخلاق، غليظ القلب، فظ القول، فإن وَجَد من يخالفه في بعض الأمور فلا يتبرأ منه ولا يترك معاملته، وإنما يتبرأ من عمله، فيعظه وينصحه، ويبذل جهده في رده إلى الحق، وخفض الجناح للمؤمنين ليس معناه الرضى بكل ما يصدر منهم، بل المعنى حسن التعامل ولين الجانب ولو كانوا مخالفين لك.

تَقْوِيَةُ عَزْمِ الرَّسُولِ ﷺ

٢١٧-٢٢٠- ﴿وَتَوَكَّلْ[١] عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

التوكل هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الأخذ بالأسباب والثقة فيما عند الله تعالى، وحسن الظن بحصول المطلوب، وهذه الاستعانة بالله تعالى بمنزلة الإحسان، فالله تعالى يراك ويطلع عليك في جميع أحوالك، فأنت تعبد الله حال التوكل عليه كأنه يراك ويطلع عليك.

أي: وامض -أيها الرسول- في طريق الدعوة إلى الله، ولا تخش عداوتهم و تبرأ منهم متوكِّلًا على ربك، ومفوضًا أمرك إليه، فهو العزيز الذي لا يُقهر، صاحب العزة والغلبة، الرحيم بمن آمن به من عباده فينصرهم ولا يخذلهم.

١- وهو سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ من فراشك، أو من مجلسك، أو من نومك، وحين تقوم إلى صلاتك وعبادتك، ويراك حين تتقلب بين أظهر الراكعين والساجدين وأنت تصلي وحدك أو تصلي مع غيرك، يراك في كل حال منفردًا ومع الجماعة، ويراك في سائر تصرفاتك.

٢- قال مقاتل لأبي حنيفة: هل تجد صلاة الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني، فتلا

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالفاء في (وتوكل) جواب شرط مقدر يُعلم من السياق، أي: فإذا أنذرت عشيرتك فعصوْك فتوكل، وقرأ الباقون بالواو عطفًا على (ولا تدع).

مقاتل هذه الآية.

وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«هل ترون قبْلتي ههنا؟ فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري»**[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

قال عكرمة: يراه في قيامه، وركوعه، وسجوده، وجلوسه.

وقال قتادة: يراك في صلاتك وحدك، ويراك في الجميع، ويراك قائمًا وقاعدًا، وعلى كل حالاتك.

٣- وورد أن المراد بـ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي: في أصلاب آبائك من الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى إبراهيم، ثم إسماعيل، كما قال ﷺ: **«أنا خيار من خيار من خيار»**.

وعن ابن عباس ﷺ قال: مازال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه[٢].

وهو سبحانه السميع لتلاوتك وذكرك في الصلاة وخارجها، العليم بنيَّتك وعملك، وما تبديه وما تخفيه، يسمع قولك، ويعلم عزمك، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالمعنى: يراك في جميع أحوالك، ويراك في صلاة الجماعة ويراك في أصلاب آبائك.

إِبْطَالُ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْكَهَانَةِ

٢٢١-٢٢٣- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ[٣] الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾

تعود الآيات إلى ما كانت تتحدث عنه قبل قليل، عن الشياطين، وأنهم كانوا يسترقُون السمع، وليس بإمكانهم الإتيان بشيء يماثل هذا القرآن، فبيَّنت بعد ذلك كيفية نزول الشياطين على الكهنة وجاء ذلك في صورة الاستفهام:

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤١٨، ٧٤١) و«صحيح مسلم» برقم (٤٢٤، ٤٢٥) ومالك (١/ ١٦٧).

(٢) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٢٨) وأبو نعيم (١٧).

(٣) قرأ البزي في أحد وجهيه بتشديد التاء وصلًا من (على من تنزل)، والباقون بتخفيفها ومعهم البزي في وجهه الآخر، وكلهم يبدأ بتاء مفتوحة مخففة.

أتريدون -أيها الناس- أن أخبركم الخبر الحقيقي الذي لاشك فيه ولا شبهة، فأخبركم على مَن مِن الخلق تتنزَّل الشياطين؟ وهذا رد على قول الكفار: إنما يأتيه الشياطين بالقرآن.

قال تعالى في الردِّ على هذا التساؤل: إن الشياطين تتنزَّل على كل كذَّاب فاجر كثير الآثام؛ مبالغ في الكذب والعدوان من الكهنة، لأنه يضلل الناس أنه لا يقول إلا صِدْقًا، مع أكله أموال الناس بالباطل، وزعمه أن الشياطين تنزل على سيد الخلق، فالمنهج متعارض، إن محمدًا ﷺ يدعو إلى الحق والهدى، وهم يدعون إلى الباطل والضلال.

ثم وصف الله - سبحانه - الشياطين بأنهم يُلقُون ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة، وهذا وصف لهم قبل منعهم من استراق السمع، ورجمهم بالشهب.

كما وصف سبحانه الأفَّاكين الآثمين من الكهنة بأنهم يُنْصِتون إنصاتًا شديدًا إلى الشياطين؛ ليتلقفوا منهم ما يُلْقونه إليهم مما يتخطفونه من الملأ الأعلى.

وأكثر الشياطين كَذَبة، يَصْدُق أحدهم في كلمة واحدة، فيزيد فيها أكثر من مئة كذبة.

كما أن أكثر الكهنة كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقَّوْه من الشياطين وهم لم يتلقوا شيئًا، أو يزيدون عليه أضعافًا.

عن عائشة ﵂ أن ناسًا سألوا النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «**إنهم ليسوا بشيء**» قالوا: يارسول الله، فإنهم يُحَدِّثُون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيُّ، فيُقرقرُها في أذن وليه، كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مئة كذبة**»[1].

فالكهنة يبالغون في الإنصات إلى الشياطين، وأكثرهم كاذبون، وإلقاء السمع: شدة الإنصات، كما قال تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]. فهم أفَّاكون متفاوتون في الكذب، فمنهم أفَّاكون فيما يزيدونه على خبر الجن، ومنهم أفاكون في أصل التلقِّي عن الجن.

وقد أطنب القرآن في هذا لبيان حال الكهنة، وبيان توقف الشياطين عن استراق السمع منذ بعثة النبي ﷺ.

والمقصود من هذه الآيات: إبطال ما زعمه المشركون من أن الرسول ﷺ قد تلقى هذا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢١٠، ٧٥٦١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٨).

القرآن عن الشياطين أو عن غيرهم، وإثبات أن القرآن نزل من عند الله بواسطة الروح الأمين، مشتملا على الصدق الذي لا شبهة فيه، محروسًا من الشياطين ومحفوظا بحفظ الله.

إِبطَالُ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ

٢٢٤-٢٢٦- ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ[1] ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

ولما نزه الله رسوله عن نزول الشياطين عليه، برأه أيضًا من قول الشعر، وأخبر أن الشعراء يسلك طريقهم المقبلون على طريق الغي والضلال، وأنهم يهيمون في أودية الشعر، بين مدح وقدح، وصدق وكذب، وغزل وعشق، وسخرية، وفرح وحزن، ولا يثبتون على حال، وأقوالهم تخالف أفعالهم، وهذه الصفات والأخلاق لا تطابق حال الرسول ﷺ، فهو لا يقول إلا صدقًا، ولا يأمر إلا بخير، ولا ينهي إلا عن شر، وهو لا يخالف قوله فعله.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم شبهة المكذبين في وصفهم للرسول ﷺ بأنه كاهن، ووصفهم للقرآن بأنه كهانة، انتقل إلى إبطال شبهة أخرى تصف النبي ﷺ بأنه شاعر، وتصف القرآن بأنه شعر، وقد ذمَّ الله شعراء الباطل، وبيَّن أن شعرهم يقوم على الكذب والزور، وأن الذين يُجارُونهم ويتَّبعونهم هم الضالون الزائغون عن جادة الحق والصواب، وليس أهل الرشاد والبصيرة.

وأحوال الشعراء تخالف أحوال الأنبياء؛ فإن الأنبياء لا يتبعهم إلا الراشدون المهتدون، وكانوا يزعمون أن للشاعر شيطانًا يُملي عليه الشعر.

وكثيرًا ما نفى القرآن هذين الوصفين عن الرسول ﷺ وعن الرسالة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحاقة].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس].

---

(١) قرأ نافع بإسكان التاء وفتح الباء من (يتْبَعهم)، والباقون بتشديد التاء مفتوحة وكسر الباء، وهما لغتان.

وقد كان نفر من شعراء مكة يهجون النبي ﷺ، وكان المشركون يَعْمَدون إلى مجالسهم يستمعون إليهم، كما كان يَعْمَد إليهم الأعراب من خارج مكة يستمعون إلى أشعارهم وهجائهم في النبي ﷺ، وقد أدمجت الآية من يستمع إلى الشعر بمن يقوله.

ومن هؤلاء الشعراء: النضر بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب، ومُسافح بن عبد مناف، وأبو عزة الجُمَحي، وابن الزِّبَعْرى، وأمية بن أبي الصلت، وأبو سفيان بن الحارث، وأم جميل العوراء بنت حرب زوج أبي لهب.

وكان هؤلاء الشعراء يقولون الكذب والباطل، ويقولون: نحن نقول مثل ما يقول محمد؛ فذمَّهم الله تعالى في هذه الآية.

والمراد بالشعراء في الآية: الذين يقوم شعرهم على الكذب والباطل، بدليل الاستثناء الآتي، وفي حكم هؤلاء الشعراء من يجاريهم من الضالين الفسقة الذين يزيغون عن الحق، ويتبعون الباطل، ويروِّجون له.

وفي الآية ذمٌّ لمن يقول الشعر الكاذب مِمَّن شغَلهم الشعر عن سماع القرآن، ومتابعة النبي ﷺ، وفيها ذمٌّ لأتباعهم المجالسين لهم، السالكين طريقهم، وفي الآية تنزيه لأصحاب النبي ﷺ أن يكونوا مثل هؤلاء الشعراء، وفيها أيضًا تنزيه للقرآن عن أن يكون شعرًا.

ومن الشعر ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم:

فإذا كان الشعر يُقال في نُصْرة الإسلام، والدعوة إلى مكارم الأخلاق وفضائلها، ومحاسن الإسلام، ونحو ذلك -فهو شعر محمود، فقد قال النبي ﷺ كما في حديث كعب بن مالك: «**إن المؤمن لَيُجاهد بالسيف واللسان**»[1].

أما إن كان الشعر في الغزَل والعشق ووصف النساء، أو شرب الخمور، أو الثناء على الباطل، أو في الرياء والنفاق، أو في قَلْبِ الحق باطلًا والباطل حقًّا، ونحو ذلك، فإن هؤلاء الشعراء هم الذين ذمتهم الآية، فأنت تراهم كالهائم على وجهه يخوض في كل فن من فنون الكذب والزور، وتمزيق الأعراض، والطعن في النسب، وتجريح النساء العفيفات.

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٢٥/ ٦٣) (١٥٧٨٥) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، عن كعب بن مالك، وهو في «المطالب العالية» عن أبي يعلى (٤٠٥٤) والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٣٩).

وهم في كل واد يهيمون، مرة هنا ومرة هناك، تتغير أحوالهم، فيسلكون في المديح والهجاء كل طريق، يمدحون الشخص بعد أن ذَمُّوه، ويُعظِّمون الشيء بعد أن احتقروه، وهكذا يقولون الشيء وضده، ومن شأنهم مخالفة أقوالهم لأفعالهم كحال المنافقين، وهم يبالغون في مدح الباطل وأهله، ويُنقصون من الحق وأهله.

في خلافة عمر ﷺ أنشد النعمان بن عدي أبياتًا يتغزَّل فيها بالمرأة، ويتحدث فيها عن الخمر، فبلغت هذه الأبيات عمر، وكان الرجل قد قال: لعلَّ أمير المؤمنين يسوؤه ما نقول، فأرسل إليه عمر يطلبه، وقال له: والله إنه ليسوؤني ذلك، وقد وجب عليك الحدُّ، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما فعلتُ شيئًا مما قلتُ، وإنما كان فَضْلةً من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ فقال له عمر: إنَّ عُذْرك قد رَفَع الحدَّ عنك، ولكن لا تعمل لي عملًا أبدًا، وقد قلتَ ما قلتَ.

ولما أنشد الفرزدق أبياتًا عند سليمان بن عبد الملك يصف فيها النساء العذارى، قال له سليمان: قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد درأ عني الحدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾؛ فعفا عنه.

إن الشاعر الذي يُنشد في الخمر، ويتغزل في النساء والعشق، فيصف المرأة وصْفًا دقيقًا كأنها سلعة تباع وتُشترَى، ويُعلِّم الناس الغزَل، ويبثُّ فيهم الأخلاق الفاسدة، ويعلِّم الشباب طُرق الحب والعشق، والتأوهات، هو ممن قال فيهم النبي ﷺ: **«لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير من أن يمتلئ شعرًا»**[1] وذلك لِمَا يقوم عليه هذا الشعر من: الكذب، والخيال، وقلب الحقائق، ولهذا قال ابن عباس ﷺ: أكثر قولهم يَكْذِبون فيه، فهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم.

الشِّعْرُ المَحْمُودُ

٢٢٧- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ

---

(١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري في «صحيح مسلم» برقم (٢٢٥٧) و (٢٢٧٩) والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٤٤) وابن أبي شيبة (٨/ ٥٣٢) و«المسند» (١٧/ ١١١) (١١٠٥٧)، و (١١٣٦٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات. (محققوه).

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

استثنى الله - جلَّ شأنه - من الشعراء: الذين اهتدوا بالإيمان وعملوا الصالحات، وأكثروا من ذكر الله تعالى والثناء عليه - جلَّ ذكره -، ودافعوا عن رسول الله ﷺ، وعن الدعوة الإسلامية، ونطقوا بالحكمة والموعظة الحسنة، والآداب الكريمة، والأخلاق الفاضلة، وانتصروا للإسلام، يهجون من يهجوه، ومن يهجو رسوله ﷺ، ويردون على الشعراء الكاذبين، فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، ومن آثار إيمانهم، لاشتماله على مدح الإيمان والانتصار من أهل الشرك، والذب عن دين الله، والحث على الأخلاق الفاضلة.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في رهط من الأنصار، هاجَوْا عن رسول الله ﷺ، منهم: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت[1].

وهذه ثلة من الآثار الواردة في هذا المقام:

١- روى ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، وغيرهما أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى النبي ﷺ وهم يبكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء، هلكْنا، فأنزل الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم[2].

٢- وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله جلَّ شأنه قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل**»[3].

٣- وكان أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكثيرًا ما كان يهجوه، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، فكان يمدحه

(١) يُنظَر: «ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٨٣٥).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» من طريق أبي أمامة (٣/ ٤٨٨) وانظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٧٩) و«أسباب النزول» للسيوطي (٢٠٨) و«زاد المسير» (٦/ ١٥١).

(٣) «المسند» (٦/ ٣٨٧) برقم (١٥٧٨٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٥٣) وابن حبان (٤٧٠٧) «الإحسان» بتصحيح الأرناؤوط، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٣١).

بعدما كان يهجوه[١].

٤- وثبت في الصحيح عن البراء بن عازب ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال لحسان بن ثابت: **«اهجهم -أو هاجهم- وجبريل معك»**[٢].

٥- وكان الرسول ﷺ يضع منبرًا لحسان بن ثابت في المسجد لهجاء المشركين، ويفاخر وينافح عن رسول الله ﷺ.

والشعر كالنثر، فإذا كان الشعر في الجهاد مثلًا، لحثِّ المجاهدين على حُسن البلاء في ملاقاة العدو فلا بأس بذلك.

أما إذا كان يدعو إلى رذيلة من الرذائل فهذا مما يبغضه الله - جلَّ شأنه -، كما جاء في الآية التي ذمَّ الله فيها الشعراء الكاذبين.

فدلَّ هذا ونحوه على أن للشعر حالتين: حالة مذمومة، وحالة محمودة، وقد أثنى النبي ﷺ على الشعر المحمود، وأنصت الصحابة لشعر كعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، وسُحيم عبد بني الحساس، وكعب بن مالك، وغيرهم، وأذن لحسان في هجاء المشركين، وقال له: **«كلامك أشد عليهم من وقع النبل»**[٣].

وقال ﷺ لحسّان: **«اهج المشركين ومعك روح القدس»**[٤].

٦- وقال أبو هريرة ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: **«أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب، كلمة لُبيد:**

ألَا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل»[٥]

٧- وفي البخاري وغيره: عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من الشعر حكمة»**[٦].

---

(١) يُنظَر: «طبقات ابن سعد» (٣/ ٥٢٨).

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٣٢١٣، ٦١٥٣) ومسلم برقم (٢٤٨٦) وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٩) عن البراء بن عازب،

(٣) من حديث أنس في صحيح سنن النسائي برقم (٩٨٢٣) بتصحيح الألباني .

(٤) من حديث البراء عند أحمد برقم (١٨٦٤٢، ١٨٥٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (٨٢٩٥) والطبراني في الصغير (٩٩٤) والبيهقي بتصحيح الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٢٥٢٢).

(٥) متفق عليه كما في البخاري (٦٤٨٩، ٣٨٤١، ٦١٤٧) ومسلم (٢٢٠٦، ٢٢٥٦) و في مشكاة المصابيح برقم (٤٧٨٦) ج٢ .

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٦١٤٥)، وصحيح أبي داود (٤١٨٩) وصحيح الجامع (٢٢١٩) والمشكاة (٤٧٨٤).

٨- وعن ابن عباس ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام، فقال: «**إن من البيان سحرًا، وإن من الشعر حِكَمًا**»[١].

٩- واستمع النبي ﷺ إلى شعر أمية بن أبي الصَّلت، ثم قال: «**لقد كاد يُسلم في شعره**».

١٠- وقالت عائشة ﷺ: الشعر كلام، فمنه حسن، ومنه قبيح، فخذ منه الحسن، ودع منه القبيح.

١١- وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عليٌّ أشعر منهما، وهذا كله في الشعر المحمود الوارد في هذه الآية.

أما الشعر المذموم فهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

ومن عموم الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن عائشة ﷺ قالت: كتب أبي وصيته في سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قُحافة، عند خروجه من الدنيا، حين يُؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويَصدُق الكاذب: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به، ورجائي فيه، وإن يجُر ويُبدِّل، فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢].

أي: سوف يأتيهم العقاب في الدنيا ببغض الناس لهم؛ بسبب إفكهم وكذبهم، ويوم القيامة سوف يُجْزَوْن جزاء جُرمهم وكذبهم، وهذا جزاء كل من ظلم، فالله من ورائهم محيط.

وفي هذا تهديد لهم بسوء العاقبة، وسوء المصير والمرجع، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر].

ثم توعَّد الله سبحانه في نهاية السورة، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بأكل أموالهم وغمط حقوقهم، أو الانتقاص منهم، أو الاعتداء عليهم، توعَّدهم بسوء العاقبة والمصير، يوم لقاء رب العالمين، وسيعلم الظالمون أيَّ مرجع من مراجع الشر والهلاك يرجعون إليه، فبئس المآل والمنقلب، نسأل الله السلامة والعافية.

تم تفسير (سورة الشعراء) ولله الحمد والمنة.

---

(١) يُنظَر: «صحيح سنن أبي داود» (٤١٩٠) و«صحيح سنن الترمذي» عن ابن مسعود (٢٢٨٠) وابن أبي شيبة (٨/ ٥٠٥)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٧٣١) وصحيح الجامع (٢٢١٥) ومشكاة المصابيح (٤٧٨٣).

(٢) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٣٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّمْلِ (٢٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سور: الشعراء، والنمل، والقصص، هذه السور الثلاث سور مكية، نزلت متتابعة -كترتيبها في المصحف- وموضوعها واحد، وأسلوبها واحد، ومنهجها واحد، فهي تهتم بأصول العقيدة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكلٌّ منها يشتمل على مقدمة وتعقيب، وبينهما موضوع السورة.

وكلها تبدأ بمقدمة عن القرآن الكريم، تتناولها في بضع آيات، ثم تذكر عددًا من قصص الأنبياء والمرسلين، فقد ذكرت سورة (الشعراء) سبع قصص، وذكرت سورة النمل أربع قصص عن: موسى، وسليمان، وصالح، ولوط ﷺ، وانفردت سورة القصص بقصة واحدة هي قصة موسى ﷺ، وهي القصة الأولى في السور الثلاث، فكل سورة منها تتناول حلقة منها، وبعد نهاية القصص القرآني يأتي التعقيب في نهاية السورة.

وسورة (النمل) هي السورة السابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الشعراء)، وقبل سورة (القصص).

وهي ألف وثلاث مئة وسبع عشرة كلمة، وأربعة آلاف وسبع مئة وتسعة وتسعون حرفًا.

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وتسعون آية[1].

وتسمى سورة (النمل)، كما في صحيح البخاري، وجامع الترمذي، ولفظ النمل لم يذكر إلا في هذه السورة، وذَكَر أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن أنها تسمى سورة (الهدهد)، ولفظ سليمان ذُكر في عدة سور، ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أنه يسميها سورة (سليمان)؛ لأن ما ذُكر فيها عنه لم يُذكر في سورة أخرى.

وقد حوت سورة (النمل) المكية عجائب عن عالم الحيوان، بما في ذلك كلام النمل والهدهد، وتفريقُه بين التوحيد والشرك في شهادته على (بلقيس) وقومها، وأنهم يسجدون

---

(١) وأربع وتسعون آية في العدد الشامي والبصري، وخمس وتسعون آية في العدد المدني والمكي.

للشمس من دون الله، وهذا مما يشير إليه قوله تعالى في آخر السورة: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [٩٣]. فربما يكشف المستقبل عن منطق: الطير، والدواب، والهوام.

موضوعات السورة:

وفي صدر السورة بيان موجز لمصائر المؤمنين والكافرين، فالهدى والبشرى للمؤمنين، والضياع والهلاك والخسران للكافرين، وقد أشارت السورة إلى هداية المؤمنين، وضلال الكافرين في أولها.

وفي قصص: موسى وفرعون، وسليمان وبلقيس، وصالح مع قوم ثمود، ولوط مع أهل المؤتفكة، ذكر الله لنا مصائر هذه الأمم التي كذبت رسلها؛ ليكون لنا فيها عبرة وعظة، فنؤمن بخاتم المرسلين ﷺ، ولا تبقى ديانة أخرى على وجه الأرض إلا انضوت تحت لوائه.

ثم وجهت السورة خمسة أسئلة تُرسي فيها قواعد التوحيد، وتشرحها لكل ذي لبٍّ وبصيرة.

وعلى هذا يمكن تقسيم السورة إلى:

مقدمة: وهي الآيات الست الأولى منها.

وموضوع: وهو أربع قصص لأنبياء الله ورسله، وهم: موسى وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام، وهذا من الآية السابعة إلى الآية الثامنة والخمسين منها.

وتعقيب: وهو من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الثالثة والتسعين، وهي نهاية السورة.

وقد تضمنت المقدمة خلاصة لمصير كل من المؤمنين والكافرين، وتضمَّن التعقيب تفصيلًا لهذه الخلاصة، بدأها بخمسة أدلة تقرر وحدانية الخالق سبحانه. وثنَّتها ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.

وساقت بعض المشاهد والأحوال التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر حين يفزعون ويرهبون، ويكونون على قسمين: السعداء الأبرار، والذين يُكَبُّون في النار على وجوههم.

وبيَّنت السورة في آخرها أن لواء الدعوة في آخر الدهر معقود لصاحب الرسالة العظمى الذي صنع بالقرآن أمة، وظيفتُها أن تُبلغ الدعوة، وتصنع به أمَمًا على غرارها.

وسيكشف المستقبل الكثير عن مستقبل الإسلام، ومستقبل الكفر في هذه الدنيا وما بعدها.

أما القصص **الأربع**:

فأولها: طرف من قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتعلق ببدء نزول الوحي عليه في طور سيناء، ومن ثَم تكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه، ثم تكذيبهم له، وهم على يقين بصدقه، مع الإشارة إلى سوء عاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: برسالة موسى ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذه الآية هي نهاية قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه السورة.

وثانيها: وراثة نبي الله سليمان للمُلْكِ من أبيه، وتعليم الله له لغة: الطيور، والحشرات، والحيوانات، وقصته مع النملة، ومع بلقيس ملكة سبأ، وإسلامها على يديه في نهاية الأمر، بعد أن كانت تعبد الشمس من دون الله، وهي قصة لأصحاب المُلْك والجاه، فقد استخدم سليمان سلطانه في الدعوة إلى الله تعالى، ولم يترك حاكمًا جائرًا إلا دعاه إلى الله، وانتهت هذه القصة بالآية الرابعة والأربعين من السورة.

وثالثها: طرف من قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد أرسله الله إلى قوم ثمود، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وتآمروا على قتله، ولكنهم بدل أن يقتلوه قتلوا الناقة، فأذاقهم الله العذاب الأليم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وانتهت هذه القصة بالآية الثالثة والخمسين.

والقصة الأخيرة: هي قصة نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أهل مدينة (سدوم) الفسقة الذين استمرؤوا الشذوذ الجنسي علنًا في مجالسهم ونواديهم، ولما دعاهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، لترك هذا الفجور همُّوا بإخراجه ونفيه من البلاد، فدمر الله القرية وجعل عاليها سافلها، وانتهت هذه القصة بالآية الثامنة والخمسين، وجاء التعقيب على هذا القصص بقوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [٥٩].

وخُتمت السورة بالحديث عن الآخرة والحساب، ومن ذلك خروج الدابة التي تكلم الناس قرب قيام الساعة.

وتبيِّن السورة في النهاية أن المستقبل سيكون للإسلام، وأن مستقبل الكفر محدود في الدنيا بمعرفة ظواهر الأمور، والغفلة عن العلم الحقيقي الموصِّل إلى سعادة الدارين.

تُفْسِيرُ السُّورَةِ

دَلَالَةُ افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِحَرْفَيْ الْهِجَاءِ

١، ٢- ﴿طسٓ[١] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

بدأت سورة (النمل) كغيرها من بعض السور المفتتحة بحروف الهجاء، بدأت بحرفين من الحروف الهجائية، هما الطاء والسين، وهذه الحروف تُنطَق كاملة، حرف الطاء مكون من حرفين، وحرف السين مكون من ثلاثة أحرف، وتأخذ حقها من أحكام التجويد، بمد الطاء حركتين، والسين ستًّا.

وعند وصل (طس) بما بعدها تكون من باب الإخفاء الحقيقي، وهو مصحوب بالغنة.

وتُكتَب في المصحف حروفًا على غير نطقها ولا يمكن تصحيح تلاواتها إلا بالتلَقِّي والمشافهة.

وهذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلم حقيقة تأويله إلا الله.

ومما يقال في معنى هذه الحروف: إنها نزلت لِلَفْت أنظار المكذبين بالقرآن؛ حتى يستمعوا إليه، فهو يوقظ انتباههم بألفاظ عجيبة غريبة عنهم، حتى يسمعوا ويُنصتوا، ويفكروا في معنى هذه الألفاظ، وقد كان المشركون يقول بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقيل أيضًا في معنى هذه الحروف: إنها نزلت للإعجاز، ولبيان أن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثل أقصر سورة من هذا القرآن، وكأن الله تعالى يقول لمن يقول: إن القرآن ليس من عند الله: هذا هو القرآن الذي عجزتم عن معارضته، فهو مكوَّن من الحروف التي تتكلمون بها، وهذا يدل على أنه ليس من قول بشر، ويشهد لذلك أن الآية التالية لهذه الحروف المقطعة في أكثر السور المفتتحة بها، فيها إشارة إلى هذا القرآن المكوَّن من هذه الحروف التي نستعملها في كلامنا؛ ليبيِّن لهم وجه الإعجاز البلاغي فيه، فليأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه.

---

(١) سكت أبو جعفر على الطاء والسين سكتة لطيفة بدون تنفس، على أنها حروف مستقلة، والباقون بعدم السكت.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هذه هي الآيات الواضحات البيِّنات، بما فيها من العلوم والحِكَم والشرائع، لا لَبْس فيها ولا غموض، وهي تدل على الأخبار الصادقة، تأمر بكل خير وتنهي عن كل شر، تدعو إلى توحيد الله وصدق اليقين، وتخبر عن الأمور الغيبية في الماضي والمستقبل، وتهدي للتي هي أقوم، وقد اهتدى بهذا القرآن من اهتدى وأعرض عنه من أعرض.

والقرآن هو الاسم العلَم على الكتاب المنزل على محمد ﷺ للإعجاز والهدى.

والكتاب اسم آخر مرادف له، وهو علَم على القرآن بالغلَبة، مع ما فيه من تشريع، ومواعظ، وأحكام، وافعل ولا تفعل، وغير ذلك.

وفي أول سورة الحجر جاء لفظ الكتاب معرفًا، إشارة إلى أن القرآن المنزل على رسول الله ﷺ يوصف بأنه كتاب، ويوصف بأنه قرآن، وجاء لفظ الكتاب منكَّرًا هنا من باب عطف الصفات بعضها على بعض؛ لأنه يُقرأ ويكتب، وحيث جاء التعريف فهو العلم، وحيث جاء التنكير فهو الوصف.

وقُدِّم القرآن على الكتاب هنا؛ لأن المقام مقام تنويه بالقرآن وأتباعه المؤمنين، وجاء عكس ذلك في سورة (الحجر)؛ لأن المقام هناك مقام تحسُّر للكافرين جزاء إعراضهم عن الإسلام.

وهذا الكتاب المبين فيه الهداية إلى الفوز بسعادة الدارين، والبشارة بحسن الثواب، لمن في قلوبهم الاستعداد للإيمان بما فيه، والاهتداء بهديه، ممن أراد الاتباع والتصديق به، وعَمِلَ بما فيه، فأقام الصلاة بأركانها وشروطها، وآتى الزكاة المفروضة لمستحقيها، وصدَّق بالبعث واليوم الآخر، وما فيه من عقاب وثواب تصديقًا جازمًا لا يخالجه شك، فهو كتاب فيه هدى وبشرى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصَافُ الْكَافِرِينَ

٣- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾

وصف الله - سبحانه - المؤمنين في هذه الآية بثلاثة أوصاف هي:

أ- إقامة الصلاة فرضها ونفلها، بأدائها في أوقاتها، بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها والخشوع فيها، وتدبر أقوالها وأفعالها.

ب- وإخراج الزكاة المفروضة لمستحقيها، وقد يراد **بالزكاة:** الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق، والمراد بها في هذه الآية: الصدقة، أو الزكاة غير المقدرة بالنصاب والمقدار؛ لأن السورة مكية، وقد فرضت أنصبة الزكاة ومقاديرها في المدينة.

جـ - والوصف الثالث في الآية هو الإيمان اليقيني بالبعث والنشور، ولا يوقِن بالآخرة حق اليقين، إلا من جمَع بين الإيمان والعمل الصالح، وبلغ به الإيمان درجة اليقين، وهو العلم التام، المقرون بالعمل والسعي للدار الآخرة. قال تعالى:

٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾

أما غير المؤمنين الذين ليس في قلوبهم رغبة الإيمان، فهم كما يقول الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة]. وذلك لأنهم اختاروا طريق الهلاك، وآثروا طريق الزيغ والضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وسُنَّة الله في خلقه أنَّ من يختر طريق الضلال والغواية يُضله الله، ومن يختر طريق الهدى والرشاد يوفقه الله -سبحانه-، فالذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعملون لها، حسَّنَّا لهم أعمالهم القبيحة فرأوْها حسنة، بسبب اختيارهم طريق الضلال، وتَرْكهم طريق الهدى والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

فتزيين الأعمال للكافرين معناه: أن الله تعالى جعل عقابهم على كفرهم أنْ حتَّم عليهم الكفر، وحبب إليهم الشرك، وزيَّنه لهم، بأن جعله في نفوسهم، جزاء كسْبهم له وحِرْصهم عليه.

إن المؤمن يرجو لقاء الله، ويخاف عذابه، ويعمل للثواب والحساب، والكافر لا يخشى الله، ولا يعمل لليوم الآخر، ولذلك فإن أعمالهم السيئة التي يفعلونها يروْنها في أعينهم حسنة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

فهم يتخبطون ويترددون، لا يميزون بين الحسن والقبيح، ويتحيرون في ضلال وغواية

مع شياطينهم، وقد علم الله خُبث طواياهم، فحرمهم التوفيق؛ وذلك لأن تفاوت الناس في قبول الخير يكون بمقدار رسوخ الشر في نفوسهم، وتعلُّق فِطْرتهم به، بسبب ما يطرأ على سلامة الفطرة من الفساد.

فمبادرة أبو بكر -مثلًا- إلى الإيمان بالنبي ﷺ دلالة على أن الله تعالى فَطَرَهُ بِنفْس وعقْل بريئيْن من التعلُّق بالشر، واشتياق إلى الخير، فإذا لاح لهما تقبَّلاه، وبالمقابل فإن وسوسة الشيطان تجدُ في نفوس ضعفاء سلامة الفطرة مرتعًا خصبًا، ومنبتًا لا يقحل، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [٢٤]. وهؤلاء الذين انقلبت عليهم الحقائق، فرأوُ الحق باطلًا والباطل، لهم مصير سيء يوم لقاء الله:

٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾

أي وهؤلاء القوم لهم سوء العذاب في الدنيا، فهم في قلق واضطراب، وحيرة وعذاب نفسي، أو في قتل وأسر، وذل وهزيمة، وهم عند موتهم تَضْرب منهم الملائكة الوجوه والأدبار، وهم في الآخرة أشد خسرانًا مهما كانوا في ترف ونعمة؛ لأن مصيرهم إلى النار المؤبدة، فهم قد خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]. وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

الْقُرْآنُ فَيْضٌ مِنَ اللهِ عَلَى رَسُولِهِ

٦- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

ختم الله سبحانه هذه المقدمة لسورة (النمل) ببيان أن الله تعالى قد أفاض هذا القرآن على قلب رسوله ﷺ، فهو من عند الله تعالى، ولم يأتِ به محمد ﷺ من تلقاء نفسه.

وفي هذا انتقال من التنويه بالقرآن، إلى التنويه بمن أُنزل عليه القرآن، وانتقال من كون القرآن آيات دالة على أنه كتاب مبين، إلى أنه آية دالة على صدق من أُنزل عليه.

والمعنى: وإنك -يا محمد- لتتلقى القرآن من عند الله الحكيم في خلقه وتدبيره، الذي أحاط بكل شيء علمًا، يستوي عنده علم السرائر والظواهر، حيث يضع الأمور في مواضعها.

والرسول ﷺ كان يتلقى القرآن من جبريل الأمين عن رب العالمين، وفيه قصص

الأولين والآخرين، وهو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ وهذا الوحي نفسه، هو الذي نزل على موسى عليه السلام.

وهذا التلقى يشمل طريقة التلاوة والأداء التي علَّمها جبريل للنبي عليهما ووصلت إلينا بطريق التواتر العملي، وطريقة الأداء العربية، وهي تكون بإقامة الألفاظ، وصحة مخارج الحروف وصفاتها، والإظهار والإدغام والغنة والمد، والوقف والبدء، وما إلى ذلك.

فِي سُورَةِ النَّمْلِ أَرْبَعٌ مِنْ قَصَصِ النَّبِيِّينَ

الْقِصَّةُ الأُولَى: قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام

مُوسَى فِي طَرِيقِهِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ

٧- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ[1] ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ[2] قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

تتحدث هذه الآيات عن كيفية تنزل الوحي على نبي الله موسى عليه السلام، وكيف تلقى التكاليف من ربه، كما تلقاها محمد ﷺ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وهذه الأنباء بدأت هنا بتلقي موسى للوحي.

فاذكر - يا محمد - حينما رجع موسى من مدين وهو في طريقه إلى مصر، وقد اقتربت نبوته، بعد أن قضى في مدين أكثر من عشر سنوات، وتزوج بنت الشيخ الكبير، وأخذها معه هي وابنين صغيرين لهما، وكانت حاملًا في شهر الولادة، وبينما هو في طور سيناء ضل الطريق في ليلة باردة مظلمة، فأبصر نارًا من بعيد، وهذه النار رآها موسى وحده، وزوجته لم ترها، وهي ليست نارًا في الحقيقة، ولكنها نور، فقال لأهله: انتظروا في هذا المكان إني أبصرت نارًا، سآتيكم منها بخبر يرشدنا إلى الطريق، ويدلُّنا عليه، ولعلي أجد أهل بيت يستضيفوننا، أو آتيكم بشعلة أو جمرة من هذه النار، فتُشعِلون بها حطبًا تستدفئون به في هذه الليلة الباردة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني آنست)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بتنوين (شهاب)، على القطع عن الإضافة، و(قبس) بدل منه أو صفة له، والباقون بترك التنوين، على الإضافة وهي بمعنى: مِن.

[القصص: ٢٩]. وفي قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠].

مُنَاجَاةُ اللَّهِ لِمُوسَى عليه السلام

٨، ٩- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

أي: فلما اقترب موسى من هذه النار، وجدها تشتعل في شجرة خضراء وهي لا تحرقها، ولا تزداد هذه النار إلا توقُّدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خُضرة ونُضْرة، فلما اقترب منها بعُدت عنه، ثم نظر إلى أعلى متعجبًا مما رأى، فوجد هذا النور متصلًا بعنان السماء، فهي نور ظنَّها موسى نارًا، وجاءه النداء الإلهي من جهة الشجرة، فسمعه موسى، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه].

والذي في النار، تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ وهو موسى عليه السلام؛ لأنه قد حلَّ في موضع النور، وصار محيطًا به من كل جانب، فأخبره الله تعالى أن هذا مكان مقدس مبارك، ومن بركته أن جعله الله مكانًا لتكليم موسى وندائه واصطفائه لرسالته.

والذي حول النار هو جبريل أمين الوحي، وكذا الملائكة الذين وُكِّل إليهم إنارة المكان وتقديسه.

ولفظ: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ تحية من الله تعالى إلى موسى عليه السلام، فقد بارك الله مَن في النار وهو موسى، وبارك مَن حول النار وهم الملائكة، وبارك المكان والبقعة التي كلَّم الله فيها موسى، وهكذا بارك الله أرض الشام بقوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء]. وهذه التحية من الله تعالى لموسى ﷺ، كما حيَّت الملائكة إبراهيم عليه السلام بقولها: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [هود: ٧٣]. وفي تحية موسى عليه السلام مؤانسة وبشارة له، ومقدمة لمناجاته.

وأما طهارة المكان وتقديسه؛ فذلك لاختياره موضعًا لنزول الوحي والرسالة على موسى

عليه السلام، وظهور معجزاته فيه.

قيل: كان في داخل هذا النور ملائكة، يقدسون الله ﷻ، ويسبحون بحمده، ولهم أصوات مسموعة، فنودي أن بوركْت يا موسى، وبوركَت الملائكة الذين هم داخل هذا النور، وبورك من حول هذا النور من الملائكة المكرمين؛ إذ حدث أمر عظيم هذه الليلة، هو تكليم الله تعالى لموسى ﷺ؛ ليكون نبيًّا رسولًا.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص].

والمعنى: أن الله تعالى نادى موسى، وأخبره أن هذا مكان قدَّسه الله وباركه، وجعله موضعًا لكلامك وإرسالك، وأن الله تعالى بارك مَنْ في النار، ومن حولها.

وقيل: كانت النار التي رآها موسى هي النار بعينها، وهي إحدى عجائب الله ﷻ.

كما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابُه النور، لو رَفع الحجابَ لأحرقت سُبُحاتُ وجهه كل شيء أدركه بصره**». ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [1].

وصحَّ في رواية أبي بكر رضي الله عنه: «**حجابه النار لو كشفها لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2]. وفي بعض الروايات (**حجابه النور**).

والمراد بالحجاب: الحائل المانع من رؤيته تعالى في الدنيا دون الآخرة، فهو سبحانه محتجب عن خلقه بأنوار عزه وجلاله، وهو حجاب يختلف عن الحجب المعهودة، ولو كشف الله ذلك الحجاب لم يبق مخلوق إلا احترق.

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٩١) وفي مسند أحمد (١٩٥٨٧) بإسناد صحيح (محققوه) والطيالسي (٤٩١) وأبو الشيخ في «العظمة» (١١٩) وابن ماجه (١٩٥) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٤٤) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦١، ١٦٢) بسند صحيح و«في ظلال الجنة» (٦١٤) و«تخريج شرح الطحاوية» (٥٢) و (١٧١) وثلاثتها للألباني.

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (١٧٩).

والسُّبُحات: أضواء الوجه أو محاسنه، وهو سبحانه محيط بجميع الكائنات مع وجود الحجاب.

وفي التوراة: جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران.

ومعنى مجيئه تعالى من سيناء: بعْثةُ موسى عليه السلام، ومعنى مجيئه من ساعير: بعْثةُ عيسى عليه السلام، ومجيئه تعالى من جبال فاران معناه: بعثة محمد ﷺ.

وفي آخر الآية ينزه الله - سبحانه - نفسه، بأنه لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، وفي هذا إعلام لموسى أن كلام الله له لا يشبهه كلام المخلوقين، ويعلمنا سبحانه كيف ننزه ربنا عما لا يليق بجلاله.

وبيْن يديْ ما سَيُلْقَىٰ إلى موسى عليه السلام من وحي، أعلمه الله تعالى أمرًا يجب العلم به أوَّلًا، وهو أن الله تعالى لا يصعب عليه شيء، ولا يغلبه أمر، فاعلم يا موسى، أنني موحٍ إليك، وأني اصطفيتك لرسالتي، وفي هذا تثبيت له ﷺ، ورباط لجأشه؛ لِيعلم أن النبوة قد خُلِعتْ عليه، وليعلم أنه سيتعرض لأذى، وأن الله تعالى مؤيده وناصره، وأن ما شاهده من النار، وما سيشاهده من قلب العصا حية، ليس بعجيب على قدرة الله تعالى.

مُعْجِزَةُ الْعَصَا وَقَتْلُ الْمِصْرِيِّ

١٠، ١١- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا[1] تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ[2] ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

كان موسى يلبس جُبة، أو درعًا من صوف ليس له أكمام، ولا أزرار، وكان يحمل عصاه على كتفه فيها حبل ماشيته (دابته) وهي عصا، كان صهره شعيب عليه السلام قد أعطاها له عند خروجه من مدين، فأراد الله سبحانه أن يُظهر لموسى ﷺ دلالة على أنه رسول مصطفى من عند الله تعالى، فقال له: ألق عصاك، وقد خلق الله في هذه العصا حياة، وغيَّر أوصافها وأغراضها، فصارت حية، فألقاها فإذا هي كالجان، أي: الحية الصغيرة، كثيرة الحركة، وسريعة خفيفة، فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ. تعجَّب موسى كيف تحولت

---

(١) قرأ الأصبهاني بتسهيل همزة (رآها) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) وقف يعقوب على (لدي) بهاء السكت بخلف عنه، ومثلها (عليّ) و (لديّ) في الآية التاسعة عشرة.

العصا إلى حية؟! فولَّى راجعًا ولم يتردد، ولم يلتفت خلفه؛ لأنه لم يخطر بباله أن عصاه تتحول إلى حية تسعى وتتحرك، حينئذ طمأنه ربه، وناداه ﷻ قائلًا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وأخذ موسى الحية فرجعت عصا، والخوف الذي حصل لموسى هو الرعب من انقلاب العصا حية، وليس خوفًا من شيء آخر.

واستثناء الظلم في هذه الآية عام، ويدخل فيه قصة قتل موسى للقبطي، فقد استثنى الله - سبحانه - مَنْ ظلم نفسه بذنب ارتكبه ثم تاب، فبدَّل قُبْح الذنب بِحُسْن التوبة، وهذا معنى ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ أي: لجأ إلى الله تعالى فرجع إليه وأناب، وبدَّل السيئات بعمل الحسنات، فإن الله تعالى غفور له رحيم به، فلا ييأس أحد من رحمة الله ومغفرته، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه]. هذا هو المعنى العام.

وقالوا: في هذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أنه إشارة إلى القبطي الذي قتله موسى خطأ بوكْزِه إياه قبل اصطفائه للرسالة، وأن الله تعالى قد غفر لموسى قتل خصمه في مصر، وكان موسى ﷺ قد أناب إلى الله تعالى، واستغفره قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦]. فالله ﷻ يطمئنه في هذه الآية بأن من ظلم نفسه قبل أن يرسل نبيًّا بذنب ارتكبه كما حدث لك، فإن الله غفور لك رحيم بك.

وعلى المعنى الأول يكون الاستثناء منقطعًا، وعلى المعنى الثاني، يكون الاستثناء متصلًا.

وعلى كلا الاحتمالين فيؤخذ من الآية: أن الرسل لا يخافون شيئًا من المخلوقات؛ لأن الله تعالى قد تكفَّل لهم بالسلامة، ولا يخافون الذنوب؛ فإن الله تعالى قد تكفَّل لهم بالعصمة من الصغائر والكبائر، ولا يخافون عقابًا على الذنوب؛ لأنهم لا يقْرَبونها، وأن مَن عداهم إنْ ظلَم نفسه ثم بدَّل حُسنًا بعد سوء أمن من العقاب؛ لأنه قد تدارك ظُلْمَه بالتوبة، وإنْ ظلَم نفسه ولم يتب فإنه يخاف من عقوبة الذنب؛ لأن من لم يظلم نفسه فلا خوف عليه، فهذه معانٍ دل عليها الاستثناء باحتماليْه[1].

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عاشور» للآية.

مُعْجِزَةُ الْيَدِ وَبَقِيَّةُ الْمُعْجِزَاتِ التِّسْعِ

١٢ ، ١٣- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾

وبعد أن أرى الله موسى انقلاب العصا حية، أراه آية أخرى؛ ليطمئن قلبه عند لقاء فرعون بتأييد الله له، فلفت الله - سبحانه - نظره إلى معجزة أخرى بقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ **الجيب**: هو فتحة الثياب من أعلى، وهي التي يدخل فيها الرأس مع فتحة الصدر.

وضع موسى يده تحت إبطه من فتحة الصدر وأخرجها، وكان رجلًا أسمر اللون، فإذا هي بيضاء كالثلج، لها شعاع كشعاع الشمس، من غير برص ولا مرض.

وهذه اليد آية، ضمن معجزاتٍ تسع، أيَّد الله بها موسى؛ لتكون برهانًا له على رسالته أمام فرعون وقومه.

والآيات التسع هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والقحط، وانفلاق البحر وهو أعظمها، وقد جمعها الفيروز أبادي في القاموس -مادة تسع- في قوله: عصا، سِنَة، بحر، جراد، وقُمَّل، يدٌ، ودمٌ، بعد الضفادع، طُوفان.

وتحديد الآيات بالتسع لا ينفي أن لموسى عليه السلام معجزات أخرى مثل: نتق الجبل فوق بني إسرائيل، وضرْب الحجر بالعصا، ونبْع الماء منه، والمن والسلوى، وتظليل الغمام، والطمس، وغير ذلك آيات كثيرة أيَّد الله بها موسى عليه السلام، وأرسله إلى فرعون وقومه أكبر طاغية في الأرض، ثم علل الله - سبحانه - كثرة هذه المعجزات، بأنهم كانوا قومًا خارجين عن شرع الله، عابدين لغيره، فكانت هذه المعجزات حجة عليهم، فقد ذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، وأطلعهم على هذه الآيات، ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى، فما كان منهم إلا أنقالوا ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ اي سحر ظاهر لكل أحد.

لقد كان موقف فرعون وقومه بعد أن جاءتهم آياتنا مبصرة بهذه المعجزات، واضحة ظاهرة، يُبصر بها مَنْ نظر إليها حقيقة ما دلَّت عليه، ومع ذلك فقد أنكروها، وزعموا أنها سحر بيِّن.

إِنْكَارُ التَّوْحِيدِ مُخَالَفَةٌ لِلْفِطْرَةِ

١٤- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

أي: إن الفراعنة لَمَّا رأوا الآيات التي أيد الله بها موسى، كفروا بها عن إصرار وعمد، وهم يعرفون أن موسى عليه السلام على حق، وليس لهم عذر في حربه، ومع ذلك أنكروها في ظاهر الأمر، وقلوبهم تصدِّقها، ولكن الاستكبار والاستعلاء، والعناد والحسد، والتمسك بما عليه الآباء، هو الذي جعلهم يُكذِّبون بمعجزات موسى التسع، الدالة على صدقه في دعوى النبوة، فأنكروها بألسنتهم، واستيقنوها بقلوبهم، حتى لا يعترفوا به، ولا يؤمنوا برسالته.

قال قتادة في الآيات التسع: يدُ موسى، وعصاه، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والسنين في بواديهم ومواشيهم، ونقص من الثمرات في أمصارهم. ثم قال في ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ : كذبت القوم بآيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم أنها حق، والجحود لا يكون إلا من بعد المعرفة[١].

فانظر -يا رسولنا- كيف كان عاقبة الذين كفروا بآيات الله، وأفسدوا في الأرض، إذ أغرق الله فرعون وقومه، وجعله عبرة على مدى الأزمنة والأمكنة لمن يعتبر ويتعظ.

فاحذروا - أيها المكذبون لرسالة محمد ﷺ - أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم ما أصابهم.

وقد طُوِي بساط قصة موسى ﷺ، فانتقل إلى العبرة منها، والاكتفاء بذلك، بما يتناسب مع هدف السورة وأسلوبها، ومن ثَم لبسط قصة داود وسليمان في هذه السورة.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

١٥- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذه الآية وما بعدها لبيان قصة داود وسليمان عليهما السلام، وداود بن يسَّى، من سبط يهوذا، من بني إسرائيل.

وقد وُلد (داود) سنة خمس وثمانين وألف قبل الميلاد، في (بيت لحم)، وكان يرعى

---

(١) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٥١).

غنم أبيه (يسَّى) فأمر الله النبي (شمويل) أن يجعل داود ملكا مدة ملك طالوت، وظل داود ملكًا ونبيًّا على بني إسرائيل مدة أربعين سنة، وهو الذي قتل جالوت، وتُوُفِّيَ داود عليه السلام سنة ألف قبل الميلاد.

وولد ابنه (سليمان عليه السلام) سنة ثلاثة وأربعين وألف قبل الميلاد (بأورشليم)، وتُوفي سنة خمس وسبعين وتسع مئة قبل الميلاد، وقد آتاهما الله علمًا واسعًا من علوم الدنيا والدين، وآتاهما النبوة والعلم، والحكمة، والقضاء والسياسة، والفصل بين الناس، وتكليم الشياطين والطير والدواب، وغير ذلك، مما خصهما الله به، وكل منهما شكر ربه على فضله وإنعامه، وفي هذا إشارة إلى فضل العلم وشرف أهله، وقد أنزل الله الزبور على داود، وكان يقرؤه بصوت جميل، كما علَّمه الله صناعة الدروع، وكانت الجبال والطيور تسبح الله معه، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ].

وقال: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص].

وقال تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقد حمد داود ربه أن جعلهما من خواص المؤمنين أهل السعادة، فالمؤمنون أربع درجات: النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، وداود وسليمان من خواص الرسل، وقد مدحهما الله تعالى في كتابه مدحًا عظيمًا، وهذا عنوان السعادة، فلما مدحهما معًا، خص سليمان بالذكر، فقد أعطاه الله نبوة وملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

سُلَيْمَانُ يَعْلَمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ

١٦- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

وبعد هذه الإشارة إلى نبي الله داود عليه السلام، انفردت الآيات التالية بقصة سليمان عليه السلام ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ هذه الوراثة وراثة نبوة وملك، ووراثة في العلم والحكمة، وليست

كما يرث أولياء الدم آباءهم في الملك، ولا في المال؛ لأن الأنبياء لا تورث، وقد ورث سليمان علم أبيه وبُنوته إلى جوار علمه ونبوته.

في الحديث: عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورث ما تركناه صدقة»**[١].

ولو كان هذا الميراث في المال لكانت القسمة بين أبناء داود الأحد عشر جميعًا، ولكن سليمان هو الابن الوحيد الذي ورث أباه في النبوة والعلم، وفي الملك أيضًا، مع أنه ليس أكبر إخوانه.

ويبدو أن مُلك سليمان لم يكن شاملًا للأرض كلها بما فيها من: إنس، وجن، وطير؛ بدليل وجود مملكة بلقيس في اليمن، ومملكة مصر، والأظهر أن مملكة سليمان كانت تشمل: فلسطين، والأردن، ولبنان، وسوريا، وتخوم مصر، وبحر الروم، والعراق إلى ضفة الفرات[٢].

علَّم الله سليمان لغة الطير والدواب وسخرها له

وقد سخَّر الله لسليمان طائفة من كل أمة، في عالم الإنس والجن والطير، ثم شكر سليمان ربه على ما منحه من علم ومُلْك ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ عن طريق الوحي، بمعرفة دلالة أصوات الطيور على ما في ضمائرها، وهذه خاصية لسليمان ﵇ أنْ علَّمه الله لغة الطير، ولغة الدواب، كما يفهم الإنسان لغة أخيه الإنسان، واقتصرت الآية على ذكر الطير؛ لأنها أسرع من غيرها نفورًا عن الإنسان، فنفور غيرها يكون من باب أولى.

وقد ذكر القرآن الكريم أن سليمان فَهِم ما قالتْه النملة وتبسم ضاحكًا من قولها، وأنه فَهِم ما قاله الهدهد، وأرسل معه رسالة إلى بلقيس ملكة سبأ.

وجاء عن كعب الأحبار، وابن عباس، ومكحول:

١- أن سليمان ﵇ سمع صوت طائر، فقال: إنه يقول: لِدُوا للموت، وابْنُوا للخراب.

٢- وسمع صوت طاووس، فقال: إنه يقول: كما تدين تُدان.

---

(١) من حديث عائشة في «البخاري» برقم: (٦٧٢٧) وانظر: (٤٠٣٤) وفي «مسلم» مطولًا (١٧٥٨) وذلك دون لفظ: (نحن معاشر الأنبياء) فهو غير صحيح بهذا اللفظ كما في «فتح الباري» (٨/١٢).

(٢) يُنظَر: الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول.

٣- وسمع صوت هدهد، فقال: إنه يقول: من لا يرحم لا يُرحم.

٤- وسمع البلبل يقول: أكلت نصف مرة، فعلى الدنيا العفاء.

٥- وصاح جرد، فقال: إنه يقول: استغفروا ربكم يا مذنبين.

٦- وسمع صوت الحدأة، فقال: إنها تقول: كل شيء هالك إلا وجهه.

٧- وسمع نقيع الضفدع، فقال: إنها تقول: سبحان الملك القدوس.

٨- وسمع هديل الحمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سماواته، وملء أرضه.

٩- وصاحت طيطوى، فقال: إنها تقول: كل حي ميت، وكل جديد بال.

١٠- والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين.

١١- والنسر يقول: يابن آدم عش ماشئت فإن آخرك الموت.

١٢- والفرس يقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

١٣- والزرزور يقول: أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق.

وهكذا علَّم الله سليمان منطق الطير والدواب، مع أن أصواتها تختلف من حال إلى حال:

فصهيل الفرس حينما تريد الطعام، غير صهيلها حينما تريد ذَكَرها.

وصوتها حينما تُضْرَب وتتألم، غير صوتها حينما تُنادِي على رضيعها ليرضع.

ومواء القط يختلف حينما يُحبَس عنه الطعام.

وأكمل سليمان كلامه تحدثًا بنعمة الله عليه، فقال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أعطانا الله من كل ما هو نافع، فيه خير الدنيا والآخرة، وهو فضل واضح يميزنا عمن سوانا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ومثل ذلك أن النبي ﷺ كان يسمع أصوات الحجارة وهي تسلم عليه، وسمع حنين الجذع له، وسمع شكوى البعير الذي يضربه صاحبه، وهكذا. قال تعالى:

مُلْكٌ لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ قَبْلَ سُلَيْمَانَ وَلَا بَعْدَهُ

١٧- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

وهب الله سليمان مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فسخر له ثلاثة أصناف من المخلوقات هي: الجن لتوجيه القوى الخفية، والتأثير في الأمور الروحية، والإنس لتنفيذ أوامره، وحراسة مَمْلَكته ومحاربة عدوه، كما سخر الله له الطير لتوجيه الأخبار والرسائل إلى قواده وأمرائه.

واكتفت الآية بهذه الثلاثة الرئيسة دون ذكر الخيل والريح، وغيرهما.

وجُمع لسليمان عساكره وجنوده، وأُحضرت له في مسيرة كبيرة، فيها هذه الطوائف الثلاث، يتقدمهم سليمان وهم في صفوف منتظمة، على كل صف منها نقباء يردُّون أُولاها على أخراها، بحيث لا يتقدمون في المسير عليه، فهم على كثرتهم غير مهملين، وهذا معنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يمنعون من التقدم بين يديه في المسير، فهم يسيرون في أسراب منتظمة، كل جنس مع بعضه، آخرهم لا يتقدم على أولهم، وهم منظَّمون في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، وكلها مؤتمرة بأمر سليمان ليس في وسعها أن تعصاه.

وعن كعب الأحبار: أن سليمان مرَّ ضمن ما مرَّ على مدينة الرسول ﷺ، فقال: هذه دار هجرة نبي يكون في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به، وطوبى لمن اتبعه.

قِصَّةُ النَّمْلِ

١٨- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ[١] سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

يذكر القرآن قصة النمل من بين هذا الفضل الذي أُعطي لسليمان، حتى إذا وصل سليمان إلى وادي النمل وهو يقع بظاهر عسقلان في فلسطين، بين غزة وأسدود[٢].

---

(١) قرأ رويس بإسكان النون من (لا يحطمنكم) على أنها توكيد خفيفة، والباقون بتشديدها.

(٢) اطلس القرآن، قصة سليمان ؑ.

والنمل: اسم جنس لحشرات صغيرة، ذات ستة أرجل، تسكن في شقوق من الأرض، وهي متفاوتة في الحجم، ومفردها نملة، وتاء التأنيث علامة الوحدة، ولا تدل على تذكير أو تأنيث، ومثلها: حمامة وشاة.

ثم كيف عرفت النملة سليمان وجنوده؟ وكيف فهم سليمان لغة النملة؟ وكيف وجَّهت أخواتها من النمل أن ادخلوا مساكنكم حتى لا يطأكم سليمان وجنوده فيهلكوكم بأقدامهم وهم لا يروْنكم، ولا يشعرون بكم، ولا يعلمون عنكم شيئًا؟

علم ذلك عند الله، فهو أمر من أعجب العجائب، ولفظ ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ من النملة، يفيد أن النمل على صغر حجمه لا يُقتل بسهولة، وأن الإنسان إذا داس عليه بقدمه فإنه لا يموت، إلا إذا استعمل معه قوة أخرى كالحرق أو الفرْك الشديد المتتابع، وهذا من فقه النملة، فإن التحطيم لا يكون إلا في الزجاج، والأشياء الصَّلْبة المماثلة، وقد سمع سليمان قولها وفهمه.

لقد رفضت النملة أن تدخل مسكنها قبل أن تنصح قومها ليدخلوا معها، فتخلّتْ عن الأنانية، ونادت ونبّهت النمل، وخاطبتْه آمرةً له ألّا يُعرِّض نفسه للخطر، فحذّرتْه من سليمان وخصصت جنوده بالذكر، ونصّتْ على نوع الخطر المحدق بهم، ثم اعتذرت عن الجنود بأنهم لا يشعرون، وخاطبت قومها خطاب العقلاء الذين يسمعون فيفهمون، ويفهمون فيميزون ويستجيبون، ولو أنها درست وأوتيت كل بلاغة، ما قالت ما قالته، فسبحانك اللهم خير معلم.

١٩- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

تبسم سليمان ضاحكًا من قول النملة، واهتزت نفسه لفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل، والتبسم أضعف حالات الضحك، وضحك الأنبياء هو التبسم، وأما القهقهة فليست لهم، وكان تبسم سليمان سرورًا من نعمة الله عليه أن أسمعه صوت النملة، وأفهمه معنى كلامها، وتبسم سليمان كذلك من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، في كونها نفتْ عنهم تعمد الفعل القبيح، والتمستْ لهم العذر، وأنهم لا يشعرون بذلك.

---

(١) قرأ الأزرق والبزي بفتح ياء الإضافة من (أوزعنيَ أن) وصلًا، والباقون بإسكانها.

واستشعر سليمان نعمة الله عليه، فأخذ يحمد الله تعالى، ويشكره على هذه النعمة، ويقول: رب وفقني واجعلني ملازمًا شكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي، وذكر الوالدين في الآية؛ لأن صلاح الولد نعمة على الوالدين.

ثم دعا سليمان ربه أن يوفقه للعمل الصالح الذي يحبه ويرضاه، فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ واسترسل سليمان في دعائه قائلًا: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين ارتضيتَ أعمالهم ورضيتَ عنهم.

ورد أن سليمان ﷺ خرج يستسقي، فوجد نملة قد استلقت على ظهرها، ورفعتْ قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلْق من خلْقك، ولاغنى بنا عن رزقك، فإما أن تسقينا، وإما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«قرصتْ نملة نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه: أَمِنْ أجل نملة قَرَصَتْكَ، أهلكْتَ أمة من الأمم تُسبِّح؟ فهلَّا نملة واحدة»**(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنتُ عند عمر بن الخطاب، فدخل علينا كعب الحبْرُ، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا أخبرك بأغرب شيء قرأتُ في كتب الأنبياء؟! إنَّ هامة -أيْ: طائر، قيل: هي البومة- جاءت إلى سليمان، فقالت: السلام عليك يا نبي الله، فقال: وعليك السلام يا هامُ، أخبريني كيف لا تأكلين الزرع؟ فقالت: يا نبي الله؛ لأن آدم عصى ربه بسببه، لذلك لا آكله، قال: فكيف لا تشربين الماء؟ قالت: يا نبي الله؛ لأن الله أغرق بالماء قوم نوح، من أجل ذلك تركتُ شربه، قال: فكيف تركتِ العمران وسكنْتِ الخراب؟ قالت: لأن الخراب ميراث الله، وأنا أسكن في ميراث الله، وقد ذكر الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٨٧، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣١٢) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٥٨).

(٢) رواية مسلم في صحيحه برقم: (٢٢٤١) والبخاري برقم: (٣٠١٩، ٣٣١٩).

قِصَّةُ الْهُدْهُدِ

٢٠، ٢١- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى[١] بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

وهذا نموذج آخر من مخاطبة سليمان للطيور، وتعامله معها، ذلكم أن الله ﷻ عندما سخر الطيور لسليمان عليه السلام، وعلَّمهُ لغتها وفهَّمه كلامها، وكان الهدهد من جملة جنوده كالحمام الزاجل، والبزاة، والصقور، وتفقُّد الرعية من واجبات الملوك والأمراء.

ومن حسن تنظيم سليمان لجنوده: تفقد الطيور، لينظر الحاضر منها والغائب، ولزوم كل منها المكان الذي عيّنه لها، وهل هي موجودة كلها أم فقد منها شيء؟

قيل: إنه لما ذهب سليمان من وادي النمل نزل في مكان قفر، وعطش الجيش فنظر، فلم يجد الهدهد في جملة ما تفقّد، وكان يدلهم على مكان وجود الماء.

وقيل: إن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب، فكان ذلك سبب تفقد سليمان للطير؛ ليتبيّن من أين دخلت الشمس[٢].

فقد كان من جند سليمان هدهد معين له مهمة خاصة؛ حيث كانوا إذا نزلوا بمكان قفر ليس فيه ماء، فإن هذا الهدهد يدُلُّهم بمنقاره على أقرب مكان فيه ماء من هذه الأرض، وكان يدلهم أيضًا عن المسافة التي بين الماء وسطح الأرض، فيستخْرجون الماء عن طريق الشياطين، حيث تشق الأرض، وتُفجِّر العيون.

وبينما كانت الطيور تُظِل سليمان بأجنحتها أصاب سليمان شيء من حرِّ الشمس، واحتاج الماء، فسأل عن الهدهد.

قلت: ولعل هذا من الإسرائيليات إذ ليس في ذلك خبر صحيح من كتاب ولا سنة، ويستأنس لذكره بما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) قرأ ابن كثير بفك النون المشددة من (أو ليأتيني) هكذا (أو ليأتينني) فالنون الأولى للتوكيد والثانية للوقاية، والباقون بنون واحدة مشددة، على أنها نون التوكيد، وحذفت نون الوقاية للتخفيف.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٢٥٥).

فقد سئل ابن عباس ﷺ: كيف تفقَّد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلًا، فلم يدْر ما بُعْدُ الماء، وكان الهدهد يدل سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه ففقده، قيل: كيف ذاك، والهدهد يُنْصبُ له الفخُّ يُلقى عليه التراب، ويضع له الصبيُّ الحبالَةَ فيُغيِّبُها، فيصيدُه؟! فقال: إذا جاء القضاء ذهب البصر[١].

وعند تفقُّد سليمان للطير وجد الهدهد - المتميز المعروف - غائباً، فلمَّا لم يجدْه قال: ما لي لا أرى الهدهد الذي أعهده، أم كان من الغائبين؟ أَسَتَرهُ عني ساتر، أم غاب عني، فلم أره لغيبته؟ وكيف يذهب من غير إذن؟ إن هذا عصيان يقتضي العقوبة، لَأُعذِّبنَّه لتأديبه بنتْف ريشه الذي أعهده، أو بسجْنه، أو بإلقائه في الشمس، أو نحو ذلك، أو لأذبحنَّه عقوبة له بقطع عنقه، أو ليأتيني بحجة قوية، أو بعذر واضح يدفع عنه العقاب عن تخلُّفه عن موكب الطير، وهذا ثالث الأمور.

قال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد، قال له الطير: ما خلَّفك، فقد أهدر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فقال: نجوت إذًا[٢].

قَبِيلَةُ سَبَأٍ

٢٢- ﴿فَمَكَثَ[٣] غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ[٤] بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

بعد تهديد سليمان، تغيَّب الهدهد زمنًا يسيرًا غير بعيد، ثم حضر، فعاتبه سليمان على تغيُّبه وتخلُّفه، وكان الهدهد قد تجول في الفضاء، ووصل إلى بلاد اليمن، فنزل فيها، ولما رجع قال لسليمان: وقد رفع رأسه، وأرخى ذنَبه وجناحيه يجرُّهما على الأرض

(١) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٥٩) والحاكم (٢/ ٤٠٥) وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١١/ ٣٤٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٨٥).

(٣) قرأ عاصم وروح بفتح الكاف من (فمكث)، والباقون بضمها.

(٤) قرأ البزي وأبو عمرو بفتح همزة (سبأ) من غير تنوين، على أنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ قنبل بسكون الهمزة، إجراء للوصل مجرى الوقف، والباقون بالكسر والتنوين، على معنى الحيّ.

تواضعًا لسليمان، فقال: يا نبي الله، أحطت بما لم تُحط به؛ ففي الأرض من مخلوقات الله، ملوك وممالك لا تعلمها، وقد علمتُ أشياء لا تعلمها، فقد جئتك من مدينة (سبأ) بخبر يقين.

وسبأ في الأصل اسم لسبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، ثم أُطلق هذا الاسم على المدينة المعروفة باليمن، مدينة (مأرب)، وسُمِّي سبأ؛ لأنه أول من سُبي في غزوة، و يشجُب هو الذي بنى مدينة (صنعاء)، وابنه عبَّشمس، أي: ضوء الشمس، أما ابن سبأ فهو حِمْيَر.

وقد قُسِّمت اليمن في السابق إلى ثلاث قبائل هي: اليمنية، والسبئية، والحميرية، وكان على كل قبيلة منهم مِلك، وانفردت سبأ بالمُلْك في القرن السابع عشر قبل الهجرة، وكان أهل اليونان يلقِّبون مملكة اليمن باليمن، السعيدة، أخذًا من اليُمنْ في العربية، وكان عرب اليمن يومئذ صابئة يعبدون الشمس، ثم دخلت فيهم اليهودية زمن تُبَّع من ملوك حِمْير.

ونعود إلى ما قاله الهدهد لسليمان، قال: وجئتك من سبأ بخبر صادق، وأمر هام خطير الشأن، وأنا على ثقة منه.

قِصَّةُ (بَلْقِيس) مَلِكَةُ سَبَأ

٢٣- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قال الهدهد مفسِّرًا هذا النبأ الذي جاء به:

ومِنْ أعجب ما رأيتُ في رحلتي، أن امرأة تُسمى بلقيس وهي ملكة لأهل سبأ، وهم يدينون لها بالطاعة، وهي تملكهم وتحكمهم، ولها عرش هائل وكرسي عظيم تجلس عليه، وعظم العرش يدل على عظمة المملكة وقوة السلطان، وكثرة رجال الشورى.

وقد أُعطيتْ هذه المرأة من كل شيء من مقتضيات المُلك، وأسباب المتاع في الدنيا، ولها عرش عظيم القدر، هو كرسي المملكة الذي تجلس عليه لإدارة مُلْكِها حين الاجتماع برعيتها.

وبلقيس كان أبوها شرحبيل، من نسل يعْرب بن قحطان، وكان ملكًا على اليمن، ولم يُنجب ذكورًا، فاستولت هي على الملك، إرثًا عن والدها، وكانت هي وقومها مجوسًا

يعبدون الشمس.

وأم بلقيس: ريحانة بنت السكن ابنة ملك الجن، كان قد تزوجها أبوها لَمَّا لم يجد أحدًا كفؤًا له من الإنس.

جاء في الأثر: أن أحد أبوي بلقيس كان جنيًا[١] فلما مات أبوها طمعت في الملك، وطلبت من قومها أن يبايعوها، فأطاعها قوم وأبى آخرون.

وفي البخاري: عن أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملَّكوا عليهم بنت كسرى قال: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»[٢].

الهُدْهُدُ يوحّد اللَّهَ وَيُنكِرُ الشِّرْكَ

٢٤- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الهدهد يعرف التوحيد من الشرك، فقد عرف أن القوم مشركون بالله، يعبدون الشمس من دون الله، وقد زين لهم الشيطان ما هم عليه من باطل فرأوه حقًّا

يقول الهدهد لسليمان: وجدتُ بلقيس وقومها معرضين عن عبادة الله تعالى، وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم السيئة بشركهم ومعصيتهم، وكُفرهم بخالقهم، فعبدوا الشمس من دون الله، وصرَفهم ذلك عن الإيمان بالله وتوحيده؛ فهم بسبب ذلك لا يهتدون إلى معرفة الله تعالى وعبادته وحده، ثم قال الهدهد:

---

(١) ورد هذا في حديث أبي هريرة بسند ضعيف عند ابن جرير (١٨/ ٨٣) وأبي الشيخ (١١٠٨) وابن مردويه، وابن عساكر (٦٩/ ٦٧) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم: (١٨١٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم: (٤٤٢٥، ٧٠٩٩).

٢٥-٢٧- ﴿أَلَّا[(١)] يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ[(٢)] وَمَا تُعْلِنُونَ[(٢)] ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

لقد زين لهم الشيطان أعمالهم؛ لئلَّا يسجدوا لله الذي يخرج المخبوء في السماء كالمطر، ويخرج المخبوء في الأرض: كالنبات والكنوز والمعادن والماء، ويعلم السر والعلن، وما ظهر وما بطن، وهو سبحانه يخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور، وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، والعرش هو سقف المخلوقات، وسِعَ الأرض والسموات، وهو سبحانه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وهو سبحانه المتفرد بالعظمة والجلال، فهو - جلَّ شأنه - المستحق للعبادة دون سواه، فاجعلوا سجودكم -أيها الناس- لله وحده، واتركوا السجود لغيره، وهنا موضع سجود التلاوة في نهاية الآية السادسة والعشرين.

وقد سَلِم الهدهد حين ألقي إلى سليمان هذا النبأ، وتعجب سليمان كيف خفي عليه هذا الأمر.

وإلى هنا ينتهي كلام الهدهد، وهو يدل على أنه يقر بالتوحيد، ويدعو إليه، ويندد بالشرك ويبغِّض فيه.

قال سليمان للهدهد: سننظر، وسنتأمل، فيما جئتنا به من الخبر، ونتثبت من قولك، ونعرف أصدقت، أم كنت من المنخرطين في سلك الكذب؟ وهو أبلغ من أم كذبت.

---

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر ورويس بتخفيف اللام من (ألا) للاستفتاح، و (يا) حرف نداء، والمنادَى محذوف، أي: يا هؤلاء، أو يا قوم، اسجدوا فعل أمر، ويجوز لهم الوقف -اختبارًا- على (ألا)، و(يا) معًا، ويبدأ بـ (اسجدوا)، بهمزة وصل مضمومة لضم ثالث الفعل، ويجوز أيضًا الوقف اختبارًا على (ألا) وحدها، و (يا) وحدها، والابتداء بما بعدهما، أما في حالة الاختيار فلا يجوز الوقف على ألا، ولا على (يا)، بل يتعين وصلهما بما بعدهما، وقرأ الباقون بتشديد اللام، على أن اصلها (أن لا) فأدغمت النون في اللام، ويسجدوا فعل مضارع منصوب بأن المصدرية.

(٢) قرأ حفص والكسائي بتاء الخطاب في (تخفون) و (تعلنون)، على الالتفات، والباقون بياء الغيبة جريًا على نسق الآية.

رِسَالَةُ سُلَيْمَانَ إِلَى بَلْقِيس يَحْمِلُهَا الْهُدْهُدُ

٢٨- ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ[(١)] إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ألهم الله سليمان أن يتصل ببلاد اليمن عن طريق المراسلة؛ ليُدخلها في حيِّز نفوذه، وينتفع بخيراتها عن طريق التجارة، فكتب إلى ملكة سبأ لتأتي إليه، وتُصلح ديانتها، وتدخل تحت طاعته، وقد أراد الله ذلك؛ لكي يتبين له أنَّ على وجه الأرض ملِكًا غيره، وأن هناك من يعبد غير الله تعالى، فكتب كتابًا، وطبعه بالمسك، وختمه بخاتمه، قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي اخضعوا وانقادوا لي، وأقبِلوا إليّ مسلمين، وبمثل هذه العبارات الموجزة، بليغة اللفظ والمعنى، كان الأنبياء والرسل يكتبون كتبهم ورسائلهم إلى الملوك والرؤساء في نواحي الأرض؛ لنشر كلمة التوحيد، وبمثل ذلك كتب النبي ﷺ إلى: كسرى، وقيصر، والنجاشي يدعوهم للإسلام، وهذه الكتب في غاية الوجازة مع البيان التام.

قال سليمان للهدهد: خذ هذا الكتاب، واذهب به إلى بلقيس وقومها ، وأوصله إليهم، ثم تنحَّ عنهم قليلًا ، وكن قريبًا منهم، واستمع إلى كلامهم، والحديث الذي يدور بينهم، فانظر وتأمل ما يتردد بينهم من كلام، فكان من حزم بلقيس ورجاحة عقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها لتستشيرهم:

---

(١) في لفظ: (فألقه) ست قراءات، وكلها من لغات العرب، وهي:

الأولى: بإسكان الهاء، لأبي عمرو وعاصم وحمزة.

الثانية: باختلاس كسرة الهاء، لقالون ويعقوب.

الثالثة: بإشباع كسرة الهاء، لورش وابن كثير والكسائي وخلف.

الرابعة: باختلاس كسرة الهاء وإشباعها، لابن ذكوان.

الخامسة: بإسكان الهاء واختلاس حركتها، لأبي جعفر.

السادسة: بالإسكان والاختلاس والإشباع، لهشام عن ابن عامر

بلقيس تستشير قومها في شأن سليمان عليه السلام

٢٩-٣١- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟[١] إِنِّىٓ[٢] أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قالوا: إن الهدهد ألقى الخطاب على نحر بلقيس وهي نائمة مستلقية، وقالوا: إنها كانت تُحكِم إغلاق القصر، ولم تكن متزوجة، ولم يكن عندها إلا كُوة، أي: فتحة في جهة المشرق تَدخُل منها الشمس، فإذا دخلت عليها الشمس سجدتْ لها من دون الله، فجاء الهدهد، وأغلق هذه الفتحة، فلم تدخل الشمس عليها في ذلك اليوم، فنظرتْ فوجدت الهدهد، فألقى الخطاب في حِجْرها بعد أن أخذ يرفرف فوق رأسها نحو ساعة من الزمن[٣].

ثم تأخر قليلًا فقرأت الخطاب، ثم جمعت أهل الرأي والمشورة، وقالت: ياأيها الملأ، إني وصل إليَّ كتاب جليل المقدار من شخص عظيم الشأن، ثم بيَّنت ما فيه، فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ وقد ابتدأ سليمان كتابه بالبسملة، أما ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ﴾ فهذا من كلام بلقيس.

قال مجاهد: إن سليمان كتب إلى ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين[٤]، أي: لا تتكبروا، ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه، وأَقبِلوا إليَّ منقادين لله بالوحدانية والطاعة، مسلمين له، فلا تمتنعوا من الإجابة، فإن ترك الإجابة من العلُوِّ والتكبر، وفي كتاب سليمان نهى لهم عن العُلوّ عليه، وأمر بالدخول تحت طاعته، وطلب مجيئهم إليه، ودعوتهم إلى السلام، وفيه استحباب بدء الكتب بالبسملة كاملة، وذكر اسم المرسِل في بدء الرسالة.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (الملؤ إني) بَيْنَ بَيْنَ، وبإبدالها واوًا مكسورة، والباقون بتحقيقها ومثلها (الملأ أيكم) من الآية الثامنة والثلاثين.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إنيَ ألقي)، والباقون بإسكانها.

(٣) يُنظَر: الطبري (١٨/ ٤٧) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٧٠).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١١/ ٣٥٩).

٣٢- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟[(١)] أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ[(٢)] ﴿٣٢﴾﴾

قالت الملكة مستشيرة قومها، وكانت امرأة عاقلة غير مستبدة برأيها: ياأيها الملأ أفتوني، وأشيروا عليَّ ماذا أصنع؟ هل ندخل تحت طاعته وننقاده، أم ماذا نفعل؟ وما كان لي أن أقطع أمرًا دونكم، حتى تُشيروا عليَّ، ولا أفصِل في أمر إلا بمحضركم ومشورتكم، وهذا من حسن الأدب، وكذلك كان ردُّهم مما تقر به العين؛ حيث أعلموها بقوتهم، وسلَّموا الأمر لها.

٣٣- ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ[(٣)] وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قالوا مجيبين لها: نحن أصحاب قوة جسدية وعدد كبير، وأصحاب النجدة والشجاعة في شدة الحرب، فإن رَدَدْتِ عليه، قوله، ولم تدخلي تحت طاعته، فإنا أقوياء على القتال، والأمر موكول إليك ،وأنت صاحبة الرأي فيه، فتأملي ماذا تأمرين به، ونحن طوع أمرك، وذلك لعلْمهم بعقلها وحزمها وسداد رأيها.

قال الحسن البصري: فوضُوا أمرهم إلى عِلجة، يضطرب ثدياها.

قالت لهم مبينة مساويء القتال، ومثنية لهم عن رأيهم:

٣٤- ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

أي قالت بلقيس وهي تُعِدُّ رأيًا، وتحذِّر قومها من عاقبة مواجهة سليمان بالعداوة، وتُبيِّن لهم سوء مغبة القتال، وما يترتب عليه من النتائج: إن الملوك إذا دخلوا قرية خربوها، وسفكوا الدماء فيها بجيوشهم، واستلبوا ما فيها عَنوة وقهرًا، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، أي جعلوا كبار الناس ورؤساءهم من الأذلين، فأهانوهم وأذلوا أشرافهم بالتشريد والأسر والقتل، وهذه عادتهم المستمرة؛ لحمل الناس على أن يهابوهم، فهي تلوِّح لهم بأن السلم أجدى من الحرب، وأن الملاينة مع سليمان أفضل من المجابهة، والمواجهة بالقوة.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا مفتوحة من (الملأ أفتوني)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات ياء وصلًا ووقفًا من (تشهدون)، والباقون بحذفها.

(٣) قوله تعالى (بأس شديد) عدّها آية، المدنيان والمكي، ولم يعدّها غيرهم.

وإني لست مطيعة لكم حتى أرسل من يكشف عن أحواله، ونكون على بصيرة من أمرنا.

بَلْقِيسُ تُصَانِعُ سُلَيْمَانَ

٣٥- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ(١) يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قالت بلقيس: ولكني سأشير عليكم برأي آخر، لعله الأصوب، سوف أرسل إلى سليمان بكتاب، ووفْد، مصحوب بهديَّة، حيث سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثله، هدية الملوك للملوك، فأنظر ما هو رد فعل هذه الهدية على سليمان؟ هل سيستمر على قوله أم ستخدعه الهدية وتبدل فكره، وما موقفه منها؟ هل يَقْبلُها أم يردُّها؟ وقالت لقومها: إنْ قبل الهدية، فهو ملِك، فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه، فقد علمتُ أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

أرادت الملكة أن تستميل قلب سليمان بهذه الهدية، فإن كان ملِكًا كُفيت شره وسوء لقائه، وإن كان نبيًّا، فسيرد الهدية، ولا يُرضيه إلا الدخول في دين الله، وإني منتظرة ما يرجع به الرسل، فأرسلت إليه بهدية مع رسل قومها.

سُلَيْمَانُ يَرُدُّ الْهَدِيَّةَ وَيَتَوَعَّدُهُمْ

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ(٢) بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

فلما وصل أمير الوفد (المنذر بن عمرو) بصحبة الوفد الذي معه، من طرف بلقيس إلى سليمان -أبى أن يقبل الهدية؛ لأنها أرسلتْها بعد وصول كتابه إليها، فعرف أن قصدها من الهدية أن تصرفه عما تضمنه الكتاب من الدعوة إلى توحيد الله تعالى، فكانت الهدية بمثابة الرشوة، ويظهر أن هذه الهدية كانت ذهبًا ومالًا.

(١) وقف البزي ويعقوب بخلف عنهما بهاء السكت على (بم). وسكّن الباقون الميم عند الوقف عليها اضطرارا أو اختبارا.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا في (أتمدونن)، وقرأ ابن كثير وحمزة ويعقوب بإثبات الياء في الحالين، والباقون بحذفها وصلًا. أما في الوقف فحذفها قالون والبزي وأبو عمرو وحفص، ولهم أيضًا إثباتها ساكنة، أما يعقوب فأثبتها ساكنة قولًا واحدًا، والباقون بحذفها.

قال سليمان: أتمدوني بالمال لأترككم على كفركم ومُلْكِكم، وما أنتم عليه؟ فما آتاني الله من العلم، والملك، والنبوة، والشيء الكثير، خيرًا مما آتاكم من زخارف الدنيا، وقد أعطاني الله من الدنيا ما لاَ يُستزاد عليه، فكيف أرضى بقبول هديتكم؟! فلا حاجة لي في هديتكم، وأنتم الذين تفرحون بالهدايا، وهذا يعني رد الهدية، فانتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها، لحبكم الدنيا وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله، قال سليمان منكرًا عليهم:

٣٧- ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي قال سليمان لأمير الوفد (المنذر بن عمرو): ارجع أنت ومن معك، فوالله لآتينهم بجنود لا طاقة لهم بها، ولا قدرة لهم عليها، ولنخرجنهم من سبأ أذلة، وهم خاضعون مهانون، إن لم ينقادوا لدين الله وحده، ويتركوا عبادة غيره، وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة، ولم يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك.

قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان، وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفتُ ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثتْ إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، ثم ارتحلتْ إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد[1].

أدرك سليمان أن جيش بلقيس لا بد أنهم سائرون إليه، فأمر مَنْ حوله أن يحضروا له عرشها:

إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقِيس مِنَ الْيَمَنِ إِلَى فِلَسْطِينَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ

٣٨- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

جمع سليمان الجن والإنس؛ ليُظهر كل منهم منتهى علمه وقدرته، وقال لهم: أيكم يأتيني بكرسي الملكة التي تجلس عليه قبل أن يأتوني مستسلمين لله، مذعنين طائعين منقادين لأمره؟ أي: قبل أن يدخلوا في الإسلام؛ لأنه لا يحق له أن يأخذ شيئًا من أموالهم، وتحرُم عليه دماؤهم بعد الدخول في الإسلام.

---

(١) «حاشية زاده على البيضاوي» (٣/ ٤٩٣) وانظر: «تفسير البغوي» وابن كثير وغيرهما للآية.

٣٩- ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا[1] آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

أي: قال عفريت من الجن، وهو المارد النشيط جدًا، القوي الشديد، الذي لا يُصاب ولا يُنال، ويُتقى لشره، وهو من عُتاة الجن، قال لسليمان: أنا آتيك بهذا العرش قبل أن تقوم من مجلس القضاء في أقل من نصف النهار، وكان سليمان يجلس للقضاء من الصبح إلى الظهيرة[2].

أي: سوف آتيك به في هذه الفترة من الصبح إلى الظهر، وإني لقوي على حمله، أمين على ما فيه، آتي به كما هو، لا أُنقِص منه شيئًا، ولا أبدله.

قُوَّةُ الْعِلْمِ تَفُوقُ قُدْرَةَ الْجِنِّ

٤٠- ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي[3] أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال الرجل الذي عنده علم من كتاب الله: أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن تغمض عينيك وتفتحها، وهذه المناظرة بين العفريت والذي عنده علم من الكتاب، تدل على أن العلم والحكمة يفعلان ما لا تفعله القوة، وأن الإنسان بعلْمه يفُوق قدرة الجن، والمسافة بين الشام وبين اليمن، تستغرق شهران ذهابًا وإيابًا، بوسائل المواصلات المتاحة آنذك على الإبل ونحوها، ومع هذا فإن الذي عنده علم من الكتاب سيأتي به في غمضة عين، والعفريت يأتي به في نحو ثلث يوم، وهو نهاية الوقت المعتاد للمجالس الطويلة حيث يجلس سليمان.

والذي عنده علم من الكتاب لم يوضحه القرآن، وأرجح ما قيل فيه: إنه (آصف بن برخيا)، كان وزيرًا لسليمان وعنده علم التوراة، وعنده علم باسم الله الأعظم الذي إذا

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا آتيك) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها وصلًا وإثباتها وقفًا.

(٢) جاء ذلك عند أبي شيبة (١١/ ٥٣٨) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٨٤).

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ليبلونيَ أأشكر)، والباقون بإسكانها.

دُعي به أجاب، وهذا العلم وصل إليه (آصف) بالطاعة لله ﷻ، والاجتهاد في العبادة، حتى أوصلتْه إلى مرتبة الصديقين، فقال آصف لسليمان: أنا آتيك به في غمْضة عين، أي: قبل أن يرتد جفْن العين إليها عند تحركها للنظر في شيء ما، فأذن له في الإتيان به، فنظر سليمان وإذ بعرش بلقيس بين يديه، كأنه جاء بسرعة الضوء.

فلما رأى سليمان العرش حاضرًا بين يديه، حمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: هذا من فضل ربي الذي خلقني، وخلق الكون كله؛ ليختبرني أأشكره سبحانه، معترفًا بنعمته عليَّ، أم أكفره بترك الشكر وجحود النعمة؟ ومن شكر الله تعالى على نِعَمِه؛ فإن نفْع ذلك يرجع إليه، فهو يستزيد من فضل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومَنْ جحد النعمة وترك الشكر فإن الله غني عن شُكره؛ وذلك لأن نعم الله تعالى، وفضله في الدنيا تشمل المؤمن والكافر، ثم يحاسبهم الله ويجازيهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

لم يغتر سليمان بملكه وسلطانه، كما هو دأب بعض الملوك، بل علم أن ذلك اختبار من الله تعالى، فخاف ألا يقوم بواجب الشكر، ثم بين أن الشكر يعود على من شكر، والله تعالى لا ينتفع بشكره.

فكل متقرب إلى الله تعالى بعمل صالح، فعمله لنفسه، يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة، ويرجو دوام فضله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين.

وفي الحديث القدسي: من رواية أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ: **«يقول الله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.**

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[١].

ثم أمر سليمان من عنده أن يغيِّر لبلقيس معالم كُرسيِّ مملكتها.

---

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٧٧).

سُلَيْمَانُ يَخْتَبِرُ ذَكَاءَ بَلْقِيس

٤١- ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)﴾

ولما جاء عرش بلقيس بسرعة فائقة من اليمن إلى فلسطين، واقترب وصول ملكة سبأ، أمر سليمان بتغيير بعض معالم عرشها امتحانًا لها، كأن يُجعل مؤخرته في مقدمته، أو أعلاه في أسفله، ونحو ذلك، فقال سليمان لمن عنده: غيِّروا سرير مُلْكِها الذي تجلس عليه إلى حال تُنْكِره إذا رأته؛ حتى ننظر هل تتعرف عليه، وتهتدي إلى معرفته، أم لا؟ وذلك لكي يختبر عقلها، وقوة ذكائها، وحصافة رأيها.

٤٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾

أخرجت بلقيس أشراف قومها، وتوجهت بهم مستسلمة منقادة إلى سليمان عليه السلام، وعزمت على الحضور عنده استجابة لدعوته لها ولقومها في قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وبعثت إلى سليمان تقول له: إني قادمة إليك؛ لأنظر ما الذي تدعو إليه من دينك، خرجت من سبأ وحطَّت برحالها في مدينة (أورشليم)، فلما بلغ سليمان أنها قد نزلت بهذا المكان على بُعد فرسخ منه، أراد أن يُحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه؛ ليريها مَقْدرة أهل دولته، ويبهتَها بإحضار عرشها الذي تفتخر به، وتُعدُّه نادرة الدنيا، وليختبر عقلها وفطنتها، أتعرفه أم تنكره؟ وليريها قدرة الله تعالى وعظم سلطانه، وليطلعها على معجزة خصه الله بها؛ حتى تؤمن بالله وحده من خلال ذلك، وتُصدِّق بنبوة سليمان عليه السلام.

فلما وصلت ملكة سبأ إلى سليمان في مجلسه، أراد أن يختبر ذكاءها، فقال لها: أهكذا عرشك؟ قالت: إنه يشبهه ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فهي لم تقل: نعم، خوفًا من الكذب، و لم تقل: لا، خوفًا من التكذيب، بل قاربتْ الأمر، وكما شبه سليمان بقوله: ﴿أَهَكَذَا﴾ ؟ شبهت هي أيضًا، وقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، وهذا من ذكائها وفطنتها، فهي لم تنف أن يكون العرش هو، لأنها عرفته، ولم تثبت أنه هو، لوجود التغيير فيه، وأتت بلفظ يحتمل الأمرين.

ولاشك أن سؤال سليمان، يدعو إلى الدهشة والمفاجأة بما لم يكن في حسبانها، وإلا فأين هي من عرشها الذي تركَتْه خلْفها على مسافة بعيدة؟ فلما ظهر لسليمان أنها أصابت

في جوابها، وعلمت قدرة الله تعالى وصحة نبوة سليمان، قال: لقد أصابت بلقيس في الجواب، وعرفت الحق، ولكنا أوتينا العلم أي العقل والحزم والهداية من قبل الملكة بحول الله وقوته، وكنا منقادين لأمره سبحانه، متبعين لدين الإسلام. قال تعالى:

تَأْثِيرُ الْبِيئَةِ عَلَى الْعَقَائِدِ

٤٣- ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: ولقد صدها عن الإيمان بالله تعالى أنها كانت في مجتمع كافر بالله ﷻ؛ فقد نشأت بين قوم يعبدون الشمس من دون الله، واستمرت على ذلك إلى هذا الوقت، وإلا فإن لها من الفطنة والذكاء ما تعرف به الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب، إنها كانت من قوم كافرين، واستمرت على دينها، ثم إن سليمان، أراد أن ترى بلقيس ما يبهر العقول، فبنى لها صرحًا من زجاج وجعل تحته ماء، كي تخوضه وهي قادمة عليه:

بَلْقِيسُ تُعْلِنُ إِسْلَامَهَا

٤٤- ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا[١] قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ[٢] قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قيل: إن بلقيس كانت أمها جنية، فخشيت الشياطين أن يتزوجها سليمان، فتُفشي إليه أسرار الجن، وإذا وَلدتْ ولدًا فإنهم لن ينفكُّوا من تسخير سليمان وذريته لهم، فأرادوا أن يزهِّدوه فيها، ويعيبوها عنده، فقالوا له: إن عقلها لا يميز، ورجلها كحافر الدابة، وإنها شعْراء الساقين، وهذا كلام ليس عليه دليل صحيح.

وفي هذه الآية بيان لما فاجأها به سليمان، فقد أراد أن يريها أثرًا من آثار الصناعة والحضارة، فصنع لها قصرًا عظيمًا، وهو صحن من غير سقف، يشبه الصهاريج المملوءة بالماء، وفيها سمك وضفادع، وعليها طبق من الزجاج الأبيض الشفاف، وذلك في بيت

(١) قرأ قنبل بهمزة ساكنة في (سأقيها)، والباقون بألف مدِّيَّة، وهما لغتان.

(٢) انفرد الكوفي بعدم عدّ (من قوارير) آية، وعدّها غيره.

وعر، كان يجلس فيه سليمان للقضاء بين الناس، وكان صحن القصر مبلط وممرد بزجاج شفاف، والله أعلم بصحة هذا.

فالطريق الذي مشت عليه بلقيس من الزجاج، وهذا الزجاج تحته ماء، وقيل: كان فيه أنواع الاسماك، ولما وصلت بلقيس إلى القصر، ورأت اللُّجة فزعت وظنت أنها قُصد بها الغرق، وعجبتْ من كون كرسيه على الماء، وهالها ما رأت، فلم يكن لها بد من أن كشفت عن ساقيها وخلعت نعليها، وشمرت ثوبها؛ حتى لا تبتل ملابسها من هذا الذي تظنه ماء، ولم تمتنع بلقيس من الدخول، لعلمها أنها لم تُستدع إلا للإكرام، وأن سليمان قد بنى ملكه بحكمة، وليس في قلبها أدنى شك في السوء، وهنا قال لها سليمان: إنه صرح مملس بالبلُّور، لا يحجُب ما وراءه، وهو صحن أملس من زجاج صاف، والماء تحته.

وهنا ينطق اللسان بالحق، ويهيم القلب في آفاق الحقيقة، فتخلع الملكة ما كانت عليه من الشرك، وتنقاد لله تعالى، داخلة في دين رب العالمين أجمعين، إذ قالت بلقيس: رب إني ظلمت نفسي، لقد اعترفتْ بأنها ظلمتْ نفسها في اتباعها الضلال بعبادة الشمس، وهذا بمثابة التخلي عن عبادة غير الله، وشرح الله صدرها للإسلام، فتحلَّت بالدخول في الإسلام، وإعلان التوحيد لله وحده؛ حيث قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومع علو شأن ملكة سبأ، وعظم سلطانها، لم تمتنع من النظر في دلائل صدق التوحيد والداعي إليه، مع التيقُّن من فساد الشرك وأهله.

فإصرار المشركين على شركهم بعد بلوغهم أدلة التوحيد إنما هو بسبب سخافة عقولهم، وتمسكهم بالباطل.

ذكر بعض المفسرين أن سليمان قد تزوجها، وأسكنها الشام، أو ردَّها إلى اليمن، وكان يأتيها على الريح كل يوم مرة، فولدت له ولد أسماه داود مات في حياته.

وقيل: إنه لم يتزوجها، بل زوجها تبَّع همذان.

والقرآن الكريم لم يتطرق إلى هذا الموضوع، إنما توقف عند إسلامها، ودخولها في دين سليمان، وهو دين التوحيد لله رب العالمين.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ قِصَّةُ صَالِحٍ عليه السلام

٤٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ[1] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

ينتقل السياق القرآني إلى قصة قوم آخرين، أرسل الله لهم رسولًا منهم، وبيَّن الحق سبحانه في هذه الآيات طرفًا من قصة صالح عليه السلام لم يُذكر في غير هذه السورة، وقد ركَّزت سورة (النمل) على قصص بني إسرائيل غالبًا، فذكرت جانبًا من قصة موسى، وأتبعتْها بقصة سليمان، ثم ذكرت حلقة من قصة صالح، وأتبعتها بإيجاز لقصة لوط عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، وكأن القرآن الكريم في هذه السورة، راعى مناسبة جوار البلاد، فديار ثمود بمدائن صالح، على تخوم مملكة سليمان في الطريق من سبأ إلى فلسطين، وديار قوم لوط بالأردن، أقرب ما يكون إلى فلسطين، ولم تذكر السورة قصة: نوح، ولا هود، ولا إبراهيم، ولا شعيب، كما هو شأن بعض سور القرآن الكريم.

وقد لَخَّصت رسالة صالح عليه السلام في هذه السورة القاعدة الكبرى التي تقوم عليها جميع الشرائع الإلهية، وهي عبادة الله تعالى، وإنقاذ الناس من الشرك، وانفردت سورة (النمل) بذكر التآمر على قتل صالح عليه السلام ممن عقروا الناقة، كما تآمرت قريش على قتل النبي ﷺ، وانفردت كذلك بذكر عدد مَنْ تآمروا على عقر الناقة، وأتبعت ذلك ببيان موقف قوم ثمود من دعوته، فكان منهم المكذب، ومنهم المصدق.

والمعنى: والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا؛ ليقول لهم: وحِّدوا الله، ولا تجعلوا معه إلهًا آخر.

فلما أتاهم صالح داعيًا إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده فاجأه بأن كان القوم فريقين: مؤمنًا وكافرًا، وصالح أخوهم في النسب وليس في الدين، وهم قوم عاد الآخرة، أما عاد الأولى فنبيهم هود عليه السلام، وبينهما نحو مئة عام، وقد أشار القرآن إلى من آمن، ومن كفر من قوم ثمود في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]. ويمضي نبي الله صالح في دعوة

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر نون (أن اعبدوا الله) وصلًا، والباقون بضمها.

قومه إلى وحدانية الله تعالى وعدم الإشراك به؛ ودعوتهم إلى الإيمان به وعدم تكذيبه.

٤٦- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾

تلطَّف صالح ﷺ وترفق بقومه في دعوته لهم، فأوقفهم على خطئهم في استعجال العذاب قبل الرحمة، والمعصية قبل الطاعة، ثم حضهم على الإيمان وطلب المغفرة، رجاء رحمة الله تعالى بهم.

قال صالح للفريق الكافر: يا قوم، لم تبادرون بالكفر وعمل السيئات، وهو يجلب لكم العذاب، ولم تؤخرون الإيمان وعمل الصالحات وهو يجلب لكم الثواب؟ ولم تتعجلون نزول العذاب بكم؟

فالمراد بالسيئة: تكذيبهم إياه، وعدم الإيمان بدعوته، وطلبهم نزول العذاب الذي توعدهم به.

والمراد **بالحسنة**: الإيمان به والتصديق برسالته ﷺ، فهو ينكر على من كفر به تكذيبهم له، وعدم التدبر في دلائل صدقه.

وكان الفريق الكافر يطلب من صالح ﷺ أن يأتيهم بعذاب الله الذي يتوعدهم به إن كان صادقًا، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[الأعراف:٧٧].

فاعتبَروا أن تأخير نزول العذاب بهم أمارة على كذبه، فنبههم نبي الله صالح على خطئهم، وأنه كان الأجدر بهم أن يبادروا إلى تصديقه بدل المبادرة إلى تكذيبه، ولا يستعجلون بأسباب العذاب قبل أسباب الرحمة.

ثم حثهم على التوبة من شركهم وكفرهم قائلًا: لولا تتوبون إلى الله وتستغفرونه؟ وهلّا تطلبون المغفرة من ربكم، وترجعون إليه رجاء أن يرحمكم فلا يعذبكم، فإن رحمة الله قريب من المحسنين، ولكنهم كذبوا صالحا وعارضوه وآذوه:

٤٧- ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قالوا: يا صالح، قد تشاءمْنا بك، وبمن آمن بدعوتك، ودخل في دينك، فالمطر لا يأتينا، وأرزاقنا في نقصان، وأنت سبب ما حلَّ بنا، وكان القحط والجوع قد نزل بهم.

والتطيُّر هو: التشاؤم، وكان التطير من أوهام العرب، وقبيلة ثمود منهم، فكانوا إذا

خرجوا للسفر، ورأوْا طائرًا قد مرَّ بهم من اليمين إلى الشمال تفاءلوا، وإن مرَّ بهم من الشمال إلى اليمين تشاءموا، فينسبون الخير والشر إلى الطائر.

قال لهم صالح في الرد عليهم: ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، وهو أمر قدَّره الله عليكم، وهو مجازيكم به، فإن شؤمكم عند الله، ولكنكم قوم تفتنون بكفركم بنبي الله صالح عليه السلام، وأنتم تُختبرون بالسراء والضراء، والخير والشر.

وبمثل هذا قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف].

وهكذا أخبر الله عن أهل القرية؛ إذ جاءها المرسلون ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس].

التَّآمُرُ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ عليه السلام وَعَقْرِ النَّاقَةِ

٤٨- ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾

المراد بالمدينة في الآية: المدينة التي كان يسكنها صالح عليه السلام من مدائن الحجر، الواقعة في شمال غرب جزيرة العرب، بين الحجاز والشام، جنوب شرق أرض مدين، وقد مر بها النبي ﷺ والمسلمون معه، وهم في طريقهم إلى غزوة تبوك، ورأوا فيها آبارًا، وقد نهاهم النبي ﷺ عن الشرب والوضوء منها، إلا بئرًا واحدة أمرهم بالشرب والوضوء منها، وقال: «**إنها البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح**»، وكان في هذه المدينة تسعة رهط، **والرهط**: في الأصل، يطلق على الجماعة من الناس، نحو عشرة، وكذلك لفظ نَفَر: يطلق على عدد من الناس دون العشرة، وهؤلاء الرهط كانوا تسعة رجال من عُتاة القوم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت أسامِيُّهُمْ: رُعَمى، ورُعَيْم، وهُرَمِيَّ، وهُرَيْم، ودابَّ، وصوابَّ، ورئاب، ومِسْطَح، وقُدار بن سالف، عاقر الناقة[1].

فهم تسعة أفراد، وليسوا تسع جماعات، كأن الواحد منهم في عناده وكفره يساوي

---

(١) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٠٠).

جماعة من الناس، وهذا دلالة على شدة تعنتهم وكفرهم، وكان هؤلاء الرهط يفسدون في الأرض، فشأنهم الإفساد وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة، وهم الذين عقروا الناقة، وعلى رأسهم (قدار بن سالف)، وهو الذي قال الله عنه: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر]. وقال عنه على لسان صالح عليه السلام: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس]. وقال تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وبعد عقرهم للناقة أرادوا أن يقتلوا صالحًا عليه السلام.

٤٩- ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ[(١)] وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ[(٢)] أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

قال هؤلاء التسعة بعضهم لبعض: احلفوا بالله لنقتُلنَّ صالحًا وأهله ليلًا، وحَلِفُهم بالله يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره، قالوا تقاسموا بالله، بأن يحلف كل واحد منكم للآخرين، وعقدوا العزم على أن يقتلوا صالحًا ليلًا بغتة في الليل، فنقتله ونقتل أهله، ثم لنقولن لولي دمه من قرابته: ما حضرنا قتلهم، وإنا لصادقون فيما قلناه، فتواطؤوا على قتله:

عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْمِ ثَمُودَ

٥٠- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لقد اختبؤوا في ليلة مظلمة، في كهف تحت دار نبي الله صالح عليه السلام، أو قرب مسجده الذي كان يصلي فيه؛ ليترقبوا خروجه منه، فأطبق الله عليهم الصخرة وأهلكهم ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ أي: دبروا حيلة لإهلاك صالح وأهله، وأخفوا طريقة الفتك به، وسَمَّى الله تآمرهم مكرًا؛ لأنه كان تدبيرًا في خفاء ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: جازيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة لهم في الدنيا، وأخذناهم على غرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يتوقعون كيدنا لهم جزاءً على كيدهم، فمكْر الله تعالى بهم معناه: مبادرته باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من قتل صالح وأهله.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لَتُبَيِّتُنَّه) (لَتَقُولُن)، وقرأ الباقون (لَنُبَيِّتَنَّه) (لَنَقُولَن).

(٢) قرأ شعبة بفتح اللام والميم من (مَهلَك) مصدر ميمي قياسي، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام (مَهْلِكَ) مصدر ميمي سماعي، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام (مُهْلَكَ) مصدر ميمي، من أهلك.

وَرَد أنهم لما عقروا الناقة أخبرهم صالح بنزول العذاب بهم، فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وعندئذ قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا في ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلًا فيقتلوه وأهله، قالوا: فإن كان كاذبًا في وعده فقد أنزلنا به ما يستحق، وإن كان صادقًا عجلنا به وشفينا ما بنفوسنا، فاختفوا في غار قريب من داره، فانحدرت عليهم صخرة فأهلكتهم، وقيل: إن الغار انطبق عليهم فهلكوا فيه.

وسمى الله عقوبتهم باسم ذنوبهم، والمكر هو الخديعة ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. قال تعالى:

٥١- ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا[1] دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾

خاطب الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بأن يتأمل في هلاك قوم ثمود، وينظر نظرة اعتبار من هذه القصة، وهل حصل مقصودهم وأدركوا مطلوبهم، أم أن الأمر انقلب عليهم؟ وفيها بيان عاقبة غدْر الرهط الذين بيَّتوا النية لقتل نبي الله صالح وأهله، وكيف نصره الله عليهم، وأهلكهم على غرة، هم وقومهم أجمعين، حيث جاءتهم صيحة عذاب، فأُهلكوا عن آخرهم. واستأصل الله شأفتهم، وكان مآلهم الخراب والدمار، قال تعالى:

٥٢، ٥٣- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ديار ثمود في مدائن صالح بين المدينة والشام، يمرُّ عليها الجميع، ويرون آثارهم بعد أن أهلكهم الله، فمساكنهم ودورهم خالية، ليس فيها منهم أحد، وهي ساقطة ومتهدِّمة على عروشها؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والكفر، وبسبب تكذيبهم لنبيهم صالح ﷺ، وفي ذلك التدمير والإهلاك لعظةٌ وعبرةٌ لقوم يعلمون أنَّ ما فعلناه بهم هو سنتنا فيمن يكذب رسل الله تعالى، فيعتبروا بذلك، ويعلموا أن ذلك عاقبة الظلم والدمار، حتى لا

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح همزة (أنا دمرناهم) على تقدير حرف الجر، وكان: تامة، وعاقبة: فاعلها، وأنا دمرناها في تأويل مصدر: بدل من عاقبة، وقرأ الباقون بكسر الهمزة، على الاستئناف، وكان: ناقصة، وعاقبة: اسمها، وأنا دمرناها: خبرها.

يصبهم مثل ما أصاب قوم ثمود.

وفي ظلم النفس بالشرك والمعاصي، وظلم الناس بالتعدي على حقوقهم وحرُماتهم أثر كبير في خراب البلاد.

قال ابن عباس ﷺ: أجد في كتاب الله تعالى، أن الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية.

وفي الحديث: عن ابن عمر ﷺ: **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**(١).

وقال عبد الله بن عمر ﷺ: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجْر، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»** ثم زجر فأسرع حتى خلّفها(٢).

قيل: إن الذين آمنوا بصالح ﷺ كانوا أربعة آلاف، فلما أراد الله إهلاك قوم ثمود أوحى إلى صالح أن يَخرُج هو ومن آمن معه؛ حتى لا يصيبهم ما يحل بثمود من الهلاك، فخرجوا، وقال صالح للمكذبين به: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وجاء ذكر هلاكهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة].

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ [القمر].

وأنجى الله صالحًا ومن معه من عذاب الله تعالى، وكان خروج صالح ومن آمن معه وهم الذين نجاهم الله من الهلاك، قيل: كان إلى الرسّ، فكان أصحاب الرسّ من ذريتهم، وقيل: نزلوا بشاطئ اليمن، وبنوا مدينة حضرموت، وفي بعض الروايات أن صالحًا نزل بفلسطين، وقيل: إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا فيها وقبورهم غربي الكعبة، والله أعلم.

---

(١) من حديث ابن عمر في «البخاري» برقم: (٤٣٣، ٤٧٠٢) ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٨٠) والبخاري برقم: (٣٣٨٠، ٤٤١٩).

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ وَالأَخِيرَةُ قِصَّةُ لُوطٍ عليه السلام

٥٤- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

أرسل الله تعالى لوطًا عليه السلام إلى قومه يدعوهم - **أولًا** - لعبادة الله وتوحيده.

وينهاهم - **ثانيًا** - عن الفاحشة المنكرة، وهي جريمة اللواط.

ولوط عليه السلام هو ابن هاران بن آزر، عمه إبراهيم عليهما السلام، وكان لوط قد آمن بإبراهيم، وهاجر معه من العراق إلى الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عما يرتكبونه من الفواحش التي لم يسبقهم إليها أحد.

وقد وجه الله تعالى الخطاب إلى رسوله محمد ﷺ بأن يذكُر لقومه قصة رسوله لوط عليه السلام حين قال لأهل المؤتفكة: أتأتون الفِعلة المتناهية في القبح، وهي فاحشة اللواط، وأنتم تعلمون علم اليقين أنها عمل قبيح؟ فما أعجب العقول عندما تنتكس!! وما أعجب النفوس عندما ترتكس!! ويزين لهم الشيطان أعمالهم! قال لوط لقومه:

٥٥- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

كرر الله - سبحانه - توبيخ قوم لوط قائلًا: أيها الممسوخون في فِطْرتكم وطباعكم، إنكم لتصُبُّون شهوتكم -التي ركَّبها الله فيكم- في أدبار الرجال دون فروج النساء عوضًا عنهن، فيكتفي الرجال بالرجال بفعل هذه الفاحشة القبيحة.

ثم أخبر سبحانه عن الأسباب التي جعلتهم يرتكبون هذه القبائح التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع، وهي أنكم قوم تجهلون حق الله عليكم، فخالفتم بذلك أمره، وعصيتم رسوله، بفعلتكم الشنيعة التي لم يسبقكم إليها أحد من العالمين، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وختمت الآية في مواطن أخرى بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]. وهنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

هذا: وإن الفاحشة القديمة أصبحت فاحشة معاصرة معلنة، حيث يريد بعض الناس أن يجعلوا الشذوذ الجنسي مُقنّنًا، وحقًّا من حقوق الإنسان؛ كي يهبط الإنسان الذي كرمه الله ﷻ على سائر مخلوقاته في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، إلى المرتبة الحيوانية حين يجعل الشذوذ حقًّا من حقوقه.

٥٦- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

فما كان الجواب من قوم لوط حين نهاهم نبيهم عن فاحشة اللواط، إلا أن هدّدوه وتوعّدوه، وقال بعضهم لبعض: اطرُدوا لوطًا وأهله من بلدتكم، إنهم قوم يدَّعون الطهر من الأعمال التي يقومون بها، وهذا دليل منهم على أن الذي يقومون به من أعمال سيئة أنها فحشاء ومنكر؛ حيث قالوا للوط ﷺ وقومه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتنزهون عن الفعل الذي نفعله، فهم يسخرون منهم؛ لبعدهم عن هذه الفاحشة، ويفتخرون بما هم عليه من المنكر، ويجعلون أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات.

أمر الله لوطًا أن يخرج بأهله المؤمنين به ليلًا، فإن عذاب الاستئصال واقع بقومه في الصباح الباكر، وقد بيَّن الله عقوبة قوم لوط، بأن جعل أعلى ديارهم أسفلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر].

وعن عقوبة اللواط في الدنيا: جاء في الأثر فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنهما: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به في عمل قوم لوط والبهيمة والواقع على البهيمة، ومن وقع على ذات محرم فاقتلوه**»[(١)].

٥٧، ٥٨- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا[(٢)] مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: وبعد أن أهلكهم الله بعذابٍ من عنده، نجى الله لوطاً وأهله إلا امرأته كانت من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن به، فهي لم تكن زانية، أو لوطيَّة؛ إذ لا يوجد امرأة نبي توصف بهذا الوصف، ولكنها كانت تدل وتُرشد مَنْ يريدون عمل الفاحشة، فأنجينا لوطًا وأهله من العذاب الذي

---

(١) «المسند» (٢٧٢٧، ٢٧٣٢، ٢٧٣٣) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعْف ابن أبي حبيبة، وأخرجه عبدالرزاق (١٣٤٩٢) والطبراني (١١٥٦٩) والخرائطي في مساوىء الأخلاق (٤٣٦، ٥٧٢) وغيرهم.

(٢) قرأ شعبة بتخفيف الدال من (قدرنا)، والباقون بتشديدها، وهما لغتان.

نزل بقومه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: كانت في علمنا وتقديرنا من الباقين في العذاب لتهلك مع الهالكين؛ لأنها كانت عونًا لقومها على أفعالهم القبيحة راضية بها، وكانت الملائكة قد جاؤوا إلى لوط ﷺ، في صورة ضيوف، فلما علم شباب القرية بهم جاؤوا إليهم يريدون فعل الفاحشة، فأغلق لوط الباب دونهم، فأخبرته الملائكة أنهم رسل الله، وأنه لن يصل إليهم منهم أذى، وأنهم جاؤوا لإهلاكهم، وأنّ موعدهم الصبح، وأمروه أن يَسْري بأهله ليلًا إلا امرأته، إنه مصيبها ما أصابهم، فخرجوا ليلًا، فقلَب جبريل القرية، وأنزل الله عليهم من السماء حجارة، قيل: إن هذه الحجارة التي أمطرتْهم كانت قد نزلت بهم في الصباح الباكر، ومن لم يكن منهم في مكانه، يَذهبُ إليه حَجَرُه مُصَوَّبًا عليه في المكان الذي هو فيه ليقتله، فهي حجارة مسومة، أي: مُعلّمة وموجهة، وعليها اسم من يُرمى بها، وبئس هذا العذاب الذي أُهلكوا به ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: قُبح عذاب مَن قامت عليهم الحجة فلم يؤمنوا، ولم ينتهوا عما نهاهم الله عنه.

وديار قوم لوط التي أُهلكت معلومة للجميع، يقول الله تعالى عنها: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. ويقول: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات].

وإلى هنا ينتهي الحديث عن قصص الأنبياء في السورة، وينبغي التنبيه على أن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦ﴾ من تتمة قصة لوط ﷺ، وهي قصة قصيرة، فالأولى بالقارىء أن يتمها، ويبدأ تلاوته بالآية ٥٩ ولا يبدأها بالآية ٥٦ مراعاة للمعنى، أو يبدأ بأول قصة لوط ﷺ.

خَمْسَةُ بَرَاهِينَ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ

٥٩- ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ[1] ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ[2] ﴿٥٩﴾﴾

إن سورة (النمل) كسائر السور المكية، تغرس عقيدة التوحيد في قلوب المشركين،

(١) لجميع القراء في (ءَآللَّهُ) وجهان: الأول: إبدال همزة الوصل ألفًا مع المد المشبع. الثاني: تسهيلها بين الهمزة والألف، ويتعين الوجه الأول على قصر المد المنفصل.

(٢) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بياء الغيبة في (يشركون)، والباقون بالتاء.

وتُرسِّخ فيهم عقيدة الإيمان بالله وباليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر، ونشر وحساب، وجنة ونار، كما تتحدث عن صدق رسالة النبي ﷺ.

وفي النصف الأول من السورة، قصصٌ، لخمسة من الأنبياء والمرسلين، دعَوْا قومهم إلى التوحيد، ونهُوهم عن الشرك، ولما كذَّبوا رسلهم كانت عاقبتهم كما قال الحق سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾.

وبعد هذا القصص القرآني تُوجه السورة الخطاب إلى النبي ﷺ أن يحمد ربه على جميع نعمه، ومنها هلاك كفار الأمم الذين سبق ذكرهم؛ بسبب عدم توحيدهم لله تعالى، وعدم طاعتهم لرسل الله عز وجل.

ثم أمره ربه أن يتلو على أمته هذه الآيات الناطقة بالبراهين الحسية المشتملة على خمسة أنواع من أدلة التوحيد وآثار القدرة الإلهية في الكون تتضمنها خمس آيات من السورة.

وتبدأُها بتعليم العباد أن يبدؤوا حديثهم بحمد الله ﷻ، ثم بالصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وكأن هذه الآيات صَدْرُ خطبة مفتتحة بالحمد والسلام على من اصطفاهم الله من عباده.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: الثناء والشكر لله، فهو الذي يستحق كمال الحمد والمدح، لكمال أوصافه وجميل معروفه، وسلام منه على عباده الذين اختارهم لرسالته، واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين.

في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجزم»**، وفي لفظ: **«أقطع»**[1].

وينتهي الحديث بالصلاة والسلام على من اصطفاهم الله من بين خلقه، وهم رسل الله وأولياؤه والملائكة الكرام، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات].

---

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١٠٢٥٥-١٠٢٥٨) وأبو داود (٤٨٤٠) وابن ماجه (١٨٩٤) و«المسند» بنحوه (٨٧١٢) قال محققوه: وإسناده ضعيف، لضعف قرة بن عبدالرحمن، وفي متنه وسنده اضطراب، وابن حبان (١، ٢). وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود برقم (١٠٣١).

قال الزمخشري: أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وهو حمد الله، والصلاة على رسله، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل عِلْم، وقبل كل عظة وتذكرة.

وتوجه السورة السؤال إلى غير المؤمنين ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل عبادة الله ﷻ، الذي يملك النفع والضر، والخير والشر خير، أم عبادة ما لا يملك شيئًا؟ وهل عبادة موجد الرزق خير، أم عبادة الأصنام والأوثان وغيرهما من الطواغيت التي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا تملك لنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فهي ناقصة من كل وجه.

وفي هذا تبكيت للمشركين وإلزام لهم بالحجة، وفيه توطئة للآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبيان أنه لا خير أصلًا فيما أشركوه مع الله تعالى؛ حتى يوازَن بينه وبين خالق الكون، وكان النبي ﷺ إذا قرأها قال: «**بل الله خير، وأبقى، وأجل، وأكرم**».

وما سبق من الآية، تمهيد لما أمر الله تعالى به رسوله ﷺ أن يقوله للناس من البراهين الخمسة الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، **ومجملها**:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مُكَوَّنٌ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَالنَّبَاتِ

٦٠- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ[1] بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أقامت السورة **خمس جمل من البراهين** في خمس آيات، فيها بعض آثار القدرة الإلهية:

البرهان الأول: وفيه أعظم خلْق الله، وأكبر المخلوقات المشاهدة، وهو دليل مكون من أربعة أشياء: هي السموات والأرض، والماء والنبات، وهي نِعَم يتقلب فيها العبد صباحًا ومساءً في جميع أحواله، وهو يغض الطرف عنها، ولا يلتفت لها؛ لأنه يألفها في غُدُوه ورواحه وصباحه ومسائه. **والمعنى**:

---

(١) وقف الكسائي على (ذات) بالهاء والباقون بالتاء.

١- اسألهم -يا رسولنا- مَنِ الذي خلق السموات، وما فيها من الآيات والكواكب العظيمة، كالشمس والقمر والأفلاك والنجوم والملائكة، الدالة على وحدة الخالق سبحانه؟

٢- ومَنِ الذي خلق الأرض، وما فيها من زروع وثمار، وبحار وأنهار، وجبال وأشجار؟

٣- ومن خلق مقومات الحياة عليها، كالماء والهواء؟

٤- ومن أنزل من السماء ماء فأنبتنا بهذا الماء نباتًا ذا بهجة، وخُضرة، ومنظرحسن ؟

ولما كان الإنسان هو الذي يُلْقي البذرة في الأرض، ويسقيها بالماء، فإن الله تعالى أسند إخراج النبات إلى نفسه، مع أن الله تعالى هو خالق السبب والمسبب، وليس في استطاعتكم -أيها الناس- أن تخلُقوا هذا النبات، ولا تُخرجوه من الأرض، لولا الله سبحانه.

والآية فيها امتنان من الله تعالى بنعمة الخلق والإيجاد، وما به قوام شؤون الحياة.

وقد فصَّل الله - سبحانه - ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم].

والآيات ناطقة بالبراهين المحسوسة الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، والمشركون معترفون بذلك، ولكنهم معرضون إعراض مكابرة، وعدول عن الحق الواضح، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ثم يسألهم القرآن على وجه التوبيخ؛ ليقرر أن عبادته سبحانه هي الحق، وعبادة ما سواه هي الباطل ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فَعَلَ هذه الأشياء حتى يُعبد معه ويشرك به؟ فكيف تعبدون معه غيره، وهو المتفرد بالخلق والرزق؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. بل هم قوم يحيدون عن الحق، وينحرفون عن الإيمان إلى الباطل والكفر، فيُسوُّون مع الله غيره.

ولا يستطيع أحد القول بأن خالق السماء، ومنزل الماء، ومنبت الحدائق الغنَّاء، حجَرٌ أو بشَرٌ، فلا مجال لمثل هذا الادعاء، ولا مفر من الإقرار والإذعان بأن خالق هذا الكون هو الله - سبحانه - كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

فيسوّون به غيره، مع علمهم بأنه سبحانه خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق ومدبر الأمر.

إن استقرار الأرض بمن عليها دون حركة، ولا اهتزاز، ولا اضطراب، أمر مدهش، فالإنسان لا يرى كُوب ماء يهتز في يده فوق سطح هذه الأرض، وهي تدور في حركة مزدوجة ليل نهار، لقد جعلها الله مستقرًّا صالحًا للحياة فوقها، وكلما اتسع علم البشر على توالي الأزمان أدركوا ما ينطوي عليه مدلول الآية.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: مُكَوَّنٌ مِنْ أَرْبَعِ نِعَمٍ أَيْضًا

٦١- ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

هذا هو البرهان الثاني: وفيه أيضًا أربعة أنواع من النعم، وهي: استقرار الأرض، وشق الأنهار فيها، ووجود الجبال فيها، وفصْل ما بين الماء العذب والمالح.

١- فاسألهم -أيها الرسول- عن عظيم قدرة الله تعالى في هذه المخلوقات: أعبادة ما تشركونه مع الله خير،أم عبادة الذي جعل لكم الأرض مستقرًّا صالحة للسكنى والحرث والبناء والذهاب والإياب، إنه سؤال استفهام على وجه التبكيت والتقريع من الله تعالى للضالين عن طريق الحق،وكيف أن الله سبحانه دحا الأرض وسواها،وهي لا تميد بأهلها، مع أنها تدور حول نفسها وحول الشمس، ونحن نعيش عليها، ولا نحس بحركتها.

مَن الذي جعل الأرض ساكنة مع كرويتها، صالحة للمعيشة فوقها؟ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤].

والزلازل والبراكين التي تحدث فيها، إنما هي دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى نعمه على بني البشر، وتذْكرة للإنسان على نعمة الاستقرار فوق هذه الأرض، ماذا لو لم يأمن الإنسان هذا الاضطراب؟ كيف تطيب له الحياة؟ وكيف يتقلب في الأرض؟

٢- ومِنْ قدرته تعالى أنه جعل الأنهار تتفجر من وسط الأرض بمياه عذبة طيبة، تسير في شعابها وأوديتها شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا لسقيا العباد والبلاد.

٣- ومِنْ قدرته تعالى أنه جعل الجبال أوتادًا؛ لئلَّا تميد الأرض وتضطرب بمن عليها،

فجعل الجبال رواسي للأرض؛ لئلَّا تتحرك بالناس.

٤- ومِنْ قدرته تعالى أنه جعل بين الماء العذب، والماء الملح، فاصلًا وحاجزًا من قدرة الله - سبحانه - أو حاجزًا من اليابس؛ لئلَّا يختلط الماء الملح بالعذب؛ حتى لا يُفْسِد أحدهما الآخر، وتفوت المصلحة المقصودة من كل منهما.

قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان].

فالماء العذب لسقْي الإنسان والحيوان، والزروع والثمار، أمّا البحار المالحة المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب فقد جعلها الله أجاجًا؛ لئلَّا يُفسد الهواء ريحها.

ثم يسأل الحق ﷻ مقررًا ومُوقِفًا عبادهُ على مَنْ فَعَلَ هذه الأمور الأربعة، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أمعبود مع الله فعل ذلك، حتى تشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر المشركين بالله تعالى لا يعلمون قدْر عظمة الله - سبحانه - فهم يشركون معه غيره ظلمًا لأنفسهم، وتقليدًا لغيرهم.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: إِجَابَةُ الْمُضْطَرِّ وَالاسْتِخْلَافُ فِي الأَرْضِ

٦٢- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ[1] ۝٦٢﴾

هذا هو البرهان الثالث: وفيه أمران، حيث ينتقل السياق من آيات الله تعالى في الكون الفسيح، إلى آياته في الأنفس.

الأمر الأول: إجابة المضطر: وذلك حين يقع الإنسان في غم وكرب، فلمن يلجأ؟ ومن يدعو؟ ومن يسأل؟ ومن الذي يضرع إليه فيستجيب دعاءه؟ وينجِّيه مما هو فيه؟ من الذي يغيِّر الأحوال، فيكشف السوء والضر، ويبدِّل حالة الإنسان من مرض إلى صحة، ومن فقر إلى غنى، ومن معاصٍ إلى طاعة، ومن هزيمة إلى نصر؟ من الذي يجيب دعوة المكروب الذي نزلت به المحن والرزايا، فيكشف عنه السوء والبلاء؟ والجواب هو الله سبحانه.

(١) قرأ أبو عمرو وهشام وروح بياء الغيبة في (تذكرون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة (ويجعلكم)، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال، والباقون بتشديدها.

الأمر الثاني: الاستخلاف في الأرض، أي: وقولوا لنا أيضًا: من الذي استخلفكم في الأرض، فجعل بعضكم يخلفُ بعضًا، قرنًا بعد قرن، بما تقتضيه الخلافة من تجدد الأبناء عقب الآباء، وما يستلزم ذلك من كثرة الداعين اللاجئين إلى الله؟ فمن الذي جعلكم ترثون الأرض وتعمِّرونها، وتسْكنونها جيلًا بعد جيل؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هل هناك إله آخر مع الله - سبحانه - فَعَلَ هذا؟ والجواب: لا أحد غير الله. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، ولو شاء لأوجدكم كلكم في وقت واحد، ولكنه سبحانه يميتكم ويأتي بقوم بعدكم، ويمدكم بالرزق وسائر النعم.

ولو نظر المسلم إلى السياق القرآني البديع، لوجد أن آخر كل آية يناسب جوهرها، ومن ذلك هذه الآية؛ فالإنسان وهو في حالة الرخاء ينسى حالة الضيق والشدة، ولذا تختم الآية بقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلًا ما تتعظون وتعتبرون، فتذْكُرون ما كنتم فيه وقت الشدة، ولكن يغلب عليكم الإعراض والغفلة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

سأل رجل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «**أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسَّك ضر فدعوْته كشفه عنك، والذي إن أضلَلْتَ بأرض قَفْر فدعوته ردَّها عليك، والذي إن أصابتك سَنَة فدعوته أنبتها لك**»[1].

---

(١) من حديث طويل بنحوه في «المسند» عن رجل (٥/ ٦٤) برقم: (١٦٦١٦) و(٢٣٢٠٥) وهو حديث صحيح وإسناده ليّن والطبراني (٦٣٨٣-٦٣٩٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٤٢) عن جابر بن سليم، وصحيح الترمذي (٢٨٧٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٢): رواه أحمد، وفيه الحكم بن فصيل، وثقه أبو داود وغيره، وضعفه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وأخرج ابن أبي شيبة عن سُحَيْم بن نوْفل قال: بينما نحن عند عبد الله، إذ جاءت وليدة إلى سيدها، فقالت: ما يخبِسُك وقد لَفَع فلان مُهْرَك بعينه، فتركه يدور في الدار كأنه في فلك؟ قالت: قم فابتغ راقيًا.

فقال عبد الله: لا تبتغ راقيًا، وانفِث في مَنْخَرِه الأيمن أربعًا، وفي الأيسر ثلاثًا، وقل: لابأس، أَذهِب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا يكشف الضر إلا أنت، قال: فذهب، ثم رجع إلينا، فقال: فعَلْتُ ما أمرْتني، فما جئت حتى راث وبال وأكل[1].

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: التَّصَرُّفُ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ وَأَحْوَالِ الرِّيَاحِ

٦٣- ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ[2] بُشْرًا[3] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذا هو البرهان الرابع على وحدانية الله تعالى في سورة النمل، **وفيه أمران:**

أحدهما: التصرف في أحوال الناس: وذلك أنه لا يستوي عبادة ما يشركه المشركون مع الله تعالى، بمن يرشدهم في الظلام الدامس إذا ضلوا في أسفارهم، وهم في أماكن مظلمة.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: إذا أردتم الانتقال من مكان إلى مكان، حين تختلط عليكم السبل في البر، وحين تلتبس عليكم الطرق في الجو الملبد بالغيوم، وخلال أمواج البحر الهائج.

ومَن غير الله - سبحانه - يدلكم ويرشدكم إلى الطريق المستقيم، ويخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور الهدى؟ والجواب: لا أحد غير الله. سبحانه.

وثانيهما: إثارة الرياح وإرسالها: أي: ومن يرسل الريح بين يدي المطر فتثير السحاب مبشرات بما يرحم الله به عباده من غيث يغيث به العباد والبلاد، ويرسل الرياح تدفع

---

(١) ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٠).

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بإفراد (الريح)، والباقون بالجمع.

(٣) قرأ عاصم (بُشْرًا) وقرأ حمزة والكسائي وخلف (نَشْرًا) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (نُشُرًا) وقرأ ابن عامر (نُشْرًا).

السفن، وتُلَقح الزرع والنبات والنخيل، مَنْ يفعل ذلك؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أمعبود مع الله يفعل بكم شيئًا من ذلك فتدعونه من دون الله؟ تنزه الله وتقدَّس عما يشركون به غيره.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: نِعْمَةُ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ

٦٤- ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أمَّا البرهان الخامس: فهو يذكِّر بنعمة الإيجاد والإمداد، وهذا البرهان يتناول أمرين أيضًا:

الأول: بدء الخلق وإعادته، إنه سبحانه هو الذي ينشيء المخلوقات، ثم يعيدهم يوم البعث والنشور، ونظرًا لأن المشركين لا ينكرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق، فقد أدمج سبحانه بينهما إعادة الخلق، إيقاظًا وتذكيرًا لمن أنكر البعث والنشور، فمن الذي أوجد هذا العالم من العدم؟ ومن الذي حوّل النطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم إلى إنسان سويّ يسمع ويبصر ويعقل، ثم يميتكم ثم يحييكم مرة ثانية بالبعث والنشور ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج].

الأمر الثاني: رزق العباد: وهو أمر مقرر لبدء الخلق وملازم له، ولذا عطف عليه - في آيات أخر - بإنزال الماء، وإخراج الزرع والنبات، وغير ذلك من كل ما فيه رزق الإنسان والحيوان: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أمعبود سوى الله تعالى يفعل ذلك؟ قل هاتوا دليلكم وحجتكم على ذلك، إن كنتم صادقين في زعمكم أن لله تعالى شريكًا في ملكه وعبادته، وإلا فأنتم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية، الدالة على أن الله تعالى هو المدبر لهذا الكون، المستحق للعبادة دون سواه.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الستّ، أقامت أوضح الأدلة وأقواها على وحدانية الله تعالى، وعلى كمال قدرته، وشمول علمه، وانفراده بالخلق والتدبير:

١- فأجملت أوّلًا الاستدلال على أن الله تعالى هو الواحد الأحد ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢- ثم فصَّلت ذلك، فبدأت بأكبر مخلوق مشاهَد، وهو السموات والأرض، وخُتمت هذه الآية، بما لا يسع الخلق إلا الإقرار به.

٣- وأتبعت ذلك بما يلحقهما من خَلْقٍ لِكُرة الأرض، وما على وجهها.

وخُتمت هذه الآية بنفي صفة العلم عن المشرك بالله تعالى؛ لقلة نظره في دقائق الكون وخصائصه.

٤- ثم ذَكرت الآيات اللجوء إلى الله تعالى عند الاضطرار، وجعْل البشر خلفاء في الأرض.

وخُتمت هذه الآية بقلة الاتعاظ والاعتبار في الحل والارتحال، والغزو والتجارة و نحو ذلك.

٥- ثم ذكرت هداية الناس في أسفارهم، وبيَّنت أن من فوائد السحاب نزول المطر.

وخُتمت هذه الآية بما يقطع نزاع المشركين في تصرفات الله سبحانه، وأنه الذي تفرد بالخلق والتدبير.

٦- ثم ذكرت الآيات نعمة الخلق، والرزق، والبعث بعد الموت.

وختمت هذه الآية بتعجيز منكري البعث أن يأتوا ببرهان على عدم البعث.

وختمت الآيات الأخيرة بكلمة جامعة لنعمتي: الإيجاد، والإمداد، وطلب إقامة الدليل على منازعة الله تعالى في كل ما ذكرتْه الآيات، وفي معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

قال أبو حيان: وناسب خَتْمُ كل استفهام بما تقدمه، فلما ذكر خلْق العالم العُلوي والسفلي، وما امتنَّ به من إنزال المطر، ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يعدلون به غيره مما هو مخلوق.

ولما ذكر سبحانه جعْل الأرض مستقرًّا، وذَكر تفجير الأنهار، وكان فيهما التنبيه على عدم الكفر، ووجوب التعقل، ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولما ذكر سبحانه إجابة المضطر وكشْف السوء، ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراره.

ولما ذكر الهداية في الظلمات، وإرسال الرياح مبشرات، وأن معبوداتهم لا تهدي ولا تسعف، ومع ذلك فهم يشركونها مع الله تعالى، ختم ذلك بقوله: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

---

(١) «تفسير البحر المحيط» (٧/ ٩١).

لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ

٦٥- ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وبعد أن قطعت الآيات السابقة دابر الشرك بإقامة أدلة التوحيد، أتبعت ذلك بذكر أثر من آثار الشرك، وهو ادعاء علم الغيب عن طريق الكهانة، وإخبار الجن، كما يزعم بعضهم.

وقد ورد أن المشركين ألَحُّوا في سؤالهم رسول الله ﷺ عن معرفة وقت قيام الساعة، فأنزل الله الآية؛ للتسليم بها، وترْك التحديد فيها إلى الله تعالى.

أي قل -يا محمد- لكل من سألك عن قيام الساعة، لا يعلم أحد في السموات، ولا في الأرض، ما استأثر الله بعلمه من المغيبات إلا الله، والساعة من أكبر مسائل الغيب.

في حديث عمر ﷺ: لما سئل الرسول ﷺ عن قيام الساعة قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: ومن زعم أنه يعلم ما في غد، فقد أعظم على الله الفرية[2].

والخلائق جميعًا لا يعلمون الوقت الذي يبعثون فيه، ولا يدْرون متى يخرجون من قبورهم عند قيام الساعة؛ فإنَّ عِلْمَ ذلك عند الله وحده.

قال تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء].
وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فلا يعلم أحد الغيب، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. إلا مَنْ يتفضل الله عليه بأن يطلعه على شيء من علم الغيب، فهو داخل في علم الله تعالى، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

فعلم الساعة من الغيوب التي اختص الله بها ، فلم يعلمها ملك مقرب ولا بني مرسل،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٨).

(٢) يُنظَر «البخاري» برقم: (٤٢٣٥، ٤٨٥٥، ٧٥٣١) ومسلم برقم: (١٧٧) وهذا جزء منه والترمذي (٣٠٦٨، ٣٢٧٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٤٧، ١١٥٣٢) وغيرهم.

وإذا كان سبحانه هو المحيط بالسرائر والبواطن، فهو الذي لا تُصرف العبادة إلا له.

أَرْبَعُ حَالَاتٍ تَعْتَرِي الْمُكَذِّبَ بِيَوْمِ الدِّينِ

٦٦- ﴿بَلِ ادَّارَكَ[1] عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾

بيَّن ﷺ في هذه الآية أن منكري البعث من مُدَّعي علم الغيب، ينتقلون من حالة إلى حالة:

١- الجهل بيوم البعث. ٢- إلى حالة الشك والارتياب فيه.

٣- إلى حالة جحودهم وإنكارهم له.

٤- ثم ينتهي الأمر إلى العلم اليقيني به بعد رؤية العذاب بأعينهم، فهذه أربع حالات تعتريهم.

والحالة الأولى هي أضعف وأدنى درجات العلم، إذ ليس دون الجهل شيء، فهو الصِّفْر.

والحالة الثانية شنيعة لأن فيها شك في البعث والنشور.

والحالة الثالثة أشد شناعة، لأنها جحود وإنكار.

وبعد هذه المراحل الثلاث تأتي مرحلة اليقين بعد معاينة الحقيقية ومشاهدة العذاب.

وبيان ذلك: أنَّ من كانوا في الدنيا من أهل الكفر والضلال، يشكُّون في البعث بعد الموت، وكذا مَن كانوا يزعمون معرفة علم الغيب، وهم لا يعرفون متى يبعثون؛ فإنَّ علْمَ بعضهم لَحِق علْم بعضٍ في الآخرة، فتداركتْ علومُهم بعضُها بعضًا.

قال تعالى بعد أن وصف الذين يدَّعون علْم الغيب بأنهم لا يشعرون بوقت البعث: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: أدْرك علمُ بعضهم بعضًا، فتلاحق وتتابع في شأن الآخرة، وتلَقَّى بعضهم عن بعض ما اشتهر لديهم من إنكار الحياة الآخرة، فكان علمًا مضطربًا، فيه تخبُّط وجهل مدة حياتهم في الدنيا، ثم تكامل هذا العلم في الآخرة، فظهر لهم حقيقة ما كانوا يجهلونه في الدنيا، وأيقنوا بالدار الآخرة بعد ما عاينوا العذاب فيها، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وقد كانوا وهم في الدنيا في شك من

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف (بل ادَّارك) أصلها تدارك أبدلت التاء دالًا وأدغمت الدال في الدال، بمعنى: تتابع وتلاحق. وقرأ غيرهم (بل أدْرك) بمعنى: بلغ وانتهى.

الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية].

ثم بيَّن سبحانه ما هو أشد من الشك في الآخرة، فقال تعالى مُضْربًا عما سبق: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: أنهم كانوا في عمًى عنها وهم في الدنيا، لا يفكرون فيها، ولا يؤمنون بها، فلم يهتدوا إليها.

وهكذا بعد أن وصف الله تعالى المكذبين بالدار الآخرة في الآية السابقة بأنهم لا يشعرون بمجيء البعث والحساب، ذكر في هذه الآية **ثلاثة إضرابات**:

الأول: يتعلق بالآخرة، وهو تيقُّنهم بالبعث عند مشاهدتهم له، بعد تخبطهم فيه في الدنيا، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

والثاني: يتعلق بالدنيا، فيقرر أنهم كانوا في الدنيا في شك من البعث، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾.

الثالث: أن منكري البعث كانوا في الدنيا في ضلال وغفلة عن الحياة الآخرة، وهذا معنى قوله تعالى ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

ويقرر هذا الإضراب، أنهم كانوا في حالة أسوأ من الشك، وهي الضلال والعمى عن معرفته، كحال البهيمة التي لا تفكر في عواقب الأمور، ولا تعرف حقًّا من باطل، وتعكف على إشباع رغبة البطن والفرج.

وهكذا وصف الله سبحانه الكافر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وبقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

فإذا جاء يوم القيامة، ورأى المنكرون البعث الذي كذبوا به في الدنيا، فإن علمهم به يتكامل في الآخرة، ويتحقق حين يرونه بأعينهم، فيصدقون آنذاك، ويوقنون به وبما فيه من الأهوال، وقد كانوا في الدنيا في شك منه، بل عميت عنه بصائرهم فلم يهتدوا لمعرفته، فإن ما كانوا ينكرونه سابقًا أيقنوا به عندما شاهدوه، وتكامل علمهم به بعد اضمحلاله، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق]. قال تعالى:

تَكْذِيبُ الْكَافِرِ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٦٧ ، ٦٨- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: إن الكفار جحدوا وحدانية الله تعالى، وأنكروا البعث والنشور، وقالوا على سبيل الإنكار للبعث والحساب: أئذا مِتْنا فأصبحنا رفاتًا وعظامًا بالية، أنُبعث نحن وآباؤنا أحياء، ونعود للدنيا مرة ثانية بعد أن صرنا ترابًا؟

هذا أمر غير ممكن، وذلك لانهم قاسوا قدرة الله تعالى على قدرتهم، ثم أتبعوا قولهم هذا بما هو أشد في الإنكار والتهكم، فقالوا: لقد وَعدَنا محمد بالبعث، كما وعَدَ آباؤنا مَن كانوا قبله من الرسل بالبعث كذلك، ولم نر لهذا البعث حقيقة، ولو كان حقًّا لحصل، وما هذا الذي نسمعه من محمد ﷺ، وسمعه آباؤنا من الرسل السابقين في شأن البعث والحساب، إلا خرافات وأكاذيب مما سطَّره الأولون، وافتروْه في كتبهم.

وهكذا فقد ردُّوا على جميع الرسل بإنكار البعث، وجعلوا ذلك من أساطير الأولين، ومثل هذه الآية في موضع آخر بفارق تقديم ﴿نَحْنُ﴾ على ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى في سورة (المؤمنون) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وهذا التقديم على معنى: أن أنفسهم أصبحت ترابًا وعظامًا، أما هنا فالمعنى أن أنفسهم وآباءهم صارت ترابًا، وهذا أوغل في إنكار الحساب واستبعاد البعث:

١- وقد جاء هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء].

٢- وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات].

٤- وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ [النازعات].

وهكذا حكت كل آية أسلوبًا من مقال منكري البعث والنشور.

مَغَبَّةُ إِنْكَارِ الْبَعْثِ

٦٩- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

أمر الله رسوله أن يقول للمنكرين بالبعث، المكذبين لرسالته ﷺ على سبيل الاتعاظ بحال مَن سبقهم، والتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب السابقين: قل لهم -يا محمد- سيروا في الأرض؛ لتروْا بأعينكم مصارع المكذبين بما جاءت به الرسل قبلكم؛ لتعتبروا بما أصابهم، تأملوا ديار قوم ثمود، وقوم لوط، وغيرهم، فقد أهلكهم الله واستأصلهم، لقد كان عاقبتهم الهلاك، وهكذا يفعل سبحانه بالمجرمين المكذبين في كل زمان ومكان، والله تعالى فاعل ذلك بكم إن لم تؤمنوا به وبرسوله، وبالبعث، والحساب والجزاء.

٧٠، ٧١- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ[1] مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ولما أنذر الله سبحانه المكذبين بهذا الوعيد، تحركت الرحمة والشفقة على الأمة في نفس الرسول ﷺ، فربط الله على قلبه بهذا التشجيع قائلًا له: لا تحزن على إعراض المعرضين وتكذيبهم لك، فإنهم لا يصلحون للخير، ولا تأسف على عدم إيمانهم، ولا يضق صدرك من عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر والجحود، فيمتلئ صدرك همًّا وغمًّا بسبب مكرهم بك؛ فإن الله تعالى مؤيدك وناصرك عليهم.

ثم يأتي تجديد لمقالة المكذبين بالبعث والنشور، في استعجالهم نزول العقاب الذي أنذرهم به محمد ﷺ، واستفهامهم عن وقت مجيئه، من باب التهكم والسخرية قائلين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به أنت وأتباعك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم لنا بالعذاب، فقد طال انتظارنا له؟! قال تعالى في الرد عليهم:

٧٢- ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أمر الله نبيه أن يتوعدهم على طلبهم سرعة نزول العذاب بهم، فيُعلمهم بأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولعل نزوله بكم يكون قريبًا، ويأتي هذا الوعيد؛

---

(١) قرأ ابن كثير بكسر الضاد من (ضِيق)، والباقون بفتحها، وهما لغتان في المصدر.

ليحمل في طياته مقدمات العذاب الشديد لهم، وأن عسى أن يكون ردف، أي: اقترب لكم بعض الذي تستعجلونه من عذاب الله، فلا تتعجَّلُوه، فعسى ما تستعجلونه يكون في طريقه إليكم وأنتم لا تشعرون، وهكذا كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت].

وفي الآية تهديد ووعيد لهم على إنكارهم وتكذيبهم للحياة الآخرة.

فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَةُ عِلْمِهِ

٧٣- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية أن تأخير العذاب عنهم هو محض فضل من الله تعالى عليهم، وأن هذا التأخير من آثار رحمة الله تعالى بهم، بترك معاجلتهم بالعقوبة على كفرهم ومعاصيهم، حتى يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله تعالى على نعمه عليهم، فيؤمنون به، ويُخلِصون له العبادة، ويصدقون رسله. قال تعالى:

٧٤، ٧٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

أي: أن الله - سبحانه - الذي أمهل عقوبة المكذبين، يعلم ما أضمروه في نفوسهم من المكر، وما أعلنوه من الاستهزاء، وعلمه سبحانه محيط وشامل لكل ما في الكون.

ومما تكنه صدورهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أنهم يتربصون بهم الدوائر، ويودون إخراجهم من بين أظهرهم، ويودون ألا تقوم للإسلام قائمة، وهو - سبحانه - يعلم علمًا تامًّا ما تخفيه صدور خلقه، وتستره من الأسرار، وما تظهره من الأقوال والأفعال، يعلم السرائر كما يعلم الظواهر ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل] ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

وعلم الله تعالى بالضمائر، وإحاطته بما في الصدور من علم الغيب، والله تعالى لا تخفى عليه خافية، فما من شيء غاب عن أبصار الخلق في السماء والأرض، إلا وهو

واضح عند الله تعالى، مُثْبت في اللوح المحفوظ، وعلم الله تعالى قد أحاط بما كان وما يكون ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج]. فما من شيء هو غاية في الخفاء والاستتار إلا وقد علمه الله تعالى، وأحاط به، فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه في السر والعلن.

فَصْلُ الْخِطَابِ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

٧٦، ٧٧- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

بعد أن ذكر الله - سبحانه - أمر المبدأ والمعاد والنبوة، أعقب ذلك بالحديث عن أوصاف القرآن الكريم، فهو أعظم البراهين على صدق محمد ﷺ، ولما قال المكذبون بالوحي والرسالة والبعث والنشور ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أبطل الله سبحانه قولهم فيما سبق بيانه، وبيَّن أن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مشتمل على ما في الكتب السابقة، ومهيْمن عليها، ومفصل وموضح لما فيه اختلاف عند بني إسرائيل.

ومما اشتمل عليه القرآن: علم الشرائع الماضية، وأخبار الأمم الغابرة، مما تخبطت فيه كتب بني إسرائيل، حيث رفع الإشكال عنهاوبيّن الصواب فيها.

وقد قصَّ القرآن على الناس أكثر ما اختلفوا فيه، مما فيه نفع لهم، وأعرض عما لا يفيدهم بشيء، وهذا أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد ﷺ.

ولما تفرق أهل الكتاب من اليهود والنصارى فرقًا مختلفة، وتحزبوا أحزابًا يطعن بعضهم في بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، جاء القرآن مبيِّنًا لما اختلفوا فيه، ولو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرُّقهم.

ومن ذلك ما يتعلق بهذه السورة في قصة سليمان وملكة سبأ؛ حيث قصَّ القرآن الكريم قصتهما، كما سبق بيانهما من رب العالمين، ولكن أيدي بني إسرائيل قد امتدت إلى التوراة والإنجيل، فحرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا فيهما وفي غيرهما، ومن هنا جاءت المخالفة بين الكتب المنزلة:

١- ففي كتاب الملوك الأول، وكتاب الأيام الثاني: أن بلقيس جاءت إلى أورشليم من تلقاء

نفسها، رغبة منها في الاطلاع على مُلك سليمان، وبعد استضافته لها رجعت إلى مملكتها.

وليس فيهما أن سليمان دعاها إلى التوحيد، وبهذا يكون قد أقرها على شركها[1].

٢- ومن ذلك اختلاف بني إسرائيل في شأن عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

فاليهود كذبوه، وكفروا به، ورموا أمه بالزنى، وحاولوا قتله وصَلْبه.

والنصارى صدَّقوه واختلفوا فيه، ففريق منهم عظّموه ورفعوه فوق منزلة البشرية، حتى وصلت هذه المنزلة عندهم إلى الإلهية والعياذ بالله:

فجعله بعضهم إلهًا، وبعضهم جعله جزءًا من الإله، المكوَّن عندهم من الأب والابن والروح القدس، وجعله آخرون ابن الله، وبعضهم جعله إنسانًا نبيًّا ورسولًا.

فنزل القرآن الكريم؛ ليفْصل في هذا الخلاف، وليوضح للناس عامة، ولأهل الكتاب خاصة أن عيسى رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ومثَلُه عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم].

٣- ومما اختلفوا فيه دعوى الصَّلْب التي فصَل الله تعالى فيها بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ [النساء: ١٥٧]. وكان من النصارى من قال: إن عيسى قد صُلِب حتى مات ودُفن، ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام، وارتفع إلى السماء.

ومنهم من قال: إن تلميذه يهوذا قد خانه، ودلَّ عليه، فألقى الله عليه شَبه عيسى فصُلب، ومنهم من قال: ألقى الله شبهه على حواريٍّ آخر.

٤- ومن ذلك أن اليهود حرَّفوا التوراة، وغيَّروا شرْع الله فيها حسب أهوائهم، ومنه القصاص، فنزل القرآن وبيَّن حقيقة هذا في قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ [المائدة: ٤٥]. ومن ذلك تغييرهم حكم رجم الزاني المحصن.

٥- ولما قالت اليهود: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا، وقالت النصارى: إنه كان نصرانيًّا،

---

(١) يُنظَر: تفسير «التحرير والتنوير» (١٠/ ٣١).

نزل القرآن يفصل في دعواهما ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

٦- ولما طعن اليهود في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حتى في إبراهيم خليل الرحمن، وفي أبيهم يعقوب ﷺ ورموهما بالتحايل والكذب، وقالوا أكثر من ذلك في نبي الله لوط، وداود، عليهما السلام، جاء القرآن يقول كلمة الفصل في هذا، كما جاء في قصة كل منهم.

فالقرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، ونبأ من بعدكم، وحُكْم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل.

وإن هذا القرآن ينفع من كان في قلبه استعداد للهدى، ففيه هدى لهم من الضلالة، ورحمة بهم من العذاب، وغير المؤمنين لا ينتفعون بما فيه؛ لإعراضهم عنه، وعدم استعدادهم للعمل بما فيه، فلا يزدادون إلا خسارًا ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]. قال تعالى:

٧٨، ٧٩- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾

ولما ذكرت سورة (النمل) مطاعن المشركين في القرآن وتكذيبهم بوعيده في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وما بعدها.

وذكرت مخالفة بني إسرائيل للحق الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وذكرت السورة أن المؤمنين هم الذين هداهم الله للحق، وأن الناس في هذه الأمة فريقان: فريق مؤمن بما في القرآن، وفريق يطعن فيه، وقد اقتضى ذلك بيان الحكم الفصل بين المؤمنين بالقرآن، وبين الطاعنين فيه في هذه الآية؛ فالخطاب فيها موجه إلى النبي

ﷺ، والقضاء مسند إلى الله تعالى.

والمعنى: إن ربك -يا محمد- يفصل بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم بحكمه العادل، وقضائه المبرم، فيجازي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وهو سبحانه الغالب الذي لا يقهر، فلا يُردُّ قضاؤه، العليم بأحوال العباد، فلا يلتبس عليه الحق بالباطل، ولا يخفى عليه شيء من شؤونهم.

وما دام الله - سبحانه - سيقضي بين المختلفين في شأن القرآن يوم القيامة، فاطمئن يارسول الله، وامض في طريق الدعوة إلى الله، واثبت على ما أنت عليه، وفوّض أمرك إلى الله، واعتمد عليه في جميع شؤونك؛ فإنه ناصرك، وبلِّغ رسالة ربك دون أن تخشى أحدًا؛ فإنه كافيك، ومظهر دينك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقد أخبر الله رسوله أنه على الحق المبين، أي: على الدين الواضح الثابت الذي لا يُشك فيه، وهذه شهادة من الله لرسوله ﷺ، ولكتابه الواضح المنير، فلا يضرك ضلال من ضل، إذ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء.

الْكَافِرُ يُشْبِهُ الْمَيِّتَ وَالأَصَمَّ وَالأَعْمَى

٨٠- ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ[1] ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ[2] إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: أن الحق المبين لا يسمعه، ولا يستفيد منه إلا أحياء القلوب، فيُقبلون عليه، ويعملون بما فيه، أما الذين ماتت قلوبهم، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان، فليس لك -يا محمد- فيهم حيلة، ولا ضير عليك من ضلالهم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ القصص: ٥٦] ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الذين لا حسَّ لهم، ولا عقل عندهم، فهم لا يتأملون ما فيه، ولا يتدبرونه، ولا يؤمنون به، فليس في استطاعتك أن تُسمع الحق مَن طَبع الله على قلبه فأعمى بصيرته، كما أنه ليس في وسعك أن تُسمع من أصم الله سمعه عن سماع الحق حال إدباره معرضًا عنك؛ فإن الأصم إذا ناديته بعد

(١) قرأ ابن كثير (ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ)، وقرأ الباقون (ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (الدعاء إذا)، وحققها غيرهم.

أن أدبر عنك، يكون قد انضم إلى صممه بُعد المسافة، فيكون أبعد عن الإجابة، وأوغل في انتفاء السمع عنه.

هذا: والقرآن الكريم معجز في معانيه، ومعجز في ألفاظه.

والإعجاز اللفظي في نظم القرآن وبلاغته موجه بالدرجة الأولى إلى من ينطقون باللسان العربي.

والإعجاز المتعلق بالمعاني -ولو عن طريق الترجمة- يستوي في إدراكه العربي والعجمي.

والمشركون شُبِّهوا بالموتى بالنظر إلى انتفاء إدراك المعاني، وشُبِّهوا بالصُّم بالنظر إلى انتفاء إدراك بلاغة الكلام.

قال قتادة في معنى الآية: هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت، كذلك لا يسمع الكافر ولا ينتفع به، ولو أنه أصمٌ ولَّى مدبرًا، ثم إذا ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع[1].

فالمراد بالموتى في الآية: الكفار الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه، فهم لا ينتفعون بما يسمعون، فكأنهم لا يسمعون كحال الموتى الذين لا يسمعون.

وقد يراد بالموتى: الذين ماتوا بالفعل، فهم لا يسمعون السماع الذي ينفع صاحبه.

وهو مثل مضروب للكافر الذي يسمع الصوت، ولكنه لا ينتفع به، وقد صور الله تعالى هذه الحالة في قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. قال تعالى:

٨١- ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى[2] ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

ولَمَّا شبَّه الله تعالى المكذبين بالرسول والرسالة، بالموتى، وبالصمِّ، في الآية السابقة؛ لعدم الانتفاع بهما، شبههم مرة ثالثة في هذه الآية بالعُمي في انتفاء التمييز بين طريق الحق وطريق الضلال؛ حيث لم يتبعوا دين الإسلام.

---

(١) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٢١).

(٢) قرأ حمزة (تَهْدِي الْعُمْيَ) مفعول به، والباقون (بهادي العُمْيِ) من إضافة اسم الفاعل لمفعوله.

والأعمى مطموس البصيرة غير قابل للهداية.

والمعنى: وما أنت -يا محمد- بهادٍ عن الضلالة من أعماه الله عن الهدى والرشاد، فليس بوسعك أن تصرفهم عن الكفر والضلال؛ لأن الهداية إلى طريق الحق مردُّها إلى الله وحده ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ الأعراف: ١٨٦]

وإذا كان الأمر كذلك فمَنْ يهتدي بالقرآن؟ ومن ينتفع بالاستماع إليه؟ لقد أجاب الله سبحانه على هذا التساؤل بقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: لا يمكنك -يا محمد- أن تُسمع الهدى والرشاد إلا من يصدق بآياتنا، ويعمل بمقتضاها، فهم مطيعون لله تعالى، منقادون إليه، مستجيبون لما تدعوهم إليه، فلا يسمع سماع تدبر وإفهام إلا المؤمنون، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]

والغرض من الآيتين تشبيه الكفار بالموتى، وبالصم، وبالعمي وإن كانوا سليمي الحواس، فهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ما ينفعهم، وإن كانت حواسُّهم سليمة، وهم لا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية، أو الآيات القرآنية، وهم الذين كتب الله عليهم الشقاء في سابق علمه، ومَن كتب الله عليه الشقاء فقد طبع على قلبه وعلى سمعه، وجعل على بصره غشاوة، وفي آذانه وقر ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]. وهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ومثْل الآية التي نحن بصددها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم]. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

هذا: وآيات القرآن الواردة في عدم سماع الموتى لا تخالف ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من أن الموتى يسمعون في قبورهم كلام من يكلِّمهم؛ لأن المنفي هو السماع الذي ينفع صاحبه، والميت قد أفضى إلى ما قدم، فهو لا يسمع السماع المعتاد في الدنيا الذي يترتب عليه الهدى والضلال.

وقد جاء في حديث أبي طلحة ﷺ: أنه لَمَّا خاطب النبي ﷺ أربعة عشر رجلًا من صناديد قريش، وكانوا قد قُتلوا يوم بدر، فقال عمر ﷺ: إنك تكلم أجسادًا بلا روح، فقال ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده ما أنتم أسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يقدرون أن يجيبوا»**[١].

وماجاء عن أنس ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«إن الميت إذا وضع في قبره إنه؛ ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا»**[٢].

وفي الحديث الذي صححه ابن عبد البر: أن النبي ﷺ قال: **«ما من رجل يمرُّ بقبر الرجل الذي كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يردَّ عليه السلام»**[٣].

وما وَرَدَ عن عائشة ﷺ في نفي ذلك، فمن المرجح أنها رجعت عنه[٤].

خُرُوجُ الدَّابَّةِ أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ

٨٢- ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ[٥] ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

بعد أن بيَّن سبحانه أن الكفار كالموتى، لا ينتفعون بشيء من هُدَى الله تعالى، ووصَفهم بالصمم والعمَى.

وبعد أن بيَّن - جل شأنه - تكذيبهم، وتهكمهم باستبطاء نزول العذاب الذي وعدهم به الرسول الخاتم ﷺ، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

بعد ذلك تشير هذه الآية إلى شيء من علامات حلول الوعيد الذي أنذرهم به محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حلَّ وحان وتحتَّم وقت نزول العذاب

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٠٦٥، ٣٩٧٦) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٨٧٥).

(٢) البخاري برقم: (١٣٣٨، ١٣٧٤) ومسلم برقم: (٢٨٧٠) وهذا لفظه.

(٣) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٢٩٥). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٢٠٨) وهو عند الخطيب وابن عساكر.

(٤) يُنظَر في هذا بحث للشيخ الشنقيطي في: «أضواء البيان» (٦/ ٤٢٠) وما بعدها.

(٥) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح همزة (أن الناس) على تقدير حرف الجر قبلها، أي: تكلمهم بأن الناس، أو تكلمهم بسبب أن الناس، وقرأ الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف.

بالكفار، الموصوفين في الآيتين الأخيرتين بأنهم موتى، وصمٌّ، وعُمْيٌ؛ لتماديهم في العصيان والطغيان، وإعراضهم عن شرع الله تعالى وحُكْمه، حتى صاروا من شرار خلق الله، وهذا قرب قيام الساعة عند ظُهور أشراطها الكبرى، وعندئذ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تحدث الناس وتحاورهم، وتبيِّن لهم أن منكري البعث كانوا لا يصدقون بمحمد ﷺ، ولا يعملون بالقرآن المنزل عليه، وهذه الدابة تخرج من الأرض، وهي من دواب الأرض وليست من السماء، وهي من الآيات الخارقة للعادة، ومن دلائل صدق محمد ﷺ.

فالمراد بوقوع القول: قرب قيام الساعة، وانتهاء الوقت الذي يُقبَل فيه الإيمان من الكافر، وهو الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة، فإذا أراد الله تعالى أن يُنفذ في الكافر سابق علمه أخرج لهم دابة من الأرض، وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا تائب، كما أوحى الله تعالى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن.

وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وضعف يقينهم وإيمانهم، وتركهم أوامر الله تعالى، وتبديلهم الدين الحق، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة شفوية.

ومن جملة كلامها: ألا لعنة الله على الظالمين الذين لا يصدقون، ولا يؤمنون بآيات الله.

وهذه جملة من الأحاديث في دابة الأرض:

١- أخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**تخرج الدابة، فَتَسِمُ الناس على خراطيمهم، ثم يُعَمَّرون فيكم حتى يشتريَ الرجل البعير، فيقال: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد المُخطَّمين**»[1].

٢- وفي حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاري ﷺ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غُرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب،**

(١) «المسند» (٣٦/ ٦٤٦) (٢٢٣٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٧٢) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ١٤٢).

ونار تخرج من قعْر عدَن تسوق الناس إلى أرض المحشر، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»[١].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.**

ولتقومنَّ الساعة وقد نشَر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبياعانه ولا يطويانه.

ولتقومنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقْحته فلا يطعمه[٢].

ولتقومنَّ الساعة وهو يَليطُ حوضه فلا يسقى فيه[٣].

ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[٤].

وهذا قوله ﷻ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس].

أي: وهم يتحاورون في البيع والشراء، فتقوم الساعة ولا يعود الرجل إلى بيته، ولا يُتمُّ شراءه ولا بيعه.

٤- وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبًا»**[٥].

٥- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال ستًّا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»**[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة مختصرا (١٥/ ١٣١) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ١٠١) والطبراني في الكبير (٣٠٣١) وهو في «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٠١) و«سنن أبي داود» برقم: (٤٣١١) و«سنن الترمذي» برقم: (٢١٨٣) و«سنن ابن ماجه» برقم: (٤٠٤١) و«المسند»: (٤/ ٦-٧). برقم (١٦١٤٤) بإسناد صحيح، واختلف في رفعه ووقفه. (محققوه)

(٢) أي: أنه يحلب الشاة والحليب بين يديه فلا يطعمه.

(٣) أي: أن المزارع يصلح حوض الماء، وقبل أن يستعمله تقوم الساعة.

(٤) «صحيح البخاري» برقم: (٨٥٠، ٦٥٠٦) و«صحيح مسلم» برقم: (١٥٧، ٢٩٥٤) مختصرًا.

(٥) «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٤١).

(٦) «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٤٧).

عن علامات الساعة: ويؤخذ من مجموع الأخبار والأحاديث، أن خروج الدجال هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم الأرضي، وينتهي ذلك بموت عيسى عليه السلام.

وأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة.

ولعل خروج الدابة يكون في نفس اليوم التي تطلع فيه الشمس من مغربها.

فإذا طلعت الشمس من مغربها أُغلق باب التوبة فتخرج الدابة، وينادي منادٍ: ياأيها الذين آمنوا قد قُبل منكم، وياأيها الذين كفروا قد أُغلق عنكم باب التوبة، وجفت الأقلام وطُويت الصحف.

فإذا حدث ذلك خرجت الدابة على الناس تُميز المؤمن من الكافر، وينتهي ذلك بقيام الساعة.

والآية المؤذنة بقيام الساعة هي النار التي تخرج من قعْر عدن تسوق الناس إلى أرض المحشر.

فإذا اقترب وقت وجوب العذاب على الجاحدين لوحدانية الله تعالى، المكذبين لرسول الله ﷺ، المنكرين للحساب والجزاء -أخرجنا لهم دابة تُكلم الناس بلغة يفهمونها، كما جاء في أول السورة: أن سليمان عليه السلام يفهم لغة الطير، ولغة الجن والهدهد، كذلك الدابة تُكلِّم الناس بلغة يفهمونها.

وقيل: إنها تَعْلَم من تكلم، وتميز المؤمن من الكافر بوسْمه، ووضع علامة عليه.

ومما قيل في وصف هذه الدابة: أن طولها ستون ذراعًا، وعينها عين خنزير، وصورتها صورة أسد، وغير ذلك، والله أعلم بصحة هذا.

وقيل: إنها تخرج من مكة شرَّفها الله، تخرج من الصفا، أو من بين الركن والمقام، أو غير ذلك.

وَرَد عن حذيفة بن اليمان أنها تخرج ثلاث مرات.

وقيل: إن هذه الدابة من فصيل ناقة سيدنا صالح عليه السلام.

وقيل: إنها الجسَّاسة، وهي دابة على صورة الإنسان، رأسها في السحاب وقوائمها في الأرض.

وهذه أخبار لم تثبت عن رسول الله ﷺ، ولا يعنينا منها شيء، ولا يترتب على معرفتها شيء.

وما ورد من ذلك في بعض كتب التفسير هو من باب الإسرائيليات، وليس هناك ما يدل على صحته، وعلمها لا ينفع، وجهلها لا يضر، فلسنا مطالبين بمعرفتها.

ويكفينا ما أخبر الله به من أنها دابة تكلم الناس، وتخبر أنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا يؤمنون بالبعث، ولا بدين الإسلام، ولا برسالة محمد ﷺ.

يقول الشيخ محمد الغزالي ﷺ: وإني أتصور هذه الدابة، وهي تعترض ذوي الألقاب، وأصحاب المناصب؛ لتقول لهم: عالَم الحيوان أسعد منكم حظًّا، فهو لم يحظ بعلمكم، ومن ثم لا يُلام على غباء، أما أنتم فقد منحكم الله الذكاء، فحاربتموه به، قُبِّحتُم من بشر!![1].

فتكليم الدابة للناس فيه تحقير لهم؛ لأنهم لمّا أعرضوا عن كلام الرسول الكريم خوطبوا على لسان حيوان بهيم؛ ليكون هذا خزيًا لهم، يعيَّرون به في يوم الحشر، وعند قيام الساعة تنزل الريح الباردة التي تقبض أرواح المؤمنين، وتقبض روح كل من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فلا يبقى إلا شرار الخلق، ممن لا يُرجى إصلاحهم، ولا يبقى من يأمر بالمعروف، ولا من ينهى عن المنكر.

حَشْرُ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ

٨٣- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

تتحدث هذه الآية عن يوم الحشر بمناسبة ذكر الدابة، وهي من علامات الساعة الكبرى.

١- وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى حشر **عموم الخلائق** كقول الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [٨٧]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٢٨].

٢- وهناك **حشر خاص لقادة الضلال والكفر**؛ لأجل التوبيخ والتأنيب، وهو حشر يخص الأفواج المكذبة بآيات الله ورسله، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات]. فهذا حشر يخص كل أمة من الأمم، وهذا معنى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٢٩٥ .

أي: اذكر - أيها المخاطب - يوم نحشر من كل أمة فوجًا من المكذبين، وكل أمة لا تخلو من كَفرة بالله من لدن آدم إلى قيام الساعة، وهم رؤساء الكفر والضلال وزعماؤهم، فيحشر الله من الأمة كفارها، ويبقى صالحوها، ويُساق أمام كل طائفة من طوائف الكفر زعماؤها، كما بيَّن تعالى أن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

ثم يقفون أمام الحق سبحانه، يقف أولهم حتى يأتي آخرهم ويتكاملون، وهذا معنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يقف أولهم حتى يأتي آخرهم، فإذا اجتمعوا جميعًا ساقتهم الملائكة إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم].

٣- ومن الناس من يكون حشرهم على **هيئة خاصة**، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان].

والمعنى: وفي يوم الحشر نحشر من كل أمة جماعة ممن يكذب بآياتنا وحججنا، يُحبس أولهم على آخرهم؛ ليجتمعوا كلهم، ثم يساقون إلى الحساب، ويعمهم السؤال واللوم والتوبيخ كما قال تعالى:

٨٤- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

فإذا جاء من كل أمة فوج من المكذبين بآيات الله، ووقفوا بين يدي الله ﷻ في هذا اليوم العظيم، يسألهم ربهم سؤالين: سؤالًا يتعلق بالعقيدة، وسؤالًا يتعلق بالعمل.

١- أما السؤال المتعلق بالعقيدة فهو في شطر الآية الأول ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: دون أن تتفكروا فيها، ودون أن يكون عندكم دليل على صحة هذا التكذيب؛ لأن التصديق بآيات القرآن من عقائد الإيمان، أي: أكذبتم بآياتي التي أنزلتها على رسلي؟ وبآياتي الدالة على توحيدي؟ وآياتي الدالة على البعث، وما فيها من الثواب والعقاب؟ أكذبتم بها دون أن تحيطوا علمًا بدلائل الآيات، وينكشف لكم الحق؟ وكان من الواجب عليكم التوقف وعدم الكلام إلا بعلم.

٢- أما سؤال العمل ففي قوله تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: في دنياكم، فلماذا لم تكونوا من أهل السعادة؟ قولوا لنا: هل قضيتم أوقاتكم في الصلاة، والزكاة، والطاعة،

والعمل الصالح، أم قضيتموها في الضلال، والكفر، واتباع الشيطان؟ فكذبتم بالحق وعملتم لغير الله، أو على غير سنة رسول الله؟

خَمْسُ حَالَاتٍ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ

٨٥- ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ولما لم يجدوا جوابًا على هذين السؤالين كانت النتيجة عملية، وهي أن العذاب الذي وُعدوا به في الدنيا قد حل بهم الآن في الدار الآخرة، وكان ذلك بسبب ظلمهم وجحودهم، وفي هذا توبيخ وتقريع لهم على فساد الاعتقاد وفساد الأعمال؛ فهم قد كذَّبوا بآيات الله دون أن يفكِّروا فيها، أو يحيطوا علمًا ببطلانها، فيقيموا دليلًا على صحتها، فليس عندهم حجة ولا عذر يعتذرون به، فهم لا ينطقون لأنه لا حجة لهم.

١- ثم يمضي على هذا وقت طويل وهم في صمت رهيب، وليس لهم مجير إلا الله، فلا ينطقون بحجة تدفع عنهم العذاب، وكانوا في الدنيا، كما قال الله فيهم:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة].

٢- ثم يُؤذَن لهم في النطق؛ ليدافعوا عن أنفسهم، وعندما يؤذن لهم في الاعتذار يَكْذِبون، كما أخبر سبحانه على لسانهم بنفي وقوع الشرك منهم في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام].

٣- ثم يُمنَعون من الكلام بعد أن كذَبوا في الاعتذار، كما قال تعالى:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات].

فهم قد تكلموا في مواطن، وسكتت ألسنتهم في مواطن أخرى.

٤- وعند الحساب يُختَم على أفواههم، وتنطق جوارحهم بما كانوا يعملون، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

٥- وبعد أن يدخل الأشقياء النار، يعتذرون بقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. فلا يقبل منهم اعتذار، ويقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

مَنْ دَلَائِلِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٨٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

في هذه الآية استدلال على إمكانية البعث والنشور، بأن جعل الله الليل للسكن والراحة بظلمته، وجعل النهار للعمل والسعي على المعاش بضيائه، وكأن الله سبحانه يقول: كيف تكذبون بالبعث؟ انظروا إلى حياتكم اليومية، فأنتم تنامون، فإذا نمتم قبض الله أروحكم في الليل الهادىء الساكن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

ثم إذا انبعث النهار قمتم إلى أعمالكم، ورجعتْ لكم حواسكم، وهذا بمثابة البعث، ففي النوم واليقظة مُثْلُ الموت والحياة.

وهكذا ذكَّرهم سبحانه بأظهر دلائل التوحيد، وأكثرها تكرارًا، وأجدرها بالإقناع، وهي آية تمر بهم كل يوم مرتين، وتلازمهم طول حياتهم.

والمعنى: ألم ير المكذبون بآياتنا أنا جعلنا الليل لهم راحة يستقرون فيه وينامون، والنهار ينصرفون فيه لمعاشهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يونس: ٦٧]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

فهل بلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المكذبين أنهم يعيشون في هذا الكون، يأكلون ويشربون ويتمتعون، دون أن يعتبروا أو يتفكروا، لقد أوجدنا لهم ليلًا ليسكنوا فيه، وأوجدنا لهم نهارًا ليسعَوْا فيه على أرزاقهم؛ لتيسير أسباب الحياة والراحة لهم، فكيف لا يهتدون إلى أن لهذا الكون خالقًا حكيمًا قادرًا.

إن في ذلك الليل والنهار لدلالات بيِّنات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم ينتفعون بأدلتنا، ويعترفون بإقامة الحجة عليهم، فمن تأمل في تعاقب الليل والنهار، واختلافهما طولًا وقصرًا، وظلمة وضياء، أيقن أن لهذا الكون إلهًا واحدًا قادرًا على إعادة الحياة إلى الأموات؛ ليحاسبهم على أقوالهم وأعمالهم، ويجازيهم بما يستحقون.

النَّفْخُ فِي الصُّورِ

٨٧- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ[1] دَٰخِرِينَ﴾

بعد أن ذكَّر الله العباد بيوم الحشر، ذكَّرهم بيوم النفخ في الصور، أي: اذكر يا محمد، يوم يَنفُخ المَلك، وهو إسرافيل في القرن أو البوق، نفخة الفزع فيفزع العالم كله من الخوف والرعب، فينزعجوا ويرتاعوا، ويموج بعضهم في بعض.

والمعنيُّ بهذه النفخة هم الأحياء، حيث يصابون بالفزع الشديد من هول هذه النفخة ومن خوف المصير -وهذا هو الفزع الأكبر يوم القيامة- ثم تمتد هذه النفخة، حيث يُطوِّلها إسرافيل بأمر الله تعالى، فتتصل بنفخة الصعق، أي: الموت، حيث تنقضي الحياة الدنيا، وتنتهي الآجال.

ثم تأتي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، حيث تعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين، وعن هاتين النفختين يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

وقد جاءت آثار تفيد أن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات: نفخة الفزع في الحياة الدنيا، تتلوها نفخة الصعق أي: الموت، ثم نفخة الخروج من القبور (البعث).

والتحقيق أن نفخة الفزع يطولها إسرافيل فتمتد حتى تتصل بنفخة الصعق، أي: الموت، ثم تأتي نفخة البعث فهما نفختان.

أما الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهو استثناء من هذا الفزع الدنيوي: وهو يخص الأنبياء والشهداء والملائكة، لاسِيَّمَا الأربعة الكبار: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وحملة العرش ونحوهم، وهؤلاء جميعًا يموتون في النهاية.

وآخر من يموت من الخلق، قيل: إنه ملك الموت، وقيل: إنه جبريل. ثم تُطوَى

---

(١) قرأ حفص وحمزة وخلف بقصر همزة (أتوه) وفتح التاء، على أنه فعل ماضٍ مسند إلى واو الجماعة، والهاء مفعول به، وقرأ الباقون بمد الهمزة وضم التاء، على أنه اسم فاعل والواو علامة الرفع، وحذفت النون للإضافة، والهاء مضاف إليه.

السماء كطي السجل للكتاب، ولا يبقى إلا الواحد الديان، فيقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فيكون الجواب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر].

في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من رفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله ﷻ، أم رفع رأسه قبلي، ومن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»**[١].

ثم إن جميع الأموات الذين أحياهم الله تعالى يأتون ربهم صاغرين لا يتخلف منهم أحد ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ الجميع يحشرون إلى الله تعالى وهم منقادون مطيعون لله ﷻ، لا يتخلف منهم أحد، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وجميع الخلق متساوون في الذل والخضوع لرب العالمين، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، الغني والفقير ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]

الْجِبَالُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فِي الدُّنْيَا

٨٨- ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا[٢] جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ[٣] ﴿٨٨﴾﴾

بعد ما ذكر ﷻ آيتي الليل والنهار، وما يترتب عليهما من تكوين النور والظلمة؛ بسبب

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤، ٦٥١٨) ومسلم (٢٣٧٣) و«المسند» (٩٨٢١) والترمذي (٣٢٤٥) وابن ماجه (٤٢٧٤)، والبغوي (٤٣٠١) وابن أبي شيبة (١١/ ٤٥٥).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (تحسَبها) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة بخلف عنهما بياء الغيبة في (تفعلون) على الأصل، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات، وهو الوجه الثاني لابن عامر وشعبة.

دوران الأرض حول الشمس دوْرة كاملة كل يوم وليلة، فالجِرْم الصغير يدور حول الجرم الكبير، ويترتب على ذلك ظلامُ نصف الكرة الأرضية، وإنارة النصف الآخر تقريبًا، وهذا ما يسمى بالليل والنهار.

والجبال هي الأجزاء الناتئة من الكرة الأرضية، وإذا تحركت الأرض فإن الجبال تتحرك بتحركها؛ لأن الجبال جزء من الأرض، ويظهر هذا في تحرك ظلال الجبال بالنقص قبل الزوال، وبالزيادة بعد الزوال.

وحركة الجسم الكبير لا تظهر للرائي، مع أنها سريعة الحركة، كما أن قمم الجبال تتحرك أمام قرص الشمس في الصباح والمساء، مع ثبوت الشمس في مقرها، وقد أَطْلع الله نبيه، وأطلع أهل العلم من أمته على هذه الحقيقة، وعلى هذا السر العجيب في نظام الأرض، كما أَطْلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى.

ولأن سيْر الجبال لا يظهر للرائي من أول وهلة، وإنما يراها في هيئتها الساكنة، فإن الله تعالى قال: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾. أي تظنها باقية على حالها، ولكنها تفتتت وتناثرت، وصارت من خفتها هباء منثورا يتطاير ويتنقل.

١- ومرُّ الجبال يعني: تنقُّلها من جهة إلى جهة أخرى، مع أن الرائي يراها ثابتة، كما ينظر الرائي إلى السحاب حين يعمُّ الأفق، وهو ينتقل من صوْب إلى صوْب، ويمطر من مكان إلى آخر، فلا يشعر به الناظر إلا وقد غاب عنه.

٢- ومن هنا فإن مرَّ الجبال يختلف عن سيْرها الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف]. وقوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور]. وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ]. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير: ٣].

٣- ويختلف أيضًا عن نسف الجبال الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات]. وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة].

فإن هذا السيْر، وهذا النسف الوارد في هذه الآيات يكون يوم القيامة عند تغيير وتبديل الأرض ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

بخلاف مرِّ الجبال مرّ السحاب؛ فإنه مصاحب لحركة الأرض في الدنيا، ولأن السيْر والنَّسف ليس فيهما الصنع والإتقان الذي خُتمت به الآية.

ومعنى الآية: وترى الجبال الشم الرواسي تظنها واقفة مستقرة، وهي تسير سيرًا حثيثًا فتزول عن أماكنها كَسَيْر السحاب الذي تُسيِّرهُ الرياح، وهذا من صنع الله الذي أحسن كل شيء خَلقهُ وأتقنه، إن الله خبير بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم على ذلك.

وعلى هذا فإن آية ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ معترضة بين آية ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ وآية ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ لمناسبة ما في المعطوف عليه من الإشارة إلى تمثيل الحياة بعد الموت.

أو أن ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ مبيِّنة لمجمل ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ وما بعدهما وهو ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ اعتراض.

ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ وَعِقَابُ الْمُسِيئِينَ

٨٩- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ[(١)] يَوْمَئِذٍ[(٢)] ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

ولمناسبة الفزع الذي ذُكر في الآية قبل السابقة، وهو يقتضي حشر الخلائق، وحضورهم للحساب والجزاء يوم القيامة، بيَّن تعالى حال السعداء وحال الأشقياء في هذا اليوم، وأن من جاء يوم القيامة من أهل السعادة، وهو فاعل للحسنة، بالإيمان والتوحيد، والعمل الصالح، فحسناته مضاعفة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فله عند الله الأجر العظيم، مع ما هو خير منها وأفضل، وهو الجنة، وهو في مأمن من الفزع الأكبر يوم لقاء الله ﷻ فهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

والمراد بالحسنة: اسم جنس، يشمل كل ما يقوله المسلم أو يفعله من كل قول طيِّب وعمل صالح، ويبدأ ذلك بالنطق بالشهادتين، ثم بأداء ما أُمر به المسلم من فرائض

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتنوين (فزع) على إعمال المصدر في الظرف وهو (يومئذ)، وقرأ الباقون بعدم التنوين على الإضافة.

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح الميم من (يومئذ) وهي فتحة بناء، وقرأ الباقون بكسرها وهي كسرة إعراب.

وواجبات، واجتناب ما نُهي عنه من سيئات، كما تشمل الحسنة النوافل وجميع أعمال الخير والبر، والباقيات الصالحات، ففاعل الحسنة مبشر بمضاعفة الأجر، وبالأمان والاطمئنان يوم تزل الأقدام، وتشيب الولدان.

في صحيح مسلم: عن جابر ﷺ قال: أتى النبي ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**»[1].

ووردت آثار تفيد: أن الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله تعالى، فيقول الله تعالى للإيمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار.

٩٠- ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

ومن جاء بالسيئة وهي اسم جنس، يشمل كل قول أو فعل سيء، وفي مقدمتها الشرك بالله تعالى، ثم سائر الأعمال والأقوال المنكرة، فجزاؤهم أن يكبهم الله على وجوههم في النار يوم القيامة، ويقال لهم توبيخًا: هذا جزاء ما كنتم تعملون به في الدنيا من الشرك والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه].

والأصل في السيئة أنها لا تضاعف، ولكن حرمتها تعظَّم بسبب حرمة المكان كفعلها في الحرم، أو حرمة الزمان كفعلها في الأشهر الحرم، كما قال تعالى:

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

مَنْهَجُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٩١- ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٩٣).

وبعد أن استعرضت السورة كثيرًا من مطاعن المكذبين بالقرآن وبرسول الإسلام، وذكرت مطاعنهم في البعث والحساب والجزاء، وأمرت الرسول ﷺ أن يثبُت، ويمضي في طريق دعوته متوكلًا على الله - سبحانه - فهو على الحق المبين.

بعد ذلك يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن للناس منهجه في الدعوة إلى الله تعالى، ويقول لهم:

ما أُمرت بشيء من إنكار البعث والنشور، ولا من تعجيل نزول العذاب بكم، ولا ما هو نحو ذلك، إنما أمرت أن أثبت على إخلاصي في عبادتي، وأن أخص الله وحده بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس].

وقال: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي ذلك تطمين للرسول ﷺ بأنه أرضى ربه بأداء أمانة التبليغ.

ولأن مكة المكرمة هي مركز انطلاق الدعوة، فقد تضمنت الآية تنويهًا بشأنها، وتعريضًا بذم من كَفَر من أهلها، ومن كان على شاكلتهم في أرجاء المعمورة، على مرّ الأزمنة واختلاف الأمكنة، فإن كفار مكة لم ينتفعوا بتحريم الله لها، وهو سبحانه ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ على خلقه، وأمرهم ألا يسفكوا فيها دمًا حرامًا، ولا يظلموا فيها أحدًا، ولا يصطادوا صيدها، ولا يقطعوا شجرها.

وهذا يشمل مكة وما حولها إلى نهاية حدود الحرم، ويدخل في ذلك منع غزو أهلها، وعدم الاعتداء عليهم، وظلمهم وإخافتهم، وتحريم كل ما هو ضد صلاحها وصلاح ما بها من دابة وإنسان وشجر.

وهذا التحريم مما أوحى الله به إلى إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا**

ينفَّر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرَّفها، ولا يختلى خلاها...»[١] الحديث.

وقد شرَّف الله مكة بإضافتها إلى نفسه في مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

وقد قال سبحانه: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ ولم يقل: التي حرمها الله؛ لأن في هذا تذكير لأهلها بهذه النعم.

ومعنى ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ أي: أنه - سبحانه - رب مكة، ورب ما حولها، ورب ما نعلمه من الكون وما لا نعلمه، ولكنه - جلَّ شأنه - خص مكة بعينها؛ لأنها أحب بلاد الله إلى الله ورسوله، وفيها بيت الله الحرام، فهو - سبحانه - رب هذه البلدة التي حرمها الله إلى يوم القيامة، بحيث لا يسيل فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ويصان فيها الشجر والطير والصيد والإنسان، وكل شيء فيها آمن على نفسه، كما أنه سبحانه رب غيرها من البلاد.

وقد أشعر الله - سبحانه - أهل مكة أنهم لا يملكون شيئًا من أمر تلك البلدة، فكاشفهم الله تعالى بما تكنه صدورهم من خواطر في إخراج الرسول ﷺ، والمؤمنين منها.

وهذا من جملة ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فهو سبحانه المالك لمكة ولغيرها من سائر البلاد، وله جميع ما في الكون خلقًا وملكًا وتصرفًا، فليست مكة ملكًا لهم حتى ينفردوا بالبقاء فيها، وقد أُمر الرسول ﷺ أن يكون من المسلمين المطيعين، المنقادين لله ﷻ، وبذلك أيضًا أمر كل مسلم.

ثَمَرَةُ الدَّعْوَةِ تَعُودُ عَلَى الْمَدْعُوِّ

٩٢- ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

---

(١) في «البخاري» برقم: (١٥٨٧، ١٨٣٤) ومسلم برقم: (١٣٥٣) وأبي داود برقم: (٢٠١٨) والترمذي برقم: (١٥٩٠) والنسائي (٥/٢٠٣) و«المسند» (١/٢٥٩) برقم (٢٣٥٣) بإسناد صحيح على شرط البخاري وغيرهم.

أي: وكما أمرتُ أن أعبد رب مكة، وأمرت أن أكون من المسلمين، أمرت أيضًا أن أتلو القرآن على الناس؛ ليهتدوا به، وأبلّغهم حلاله وحرامه، وكل ما فيه من تشريع وأحكام، وعبادات وعقائد، وليتعلّموا ألفاظه وطريقة أدائه.

ثم فرَّع - سبحانه وتعالى - على تلاوة القرآن ما يقتضي انقسام الناس إلى مهتدٍ وضالٍّ، أي: منتفع بالتلاوة، وغير منتفع بها، فمن اهتدى بما جاء في القرآن، واتبع ما فيه، فإن خير ذلك يعود عليه، ومن ضل عن اتباع الحق فقل -يا محمد- إنما أنا من الذين أنذروا قومهم، وليس على الرسول إلا البلاغ المبين، وليس بيدي من الهداية شيء، فثمرة الهدى أو الضلال تعود على من أقبل أو أعرض، فهو المكتسب لما يقول أو يفعل.

الْمُسْتَقْبَلُ لِلْإِسْلَامِ

٩٣- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[1] ﴿٩٣﴾﴾

يختم الحق ﷻ هذا الموكب العظيم من الحديث عن الأنبياء، وعن صدقهم في التبليغ، وعن القيامة وما فيها من وعد ووعيد، فيأمر رسوله ﷺ أن يحمد ربه الذي له الحمد في الأولى والآخرة؛ لأنْ جعلَه من الرسل المبلّغين أقوامهم دعوة ربهم؛ فإن هذا من أعظم النعم التي استحق بها الثناء الجميل على ما خصَّه الله به من شرف النبوة والرسالة، وما أكرمه به من المقام الرفيع، والمنزلة العالية، والخطاب في الآية موجه إلى النبي ﷺ لتتأسى به الأمة، فيكثرون من حمده سبحانه وتعالى، لا سيما الصفوة من عباد الله تعالى.

ثم ختم الله - سبحانه - السورة ببيان أن عدم معرفة الغيب لا يطعن في مقام الرسالة، وأن ما غاب عن العباد من دلائل التوحيد، وصدق الرسول والرسالة -سيظهر ويتجلّى لهم في المستقبل ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ أي: سيطلعكم على آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته في أنفسكم، وفي السماء والأرض والفضاء، والبحار والأشجار والآفاق، فتعرفونها معرفة تدلكم على الحق والباطل، وتكشف لكم لهم عن بعض أسرار هذا الكون، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بتاء الخطاب في (تعملون) على نسق الآية، والباقون بياء الغيبة على الالتفات.

وسيكشف المستقبل؛ الكثير من حقائق الإسلام، ومن مستقبل الكفر في كل يوم. وفي كل ساعة يظهر للبشر من الآيات في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق هذا القرآن، وعالمية الرسالة.

فَسِرْ في طريقك -أيها الرسول- وبلِّغ دعوة ربك؛ فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين، أما الكافرون والمنافقون فنحن الذين سنتولى حسابهم، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]. وربك مطلع على أعمال العباد، وهو على كل شيء شهيد، وسيحكم بينكم بعدْ له، ويحاسبكم بفضله، ويجازيكم على أقوالكم وأفعالكم.

تم تفسير (سورة النمل) ولله الحمد والمنة



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ (٢٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القصص) هي السورة الثامنة والعشرون في ترتيب المصحف، والتاسعة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء.

وهي ثمانٍ وثمانون آية باتفاق، وألف وأربع مئة وإحدى وأربعون كلمة.

وخمسة آلاف وثمان مئة حرف.

وهي سورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥]. فقد نزلت بالجُحْفة والنبي ﷺ في طريقه إلى المدينة مهاجرًا.

عن يحيى بن سلام قال: بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر، نزل عليه جبريل بالجُحْفة، وهو متوجه من مكة إلى المدينة، فقال له: أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي وُلدت فيها؟ قال: «**نعم**»، فقرأ عليه الآية(١).

قيل: وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الآيتان [٥٢، ٥٣]. فقد نزلتا مع آخر سورة (الحديد) في أصحاب النجاشي حين قدموا المدينة، وشهدوا وقعة أُحد.

ولا يُعرَف للسورة اسم آخر، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الآية [٢٥].

والطواسين الثلاثة، نزلت متتابعة، كترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في أن القصة الأولى في كل منها، هي قصة موسى عليه السلام.

وقد نزلت سورة (القصص) والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الجاه والقوة والسلطان؛ نزلت لترفع من معنويات المسلمين، وتطمئنهم على مستقبلهم، فكما منَّ الله على الذين استضعفوا في الأرض، ووعدهم بأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، طمأن الله رسوله ﷺ أن يعود إلى مكة بعد أن خرج منها مكرهًا مطاردًا.

---

(١) «تفسير الألوسي» (٢٠/ ٤١).

وقد عاد المهاجرون إليها فاتحين بعد أن خرجوا منها مقهورين مكسورين، وهكذا فميزان القوة عند الله تعالى هو الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، وإن خذله أهل الأرض جميعًا.

ولذا اهتمت السورة بتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم، وأن الله تعالى سيجعل من ضعفهم قوة، ومن قلتهم كثرة، كما جعل من موسى وقومه.

واهتمت السورة ببيان مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومنها إهلاك الظالمين ولو ساندتْهم جميع قوى الأرض.

وسُنن الله تعالى لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان، فقد اعتذر المشركون لرسول الله ﷺ عن اتباع الهدى بخوفهم من تخطُّف الناس لهم لو تركوا عقائدهم القديمة، فساق الله لهم قصة موسى وفرعون؛ لتُبين أن الأمن من المخاوف يكون في جوار الله تعالى.
ثم ساق لهم قصة قارون في صورة أخرى تؤكد هذا المعنى، وعقَّب الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ الآية [٥٧].
وسُنَّة الله تعالى في إهلاك الطاغين لا تكون إلا بعد إعذارهم وإنذارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [٥٩].

فسورة (القصص) اشتملت على قصتين هما: قصة موسى وفرعون، وقصة قارون، وبينهما حثٌّ على الاعتبار والاتعاظ بما جاء في القرآن من قصص، وبما لحق بالأمم المكذِّبة لرسل الله من مصير مؤلم،
وفي السورة لفت الأنظار إلى آثار قدرة الله تعالى في الكون بما يستلزم توحيده سبحانه، وعدم تقليد من أشركوا مع الله غيره.
وقد بدئت السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن مُنزَّل لتوحيد الخالق سبحانه، وخُتمت بالنهي عن الإشراك بالله تعالى.

فالتوحيد الخالص، وتصديق الوحي المنزل، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، هو موضوع السورة الذي بدئت وختمت به في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الآية.

والقصة الأولى في سورة القصص: هي قصة موسى وفرعون، وفيها خمس حلقات لم تذكر إلا في هذه السورة، وكأنَّ المسلمين وَدُّوا أن تُفصَّل لهم قصة موسى ﷺ التي جاء ذكرها في سورتي: الشعراء، والنمل، فكانت هذه الحلقات الخمس:

وأولاها: حلقة ولادة موسى، ونشأته، وتربيته في قصر فرعون؛ ليكون هلاكه على يديه.

وثانيتها: حلقة وكْز موسى للقبطي وَكْزةً أدت إلى قتله خطأ، وهو يدفع العدوان عن الإِسْرَائِيلِي.

وثالثتها: حلقة هجرة موسى إلى مدين، وزواجه من ابنة الرجل الصالح، وعودته إلى مصر بعد أكثر من عشرة أعوام.

ورابعها: نزول الرسالة عليه، وإرسال هارون معه، ودعوتهما فرعون وملأه ودعواه الألوهية.

وخامسها: ثلاث تعقيبات على قصة موسى.

وهكذا ذكرت السورة نبوة موسى وموقف فرعون من دعوته، وبيان عاقبة ظُلْمِه وتكذيبه ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وهذه القصة تمثل قصة حاكم جائر يدَّعي الربوبية والألوهية، فيقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ويقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [٣٨].

وهذا الحاكم الطاغية يواجه بجبروته طفلًا رضيعًا لا حول له ولا قوة، ولكن هذه القوة وهذا الجبروت لم يغنيا عنه من الله شيئًا، فيتربى الطفل في حجر عدوه بأمواله وتحت رعايته، ورعاية امرأته التي انفتح قلبها له.

ولَمَّا كان موسى في حراسة العناية الإلهية، والقوة القاهرة، فقد كانت نهاية فرعون على يد هذا الرضيع الذي نشأ في بيت عدوه.

وهكذا ربطت السورة بين هذه القصة، وبين عودة النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا منتصرًا، بعد أن خرج منها نتيجة التآمر على قتله ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ الآية [٨٥].

وفي كل زمن يوجد فراعنة يظلمون الناس، ويستعبدونهم، ويكون لهم أعوان وبطانات سوء، فإذا استكان الناس للظلم، وقبلوا الضيم، وشاع المنكر بينهم، وارتضوا حياة الذل والمسكنة، فإن الله تعالى يسلط الظلم وأهله عليهم حتى تستيقظ ضمائرهم، ويأخذوا بأسباب الخلاص، وحينئذ يحل بهم نصر الله وتأييده، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدًا، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين، ويسلط الله على الطاغية من ينغص عليه عيشه، ويقضُّ مضجعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومحور قصة موسى مع فرعون يدور حول الحق والباطل، والخير والشر، وجند الرحمن وجند الشيطان، وتبيِّن أن عاقبة الظلم وخيمة، وأن عاقبة الصبر والتقوى جميلة، وتبيِّن أن المستضعفين في الأرض ستنكسر قيودهم، ويستردون حرياتهم ما داموا يأخذون بالأسباب، ويفضلون الموت على الحياة، ولم يكونوا عبيدًا لثرواتهم، أو نزواتهم، أو مناصبهم، أو شهواتهم.

ولذا: فإن القصة الثانية في سورة (القصص)، تمثل طغيان الثروة والمال، وادعاء أن قارون قد أوتي المال عن جدارة، أو خبرة، أو وراثة، وأنه مستحق له، نظرًا لما أوتي من علم ودراية، هذا هو قارون وأشباهه في طول الأرض وعرضها.

لقد بغى فرعون وتطاول بجبروته وحُكمه وسلطانه، وبغى قارون وتطاول بعلمه وماله، وكانت النهاية واحدة، ففرعون أغرقه الله في اليمِّ وهو مليم، وقارون خسف الله به وبداره الأرض، ولم توجد قوة على وجه الأرض حالت بينهما وبين هذا المصير الذي وضع حدًّا للبغي والفساد في الأرض.

وقد استغرقت قصة موسى وفرعون خمسين آية من السورة، وجاء التعقيب عليها في خمس وعشرين آية، واستغرقت قصة قارون ثماني آيات، وجاء التعقيب عليها في خمس آيات.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّنْوِيهُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ

١-٣- ﴿طسٓمٓ[1] ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③﴾

ابتدأت السورة بثلاثة أحرف من حروف الهجاء، هي: الطاء، والسين، والميم؛ إشارة إلى أن هذا القرآن المعجز مكون من هذه الحروف التي تنطقونها، ومع ذلك فقد عجزتم - أيها المكذبون - عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

ولأن هذه الحروف تسترعي انتباه المستمع، فيجد نفسه مشتاقًا إلى سماع هذا الكلام المعجز، فتتأثر نفسه، وينفذ القرآن إلى قلبه، فيهتدي بإذن الله تعالى، وهذا هو ما حدث للمشركين وقت التنزيل، فقد كانوا يخافون من تأثير القرآن في نفوسهم، فينهى بعضهم بعضًا عن استماعه، ويأمره بالتشويش عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ㉖﴾ [فصلت].

ولأن قلوب المكذِّبين بالقرآن في غطاء عن ذكر الله تعالى، فإنهم لم يؤمنوا به مع اعتقادهم بصدق محمد ﷺ، وانجذابهم للقرآن، وشهادتهم له، فالكبرياء والجحود، والخوف على الجاه والمنصب، هو الذي منعهم من الإيمان به.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ㉖﴾ [الأنعام].

---

(١) سكت أبو جعفر على: طاء، وسين، وميم، سكتة يسيرة بدون تنفس، ويلزم منها إظهار نون (طس)، وعدم إدغامها في الميم بعدها، والباقون بدون هذا السكت.
هذا: وقد عَدّ (طسم) آية، الكوفي وحده وتركها غيره.

ثم إن الآية التالية لحروف الهجاء في أغلب فواتح السور المفتتحة بها، تشير إلى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف، كما في هذه السورة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: هذا هو القرآن الذي نزلناه عليك -يا محمد - وهو وحي يُتلَى من عند الله، وليس من صنع البشر، وهو كتاب مبيِّن لكل ما يحتاجه العباد في دينهم ودنياهم، مُوضِّح للحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومنه يعرف العبد حق ربه وحق عباده، ويعرف أولياء الله وأعداءه، ويعرف أيامه ووقائعه، ويعرف الثواب والعقاب، ومكارم الأخلاق، وما إلى ذلك.

وفيه بيان لما سيقصُّه الله على رسوله في هذه السورة من قصة موسى بن عمران مع فرعون الطاغية.

ولما كان المؤمن العاقل -دون غيره- هو الذي يتأثر وينتفع ويعتبر بما في هذا القرآن، فإن الله تعالى خصَّه بالذكر، في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة].

أما غير المؤمنين وغير المتقين من غير أولي الألباب والبصائر فهو عليهم عمًى، ولا يزيدهم إلا خسارًا. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ولذا: فإن الله تعالى بيَّن أنه سبحانه سيقصُّ على خاتم الرسل ﷺ -بواسطة جبريل عليه السلام- ما فيه العبرة من قصة موسى وفرعون لقوم يؤمنون، أي: لمن كان في قلبه استعداد للإيمان، وانتفاع بهذا القصص ممن سبق في علم الله تعالى أنه ينتفع بما يتلى عليه، فيتلقاه بالقبول والاهتداء، ويزداد إيمانًا ويقينًا، أما غير المؤمن فهو لا ينتفع ولا يعتبر، ولا يستفيد إلا بإقامة الحجة عليه.

ومن شأن المؤمنين أن يثْبتوا على إيمانهم، ويرفعوا راية الجهاد في سبيل الله، ويؤْثِروا الشهادة على الحياة، حتى ينصرهم الله بعد خذلان، ويُبدِّل ضعفهم قوة، وخوفهم أمنًا كما فُعل بأسلافهم، ومنهم فرعون مع بني إِسْرَٰٓءِيلَ، فقد نجَّاهم الله من القتل والعذاب على يد نبيهم موسى عليه السلام، وهكذا كان المؤمنون المهاجرون من مكة، وهكذا ينصر الله

المسلمين على اليهود في القريب العاجل إن شاء الله،وهذا بسط لقصة موسى مع فرعون:

قِصَّةُ فِرْعَوْنَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

٤- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

يبدو أن فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام، أي: في القرن الثالث عشر قبل الميلاد غالبًا، هو (رمسيس الثاني)، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة، كما هو معروف في تاريخ الفراعنة.

ويذكر أن اسمه (الوليد بن الريان) الذي امتد ملكه من نهر الكنج إلى نهر الدانوب، واتسع سلطانه من بلاد الهند إلى أوربا، وبلغ شأوًا من العلو مما أغراه بالألوهية والاستبداد في الأرض، واستعباد من فيها، وكان من شأن الرعية في ذلك الوقت أن يؤلِّهوا مليكهم، ويطيعوه فيما يُحلِّل ويحرم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

وكان من شأن فرعون -كما جاء في الآية- أنه متصف بالفساد في **خمسة أمور**:

أولها: أنه علا في الأرض، في ملكه وسلطانه وجبروته وجنوده، فكان مثلًا للاستبداد، وعنوانًا للظلم، وقدوة في الشر، وآية في الطغيان والتكبر، وتجاوز الحد، والاستخفاف بالناس واحتقارهم، وسوء عشرتهم، وبث عداوته فيهم.

ثانيها: أن فرعون جعل أهل مصر فرقًا وشيعًا وأحزابًا، يتصرف فيهم كما يشاء، وينفذ فيهم ما يريد، فقسَّم بلادهم إلى ستة وثلاثين إقليمًا، وجعل على كل إقليم أميرًا؛ ليتسنى له إحكام القبضة على البلاد ومَنْ فيها، ولكي يستعين ببعضهم على بعض، فيذلَّ بكل حزب ما عداه، ويثير بينهم التحاسد والتباغض، وإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة، وإفساد ما بينهم، وكان يكرم طائفة، ويهين طائفة، يكرم أهل مصر، ويهين بني إِسْرَائِيلَ الذين دخلوا مصر أيام أخيهم يوسف عليه السلام، وكانوا أفرادًا قلائل، وخرجوا منها في عهد موسى عليه السلام وهم ألوف بعد أن مكثوا في مصر أربع مئة سنة، فكان يسخِّر بني إِسْرَائِيلَ في أنواع الخدمة والأعمال الشاقة، وكانوا يطيعونه، ولا يملك أحد منهم أن يعصي له أمرًا.

ويبدو أن فرعون كان إمامًا للطغاة، وقدوة للجبارين خارجًا على الدستور الإلهي، والحكم بما أنزل الله، فهم يترسمون خطاه، وينسجون على منواله.

ومصارع الظلمة واحدة في كل زمان ومكان، وكل ظالم يبلى بأظلم، والندم لا ينفع في الساعات الأخيرة من حياة الإنسان، كما أن إيمان فرعون لم ينفعه وقت الغرق.
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

وثالثها: أن فرعون كان يستضعف طائفة من رعاياه، هم بنو إِسْرَائِيلَ، فكان لا يساوي بينهم وبين المصريين، ولا يعدل في التعامل بينهم، ولم تكن لديهم مناعة تحول بينهم وبين الطاغية المستبد، فلم يقفوا في وجهه، ولم يأخذوا على يديه، ولم يقضُّوا مضجعه؛ حتى يعيش الناس في أمن وأمان، وحتى لا يتسرب الظلم إلى فئات أخرى، فيصبح الداء عضالًا[1].

ورابعها: أنه كان من بطش فرعون وجبروته أنه يقتل أبناءهم وهم أطفال، خوفًا من تكاثرهم، ويستبقي نساءهم لاستعمالهن في البغاء؛ إذ ليس لهن أزواج، وكل هذا اعتداء على الحق، واستضعاف لهم، لَمَّا عجزوا أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم، وفي قتل الذكور فناء للرجال، وقطع للتناسل، وإبقاء للإناث بدون رجال.

وفي ذلك مفاسد كبيرة؛ حيث تتحمل المرأة الكد والمشقة في أمر المعيشة، وتكون فريسة للعدو، وفيه قتل لجنينها بعد الحمل الطويل والمعاناة فيه، وفي هذا ذلٌّ وهوان.

قال ابن عباس ﷺ: إن بني إِسْرَائِيلَ لما كثُروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فسلَّط الله عليهم القبط فاستضعفوهم، إلى أن نجَّاهم الله على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

والقبط: كلمة تطلق قديمًا على المصريين جميعًا، فالقبطي هو المصري بغَضِّ النظر عن ديانته وهي في الأصل لا تخصَّ طائفة من المصريين، وإنما يستغلها النصارى لخدمة قضيتهم الوطنية.

قال السُّدِّي: كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس،

---

(١) يُنظَر: الشيخ/ محمد أحمد العدوي، «دعوة الرسل إلى الله تعالى» ص ٢٦٣، والشيخ ابن عاشور «تفسير التحرير والتنوير» (٢٠/٦٨).

حتى أتت بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إِسْرَائِيلَ، فدعا الكهنة والعرَّافين، فقالوا: إن مولودًا يولد في بني إِسْرَائِيلَ يكون ذهاب ملكك على يديه(١).

وقال الزجَّاج: والعجب من حُمْق فرعون، أنه إن كان الكاهن صادقًا فما ينفع القتل؟ وإن كان كاذبًا فلا معنى للقتل(٢).

ومن المعلوم: أن المنجِّمين لا يعلمون شيئًا من الغيب، ولا يجوز في الإسلام التصديق بمثل هذه الأخبار، فقد «**كذب المنجمون ولو صدقوا**»، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتى كاهنًا أو عرَّافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد**»(٣).

وعن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافًا فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»(٤).

ولعل هذا كان جائزًا عندهم، كيف وفرعون يرتكب ما هو أكبر من تصديق العرافين، ويدَّعي ما لم يدَّعه بشر؟! وليس بعد الكفر ذنب، ويمكن أن يكون الخبر من الإِسْرَائِيلِيات.

ولعل الصحيح أن فرعون كان يقتل الذكور لمجرد الاستعباد، وحتى لا يظهر منهم من ينافسه في ملكه، وشأن الطغاة أن يقْضُوا على من يظهر من أبناء شعبهم؛ حتى لا يرفع رأسه، ولا يكون مناهضًا له.

ولعل هناك أخبارًا تناقلها الإِسْرَائِيلِيون عن أنبيائهم بظهور موسى ﷺ، ولاعجب أن يصنع فرعون ما صنع؛ لأن مَنْ كان خلُقه الإفساد في الأرض لا يُستغرب منه هذا العمل.

واستبقاء النساء بعد قتل الذكور حتى لا تكون لهنّ عِزْوة، ويستسلمْن لما يراد بهن، وهذه فتنة كبرى.

---

(١) تُنظَر القصة كاملة في: مواطن عدة، عند الطبري منها (١/ ٦٤٨)، (١٨/ ١٥١) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٣٨). وغيرهما.

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ١٥٤) بتصرف.

(٣) «المسند» (٩٥٣٦، ١٠١٦٧). قال محققوه: حديث حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (١/ ٨) وقد صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٩٣٩).

(٤) «المسند» (١٦٦٣٨، ٢٣٢٢٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم. كما قال محققوه.

وخامسها: أنه كان من المفسدين في الأرض، لا يُرجى منه إصلاح في الدين، ولا إصلاح في الدنيا، وأي إفساد أعظم من دعواه الألوهية والربوبية، واستعباد الناس وقتلهم؟!

بَنُو إِسْرَائِيلَ هُمُ الْمُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ

٥، ٦- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً[1] وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ[2] فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾

أي: هل يبقى الذلُّ والاستعباد ملازمَيْن للمستضعفين في الأرض؟ كَلَّا، لابد للَّيل أن ينجلي؛ فالأيام دُوَل، والله يقلِّب الليل والنهار، والفلك يدور، ودوام الحال من المحال؛ فالضعيف قد يتحول إلى قوي، والقوي يتحول إلى ضعيف، كما يتحول الحاكم إلى محكوم، والمحكوم إلى حاكم.

وفي قصة فرعون عبرة لشعوب وحكام الأرض، فكم من عروش ثُلَّت، وكم من ممالك قُوضت، وما نزل بفرعون من عقوبة، تذكِّر بعرشه الذي قُوِّضَ، ومُلْكِه الذي ذهب، بعد أن كان له من الحول والطول ما كان: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾ [آل عمران].

والتاريخ الماضي يُلْقي بظلاله في نفوس المسلمين -الذين يعانون من ظلم اليهود، والنصارى، وغيرهم- إلى أن يتعلقَّوا بغدٍ أفضل، كما جاء في آخر سورة القصص أن المطاردة التي أكرهت المسلمين على ترك مكة سوف تتلاشى، ويرجع المهاجرون إلى وطنهم قريبًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥].

وكأن الله تعالى يقول لفرعون: لقد كان منك ما كان، وكان منا أن نمنَّ على الشعب

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (أئمة) وإبدالها ياء خالصة مع عدم الإدخال، وأبو جعفر بتسهيلها مع الإدخال وإبدالها ياء مع الإدخال، وهشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (وَيَرَى) بالياء مفتوحة وفتح الراء بعدها ألف ممالة، و (فرعون، وهامان، وجنودهما) بالرفع، فرعون فاعل وما بعده عطف، وقرأ الباقون (وَنُرِيَ) بالنون مضمومة وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة، وما بعدها بالنصب، ففرعون مفعول وما بعده عطف.

الذي استضعفته، وأذقته العذاب ألوانًا، فنتفضَّلَ عليهم، ونجعلهم قادة وولاة وملوكًا، ونجعل فيهم أنبياء يُقتدى بهم في الخير، فنبدل ضعفهم قوة، وذلَّهم عزًّا، واستعبادهم ملكًا، ونجعلهم يرثون الأرض بعد هلاك فرعون وقومه، ونمكن لهم فيها، ويرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم.

ويشير إلى هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف]. و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتان.

مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ:

وفي هاتين الآيتين أربع منن امتنَّ الله بها على بني إِسْرَائِيلَ من بين نعم كثيرة ذكَرتْها سورة البقرة، وهذه المنن الأربع هي:

أولًا: جعلهم أحرارًا وأئمة، لهم شريعة مستقلة، وقوة يدفعون بها أعداءهم، بعد أن كانوا في ذل العبودية.

ثانيًا: جَعْلَهم الوارثين لأرض الجبارين، وإرث السلطة منهم بعدما كان مَنْ قبلَهم أهل السلطان فيها، وقد نزع الله منهم هذه الوراثة، وجعلهم شعبًا بلا وطن، لمّا تقاعسوا عن قتال الجبارين وقالوا لنبيهم ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]

ثالثًا: التمكين لهم في الأرض المقدسة بفلسطين إلى انتهاء رسالة نبيهم موسى ﷺ، حيث تؤول بعد ذلك إلى أهل الديانة التي تليها، كما هي سُنَّة الله في خلقه.

رابعًا: زوال مُلك فرعون على أيديهم، بعد أن كان يَحْذَر ظهور رجل من بني إِسْرَائِيلَ يقوِّض عرشه.

وكان فرعون الذي أراه الله ذلك هو (منفتاح الثالث) الذي جاء بعد رمسيس الثاني الذي كانت ولادة موسى في زمانه، وكان وزير فرعون يلقب بهامان، قيل: وكان اسمه أحشوبروس.

وخُصَّ (هامان) بالذكر لمكانته في الكفر، وهذا التخصيص لعنة وصَغَار له، وليس شرفًا.

وهكذا خاطب الله بني إِسْرَائِيلَ ممتنًا عليهم بكثير من النعم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة].

هذا: وقد أيَّد الله تعالى موسى بالمعجزات، فجمع له فرعون السحرة رجاء أن يبطلوا معجزته، فانقلبوا حربًا على فرعون وملئه، فأذن الله لموسى في الهجرة، فأتبعه فرعون بجنوده، فحلَّ به الغرق، وذهب سلطانه، وانتهى ملكه.

مُوسَى فِي نَهْرِ النِّيلِ

٧، ٨- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ[(١)] فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[(٢)] إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ[(٣)] ﴿٨﴾﴾

نجاة موسى عليه السلام من الذبح، ونسب والديه:

أَلْهَمَ الله أم موسى -حين ولدتْه وخشيتْ أن يذبحه فرعون -أن ترضعه وهي مطمئنة، فإذا خِفْتِ أن يُعرف أمره فضعيه في صندوق، وألقيه في النيل، دون خوف عليه، ولا حُزْنٍ على فُراقه؛ فإنا سنرده إليكِ ونجعله رسولًا، وهذه بشارة عظيمة لأم موسى كي يطمئن قلبها، ويسكن روعها، وقد خافت عليه وفعلت ما أُمرت به، وألقته في اليم.

وأم موسى اسمها (يوكابد)، أو (يوحانذ) وهي من نسل لاوي بن يعقوب.

وموسى هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وكان الله تعالى قد أمر أم موسى، وكلَّفها أن تُلقيه في اليم إذا خافت عليه، وهو تكليف بشيء عظيم شاق على نفس الأم، ولكنها فعلت ما أُمرت به ثقة في الله تعالى، ونهاها سبحانه أن تخاف عليه من

---

(١) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بحرف مد في هذه الكلمات: (أرضعيه، عليه، فألقيه، رادوه، جاعلوه)، والباقون بترك الصلة.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وإسكان الزاي من (حُزْنا)، والباقون بفتح الحاء والزاي.

(٣) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (خاطئين) وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا: الحذف والتسهيل بَيْنَ بَيْنَ.

الغرق أو الضياع، وبشَّرها بعودته إليها، وبعْثِه نبيًّا ورسولًا كما في هذه الآية.

قالوا: مدَح الأصمعي امرأة لإنشادها شعرًا حسنًا، فقرأت هذه الآية، ثم قالت له: أبَعْد هذه الآية فصاحة؟ لقد اشتملت على أمرين، وهما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ ونهْيَيْن، وهما: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ وخبريْن، وهما: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وبشارتيْن، ضمن الخبرين، وهما: الردُّ، والجعل المذكوران.

والخوف: غمٌّ يلحق الإنسان من شيء متوقع. **والحزن**: غمٌّ يلحق الإنسان من شيء وقع.

روى قتادة عن السُّدِّي: أن القتل لَمَّا كَثُر في بني إِسْرَائِيلَ، خاف أهل مصر أن يفنى بنو إِسْرَائِيلَ، فتؤول الأعمال الشاقة إليهم، فقالوا لفرعون: إن الغلمان يُقتلون، والشيوخ يموتون، والنساء لا يَقُمْنَ بما يقوم به الرجال، فنخشى أن نتولى نحن هذه الأعمال، فأمر فرعون بقتل الذكور عامًا، وترْكهم عامًا، فوُلِد هارون في العام الذي يُترك فيه القتل، ووُلِد موسى في العام الذي يتم فيه القتل، وكان لفرعون جنود يقومون بقتل المواليد الذكور، وقوابل يبلِّغن عن كل حالة ولادة[١].

ونُقِل عن ابن عباس ﷺ: أن أم موسى لما قرُب وقت ولادتها، كانت لها صَدِيقة من القوابل فأرسلت إليها، فلما ولَّدتها، ونظرت إلى موسى وقع حبه في قلبها، فقالت: ما جئتُ إلا ومُرادي قتْل وَلدك، ولكن لم أجد في نفسي حبًّا مثل حبي لابنك حين رأيته، فاحتفظي به، ولما خرجتْ من بيتها أبصرتْها العيون، فجاء الحرس، فلفَّتْه في خرقة ووضعتْه في التنُّور دون وعْي منها، وكان التنور عليه بردًا وسلامًا.

وهكذا فإن الله تعالى ألهمها وقذف في قلبها أن تضعه في تابوت، وتُلْقيه في نهر النيل، فنفَّذت ما أُمرت به، فأرضعتْه وألقتْه في اليمِّ حين خافت عليه القتل، وتكليف أم موسى أن تُلقي به في البحر شيء عظيم، ولكن ثقتها في وعد الله تعالى جعلتْها تفعل ما أُمرت به، فاشترتْ تابوتًا من نجار، فانطلق النجار إلى الذبَّاحين ليخبرهم، فأمسك الله لسانه، وتكرر ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة ينطلق لسانه بعد خروجه من عند الذبَّاحين، فخرَّ

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» باختصار وابن كثير و«زاد المسير» لابن الجوزي والبغوي والنسفي وفتح القدير، وغيرهم في تفسيرهم للآية.

لله ساجدًا، وآمن بموسى وصدَّقه[١].

قال ابن كثير: فوضعته في التابوت، بعد أن جعلت فيه مهْدًا وسيَّرتْه في البحر، وربطتْه بحبل عندها، فكانت ترضعه، فإذا خافت عليه ألقتْه في النهر، وأمسكت الحبل بيدها، وذُهِلتْ ذات يوم أن تَرْبطه، فسار مع الماء بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر، وقيل أكثر، وكان بيتها وبيت فرعون على حافة النيل.

وهذا التفصيل ذكرته كتب التفسير، ولكنه لم يرد في خبر صحيح.

انطلق التابوت بوديعته الثمينة، ورمت به الأمواج أمام قصر فرعون، فرأتْه آسية بنت مزاحم يعوم في الماء، فأمرت بسوْقه وفتْحه، فرأت فيه صبيًّا صغيرًا، فرحمتْه وأحبَّتْه.

وكانت (آسية) من خيار النساء، ترحم المساكين، وتتصدق عليهم، وقد أثنى الله عليها في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم].

وفي الحديث: عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون**»[٢].

وقال السُّدِّي: إن جواري آسية كان لهن في القصر على النيل فرع يدخل الماء فيه إلى القصر، فيأخذن منه وينتفعْن به، فبينما هن يغسلْن إذ جاء التابوت فحملْنَه إلى مولاتهن.

وقيل: إن الذي رأى التابوت هو فرعون فأمر بسوقه وفتحه.

ويبدو من مجموع الروايات أن فرعون وآل بيته جميعًا رأوا التابوت، فالتقطه آل فرعون من اليمِّ؛ ليكون موسى لهم عدوًّا وحزنًا، وليعلموا أن ما أراده الله تعالى لابد أن يتم مهما احتاطوا، ومهما اتخذوا من حراسات وأسباب حذر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد فعل الله ما فعل؛ لأن فرعون ووزيره هامان وجنودهما الذين كانوا يناصرونهما -

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) البخاري (٣٤١١، ٣٤٢٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨)، ومسلم (٢٤٣١) وابن ماجه (٣٢٨٠) والترمذي (١٨٣٤) والنسائي في «الكبرى» (٨٢٩٥، ٨٢٩٨، ٨٨٤٤) و«المسند» (١٩٥٢٣) وابن حبان (٧١١٤).

كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة في كل ما يفعلون ويتركون، ومن ذلك قتل ذكور بني إِسْرَائِيلَ وهم أطفال، وإبقاء الإناث.

مُوسَى فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ

٩- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ[1] فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

بعد أن خرج موسى من التابوت، ورأتْه آسية بين يديْ فرعون وآله قالت: هذا الطفل هو محل السرور والفرح لعيني ولعينك يا فرعون، ثم خاطبت فرعون وجنده قائلة: لا تقتله يا فرعون، فعسى أن ينفعنا في الكبَر ومستقبل حياتنا، فنَجْني الخير من ورائه، أو أن نتبنَّاه فنجعله ولدًا لنا تقرُّ به أعيننا.

قيل: إنها كانت لا تلد، فاستوهبتْه من فرعون، فوهبه لها، وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وحاشيته سيكون على يديه وبسببه.

نُقِل عن ابن عباس وغيره: أن فرعون كانت له ابنة وحيدة، وكان بها برص، فقال له السحرة: إنها لا تبرأ إلا من قِبَل البحر، وبينما كان فرعون وأهل بيته يجلسون على شفير النيل إذ أقبل التابوت تضْرِبُه الأمواج، وقد تعلق التابوت بالشجر في الماء، فأمر فرعون أن يؤتى بالتابوت، وتم فتْحه، فإذا فيه غلام، جعل الله في عينيه ملوحة، لا ينظر إليه أحد إلا أحبه، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. قالوا: فنظرت بنت فرعون البرصاء إلى وجه موسى فبرئت، وقيل: إنه أُخذ من ريقه، ووُضِع على برَصها -كما قال له الكهنة- فبرئت[2].

فقال الغُواة من قوم فرعون: هذا الذي تُحذَّر منه، فَأْذَنْ لنا بقتله، فقالت آسية: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، قال فرعون: أما أنا فلا حاجة لي فيه.

قال محمد بن قيس يرفعه: **«لو قال فرعون يومئذ قرة عين لي ولك، لكان لهما جميعًا»**[3].

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (امرأت) و (قرت)، والباقون بالتاء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٤١) عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي.

(٣) يُنظَر: ابن جرير (١٨/ ١٦٣) عن محمد بن قيس.

ثم قيل لآسية: سمِّيه، قالت: سمَّيتُه موسى؛ لأنا وجدناه في الماء والشجر، ولأن (مو) هو الماء، و (سا) هو الشجر، بعد تخفيف الشين وجَعْلِها سينًا.

وقيل: إن فرعون همَّ بقتله لما تعلق موسى به، ونتف شعرات من لحيته، فتشاءم فرعون، وأمر بقتله فاعتذرت عنه آسية، وقالت: طفل رضيع، لا يفرق بين التمرة والجمرة.

قيل: ووضعوا له تمرًا وجمرًا، فأراد أن يمدَّ يده على التمر، فحوَّل جبريل يده إلى الجمر، فلثغ لسانه به، فذلكم قول الله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

قِصَّةُ إِرْضَاعِ مُوسَى وَعَوْدَتِهِ إِلَى أُمِّهِ

١٠- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

لما ألقت أم موسى بابنها في نهر النيل -كما ألْهمها الله تعالى- زال عنها ما كانت تخافه من ظهور أمره وقتْله؛ حيث إنه نجا من القتل بإلقائه في اليم، وكادت قبل ذلك تبدي خبره من شدة الخوف والإشفاق عليه من القتل، فأصبح فؤادها فارغًا من هذا الجزع ومن القلق الذي أزعجها، بمقتضى الطبيعة البشرية.

وقال مجاهد: لما رأت الأمواج حملت التابوت، كادت تصيح.

والمعنى: لقد كاد فؤاد أم موسى يطير فزعًا، عندما رمت الأمواج بالتابوت أمام قصر فرعون، وكادت تصيح قائلة: واابناه!! شفقة وخوفًا عليه، ولكنها تطلَّعت إلى ربها في أمل ويقين، وقد خلا فؤادها من كل شيء إلا من ذِكْر موسى، لولا أن ثبَّت الله قلبها، وربط عليه بالصبر تقوية لإيمانها وتشديدًا لقلبها؛ لتكون من المصدِّقين بوعد الله تعالى، الموقنين به، ولكي يتربى موسى في بيت فرعون؛ حتى يقوِّض عرش مُلكه، ويكون لهم عدوًّا وحزَنًا، فيهلَك فرعون على يد موسى ﷺ، وهم لا يدرون حكمة الله العظيمة، ومحبته البالغة، وسننه في أرضه. قال تعالى:

١١- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

أي ولما ألقتْه أمه في النهر، قالت لأخته (مريم): تتبعي أثره، فانظري أين يُلقيه اليم، ومتى يُستخرج منه، وقد علمت أن اليم لا يلقيه بعيدًا عنها بمقتضى وعد الله تعالى برده إليها، فأبصرتْه عن بُعْد، وقوم فرعون لا يعرفون أنها أخته، وأنها تتبع أثره، فتقدمت إلى بيت فرعون تعرض عليهم أن تأتي له بمرضعة، بعد أن امتنع من قبول جميع المرضعات، وكانوا قد عرضوا عليه المراضع اللاتي في دارهم، فلم يقبل منها ثديًا، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته أخته بأيديهم عرفته، ولم تُظهر ذلك، لأنهم لو عرفوا أنها أخته وأنها جاءت إليهم قاصدة، لقالوا: إنها هي التي ألقته في اليم، وربما أقدموا على قتله عقوبة لأهله، وقد جعل الله ذلك سببًا لرجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعد أن كانت خائفة، وكان قد بقي أيامًا كلما أُتي له بمرضعة لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر.

١٢- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾

ولما استقر موسى بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، وكان الله قد منعه أن يقبل ثديًا غير ثدي أمه، فقالت لهم أخته وهي تقتص أثره: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ ويقومون بإرضاعه، وكفالته، وحضانته ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فيُخلصون في تربيته وغذائه، وكان هذا موضع اهتمامهم، فقد أحبوه حبًّا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا عليه من الموت، ولذا فإنهم أجابوها إلى طلبها، فأعلمتْهم ودلَّتهم على أهل البيت.

قيل: إنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قال هامان: إنها تعرفه وتعرف أهله، فخذوها حتى تخبر بقصته، فقالت: إنما أردت: وهُمْ للملك ناصحون، فانطلقت إلى أمها، فأتت بها، فأقبل عليها، والتقم ثديها، فقال لها فرعون: مَن أنتِ منه؟ قالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا يأتيني صبي إلا أقبل عليَّ، ففرحوا بذلك، وأحسنوا إليها، وأجزلوا لها العطاء، ثم سألتها آسية بنت مزاحم أن تقيم عندهم لترضعه، فقالت: إن لي بعلًا وأولادًا، ولا أستطيع مفارقة بيتي، ولكن إن أحببتِ أن أرضعه في بيتي، فأجابتْها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرتْ عليها النفقات والكسوة والصلات.

وكان من عادتهم أن يُسلَّم الطفل الرضيع إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها، كما

كانت عادة العرب؛ لأن النساء الحرائر لم يكُنَّ يتركن بيوتهن، وينتقلن إلى بيوت الأطفال الرضَّع، كما جاء في خبر إرضاع حليمة السعدية للنبي ﷺ، ولذا: دفعه فرعون إليها، وأجزل لها العطاء، وذهبت به إلى بيتها، وتحقق وعد الله لها: قال تعالى:

١٣- ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

عاد موسى إلى حضن أمه سليمًا معافى من أن يمسه أذى من فرعون، كما وعدها ربها، ورجعت أم موسى بولدها، وقد بدَّل الله خوفها أمنًا، وحزنها فرجًا، فاطمأن قلبها، وازداد إيمانها، فضلًا عما تتقاضاه من أجر كبير، جاء في الأثر: «**مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها**»(١).

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا يوم وليلة، فسبحان من بيده الأمر، الذي يجعل من كل ضيق فرجًا، ومن كل همٍّ مخرجًا، وتحقق بذلك وعد الله تعالى لأمه فيما وعدها به مِنْ رده إليها، وجعْلِه من المرسلين ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. واستمر موسى عند آل فرعون، يتربَّى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وكان يقال له (ابن فرعون).

الْعِنَايَةُ الإِلَهِيَّةُ تُعِدُّ مُوسَى لِحَمْلِ مِشْعَلِ الْهِدَايَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

١٤- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

لَمَّا تحدثت الآيات عن ولادة موسى وإلقائه في نهر النيل، وعودته إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، بيَّنت ماذا كان من شأن هذا الطفل بعد أن تمت مدة رضاعه، لقد عاد موسى إلى القصر الملكي، وتربى في قصر فرعون، ونشأ وترعرع فيه، حتى بلغ نحو الثلاثين من عمره، فأعطاه الله رجاحة في العقل يميز بها بين الخير والشر، والخبيث والطيب، وأعطاه القوة البدنية البالغة، وآتاه حُكْمًا لفصل القضاء بين الناس، وآتاه علمًا يعرف به الأحكام الشرعية، والحلال من الحرام، وكان ذلك تمهيدًا لرسالته ونبوته، وكما جزينا موسى على طاعته وإحسانه نجزي من أحسن مَنْ عبادنا.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل ص ١٨٢ عن جبير بن نفير.

وهكذا يسر الله لموسى هذه التربية، وهذه العزة والكرامة؛ حتى لا ينشأ ذليلًا -كبقية بني إِسْرَائِيلَ- تحت قهر فرعون وظلمه.

وهكذا تعهدتْه العناية الإلهية بالحفظ وحسن التربية؛ لأن الله تعالى يُعِدُّه لأمر خطير، ومستقبل عظيم، وهو حمْل مشعل الهداية، ونور الرسالة؛ ليكون من أولي العزم من الرسل، وبمثل هذا الجزاء الحسن أكرم الله موسى وأمه، يجازي الله الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله به من الأقوال والأفعال.

قِصَّةُ قَتْلِ مُوسَى لِلْقِبْطِيِّ

١٥- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

أراد الله سبحانه أن يجعل سببًا لخروج موسى من مصر وهجرته إلى أرض مدين، شرق خليج العقبة، فحدثت قصة قتل المصري، وذلك أنه في أثناء فترة الشباب من حياة موسى ﷺ عرضت له حادثة عكَّرت عليه مقامه بمصر، وكانت هذه الحادثة سببًا لانتقاله من مصر إلى المكان الذي قدَّر الله له أن ينزل عليه الوحي فيه بالنبوة والرسالة.

قال ابن إسحاق: لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكمًا وعلمًا، فكان له شيعة من بني إِسْرَائِيلَ يسمعون منه، ويقتدون به، فلما عرف ما عنده من الحق خالف فرعون وقومه في دينه، حتى خافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفيًا على حين غفلة من أهلها[١].

قال السُّدِّي: كان موسى يسمَّى ابن فرعون، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه، فركب موسى يومًا مراكبه، وكان فرعون غائبًا، فلما جاء قيل له: إن فرعون قد خرج، فركب في أثره، فأدركه المقيل بأرض (منف)، فدخلها نصف النهار وليس في طرفها أحد[٢].

وكان لفرعون قصر في (منف) وتسمى الآن (ميت رهينة) على بعد ثلاثين ميلًا من

(١) «توفيق الرحمن في دروس القرآن» للشيخ / فيصل بن عبد العزيز آل مبارك.

(٢) «مختصر تفسير البغوي» (٢/ ٧٠٠) و«الخازن» (٣/ ٣٩٩) وابن جرير (١٨/ ١٨٣) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٥٢).

(الفسطاط) غربًا، وقصر آخر في (عين شمس) شرقًا، وكان موكبه إذا خرج من أحدهما يُرَى لأهل القصر الآخر.

فدخل موسى يومًا مدينة منف، أو عين شمس، مستخفيًا وقت راحة الناس في بيوتهم، وخُلوّ الطريق منهم في وقت القيلولة، وقيل: بين المغرب والعشاء، فوجد فيها رجلين يقتتلان:

أحدهما: إِسْرَائِيلِيٌّ من قوم موسى وعلى دينه ولغته.

وثانيهما: قبطي على دين فرعون، من أهل مصر.

وكان القبطي طباخًا في قصر فرعون، وقد طلب من الإِسْرَائِيلِيِّ أن يحمل حطبًا إلى مطبخ فرعون فأبى وتشاجرا، فاستغاث الإِسْرَائِيلِي بموسى، وطلب منه أن يخلِّصه من المصري، وكان موسى قد نشأ على محبة بني إِسْرَائِيلَ، وعداوة الفراعنة.

قال موسى للمصري: خلِّ سبيله، قال: إنما أخذْته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فناقشه، فقال المصري: لقد هممت أن أحمله عليك، فلَكَمهُ موسى بجُمْع كفيه، بقصد دفْع العدوان عن الإِسْرَائِيلِي المعتدَى عليه، وكان موسى على درجة بالغة من القوة البدنية، ولم يكن يدري أن لَكْمتَه قاتلة، فمات الرجل وواراه التراب، فندم موسى على ما حدث؛ إذْ لم يكن قصْده القتل ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فجعل قتْل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلمًا لنفسه، واستغفر الله منه؛ لأنه كان كالمستأمن فيهم، ولا يحل إلا قتل الكافر الحربي، أما قتل المستأمن ففيه مخالفة لله ورسوله، كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل قتيلًا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»**[1].

وهو عمل خطأ، والخطأ من الشيطان وهو عدو لابن آدم، مضل له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة، فهو الذي نزغ في نفسي، وهيَّج غضبي حتى ضَرَبتُ هذا، فأدَّت الضربة إلى موته خطأ، وهذه الفِعلة كانت قبل أن يبعث الله موسى نبيًّا ورسولًا.

---

(١) في البخاري (٣١٦٦، ٦٩١٤) وابن ماجه (٢٦٨٦) و«المسند» (٢، ٣٧٧، ٦٧٤٥) بإسناد صحيح (محققوه) وابن حبان (٤٨٨١) والنسائي في «الكبرى» (٦٩٢٤، ٦٩٢٦) والحاكم (٢/ ١٢٦) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٦) والبيهقي في السنن (٩/ ٢٠٥). وألفاظه متقاربة شملت الذمي والمعاهد.

ففي سورة الشعراء لما ذكَّر فرعون موسى بقتل القبطي، ووصفَه بالكفر بنعمته عليه، قال موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: قد فعلتها قبل أن أكون نبيًّا ورسولًا ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء].

والآية نص صريح على أن قتل القبطي كان خطأ قبل الرسالة؛ لأن موسى قد عقَّب على فراره منهم لما خافهم بأن الله تعالى وهب له الحكم، وجعله من المرسلين، وسَمَّى هذه الفِعلة ضلالًا، كما قال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى]. ندم موسى على ما جرى منه واستغفر ربه:

١٦- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

قال موسى: يا رب إني ظلمت نفسي بقتل القبطي من غير استحقاقه للقتل، وأنا معترف ومقر بذنبي، فاغفر لي هذا التقصير، وهذا الخطأ الذي وقعتُ فيه، فغفر الله له ذنبه وستره عن فرعون، إنه سبحانه هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم جميعًا.

١٧- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قال موسى: رب بسبب ما أنعمت عليَّ بالمغفرة والتوبة، وستْر الذنب، ومنْحي النعم الكثيرة، ومنها قوة البدن، فلن أكون معينًا لأحد على معصيته وإجرامه، وفي لفظ: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ دليل على أن المصري كان كافرًا.

أخرج الإمام أحمد في كتاب «**الزهد**» عن وهب قال: قال الله ﷻ: بعزتي يابن عمران، لو أن هذه النفْس التي وكزْتَ فقتلْتَ؛ اعترفتْ لي ساعة من ليل أو نهار، بأني لها خالق أو رازق، لأذقْتُك فيها طعْمَ العذاب، ولكني عفوْتُ عنك[1].

ومع هذا فقد طلب موسى من ربه أن يغفر ذنبه؛ لأنه هو الذي أخذ في أسباب القتل ومقدماته، وأخذ يبرأ إلى الله تعالى من أن ينصر أحدًا على إجرامه بعد اليوم، وهذا وعْد من موسى عليه السلام أن لا يعين مجرمًا، فقد أمر الله سبحانه بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان، كما نهانا سبحانه أن نجادل عن الذين يختانون أنفسهم

(١) كتاب «الزهد» ص ٧٥ .

بمعصية الله تعالى.

وفي هذا نهي لمن يدافعون عن المجرمين، ويَتَبَنَّوْنَ قضاياهم الآثمة، كبعض المحامين.

وفي الأثر: من مشى مع مظلوم ليعينه ثبته الله على الصراط يوم تزل الأقدام.[١] قال تعالى:

١٨- ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾

أصبح موسى خائفًا من المطالبة بدم المصري الذي قتله، يترقب ما يقال في شأنه، وهل شعر به آل فرعون أم لا؟ وأخذ يتحفز للاختفاء، أو الخروج من المدينة؛ لأن قتل القبطي لم يكن قد انتشر في المدينة بعدُ.

قال ابن عباس ﷺ: لما قال موسى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ لم يستثن، أي: لم يقل: إن شاء الله، فابتلاه الله في اليوم التالي[٢] بالإسْرَائِيلِي نفسه الذي خلَّصه بالأمس من القبطي وهو يقاتل قبطيًّا آخر، فلما رأى موسى أخذ يصيح مستغيثًا به لنصْره من عدوه.

قال موسى للإسْرَائِيلِي: إنك لكثير الغواية، ظاهر الضلال؛ فقد تسببت في قتل رجل بالأمس، وتقاتل اليوم رجلًا آخر، وموسى بهذا ينكر على الإسْرَائِيلِي أن يعينه مرة أخرى على ضلالة. قال تعالى:

١٩- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ[٣] بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

أي: فلما أخذت موسى الرأفة بالإسْرَائِيلِي مد يده ليدفع عنه القبطي، وكان مشهد الأمس لم يزل عالقًا في ذهن الإسْرَائِيلِي، وقد هاله ما رأى من قوة موسى، حين بطش بقبطي الأمس.

ونظرًا لأن موسى أخذ يلوم الإسْرَائِيلِي على موقفه أمس واليوم، فقد ظن الرجل أن موسى سوف يوجه يده إليه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ وما هكذا يكون

(١) ينظر: مسند الفردوس عن أنس (٣/ ٥٤٦) وفيه (حيث يثبت له حقه).

(٢) «الخازن» ٣/ ٤٠٠ و«مختصر البغوي» ٢/ ٧٠٠

(٣) قرأ أبو جعفر بضم الطاء من (يبطش)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

الإصلاح بين الناس، فلو أردت الإصلاح، لَحِلْتَ بيني وبينه من غير قتل أحد، تأثر موسى بكلام الرجل فتركه، وشاع الخبر بين الناس بما جرى من موسى في هاتين القضيتَيْن.

ويرى بعضهم: أن الذي أراد أن يبطش بالقبطي في المرة الثانية هو الإِسْرَائِيلِي، وليس موسى، والقبطي عدو لموسى ولِلإِسْرَائِيلِي معًا، والأول أرجح[1].

مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ

٢٠- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وانتشر الخبر بين الناس، وشاع أن موسى قتل القبطي بالأمس، فاجتمعوا في قصر فرعون برئاسته، يتشاورون في شأن موسى، حيث أصدر فرعون أمرًا بقتله، فخرج الجنود يبحثون عنه، وكان من بين الحاضرين (حزقيل) مؤمن آل فرعون، وهو ابن عمِّ فرعون، فجاء من طرف المدينة مسرعًا رَكْضًا على قدميْه، مختصِرًا للطريق، قال: يا موسى، إن أشراف القوم يتآمرون على قتلك ويتشاورون في ذلك، فاخرج من هذه المدينة، ولا تعرض نفسك للخطر، إني لك من الناصحين، المشفقين عليك.

مُوسَى يَتَوَجَّهُ إِلَى مَدْيَنَ

٢١- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

فخرج موسى من مصر متوجها إلى مدين، جنوب فلسطين، خائفًا من ملاحقة فرعون له، يترقب التعرض له في الطريق، وقد لجأ موسى إلى ربه، وسأله أن ينجيه من فرعون وقومه، فأفْلَت منهم ولم يجده أحد، وكانت هذه المسألة فتنة لموسى ابتلاه الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. فهذا أمرُ الله، وقضاؤه وقدره.

٢٢- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ[2] أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) «زاد المسير» (٦/ ٢١٠).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربيَ أن) وصلًا، وسكنها الباقون.

أي: ولما أراد موسى أن يخرج من مصر اختار التوجه إلى مكان خارج ملك فرعون - ليس له عليه نفوذ- هو (مَدْيَن) وهو في الوقت نفسه بلد له فيه قرابة ونسب؛ فموسى من ولد إبراهيم، ومدين هو ابن إبراهيم، وقد سُمِّي المكان باسمه، وسُميت القبيلة باسمه، وهي بلاد في جنوب فلسطين وشمال الحجاز شرق خليج العقبة، وهي تبعد عن (منفيس)، نحو ثمان مئة وخمسين ميلًا، وقد سلك موسى في رحلته من مصر إلى مدين الطريق الصحراوي، وكان رجلًا جلْدًا قويًّا، فوصل إليها بعد ثمانية أيام بالمشي الحثيث.

وقد خرج موسى من مصر ليس معه زاد، ولا رفيق، ولا دابة يركبها، ولا درهم ولا دينار، وليس في رجليه حذاء، ولم يكن له علم بالطريق، فسأل ربه أن يرشده إليه، وأن يسهل له الطريق المختصر الذي يوصله إلى مدين بسهولة ويُسر.

قال السُّدِّي: بعث الله له ملَكًا فدلَّه[1]؛ وذلك لأنه قد عرضت له أربعة طرق وهو في مسيره، فلم يدرِ أيها يسلك، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فأخذ طريق مدين[2]، وقد هداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

قالوا: ولم يكن لموسى في طريقه طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض، فورد ماء مدين، وخُضْرة البقل تتراءى في بطنه، وما أن وصل أرض مدين حتى وقع خُفُّ قدميه، بعد أن تشقق ويبس من طول الطريق الذي قطعه حافي القدمين، وكان بطنه لاصقًا بظهره من الجوع وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه.

قال ابن عباس ﷺ: خرج موسى من مصر إلى مدين، وبينه وبينها ثماني ليالٍ، ولم يكن طعامه إلا ورق الشجر، وخرج إليها حافيًا، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه[3].

وقال عكرمة: كان مسيره خمسة وثلاثين يومًا[4].

---

(١) يُنظَر: «زاد المسير» (٦/ ٢/ ٢) والطبري (١٨/ ١٩٩) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٥٨).

(٢) ابن جرير (١٨/ ٢٠٤) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٦١).

(٣) ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٦١) وابن المنذر.

(٤) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١١/ ٤٥٠).

قِصَّةُ زَوَاجِ مُوسَى مِنْ ابْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالِح

٢٣، ٢٤- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ[١] وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ[٢] ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ[٣] ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾

وصل موسى إلى بئر مدين التي يسقي الناس منها مواشيهم، وكانوا أهل ما شية كثيرة، فوجد جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دون تلك الجماعة امرأتين تقفان بعيدًا عن الناس تمنعان أغنامهما عن الماء؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، فسألهما، قالتا: نحن ننتظر حتى يفرغ الرجال؛ لأنا لا نستطيع المزاحمة، والذي حملنا على هذا أن أبانا شيخ كبير ضعيف، لا يقْوى على سقْي ماشيته.

قال أبو حيان: فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقْي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقْي لشيخوخته وكبره، واستعطافٌ لموسى في إعانتهما[٤].

والدين لا يأبى أن تقوم المرأة بمثل هذا، فهو أمر غير محظور شرعًا، وعادات الناس ومروءاتهم في هذا تختلف من العرب إلى غيرهم، ومن الحضر إلى البدْو، ومن مستوى اجتماعي إلى غيره، والضرورات تبيح المحظورات.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين وجد عليه أُمَّةً من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال[٥]، نظر

---

(١) انفرد الكوفي بعدم عدّ (من الناس يسقون) آية، وعدّها غيره.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (من دونهِمِ امرأتين) وحمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال من (يَصدُر) أي: حين يرجع الرعاء بمواشيهم، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال، أي: حتى ترد الرعاء مواشيهم، وقرأ حمزة والكسائي ورويس وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) «البحر المحيط» (٧/ ١١٣).

(٥) في حديث عمر هذا ردٌّ على من قال: إن البئر كانت مكشوفة. وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (١١/ ٥٣٠) والحاكم (٢/ ٤٠٧).

موسى فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الصخرة، فرفعها وحده، ثم استقى لهما، فلم يستقِ إلا دلْوًا واحدًا حتى روت الغنم، وبعد أن سقى لهما أعرض عنهما متجهًا إلى الظل الذي كان قريبًا منه في ذلك المكان.

وكان وصول موسى إلى مدين في منتصف النهار، بدليل ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ فلما سقى لهما انصرف إلى ظل شجرة يجلس تحتها من شدة الحر وهو جائع، بحاجة إلى كسرة خبز، أو شق تمرة، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: يا رب إني محتاج إلى أدنى طعام يقيم صلبي، وكان موسى لم يذق طعامًا منذ سبعة أيام، فلم يزل كذلك يدعو ربه، حتى جاءته إحدى المرأتين، بعد أن ذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، وأرسل إحداهما إلى موسى عليه السلام:

٢٥- ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: فلما رجعت المرأتان إلى أبيهما سريعتين على غير العادة، قال: ما أعجلكما؟! قالتا: وجدنا رجلًا صالحًا رحمنا، فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادْعيه إليَّ، فجاءته إحداهما، قيل: هي الكبرى، واسمها: صافوراء، وقيل: هي الصغرى، واسمها: ليا[1] جاءت مستترة، قد وضعت كمَّ درعها على وجهها استحياء، ووضعت يدها على جبينها، وأبلغتْه دعوة أبيها له، فمضى موسى معها إلى أبيها، وكان قد كره أن يمشي معها لَمَّا سمع منها: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ولم يكن موسى بما فعله من السقْي لهما بمنزلة الأجير أو الخادم الذي لا يُستحى منه عادة، إنما هو عزيز النفس، جم الأدب، حَسَنُ الخلُق، مما جعلها تستحيي منه، وقد قالت له: إن أبي يريد أن يكافئك على ما قدمت لنا من إحسان، لا ليُمنّ عليك.

ولَمَّا كان موسى شديد الجوع، فلم يجد بُدًّا من الذهاب معها، ثم طلب منها أن تمشي خلفه لئلا تنكشف منها قدمها، أو يلتصق الثوب ببدنها، ونحو ذلك.

وقد وُصفت هذه البنت بأنها كانت واضعة ثوبها على وجهها، ليست بِسَلْفَع من الناس،

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن مجاهد وابن جريج كما «في الدر المنثور» (١١/ ٤٥٠).

وليست خرَّاجة ولَّاجة، قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فقام معها موسى ﷺ، وقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف جسدك[١]... إلخ.

والمرأة السلْفع: هي الجريئة، السليطة. والولّاجة الخرَّاجة: كثيرة الدخول والخروج.

هل الرجل الكبير، هو شعيب ﷺ؟

وأكثر المفسرين على أن الشيخ الكبير هو شعيب ﷺ؛ لأنه هو الذي أُرسِل إلى أهل مدين، قاله الحسن البصري وغيره.

وقال ابن جريج: هو ابن أخي شعيب واسمه رعاويل، وكان حبر مدين، واسمه عند أهل الكتاب يثرون[٢].

قلت: وقد جاء ذكر قصة موسى في القرآن تلو قصة شعيب، مما يدل على قرب الزمن بينهما، وعدم ورود النص في هذا لا ينفيه.

وهكذا استجاب الله لدعاء موسى ﷺ، وأرسل له الفرج السريع، حيث عادت بنتا شعيب إلى أبيهما في وقت أقل بكثير مما كانتا ترجعان فيه عادة، وحدَّثتاه بأمر الرجل الذي سقى لهما غنمهما، فألْهم الله شعيبًا أن يرسل إلى موسى لينزله عنده، ويزوجه ابنته.

فلما دخل موسى على أبيها إذا هو بالعشاء مهيأ، فقال: اجلس يا فتى، فتعشَّ معنا، قال موسى: إني من أهل بيت لا يطلبون على عمل الخير أجرًا، قال الرجل: ليس هذا بأجر لك على سقيك، وإنما من عادتنا أن نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس وأكل، وقصَّ عليه قصته، وذكر له سبب خروجه من مصر، فقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأنت في بلد آمن، لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجَّاك الله منه، فلست في مملكة فرعون[٣]. وقد نجاك الله منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس له عليه سلطان.

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة مختصرًا إلى (... خرَّاجة ولَّاجة) (١١/ ٥٣٠) والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ﷺ (٨٨٢٩، ٨٨٣٠) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٦٤) والحاكم (٢/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١١/ ٤٥٥).

(٣) يُنظَر: ابن عساكر عن أبي حازم (٢٣/ ٧٨).

الْقَوِيُّ الأَمِينُ

٢٦- ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ[١] ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

كان الشيخ الكبير بحاجة إلى فتى يرعى غنمه، ويقضي حاجته، وقد آنست ابنتاه في موسى الكفاءة والقدرة، والقوة والأمانة، فما الذي يمنع من أن تَعْرِضا على أبيهما استئجاره؛ ليكفيهما مؤونة الجهد والمشقة، قالت إحداهما: يا أبت، اتخذه أجيرًا لرعي الغنم؛ فإنا نحتاج لمثله.

قال عمر، وابن عباس، وغيرهما[٢]: لما قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما عِلْمُك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لمَّا جئتُ معه تقدمتُ أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق، فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

والنساء تعرف أمانة الرجل من غضٍّ بصره وأدبه عند ملاقاتها، وكان موسى قد طلب منها أن تمشي خلفه، وتنعت له الطريق بعدما تبعها أوَّلًا، ولما ألزقت الريح ثوبها بجسدها، أو انكشفت قدمها طلب منها أن تتبعه، وتدله على الطريق.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرَّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٣].

وهكذا وَرَدَ أنها قالت لأبيها: ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليَّ، فرغب الرجل في تزويجه ومصاهرته؛ لما بلَغه أنه صوَّب رأسه فلم يرفعها، وأنه قال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، ولا يفعل هذا إلا أمين، إلى جوار قوة بدنه؛ حيث رفع الصخرة التي لا يرفعها

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبتَ)، والباقون بكسرها، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء.

(٢) كشريح القاضي وأبو مالك، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم، يُنظَر: ابن كثير والطبري وغيرهما في تفسير الآية.

(٣) ابن أبي شيبة (١٤/ ٥٧٤).

إلا عشرة من الرجال.

وصِفتا القوة والأمانة إذا اجتمعتا في إنسان فهو أولى الناس بالقيام بالعمل المطلوب، سواء أكان أجيرًا، أم وكيلًا، أم موظفًا، أم غير ذلك:

الأولى: الأمانة، فلا يخون فيما وُكِل إليه مما يملكه غيره.

والثانية: القوة على ذلك العمل.

والقوة تشمل: الخبرة فيه، والهمة الدافعة لأدائه، والقدرة البدنية.

وكل ذلك كان في موسى عليه السلام.

وإذا لم يكن مع موسى إلا هذه المرشحات - وهى: القوة والأمانة -فإنه أهل لأن يُخطب، وبفقدهما (أى الأمانة والقوة)، أو بفقد أحدهما، يكون هناك خلل في الشخصية، تجعل صاحبها فاقد الأهلية للقيام بعمل من الأعمال.

ومشروعية عرض وليّ أمر المرأة زواجها على الرجل الكفء الصالح، سُنَّة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرْض عمر رضي الله عنه لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، فسكت أبو بكر، واعتذر عثمان، فلما علم النبي ﷺ بذلك طيَّب خاطره وتزوجها، وهكذا عرض الرجل الكبير على موسى عليه السلام أن يزوجه ابنته:

وَلِيُّ الأَمْرِ يَخْطُبُ لِابْنَتِهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ

٢٧- ﴿قَالَ إِنِّيَ[1] أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ[2] عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

وللمرأة الرشيدة البالغة أن تَعرض نفسها على الرجل الصالح، كما رغبت (خديجة) رضي الله عنها في الزواج من النبي ﷺ، فكلّفت غلامها (ميسرة) للقيام بهذه المهمة، وكذا المرأة التي عرضت نفسها على النبي ﷺ فاعتذر لها، فجعلته وليَّ أمرها يزوجها من يشاء، فزوَّجها رجلًا لا

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إنيَ أريد)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ ابن كثير بتشديد النون من (هاتينّ) مع القصر والتوسط والمد وصلًا ووقفًا، والباقون بتخفيفها وعدم المد.

يملك إلا سورتين من القرآن، وكان هذا صداقها، وغير ذلك مما وقع أيام النبوة وبعدها.

فالرجل العاقل يهتم بأن يخطب لابنته أكثر من اهتمامه أن يخطب لابنه، وليس في هذا حياء ولا خجل، بل هو من محاسن الإسلام.

وهكذا خطب رجل مدين، موسى ﷺ لإحدى ابنتيه، وهذه الخِطبة تعطينا درسًا آخر في تزويج الرجل ابنته للشاب الصالح ولو كان معدمًا، وترْك الرجل الفاسق وإن كان ثريًا، أو ذا منصب أو جاه.

لقد وجد الشيخ الكبير أن موسى ﷺ رجل مُعْدِم، فلم يطالبه بشيء من المال، وقال له: أزوجك ابنتي على أن تكون أجيرًا عندي لرعي الغنم ثماني سنوات، مهرًا لابنتي، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ فألزمك بعشر سنوات، أو ما أريد أن أكلفك أعمالًا شاقة.

وكانت هذه الطريقة متبعة في القرى والبدو، في القديم والحاضر، ولم يزل العمل بها في بعض بلاد المسلمين.

وهل تزوج موسى البنت الصغرى أم الكبرى؟ وردت آثار بكل منهما[1].

قال شعيب لموسى: فإن أكملتَ عشر سنوات، فهو إحسان من عندك، وتبرُّع منك، ولا أريد أن ألزمك بالعَشْر، وستجدني إن شاء الله محسنًا لك في المعاملة، وفيًّا بعهدي معك، ليِّن الجانب، وفي هذا ترغيب لموسى ﷺ بسهولة العمل وحسن المعاملة.

٢٨- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ[2] وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾

قال موسى ﷺ: هذا العهد أمر متفق عليه بيني وبينك، وأيَّ المدَّتين قضيت، أكون قد وفَّيت، والله وكيل على ما نقول، يراقبنا ويعلم ما تعاقدنا عليه وتعاهدْنا، فلا عدوان عليّ إذا قضيت الثماني سنوات الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ وأبي ذر أنها الصغرى كما في «فتح الباري» (٥/ ٢٩١) والطبري في الأوسط (٨٣٧٢) و«مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٤) و«علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٨٣) وقد أعله بالإرسال و«تاريخ الخطيب» (٢/ ١٢٨) وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنها البنت الكبرى.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (عليَّ) بخلف عنه، والباقون بسكون الياء المشددة ومعهم يعقوب في وجهه الثاني.

جاء في الحديث إخبارًا عن موسى عليه السلام: أنه آجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه[١].

وروى البخاري وغيره: عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر الأمة فأسأله، فقدمتُ على ابن عباس، فسألته: فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل[٢].

وهكذا انتقل موسى من أمير في قصر ملكي إلى راعي غنم؛ ليعدَّه ربه لتحمل أعباء الرسالة.

قِصَّةُ النَّارِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ

٢٩- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ[٣] ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ[٤] ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ[٥] ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ[٦] مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

الرسالة ذات تكاليف ضخمة وشاقة، متعددة الجوانب والتبعات، تحتاج مع الوحي الإلهي إلى زاد من التجارب وكثرة المواهب، لاسِيَّمَا النبي المرسل إلى شعب بني إِسْرَائِيلَ، هذا الشعب الموصوف بقسوة القلب، ونقض العقود، ونكث العهود، بعد أن استمرأ حياة الذل والاستعباد على يد فرعون وجنده.

وتجربة السنوات العشر لموسى جاءت لِتفْصِل بين حياة القصور، وحياة الجهد ومشاق الدعوة؛ فقد انتقل موسى من حياة البزخ والترف إلى مجتمع الرعاة الكادحين، مع استشعار نعمة الأمن بعد الخوف والمطاردة.

---

(١) أخرجه البزار برقم (١٤٩٥) عن عتبة بن المنذر السلمي وفي سنده ابن لهيعة، كما في «فتح القدير» (٤/ ١٦٦).

(٢) البخاري برقم (٢٦٨٤) و«فتح الباري» (٥/ ٣٤٢) وابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٣).

(٣) قرأ حمزة بضم الهاء وصلًا من (لأهله امكثوا) تبعًا لضم ثالث الفعل، والباقون بكسرها على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني آنست) و (إني أنا الله) في الآية الثلاثين، و(إني أخاف) في الآية الرابعة والثلاثين و (ربي أعلم) في الآية الحادية والثلاثين، وسكنها الآخرون سكونًا مدِّيًا.

(٥) قرأ بفتح ياء الإضافة وصلًا من (لعليَ آتيكم) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر، وسكنها مع المد الباقون.

(٦) قرأ حمزة وخلف بضم الجيم من (جذوة) وعاصم بفتحها، والباقون بالكسر، وكلها لغات.

والرجال العظام لا يزيدهم المال شيئًا، ولا ترفع المناصب من قدرهم، ولا يزيدهم الجاه شرفا، وإنما يزدانون بالمروءة والشهامة والرجولة، وتزكية النفس.

لقد كانت هذه الفترة من حياة موسى ﷺ تهيئة واستعدادًا للأعباء التي ستُلقى على كاهله في المستقبل القريب، وهذا من تربية الله تعالى لموسى، وصُنْعه على عينه سبحانه.

فالعناية الإلهية هي التي جعلَته يتربَّى في قصر فرعون، ويخرج إلى مدين، ثم يعود إلى مصر مزوَّدًا بالوحي الإلهي، والرسالة إلى بني إِسْرَائِيلَ وفرعون وقومه.

وهكذا يتحول الراعي إلى رسول كريم، مكلَّف بتحرير شعب، وتبليغ رسالة، وذلك من تقدير الله تعالى وتدبيره، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طه: ٤٠].

ورسالة موسى هي أضخم رسالة بعد رسالة محمد عليهما السلام، فموسى نبي مرسل لتخليص شعبه من حياة الذل والمسكنة، ومرسل إلى أعتى الملوك، وأقدمهم عرشًا، وأشدهم طغيانًا، وأكثرهم استعبادًا للخلق.

ولأول مرة يصبح بنو إِسْرَائِيلَ شعبًا مستقلًا له حياة خاصة، متحررًا من رواسب عمياء، وعقيدة ضالة منحرفة، في ظل اليهودية الصحيحة قبل تحريفها ونسخها.

وفَّى موسى أطول الأجلين -عشر سنوات- واشتاق إلى أمه وأخته، وبلاده وأهله، فعزم على زيارتهم وخرج بأهله، وكان قد دخل بها من سنتيْن، وكانت حاملًا، ومعها ولد، فخرج بزوجه وولده، وما كان معه من الغنم، وسار بهم في ليلة مظلمة باردة ممطرة، فنزل واديًا، وكلما أوْرى زِنْده لا يُضيء، فتعجّب، وبينما هو في شاطئ الوادي من ناحية الغرب إلى جوار جبل الطور، والوادي عن يمينه، وقد ضل الطريق، إذ رأى على بُعد؛ نورًا ظنه نارًا، فقال لأهله: انتظروا هنا لعلي آتيكم من هذه النار بشعلة نستدفئ بها من البرد، ونهتدي بها إلى معرفة الطريق.

لقد خرج موسى ليقتبس لأهله نارًا، فأخرجه الله إلى ما هو خير من ذلك؛ حيث كلَّمه ربه، ورجع بالنبوة:

٣٠- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

فلما أتى موسى النار، وجدها تضطرم في شجرة خضراء، وناداه الله تعالى من جانب الوادي الأيمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن الذي يكلمك ويخاطبك هو الله رب العالمين، الفعال لما يريد، وقد سمع موسى ما سمع من جهة الشجرة، وأدرك ما سمعه من غير تكييف، ولا تحديد للجهة التي سمع منها النداء، وهذا هو بدء الرسالة، وبدء نزول الوحي على موسى ﷺ.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ذُكرت لي الشجرة التي آوى إليها موسى، فسِرْتُ إليها يومي وليلتي حتى صَبَّحْتُها، فإذا هي سَمُرة خضراء تَرِفُّ، فصلَّيتُ على النبي ﷺ وسلَّمت، فأهوى إليها بعيري وهو جائع، فأخذ منها ملء فيه، فَلاكَهُ فلم يستطع أن يُسيغه فلَفظه، فصلَّيتُ على النبي وسلمت، ثم انصرفت[1].

وقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

وهكذا، أخبر الله تعالى موسى عليه السلام بالوهيته وربوبيته، وأمره بعبادته، ثم لفت نظره إلى ما سيؤيده الله به من معجزتي العصا واليد، فقال:

٣١- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

كان شعيب قد أعطى موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه، قيل: إنها كانت من آس الجنة، حملها آدم معه، فتوارثها الأنبياء، وكان لا يأخذها إلا نبي، فصارت من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم، إلى شعيب، فأعطاها لموسى لما قضى المدة المتعاقد عليها بينهما، وأعطاه ما ولدته بعض أغنامه في العام الأخير.

وقيل: إن شعيبًا قال لموسى: خذ عصا من هذا البيت، وكان الوقت ليلًا، فأخذ عصا، فمسَّها شعيب بيده، ثم قال له: خذ غيرها، فما وقع في يده إلاهي، سبع مرات، فعلم أن موسى سيكون له شأن، فأعطاها له، وقال: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك؛

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير (١٨/ ٢٤٣) وابن المنذر والحاكم وصححه (٢/ ٥٧٧) وقال الذهبي: على شرط الشيخين.

لأن بها تنينًا أخشاه عليك وعلى الغنم، ولكنَّ الغنم أخذت جانب اليمين، ولم يستطع موسى ردَّها فمشى في أثرها، ولما نام موسى جاء التنِّين فحاربته العصا حتى قتلته[1]. وربما تكون قصة التنين من الإِسْرَائِيلِيات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولكنها لا تخلو من موعظة.

فلما كلَّم الله موسى أراد أن يلفت نظره إلى معجزتين يؤيده بهما، ويُمَرِّنُه على استعمالهما:

أما المعجزة الأولى: فهي هذه **العصا** التي في يده، قال الله تعالى له: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها موسى، فقلبها الله حية صغيرة، سريعة الحركة، تتلَوَّى كأنها جانٌّ خفيف الحركة، وحينئذ ولَّى موسى هاربًا، ولم يلتفت إليها من الخوف، فناداه الله قائلًا: يا موسى، أقبل ولا تخف من أيِّ مكروه، فأنت مُؤَمَّن بتأمين الله لك، وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله؟ إنك من الآمنين المطمئنين.

كما قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وقال سبحانه لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

ولن ينالك مكروه من هذا الجان، فوقف موسى في مكانه الأول، هذه هي العصا، فماذا عن اليد؟ قال الله تعالى له لموسى عليه السلام:

٣٢- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ[2] فَذَٰنِكَ[3] بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أما المعجزة الثانية: فهي **اليد**، حيث لفت الله سبحانه نظر موسى عليه السلام إلى يده التي بين جنبيه، فقال له: أدخل يدك في فتحة قميصك، وهي فتحة في أعلى الثوب، مكان دخول الرأس، ثم أمره الله أن يضم يده إليه؛ للتجلُّد وضبط النفس، وعدم الخوف عند انقلاب العصا حية.

---

(١) يُنظَر في قصة العصا: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٠٣)، والنسفي بحاشيته، وغيرهما.

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بضم الراء وإسكان الهاء من (الرُّهْب) وقرأ حفص بفتح الراء وسكون الهاء، والباقون بفتحهما، وكلها لغات.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بتشديد النون مع المد المشبع في (فذانك) والباقون بتحقيقها.

فأدخل موسى يده اليمنى تحت عضده اليسرى، وضم جناحه إليه ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء مضيئة، كأنها قطعة قمر، من غير برص ولا مرض، وكان موسى ﷺ أسمر اللون، كما جاء في البخاري أنه كان آدم.

فإذا هَالَكَ الأمر يا موسى، وأفزَعك تغيير لون اليد فأدخل يدك في جيبك مرة أخرى ترجع اليد إليك كحالتها الأولى ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه].

قال الله تعالى لموسى: فهذان -العصا واليد- معجزتان وحجتان واضحتان تدلان على صدقك، وهما آيتان إلى فرعون وكبار قومه إنهم كانوا قومًا كافرين، خارجين على الحق، وعلى طريق الهدى والإرشاد، فلا يكفيهم مجرد الإنذار، بل لابد من الآيات الخارقة، إن نفعت فيهم! ثم سأل موسى ربه أن يعينه على مهام الدعوة، وذكَر الموانع منها، ليذلّلها الله له. ويزيل عنه ما يخافه من تكذيب قومه له:

مُوسَى يَعْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ بِأَمْرَيْنِ

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ(١) ﴿٣٣﴾﴾

أراد موسى ﷺ أن يطمئن على نجاح دعوته من أمرين، يخاف منهما على تعثُّر مهمته:

أحدهما: قتله للقبطي، قال موسى: يا رب، إني قتلت من قوم فرعون نفْسًا -وهو المصري الذي وكزه فقضى عليه- فأخاف أن يثأروا مني ويقتلوني.

وكان موسى قد ابتُلي بمخاوف وفتون، فأراد أن يطمئن على شدِّ أزره، وإعانته على مهمته، بوجود من يساعده في القيام بواجب الدعوة.

قال مجاهد: كان موسى ﷺ قد مُلئ قلبه رُعْبًا من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم إني أدْرَأُ بك في نحره، وأعوذ بك من شرِّه، ففرَّغ الله تعالى ما كان في قلب موسى، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار(٢). قال موسى ﷺ:

---

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا (يقتلون)، والباقون بحذفها.

هذا: وقد انفرد الحمصى بعدم عدّ (يقتلون) آية، وعدّها غيره.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٧٨).

٣٤- ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ[(١)] رِدْءًا[(٢)] يُصَدِّقُنِىٓ[(٣)] إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ[(٤)]﴾

هذا هو **الأمر الثاني** الذي طلب موسى من ربه أن يعينه به؛ ليزداد قوة في مواجهة فرعون وقومه، وهو عدم فصاحة لسانه بسبب اختلاط لهجته في مدين، أو بسبب الجمرة التي وضعها على لسانه حين خُيِّر وهو في المهد بين التمرة والجمرة.

طلب موسى من ربه أن يعينه على أعباء الرسالة، وعلى مواجهة فرعون، بأخيه هارون، فهو أكبر منه سنًّا، وعنده مقدرة على تلخيص الأدلة، ومجادلة الكفار، والإجابة عن الشبهات، فأرسلْه معي يا رب وزيرًا يقويني ويعينني ويصدقني، فخبر الواحد ليس كخبر الاثنين، وهارون أعرفُ مني بلغة القوم، وأفصحُ مني بلهجة بني إِسْرَائِيلَ؛ لوجوده بينهم، ولأن مدة إقامتي في مدين أثَّرتْ في لغتي بعض الشيء، فأرسل معي أخي هارون يوضح لهم الحجج والبراهين، إني أخاف إن لم يكن معي وزير معين أن يُكذبوني في قولي لهم: إني رسول الله، فأجاب الله سؤاله في الأمرين معًا:

٣٥- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قال تعالى إجابة لموسى على العذر الثاني: سنقويك ونشد أزرك بإرسال هارون معك، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم].

وكان هارون بمصر، فأوحى الله إليه بالنبوة والرسالة في نفس الوقت واللحظة التي طلب فيها موسى من ربه أن يشدَّ أزره بأخيه، ولما وصل موسى إلى مصر وجد هارون في

---

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (معيَ)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بنقل حركة الهمزة من (ردءا) إلى الدال مع حذف الهمزة إلا أن أبا جعفر أبدل التنوين ألفًا وصلًا ووقفًا، ونافع أبدله وقفًا، ووقف حمزة بالنقل.

(٣) قرأ عاصم وحمزة برفع القاف من (يصدقُني) على الاستئناف، أو صفة لرداء، أو حال من الضمير في أرسله، والباقون بالجزم في جواب الأمر، أو جواب لفعل مقدر، دل عليه (أرسله).

(٤) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (يكذبون) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

استقباله نبيًا رسولًا.

قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منَّة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فهي أعظم وأنفع دعوة من أخ لأخيه.

وعن العذر الأول طمأن الله موسى ﷺ بأنه جلَّ شأنه سيجعل لهما حُجة وبرهانًا على فرعون وقومه، ويجعل لهما غلَبة وقوة رهبية في قلوب الأعداء، فلا يصل لكما منهم قتل ولا أذى، ولا أدنى سوء، بسبب إبلاغكما آيات الله، أنتما ومن آمن بكما من المنتصرين على فرعون وقومه؛ وذلك بسبب تأييدي لكما بالمعجزات الباهرات، والآيات الدالة على الحق، وبسبب حمايتي ونصرتي لكما.

وعلى هذا: فيصح الوقف على ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ على معنى: نجعل لكما قوة وتسلُّطًا فلا يصلون إلى أذاكما بسبب حمايتنا لكم.

ويصح الوقف على ﴿إِلَيْكُمَا﴾ قبلها، على معنى: اذهبا بآياتنا الدالة على صدقكما -كالعصا واليد- إلى فرعون وقومه، فالعاقبة لكما ولمن اتبعكما من المؤمنين في الدنيا والآخرة.

ويشهد للمعنى الأول قوله تعالى في شأن محمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ويشهد له أيضًا قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

ولعله هو الأولى؛ لأن المقام مقام طلب العون والنصرة من الله تعالى، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: إن فرعون وقومه لن يصلوا إلى موسى وهارون بأذى، أو قتل، أو مضرة، أو سوء.

ويشهد للمعنى الثاني قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه]. ونحوها من الآيات.

وفي هذا وعد من الله تعالى لموسى ﷺ، قبل أن يلتقي بفرعون، ويواجه ملأه، وقد أنجز الله له وعده، ومكَّنه من العباد والبلاد، وصار له ولمن آمن به الغلبة والظهور، بعد

أن كان وحيدًا فريدًا شريدًا طريدًا.

ويؤخذ من قصة رسالة موسى ﷺ: أن الرسالة فيض من الله تعالى على من اصطفاه من عباده، وأن رسالة محمد ﷺ كرسالة موسى ﷺ؛ حيث جاءته الرسالة بغتةً، فنُودي محمد في جبل غار حراء، كما نُودي موسى في جانب جبل الطور، وأن الخوف قد اعترى كلًّا منهما، وأن الله تعالى قد ثبَّت كلًّا منهما، وكفاه شر أعدائه.

مُوسَى يُوَاجِهُ فِرْعَوْنَ بِمَا أَيَّدَهُ اللَّهُ مِنْ مُعْجِزَاتٍ

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وتطوي السورة الزمان والمكان واللقاء؛ لتنتقل مباشرة إلى مواجهة موسى وهارون لفرعون بآيات الله البينات، والحوار السريع بين الهدى والضلال، والنهاية الحاسمة لفرعون وملئه، وهذا الاختصار في الآيات لم يقف عند العقوبة الدنيوية لهم، بل تابعهُ إلى الدار الآخرة؛ لتمام العبرة والاتعاظ لكل طاغية جبار منازع لله تعالى في ملكوته.

وصل موسى إلى مصر، وصحب أخاه وتوجَّها إلى فرعون، وأخبراه بوجوب توحيد الله سبحانه، وامتثال أمره واجتناب نهيه، وعرضا عليه ما أيدهما الله به من معجزتي العصا واليد، فقال فرعون ومن معه: ما هذا الذي جئت به يا موسى إلا سحر افتريته كذبًا وباطلًا، وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه من التوحيد فيمن مضوْا قبلنا من الأمم، ولا في أجدادنا وآبائنا السابقين، وقد كذبوا في هذا، فقد أرسل الله يوسف ﷺ بالتوحيد قبل موسى، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر] وما جاء به موسى حق من عند الله وليس سحرا ولا مكرا ولا خداعا ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقد ظهر الحق وزهق الباطل، فاعترف أهل الصنعة بأن ما جاء به موسى ليس في قدرة البشر، وهكذا يقرر موسى ﷺ أن ما جاء به من عند الله هو التوحيد والهدى وعليهما يترتب الفلاح في الآخرة:

٣٧- ﴿وَقَالَ(١) مُوسَىٰ رَبِّيٓ(٢) أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ(٣) لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قال موسى لفرعون: إن ما جئتُ به من التوحيد والهدى يعلمه الله، فما قيمة علم آبائكم في جانب علم الله؟! وهكذا لما تمسَّك قوم فرعون بعلم آبائهم تمسَّك موسى ﷺ بعلم الله تعالى، فقال: ربي الذي خلقني وخلقكم أعلم بمن هو على حق منَّا، ومن جاء بالفلاح والرشاد، ومن هو أهلٌ لحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وأهلٌ للنصرة والظفر والتأييد، وسيحكم الله بيني وبينكم بحكمه العادل؛ إنه لا يفلح الكافرون المشركون الذين يكْذبون على الله تعالى، ولا يظفرون بمطلوبهم، وإنما يفوز بالعاقبة الحميدة الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا، ولم يصرح موسى ﷺ بأنه هو الذي جاء بالهدى من عند الله؛ ليرخي لهم حبل المناقشة، وليُكفكف عنادهم وغرورهم، وكأنه يقول لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقد ختمت الآية ببيان أن عاقبة الدار والفوز والفلاح لموسى ﷺ، هو ومن آمن به، وأن الخسارة والهلاك وسوء العاقبة لمن كفر بموسى ﷺ.

فِرْعَوْنُ يَدَّعِي الإِلَٰهِيَّةَ وَيَأْمُرُ بِبِنَاءِ الصَّرْحِ

٣٨- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ(٤) فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ(٥) أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

طوت السورة قصة حشد السحرة وإيمانهم بموسى ﷺ اكتفاء بذكرها في سور: الأعراف، ويونس، وطه، والشعراء.

---

(١) قرأ ابن كثير بحذف الواو من (قال موسى) على الاستئناف، والباقون بإثبات الواو عطفًا على ما قبلها.

(٢) فتح نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ياء الإضافة من (ربي أعلم)، وسكنها غيرهم.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (ومن تكون)، والباقون بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل مؤنث مجازي.

(٤) انفرد العدد الحمصي بعدّ (على الطين) آية، ولم يعدها غيره.

(٥) فتح ياء الإضافة من (لعلي أطلع) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر، وسكنها مدّية الباقون.

وجاء ردُّ فرعون بنفي علمه عن وجود إله غيره، وأنه لو كان هناك إله سواه لعلمه.

لقد كان فرعون يعتقد أنه إله لقومه، بناء على الأساطير الفرعونية السائدة في مصر وقتئذ بجعل الملوك آلهة للناس، ولقهرهم وطاعتهم له.

ومن هنا فقد توجه فرعون إلى أشراف قومه ليبطل قول موسى، ويثبتهم على اعتقاد الإلهية فيه قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يستحق العبادة والطاعة ﴿غَيْرِى﴾ فأنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان لكم إلٰها غيري لعلمته، فقد نفى فرعون علمه بأن يكون هناك إلٰهًا غيره، فهو الإله الوحيد - على حد زعمه -.

وكان فرعون قد جمع أشراف قومه، ونادى فيهم بأعلى صوته، مصرِّحًا لهم بربوبيته ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات].

ودعاهم أيضًا إلى الاعتراف بألوهيته قائلًا: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]. فأجابوه سامعين مطيعين، وسكتوا وسلَّموا شأن الجبناء الجهلاء ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

ثم أخذ فرعون يتظاهر بالجد في طلب الحقيقة، والبحث عن إله موسى، ليؤكد لهم نفْي احتمال وجود إلٰه غيره، فقال لوزيره: أوْقد لي يا هامان على الطين، أي: اللبن النيئ، واصنع لي الحجارة الموقد عليها بالنار، فاجعل لي بناء شامخًا عاليًا لعلي أصعد فوق هذا الصرح، فأنظر إلى إله موسى الذي يدعو إليه، وإني لأظن أن موسى كاذبًا في دعواه أن له إلهًا غيري.

وفي هذا تناقض؛ إذ كيف يكون فرعون إلهًا ويستعين بوزيره هامان، ويُظهر حاجته إليه في بناء الصرح!!

وكلامه فيه إثبات أن لموسى إلهًا، وأنه غير متيقن من كذبه.

وعن هذا الصرح يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. وفرعون بهذا يُظهر تكذيبه لموسى في دعواه أن له إلهًا غير فرعون؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الله تعالى، كما يظهر ذلك في حواره مع موسى ﷺ قائلًا: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

رُوي أن هامان جمع خمسين ألف بَنَّاء، وبنى صرحًا لم يبلغه بناء أحد من الناس، فضرب جبريل الصرح بجناحه، فقطعه ثلاث قطع . . ، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك[١].

والقرآن الكريم لم يصرِّح بأنه قد بُني، وليس هو أحد الأهرامات الموجودة؛ فهي مدافن لهم.

إن فرعون بعزمه على بناء الصرح، ظنَّ أن الله تعالى مع الطيور في الجو، أو لعله جالس على السحاب، وقد تكررت هذه الحماقة في عصرنا، فإن واحدًا من رواد الفضاء الروس زعم أنه بحث عن الله تعالى في جو السماء فلم يجده، بل وجد فقط أحد زملائه الرواد.

وشاء الله أن يحترق ثلاثة من الرواد، وهم يهبطون إلى الأرض اختناقًا من قلة الهواء في الجهاز الذي طاروا فيه.

إن الكفر ضلال بعيد، ولستُ أدرِي كيف يُبحث عن الله في الجو، وهو مُنبت الغذاء في الأرض، وصانع الهواء الذي نستنشقه، ومُنزل الماء وعليه تقوم حياة الأحياء، وآيات الله في الأرض أقرب إلينا من آياته في السماء؟! ولكنه العمى الذي طمس الأفئدة[٢].

وهكذا، تجرأ فرعون على ربه، فكذّب موسى، وادّعى الألوهية، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفَعَل الأسباب ليتوصل بها إلى إله موسى، وقد لعب فرعون بعقول قومه فتابعوه على ذلك.

سَبَبُ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَنَتَائِجُ ذَلِكَ

٣٩- ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

في هذه الآية ذكر الله تعالى السبب الذي حمل فرعون على ادعاء الربوبية وعلى تكذيب دعوة موسى ﷺ، وبيَّن أنه الاستعلاء والتكبر وعدم الانقياد للحق، والتعاظم عن الإيمان بالله تعالى، والتكذيب برسل الله وآياته، وتوهُّم عدم الرجعة إلى الله تعالى في الآخرة للثواب والعقاب، هذا هو السبب في موقف فرعون.

---

(١) من «تفسير النسفي» والخازن للآية.

(٢) الشيخ محمد الغزالي، «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص٣٠٠ .

لقد زعم فرعون أنه لا بعث ولا نشور، ولا رجوع في الآخرة لمن كفر به، وظن أنه في منعة من عذاب الله، فتعالى وتطاول، وتجرأ على الله تعالى، وطمع في الوصول إلى درجة الربوبية والإلٰهية، فكانت عاقبته وخيمة ونهايته أليمة. قال تعالى:

٤٠- ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وفي هذه الآية بيان نتيجة التطاول والغرور، والتكذيب بالبعث والحساب والجزاء؛ حيث ينتقل السياق القرآني متجاوزًا ما فصَّله في سور أخرى، من خروج بني إِسْرَائِيلَ من مصر وعبورهم البحر، ينتقل مباشرة إلى نهاية فرعون وقومه، وأنه نُبذ في البحر الأحمر، كما يُرمى الحجر، أو كما تُقذف الحصاة ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهي نهاية كل ظالم متكبر، مُكذِّبٍ لله ورسوله، ومصير كل ظالم بلغ من الكفر والطغيان مداه؛ لينظر كيف تم استئصال باطلهم وإزهاق أرواحهم، فيعتبر بسوء عاقبتهم.

وهذا هو موضع الفائدة من سَوْق هذه القصة؛ ليعتبر مُكذِّبو خاتم المرسلين ﷺ، فيقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، ويوقنوا أن ما أصاب المكذبين السابقين من عقاب سيصيبهم لا محالة إن عاجلًا أو آجلًا، فيدفعهم ذلك إلى تدارك ما بقي من أعمارهم قبل أن يموتوا على الكفر.

لقد دعا فرعون قومه إلى الكفر - وهو في الدنيا - فعاقبهُ الله على ذلك بأن جعله إمامًا لقومه في نار جهنم يوم لقائه، قال تعالى:

٤١- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

أي: وكما كانوا في الدنيا قادة يدعون الناس إلى الكفر والضلال، فإنهم يكونون قادة إلى النار يوم القيامة كذلك، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ﴾ [هود: ٩٨]. وهم لا يمنعون من عذاب الله تعالى، ولا يجدون من ينصرهم من الله.

والمعنى: أن الله تعالى كما جعل فرعون وقومه قادة في الكفر والفسوق والعصيان، يقتدي بهم أهل النار في الدنيا، جعلهم كذلك قادة إلى النار، يمشي خلفهم من اتبعوهم في الدنيا، ويوم القيامة لا يجدون من يدفع عنهم عذاب الله تعالى بأية صورة من الصور؛ وذلك بسبب إصرارهم على الكفر بالله تعالى، وتكذيبهم رسول الله تعالى، وزيادة في عقوبتهم،

فإنهم ملعونون في الدنيا، ومبعدون من رحمة الله في الآخرة، قال تعالى:

٤٢- ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ولعنة الله تلحقهم في الدنيا والآخرة على ألسنة خلقه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ فهم في الدنيا في خزي وذُلّ وعذاب، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وهم يوم القيامة من المبعَدين المطرودين الهالكين، المذمومين بين الناس، مقابل استعلائهم وتجبُّرهم وتطاولهم على الله تعالى، وعلى عباد الله، فهم في ذم ومقت وغضب من الله، ومن خلْق الله، ومن أنفسهم.

لقد كان فرعون وقومه؛ آخر من أهلكهم الله بعذاب عام، وبعد نزول التوراة انقطع هذا الإهلاك العام، وشُرع جهاد الكفار بالسيف:

الْعِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

٤٣- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وتأتي آخر آية من قصة موسى عليه السلام في هذه السورة؛ لتعجِّل بحظ موسى العظيم، وعاقبته الكريمة بعد بيان مصير فرعون الأليم، وعاقبته الوخيمة.

فتبيِّن أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى من بعد ما أهلك الأمم التي كذبت رسلها قبله، فأبادهم الله واستأصل شأفة الكفار منهم، كأقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وغيرهم.

وتفيد هذه الآية، أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن خلقه بعد نزول التوراة، فلم يعذب الله بعدها في الدنيا أمة أنزل لها كتابًا تهتدي به، وإنما أمر المؤمنين من كل أمة أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين والمكذبين، ونزلت التوراة لتبصِّر بني إِسْرَائِيلَ بما ينفعهم وما يضرهم، ويميزوا بها بين الحق والباطل، والهدى من الضلالة، وهي -أي التوراة الحقيقية- رحمة لمن آمن وعمل بها، ممّن لم يحرفوا ويغيروا فيها، فهم المنتفعون بها، أما من كذّب بها في عصر موسى عليه السلام، وعصى الله سبحانه، فإنها تكون حجة عليه، وقد أنزل الله عليهم التوراة لعلهم يتذكرون نعم الله عليهم، فيشكروه عليها، ولا يكفروه.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما أهلك الله قومًا، ولا قرنًا، ولا أمة، ولا أهل قرية، بعذاب من السماء، منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مُسخت قردة»**[1].

وفي لفظ لأبي سعيد أيضًا يرفعه إلى النبي ﷺ: **«ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى»**، ثم قرأ الآية[2].

وهكذا تُبيِّن قصة موسى وفرعون أن الأمن لا يكون إلا في جانب الله تعالى، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن منهج الله تعالى، وهكذا كان المسلمون المستضعفون في مكة، وهم بحاجة إلى الأمن والاطمئنان، وكان المشركون المستكبرون في تجبر وطغيان، وهي معانٍ متجددة دائمًا في كل زمان ومكان.

وهذه الآية ردٌّ على من كذَّب رسالة موسى ﷺ وغيره، فقال: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [٣٦، والمؤمنون: ٢٤].

وردٌّ على من قالوا عن النبي ﷺ بتلقين من اليهود: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [٤٨]. وردٌّ على من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

والقرآن بهذه الآية التي نحن بصددها يدمغ باطلهم بإلزامهم نقيض قولهم، وإقامة الحجة عليهم.

وهكذا يقول المكذبون بخاتم الرسل ﷺ؛ لإبطال رسالة محمد ﷺ، وقد خاطب الله محمدًا بما خاطب به موسى، وردَّ على من كذَّبوا محمدًا كما ردَّ على من كذَّب موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩١): رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا، ورجالهما رجال الصحيح، وهو في «كشف الأستار» للبزار برقم (٢٢٤٨) والحاكم (٢/ ٤٠٨) والطبري (١٨/ ٢٥٩).

(٢) «مسند البزار» برقم (٢٢٤٨) «كشف الأستار»، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٨): رواه البزار موقوفًا ومرفوعًا، ورجالهما رجال الصحيح، ورواه أيضًا ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٨١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: ١٩].

وإلى هنا تكون السورة قد تحدثت عن ولادة موسى ﷺ ووجوده في قصر فرعون، وعودته إلى أمه، وبلوغه سن الأشد، وقتْله لواحد من أهل مصر خطأ، وخروجه من مصر إلى مدين، وعودته بأهله إلى مصر بعد عشر سنوات، ونزول الوحي عليه وهو في طريق العودة إلى مصر، وتبليغه الرسالة إلى فرعون وقومه، ونهاية فرعون وعاقبته القبيحة.

ولمّا قص الله تعالى على نبيه محمدًا ﷺ قصة موسى ﷺ، وفيها من أخبار الغيب، بيّن الله سبحانه أن هذا خبر إلهي ليس للرسول طريق إلى معرفته إلا عن طريق الوحي.

ثَلَاثَةُ تَعْقِيبَاتٍ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى ﷺ

التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: كَيْفَ عَرَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَانِبَ الطُّورِ الْغَرْبِيَّ

٤٤- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾

ثم توجهت السورة بعد قصة موسى إلى صاحب الرسالة الخاتمة، وكتابه المنزل من عند الله، وشبهات المشركين والمكذبين في ذلك، فمن الذي أعلم محمدًا ﷺ ما حدث لموسى؟

هل كان محمد عند الجانب الغربي من جبل الطور حين كلّف الله موسى بالرسالة؟

أو هل كان محمد ﷺ عند جبل الطور حين نادى الله موسى وأنزل عليه التوراة؟

أو هل كان محمد مقيمًا في أهل مدين حين تزوج موسى ﷺ، وقضى الأجل المضروب بينه وبين شعيب ﷺ؟

والجواب: إنه الوحي المنزل على خاتم الرسل ﷺ.

فبعد نهاية قصة موسى وفرعون يأتي التعقيب عليها؛ ليدل على صدق الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، ويبرهن على صدق نبوته ﷺ؛ حيث أخبر عن الغيب الماضي، كأنه شاهد عيان، مع أنه رجل أُمي، نشأ في بيئة وثنية لا يقرأ ولا يكتب، ونشأ في أمة أُمية لا تعرف شيئًا، ولم ينزل عليها كتاب سماوي قبل القرآن، فمن أين جاءته هذه الأنباء؟

وما كنتَ -أيها الرسول الكريم- بجانب الجبل الغربي، في المكان الذي كلّم الله فيه

موسى، وأوحى إليه بالنبوة والرسالة، ما كنتَ حاضرًا في هذا المكان حين كلَّفناه، فأمرناه ونهيناه، حتى يقال: إن هذه المعلومات وصلت إليك من هذا الطريق، فالآية تنفي وجود النبي ﷺ، وحضوره في الزمان والمكان الذي قضى الله فيه أمر النبوة لموسى حين تلقاها من ربه بجانب الطور الأيمن.

إن تحديد المكان الذي نزلت فيه الرسالة على موسى عليه السلام من أقوى الأدلة على صدق محمد ﷺ.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي:

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ مُقِيمًا بَيْنَ أَهْلِ مَدْيَنَ مُعَاصِرًا لِأَحْدَاثِهَا

٤٥- ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

هذه الآية لبيان أن معالم الرسالة قد اندثرت بين كثير من الرسالات، فكان لابد من تجديد الوحي وتصحيح المفاهيم التي اختلفت وتبدلت؛ بسبب طول المدة بين رسالة موسى ورسالة محمد.

أي: ولكنا خلقنا بعد زمانك وزمان موسى، أممًا وقرونًا كثيرة، فطال عليهم الزمن؛ حيث كانت الفترة بين إسماعيل ومحمد تزيد على ألفي سنة اندرست فيها معالم رسالة إسماعيل ﷺ، فكانت الحكمة تقتضي إرسال محمد ﷺ؛ ليحذِّر الناس من عاقبة الشرك، كما كانت الفترة طويلة بين كثير من رسل الله، فنسي الخلقُ عهد الله، وتركوا أمره ونهيه، واقتضى الأمر تجديد الرسالة.

قال الشوكاني والبغوي في تفسيرهما: وقد استُدِلَّ بهذا على أن الله تعالى قد عهد إلى موسى عهودًا في شأن محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر، ومضت القرون بعد القرون، نسي بنو إِسْرَائِيلَ تلك العهود، وتركوا الوفاء بها. اهـ

ولما طالت الفترة التي بين الرسل، ونَسيت الأمم تعاليم الوحي، وغيَّروا وبدَّلوا شرائع الله وأحكامه، لزم تجديد الوحي، بعد أن عميت عليهم الأنباء، فأرسلنا محمدًا ﷺ.

وقد أنزل الله تعالى على محمد ﷺ يحذر أمته أن لاَ يتشبهوا بأهل الكتاب في قسوة

القلب بعد طول الأمد، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى في شأن اليهود الذين حرَّفوا كلام الله، وتركوا كثيرًا منه:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وهكذا فقد أرسل الله موسى بعد فترة من الرسل، كما أرسل محمدًا بعد فترة من الرسل، فنسي المشركون والمكذِّبون رسالة موسى، كما نسوا رسالة محمد لمَّا تطاول الزمن بعدهما.

فالسبب الذي من أجله قصَّ الله على نبيه محمد أخبار الأمم السابقة: أنَّ بين موسى ومحمد أزمانًا طويلة، تغيَّرت فيها الشرائع والأحكام، فاقتضى الأمر تجديد الوحي وتصحيح المفاهيم.

والمعنى: وما كنت -أيها الرسول الكريم- مقيمًا بين أهل مدين معاصرًا لتلك الأحداث، فتعْلَم منهم خبر موسى وشعيب وابنتيه، وتتلو قصتهم على أهل مكة، ولكنَّا أخبرناك بذلك عن طريق الوحي والرسالة، ولا سبيل لك إلى علمه بدون الوحي.

التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ:

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ حَاضِرًا وَقْتَ نِدَاءِ اللَّهِ لِمُوسَى وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ

٤٦- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

في هذه الآية نفي لمشاهدة النبي ﷺ للمكان الذي نزلت فيه التوراة على موسى عليه السلام، ولكنه عرف ذلك عن طريق الوحي الذي أنزله الله تعالى عليه رحمة للمؤمنين، وإنذارًا لقوم أصرُّوا على تكذيبهم وشركهم الذي كانوا عليه قبل بعثتك، أي: في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

أي: وما كنت -أيها الرسول الكريم- بجانب طور سيناء وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه، حين أتى إلى الميقات ومعه السبعون من قومه لإنزال التوراة عليه، كما قال تعالى:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات].

وقال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠]. وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى في رجوعه من ديار مدين.

فالمعنى: إنك -أيها الرسول- لم تشهد شيئًا من ذلك حتى تعلمه، فتخبر قومك به، ولكنا أوحيناه إليك، وقصصناه عليك؛ لتخوِّف بذلك قومًا لم يأتهم رسول قبلك؛ حتى يؤمنوا بك، ويدخلوا في دينك.

والمراد بهم: أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وهي قرابة ستة قرون ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى لميقات ربه، وإنزال ألواح التوراة عليه.

وقيل: إن المنادَى هو أمة محمد ﷺ، كما ورد عن أبي هريرة ﷺ قال: نُودوا أنْ يا أمة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني[1].

قال وهب: وذلك لما ذكر الله تعالى لموسى فضل محمد وأمته، قال: يارب أرينهم، فقال الله تعالى: إنك لن تدركهم، وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يارب[2].

ثم بيَّن سبحانه أن ما أوحى به إلى محمد ﷺ وما قصَّه عليه من أخبار الرسل والأمم - إنما هو رحمة من الله تعالى؛ لينذر قومًا لم يأتهم نذير قبلك -أيها الرسول- في الفترة ما بين عيسى ومحمد، أو ما بين إسماعيل ومحمد لعلهم يتذكرون ما جئت به من خير فيتبعوه، ويبتعدوا عن الشر الذي نهيتهم عنه.

ونظير هذه الآيات المعقِّبة على قصة موسى ﷺ ما ختم الله به قصة نوح ﷺ في سورة هود في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير (٤٠٢) بتصحيح محققه، وابن جرير (٢٠/ ٨١) وصححه الحاكم (٢/ ٤٠٨) على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وصححه ابن أبي حاتم برقم (٣٣٥).

(٢) «فتح القدير للشوكاني» (٤/ ١٧١) بتحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة.

وما ختم الله به قصة يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف].

وما ختم الله به قصة موسى في سورة (هود) عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود].

وما ختم الله به قصة مريم في سورة آل عمران في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران] وهكذا، ثبت بالدليل القطعي أن محمدًا ﷺ قد علم قصة موسى وغيرها عن طريق الوحي، وأن الرسول ﷺ لم يذهب إلى أماكن هؤلاء الرسل، ويشاهد أحداثها أو يحضر مشاهدها.

وقد جمع الله تعالى لرسوله محمدا ﷺ في التعقيب على قصة موسى عليه الصلاة والسلام بين ثلاثة أحوال عظيمة، وهي:

أوَّلًا: كانت بداية أمر موسى عليه السلام بإعداده لتلقي الوحي بين أهل مدين.

ثانيًا: ومناجاة موسى واصطفاؤه، وتكليم الله تعالى له في جبل الطور.

ثالثًا: ثم إنزال التوراة عليه حتى تكامل الدين واستقر الشرع في عهده.

إِرْسَالُ الرُّسُلِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَقَطْعِ الْمَحَجَّةِ

٤٧- ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

هذه الآية تشير إلى أنَّ من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم، أنْ يتعهدهم ببعثة الرسل؛ لتذكيرهم بعهد الفطرة المأخوذ عليهم، وتشريع ما فيه صلاحهم وسعادتهم، كلما طالت السنون، وانقرضت القرون، ولولا هذه الرحمة بتذكيرهم وإنذارهم لكانوا مستحقين لحلول المصائب بهم، وذلك أنه لَمَّا بيَّن ﷻ أن رسالة محمد ﷺ رحمة للناس؛ لتبليغهم ما كلَّف الله به عباده، بيَّن كذلك أن هذه الرسالة لإقامة الحجة على الناس في الدنيا؛ حتى ينقطع عذرهم إذا نزلت بهم مصيبة، وعندما يحاسبون يوم القيامة، ويُنزل الله بهم

عذابه بسبب كفرهم؛ لئلَّا يقولوا: ربنا هلَّا أرسلت إلينا رسولًا يبلغنا آياتك فنتبعها، ونكون من المصدقين بها العاملين بمقتضاها، ولو لم يحتجُّوا بعدم الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة في الدنيا على كفرهم، ولَمَا بعثناك إليهم رسولًا، ولكنا بعثناك إليهم لئلَّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام].

وكما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وهذا البشير النذير أرسله الله تعالى لإقامة الحجة وقطع المحجة؛ حتى لا يقول الكفار عند نزول العذاب بهم: ربنا هلَّا أرسلت إلينا رسولًا من قبل أن ينزل بنا عذابك، فنتبع آياتك المنزلة في كتابك، والدالة على صدق نبيك، ونكون من المؤمنين بك.

الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ يُكَذِّبُونَ التَّورَاةَ وَالْقُرآنَ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ

٤٨- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ[1] تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ولما جاءهم محمد ﷺ بالحق الذي لا مرية فيه، ومعه من المعجزات والآيات ما يُلزِمهم الحجة، قال المكذِّبون به على وجه العناد والتعنت والجحود: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: هلَّا أوتي محمد من المعجزات الحسية، مثل ما أوتي موسى من: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونقص الزروع والثمرات، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من المعجزات الحسية، كما أيَّده الله بالتوراة التي نزلت عليه.

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (قالوا سِحْران) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما سحران، والضمير يعود على القرآن والتوراة، وقرأ الباقون (ساحران) تثنية ساحر، خبر لمبتدأ محذوف أيضًا، أي: هما ساحران، أي: محمد وموسى عليهما السلام.

قيل: إن اليهود أرسلوا إلى قريش، أن يسألوا محمدًا ﷺ مثل ما أوتي موسى من المعجزات الحسية، فقال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: أو لم يكفر اليهود بما أنزله الله على موسى، ولم تنجع فيهم هذه المعجزات؟ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس].

فكيف يطلبونها وقد كفروا بمثلها من قبل، مما أيدنا به موسى عليه السلام، وهذا تناقض وإبطال للحق بغير دليل.

ومن مظاهر كفر بني إِسْرَائِيلَ أن الذين نجوا من الغرق منهم طلبوا من موسى ﷺ -بعد نجاتهم مباشرة- أن يصنع لهم وثنًا يعبدونه كسائر الوثنيين، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثم قال تعالى مخبرًا عن قول اليهود والمشركين عن موسى ومحمد عليهما السلام: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعني: أن التوراة والقرآن من قبيل السحر، تعاون كل منهما على تصديق الآخر.

وفي القراءة الأخرى: ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، والمراد: محمد وموسى عليهما السلام.

ويصحُّ أن يكون القائل هم المشركون وحدهم، وأنهم قد أعلنوا كفرهم بالتوراة؛ لأنها تصدق القرآن.

وَرَدَ أن مشركي مكة بعثوا إلى رؤساء اليهود بالمدينة، يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أن نعْته موجود في التوراة، فلما أُخبر المشركون بقول اليهود قالوا: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بالتوراة وبالقرآن، وبمحمد وبموسى ﴿كَٰفِرُونَ﴾ وهذا تصريح منهم بالكفر والإصرار على الطغيان والجحود.

وقال سعيد بن جبير، وأبو رزين في: (**سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا**) هما: موسى وهارون.

قال ابن كثير: وهذا قول جيد قوي.

قلت: فيكون هذا من كلام مَنْ كفر بموسى، كفرعون وقومه.

والأَوْلى حمله على من كفر برسالة موسى ورسالة محمد، فقد وصفوهما بالسحر؛ لأن سياق الآية في اليهود والمكذبين بخاتم المرسلين ﷺ.

ولكن هل كفرهم هذا طلبًا لما هو خير منهما، أم هو مجرد هوى، فإن كان الأمر كذلك، فليأتوا بما هو أهدى من القرآن كي نتبّعه معهم! وهذا معنى قوله تعالى:

٤٩- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

أمر الله سبحانه رسوله محمدا ﷺ أن يتحدى المكذبين بالتوراة والقرآن، ويُفحمهم بما يُخرس ألسنتهم، فيقول لهم: إن كنتم قد كفرتم بهذين الكتابين مع ما فيهما من الشرائع، والأحكام، ومكارم الأخلاق، فَأْتُوا بكتاب مُنزل من عند الله هو أهدى وأقوم من التوراة والقرآن أتَّبعه، إن كنتم صادقين في زعمكم أنهما سحران، أو أن محمدًا وموسى ساحران، وليس في وسعهم أن يأتوا بمثلهما، فوجب الإيمان بهما والعمل بما فيهما، أي العمل بالتوراة مدة صلاحيتها في عهد موسى عليه السلام.

ومن المعلوم بالضرورة أن الله تعالى لم يُنزل كتابًا هو أكمل، ولا أشمل، ولا أفصح من القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام].

ويليه في الشرف، الكتاب الذي أنزله الله على موسى، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد نزَل الإنجيل معتمدًا على ما في التوراة من التشريع، ومتمِّمًا لها، ومُحِلًا لبعض ما حرَّم الله على بني إِسْرَائِيلَ من الطيبات عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وبعد الإنجيل أيَّد الله نبيه محمدًا ﷺ بكتاب جدَّد فيه الرسالات الأولى، وصحح فيه ما امتدت إليه أيدي البشر بالتحريف والتغيير في الكتب السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٥٠- ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

فإذا لم يأت هؤلاء المكذبون بكتاب هو أهدى من التوراة والإنجيل، فهم إذن متبعون لأهوائهم، ولا يوجد أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ٢٣] قال تعالى:

أي: والذين تدبروا القرآن، وانتفعت أفئدتهم بالوحي، هدموا الأصنام، وحاربوا ألوان الشرك بالله، وأناروا بالتوحيد مشارق الأرض ومغاربها، ومن يكابر ولم يجنح إلى الحق من الكفار الجاحدين فهو متبع لهواه، ولا يستند إلى دليل ولا برهان.

والمعنى: فإن لم يجيبوك -يا محمد- إلى ما طلبت منهم من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين: التوراة والقرآن، فاعلم أنه إنما نزل بعلم الله، ولا حجة لهم في كفرهم، وإنما هم قوم اتبعوا أهواءهم، فهما طريقان لا ثالث لهما: إما إيمانًا، وإما كفرًا وتكذيبًا وشقاقًا، ولا أحد أكثر ضلالًا ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، والله تعالى لا يهدي القوم الظالمين، فلا يوفقهم للحق؛ لأنهم خالفوا أمر الله، وتجاوزوا حدوده، وكذَّبوا رسله وكتبه، وعُرض عليهم الهدى فلم يقبلوه، فسدُّوا على أنفسهم أبواب الخير، وفتحوا عليها أبواب الغواية، وصار الظلم والعناد وصفًا لهم، والظالم في شقاء وهلاك، بعيد عن الهداية، وبعيد عن الطرق الموصلة إلى رضوان الله تعالى.

صِلَةُ الْقُرْآنِ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ

٥١- ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

أي: وهذا القرآن جاء موصولًا بما قبله من الكتب السماوية؛ لبيان أخبار الأمم الماضية، وقد أقام الله الحجة على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ، وقطع عذره بوصول هذا القرآن إليه، وأكد سبحانه في هذه الآية أنه قد أنزل هذا القرآن كما أنزل التوراة والإنجيل قبله، ووصل كلًّا منها بالآخر، وأتبع بعضها بعضًا، وبيَّن فيها أخبار الأمم الخالية، وبيَّن كيف أن الله تعالى عذَّبهم بتكذيبهم، وأوصل لهم خبر الآخرة وهم في الدنيا، كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، وقد فصَّلنا ذلك، وبيَّناه لعلهم يتعظون ويعتبرون.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في هذا القرآن ففصَّلناه وبيَّنا ما فيه من الوعد والوعيد، والقصص والعبر، والأحكام والتشريع، والمواعظ والنصائح؛ ليتعظوا ويتذكروا ما فيه.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا منهم[١].

وما فصَّله الله تعالى من أخبار الأمم الماضية في كتابه، وما أنزله بمن كذَّب رُسلَه موجَّه إلى الخلق جميعًا، وهم: أمة الدعوة من اليهود والنصارى، وسائر الملل والنِّحَل مِن كل مَن يطلب منهم الدخول في الإسلام إلى يوم القيامة، ويشمل أيضًا أمة الإجابة الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ.

والجميع مطالبون بالإيمان والعمل الصالح، والتخلي عن الشرك والكفر والمعاصي؛ للفوز بسعادة الدارين.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ عَنْ قَنَاعَةٍ

٥٢- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

مدح ﷻ فريقًا من أهل الكتاب -اليهود والنصارى- آمنوا بالقرآن قبل نزوله من الذين لم يُبدِّلوا ولم يُحرِّفوا، آمنوا بالقرآن وبمحمد ﷺ، وصدقوا بهما فبينت هذه الآية أن الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل قبل القرآن -ممن أسلم من أهل الكتاب- هم بهذا القرآن يُصدِّقون.

فالآية تعني: من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب بمقتضى ما بشرت به كتبهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٣٧٠) و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٦٥) و«المعجم الكبير» للطبراني (٥/ ٤٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٨): أخرجه الطبراني إلى رفاعة بإسنادين، أحدهما متصل ورجاله ثقات، وصحح إسناده محقق ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران].

الْقُرْآنُ يَصِفُ مَنِ اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَبْعَةِ أَوْصَافٍ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ

٥٣- ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقد حفل الإسلام بمن أسلم من أهل الكتاب، ورحَّب بهم أعظم ترحيب فوصفهم بأوصاف سبعة:

أولها: تصديقهم للقرآن عند استماعهم له، واعترافهم بأنه حق مُنزل من عند الله، وأنهم كانوا قبل التصديق به مسلمين موحدين لله ﷻ، وذلك أنهم إذا قرئ عليهم القرآن اطمأنوا له، وآمنوا به، وقالوا: هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التلاوة؛ فهم قبل نزول القرآن كانوا مؤمنين بأن الله تعالى سيبعث محمدًا ﷺ، ويُنزل عليه القرآن، وكانوا مسلمين موحدين، فدين الله واحد، وهو الإسلام، ورأسه التوحيد.

فالمعنى: إن من اليهود والنصارى الذين نزل عليهم الكتاب قبل محمد ﷺ من إذا يُتلى عليهم القرآن قالوا: آمنا به وصدقناه؛ فهو الحق الذي لا باطل معه، لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذُكر في الكتب واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموصلة لدار النعيم، وهو الهداية التي لا تشوبها ضلالة، وقد كنا قبله موحدين، مخلصين لله تعالى.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لَهُمْ

الْوَصْفُ الثَّانِي: مُضَاعَفَةُ الْأَجْرِ لِمَنْ آمَنَ بِالرَّسُولَيْنِ: السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ

٥٤- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

في هذه الآية أربعة أوصاف لمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب، وهي:

١- أن الله تعالى يضاعف لهم الأجر.

٢- صبرهم على الطاعة وعلى الأذى الذي يلحقهم.

٣- مقابلة الشرك بالتوحيد والمعصية بالطاعة.

٤- إنفاق المال في الواجبات والمستحبات.

أي: وضِمْن الحفاوة بمن آمن من أهل الكتاب بالرسالة الأخيرة، ما جاء في هذه الآية من بيان أنهم يؤتون أجرهم مرتين، أجرًا على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني، وذلك بسبب صبرهم وثبوتهم على العمل، دون شك ولا شبهة.

إنهم يُعطَون أجرهم مرتين على إيمانهم بالرسول السابق والرسول اللاحق؛ لأنهم آمنوا بكتابهم، ثم آمنوا بالقرآن، وذلك بالنسبة لمن أدرك رسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب قبل موته.

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما: من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ -واللفظ لمسلم- أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة يُؤتَوْن أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدَّقه فله أجران، وعبد مملوك أدَّى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذَّاها فأحسن غذاءها، ثم أدَّبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»**[1].

فهم يُعطَون أجر إيمانهم السابق وأجر إيمانهم اللاحق.

ومما قاله النبي ﷺ يوم الفتح من حديث أبي أمامة ﷺ: **«من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا، وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره، وله ما لنا وعليه ما علينا»**[2].

فأهل الكتاب يُؤتَون أجر إيمانهم برسولهم موسى أو عيسى عليهما السلام في مدة

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٤) و«صحيح البخاري» برقم (٩٧، ٢٥٤٤، ٢٥٥١) والترمذي (١١١٦) والنسائي (٣٣٤٤) وابن ماجه (١٩٥٦) وأحمد (١٩٥٣٢).

(٢) أخرجه أحمد عن أبي أمامة. «المسند» (٥/٢٥٩) وهو برقم (٢٢٢٣٤) قال محققوه: صحيح، وفيه ابن لهيعة ضعيف، لكنه قد توبع، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٧٨٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٧١) والطبري في التفسير (٢٧/ ٢٤٤).

صلاحية الرسالة، ويُؤتَون أجر إيمانهم بالرسول الخاتم إذا أدركوا رسالته.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الصَّبْرُ

فهم يُعطَون أجرهم مرتين؛ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على أذى قومهم، وعلى أذى أهل ملتهم.

والصبر من أعظم خصال البر وأجمعها للخيرات والمبرات، وأعونها على الزيادة من الصلاح والورع، فهم يصبرون على الإسلام الخالص، ويصبرون على تكاليف الدعوة.

ويثبتون على هذا الإيمان دون زحزحة ولا ارتياب، وقد وصف الله أولي الألباب بأنهم يصبرون ابتغاء وجه ربهم كما جاء في آية سورة الرعد ٢٢ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ووصف الله فريقًا من أهل الكتاب بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾

أي: إن أهل الكتاب الذين أسلموا، يدفعون الشرك بالتوحيد، ويدفعون أذى المشركين بالعفو والصفح، ويدفعون المعصية بالطاعة، وهذا من سماحة النفوس بالإحسان، وفية استعلاء على شهوة النفس؛ حيث لم يقابلوا السيئة بمثلها، فهم يحسنون لكل أحد، حتى لمن أساء إليهم بالقول أو الفعل، ولا يوفّق لهذا إلا ذو حظ عظيم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت] ووصف الله أولي الألباب بقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

أي: إن أهل الكتاب الذين ملأ الإيمان قلوبهم يعملون بشرائع الإسلام، فهم يُخرِجون زكاة أموالهم، ويتصدَّقون على المحتاج بفضول أموالهم، ويبذلونها في الطاعة وفي وجوه الخير، وهذا من سماحة النفوس بالمال، وفيه استعلاء على شهوة المال؛ حيث ينفقون مما رزقهم الله في سبيل الله من وجوه النفقة الواجبة والمستحبة.

وقد استحقوا الأجر مرتين؛ لأنهم خوطبوا أوَّلًا من جهة نبيهم فآمنوا به، ثم خوطبوا

ثانيًا من جهة خاتم الرسل فآمنوا به، فلهم أجر الملَّتين، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل، وصهيب، وبعض يهود المدينة كعبد الله بن سلام، ورفاعة بن رفاعة القرظي.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ مِنَ الْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ

٥٥- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾

أي: إنهم إذا سمعوا القول الباطل، وساقط الكلام، وما لا فائدة فيه من جاهل خاطبهم به، أعرضوا عنه ولم يُصغوا إليه، وقالوا مقالة عباد الرحمن، في أدب جم، ورغبة في الهدى، ودعاء بالخير: نحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم، وكلٌّ منا يتحمل تبعات عمله، فأنتم لن تسمعوا منا إلا خيرًا، ولن نخاطبكم بمقتضى جهلكم، وهذا خير ما يقوله الدعاة إلى الله تعالى، فيتبرؤون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل، ويترفعون بأنفسهم عن هذا المستوى الهابط، قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون] وقال تعالى في وصف عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان]

قال الصاوي في شأن من دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب: كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبًّا لكم، أعرضتم عن دينكم وتركتموه؟ فيُعرِضون عنهم، ويقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم(١).

وهكذا مدح الله تعالى مؤمني أهل الكتاب بالإيمان، ثم مدحهم بالإحسان، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: عدم مخالطة الجاهلين إلا لحاجة:

إن أهل الكتاب الذي حسُن إسلامهم لا يحبون مخالطة الجهال بالله و بدينه الحق، وأنَّ مِنْ خلُقهم طلب العلم ومكارم الأخلاق، فنحن ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. ولا نرضى لأنفسنا هذا المرتع اللئيم.

أسباب النزول: وهذه الآيات ذكر المفسرون في سبب نزولها روايات:

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/ ٢٢١).

١- منها: أنها نزلت في سبعين من القساوسة، بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب، فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا وأسلموا، ثم عادوا، وأتوا بأموالهم لمواساة المسلمين الفقراء، قاله سعيد بن جبير.

٢- ومنها: أنها نزلت في وفد نصارى نجران، نحو عشرين رجلًا قدموا على النبي ﷺ بمكة حين بلغهم خبره، فكلموا النبي ﷺ وسألوه، ثم قرأ عليهم القرآن، ففاضت أعينهم بالدمع، واستجابوا لله والرسول، ثم اعترضهم أبو جهل ونفر من قريش، وعيَّروهم بتركهم دين من خلفهم، فقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين[١].

٣- وقال قتادة: نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعة من الحق، يأخذون بها وينتهون إليها، حتى بعث الله محمدًا فآمنوا به وصدَّقوه، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وذُكر منهم سلمان الفارسي، وعبد الله بن سلام[٢].

٤- ومنهم وفد نصارى الحبشة، اثنا عشر رجلًا، بعثهم النجاشي ليستعلموا عن أمر النبي ﷺ بمكة، فلما جلسوا معه آمنوا به، وكان أبو جهل قريبًا منهم يسمع ما يقولون، فلما خرجوا تبعهم، وقال لهم: خيَّبكم الله من ركْب، وقبحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدقتموه؛ فقالوا: سلام عليكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ولما رجعوا إلى النجاشي أسلم، وأسلم معه بعض نصارى الحبشة[٣].

٥- وأخرج البخاري في تاريخه عن علي بن رفاعة قال: كان أَبِي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب، وكانوا عشرة، فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم، ويضحكون منهم، فأنزل الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[٤].

٦- وقال الضحاك: ناس من أهل الكتاب آمنوا بالتوراة والإنجيل، ثم أدركوا محمدًا ﷺ، فآمنوا به، فآتاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا؛ بإيمانهم بمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، وباتباعهم إياه حين بُعث، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٢).

(٢) الطبري (٢٠/ ٥٦).

(٣) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٢).

(٤) البخاري في التاريخ (٦/ ٢٧٤).

كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

وأيًّا مَّا كان السبب، فإن الآيات تمدح كل من أسلم من أهل الكتاب وغيرهم، وتذم كل من أعرض عن دعوة الإسلام، ومنهم مشركو مكة الذين لم يدخل بعضهم في الإسلام مع وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم.

هذا: وقد دخل في الإسلام كثير من بلاد العالم عن طريق التجار المسلمين، بمجرد رؤية السلوك والقدوة في أبناء الإسلام.

إن الآلاف من الجاليات غير المسلمة التي تعمل في بلاد الإسلام في وقتنا الحاضر يدخلون في الإسلام من تلقاء أنفسهم يوميًا، جماعات وأفرادًا، وفي غير بلاد المسلمين كذلك.

إن الشمال الأفريقي وغرب آسيا كانا مليئين بأهل الكتاب في ظل الحكم الروماني، فدخلوا في الإسلام بمجرد تعرُّفهم عليه، واطمئنانهم إلى حقائقه، أما وثنيو الجزيرة العربية فقد صدوا عن السبيل أول أمرهم، وأعلنوا على الدين الجديد حربًا ضارية[١].

حِرْصُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى إِسْلَامِ أَبِي طَالِبٍ

٥٦- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

إن أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام في أول عهد الدعوة، لم يزد النبي ﷺ عن أن تلا عليهم آيات القرآن، أما من أحبَّ الرسولُ دخوله في الإسلام، وكان حريصًا على هدايته، فقد استمر على كفره إلى أن اختطفه الموت.

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ.

إن أبا طالب كان يحوط النبي ﷺ وينصره، ويقف معه في وجه قريش، ويحميه حتى يبلِّغ دعوته، وتحمَّلَ أبو طالب مقاطعة قريش الاقتصادية، ولكنه كان يفعل ذلك حبًّا لابن أخيه، وإباء ونخوة، فلما حضرته الوفاة دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأبى، فتفجَّع رسول الله ﷺ وخرج عنه، فمات على كفره.

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٠١ .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

والهداية المنفية في الآية هي خلْق الهدى في قلب العبد، أما هداية الدلالة والإرشاد فهي التي قال الله فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

في صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة ﷺ قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في رسول الله ﷺ حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام، وذلك أن النبي ﷺ قال لأبي طالب عند الموت: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**»، قال: لولا أن تعيرني قريش -وفي رواية: نساء قريش- يقولون: إنما حملَه على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك[1]، ثم أنشد يقول:

ولقد علمتُ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمْحًا بذاك مبينا

ولكن على ملة الأشياخ: عبد المطلب، وعبد مناف، ثم مات، فأنزل الله الآية.

وفي صحيح البخاري وغيره، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**والله لأستغفرن لك، ما لم أُنه عنك**»، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥).

ﭐﻟﻠَّﻪَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[١].

والمعنى: إنك -يا محمد- لا تهدي هداية توفيق من أحببت هدايته، ولكن ذلك بيد الله وفق علمه - سبحانه - بمن هو أهل للهداية ممن كان مستعدًا لها.

أما هداية الإرشاد والدلالة فهي مهمتك ومهمة كل داعية إلى الله تعالى، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وهو - سبحانه - أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ولو كان الرسول قادرًا على خلق الإيمان في القلب، لَهَدى مَنْ وصَل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه عمه أبو طالب، ولكنه أرشده ونصحه دون جدوى.

قال سيد قطب رحمه الله: وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذًا بصرامة هذا الدين واستقامته، فهذا عمُّ رسول الله ﷺ وكافله وحاميه والذائد عنه، لا يكتب الله له الإيمان، على شدة حبه لرسول الله، وشدة حب رسول الله له أن يؤمن؛ لأن الله قد علم منه أنها محبة الأبوة، وعصبة القرابة[٢].

والآية عامة، ويدخل فيها أبو طالب دخولًا أوليًا.

مَغَبَّةُ عَدَمِ اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ مَخَافَةَ الْإِيذَاءِ وَالضَّرَرِ

٥٧- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ[٣] إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: قال المكذبون للنبي ﷺ: إن نحن آمنا بك، عادُونا الناس وآذونا، فطمأنهم الله تعالى بأنهم في بلده الآمن، وأن أرزاقهم تأتي من كل مكان، فليحمدوا ربهم على ما هم فيه من نعمة، وأهل مكة هم المخاطبون بهذا وقت التنزيل، وأضرابهم كثير على مدى التاريخ، في كل زمان ومكان، ممن يخافون على أنفسهم وأموالهم من أعدائهم إن هم دخلوا في الإسلام، ومنهم أبناء غير المسلمين في بلاد الإسلام، ممن يريدون اعتناق

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٧٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤).

(٢) الظلال (٥/ ٢٧٠٣) بتصرف.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر ورويس بتاء التأنيث في (يجبى)، والباقون بياء التذكير، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل مؤنث مجازيًا.

الإسلام ويخافون من أهليهم!

فقد نزلت هذه الآية فيمن يعتذر عن اعتناق الإسلام بسبب الخوف على نفسه، أو الخوف على رزقه، أو الخوف من وقوع ضرر من الأضرار عليه.

وهكذا كان يعتذر بعضهم في العهد النبوي عن عدم الدخول في الإسلام، فيقول الحارث بن عثمان بن نوفل للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تُخرجنا العرب من أرضنا؛ لإجماعهم على خوفنا، ولا طاقة لنا بهم[١].

وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية يُغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا؛ لحرمة الحرم، ومن المعروف أن الحرم يأمن فيه الظباء من الذئاب، والحمام من الحدأة[٢].

فغير المسلمين يعتذرون عن عدم الدخول في الإسلام مخافة أن يتخطاهم أعداؤهم خارج الحرم.

ولما أنزل الله في (الحارث بن عثمان بن نوفل) ومَنْ على شاكلته هذه الآية، بأنهم يخافون من إخراج قومهم لهم إن هم أسلموا، ألقمهم القرآن حجرًا بأنه - سبحانه - مكَّن لعباده في أرض الحرم، وجعلهم آمنين فيه؛ لحرمة بيته، فهم لا يخشون على أنفسهم قتْلًا ولا أذى، ولا نقصًا في المواد الغذائية، مع أن مكة صحراء لا زرع فيها ولا ثمر.

أليس الذي أمَّن لهم الحرم قادرًا على أن يؤمِّنهم في كل مكان؟ لقد طمأنهم الله - سبحانه - بأن الثمرات والخيرات تجبى إليه من كل مكان: كالشام، ومصر، والعراق، واليمن، ومن غير بلاد المسلمين أيضًا، وأكثر الناس لا يعلمون -لجهلهم- أن الله هو الحافظ، وأن الأمن لا يكون إلا في جوار الله تعالى، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن الله - سبحانه - وهو الذي منح الأمن لأهل الحرم ورزقهم.

فاعلموا - أيها الناس - أن الرزق من عند الله يأتيكم في أي مكان كنتم، وأن الله قد أمَّنكم في حرمه الآمن، ولو علم الخائفون على أنفسهم من اعتناق الإسلام أن الأمن

---

(١) «زاد المسير» (٦/ ٢٣٢) و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٠٠) وغيرهما.

(٢) «زاد المسير» (٦/ ٢٣٢) و«تفسير الخازن» (٣/ ٤٠٨) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣٨٥).

والخوف من عند الله، وأنهم آمنون أن يُتخطَّفوا من أرضهم بالقتل، أو الأسر، أو النهب للأموال، لَدَخلوا في دين الله أفواجًا حيثما كانوا في أي مكان من العالم، فاشكروا الله على نعمة الأمن والأمان، الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقد امتنَّ الله على المسلمين بأن جعلهم أعزة بعد أن كانوا قلة مستضعفة، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

وقد ردَّ الله سبحانه على هذه الشبهة التي قالوها: إننا نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفْنا مَن حوْلنا من أحياء العرب، أن يؤذونا ويحاربونا.

ردَّ الله تعالى عليهم بهذا البيان الواضح، وأنه - سبحانه - قد عصم دماءهم وحرَّمها، وهم في بلد الله الآمن، والناس في غيره يتقاتلون، فكيف إذا آمنوا واهتدوْا؟

قال قتادة: كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاؤوا، فإذا خرج أحدهم وقال: أنا من أهل الحرم، لم يَعرِض له أحد، وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قُتل وسُلب[١].

وكما تحقق رغَد العيش والأمن من الخوف لمن دخل في الإسلام من جزيرة العرب، فقد تحقق لكل من دخل فيه من أرجاء المعمورة، وقد خصَّ الله أهل مكة بوفرة الرزق وتحقيق الأمن، والناس من حولهم لا ينعمون بهذا الأمن، ولا برغد العيش الذي هم فيه.

عَوَاقِبُ الْكُفْرِ وَخِيمَةٌ

٥٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

ثم هدد القرآن غير المسلمين بعواقب الكفر، وبيَّن لهم أنهم إن أرادوا اتقاء المهالك،

(١) عبد الرزاق (٢/ ٩٦) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٩٦).

وأن يأمنوا على أنفسهم وعلى أموالهم عدم التخطف، فليحذروا بطر النعمة، وعدم الشكر عليها، وليحذروا التفاخر والاشتغال بلهو الدنيا.

ومقتضى ذلك هو الإيمان بالله وبالرسول، فإن عدم الإيمان، وعدم الشكر على النعم هو سبب الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

وكثير من أهل القرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة في أمن وسعة من الرزق، فلما طغوْا وبغوْا، وبطروا معيشتهم، واستعملوا نعم الله تعالى في الشر لا في الخير، وفي الفسق لا في الطاعة، أهلكهم الله تعالى، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ودمَّر قراهم تدميرًا، فها هي مساكنهم ترونها -كعاد، وثمود، ولوط- خاوية، تتحدث عن مصارع أهلها، ولم يرثها بعدهم أحد.

قال ابن عباس ﷺ: لم يسكنها إلا المسافرون سكونًا قليلًا، وقيل: لم يعمر منها إلا قليل، وأكثرها خراب.

لَا عُقُوبَةَ بِدُونِ إِقَامَةِ حُجَّةِ

٥٩- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا[1] رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يعذب أحدا بمجرد كفره قبل إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

وفي هذه الآية، يقيم الله تعالى الحجة على عباده بإرسال الرسل، يُبِنّ أنه سبحانه لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بعد إنذارهم، وتماديهم في الظلم والطغيان، وهذه سُنَّة الله تعالى في خلقه أن يرسل في كل أمة رسولًا؛ لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، فلا يهلك - سبحانه - أمة إلا بعد إعذارها وإنذارها، ومن ذلك هذه الأمة، فقد أرسل الله في أم

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة وصلًا من (في أمها)، والباقون بضمها، وجميع القراء يبدؤونها بهمزة مضمومة.

القرى رسولًا، هو محمد ﷺ، يتلو على الثقلين القرآن، يبشرهم وينذرهم؛ ويدلهم على صدق ما جاء به من عند الله، فيبلُغ قاصيهم ودانهم، لإقامة الحجة عليهم يوم لقاء الله، وهلاك الأمم لا يكون إلا بسبب الكفر والشرك، وما كان ربك مهلك القرى التي حول مكة في عصر التنزيل؛ حتى يرسل في مكة رسولًا يحذرهم وينذرهم.

وهذه الآية عامة لأهل الأرض كلهم، وقد كانت الرسالة الخاتمة من مكة؛ لأن الأرض دُحيت من تحتها، ولأن الكعبة في محاذاة البيت المعمور، ولأنها تتوسط العالم، ورسالة النبي ﷺ عامة إلى الخلق جميعًا، وقائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

في الصحيحين من حديث جابر ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**بعثت إلى الناس عامة**»(١).

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وهلاك الأمم لا يكون إلا بعد إصرارهم على الكفر مع إعذارهم وإنذارهم، وإقامة الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

ومادام الهلاك بسبب الكفر والمعاصي، فإن الركون إلى الدنيا ضلال وخُسران.

مَتَاعُ الدُّنْيَا وَمَتَاعُ الآخِرَةِ

٦٠- ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٢)﴾

في هذه الآية ترغيب في العمل للآخرة، وتزهيد في الدنيا وعدم الاغترار بما فيها، من: مال ومتاع ونساء وبنين ولذائذ ومساكن ومطاعم ومشارب، بحيث لا تلهيهم عما هو خير وأبقى، فإن العاقل يؤثر ما يبقى على ما يفنى.

---

(١) من حديث جابر في البخاري برقم (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

(٢) قرأ أبو عمرو بخلف عن السوسي بياء الغيب في (تعقلون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب، وهو الوجه الثاني للسوسي.

وهكذا أخذت الآيات تُتابع النصائح؛ لتُرغِّب في اتباع الحق، وتُحذِّر من شهوات الدنيا، فمتاع الحياة الدنيا بكامله شيء ضئيل بالنسبة لما عند الله، فلا تخشوا حربًا ولا تعطيلًا للتجارة، وما أُعْطِيتم من الأموال والأولاد فإنما هو متاع تتمتعون به، وزينة تتزينون بها في الدنيا، وما عند الله لأهل طاعته خير وأبقى، وكثير من الناس يبيع الحقيقة بثمن بخس، ولا يبالي بالعواقب، وإلا فما ضرَّ فرعون وأمثاله لو أنه عقل وعدل، بدل أن يستكبر ويطغى ويمشي مختالًا على رقاب العباد.

صحَّ في الحديث عن المستورد بن شداد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع»**[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يؤتى بأنعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يابن آدم، هل رأيت خيرًا قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، ثم يقال: يابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**[2].

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء].

أفلا تتدبرون -أيها الناس- فتعرفون الخير من الشر، وتُقَدِّمون العمل للحياة الباقية على العمل للحياة الفانية، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]. وقال سبحانه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

قال الفخر الرازي: بيَّن تعالى أن منافع الدنيا مشوبة بالمضار، بل المضار فيها أكثر، ومنافع الآخرة غير منقطعة، بينما منافع الدنيا منقطعة، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي

---

(١) من حديث المستورد بن شداد في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٨).

(٢) من حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٧).

كان عدمًا، فكيف ونصيب كل أحد من الدنيا كالذرَّة بالقياس إلى البحر؟ فمن لم يرجِّح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارج عن حدِّ العقل[(١)].

وأصحاب العقول يوازنون بين السعي للدنيا والسعي للآخرة، كما قال تعالى:

٦١- ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ[(٢)] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾

هذه الآية تنفي التسوية بين أهل الجنة وأهل النار، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا يستوي من صدَّق بوعد الله تعالى من الثواب الحسَن على الأعمال الصالحة، بمن هو كافر مُكذب بلقاء الله تعالى ووعده ووعيده، فهل يستوي المؤمن والكافر؟ والمصدق والمكذب؟ وهل يستوي أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟

والجواب: لا يستوي المؤمن المطيع الذي يعمل لِلْجَنَّة، بمن أذهب طيباته في الحياة الدنيا واستمتع بها، فعُجِّلت له لذته في الدنيا، ثم يحضر يوم القيامة للحساب والجزاء العادل.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ هذا هو المؤمن، وعده الله الجنة، وهي داره ومسكنه في الآخرة، فهو مُلاقٍ ما وُعد به وصائر إليه يوم القيامة.

أما غير المؤمن فإن الدنيا جنته ينال فيها حظوظه، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا هو المراد بقوله تعالى في بقية الآية: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ وهو الكافر، يتمتَّع في الدنيا، ويأكل كما تأكل الأنعام، وقد نسي لقاء الله، فيلقى جزاءه المناسب يوم القيامة، ويذهب عنه ما كان يفخر به على الناس، فيقال لهم: ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣].

والمؤمن يحمد الله يوم القيامة أنه من غير المحضرين إلى جهنم، فيقول:

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات].

والجن والإنس يعلمون أنهم محضرون للحساب أمام رب العالمين يوم لقائه

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٥/ ٢٦).

(٢) قرأ الكسائي وقالون وأبو جعفر بخلف عنهما بإسكان الهاء من (ثم هو)، والباقون بضمها.

والكافر يدعو على نفسه بالويل، والثبور، والهلاك كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان]. لأنه قد أخذ حظه في الدنيا كاملًا ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالنجاح والفلاح.

ثَلاثَةُ أَسْئِلَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ:

ويوم القيامة يُسأل المشرك عن شركه، ويسأل عن إجابته لرسل الله الذين أمروه بالتوحيد، ويُسأل عمّن أشركه مع الله تعالى في عبادته، أين هو في عرصات القيامة:

السُّؤَالُ الأَوَّلُ عَنْ جَانِبِ التَّوْحِيدِ

٦٢- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ[1] فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وهذه ثلاثة أسئلة توجه إلى المشركين يوم القيامة، منها سؤالان عن التوحيد الذي جاء به الرسل، وسؤال عن إجابة خاتم المرسلين ﷺ: وذلك أنه حين يحضر العباد بين يدي ربهم للحساب والجزاء، يسأل الله تبارك وتعالى الذين لم يوحدوه، ولم يفردوه بالعبادة فأشركوا معه غيره، يسألهم ربهم ثلاثة أسئلة، للتأنيب، والتوبيخ، والتقريع، والتهديد:

السؤال الأول: يتعلق بالتوحيد، حيث يسأل الله المشركين عن وجود الشركاء معهم في ساحة العرض، هل هم متواجدون معهم الآن أم لا؟ والله تعالى يَعْلَم أنه لا وجود لهم، ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد، فيسألهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا أنهم شركائي؛ لكي ينصروكم اليوم، أو يدفعوا عنكم العذاب، أو يشفعوا لكم عند الله كما كنتم تزعمون؟ ومفعول تزعمون محذوف اختصارًا، أي: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء لله، أين هم بذواتهم، وأين نفعهم، وأين دفعهم العذاب عنكم؟

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم

---

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يناديهم)، والباقون بكسرها.

مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام].

وليس المقصود الإجابة على هذا السؤال، فهو معلوم، وإنما المقصود إظهار براءة التابعين من المتبوعين.

تَبَرُّؤُ الْمَعْبُودِينَ مِنَ الْعَابِدِينَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ

٦٣- ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قال الذين وجب عليهم العذاب من رؤساء الكفر والضلال، من كل من رضي لنفسه العبادة والطاعة من دون الله: قال: ربنا هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم -كما ضللنا- حيث دعوناهم إلى الكفر الذي كنا عليه فأطاعونا، وإغواؤنا لهم لم يكن إلا مجرد وسوسة وتسويل، وليس فيه قسر ولا إكراه لهم، فلا فرق بين ضلالنا وضلالهم، وإن كنا دعوْناهم إلى الكفر فقد دعوتهم إلى الإيمان، وأعطيتهم عقولًا، وأرسلت إليهم الرسل، وأنزلت عليهم الكتب، وهذا كقول الشيطان لمَّا قضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ثم يحاولون أن يتبرؤوا من جريرة إغوائهم، فيقولون: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ﴾ منهم ومِنْ كُفْرهم، ومِنْ ولايتهم ونُصرتهم، فما كانوا يعبدوننا، بل عبدوا شهواتهم، وأطاعوا أهواءهم، فيتبرؤون منهم على الملأ، كما قال تعالى:

١- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٢- وقال سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر: ١٤].

٣- وقال تعالى عن كل ما عبد من دون الله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

٥- وقال ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة].

وهكذا يتبرأ المعبودون ممن عبدوهم، ويتنصلون منهم في ساحة العرض والحساب.

والذي حملهم على هذا التنصل، ما شاهدوه من فظاعة عذاب الشركاء يوم القيامة، وحين يجدون قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] واقعًا مشاهدًا، قال تعالى:

٦٤- ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)﴾

أي: يقال للمشركين يوم القيامة زيادة في التهكم والتبكيت: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا ليخلّصوكم من العذاب، وينقذوكم مما أنتم فيه، فاستغاثوا بهم ودعوهم، فلم يجيبوهم، ولم ينفعوهم، ولم يلتفتوا إليهم، وقد فعلوا ذلك لشدة حيرتهم، وسخافة عقولهم.

وتمنَّوا حين شاهدوا العذاب بأعينهم، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾ [الكهف]. وكل من التابع والمتبوع يتبرأ من الآخر في هذا اليوم العظيم.

السُّؤَالُ الثَّانِي فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ: عَنِ الْإِيمَانِ بِالرِّسَالَةِ الْأَخِيرَةِ

٦٥، ٦٦- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

هذا هو السؤال الثاني: وهو عن موقف المشركين من دعوة الرسل بأي شيء أجاب المكذبون للرسل في الدنيا عما أرسلناهم به؟ والمراد بالمرسلين في الآية: دعوة محمد ﷺ على وجه الخصوص، فهي الرسالة العامة والأخيرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ [سبأ: ٤٥]. وكل من كذَّب رسولًا فقد كذَّب الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء].

وقوم نوح لما كذَّبوا نوحًا فقط، فكأنهم كذبوا جميع الرسل، وهكذا سائر الرسل.

فيُسأل المكذبون من هذه الأمة: هل صدقتم محمدًا ﷺ، أم كذبتموه؟ وماذا كان جوابكم له؟ كيف كان حالكم معه؟ كما يُسأل الإنسان في قبره عن ربه وعن دينه وعن نبيه، فيجيب المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمد نبيي، والكافر يقول: لا أدري، فلا جواب له غير السكوت؛ ولا يهتدى للصواب، لأنه لما كان في الدنيا أعمى كان في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا، ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموقف إلا الجواب الصريح الصحيح المطابق للحال، وهو الإيمان والاتباع، ولكن المكذبين يعلمون أنهم كذبة معاندون، ولذا لم ينطقوا بشيء.

وعن إجابة الرسل يوم القيامة يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف].

والله تعالى يعْلَم الجواب، ولكنه سؤال للتأنيب والتقريع، ولذا: فإنهم يصابون بالذهول والصمت تجاه السؤال.

وقد خفيت عليهم الأدلة والبراهين، وقُطعت عنهم الحجج، فلا يدرون ماذا يجيبون، ولا يهتدون إلى جواب، ولم يجدوا مغالطة ولا جوابًا ملفقًا ينكرون به ما وُجه إليهم من سؤال عن إثبات النبوة، بعد سؤالهم عن إثبات التوحيد، وقيل: هو عدم السؤال عن الأنساب.

وفي الآية بيان أن المشركين لا يسأل بعضهم بعضًا سؤال انتفاع يحتجون به.

وفي يوم القيامة مواقف متعددة ومواطن مختلفة، فتارة يُسأل المجرمون وتارة لا يُسألون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٧٨].

وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ [الرحمن].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«ما من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: يابن آدم، ما غرَّك بي؟ يابن آدم ماذا عملت فيما**

علمت؟ يابن آدم، ماذا أجبتَ المرسلين؟»[1].

وهذا المشهد من مشاهد القيامة عجَّل الله تعالى بعرضه للخلق في الدنيا؛ حتى لا ينخدع التابعون بالمتبوعين في الدنيا، وحتى لا يُفتن القوي بالضعيف، والفقير بالغني، والمحكوم بالحاكم، إن كان الأول منهم على ضلال أو كفر، أو لون من ألوان الشرك بالله تعالى.

اسْتِثْنَاءُ مِمَّنْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ

٦٧- ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

بعد المشهد الذي يصور كرْب المشركين يوم القيامة وخزيهم وفضيحتهم، يأتي في مقابله بيان ما ينجو به العبد من لقاء ربه، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة والإيمان والعمل الصالح وهذا هو مشهد أهل الفلاح والنجاح، ممن آمن في الدنيا وعمل صالحًا، والترجي في القرآن بمنزلة التحقيق، وهو وعد من الله تعالى.

والمعنى: فمن تاب إلى الله تعالى من الشرك والكفر والمعاصي، وأخلص العمل لله واتبع رسوله، وأكثر من العمل الصالح فهو من الفائزين في الدارين.

ولا يستوي هذا بمن قبله ممن لم يُجب الرسل، ولم يتبع ما جاؤوا به، فإن الكفار قد أخذوا حظهم في الدنيا كاملًا، وعُجِّل لهم ثواب أعمالهم فيها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥] أي: وأما الذين كفروا فهم على الضد من ذلك فليختر من شاء ما شاء، وفي الوقت فسحة، طالما أن الأرواح لم تُقبَض.

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٤٤٩) و«الكبير» (٨٨٩٩، ٨٩٠٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٧): رجال الكبير رجال الصحيح، غير شريك بن عبد الله، وهو ثقة وفيه ضعف، ورجال الأوسط فيهم شريك أيضًا، وإسحاق بن عبد الله التميمي وثَّقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه النسائي كما في «تحفة الأشراف» (٩٣٤٥).

أَرْبَـعُ تَعْقِيبَاتٍ عَلَى السُّؤَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ:

التَّعْقِيبُ الأَوَّلُ: اخْتِيَارُ الرَّسُولِ اصْطِفَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى

٦٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

هذه أربعة تعقيبات على ما سبق من سؤال، أي: إن الله تعالى فاعل مختار، فمردُّ الأمر كله لله، خالق هذا الكون ومبدعه، ومنشئ الخصائص التي يتميز بها الخلق، وهو سبحانه يخلق ما يشاء، ويختار ما علم أنه الأصلح، مما فيه نفع العباد وخيرهم، وربك يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويصطفي لرسالته من يشاء، وليس لأحد أن يقترح على الله شيئًا، أو يعدل عليه أمرًا، أو يبدل شيئًا من خلقه، وكل ذلك إلى الله وحده؛ فالأمور كلها بيده، ومرجعها إليه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو - سبحانه - منزَّه عن الشركاء، ومنزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار، فهو العالم بما تكنه الصدور، وهو المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، وهو الحاكم في الدارين، وهو المجازي كُلًّا بعمله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

فهو سبحانه يخلق ما يشاء، ويختار لرسالته من يريد.

ومن ذلك اختيار الله تعالى لرسله من بين خلقه، واصطفاؤه محمدًا ﷺ ليكون خاتم الرسل.

جاء في **أسباب النزول**: أن هذه الآية نزلت جوابًا للوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: الوليد بن المغيرة من أهل مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف.

فأخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وإنما يختار الأنسب من خلقه والأصلح، وما فيه الخير والنفع ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وأخذًا من هذه الآية شُرعت:

صلاة الاستخارة، وذلك حينما يريد العبد أن يُقْدِم على أمر مهم، وهو لا يعلم هل هذا الأمر سيكون خيرًا أم شرًّا، فيفوض الأمر لله، ويسأله - سبحانه - أن يختار له الأصلح، وأن يرشده ويدله عليه، ويشرح صدره إليه، فيقول العبد: اللهم خِرْ لي واختر لي، ويصلي ركعتين من ليل أو نهار، بنية صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة (الكافرون)، وفي الركعة الثانية سورة (الإخلاص)، وعقب السلام مباشرة يدعو بهذا الدعاء: **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي، وفي عاجل أمري وآجله، فاقدُره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي، وفي عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به»**[1].

ويسمِّي حاجته التي ينشدها عند قوله: **«هذا الأمر»** في المرتين.

فإن انشرح صدره فلْيُقْدم، وإن انقبض صدره فلْيترك، ولا يتخذ قرارًا معينًا داخل نفسه قبل الاستخارة، بل يترك الأمر لله، ويفوض حاله إليه؛ ليختر له ربه ما فيه الأصلح، ولا بأس من تكرار صلاة الاستخارة ودعائها، إن لم تنكشف له جلية الأمر من المرة الأولى أو الثانية.

ولا علاقة للاستخارة بالنوم، بمعنى: أنه سيرى في منامه ما يرشده إلى ما فيه الخير، إنما العلامة هي انشراح الصدر أو انقباضه.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي: عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ

٦٩- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾

أي: إن الله تعالى يجازي العباد يوم القيامة على ما يقع منهم في الدنيا وفق علمه تعالى عنهم من اختيارهم للهدى أو الضلال بمحض إرادتهم، مع نهيه لهم عن الشر وأمره لهم بالخير، فهو - سبحانه - يختار للعبد ما هو له أهل، ويعلم ظواهرهم وسرائرهم، ويختار لهم ما يصلح أحوالهم وفق ما يعلمه تعالى عنهم بما يناسب حالهم وتوجههم.

---

(١) يُنظَر: البخاري (١١٦٣، ٦٣٨٢) وأبو داود (١٥٣٨) والترمذي (٤٨٠) والنسائي (٣٢٥٣) وابن ماجه (١٣٨٣).

وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ: اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ

٧٠- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[1]﴾

أي: هو - سبحانه - المستحق للحمد والثناء في الدنيا والآخرة؛ لأنه جلَّ شأنه المتفرد بالألوهية والخلق والتدبير، وهو صاحب فصْل القضاء يوم القيامة، وإليه المرجع والمصير، فهو الله الذي لا معبود بحق سواه، وإليه تُردون بعد مماتكم للحساب والجزاء، وسوف يجازي كل عامل بعمله من خير أو شر، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم الظاهرة والباطنة، فاعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره.

التَّعْقِيبُ الرَّابِعُ: النِّظَامُ الْكَوْنِيُّ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ

٧١-٧٣- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ[2] أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

هذا التعقيب يتحدث عن النظام الذي خطَّه الله سبحانه لهذا الكون الذي نحيا بين أرضه وسمائه، فمن سُنن الله في الكون أنْ مَحا آية الليل فجعله مظلمًا، وجعل آية النهار مبصرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس].

---

(١) قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجعون)، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم.

(٢) قرأ قنبل بهمزة مفتوحة بعد الضاد من (بضياء)، والباقون بياء مفتوحة مكان الهمزة.

وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

فماذا لو غيَّر الله هذا النظام، فجعل الناس في ليل دائم، أو نهار دائم، كيف يستريحون؟! وكيف يعملون؟! ومَن مِن الخلق يمكنه إعادة النظام إلى سابقه؟! فلو أن النهار كان دائمًا لتعبت الأبدان وكلَّت من كثرة الحركة والأشغال، ولو أن الليل كان دائمًا لسئمت النفوس وملَّت.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل كلًّا من الليل والنهار يعقُب الآخر؛ لتستقيم شؤون الحياة، وليكون في هذا عظة وعبرة للعباد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

ومعلوم أن السكون والراحة يتم بالليل، وأن الإنسان المكلف مدفوع إلى التعب؛ ليُحصِّل ما يحتاج إليه، وهذا يتم في ضوء النهار، ولو كان الليل دائمًا ما استقامت الحياة، ولو نام الناس بالنهار؛ إذ نوم النهار لا يستوي مع نوم الليل.

وقد ختم الله - سبحانه - الآية الأولى بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن حاسة السمع أكثر الحواس استعمالًا في الظلام، وسلطانها في الليل أبلغ من سلطان البصر.

وختم الآية الثانية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن حاسة البصر أكثر الحواس استعمالًا في النهار، وسلطانها في النهار أبلغ من سلطان السمع.

فالليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، والمرء مضطر إليهما في حياته، فلابد له منهما، أما الجنة فلا نصب فيها ولا تعب، ولا حاجة لهم في الليل، ولذا يدوم لهم الضياء واللذات.

والمعنى: أخبروني -أيها الناس- إنْ جعل الله عليكم الليل دائمًا مستمرًّا بلا انقطاع إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بنور تستضيئون به في حياتكم؟ أفلا تسمعون ما أرشدناكم إليه سماع فهم وقبول، فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟

وأخبروني إنْ جعل الله عليكم النهار دائمًا بلا انقطاع إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدؤون من الحركة والتعب؟ أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل

والنهار، فتعرفوا ما أنتم عليه من الضلال؟

ومن رحمته بكم أن جعل لكم الليل والنهار، فخالف بينهما، فجعل الليل ظلامًا؛ لتستقروا فيه، وترتاح أبدانكم، وجعل لكم النهار ضياء؛ لتطلبوا فيه معايشكم، ولتشكروا الله على إنعامه عليكم بذلك، فإذا وازنتم بين حالة وجودها وحالة عدمها، تبيّن لكم منة الله عليكم، فبالَغْتُم بالثناء عليه، وأظهرتم الافتقار إليه.

السُّؤَالُ الثَّالِثُ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ: عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالشُّهَدَاءِ

٧٤، ٧٥- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

هذا تأكيد للسؤال الأول عن جانب التوحيد في ساحة العرض، جاء مقترنًا بإقامة شهيد على كل أمة -هو نبيها- يشهد عليها أنه بلَّغها رسالة ربه، ويشهد على أنه نهاها عن الشرك بالله، والتكذيب للرسل.

وفي هذا السؤال يطلب الله سبحانه من كل أمة أشركت بالله أن تأتي بحجتها على ما أشركته مع الله تعالى، وحينئذ يعلمون أن الحجة البالغة لله وحده، وأنه لا إله غيره، ولا معبود سواه، وأنه لم ينفعهم ما أشركوهم مع الله تعالى، بل إنهم أوردوهم نار جهنم، وغابوا عنهم في ساحة العرض، فلم يجدوهم ليشفعوا لهم كما كانوا يزعمون، ولا لينصروهم، أو يدفعوا عنهم عذاب الله، وذلك حين يقال للمشركين: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي، إنهم لا وجود لهم إلا في عقولكم الجاهلة، وأفكاركم الباطلة، وتقاليدكم السقيمة.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] .

فإذا حضر العابد والمعبود في ساحة الحشر والعرض، انتخب الله من كل أمة من الأمم المكذبة شهيدًا يشهد على شركهم وفساد اعتقادهم.

أي: ونزعنا من كل أمة من الأمم المكذبة لرسل الله شهيدًا عليها أنهم كفروا بالله، يشهد على ما جرى منهم في الدنيا من الشرك بالله تعالى، والتكذيب لرسل الله، فقلنا

لهؤلاء المشركين عندما يبرزون للمحاكمة، بعد أن شهد عليهم أنبياؤهم بأنهم كذَّبوا رسل الله، وما جاؤوا به من عند الله: هاتوا برهانكم ودليلكم على صحة كُفركم وشِرْككم بالله، هل أمرناكم بذلك؟ هل وجدتم شيئًا من ذلك في كتبي؟ هل في آلهتكم من يملك نفعا أو ضرًّا؟ وهل فيها من يستحق العبادة؟.

ولَمَّا ظهر عجزهم عن إقامة الحجة على ما فعلوه في الدنيا من كُفر وشرك، أيقنوا أنهم لا حق لهم فيما افتروه على الله، وثبت لديهم أن الحق لله؛ حيث كان ينهاهم عن الشرك بالله على ألسنة الرسل في الدنيا، وفي ساحة العرض غاب عنهم شركهم وما كانوا يفترونه على الله من كذب.

والقرآن الكريم لا يخاطب المجتمع المسلم وحده، إنما يخاطب العالم أجمع، أمة الدعوة وأمة الإجابة.

وأمة الدعوة، فيهم: الكافر والمشرك، والوثني والملحد، والعلماني والشيوعي، ومثل هذا السؤال يوجَّه إلى شريحة عريضة من بني البشر.

فالسؤال الأول من الأسئلة الثلاثة كان عن التوحيد، والسؤال الثاني كان عن النبوات، وهذا السؤال الثالث عن إشراكهم بالله تعالى بعد الإشهاد وإقامة الحجة عليهم، وفصْل القضاء بينهم يوم لقاء الله، وهذا هو موضوع السور المكية: التوحيد، والرسالة، والبعث، والجزاء.

وقبل سؤال الحساب والجزاء، لفت - سبحانه - الأنظار إلى أفعال العباد، وإلى علم الله تعالى عنهم، وإلى شيء من أنعم الله تعالى عليهم.

قِصَّةُ قَارُونَ

٧٦- ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

بعد أن تحدثت السورة عن الطغيان في الحكم، وعن جور السلطان، والاستبداد السياسي متمثلًا في قصة فرعون، وبيَّنتْ كيف كانت نهاية الظلم والبغي، والكفر بالله تعالى، بدأت الحديث عن القصة الثانية في السورة وهي تمثِّل الطغيان الرأسمالي، سلطان

المال والعلم، وكيف ينتهي هذا السلطان بالبوار والهلاك مع البطر والاستكبار، وجحود نعمة الخالق سبحانه؟

وتقرر القصة حقيقة القِيَم، وأنها لا تتمثَّل في المال والجاه، بل تكمُن القيمة الحقيقية للإنسان في الإيمان والخلُق والتقوى، والاعتدال في الاستمتاع بطيبات الحياة.

وهل كانت قصة قارون قبل خروج بني إِسْرَائِيلَ من مصر أم بعده، أم كانت في بني إِسْرَائِيلَ من بعد موسى؟ لم نقف على ما يحدد ذلك، ولا على تحديد زمان أو مكان القصة.

وقارون كان ابن عم موسى[1] ولم يكن في بني إِسْرَائِيلَ أقرأ منه للتوراة، وكان أجملهم وأغناهم، وكان حسن الصوت، فطغى وبغى بما أوتي من مال وعلم.

وكان بنو إِسْرَائِيلَ يقدِّمون قرابينهم فتأكلها النار التي تنزل من السماء، فامتنع قارون من تقديم القربان، ونافق كما نافق السامري، وكَفر بموسى عليه السلام واستخفَّ به.

وكان من بَغيه أنه زاد في ثيابه شبرًا على ثياب الناس، ومن بغيه أنه حرَّض امرأةً بغيًّا أن تتهم موسى بالتحرش بها، فأنطقها الله ببراءته على الملأ.

وقيل: إنه كان عاملًا لفرعون على بني إِسْرَائِيلَ، فظلمهم وبغى عليهم، واغتر بكثرة ماله، وأُعجب بعلمه، ومنَع إخراج الزكاة، وترك اتِّباع موسى، وأخذ يداريه لما بينهما من قرابة، ويؤذيه في كل وقت ويعاديه، ويتكبر عليه، وجعل له بابًا من ذهب، وتجاوز الحد في الكبر والتجبر عليهم.

وكان الله قد أعطاه أموالًا بلغت من الكثرة كنوزًا مدخرة فائضة عن الاستعمال والتداول، إلى درجة أن مفاتيح الكنوز وحدها يثقل حملها على العدد الكثير من الرجال الأقوياء.

والعُصْبة: من العشرة إلى الخمسة عشر، من الرجال، وقيل: إلى الأربعين.

قيل: إن مفاتيح الكنوز كانت من الحديد، فلما ثقلت وكثُرت جعلها من خشب فثقلت، فجعلها من جلود البقر، وكانت تُحمل معه أينما ذهب.

---

(١) جاء ذلك عن ابن جريج وقتادة وإبراهيم النخعي كما في «الطبري» (١٨/٣٠٩) وابن أبي حاتم (٩/٣٠٠٠٥).

لقد بلغ قارون من الثراء حدًّا هائلًا، والمال الثابت أو المنقول، ليس خيرًا ولا شرًّا في حد ذاته، إنما هو أداة ووسيلة تُحمد أو تُعاب وفق طريقة الاستعمال، فالسلاح في يد اللص أداة للقتل، وفي يد الجندي أداة للدفاع أو القصاص، ولذا فإن قوم قارون قالوا له لما طغى: إن **للثراء أصولًا خمسة** لابد أن تراعى:

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾

أي: لا تفرح بدنياك فرح أشر وبطر وتكبر على الناس، فالدنيا عرض زائل، وعارية مستردة، يربح فيها من يربح، ويخسر فيها من يخسر ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وذلك لأن فرح البطر يُنسي العبد من أنعم عليه بهذه النعم، وينسيه الحمد والشكر لله ﷻ، وينسيه القيام بالواجبات المستحقة لله تعالى على هذه النعم، ويُلهي ويُطغي، والله تعالى لا يحب الفرحين المنكبِّين على حب الدنيا، الذين لا يشكرونه على ما أعطاهم، ويرون أن المال سبب استعلاء أو مصدر تطاول على الناس، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

الْأَصْلُ الثَّانِي: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾

٧٧- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي التمِسْ رضى الله تعالى، وثواب الدار الآخرة، وابتغ بها ما عند ربك، بما أعطاك من مال، فقد أعطاك الله من وسائل الآخرة، ما ليس عند غيرك من الأموال، فاجعل الدنيا في يدك، ولا تجعلها في قلبك، واجعل قلبك معلقًا بالله وبالدار الآخرة؛ فالدنيا مَعْبَر للآخرة، ومزرعة لها، ومن زرع الخير حصد الخير، ومن أضاع عُمره فيما لا يُرضي ربه نَدِمَ، والعاقل مَن طلب آخرته بدنياه، ولا تكن ممن يحب مال وارثه أكثر من ماله، فإن ماله ما قدم لنفسه في الآخرة، ومال وارثه ما خلَّفه وراءه في الدنيا.

ويوم القيامة ينظر الإنسان أمامه فلا يرى إلَّا ما قدم، وينظر خلفه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا ما قدم، قال عليه

الصلاة والسلام: «**فاتقوا النار ولو بشق تمرة**».

إن الثري الصالح يتعدى خيره إلى غيره، فهو يبذل ما لديه بسخاوة نفس، ويبحث عن كل ثغرة بحاجة إلى عون فيسدها، ويُعطي قبل أن يُسأل.

الأَصْلُ الثَّالِثُ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾

أي: لا تترك حظك من الدنيا، بل تمتع فيها بالحلال دون إسراف ولا تقتير، فلا نأمرك أن تتصدق بكل مالك، وتبقى بدون شيء، ولكن استمتع بدنياك استمتاعًا لا يفسد دينك ولا يضر آخرتك، وهذا يمثل المنهج الإلهي المعتدل، الذي يعلِّق قلب العبد بالآخرة، ولا يَحْرِمه من أن يأخذ بقسط من متاع الحياة الدنيا، ولا يزهد فيها ويطلِّقها، كما يطلقها بعضهم، بل يتمتع بالحلال الطيب بلا إسراف، ولا تقتير، ولا أشر، ولا بطر؛ فإن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه.

الأَصْلُ الرَّابِعُ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾

لقد أحسن الله إليك بهذه الأموال الكثيرة، فأحسن إلى الناس بإعطاء كل ذي حق حقه، وأحسن إليهم بالصدقة والمواساة، وأحسن إليهم بعدم التكبر، وعدم الترفع عليهم، وحسن التعامل معهم، وأحسن إلى من أنعم عليك بطاعته وحسن شكره، وإتقان العمل في كل أمورك.

الأَصْلُ الْخَامِسُ: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

أي: لا تلتمس ما حرَّم الله عليك بالبغي والتكبير على قومك وظلمهم والتعسف معهم، والإضرار بهم، وكثرة المعاصي، ولا تنشغل بالنعم عند المنعم، ولا تستعمل نعم الله في معاصيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ المجرمين العاصين لله، الباغين على الناس.

مَوْقِفُ قَارُونَ مِنَ النَّصَائِحِ الْخَمْسِ

٧٨- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ[1] أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وابن كثير بخلف عنه بفتح ياء الإضافة من (عنديَ أو لم) والباقون بإسكانها.

أبى قارون أن يقبل النصيحة، وردَّ الأصول الخمسة السابقة بجملة واحدة فيها فخر وخيلاء وكفر بالنعمة ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: إنما أُعطيتُ هذه الكنوز بما عندي من العلم والقدرة على جمع المال، والعبقرية والخبرة، لقد حصُلْتُ على هذا المال بجهدي وعرقي، وعلمي بوجوه كسب المال، وتجاربي في طرق تنميته، ولولا رضى الله عني وعلمه بحالي واستحقاقي لهذا المال ما أعطاني إياه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩].

وهكذا ادَّعى قارون علمًا يستوجب به أن يكون صاحب مال ونعمة، وقال: إن من حقي أن أشمخ بأنفي بهذا المال، وأن أستعمله في وجوه الترف والملذات، كأنه ينكر فضل الله وإنعامه عليه، فلِمَ تنصحوني على ما أعطاني الله من مال؟

وبمثل هذا القول المغرور يقول بعض الناس، فينسبون ما هم فيه من نعمة إلى جهودهم الخاصة، وتفوقهم على أقرانهم في الدراسة، أو الخبرة، أو الوراثة، وغير ذلك، فلسان حاله يقول: أنا أهل لذلك، ومستحق له.

وبمثل هذا فسر الآية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال في معناها: لولا رضى الله عني، ومعرفته بفضلي، ما أعطاني هذا المال[1].

وهذا نفسه هو قول الكافر المترف عن الدار الآخرة: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، فهو يعتقد أنه سعيد الدارين، إنه نموذج مكرر في البشر، فكم من الناس يظن أن علمه وكدَّه وحْدهما، هما سبب غناه، فهو ينفق ويسرف من غير حسبان لرضى الله تعالى وغضبه، إنها مقولة المغرور، مطموس البصيرة، الذي فتنه المال، وأعماه الثراء، وأنساه المنعم عليه بهذه النعم.

ثم جاء التهديد الإلهي على هذه المقولة الفاجرة، بأن الله تعالى قد أهلك كثيرًا من القرون كانوا أشد من قارون قوة وأكثر جمعًا، لقد أهلك الله قبل قارون من الأفراد والجماعات من هو أغنى منه، وأكثر علمًا وخبرة، وأهلك من هو أعتى وأقوى منه، وأشد بطشًا، وأكثر جمعًا للأموال.

---

(١) الطبري (١٩/٦٢٦).

وكان على قارون أن يعلم العلم النافع الذي يقي مصارع السوء.

١- فليعلم هو وأمثاله من المجرمين أنهم أهون على الله تعالى من أن يسألهم عن ذنوبهم يوم القيامة بل يعاقبهم ويعذبهم بمقتضى علمه تعالى عنهم ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأن الله تعالى يعلم أحوالهم وذنوبهم، فلا يُسألون عنها، إنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ وتقرير، ويعاقبهم الله تعالى على ما علمه منهم، وعملوه في دنياهم، والمجرمون يُعرَفون بسيماهم يوم القيامة، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويلقى بهم في النار بغير سؤال ولا حساب ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن].

ويقال لهم: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن].

٢- وفي يوم القيامة مواطن ومواقف مختلفة، فتارة يُسأل العباد عن أعمالهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات].

٣- وتارة لا يُسألون عنها، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن].

وتارة تنطق الجوارح، وتشهد عليهم ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

هذا هو حال قارون في نفسه وماله، ورده على من نصحه، ولم يزل مستمرا على عناده وبغيه وعدم قبول النصيحة، وإعجابه بنفسه حتى عاقبه الله بما يناسب غروره، فخسف به الأرض.

فما هو حال قومه حين خرج عليهم يومًا وهو في قمة زينته ومَظْهَرِهِ وأُبَّهته، متعاظمًا ومتفاخرًا بمراكبه وملابسه، وخدمه وحشمه، وزينة الدنيا وبهجتها؟

النَّاسُ أَمَامَ فِتْنَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ فَرِيقَانِ

٧٩- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

لقد انقسم الناس إلى فريقين حينما رأوْا قارون في أبهى حلله؛ وأكمل زينته، وقد استعدّ وتجمّل بأعظم ما يمكنه، فظهرت عليه زينة الدنيا وزهرنها وبهجتها ونضارتها

وفخرها وخيلائها، فَرَمقَتْه العيون، وفُتنت به القلوب، فانقسم الناظرون إليه إلى قسمين، وتكلّم كل قسم بما عنده من الرغبة والهمة:

١- فريق انبهر بدُنُيَا قارون وزخرفها، فمال إلى الدنيا وتمنَّاها، وافتتن بها، ووقف منها موقف المأخوذ المبهوت المتهافت، وهؤلاء هم الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾. من الدنيا ومتاعها وزخرفها.

لقد نسي هؤلاء أن السعادة ليست في المال والجاه، فكم من صاحب مال وجاه وهو شقي تعيس، قلق حائر، وقد نسي أن السعادة في قربه من الله تعالى، واتصاله به سبحانه، ورضاه عنه، وقناعته بما رزقه الله.

وقد عالج الإسلام هذا الداء علاجًا حاسمًا في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافًا من الناس ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود].

وفي الحديث: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»[1].

وقد وصف هذا الفريق قارون بأنه ذو حظ عظيم، وهذا الوصف بمقياسهم أنه أُعطي في الدنيا غاية النعيم، وأنه ليس وراء الدنيا دارًا أخرى بحسب زعمهم!

٨٠- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

٢- أما **الفريق الثاني**، وهم أهل العلم النافع، والإيمان الخالص، والعمل الصالح، المتصلون بالله جلَّ وعلا، الذين عرفوا حقائق الأشياء، فلهم ميزان آخر للقيم، والتفاضل

---

(١) سبق تخريجه في الآية ١٥ من سورة هود.

والسعادة والنعيم، غير قيمة المال والزينة والمتاع، فنفوسهم أعلى وأكبر من أن تستهويها الحياة، أو يتهافتوا عليها كتهافت الذباب، إنهم يرغبون فيما عند الله تعالى، ويعملون للحياة الدائمة، ولذا: فإنهم يتألمون ويتوجعون مما تمنّوْه لأنفسهم، فإن ما عند الله خير وأبقى مما تشتهيه أنفسهم.

وقد ردَّ هذا الفريق على الفريق الأول، كما ذكر الله تعالى عنهم بقولهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة، والآجل من الجنة ونعيمها ﴿خَيْرٌ﴾ من الذي رغبتم وتمنيتم ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

ولكن لا يقبل هذه النصيحة، ويوفَّق إليها ويعمل بها إلا من يجاهد نفسه، فيصبر على طاعة الله تعالى، ويجتنب ما حرَّم الله، ويصبر على أقدار الله ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: ولا يبلغ هذه المنزلة إلا من صبر على أوامر الله ونواهيه، ورضي بقضاء الله وقدره، فصبر على طاعة الله، وصبر عن شهوات النفس، وعلى ترك الشبهات، وصبر على قبول الحق من الناس، وآثر الآخرة على الدنيا.

فلما وصل قارون إلى غاية متاع الدنيا جاءه العذاب بغتة:

فَمَاذَا كَانَتْ نِهَايَةُ قَارُونَ؟

٨١- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

إن فتنة الدنيا عندما تبلغ ذروتها، وتتهافت النفوس عليها، فإن عناية الله تعالى تتدخل؛ لتضع حدًّا لهذه الفتنة، وترحم ضعاف النفوس من هذا الإغراء، وتحطم كبرياء المغرورين.

وسُنَّة الله في خلقه أنَّ العقوبة تكون من جنس العمل، فكلما ترفَّع الإنسان على خلْق الله، أنزله الله أسفل سافلين، وقد كان قارون متعاليًا متغطرسًا، منازعًا لله تعالى في صفة الكبرياء، وقد أشار الله - سبحانه - إلى عقوبته في جملة قصيرة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أن هذه الأرض التي طالما استعلى فوق ظهرها، وتطاول على الناس فيها، قد ابتلعتْه هو وداره وماله ومتاعه في جوفها، جزاءً وفاقًا لعمله، وأصبح في بطن الأرض عاجزًا، لا ينصره أحد، ولا ينفعه ماله ولا جاهه، ولا خدمه ولا حشمه، وكان قارون يفتخر على موسى بأتباعه الذين شايعوه وهم كثير، فما أعظم حكمة الله تعالى في إهلاك

الكافرين، وفي إمهاله لهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وَرَدَ أن الله تعالى أوحى إلى موسى: إني أمرت الأرض أن تطيعك في قارون وأهله، وخاصته وأتباعه، فقال موسى للأرض: خذيهم، فأخذت منهم إلى الرُّكَب، فاستغاثوا به فلم يُغِثْهم، فأخذتهم شيئًا فشيئًا، حتى تم الخسف بهم.

والخسف: هو انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها وعكسه، لقد ذهب الطاغية، وذهبت أمواله، ومصدر فتنته، وهكذا نهاية كل متجبر ومتكبر.

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن موسى ﷺ قال: إن مات هؤلاء كموت عامة الناس فاعلموا أن الله لم يرسلني إليكم، وإن ابتدع الله بدعة، ففتحت الأرض فاها، وابتلعتْهم وكل مالهم، فهبطوا أحياءً إلى الهاوية، تعلمون أن هؤلاء قد ازدروا الربَّ، فلما فرغ موسى من كلامه انشقت الأرض التي هم عليها وابتلعتهم وبيوتهم، وخرجت نار من الأرض أهلكت المئتيْن والخمسين رجلًا.

عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أَمَرَ الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»[١].

وفي صحيح البخاري: عن سالم، أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء؛ إذ خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[٢].

قيل: إنه لما كان يوم عيد بني إِسْرَائِيلَ قام موسى، فقال: يا بني إِسْرَائِيلَ، مَنْ سرق قطعْناه، ومن افترى جلَدناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن كان محصنًا رجمناه، فقال قارون: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بني إِسْرَائِيلَ يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضَروها، فناشدها موسى بالذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدُقي، فقالت: جعل لي قارون جُعلًا على أن أقذفك بنفسي، فخرَّ موسى ساجدًا وهو يبكي، فقال: يا رب، إن كنتُ رسولك فاغضب لي، فأوحى الله إليه أنْ مُرِ الأرض بما

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن (٣/ ٤٠) (٨١٧٧، ٧٦٣٠) وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٩١٤) عن أحمد والبزار، وبنحوه عن أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٠٨٨).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٢٦٩) ورقمه في البخاري (٣٤٨٥، ٥٧٩٠).

شئت؛ فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إِسْرَائِيلَ، إن الله تعالى بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون ومن كان معه، فدعا موسى على قارون فانتقم الله منه.

وقد خسف الله بماله الأرض لَمَّا قال بنو إِسْرَائِيلَ: إن موسى دعا الله لِيُهلك قارون، ويرث ماله، فدعا موسى ربه حتى خسف بقارون وكنوزه الأرض، وفي بعض الآثار: لا أجعل الأرض بعدك طوعًا لأحد.

قال قتادة: خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها كل يوم قامة، لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة، وبعد أن خسف الله الأرض بقارون ندم الذين حسدوه على ما كان فيه، وحمدوا الله على أنه لم يعاقبهم، وأدركوا أن سعة الرزق لا تدل على خير في الإنسان قال تعالى:

الِاعْتِبَارُ بِنِهَايَةِ قَارُونَ

٨٢- ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ[1] بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أما الذين تمنوا أن يكونوا مثل قارون في كثرة المال والمتاع فحينما رأوا مصيره البائس الذي انتهى إليه، حمدوا الله تعالى أنه لم يستجب لهم ما تمنوْه بالأمس، فقد أدركوا أن الثراء ليس علامة على رضى الله تعالى على خلقه، فهو سبحانه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن أحب، كما في المسند وغيره عن ابن مسعود ﷺ مرفوعا: «**إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم، كما قسَّم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب**»[2].

ومعنى ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ اعلم أنَّ، أو ألم تر أنَّ، أو أعجب لأنَّ.

فكأن هؤلاء القوم لما رأوا نهاية قارون، قالوا معتبرين متعظين خائفين من نزول العذاب: إن الله تعالى يوسِّع رزقه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، وتوسعته لا تدل

---

(١) قرأ حفص ويعقوب بالبناء للفاعل في (لخسف)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) من حديث طويل برقم (٣٦٧٢)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف ابن أبي حازم البجلي، وقد حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٥٧١) وأخرجه البزار (٣٥٦٢) زوائد، والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبغوي (٢٠٣٠) والطبراني في الكبير (٨٩٩٠).

على محبته لعبده، وتضييقه لا يدل على غضبه، ولولا لطف الله ورحمته بنا لخسف بنا كما فعل بقارون، ولكنه سبحانه منَّ علينا فلم يعاقبنا.

لقد كان قارون منافقًا كافرًا، ألم تعلم أن الله لا يفلح الكافرين في الدنيا ولا في الآخرة؛ فهم لا يفوزون بالسعادة في الدارين.

فصار هلاك قارون، عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه على ما هو فيه، ندموا، وتغيَّر فكرهم الأول.

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ قَارُونَ

٨٣- ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

في هذه الآية ترغيب في الدار الآخرة، وإخبار عن السبب الموصل إلى السعادة الأبدية، وهو عدم التكبر على الخلق، وعدم الإفساد في الأرض، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وبهذا تبيَّن رجحان كِفّة الإيمان في الميزان، وخسران القيم المادية التي تكون سببًا في التكبر على الناس، فمتاع الدنيا يعطيه الله تعالى لمن يحب ومن لا يحب، يعطيه للمؤمن والكافر، والصالح والعاصي، وهو نعيم فانٍ، ومتاع مؤقت، حلاله حساب، وحرامه عذاب وعقاب، وإن نعيم الدار الآخرة لا يحول ولا يزول، وقد جعل الله هذا النعيم لعباده المتواضعين من خلق الله، الذين لا يفسدون في الأرض بالمعاصي والشرك، وكبائر الذنوب، ولا يتعالون على الناس استطالة وترفعًا، فهؤلاء لهم الدرجة العالية الرفيعة يرون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم أصحاب النعيم السرمدي الذي لا يحول ولا يزول.

عن عدي بن حاتم ﷺ قال: لما دخل على النبي ﷺ أَلْقَى إليه وسادة، فجلس على الأرض فقال: **«أشهد أنك لا تبغي علوًا في الأرض ولا فسادًا»**[1].

---

(١) أخرجه ابن مردويه، «فتح القدير» (٤/ ١٨٤). وهذا الجزء من حديث طويل عند الحاكم، والحكيم الترمذي وابن مندة والعسكري، وهو حديث ضعيف كما في كشف الخفا ومزيل الإلباس (١/ ٨٧) عن جرير بن عبدالله البجلي، وفي سنده جهالة.

والعاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة لمن اتقى عذاب الله، وعمل الطاعات، وترك المحرمات.

كان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله - يردد هذه الآية حتى قُبض، وقال عليٌّ ﷺ: أُنزلت في أهل التواضع من الوُلاة وأهل المقدرة.

إن رسل الله الكرام كان فيهم الثري والفقير، وفيهم من جمع الله له بين النبوة والملك، وفيهم من عاش على الكفاف، ولكن الثري فيهم لم يبخل ولم يطغ، والفقير منهم لم يعجز ولم يهن.

ومحمد ﷺ كان مثالًا أعلى للتواضع ومعيشة الكفاف، مع أن الله تعالى أرسل له الملَك الموكل بالجبال؛ ليعرض عليه أن تكون له جبال مكة ذهبًا تسير معه أينما سار، فقال: أجوع مرة، فأشعر أني بحاجة إلى ربي فأسأله، وأشبع مرة، فأشكر نعمة الله عليَّ.

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»**[1].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: عز وجل **«الكبرياء والعظمة إزاري وردائي، فمن نازعني واحدًا منهما قصمته ولا أبالي»**.

وفي لفظ **«أدخلته النار»** بدل **«قصمته...»** وفي رواية **«قذفته في النار»** و**«أدخلْتُه جهنم»**[2].

وهذا الوعيد لمن أحبَّ ذلك، أما من يتجمل ويتزين دون تكبر فلا حرج عليه، كما جاء في الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[3].

---

(١) مسلم (٤/٢١٩٩) من حديث عياض بن حمار برقم (٢٨٦٥) في نهاية حديث طويل.

(٢) الحديث في صحيح مسلم، ينظر مشكاة المصابيح برقم (٥١١٠) ج ٣٠ و«المسند» (٨٨٩٤، ٩٧٠٣).

قال محققوه: حديث صحيح، وإسناده حسن، رجاله رجال الصحيح، غير عطاء بن السائب فقد روى له أصحاب السنن، وروى له البخاري حديثًا واحدًا،

(٣) مسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٨) وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣) والبيهقي (٨١٥٢) وابن أبي شيبة (٨٩/٩) بألفاظ متقاربة.

وبهذا يتبيّن أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد فيها، وعدم امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ليس لهم نصيب في الدار الآخرة.

ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ وَجَزَاءُ الْمُسِيئِينَ

٨٤- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

الحسنة، اسم جنس، يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، والسيئة، كل ما نهى الشارع عنه نهي تحريم.

وما دامت العاقبة للمتقين، فإن ثوابهم يكون في الدار الآخرة التي يقع فيها الجزاء، كما كتب الله على نفسه الحسنة بعشر أمثالها وأكثر، ومضاعفة الحسنة يستلزم أن يقترن بها من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، بحسب حال العامل وعمله ونفعه ومحله ومكانه، فالإخلاص في العمل مثلًا، يختلف عن الرياء، والفقير المتصدق يختلف عن الغني المتصدق، وهكذا، والسيئة يُجزى العبد بمثلها ولا يُضاعف جزاؤها، رحمة منه وفضلًا، فمن أخلص التوحيد والعمل لله تعالى وفْق شرع الله سبحانه، فله الجنة والنعيم الدائم، ومن جاء بالشرك والكفر والأعمال السيئة فله جزاء عمله.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل].

تَعْقِيبُ السُّورَةِ عَلَى قِصَّتَيْ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ وَعْدُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ

٨٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

وبعد التعقيبات المباشرة على قصتي فرعون وقارون، يأتي التعقيب الأخير ليخاطب النبي

ﷺ ويُعْلِمَهُ أن الضعيف لا يبقى ضعيفًا، والقوي لا يبقى قويًا، كما اتضح ذلك مع الذين استضعفوا في الأرض، في صدر السورة، وهذه السورة نزلت بمكة، والقلة المسلمة فيها كانوا ضعفاء، وكانوا بحاجة إلى شد الأزر، ولذلك فقد طمأنتهم هذه الآية على المستقبل.

وقد انتهت المدة المكية بالتآمر على قتل النبي ﷺ فخرج مهاجرًا إلى المدينة، وبينما هو في الجُحفة بين مكة والمدينة اشتاق إلى مكة، فتوجه إليها قائلًا: **«والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»**[1].

فأنزل الله عليه يُطمئنه، ويبيِّن له أن الذي أنزل عليه القرآن، وفرض عليه تبليغه وتلاوته والدعوة إليه، وأوضح له المنهج، وبيَّن فيه الحلال والحرام، وشرع له التكاليف، وأمره بالتمسك به، لَمُرْجِعُه إلى مكة التي خرج منها في وقت محدد، هو يوم فتح مكة، فيوم الفتح: هو موعد عودته ﷺ إلى مكة.

وهذا أولى من قول بعضهم: إن المعنى: لرادك إلى الموت، أو إلى يوم القيامة.

وبعد أن بيّن النبي ﷺ طريق الهداية ورسم المنهج لعباده الله، بيّن سبحانه أنهم إن اتبعوك - أيها الرسول- ففي ذلك سعاتهم في الدنيا والآخرة، وإن أبوا إلا العصيان والإعراض عن طريق الهدى، فلم يبق إلا الجزاء على الأعمال، وربك أعلم بأهل الهدى والضلال فيجازى كُلًّا بعمله وقوله.

قل -يا محمد- لمن قال عنك: إنك لفي ضلال مبين، مِنْ كُلِّ من لم يؤمن بك إلى يوم القيامة: ربي أعلم بالمهتدي والضال، أنا أم أنتم، فينصر أهل الهدى ويؤيدهم، وتكون العاقبة لهم، ويخذل أهل الضلال والكفر، وتكون الدائرة عليهم.

خَمْسَةُ تَكَالِيفَ لِمَنْ شَرَّفَهُ اللهُ بِالرِّسَالَةِ الْعَالَمِيَّةِ، هِيَ خِتَامُ السُّورَةِ

٨٦- ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ أنه لم يكن يتطلع إلى نزول الوحي عليه، ولم يكن يؤمل أن

(١) من حديث عبد الله بن عَدي بن الحمراء، وأبي هريرة في «السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٣٨-٤٢٤٠) وابن ماجه (٣١٠٨) والترمذي (٣٩٢٥) و«المسند» (١٨٧١٥، ١٨٧١٧) وابن حبان (٣٧٠٨).

ينْزل عليه هذا القرآن، وإنما هو اختيار الله له ورحمته به، واصطفاؤه من بين البشر.

وهكذا يذكِّر الله تعالى رسوله ﷺ بنعمته عليه، بإنزال الوحي وعموم الرسالة، فضلًا منه ورحمة، فأرسلَك الله - أيها الرسول - بهذا الكتاب، رحمة للعالمين، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وما دام الله قد منحك -أيها الرسول- هذه النعمة العظيمة، فإن عليك القيام **بخمسة تكاليف**، يجب أن تحرص عليها؛ لأنها دعائم الفلاح في الدنيا والآخرة:

التكليف الأول: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

أي: لا تكن عونًا لمشرك على شِرْكه، ولا لكافر على كُفْره، ولا لضال على ضلاله، ولا تشارِكْهم، ولا تعنهم، ولا تحضر مجالس أعياد كُفرهم، ولا تُعِنْ عليها، ولا تَقْرَبها، بل فارقهم وانبذهم وخالفهم، واحذر موافقتهم، أو التشبه بهم، أو محبتهم وموالاتهم، وكن عونًا للمسلمين، محبًّا لهم.

التكليف الثاني: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾. قال تعالى:

٨٧- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

أي: لا يصرفك أعداء الإسلام عن الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ ما أُنزل إليك من ربك بما يصدر عنهم من كذب وأقوال وأفعال، وإيذاء لك، فلا تلتفت إليهم وامض لشأنك، ولا يمنعك من ذلك مانع، ولا يحول بينك وبينه حائل مهما كان، بل بلِّغ رسالة ربك ولا تنخدع بحالهم، ولا تتبع أهواءهم، واحذر من أهل ملة الكفر أن يُثْنوك أو يَصُدوك عن سبيل الله، مهما كان الصارف لك عن دين الله من تكذيبٍ لك، أو شدة إيذاء من الناس، فهو الذي فرض الله عليك هذا القرآن بإنزاله إليك، فبلغ رسالة ربك، ولا تبالِ بمكرهم.

التكليف الثالث: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

بكافة الطرق: بالحكمة، والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب بالحسنى، وكذا أهل اللَّجاج والخصومة جادلهم بالتي هي أحسن، واجعل الدعوة إلى الله تعالى هي منتهى غايتك وقصدك.

وقطب الدين: هو التوحيد وعدم الإشراك بالله تعالى، ثم العبادة، وسائر التكاليف الشرعية، والأخلاق والآداب، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

التكليف الرابع: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

فالشرك هو أعظم الذنوب، فلا تكن من المشركين في شركهم، ولا في فروعه وشُعبه التي هي جميع المعاصي، ومن لقي الله تعالى وهو يشرك به فإن ذنبه لا يغفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

التكليف الخامس: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. قال تعالى:

٨٨- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[١]﴾

لا تشرك مع الله غيره، فتدعوه، أو تنذُر له، أو تذبح له، أو تستغيث به، أو تطلب المدد منه، أو تستجير به، أو تعتقد فيه نفعًا أو ضرًّا، فلا معبود بحق إلا الله، فأخلِص له العبادة، فإنه لا يجِبْ أن يُعبد ولا يُحبَ إلا الله، الباقي بعد فناء خلقه.

والمخاطب في ذلك كل مسلم، وكل من يدعو الناس إلى دين الله، ورسول الله ﷺ داخل في كل ذلك دخولًا أوَّليًا.

وكيف يدعو العبد مع الله غيره، وكل شيء هالك وفانٍ إلا وجهه سبحانه، فهو وحده الدائم الباقي، بعد فناء جميع مخلوقاته ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]. وفي الآية إثبات الوجه لله سبحانه.

والله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، قال لبيد:

ألا كل شيء ما عدا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وهي أصدق كلمة قالها شاعر[٢].

---

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) كما صح ذلك في حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) بهذا فسرها ابن عباس كما في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير، «فتح الباري» (٨/ ٣٦٩) ورواه النسائي في التفسير (٦/ ٤٢٥) وبه قال مجاهد كما عند الطبري (١٩/ ٦٤١).

فكل شيء زائل من مال وجاه، وسلطان ومتاع، وحكم وقوة، وغير ذلك.

جاء في الأثر: لما نزلت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن]. قالت الملائكة: هلك أهل الأرض.

فلما نزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. قالت الملائكة: هلكت كل نفس.

فلما نزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قالت الملائكة: هلك أهل السماء والأرض(١).

وله سبحانه فصْل القضاء يوم القيامة، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

وإليه وحده سبحانه المرجع والمصير بعد الموت؛ للحساب والجزاء، فيثيبكم أو يعاقبكم على ما قدمتم وما أخرتم، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم.

كان ابن عمر ﷺ إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخِرْبة، فيقف على بابها، فينادي بصوت حزين ويقول: أين أهلك؟ ثم يرجع على نفسه، ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٢).

وهكذا تم تفسير (سورة القصص) ولله الحمد والمنة.



(١) أخرجه ابن مردويه، «فتح القدير» (٤/ ١٨٤) وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، «الدر المنثور» (١١/ ٥٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار» عن عمر بن سليم الباهلي عن أبي الوليد عن ابن عمر به.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ(٢٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (العنكبوت) هي السورة التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الروم)، وقبل سورة (المطففين)، وهي من آخر ما نزل بمكة.

وعدد آياتها تسع وستون آية عند الجميع عدا الحمصى، وعدها الحمصى سبعون آية، وكلماتها تسع مئة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة آلاف ومئة وخمسة وستون حرفًا، وسميت سورة (العنكبوت) لذكره فيها.

وهي سورة مكية على الأرجح، وقيل: ما عدا الآيات العشر الأُوَل منها فإنها مدنية، وهي كالسور المكية تتناول العقيدة، والرسالة، والبعث:

١- أما جانب التوحيد فهو في بدء السورة، حيث الحديث عن الإيمان، وما يتعرض له المؤمنون من فتن. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾.

٢- وأما جانب النبوة، والوحي، والرسالة فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة:

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

٣- وأما جانب البعث والحشر والنشر، والحساب والجزاء، فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ .

والجهاد الذي تتحدث عنه السورة هو جهاد النفس، وجهاد الدعوة، والصبر على الفتن وأذى أعداء الإسلام.

جاء في أول السورة قوله تعالى ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾[٦]. وقد رُبِط هذا الجهاد بآخر آية في السورة، وفيها وعد بجني ثمرة هذا الجهاد ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ الآية [٦٩].

والجهاد في الآيتين: هو جهاد النفس والهوى والشيطان، وجهاد الدعوة والصبر على ا لأذى.

وهذا الجهاد هو المحور الذي تدور حوله السورة، وهو موضوعها الأصيل، وفي إطار هذا المحور تتكون السورة من **ثلاثة عناصر**:

العنصر الأول: عن حقيقة الإيمان، وجهاد النفس، وجهاد الدعوة، وسنة الابتلاء والفتنة، ومصير كلٍّ من: المؤمنين والمنافقين والكافرين، وهذا العنصر اشتملت عليه الثلاث عشرة آية التي في أول السورة.

العنصر الثاني: لمن يستعجل ثمرات الجهاد، ويستبطئ مراحله، ويتمثل هذا في جهاد الرسل الكرام، وصبْرهم على أقوامهم، مع قلة الثمرة، وطول المدة، وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد، عليهم السلام.

وتشير السورة في هذا العنصر إلى بعض الطغاة، وهم: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، فتُبيِّن ما لحق بمن كذَّب الرسل من هلاك، وتبيِّن ضخامة جهد الأنبياء، وضآلة الحصيلة، وهذا العنصر من الآية الرابعة عشرة إلى الآية الخامسة والأربعين.

العنصر الثالث: يتناول أسلوب دعوة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالحسنى إلا من ظلم منهم واعتدى.

ثم تربط السورة هذا كله بجملة من الآثار الكونية التي تدعم جانب التوحيد كخلق السموات والأرض، ونزول الماء من السماء، وتسخير السفن في البحار... إلخ، وهذا إلى نهاية السورة.

عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات، وأربع سجدات، يقرأ في الركعة الأولى بالعنكبوت أو الروم، وفي الثانية بـ (يس)[1].

---

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢/ ٤١٨) برقم (١٧٩٢) وفيه سعيد بن حفص النفيْلي، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (١/ ٢٩٣): صدوق تغير في آخر أيامه، وقال ابن القطان: لا أعرف حاله، وهو في «المسند» (١٩٧٥، ٣٢٣٦) وهو حديث ضعيف، ولكنه صحيح بدون ذكر هذه السور كما في حديث صفة صلاة الكسوف والخسوف في «سنن الدارقطني» برقم (٧٨٩).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْحِكْمَةُ مِنِ افْتِتَاحِ بَعْضِ السُّوَرِ بِحُرُوفِ الْهِجَاءِ

١- ﴿الٓمٓ[1] ﴿١﴾﴾

ثلاثة حروف هجائية مقطعة من بين تسع وعشرين سورة مفتتحة بمثل هذه الحروف، وهذه الحروف هي:

١- من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

٢- وفي افتتاح السورة بحروف الهجاء إشارة إلى أن من أغراضها تحدي المكذبين بالقرآن، بالإتيان بمثل أقصر سورة منه، وأن من أغراضها تثبيت المسلمين حين يُفتنون في دينهم، وتثبيت الدعاة إلى الله تعالى حين يُضطهدون ويُعذبون.

ولعل حروف الهجاء تشير إلى إعجاز القرآن، وأنه مكوَّن منها، مع عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

٣- ولعلها أيضًا تشير إلى بدء السورة بكلام عجيب غير مفهوم المعنى؛ حتى يثير ذلك انتباه القارئ والمستمع، ويوقظ قلبه وضميره، فيصغي إليه أيّما إصغاء، فلعله يصادف قلبه، فيزيده هدى إن كان مؤمنًا، أو يجعله يؤمن بعد غفلة وجحود وعناد، إن كان غير مؤمن.

٤- ولعل هذه الحروف تشير إلى ما يحمله القرآن من ثقل في التكاليف، ومن الأحكام والحِكَم، والحلال والحرام.

٥- والسور التي افتُتحت بحروف الهجاء، ولا يَعْقُب هذه الحروف إشارة إلى القرآن،

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على حروف الهجاء الثلاثة، ألف، ولام، وميم، سكتة خفيفة بدون تنفس، وقرأ ورش بنقل حركة همزة (أحسب) إلى ميم (الم) عند الوصل، ويجوز له في الميم المد ست حركات نظرًا للأصل، والقصر اعتدادًا بعارض النقل.

هذا: وقد انفرد المصحف الكوفي بعدّ (الم) آية، وتركها غيره.

كما في أول سور: مريم، والعنكبوت، والروم، لعل السبب في ذلك أنه يعقبها أمر هام خطير، احتاج إلى هذا الافتتاح وهذا التنبيه، كقصة زكريا ويحيى في أول سورة (مريم)، وابتلاء المؤمن وفتنته في أول سورة (العنكبوت)، والإخبار بأمر غيبي هو انتصار الروم على الفرس كما في أول سورة (الروم).

أَقْسَامُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلابْتِلَاءِ وَالْفِتَنِ

٢- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

بعد الافتتاح بحروف الهجاء تحدثت السورة عن حقيقة الإيمان والابتلاء، فقسَّمت الناس إلى **أقسام أربعة**:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مُؤْمِنٌ ظَاهِرُ الْإِيمَانِ بِحُسْنِ عَقِيدَتِهِ مُبْتَلَى بِالْفِتَنِ

أيْ أَظَنَّ الناس حين قالوا: آمنا، أن يتركهم الله بدون ابتلاء ولا اختبار؟! فلابد أن يبتلي الله عباده المؤمنين، كُلًّا على قدر ما عنده من إيمان؛ فالابتلاء طبيعة هذه الدنيا، وهو يتفاوت شدة وضعفًا بحسب الأقدار والمهمات، وهذا من حكمة الله تعالى، فلولا هذا الابتلاء لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ومن سنة الله تعالى أن يبتلى عباده بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والثراء والفقر، والنصر والهزيمة.

سأل سعد بن أبي وقاص ﷺ رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حَسَب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ له في البلاء، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**[1].

وفي لفظ الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: **«وما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وماله وولده،**

---

(١) حديث صحيح عن سعد بن أبي وقاص، أخرجه الترمذي كما في «تحفة الأحوذي» (٧/ ٨٧) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح، وفي «المسند» (١/ ١٧٢). برقم (١٤٩٤، ١٦٠٧، ١٥٥٥) بإسناد حسن من أجل عاصم بن بهدلة (محققوه) وانظر (١٤٨١) وأخرجه الطيالسي (٢١٥) والبيقهي في السنن (٣/ ٣٧٢) والشعب (٩٧٧٥).

حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[١].

وما أشد البلاء حينما يُكلَّف رجل بإصلاح العالَم وتغيير مساره، ودفْع الناس جميعًا إلى طريق التوحيد وخصال البر، كرجال الدعوة، وعلى رأسهم سيد الدعاة محمد ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام قد حمل عبئًا تنوء به الجبال، ولكنه اعتمد على الله تعالى ونهض به، وتعرَّض للإيذاء القولي والفعلي، كما تعرَّض للغُربة والشدة والمعارك المتواصلة، فظلَّ يقاوم تقاليد راسخة، ودُولًا عظمى، ولم يتقهقر ولم تلنْ له قناة، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا.

وفي مثل هذه الدعوات الكبرى، وهذه التكاليف الشاقة يتراجع بعض الناس أمام الإهانات والمصائب؛ لتظهر نتائج هذا الابتلاء في عالم الوجود، فيتميز الصادق من المنافق.

وكما يُبتلى الدعاة إلى الله تعالى بالمحن والشدائد، يُبتلى أهل الإيمان كذلك بالاضطهاد والتعذيب.

قال ابن جُزّي: نزلت هذه الآية في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين، منهم عمار بن ياسر وغيره، وكان كفار مكة يؤذونهم، ويعذبونهم على الإسلام، فضاقت صدورهم بذلك، فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم، وأخبرهم أن ذلك ابتلاء واختبار؛ ليوطِّنوا أنفسهم على الصبر والثبات على الإيمان، وأعلمهم أن الله تعالى يُسلط الكافرين على المؤمنين ليمحِّصهم، ويُظهر الصادق في إيمانه من الكاذب[٢].

وقال القرطبي: المراد بالناس: قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام: كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد بن الوليد، فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكِّن الله الكفار من المؤمنين.

قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلِّية ومعلِّمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختبارًا للمؤمنين وفتنة[٣]. قال تعالى:

---

(١) من حديث أبي هريرة في «سنن الترمذي» (٢٣٩٩) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/ ١١٣).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٠٤).

٣- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

وأنواع الفتن كثيرة، منها: الامتحان بشدة التكاليف الشرعية وكثرتها، ومنها مجاهدة الهوى والشيطان، ومجاهدة المعاصي والنفس والشهوة، والقيام بالطاعات وترك المحرمات.

ومن الفتن: مفارقة الأهل والأحباب والأوطان، والابتلاء بالفقر والمرض، والمصائب في النفس والمال، ونقص الأرزاق، ومنها فتنة جهاد الأعداء، وإقبال الدنيا على الكفار، وعلى أهل الباطل مع غَرقهم في الرذيلة، وهناك فتنة الغُربة في الدين، والوحشة بالعقيدة، حيث يعيش المؤمن غريبًا بدينه في بلده. . . ، ومن ذلك فتنة السجن والتعذيب إلخ.

والفتن كلها ترجع إلى الشبهات وهي تعارض العقيدة، والشهوات وهي تعارض الإرادة، فمن كان إيمانه ثابتًا، رد الشبهات التي ترد على قلبه، فتصرفه عن المعاصي وتصده عن الواجب، وردّ الشهوات التي تدفعه إلى المعاصي والذنوب، وتصرفه عن أمر الله ورسوله، والناس في مجاهدة الهوى والشيطان مقامات ودرجات كثيرة.

وفي سبب نزول هذه الآية وما قبلها ثلاثة أقوال:

الأول: أنه لما أُمر النبي ﷺ بالهجرة، كتب المسلمون الذين هاجروا بدينهم إلى إخوانهم بمكة، أنه لا يُقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا نحو المدينة، فأدركهم المشركون فردُّوهم وآذَوهم، فأنزل الله عشر آيات من أول السورة.

فلما علموا بنزولها خرجوا مهاجرين، فقُتل بعضهم، ونجا بعضهم، فأنزل الله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[1] [النحل].

الثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر حين كان يعذَّب في الله تعالى، ومثله عدد من الصحابة ﭫ[2].

الثالث: أنها نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب، أول من قُتل يوم بدر، رماه عمْرو بن

---

(١) «زاد المسير» (٦/ ٢٥٤) والطبري (١٨/ ٣٥٨) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٣١).

(٢) يُنظَر: ابن سعد (٣/ ٢٥٠) والطبري (١٨/ ٣٥٨) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٣٢).

الحضرمي بسهم فقتله، فقال ﷺ: **«سيد الشهداء مِهْجَع، وهو أول من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة، فجزع عليه أبوَاه وامرأته»**(١) فأنزل الله الآية، وأخبر أنه لابد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله تعالى، وهذا على القول بأن الآيات العشر الأول من السورة مدنية.

عن ابن مسعود ﷺ قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وسمية، وعمَّار، وصهيب، وبلال، والمقداد.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه.

وأما سائرهم، فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهرُوهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالًا، فإنه قد هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة، وهو يقول: أحد، أحد(٢).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وغيرها كثير.

قال ابن عطية: وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص، فهي باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر، ونكاية العدو وغير ذلك(٣).

---

(١) يُنظَر: «حاشية زاد المسير» (٦/ ٢٥٤) و«أسباب النزول» للواحدي (١٩٥) عن مقاتل و«تخريج الكشاف» لابن حجر (١٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٥٠) قال في زوائده: وإسناده ثقات، وهو في «صحيح ابن ماجه» برقم (١٢٢) بإسناد حسن، وصححه الحاكم (٣/ ٢٨٤) ووافقه الذهبي وابن حبان (٧٠٤).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٠٥).

وهذه سُنَّة الله في عباده أن يختبر مؤمني هذه الأمة وسلفها، كما اختبر مَن قبلهم من الأمم.

والمعنى: ولقد فتنَّا الذين قبلهم من الأمم واختبرناهم، ممن أرسلنا إليهم رسلنا، وأنزلنا عليهم كتبنا؛ ليميز الله الذين صدقوا في إيمانهم بتكليفهم وقيامهم بما كُلفوا به من الكاذبين منهم بعدم قيامهم بما كُلفوا به، والله سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن، ويُظهر في عالم الوجود مَنْ صدق في إيمانه ومَنْ كذب فيه، وتسجله عليهم الملائكة لإقامة الحجة عليهم، يوم لقاء الله تبارك وتعالى.

روى البخاري عن خباب بن الأرت ﷺ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يُخرج خبثها وطيّبها.

الْقِسْمُ الثَّانِي: كَافِرٌ مَجَاهِرٌ بِكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ

٤- ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

هؤلاء هم الذين يَفتنون المؤمنين ويعملون السيئات، ويرتكبون الجنايات، وعلى رأسها الشرك، فهم لن يُعجزونا، ولن يُهملوا، ولن نغفل عنهم، ولن يفلتوا من عقاب الله لهم، ووعْد الله لا يتخلف.

والمعنى: أظَنَّ من لم يدخلوا في الإيمان،وأشركوا بالله تعالى واقترفوا الموبقات والمعاصي، أظنوا أن أعمالهم ستُهمل، فأقدموا عليها، وسهل عليهم ارتكابها.

أظن هؤلاء، أنهم يسبقوننا، أي: يفوتون من عذابنا، فلا نقدر عليهم؟ بئس الحكم حكمُهم، الذي فيه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة تمنعهم من عقاب الله لهم.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٦١٢، ٦٩٤٣، ٣٨٥٢).

فإذا كانت الفتنة والابتلاء سنة جارية في الخلق، فإن عقاب المفسدين سنة جارية أيضًا لابد من وقوعها، وهم لن يتخلصوا أيضًا من الفتنة والابتلاء.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مُحْسِنٌ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ وَيَعْمَلُ لَهُ

٥- ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾

هذا هو العبد المؤمن الذي يأمل ثواب الله تعالى، ويخاف حسابه وعقابه، وقلبه موصول بالله تعالى، ويصبر على جهاد النفس، ومشقة العبادة، فهو يرجو لقاء الله، ويطمع في ثوابه، ويعمل للدار الآخرة، فإن من اعترف بالآخرة وعمل لها حتى يلقى الله؛ فإن الله تعالى سيجازيه خيرًا في دار النعيم.

فليطمئن هذا النوع من الناس إلى تحقيق ما يصبو إليه، وليستعد لِمَا يؤمِّل، وليعمل لذلك اليوم، وليثبُت على إيمانه، فإن أَجَل الله الذي أجَّله للبعث والحشر والنشور، والثواب والعقاب، لآتٍ قريبًا لا محالة، فليبادر العبد لصالح العمل، فإن الله هو السميع لما يقوله العباد، العليم بأفعالهم الظاهرة والباطنة.

فيا أيها المحب لربه، المسارع في مرضاته، المشتاق لقربه ولقائه، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آتٍ لا محالة، فتزوّد للقائه، واستصحب الرجاء وتأمل الوصول، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في دعوى الإيمان، نال المطلوب، وفاز بالمرغوب، ومن كان كاذبًا في دعوى الإيمان لم تنفعه دعواه، ولم ينل ما تمناه.

فإن كنتم مؤمنين حقًا بالبعث والنشور، وبتحقيق وعد الله تعالى لمن يأمل في جزيل ثوابه فلا تستبطؤوا النصر والجزاء الذي وعدكم الله به، كما جاء ذلك في قول المؤمنين: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكان جواب الله تعالى عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكما كان النبي ﷺ يدعو ربه، ويقول: «**اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم شدد وطأتك على مضر،**

اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، الله أكبر، ثم خر ساجدا»[١].

الْقِسْمُ الرَّابِعُ: مُجَاهِدٌ يَقُومُ بِتَكَالِيفِ الإِيمَانِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْفِتَنِ

٦- ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

أي: إن الفتنة والابتلاء، لابد معهما من احتمال المشاق، وجهاد النفس، والعدُوّ، والهوى، والشيطان، والصبر على طاعة الله تعالى وعن معاصيه، ومن جاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وجاهد نفسه بحملها على الطاعة وترك المعاصي فإن نفْعَ عمله هذا يعود عليه؛ لأنه يفعل ذلك طلبًا للثواب الموعود به على جهاده، والله تعالى غني عن أعمالهم وعن عبادتهم ومجاهدتهم، ولو كانوا على قلب رجل واحد فيهم.

وفي هذا بشارة لمن يجاهد نفسه وهواه؛ والله تعالى لو أعطى كل ما في الدنيا لِعبْدٍ من عباده، فلا حرج عليه، وفي الآية رجاء وتخويف للعبد؛ والله سبحانه إذا أهلك العباد بعذابه، فلا يسأل عما يفعل، وهو الغني عن جميع خلقه، الفعّال لما يريد، وقد أمرنا الله تعالى بجهاد النفس والهوى والشيطان، لأنه يعلم أن الأوامر والنواهي تحتاج إلى جهاد، ولأن النفس تتثاقل عن الخير، والشيطان ينهي عنه، والكافر يُمنع من إقامة الدين، وكل هذا يحتاج إلى جهاد وسعي ومكابدة، ولذا، سُمي جهادًا.

ثَلاثَةُ أَمْثِلَةٍ لِفِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ

٧- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

أخبر سبحانه في هذه الآية عن المؤمنين العاملين للصالحات، بأنه جلَّ شأنه -مع غناه عن الخلق أجمعين- فإنه يحسن إليهم أحسن الجزاء، ويكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما عملوا، من الواجبات والمستحبات فيقبل القليل من صالح

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٨٠٤، ١٠٠٦، ٦٩٤٠) ومسلم (٢٩٤، ٦٧٥) وأبي داود (١٤٤٢) وابن ماجه (١٢٤٤) و«المسند» (١٠٥٢١)، وانظر (٧٢٦٠،٧٤٦٥،٩٤١٣)، في المسند أيضًا، وأخرجه ابن حبان (١٩٦٩، ١٩٨٦).

الأعمال، ويثيب عليه الكثير، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

وفي مقدمة هذا الصنف، المهاجرون في سبيل الله في كل زمان ومكان، وهم الذين يبذل الكفار في كل عصر ومصر جهدًا في فتنتهم عن دينهم، والله تعالى يعلم حالهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من صدق الإيمان والإقبال عليه، فهم في أعلى رتبة البدار إلى الله تعالى.

وإذًا فليطمئن المؤمنون على تكفير السيئات وجزاء الحسنات، وليصبروا على مشقة الجهاد، وليثبتوا على الفتنة والابتلاء، فإن المستقبل مشرق، والأمل متحقق.

والذين صدقوا الله ورسوله فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ ليمحونَّ الله عنهم سيئاتهم، وليجزينهم أجرهم بأحسن ما عملوا، فيثيبهم عليها الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها، أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

الْفِتْنَةُ الْأُولَى: صَلَاحُ الِابْنِ وَفَسَادُ أَحَدِ الْوَالِدَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا

٨- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

هذا لون من ألوان الفتنة متمثلة في فتنة الأهل والأحباب، وهو مثال على صلاح الابن وفساد أحد الوالدين، ووصينا الإنسان بوالديه أن يبرهما، ويحسن إليهما بالقول والعمل غاية الإحسان؛ لأنهما سبب وجوده، ولهما عليه الفضل بعد الله تعالى، وبرُّهما يأتي في المرتبة الثانية بعد الأمر بتوحيد الله تعالى، وهذا كالمقدمة للنهي عن طاعتهما في معصية الله تعالى.

فإنْ بذَلا كل ما في وسعهما، وحرصا كل الحرص على أن تَكْفُر بالله تعالى فلا تمتثل أمرهما في الإشراك بالله تعالى، ولا في معصية الله ﷻ، إليَّ مرجعكم ومصيركم يوم القيامة فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيِّئها، وأجازيكم عنها.

سبب النزول:

١- قال البغوي وغيره: نزلت هذه الآية، والتي في سورة لقمان [١٤، ١٥]، والأحقاف [١٥]. في سعد بن أبي وقاص ﷺ، وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس، لَمَّا أسلم سعد، وكان من السابقين الأولين، وكان بارًّا بأمه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثْت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنتَ عليه، أو أموت، فتُعيَّر بذلك أبد الدهر، فجاء سعد إليها، وقال: يا أماه، لو كان لك مئة نَفْسٍ، فخرجتْ نفْسًا نفْسًا، ما تركتُ ديني، فكلي إن شئت أو لا تأكلي[١].

فأنزل الله تعالى يأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما بالقول والعمل، وألَّا يعُقَّهما ويسيء إليهما، وألا يطيعهما في الشرك بالله تعالى، ولا في معصيته سبحانه، إذ **«لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﷻ»**[٢].

فبرُّوا والديكم، وقدِّموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله فإنها مقدمة على كل شيء.

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: أُنزلت فيَّ أربع آيات، فذكر قصته، وقالت أم سعد: أليس الله قد أمر بالبر، واللهِ لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى أموت، أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعِموها شجروا فاها، فنزلت الآية[٣].

---

(١) «مختصر تفسير البغوي» (٢/ ٧١٣) ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ص١٩٥، وأصله في «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٨) في كتاب «فضائل الصحابة»، باب فضل سعد بن أبي وقاص، و (٣٤) وفي «سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٩) و«المسند» (١/ ١٨١) برقم (١٦١٤) بإسناد حسن من أجل سماك بن حرب، وهو من رجال مسلم، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وهو فقرة من الحديث بنحوه، وانظر (١٥٦٧) وقد أخرجه البزار (١١٤٩) وابن حبان (٦٩٩٢)، وأبي داود (٢٧٤٠) وذكره ابن كثير من رواية أبي القاسم الطبراني بسند فيه ضعف وانقطاع، قلت: صَحَّت الرواية بنحوه عند مسلم والترمذي وغيرهما.

(٢) من حديث طويل بلفظ (إنما الطاعة في المعروف) عن عليٍّ، رواه أحمد (٥/ ٦٦) برقم (٦٢٢، ١٠٩٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وصححه الحاكم (٣/ ٤٤٣) وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/ ٤٤) وأصله في البخاري (٤٣٤٠، ٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠) وأبي داود (٢٦٢٥) والنسائي في الكبرى (٧٧٨٠، ٨٦٦٨)، والبزار (٥٨٥) والطيالسي (٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي عند تفسير الآية (٢/ ١٥٠) برقم (٣١٨٩) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه بنحوه مسلم برقم (١٧٤٨) (٣٣) (٤/ ١٨٧٧) وأحمد (١٥٦٧) وأبو داود الطيالسي (٢٠٨) والنسائي وغيرهم.

٢- هذا: ولَمَّا أسلم عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وهاجر مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى المدينة قبل هجرة النبي ﷺ، خرج أبو جهل وأخوه الحارث، وكانا أخويْ عياش لأمه، فنزلا بعيَّاش، وقالا له: إن محمدًا يأمر ببر الوالدين، وقد تركتَ أمك، وأَقْسَمَتْ ألَّا تطعَم ولا تشرب، ولا تأوي بيتًا حتى تراك، وهي أشد حبًّا لك منها لنا، فاخرج معنا، فاستشار عمر، فقال له: هما يخدعانك، فلم يزالا به حتى عصى نصيحة عمر، وخرج معهما، فلما انتهَوْا إلى البيداء، قال أبو جهل: إن ناقتي كلَّت، فاحملني معك. قال عياش: نعم، ونزل ليوطِّئ لنفسه ولأبي جهل، فأخذاه وشداه وثاقًا، وذهبا به إلى أمه، فقالت له: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد، وأوثقته عندها، فقيل: إن هذه الآية نزلت في شأنهما.

ففي حادثة سعد وعياش أن أمهما دعتْهما إلى الكفر، وأن الله تعالى قد نهى عن طاعتهما في ذلك، ويحدث مثل هذا في كل زمان ومكان، سِيَّمَا ممن يدخلون في الإسلام وهم من أبوين غير مسلمين.

وفي هذا الصنف من الناس، نزلت هذه الآية؛ لتبيِّن أن الإحسان إلى الوالدين لا يقتضي طاعتهما في معصية، والشرك بالله تعالى على رأس المعاصي، فلا تعارض بين بر الوالدين وعدم طاعتهما في المعاصي.

والآية تقرر أن الإيمان قد انتصر على فتنة القرابة والرحم، مع الإبقاء على البر والإحسان للوالدين، والمؤمن معرَّض لمثل هذا في كل وقت. قال تعالى:

٩- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

ثم أعاد الله تعالى ذكر حال المؤمنين لتحريك النفوس إلى نيل مراتبهم، وبيان أن المؤمن الذي يعمل الصالحات سيدخله الله الجنة في جملة عباده الصالحين، ويَحشُره في جملتهم وزمرتهم مع الأنبياء والأولياء، والشهداء والصديقين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان الصحيح والعمل الصالح، عنوان السعادة والرضى.

والصلاح أبلغ صفات المؤمنين، كما قال تعالى على لسان سليمان ﷺ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. وكما قال سبحانه على لسان يوسف ﷺ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الْفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ: فِتْنَةُ الْأَذَى مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ

١٠ - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

وبعد ذكر حال المؤمنين الْخُلَّص، يأتي ذكر حال المنافقين الْخُلَّص، وبعد فتنة الوالدين تأتي فتنة الأذى من الناس بسبب الإيمان؛ إذ لابد للإيمان من قوة وثبات، وتحمُّل مشاق الدعوة فوق مِنكَبٍ قَوي، وعَزْم من حديد؛ فإن من الناس من يكون مؤمنًا في الظاهر، فإذا أذاه أعداء الإسلام جزع من عذابهم وأذاهم كما يجزع من عذاب الله، ولا يصبر على الأذى في سبيل الله، وربما ارتد عن إيمانه، فكأنه جعل فتنة الناس مانعًا له من الإيمان بالله، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج].

أي: ومن الناس فريقًا لا صبْر له على المحن، ولا ثبات له على النوازل، فإن حُبس، أو استُدعىَ للمسألة، أو ضُرب أو أُخذ شيء من ماله، صدّته هذه الفتنة عن الثبات على الإيمان، وجعلها بمثابة عذاب الله له، فتزعزع إيمانه وقلَّ يقينه، وفرَّط في شيء من دينه.

قال الضحاك: نزلت هذه الآية في أناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة مَن يؤذيهم، وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله[1].

وكانوا يكتمون ذلك عن المسلمين، فكانوا من المنافقين، وكان ذلك قبل الهجرة، ومن هؤلاء: الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعليُّ بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، فهؤلاء استزلَّهم الشيطان فعادوا إلى الكفر؛ لضعف إيمانهم بسبب ما لحقهم من الأذى، وظلوا يتظاهرون أنهم من المسلمين، وكانوا يأتون بأخبار المسلمين إلى المشركين بحكم مخالطتهم لهم، وقد رضي المشركون منهم هذه

---

(١) ابن جرير (١٨/ ٣٦٥).

المخالطة لهذه المصلحة، فعدَّهم الله منافقين بهذه الآية، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. ومع أن هؤلاء يؤمنون بالبعث والجزاء إلا أنهم يُسوُّون بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فخافوا عذاب الناس وأهملوا عذاب الله، فلم يكترثوا به إيثارًا للعاجل على الآجل، وكان الأجدر بهم أن يجعلوا عذاب الله أعظم من أذى الناس، ولكنهم جعلوه كعذاب الله وهم مصدقون بالبعث والجزاء(١).

وقال ابن عطية: نزلت هذه الآية في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإسلامهم.

قال ابن عباس ﷺ: فلما خرج كفار قريش إلى بدر خرجوا في صفوفهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أصحابنا وأُكرهوا، فاستغفِروا لهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

قال: فكتبتُ لمن كان بمكة بهذه الآية أنه لا عذر لهم، فخرجوا مهاجرين، فلحقهم المشركون ففتنوهم وردُّوهم إلى مكة، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

فكتب المسلمون بذلك إليهم فخرجوا، ويئسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل].

فكُتب لهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجًا، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم، فنجا من نجا، وقُتل من قُتل(٢).

وفي الآية تشبيه بين حال المؤمنين الذين منعهم عذاب الله لهم في الآخرة من الكفر في الدنيا، وحال المنافقين الذين منعهم إيذاء الكافرين لهم من الإيمان بالله تعالى، وفيها بيان أنهم لو كانوا مؤمنين حقًّا لصبروا وتشجَّعوا، ورأوا في العذاب عذوبة، وفي المحنة منحة؛ فإن العاقبة للمتقين.

قال الفخر الرازي: أقسام المكلَّفين ثلاثة:

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٠/ ٣١٥).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٠٨).

١- مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده. ٢- وكافر مجاهر بكفره وعناده.

٣- ومذبذب بينهما، يُظهر الإيمان بلسانه ويُضمر الكفر في فؤاده.

فلما ذكر تعالى القِسْمين في قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ذَكَر القسم الثالث هنا في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

واللطيفة في الآية أن الله تعالى أراد أن يبيِّن شرف المؤمن الصابر، وخسة المنافق الكافر، فقال: هناك أوذي المؤمن في سبيل الله ليترك إيمانه ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يُظهر موافقتهم، ويكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، ومع هذا لم يفعله، بل ترك الله بالكلية[1].

ثم أخبر سبحانه أنه لو جاء نصر قريب من ربك بالفتح لأهل الإيمان بالنصر لهم على عدو لهم، لقال هؤلاء المذبذبون المرتدون عن الإيمان: إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم، ونتابعكم، فقاسمونا الغنائم، وأعطونا من ثمرات النصر على العدو.

ثم بيَّن ﷻ أنه يعلم ما تنطوي عليه نفوسهم من الإيمان والنفاق، والخير والشر، فيجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

ولو كان يقينهم تامًّا، وإسلامهم خالصًا لما توقفوا ساعة، ولركبوا كل هول في سبيل نُصرة دينهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

وقال سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

ولما كان نزول هذه الآية قريبًا من وقت الهجرة من مكة، فقد وعد الله المسلمين في هذه الآية بالنصر على عدوهم في الأعوام القادمة، وبيّن سبحانه أن المنافقين سيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ننصركم ونؤازركم، ومن ذلك ما حدث يوم فتح مكة، حيث قال ذلك من بقي حيًّا منهم؛ لينالوا مرتبة السبق إلى الإسلام.

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٥/ ٣٧) بتصرف يسير.

فقد ذُكر أن: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وجماعة من وجهاء العرب، وقفوا على باب (عمر) ﷺ ينتظرون الإذن لهم بالدخول، وكان على الباب أيضًا سلمان وبلال وعمَّار، فتمعَّرت وجوه البقيَّة، فقال لهم سهيل بن عمرو: لِمَ تتمعَّر وجوهكم؟! دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب (عمر) فإن ما أعده الله لهم في الجنة أكثر[1].

وعلى ضوء ما سبق، ففي سبب نزول هذه الآية أقوال:

الأول: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة، كان قد أسلم، وخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هاربًا إلى المدينة، قبل هجرة النبي ﷺ إليها، فأرسلتْ أمه في طلبه، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى يعود، فلما جيء به قيَّدتْه، وقالت: واللهِ لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بمحمد، وأخذت تضربه بالسياط، وتعذبه حتى كفر بمحمد ﷺ، فنزلت فيه الآية، ثم هاجر بعد ذلك وحسن إسلامه.

الثاني: أنها نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الشرك[2].

الثالث: أنها نزلت في جماعة من المسلمين أجبرهم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فارتدوا[3].

قال ابن عباس ﷺ: وهم الذين نزلت فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء]. قال تعالى:

١١- ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٠/ ٣١٦).

(٢) قاله الضحاك كما في الطبري (٢٠/ ١٣٢).

(٣) ذكره الواحدي ص ١٩٦ والطبري (٢٠/ ١٣٣) عن عكرمة عن ابن عباس، والسيوطي في «أسباب النزول» عن ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم، يُنظَر: «تحقيق زاد المسير» (٦/ ٢٥٨).

يبيِّن سبحانه في هذه الآية أن هذه الفتنة في الدين، بالتعذيب والاضطهاد للخروج من الإسلام، إنما هي لتمييز المؤمنين من المنافقين، فيميز الله لعباده وللحفظة كل فريق من الآخر، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد]. وعِلْم الله تعالى شامل ومحيط بما كان وما يكون وما هو كائن، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد خصَّ ﷻ من هذا العموم صنفين من الناس في هذه الآية، وهذان الصنفان هما: المؤمنون والمنافقون؛ لما يترتب عليهما من الجزاء الأخروي، وهذا من باب الترغيب والترهيب.

والمراد بالعلم في الآية: إظهار حال المؤمنين وحال المنافقين؛ ليُظهر الله علمه فيهم ليطَّلع عليه العباد فيعتبروا ويتعظوا، ويطَّلع عليه الملائكة فيسجلوا عليهم أعمالهم وأقوالهم؛ لإقامة الحجة عليهم يوم الحساب والجزاء، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه عنهم، لأنهم قد يحتجون على الله تعالى بأنهم لو ابتُلوا لثبتوا.

الْفِتْنَةُ الثَّالِثَةُ: فِتْنَةُ الْإِغْوَاءِ وَالْإِغْرَاءِ

١٢- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم تأتي الفتنة الأخيرة، وهي فتنة الإغراء والإغواء، أي: إغراء غير المسلمين للمسلمين كي يتبعوهم، ويخرجوهم من دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

وكما حدث في بدء الدعوة من إغواء غير المسلمين للمسلمين؛ حتى يخرجوا من دينهم، مع إيهامهم أنهم يتحملون عنهم التَّبِعَات، والأوزار، والخطايا التي تتكرر في كل يوم؛ فإنه لا يخلو زمن من مثل هذه المقولة، فيقال: افعل هذا وذنبك في رقبتي، أي: إن

كان هناك عقاب - كما يزعم - وكما يقال: إن المسيح يفدي ذنوب البشر بنفسه، ويتحمل عنهم أخطاءهم.

والمعنى: وقال الذين جحدوا توحيد الله تعالى، ولم يؤمنوا بوعده ووعيده، للذين صدَّقوا الله ورسوله على سبيل الإغواء والتضليل: اتركوا دين محمد، واتبعوا ديننا، وسوف نتحمل عنكم آثام خطاياكم وتبعاتها.

ثم كذَّبهم الله سبحانه في مقولتهم، وبيَّن أنهم ليسوا بحاملين شيئًا من خطاياهم؛ لأن المسؤولية فردية، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]. وإنهم لكاذبون فيما قالوا وادَّعوا.

عن ابن الحنفية قال: كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقَّون الناس إذا جاؤوا إلى النبي ﷺ يُسْلِمون، يقولون: إنه يُحرِّم الخمر، ويحرِّم الزنى، ويحرِّم ما كانت تصنع العرب، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم، فنزلت هذه الآية والتي بعدها(١).

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال في معنى الآية: هو قول كفار قريش لمن آمن منهم، يقول: قالوا: لا نُبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا، وإن كان عليكم شيء فهو علينا(٢).

والمراد بالذين كفروا في الآية وقت التنزيل: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب -قبل أن يُسلم- فهم الذين قالوا للمسلمين، ومنهم عمر بن الخطاب: لا نُبعث نحن ولا أنتم، فإن حدث هذا فنحن نتحمل عنكم أوزاركم.

وهكذا قال العاص بن وائل، لخبَّاب بن الأرتِّ: لئن بعثني الله ليكونن لي مال فأقضيك دينك، وهو الذي قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

ومثله قول بعضهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وهذا من باب المغالطة والجدال بالباطل، وأمثال هؤلاء الذين عنتْهم الآيات من منكري البعث والمكذبين بالرسالة الخاتمة، كثير، في طول الأرض وعرضها.

---

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٣٠١).

(٢) الطبري (١٨/ ٣٦٨) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٣٩).

الْإِنْسَانُ لَا يَتَحَمَّلُ وِزْرَ غَيْرِهِ

١٣- ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

وكل إنسان يتحمل إثم نفسه، وهؤلاء سيحملون أثقالهم، أي: أوزارهم وذنوبهم كاملة يوم القيامة، ويحملون -بالإضافة إلى حملهم الثقيل- أوزار الذين أضلوهم، وأغووهم، وكانوا دعاة لهم إلى الضلال، وسببًا في كفرهم أو معصيتهم، ويوم القيامة يُسألون عما اختلقوا وافتروْا من الأكاذيب والأباطيل على الله تعالى سؤال توبيخ وتقريع، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

١- جاء في الحديث الصحيح: عن جرير بن عبد الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**[1].

ومعنى السُّنَّة الحسنة: أنه أحيا أمرًا مشروعًا في الإسلام كان مندثرًا، وسنَّه للناس، أي أحياه لهم، كمن يعمد مثلًا إلى مسجد لا يوجد فيه اعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، فيشيع هذه السُّنَّة في الناس ليقتدوا به، فالاعتكاف مثلًا مشروع، ولكنه سنة شبه مهجورة في الغالب، فإذا عمد إنسان إلى إحياء هذه السنة في بلده، فيكون قد سنَّ للناس سنة حسنة، وليس معناه أنه ابتدع أو أحدث في دين الله ما ليس منه.

وَمَثَلُ السُّنَّة السيئة، كمن يقلده الناس في التدخين، أو الكذب، أو الجهر بالمعصية.

٢- وفي الصحيح: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**[2].

٣- وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا تُقتَل نفس ظلمًا إلا كان**

---

(١) يُنظَر: الحديث بطوله في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٦٠) برقم (٢٦٧٤).

على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[(١)].

٤- وصحَّ في الحديث أيضًا عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون من المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال ﷺ: **«إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»**[(٢)].

٥- وفي الحديث الصحيح: **«إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة أُخِذ من سيئاتهم فطرح عليه»**[(٣)].

فالإنسان إذًا يتحمل أوزار مَنْ سنَّ فيهم سنة سيئة، ويتحمل أوزار من ظلمهم بصورة من صور الظلم، ولا يتحمل شيئًا من أوزار غيره في غير هاتين الحالتين.

خَمْسَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ فِتْنَةِ الرُّسُلِ

١٤، ١٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

وبعد بيان فتنة المؤمنين تأتي فتنة الرسل، وهذه خمسة أمثلة لفتن اعترضت طريق الدعوة والدعاة، وهي تُمثِّل العقبات التي ابتُلي بها رسل الله: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويأتي ذكرها هنا تسلية لرسول الله ﷺ، واقتداء بهم في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى، والصبر على أذى الأقوام.

والسورة ذَكرت -من قصص هؤلاء الرسل- ما يتعلق فقط بجانب الفتنة والابتلاء الذي اعترض كل رسول منهم؛ لأن الابتلاء هو موضوع السورة.

---

(١) من حديث ابن مسعود في البخاري برقم (٣٣٣٥، ٦٨٦٧، ٧٣٢١) ومسلم برقم (١٦٧٧) والترمذي برقم (٢٦٧٣) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (٣٤٤٧) وابن ماجه برقم (٢٦١٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

(٣) «صحيح مسلم» (٤/ ١٩٩٧).

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: جِهَادٌ طَوِيلٌ وَثِمَارٌ قَلِيلَةٌ: فِتْنَةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ

كان الناس قبل زمن نوح ﷺ على التوحيد، حتى مات خمسة رجال صالحين، فبنى الناس على قبورهم بناء، ووضعوا لهم تماثيل في مجالسهم؛ كي تُذكِّرهم صورهم بالله تعالى، فيرغبون في الطاعة والعمل الصالح أسوة بهم، ثم تغيَّر الجيل، وبسبب الغلو في محبتهم صُنِعت لهم تماثيل، ومع مرور الزمن نُسي الأصل، وزين الشيطان للناس عبادتهم، فعبدوهم من دون الله، فبعث الله إليهم نوحًا يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وترك عبادة هذه الأصنام الخمسة: وَدٍّ، وسُواعٍ، ويغوثَ، ويعوقَ، ونسرٍ.

أخذ يدعوهم ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يهتدوا، واستمروا على كفرهم وطغيانهم، مع شدة صبر نوح وحلمه واحتماله، فلمَّا لم يستجيبوا له، وأعلمه الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا، عندئذ دعا عليهم نوح ﷺ قائلًا ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ نوح: ٢٦] فأمره ربه بصنع السفينة التي نجا فيها هو ومن آمن به، وعم الطوفان الكافرين به جميعًا ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكان نوح ﷺ قد خلَّف ثلاثة أولاد هم: **سام** أبو العرب، وفارس، والروم (الجنس السامي)، **وحام** أبو القبط (مصر)، والسودان، والبربر، **ويافث**: أبو الترك، والصقالبة، ويأجوج ومأجوج، أما ابنه الرابع كنعان فقد كان مع الغرْقى لكفره.

وقد بعث الله نوحًا نبيًّا ورسولًا على سن الأربعين في أرجح الأقوال، ودعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فأسلم ثمانون منهم على أوسع الأقوال في هذه المدة الطويلة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة.

أخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، وغيرهما، عن ابن عباس ﷺ قال: بعث الله نوحًا وهو ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله تعالى، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، حتى كثر الناس وفشوا[١]، وقيل غير ذلك[٢].

---

(١) ابن أبي شيبة (١٣/ ٦٠) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٤١) والحاكم (٢/ ٥٤٥) مرفوعًا وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «زاد المسير» (٦/ ٢٦٢) وغيره.

وقيل: إن نوحًا ﷺ كان أول رسول؛ لأنه أول من أُرسل إلى عبدة أصنام، وقبله كان إدريس، وشيث، وآدم عليهم السلام، ولكن الشرك حدث بعدهم، أي: في زمن نوح ﷺ.

وقيل: ألف سنة، ولم يقل تسع مئة وخمسين عامًا؛ لأن الألف أعظم العدد، وأكثر ما عرف العرب.

والاستثناء منه يدل على حقيقة العدد، أما ترك الاستثناء فإنه يدل على التقريب، أو يوهم بأقل منه.

وجاء ذكر القصة إجمالًا؛ لبيان فتنة نوح مع قومه وصبره على أذاهم، وابتلائه ومكابدته لهم، كأن الله تعالى يقول لنبيه: لقد ابتُلِي قبلك الأنبياء -وعلى رأسهم نوح- فصبر وصابر، فكان ثمرة جهاده الطويل وجُهْده الضخم، حصيلة ضئيلة ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. فأنت -يا محمد- أولى بالصبر منه، لقلة مدتك وكثْرة من آمن بك، لقد كذَّب قوم نوح نوحًا، وهددوه بالضرب، واتهموه بالجنون، فماذا كانت عاقبة المكذبين؟

دعا نوح ربه أن ينتصر له، وألَّا يدع أحدًا منهم على وجه الأرض، بعد أن أعلمه الله تعالى أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فأخذهم الطوفان وأغرقهم الله وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والطغيان.

وأنجى الله نوحًا ومن آمن به، وركب معه في السفينة مِنْ أهله وأولاده وأتباعه، قيل: كانوا ثمانية وسبعين ذكرًا وأنثى، منهم أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، وأغرق الله ابنه الكافر كنعان مع الغرقى.

وكان قوم نوح - وقتئذ - هم أهل الأرض جميعًا، وكانوا يسكنون في جنوبي العراق، حول مدينة الكوفة حاليًا، ورست السفينة على جبل (الجودي) بالعراق في جزيرة ابن عمر بالموصل، شرقي دجلة، قرب قرية (باقِرْدى) وقد غمرتْها الثلوج في الدولة العباسية، وآثارها باقية إلى يومنا، عبرة لمن يعتبر، وهي عند ملتقى الحدود السورية التركية حاليًا على الضفة الشرقية لنهر دجلة، ويُرى جبل الجودي بوضوح من بلدة (عين ديوار) السورية[١].

وكانت العراق وما حولها هي المنطقة الآهلة بالسكان - آنئذ - وقد غمر الطوفان بلاد

(١) ينظر: أطلس القرآن الكريم د/ شوقي أبو خليل (٢٤، ٢٥ وتفسير ابن عاشور للآية.

ما بين النهرين، وجعل الله هذه القصة عبرة وعظة لكل من يأتي بعدهم.

قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، حتى نظرتها هذه الأمة، وقد جعلها الله تذكرة لنعمه على خلقه، وكيف نجَّاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة].

قال أنس بن مالك: جاء ملك الموت إلى نوح، فقال: يا أطول النبيين عمرًا، كيف وجدتَ الدنيا ولذَّتها؟ قال: كرجل دخل بيتًا له بابان، فقال - أي نام - في وسط البيت هُنيهة، ثم خرج من الباب الآخر[١].

وهكذا جاءت فتنة نوح عليه السلام في هذه السورة في آيتين اثنتين لبيان العبرة منها.

المِثَالُ الثَّانِي: حِوَارُ الْحُجَّةِ وَالْمَنْطِقِ: فِتْنَةُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ

١٦- ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

دعا إبراهيم قومه إلى توحيد الله تعالى بالعقل والحجة والبرهان، وقد كانوا عبَّاد أصنام وكواكب، قال لهم: أخلصوا العبادة لله وحده، واتقوا سخط الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شر لكم.

فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه لا خير فيه بوجه من الوجوه، ولا سبيل إلى الحصول على مرضاة الله تعالى، ونيل كرامته إلا بإخلاص عبادته وتحقيق تقواه.

وهكذا بدأ إبراهيم ﷺ بدعوة قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، والخوف من عقابه، وإخلاص التقوى له، وطلب الرزق منه وحده، والشكر على نعمه.

ثم ثنَّى بتحبيب الإيمان إلى قلوب قومه، وأنه خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ثم ثلَّث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع الذي يتنافى مع الجهل.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الدنيا» ص٢٢٩ .

وفي هذه الآية وما بعدها سلَك إبراهيم في دعوته لقومه أبلغ الأساليب وأحكمها؛ حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه، وبيَّن لهم منافع ذلك، ووجوب الحرص على سلوك طريق الحق والعلم، وترك طريق الضلال والجهل، ونفَّرهم من عبادة الأوثان، وبيَّن لهم تفاهتها وعجزها، وحضَّهم على طلب الرزق ممن يملكه، قال لهم إبراهيم:

١٧- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

في هذه الآية تنفير لقوم إبراهيم، وبيان ما هم عليه من فساد الاعتقاد؛ حيث إن إبراهيم عليه السلام أقام لقومه أدلة كثيرة على وجوب التوحيد، منها أنه قال لهم: إنكم تعبدون أوثانًا: كواكبًا، وأفلاكًا، وأصنامًا من جماد، تخلقونها بأيديكم، وتسمونها آلهة، وهي مخلوقة مثلكم، لا تملك أدنى خصائص الألوهية، كالرزق ونحوه، فهي مخلوقة، ناقصة، لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ومن كان كذلك فهو لا يستحق مثقال ذرة من العبادة، فالله وحده هو المنعم على عباده، المستحق للشكر دون سواه، فاستعدوا للقائه بإخلاص التوحيد والعبادة له، واشكروه على أنعمه قبل أن يأتي يوم يجازى فيه كل إنسان على عمله، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فالمعنى: إنما تعبدون من دون الله أصنامًا تنحتونها بأيديكم، لا تضر ولا تنفع، وتخلقون أصنامًا تسمونها آلهة كذبًا وبهتانًا، وهذه الآلهة لا يمكنها أن ترزقكم، فالتمسوا الرزق من الله وحده، فهو الرزاق ذو القوة المتين، واعبدوه واشكروه على نعمه؛ فإنكم سترجعون إليه فيجازيكم على أعمالكم.

وقد وصف إبراهيم قومه بالشرك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]. فهم مِثْلُ مشركي العرب في عبادتهم أوثانًا وصورًا منحوتة يصنعونها بأيديهم، ويعتقدون أنها آلهة، كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]. وكانت أصنامُ قوم إبراهيم صُوَرًا.

والأوثان: جمع وثَن، وهي صورة من حجر أو خشب مجسمة على صورة إنسان، أو حيوان.

والوثن أعم من الصنم؛ لأن الصنم يطلق على حجارة مصورة مثل أكثر أصنام العرب،

كصنم ذي الخُلَصة، والوثن أعم من ذلك، فهو يشمل ما له صورة وماليس له صورة من كل ما عُبد من دون الله.

وكان قوم إبراهيم يعترفون لله تعالى بالإلهية، والخلق، والرزق، ولكنهم يجعلون له شركاء في العبادة؛ ليكونوا لهم شفعاء كحال مشركي العرب. قال تعالى:

١٨- ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

قال لهم إبراهيم: إنكم إن تكذبوني فيما جئت به إليكم من التوحيد، والرسالة، والرجعة إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ فقد وقع ذلك لغيري، كأقوام: نوح، وعاد، وثمود، فأهلكهم الله وأبادهم، فاحذروا الوقوع في الشرك، وأخلصوا العبادة لله وحده، وارغبوا فيما عند الله، تظفروا بجنات النعيم.

وكل رسول مهمته البلاغ البيِّن إلى قومه، فما عليَّ ولا على غيري من رسل الله إلا البلاغ الواضح، وقد فعلتُ ذلك، وفعَلَه كل رسول قبلي، فهذه هي وظيفة الرسل، وقد بيَّنتُ لكم حقيقة الدعوة، وما تضمنتْه من الخير، وبيَّنتُ لكم فساد ما أنتم عليه من عقيدة، ووجوب توجُّهكم إلى الله وحده لطلب الرزق منه، وأعلمتُكم أنه لا مفر من الله إلا إليه، وأخبرتكم بما حلَّ بالأمم التي كذبت رسل الله من عذاب الله وسخطه، أما الحساب والجزاء فمردُّه إلى الله وحده.

وَقْفَةٌ مَعَ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ نِهَايَةِ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ

١٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟[١] كَيْفَ يُبْدِئُ[٢] ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

وبعد هذا البيان الساطع يقف القرآن وقفة قبل نهاية قصة إبراهيم؛ ليخاطب كل مُنكِرٍ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلف عنه بتاء الخطاب في (أو لم يروا) لمناسبة (وإن تكذبوا)، والباقون بياء الغيب، وهو الوجه الثاني لشعبة، والضمير يعود على (فقد كذب أمم).

(٢) وقف حمزة وهشام بخلف عنه على (يبدىء) و (ينشىء) بإبدال الهمزة حرف مد، ثم إبدالها ياء ساكنة للرسم، ثم تسكُن للوقف، ويجوز عليه السكون المحض والروم والإشمام والتسهيل بالروم.

للإيمان، كافرٍ بالله تعالى واليوم الآخر، وهي آيات معترضة في ثنايا القصة؛ لتسلية الرسول ﷺ، وبيان شأنه مع قريش وغيرهم.

ولعل الأرجح أن تكون هذه الآيات إلى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ من كلام الله تعالى، وهي أدلة ناطقة بالتوحيد، هادمة للشرك في رسالة كل رسول، فكأن إبراهيم عليه السلام يقول لقومه: وكيف تكذبونني في قولي لكم: إنكم ستُبعَثون، وتُرجَعون إلى الله تعالى فيحاسبكم، ويجازيكم على عبادتكم للأصنام من دون الله، وهي لا تملك شيئًا.

ومن أدلة البعث الذي تنكرونه ما جاء في هذه الآية:

أولم يعلم المنكرون للبعث، كيف ينشئ الله الخلق من العدم، ثم يعيده مرة ثانية، فلا يتعذر عليه شيء من ذلك؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وهذا البدء للخلق مشاهد صباح مساء، في جميع الكائنات الحية، في الإنسان والحيوان والنبات والأشجار والسحاب والرياح، بدء مستمر وإعادة مستمرة للإنسان وقت الموتة الصغرى، ولسائر الكائنات عندما يأتي عليهم الليل بظلامه، فتسكن الحركات وتنقطع الأصوات، وتصير كالموتى، ولم تزل كذلك حتى ينفلق الإصباح، فينتبهوا من رقدتهم، ويُبعثوا من موتهم قائلين (الحمد الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور).

آيَاتُ اللهِ فِي الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ

٢٠، ٢١- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ[1] ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾

فإن أنكرتم ذلك فسيروا في الأرض للتأمل، والتدبر، والاعتبار، وتتبعوا صنع الله تعالى وآياته في الخلق والإنشاء.

والسير في الأرض يفتح العيون على غير ما أَلِفتْه، فيثير انتباهها؛ لينظر كيف وُجد فيها أول كائن حي، انظروا كيف تبدأ حياة النبات والحيوان والإنسان لتروْا كيف أن البدء

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها من (النشاءة)، والباقون بإسكان الشين وحذف الألف، وهما لغتان في مصدر نشأ.

والإعادة أمْرهما يسير على الله تعالى، وهو سبحانه لا يعجزه شيء من ذلك.

وانظروا إلى من سبقكم من الأمم، أين ذهبوا؟!

انظروا إلى ديارهم ومساكنهم وآثارهم، وانظروا إلى اختلاف ألسنة الخلق وألوانهم وطبائعهم، واستدلوا بذلك على أن الذي لم يعجزه بدء الخلق لا تعجزه الإعادة، فالذي أنشأ النشأة الأولى، ينشئ النشأة الآخرة من باب أولى، وهي نشأة لا تقبل موتًا ولا نومًا، وإنما هو خلود دائم، في نعيم دائم، أو عذاب دائم.

وأهم ما تشتمل عليه النشأة الآخرة، هو الثواب والعقاب؛ فقد أوجدها الله تعالى لذلك، حيث يتحقق فيها ما أعده الله تعالى لأصحاب الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

ومن قدرته تعالى أنه ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه بِعَدْلِه؛ لأنه اختار طريق الضلال، ورَغِب عن طريق الهدى، فاقترف في دنياه ما أهَّله إلى هذا المصير.

﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته بفضله وإحسانه؛ فيثيبه على طاعته لأنه اختار طريق الهدى، وكان مستعدًا له، فآمن وعمل صالحًا، وعلم أنه عائد إلى ربه، ومَجْزيٌّ على ما قدَّم، وهو سبحانه الحاكم المتصرف لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، له الخلق والأمر، لا يظلم الناس شيئًا، ولا يظلم مثقال ذرة، وإليه سبحانه ترجعون، ثم تحاسبون، وتجزون على ما اكتسبتم في الحياة الدنيا.

وليس لكم من قوة تمتنعون بها من العودة إلى الله تعالى في يوم البعث والنشور للحساب والجزاء، قال تعالى:

٢٢- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أي: وليس هناك أنصار ولا أعوان لكم من الملائكة، أو الجن، أو ممن كنتم تعبدونهم من دون الله، يمنعونكم من لقاء الله، والانقلاب إليه، والأموال والأولاد والجاه والملك لا تغني عنكم شيئًا، فلن تفوتوا الله تعالى، ولن تهربوا منه، ولن تفلتوا من عقابه، فلا تغتروا أيها المكذبون المرتكبون للمعاصي والذنوب، وتظنون أن الله غافل عنكم، أو أنه عاجز عن حسابكم وعقابكم.

فالله تعالى لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، أو لا يعجزه أحد حتى ولو كان في السماء.

وما لكم غير الله من ولي يلي أموركم، أو ينصركم من الله إن أراد بكم سوءًا. قال تعالى:

٢٣- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أي: والذين جحدوا القرآن وكذَّبوا بالبعث لا مطمع لهم في رحمتي يوم لقائي، حين يعاينون العذاب الموجع الذي أُعد لهم، فبسبب كفرهم انقطع ما بيني وبينهم، واقدموا على ما أقدموا عليه من الكفر والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عقاب الله، واليأس من رحمة الله لا يكون إلا من الكافر، إذ ليس لديه سبب واحد يجعله يطمع في رحمة الله تعالى، ولو أنه طمع في رحمة الله تعالى لعمل لها، ولكن اليأس ملأ قلوبهم بسبب كثرة جناياتهم وذنوبهم التي أوْبقتهم وأهلكتهم.

جَوَابُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ لَهُ

٢٤- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

فما كان جواب قوم إبراهيم له بعد أن نصحهم، وظهرت حجته عليهم، إلا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوا إبراهيم بالسيف، أو أحرقوه بالنار لتستريحوا منه.

وذلك أنه بعد الخطاب السابق الذي جاء موجهًا لكل منكر لدعوة الله تعالى، ويدخل فيهم قوم إبراهيم دخولًا أوليًا؛ لأن سياق الحديث عنه ﷺ.

بعد هذا يبيِّن القرآن جواب قوم إبراهيم له حين دعاهم إلى الله تعالى، حيث إن بعضهم قال لبعض، أو أن الرؤساء منهم قالوا للتابعين: اقتلوا إبراهيم أو حرِّقوه، فجمعوا له حطبًا في مدة طويلة، وحوَّطوا حوله، وأضرموا فيه النار، فارتفع لهبها إلى عنان السماء، ثم قيدوا إبراهيم، ووضعوه في منجنيق، وقذفوه فيها، فسلبها الله خاصية الإحراق، وجعلها بردًا وسلامًا عليه، بعدما مكث فيها أيامًا.

وفي هذا عبرة وعظة لمن ينتفع بالعبرة، ممن هو مستعد للإيمان؛ فيعلم صدق ما جاءت به الرسل، فقد عجز الطغيان والجبروت كله عن إحراق رجل واحد بقدرة الله تعالى،

وجعل الله النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وعجز الأعداء أن يُلْحِقوا به ضررًا، مع إصرارهم على الكفر، وبقاء قلوبهم على الجحود مع وجود المعجزات.

عِبَادَةُ الأَوْثَانِ تَقْلِيدٌ لِلآبَاءِ وَمُجَامَلَةٌ لَهُمْ

٢٥- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ[1] بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

ولما يئس إبراهيم من قومه، وانقطع رجاؤه في إيمانهم، أراد أن يبيِّن لهم حقيقة الأمر قبل أن يتركهم ويعتزلهم؛ حيث لم يتأثروا بمعجزة نجاته من النار، وهي معجزة ماثلة أمام أعينهم، فبيَّن لهم إبراهيم ﷺ أن الأوثان التي عبدوها من دون الله ليست عن قناعة منهم، ولا عن اعتقاد باستحقاقها للعبادة، إنما عبدوها مجاملة من بعضهم لبعض، وتواصُلًا ومودة فيما بينهم، وتحرجًا ألا يوافق بعضهم بعضًا، وأن يخالف ما عليه المجتمع، أو يخالف ما ورثوه عمن سبقوهم، وهي آلهة باطلة.

ويوم القيامة يكْفُر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ المعبود من العابد. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ وهذه المودة ستنقطع وتزول ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أو ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُم﴾ بتنوين مودة، ونصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في القراءة الأخرى، أي: من أجل المودة والصلة بينكم، ويكون مصيركم أنتم وهم إلى النار، وليس هناك من ينصركم، أو يمنعكم من عذاب الله.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس برفع تاء (مودة) بلا تنوين، على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وإنما كافة ومكفوفة، والتقدير: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا هي مودة، و(بينكم) بالخفض على الإضافة، وجملة المبتدأ والخبر صفة لأوثانًا.

وقرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر وخلف بنصب تاء (مودة) وتنوينه، ونصب (بينكم) على أن (مودة) مفعول لأجله، أو مفعول ثان للفظ (اتخذ).

وقرأ الباقون وهم حفص وحمزة وروح بنصب (مودة) بلا تنوين على أنها مفعول لأجله أو مفعول ثان لـ(اتخذ) و(بينكم) بالخفض على الإضافة.

وفي قراءة ثالثة (مَوَدَّةُ بَيْنِكُم) بمعنى: أنكم اتخذتم من دون الله أوثانًا هي مودة بينكم.

ويوم القيامة تنقلب المودة والمحبة التي كانت بينكم في الدنيا لغير الله، إلى كُره وبغض، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]. وكل مقلِّد يلعن من قلَّده ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

أما المؤمنون فإن حُبَّهم لله أشدُّ من حُبِّكم لشركائكم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولذا: فإن مصيرهم يوم القيامة مختلِف؛ فالمؤمنون في جنات نعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

أما المجرمون فإنهم يُسحَبون في النار على وجوههم، والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر]. ، فكيف تعبدون مَنْ يتبرأ ممن عبده ويلعنه، ويُقرن معه في النار؟

هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ مُرُورًا بِمِصْرَ

٢٦- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ[1] ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

كانت مُحصِّلة إبراهيم ﷺ من دعوته لقومه في وطنه بالعراق، أقل من مُحَصِّلة نوح ﷺ بعد أن مكث فيهم مدة طويلة، وأقام لهم ألوانًا مختلفة من أدلة التوحيد، وعلى صِدْق ما جاءهم به من عند الله، وبيان ما هم عليه من باطل، فكانت ثمرة هذه الدعوة، أن آمن به مِنْ قومه رجل واحد منفرد، هو لوط ﷺ، كما آمن بإبراهيم زوجه سارة، والدليل على إيمان سارة ما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«إن إبراهيم حين مرَّ على جبار مصر، فسأل إبراهيم عن سارة، ما هي منه؟ قال: هي أختي، ثم جاء إليها، فقال لها: إني قلت له: إنك أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيري وغيرك»**[2].

وقد حدثت هذه القصة أثناء هذه الهجرة، حيث كانت سارة في صحبة إبراهيم،

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربي إنه)، والباقون بإسكانها.

(٢) يُنظَر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٣٧١) عن أبي هريرة.

واعتراهما أمْرُ الملِك، وآمن به ابن أخيه لوط حين رأى النار لم تحرقه.

وفي التوراة: إن إبراهيم كانت معه زوجه سارة، وزوج لوط، واسمها ملكة، ولوط هو ابن هاران أخي إبراهيم، فلوط - يومئذ - من أمة إبراهيم عليهما السلام، وكان لوط مؤمنًا موحِّدًا قبل أن يصدِّق بإبراهيم نبيًّا ورسولًا؛ لأن أنبياء الله تعالى لا يقع منهم الكفر أو الشرك.

وخرج إبراهيم من العراق، وهو ابن خمس وسبعين سنة، ومعه من آمن به، وهما: زوجه سارة، وابن أخيه لوط.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ وهذا وقف تام، يبدأ القارىء بما بعده، حتى لا يلتبس المعنى.

وقال إبراهيم: إني مهاجر من وطني إلى حيث أمرني ربي؛ لأبلغ دعوته، وأطلب مرضاته، فهاجر الثلاثة من (كوثى) بسواد الكوفة إلى الشام، ثم إلى فلسطين، وهو أول من هاجر إلى الله تعالى، وترك بلده فرارًا بدينه لعبادة الله وحده ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات]. إنه هو العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار الأرض إلى مُهَاجَرِ إبراهيم»**[1]. قال تعالى:

٢٧- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولما هاجر إبراهيم من وطنه، وترك أهله وقومه، عوَّضه الله ذرية تمضي فيها الرسالات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]. ورزقه الله الزوجة الصالحة، فولدت له إسماعيل عليه السلام ورزقه الثناء الحسن بين الناس جميعًا في الدنيا والآخرة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وجعله إمامًا للناس، وجعل النبوة في ذريته، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا

(١) أخرجه أبو داود بمعناه عن ابن حواله في كتاب الجهاد، باب سكنى الشام، برقم (٢٤٨٢). وتصحيح الألباني (٢١٦٩) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٨١) وأخرجه الحاكم أيضًا ولفظه في مسند أحمد (٦٩٥٢) بإسناد ضعيف، لضعف شهر بن حوشب وفي مسند أبي داود الطيالسي (٢٢٩٣) وانظر (٦٨٧١) في مسند أحمد وهما عن عبدالله بن عمرو.

وهو من ذريته.

فالأنبياء في بني إسرائيل من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، إلى عيسى عليهم السلام.

ومحمد ﷺ من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولا يوجد نبي من سلالة إسماعيل غير محمد عليهما السلام.

والكتب التي نزلت من عند الله تعالى: كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن، نزلت على هؤلاء الرسل، فالنبوة والكتب اجتمعت في نسل إبراهيم، وهذا معنى ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ وجمع الله لإبراهيم بين الثناء الحسن، والذكر الجميل في الدنيا، كذكره ﷺ في التشهد في كل صلاة، هو وآل بيته.

وإبراهيم في الآخرة من أهل الجنة، قد أسند ظهره إلى البيت المعمور في أعلى الجنان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢].

وهكذا جمع الله لإبراهيم خيري الدنيا والآخرة جزاء إيمانه العميق، وعمله الصالح، ووفائه في تبليغ رسالة ربه.

المِثَالُ الثَّالِثُ: فِتْنَةُ الرَّذِيلَةِ وَالشُّذُوذِ الجِنسِيِّ: لُوطٌ مَعَ قَوْمِهِ

٢٨- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ[1] لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

هاجر لوط بن هاران مع عمه إبراهيم من سواد الكوفة بالعراق إلى الشام، ولَمَّا كان لكل منهما أغنام، فقد نزل لوط بوادي الأردن مع إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت (بحيرة لوط)، فعاشرهم وصاهرهم، ونزل إبراهيم في مدينة الخليل بفلسطين، وأرسل الله لوطًا إلى أهل: سدوم، وعمورية، وقرى المؤتفكة، وكانوا قومًا قد أسرفوا في الشهوات الجنسية إسرافًا منكرًا، وشذُّوا عن الفطرة في الزواج المشروع، ففشت فيهم فاحشة اللواط لأول مرة في تاريخ البشرية، فكانوا يفضلون إتيان الذكور على الإناث، ولم يقع هذا الشذوذ والانحراف الجنسي على وجه الأرض قبل قوم لوط ﷺ، وهذا إلى جوار ما

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالإخبار في (إنكم) والاستفهام في (أئنكم) الثانية، في أول الآية، التالية، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما، وكل منهم على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال.

هم فيه من شرك، فجمعوا بين الشرك واللواط، وتقطيع السبيل وفشو المنكرات في مجالسهم.

يقول الوليد بن عبد الملك: لو لم يذكر الله تعالى قصة قوم لوط في القرآن لم يكن يُصدَّق أن رجلًا يعلو رجلًا، وبعد أن أنكر لوط على قومه فعل الفاحشة التي لم يُسبقوا إليها قال:

٢٩، ٣٠- ﴿أَئِنَّكُمْ[١] لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ[٢] وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ[٣] فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

دعا لوط قومه إلى توحيد الله تعالى، وإلى ترك هذه الفعلة القبيحة التي لم يفعلها أحد قبلهم، وكانوا يفعلون فاحشة اللواط بمن مرَّ بهم من المسافرين، فترك الناس المرور بهم، وكانوا يخذفون عابري السبيل بالحصى، فأيُّهم أصابه الحصاة يقول من رماها: أنا أولى به، وكان بعضهم يجامع بعضًا في مجالسهم، ويتضارطون فيها، ويبزق بعضهم على بعض، وينهبون مال المارة ويروِّعونهم، وكان مِزاحُهم فاحشًا، فيحلُّون الإزار، ويصفِّرون، ويفعلون المنكرات علنًا.

وفي هذه الآية **ثلاثة أوصاف لهم، وهي:**

١ - إتيان الرجال. ٢- وقطع الطريق على المارة. ٣- وإتيان المنكر في مجالسهم علنًا.

عن أم هانئ، قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: **«كانوا يخذفون أهل الأرض، ويسخَرون منهم»**[٤].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالإخبار في (إنكم) في الآية السابقة والاستفهام في (أئنكم) الثانية، في هذه الآية وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما، وكل منهم على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال.

(٢) قوله تعالى (وتقطعون السبيل) عدّها آية، المدنيان والمكي والحمصي، وتركها غيرهم.

(٣) للمدني الأول قولان في عدّ (وتأتون في ناديكم المنكر) وترك عده، ولا يوجد خلاف بين بقية المصاحف في عدم عدّها.

(٤) الترمذي في تفسير سورة العنكبوت برقم (٣١٩٠)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، إنما نعرفه من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سِمَاك، وهو في «المسند» (٦/ ٣٤١)، برقم (٢٦٨٩١، ٢٧٣٨٣) بإسناد ضعيف، لضعف أبي صالح مولى أم هاني، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير سماك بن حرب فقد روى له مسلم وهو صدوق (محققوه) وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٠٠١) والحاكم (٢/ ٤٠٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٦٧٥٥).

والغريب أن المدنية الغرْبية المعاصرة سارت في الطريق نفسه، حذو النعل بالنعل، فهم يطالبون بتقنين اللواط، والاعتراف به على أساس أنه من الحرية الشخصية، مع ما يتعرضون له من الأمراض الفتاكة.

لقد رفضوا الإطار الذي وضعه الإسلام لقضاء الشهوة الجنسية في قناته المشروعة (الزواج) وجعْل هذا الزواج من طرُق العفاف والإحصان، بل إن الرجل يأتي أهله ويكون له بقضاء شهوته وشهوتها أجر وصدقة.

وقد وضع الإسلام سدودًا وطرقًا وقائية أمام المثيرات والمغيرات، فبيَّنها وحذَّر منها، كالخلوة والنظرة، وأعطى الشاب الأمرد حُكْمًا خاصًا، وحرم النظر للعورة وأمر بستْرها، وأمر بالتفريق في المضاجع بين الذكور والإناث من سن مبكرة، وهكذا.

فماذا كان موقف قوم لوط من دعوته لهم بترك هذه الفاحشة المنكرة؟

لقد قالوا: ﴿أْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ حيث طلبوا من نبيهم إنزال العذاب الذي وعدهم به إن كان صادقًا فيما يقول، فلما كثر ذلك منه ولم يسكت عنهم، قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[النمل: ٥٦].

فلما استهزؤوا به وتحدّوه؛ طلب لوط النصر من ربه على القوم المفسدين في الأرض بالمعاصي والفواحش ،بتحقيق ما وعده به من نزول العذاب بهم؛ فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجى صلاحهم، ولم يطلب نبي هلاك قومه إلا بعد أن علم أنه لا خير يرجى منهم، وعندئذ أرسل الله الملائكة لإهلاك قوم لوط، فمرُّوا - أوّلًا- بإبراهيم، وبشروه بإسحاق وابنه يعقوب، ثم توجهوا إلى نبي الله لوط لإنزال العذاب بقومه، قال تعالى:

٣١- ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ[1] بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ولما استنصر لوط ربه، أرسل الله الملائكة لنصرته، لِتمُرَّ أولًا بإبراهيم ﷺ، فتبشره بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب؛ إذ لا يصح أن تنزل الملائكة في مكان يوجد

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام بالبشرى)، والباقون (إبراهيم) ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني.

فيه أبو الأنبياء وخليل الرحمن، دون أن تنْزل عليه أولًا فتسلم عليه وتُحيِّيه، ثم تذهب إلى مهمتها التي نزلت من أجلها، ونزولها هذه المرة كان استجابة لدعوة لوط عليه السلام بهلاك قومه بعد أن يئس من إجابتهم له، وبعد أن أحسن إبراهيم استقبالهم، وبشروه بإسحاق ويعقوب نافلة، أخبروه بأنهم أُرسلوا لهلاك قوم لوط.

راجع إبراهيم الملائكة في إهلاكهم، وجادلهم ودافع عن قوم لوط، وهم ليسوا قومه:

٣٢- ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ[١] وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

وَرَد عن ابن عباس رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام لَمَّا أعلمتْه الملائكة أنهم جاؤوا لإهلاك قرية قوم لوط، أخذ يجادلهم ويقول لهم: أرأيتم إن كان فيهم مئة بيت من المؤمنين أتتركونهم؟ قالوا: ليس فيهم ذلك، فجعل ينحدر حتى انتهى إلى عشرة أبيات، فقالت له الملائكة: ليس فيهم عشرة، ولا خمسة، ولا ثلاثة، ولا اثنان، وعندئذ قال إبراهيم: إن في هذه القرية لوطًا، فأخبروه بعلمهم بذلك، وأن الهلاك لن يشمله هو وأهله إلا امرأته؛ لكفرها وتعاونها في إرشاد القوم على مكان وجود الضيوف.

وعِلْمُ الملائكة سابق على علم إبراهيم؛ لأن علمهم مُتَلَقَّى من وحي الله لهم مباشرة، ولم يكن إبراهيم قد أُوحي إليه بشيء في ذلك، ولا يلزم منه أن الملائكة أعلم من إبراهيم في كل شيء، والمزية لا تقتضي الأفضلية، فلكل فريق عِلْم أطلعه الله عليه، ومن ذلك ما خصَّ الله به الخضر، وما خصَّ به موسى عليهما السلام. قال تعالى:

٣٣- ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ[٢] بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ[٣] وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم من (لننجينه)، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم.

(٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس بإشمام الكسرة للضمة في (سيء)، والباقون بالكسرة الخالصة، ووقف عليها حمزة وهشام بخلف عنه بالنقل والإدغام.

(٣) قرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بتخفيف الجيم وإسكان النون من (منجوك)، والباقون بتشديد الجيم وفتح النون.

وسارت الملائكة من عند إبراهيم حتى وصلت إلى لوط، وكانوا في صورة شباب حسان، فلما رآهم لوط ضاقت نفسه بهم خوفًا عليهم من القوم، فقد ظنوا أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم، فقالوا له: لا تخف علينا؛ فنحن رسل ربك إلى قوم لوط، ولن يصل إليك منا أذى، أما امرأتك فهي هالكة مع الهالكين، فقد كفرت بدعوتك، كما فعلت امرأة نوح، وكانت امرأة لوط تخبر القوم عن الضيوف. وهنا قالت الملائكة لإبراهيم:

٣٤، ٣٥- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ[1] عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

واختصر السياق ما فصَّله القرآن في سورتي: هود والقمر وغيرهما، من هجوم القوم على الضيوف، ومن محاورة لوط لهم؛ ليصل السياق مباشرة إلى مشهد التدمير الذي أصاب القرية وأهلها، وذلك أن جبريل ﷺ اقتلع قُراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء وقلَبها عليهم، ثم أرسل الله عليهم حجارة من جهنم، مُحْمَى عليها، متتابعة، معلَّمة، على كل منها اسم صاحبها، وجعل الله مكان هذه الأرض بُحيْرة خبيثة مُنتنة هي بحيرة لوط بالأردن.

ولهذا كانت عقوبة اللواط قتل الفاعل والمفعول به، أو الفاعل فقط إذا كان مغتصبًا للمفعول به.

ويرى بعض الفقهاء أن يُرمى اللائط من شاهق، كما رفع جبريل قرى المؤتفكة ثم قلبها.

ولا تزال آثار هذا التدمير باقية، تتحدث عن آيات الله تعالى في خلقه، وتتدبرها القرون عبر الأجيال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر].

---

(١) قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاي من (منزلون) اسم فاعل من نزَّل، والباقون بإسكان النون وتخفيف الزاي اسم فاعل من أنزل.

الْمِثَالُ الرَّابِعُ: فِتْنَةُ الْكَسْبِ الْحَرَامِ بِتَطْفِيفِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ (شُعَيْبٌ مَعَ أَهْلِ مَدْيَنَ)

٣٦، ٣٧- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

من أولاد إبراهيم عليه السلام (مَدْيَنُ) وهو ليس بنبي، وقد سُمِّي المكان الواقع في شمال الجزيرة وجنوب فلسطين، شرق خليج العقبة، باسمه، كما سُمِّيَت القبيلة باسمه.

وقد أرسل الله شعيبًا إلى أهل مدين، وكان أخًا لهم من قبيلتهم، كما أُرسل شعيب أيضًا إلى أصحاب الأيكة، أي: الشجر الملتف حول بعضه، وهو مكان قريب من مدين، ولم يكن شعيب واحدًا منهم، وذلك أنه بالنسبة لأهل مدين، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

وفي أصحاب الأيكة قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧]. ولم يقل أخاهم، وأهل مدين هم أهل الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم أهل البادية، ضاحية مدين.

وفي الأثر: (إن شعيبًا أخا مدين أُرسِل إليهم وإلى أصحاب الأيكة).

وكلتا القبيلتين كانت تطفف الكيل والميزان.

دعا شعيب قومه إلى توحيد الله، ووفاء الكيل والميزان، وأن يخافوا عذاب الله تعالى يوم لقائه، وألا يُكثروا في الأرض الفساد والمعاصي، ويتوبوا إلى الله تعالى مما هم فيه، فلم يستجيبوا له وكذبوه، فنزل بهم عذاب الله الذي أهلكهم.

ونوعية العذاب الذي نزل بأهل مدين كان بأن صاح بهم جبريل، فرجفت الأرض من تحتهم رجفة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود].

وأما عذاب أصحاب الأيكة فقد أصابهم حرٌّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أشد حرًّا فيخرجون منها، فأظلَّتهم سحابة بعدما حُبست عنهم الريح، وعُذِّبوا بالحر سبعة أيام، فاجتمعوا تحت هذه السحابة، فأمطرت عليهم نارًا فأحرقتهم.

ولعل هذا أرجح مما قاله بعضهم من أن أهل مدين هم أصحاب الأيكة، وأن عذاب يوم الظلة كان بعد أن صاح بهم جبريل، ورجفت الأرض بهم، فأزهقت الأرواح من مستقرها.

الْمِثَالُ الْخَامِسُ:

فِتْنَةُ طُغْيَانِ الْمَالِ وَاسْتِبْدَادِ الْحُكْمِ وَالِاغْتِرَارِ بِالْقُوَّةِ وَبَطَرِ النِّعْمَةِ

٣٨، ٣٩- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا[1] وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

وتشير السورة إجمالًا إلى مصارع خمسة آخرين من رؤساء الكفر الذين فُتنوا بما هم فيه من نعمة وقوة، أو مُلْك وجاه، أو مال ومتاع، فكذَّبوا رسل الله، فحلَّت بهم نقمة الله تعالى، واستأصل شأفتهم، كلًّا بما يناسبه من عذاب، جزاء صدِّه عن سبيل الله، وعن طريق الإيمان بالله ورسله:

١- فعاد قوم هود: كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة، بالربع الخالي من المملكة العربية السعودية، قرب حضرموت، اغتروا بقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ وكانوا أهل صناعة وحضارة، يبنون بكل مرتفع في الأرض آية في البناء لا يوجد مثلها في البلاد، فلما استكبروا وعَتَوْا أهلكهم الله بريح شديدة البرودة، عاتية الهبوب، حملت حصباء الأرض فقلبتْها عليهم، واقتلعتْهم من الأرض، فرفعت الرجل منهم شديد القوة إلى عنان السماء، ثم نكستْه على أم رأسه فشدختْه، فصار جسدًا بلا رأس ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت].

٢- وثمود قوم صالح: كانت تسكن بالحِجْر، قرب وادي القرى في شمال الجزيرة، سألوا نبيهم صالحًا أن يُخرج لهم ناقة من صخرة، فأيده الله بذلك، وانفلقت الصخرة

---

(١) قرأ حفص وحمزة ويعقوب بترك التنوين في (وثمود)، والباقون بتنوينها.

أمام أعينهم، تتمخض عن خروج ناقة عشراء منها، ومع هذا لم يؤمنوا، واستمروا على كفرهم، وتآمروا على قتل نبيهم، وعقروا الناقة، فأرسل الله عليهم صيحة زلزلتهم، وأخمدت أصواتهم، وأسكتت أنفاسهم، وبقيت آثارهم معروفة، يمرُّ الناس عليها، ويشهدون آثار التدمير بعد العزِّ وَمشاهد الحضارة، فقد كانوا أهل زرع وضرع وثمر وبساتين وحقول وحفْر في الصخور ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

٣ - أما قارون: فقد طغى وبغى، ولم يستجب لنصح الناصحين، واعتقد أنه أفضل الناس بعلمه وخبرته، واختال وتجبر، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

٤- أما فرعون: فقد كان طاغية ادعى الإلهية والربوبية، وكان يرتكب أبشع الجرائم، يسخِّر الناس ويفرِّق بينهم، ويذبح الذكور منهم، ويستبقي الإناث للخدمة، فأغرقه الله تعالى في البحر فأماته، وألقى بجثته خارج البحر؛ ليبقى عبرة لغيره على مر الأزمان ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

٥- **وأما هامان:** فقد كان وزيرًا لفرعون، عونًا له على تدبير المكائد، ومنفذًا لأساليب الظلم والبطش، وهو الذي بنى الصرح لفرعون حتى يطلّع إلى إلٰه موسى - على حد زعمه-.

٦- وقد أرسل الله موسى إلى فرعون وهامان وغيرهما، مؤيدًا بالأدلة والبراهين، فكذَّبوه ورموه بالسحر، واستكبروا عن الإيمان به، وجحدوا رسالته، وكان هامان من جند فرعون الذين لم ينج منهم أحد من الغرق؛ وذلك لأنهم كانوا معجبين بعقولهم، يحسبون أنهم على هدى وبصيرة، وهم على ضلال وباطل، قد زين لهم الشيطان أعمالهم، حتى ظنوا أنهم على أفضل مما جاءت به الرسل، فلم ينقادوا واستكبروا في الأرض، حتى نزلت بهم العقوبة، وما كانوا بفائتين من عذابنا، بل كنا قادرين عليهم، فسلّموا واستسلموا.

أَرْبَعَةُ أَلْوَانٍ مِنْ عَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ

٤٠ - ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

فكل من سبق ذكرهم كانت عقوبته بما يناسبه:

١- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط، أرسل الله عليهم حجارة من طين منضود، وهو عذاب قد أحصبهم، أي رماهم بالحصى الذي أهلكهم.

٢- كما أرسل الله على قوم عاد ريحًا صرصرًا شديدة البرد، شديدة الهبوب، تحمل حصباء الأرض فتُمطِرهم به، وتدمر كل شيء بأمر ربها حتى خلت منهم مساكنهم.

فقوم لوط أرسل الله عليهم حاصبًا من سجيل، وقوم عاد أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية حملت حصباء الأرض وأمطرتهم فأخمدت أنفاسهم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

٣- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم قوم صالح وقوم شعيب، قال تعالى عن قوم ثمود ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

وقال عن قوم مدين ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥]

وقد صاح جبريل بكل منهما صيحة فأهلكهم الله وأتى عليهم.

٤- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارون، خسف الله به وبداره الأرض، فلم ينفعه ماله، ولم يجد من يحول بينه وبين عذاب الله تعالى.

٥- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم قوم: نوح، وفرعون، وهامان، وجنودهما.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيهلكهم بغير ذنب، أو بغير استحقاق ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والطغيان والشرك، والتمتع بنعم الله تعالى وعبادة غيره.

وقد خلقهم الله تعالى لعبادته، ولكنهم أشغلوا أنفسهم بالشهوات والمعاصي، فاستحقوا هذا العقاب، وهذه النهاية الأليمة.

مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَالْمُتَعَلِّقِ بِخَيْطِ الْعَنْكَبُوتِ

٤١، ٤٢- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن عبد معه غيره، وبعد أن ذكرت السورة مصارع العتاة من الكفرة والظلمة؛ بسبب كفرهم بالله تعالى، واتخاذهم أندادًا وشركاء من دونه، بيَّن ﷻ أن هذه القوى العاتية أمثال: قوة عاد، وطغيان فرعون، وأموال قارون. . . إلخ، لم تقف في وجه القوة الإلهية، حين نزل بكل منهم عقاب الله تعالى، بل عصفت بهم العقوبة، كما تعصف الريح ببيت العنكبوت، عصفت بكيانهم كله فجعلته هباء منثورًا.

وهكذا فإن من يعبد غير الله تعالى، كمن يتمسك ببيت واهٍ ضعيف، لا يغني عنه شيئًا.

وهل هناك أضعف من بيت العنكبوت الذي ضربه الله تعالى مثلًا لمن يلتمس النصرة أو الرزق من غير الله تعالى؟

وما دام الأمر كذلك، فإن هناك قوة واحدة هي قوة الله تعالى، وما عداها من قوة الخلْق، فهي هزيلة واهنة، من احتمى أو تمسك بها في الشدائد يكون كالعنكبوت حين تحتمي ببيت مكوَّن من خيوط واهية.

والعنكبوت، صنف من الحشرات، لها بطون وأرجل، ومنها ما يفترس الذباب، وتسمى: ليث العناكب، والعنكبوت، تتخذ لنفسها نسيجًا تنسجه من لُعابها، يكوِّن خيوطًا مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتجعل في وسط تلك الخيوط جانبًا أغلظ، تحتجب وتُفرِّخ فيه.

وسُمِّي بيتًا لأنه يشبه الخيمة في نسْجٍ وشدِّ أطرافه، كبيت الشعر.

ولَمَّا كان عُشُّ العنكبوت قليل الجدوى، لا يثبت ولا يصمد لأدنى حركة، شبَّه الله تعالى به كل ما يُعبَد من دونه في حقارته وضعفه، وبُعده عن الخير والرشَد، ثم نفى سبحانه عن المشركين، العلمَ بما تضمَّنه التمثيل من حقارة أصنامهم التي يعبدونها، وقلة

جدواها في قوله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

وهكذا فالمسلم لا ينخدع بقوة المال، ولا بقوة الجاه أو الحكم أو السلطان، ولا بقوة العلم أو الحسب والنسب، فليس هناك مِنْ حِمًى إلا حمى الله، فهو الركن القوي المتين.

والمعنى: مثل الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا، أو أصنامًا، أو أيَّ معبودات أخرى يعبدونها من دون الله، ويرجون نفعها ونَصْرها، كمثل العنكبوت صَنعتْ لنفسها بيتًا تأوي إليه من الحر والبرد، فكان هذا البيت في غاية الضعف والوهن، لا ينفعها ولا يُغني عنها شيئًا، فهو لا يقيها من حرٍّ ولا بردٍ، ولا مطرٍ ولا أذىً، فكذلك المشركون بالله لا يُغني عنهم شركاؤهم من دون الله شيئًا.

وكما أن العنكبوت لا يستقر لها بيت، ولا يثْبتُ لها مكان، فكذلك عبادة غير الله تعالى لا تضر ولا تنفع، ولو أنهم كانوا يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر ما اتخذوهم أولياء، ولتبرَّؤوا منهم، وتوجهوا بعبادتهم إلى الواحد القهار.

والمقصود من الآية: تجهيل المشركين، وتوبيخهم على عبادة غير الله تعالى.

- ولما بيّن سبحانه نهاية ضعف آلهة المشركين، وبيّن أنها ليست إلا مجرد أسماء سمُّوها وظنونًا اعتقدوها، وعند التحقيق يتبيّن للعاقل بطلانها وعدمها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ فهو سبحانه يعلم الغيب والشهادة، ويعلم أنهم لا يدعون شيئًا موجودًا، ولا إلَهًا له حقيقة ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣] ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]

والله تعالى يعلم ما هم عليه من الشرك، وسوف يجازيهم على أقوالهم وأعمالهم، ومن ذلك ما يشركونه مع الله تعالى، وأنهم يعبدون عدمًا لا وجود له، ولما كانت الأصنام موجودات كالعدم، ضرَب الله لها مثلًا ولعابديها ببيت العنكبوت، وهو سبحانه العزيز في انتقامه بمن كفر به، الحكيم في تدبيره وصُنْعه، قال تعالى:

٤٣- ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ضرب الله المثل بالعنكبوت والذباب والبعوضة، سَخِرَ سفهاء قريش، وقالوا: إن

ربَّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فبيَّن ﷻ أن أمثال القرآن توضح وجه الشبه بين أحوال الكفار من هذه الأمة، بأحوال كفار الأمم السابقة، وتُقَرِّبها من أذهانهم، ولا يَعْقِل حُسْنها وصحتها، ولا يفهم فائدتها، إلا العالمون بالله تعالى وآياته وشرعه، وهم العلماء الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه.

روى البغوي في التفسير بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله ﷺ، أن النبي ﷺ تلا هذه الآية، ثم قال: **«العالم من عقل عن الله، فعمل بطاعته واجتنب سخطه»**.

وفي الآية مدح لضرب الأمثال النافعة، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وذم لمن لا يعقلها.

رَبْطُ الْمُسْلِمِ بِرَبِّهِ عَنْ طَرِيقِ النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ وَطَرِيقِ الْعِبَادَةِ

٤٤- ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

في نهاية هذه الأمثال يربط القرآن بينها وبين شعائر المسلم، بتوحيد الله تعالى، وعبادته، وتلاوة آياته، وإقامة الصلاة، والمداومة على ذكره سبحانه؛ ليكون المسلم موصولًا بربه، يلتمس منه العون والمدد في جميع أحواله.

أما جانب التوحيد، فيتمثّل في التأمل في خلْق هذا الكون، ونظامه الدقيق الذي لا يتخلَّف ولا يختلف، ولا يصطدم بعضه ببعض، فالله تعالى خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الإنسان والحيوان والجبال والبحار والنبات والأشجار وغيرها، وكل ذلك خلقه الله بالحق، ولم يخلق السموات والأرض باطلًا ولا عبثًا ولا لهوًا، إنما خلقهما لإظهار الحق والعدل، ولتجُزى كل نفس بما كسبت، وفيهما الحجة الناطقة بتوحيد الخالق سبحانه، فقد رفع الله سبحانه السماء بغير عمد، وفرش الأرض بنظام بديع، وفيهما من عجائب الله تعالى ما لا يُحصيه العادُّون من الدلائل والنعم، وفي ذلك عبرة وعظة للمؤمنين، فهم الذين تتفتح قلوبهم على توحيد الله تعالى وقدرته وآثاره في الكون، قال تعالى:

٤٥- ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أما جانب تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة فلأن كلًّا منهما يربط المسلم بربه دائمًا، فقد خصَّهما القرآن بالذكر؛ لأن **العبادة ثلاثة أنواع**:

١- **عبادة قلبية**: تتمثل في الاعتقاد الحق، وهو هنا اعتقاد وحدانية الله تعالى، ونبذ الشرك وأهله.

٢- **وعبادة لسانية**: وهي الذكر الحسن، ورأس الذكر تلاوة القرآن، وتسبيح الله تعالى وتحميده وتهليله وتكبيره.

٣- **وعبادة بدنية**: وهي العمل الصالح بجميع أنواعه، وأولها على الإطلاق فريضة الصلاة، ثم بقية أركان الإسلام ونوافله، وأخلاقه وآدابه ومحاسنه وفضائله.

ولما كان الاعتقاد لا يتكرر، وإنما يدوم ويستمر، فلا يصلُح أن يعتقد العبد شيئًا، ثم يعتقده مرة أخرى، ولما كان الذكر وتلاوة القرآن من العبادة اللسانية، وكانت الصلاة من العبادة البدنية، لذا أمر بهما في هذه الآية لأنهما يتكرران.

هذا: وقد ختم القرآن سلسلة الدعوة من لدن نوح إلى محمد عليهما السلام بالأمر بثلاثة أشياء، وهي: تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، وذكر الله تعالى.

وفي هذا اتصال بالله تعالى يجعل المسلم يخجلُ مِنْ أن يرتكب فاحشة أو منكرًا، ومَنْ داوم على الصلاة جرَّه ذلك إلى ترك المعاصي والمنكرات.

روى أنس ﷺ قال: كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع الرسول ﷺ، ثم لم يدَعْ شيئًا من الفواحش إلا ارتكبه، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«ستنهاه صلاته يومًا»**، فلم يلبث أن تاب، وحسُنت حاله[١].

وتلاوة القرآن تؤدي بصاحبها إلى ترك الفواحش، وهي: الكبائر والقبائح من الذنوب.

والمنكرات هي: ما أنكره الشرع والعقل، والفطر السليمة والفواحش هي: كل ما فحُش من الذنوب والمعاصي، مما يستقبحه الشرع والعقل والفطر السليمة.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٢٠).

روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: إن فلانًا يُصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: «ستنهاه قراءته» أي: صلاته، والمراد أنه يقرأ القرآن في صلاته، كما جاء في لفظ آخر[١].

فاقرأ -أيها الرسول- هذا القرآن الذي أوحاه الله إليك، بإقامة ألفاظه وحسن تلاوته، وتدبر معانيه، واعمل به وبلِّغه للناس، وَقِفْ عند أوامره ونواهيه، واحرص على تدبر معانيه والاعتبار بما فيه، فإن إقامة الدين كله تدخل في تلاوة القرآن، ومُرْ قومك باتباعه والعمل بأحكامه، ومحاسنه وآدابه، وأوامره ونواهيه.

وداوم على الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها؛ فهي عماد الدين ورُكْنُه الركين، فإن الصلاة تنهى المواظب عليها عن الفحشاء والمنكر.

قال أبو العالية: إن في الصلاة ثلاث خصال، فكلُّ صلاة، لا يكون فيها شيء من هذه الخصال، فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله.

فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله (القرآن) يأمره وينهاه[٢].

وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة، فأنت في معروف، وقد حجزتْك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر[٣]. والمراد ذكر الله تعالى في الصلاة، بما تشتمل عليه من قراءة الفاتحة وتلاوة القرآن، والتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد.

كان بعض السلف إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرَّ لونه، فكُلِّم في ذلك، فقال: إني أقف بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك؟[٤].

فالمحافظ على الصلاة، المقيم لها مع الجماعة، المتمم لأركانها وشروطها، يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقْوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، فينتهي بالضرورة عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٧٧٨) بسند صحيح، ورجال ثقات رجال الشيخين (محققوه) وابن حبان (٢٥٦٠) والبيهقي (٣٢٦١) والبزار (٧٢١) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠٥٦).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١١/ ٥٥٠).

(٣) الطبري (١٨/ ٤١٠) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٦).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣١٩).

وَلَذِكْرُ الله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة، ولهذه الجملة من الآية **معنيان**:

الأول: أن ذكر الله تعالى أعظم وأفضل من كل شيء؛ لاستمراره على لسان العبد وفي قلبه دائمًا، أما الصلاة فإن لها أوقاتًا خاصة.

في صحيح مسلم: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**سبق المفردون**»، قالوا: وما المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»[1].

وفي حديث أبي هريرة، وأبي سعيد ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتْهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[2].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأحبها إلى مليككم، وأنماها في درجاتكم، وخير مِنْ أن تغزوا عدوَّكم، فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم؟ قالوا: وما هو يا أبا الدرداء؟ قال: ذكر الله أكبر[3].

وذكر الله تعالى يكون بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير في القلب وعلى اللسان، مع الخشية، والخوف والرجاء.

وليس من الذكر ما يكون بالتمايل يمينًا وشمالًا، والتفوُّه بألفاظ غير كاملة، لا معنى لها، أو مع صحبة الأنغام والآلات، وليس من الذكر ألفاظ الإطراء والغلو في الأنبياء والأولياء الصالحين، والمحسوبين عليهم!!

فالخلاصة: أن ذكر الله تعالى: أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر، وأعظم أثرًا من إقامة الصلاة؛ لأن الصلاة أثناء أدائها تكون مانعة للعبد، عاصمة له من الفحشاء

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٠٠).

(٣) ابن أبي شيبة (١٣/٣٠٨) والترمذي (٣٣٧٧) وابن ماجه (٣٧٩٠) والبيهقي في الشعب (٥١٩) والبغوي في شرح السنة (١٢٤٤) وأحمد بنحوه (٢١٧٠٢) وصححه محققوه، وقفًا على أبي الدرداء، فقد اختلف في رفعه ووقفه، وفي إرساله ووصله، وأخرجه موقوفًا مالك في الموطأ (١/٢١١) عن زياد بن أبي زياد، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٥٧) وفي المشكاة (٢٢٦٩) وصحيح الترمذي (٢٦٨٨) مرفوعًا.

والمنكر، وقد يضعف تأثيرها إذا خرج العبد منها.

أما المداومة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان في كل الأحوال والأحيان، فهو عاصم مانع من الفحشاء والمنكر على الدوام فلن تبقى معه معصية، كما قال ابن عطاء؛ ولأن الشيطان يخنس عند ذكر الله تعالى، وهذا يكون في جميع أحوال العبد: قائمًا، وقاعدًا، ومضطجعًا، ونائمًا.

والمعنى الآخر لكون الذكر أكبر من الصلاة: هو أن ذِكْر الله تعالى للعبد في الملكوت الأعلى، أكبر من ذكر العبد لربه في ملكوت الأرض.

ويؤيده الحديث القدسي الصحيح، عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: **«يابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبرا دنوتُ منك ذراعًا، وإن دنوتَ مني ذراعًا دنوتُ منك باعًا، وإن أتيتني تمشي أتيتُك أهرْول، قال قتادة: فالله تعالى أسرع بالمغفرة»** [1].

فَذِكْرُ الله تعالى عباده إذا ذَكَروه أكبر من ذكرهم إياه:

قال ابن عباس ﷺ: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وكما قال ابن مسعود ﷺ: ولذكر الله العبد، أكبر من ذكر العبد لله.

وكما قال ابن عمر ﷺ: ذكر الله إياكم ، أكبر من ذكركم إياه.

وعن عبد الله بن ربيعة قال: سألني ابن عباس ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فقلت: ذكر الله التسبيح والتهليل والتكبير، قال: لا، ذكر الله إياكم، أكبر من ذكركم إياه، ثم قرأ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2] [البقرة: ١٥٢].

وبهذا المعنى قال ابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، والحسن، وغيرهم[3].

---

(١) من حديث أنس، في المسند (١٢٤٠٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٥٧٥) وعبد بن حميد (١١٦٩) والبغوي (١٢٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣٧) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٣).

(٢) يُنظَر: ابن جرير (١٨/ ١١٤) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٧) والحاكم (٢/ ٤٠٩) والبيهقي (٦٧٤).

(٣) يُنظَر: «الدر المنثور» (١١/ ٥٥٤).

قلت: لعل هذا المعنى أرجح من الأول، فاللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ من الخير والشر، فيثيبكم ويجازيكم عليه أكمل الجزاء وأوفاه.

دَعْوَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ

٤٦- ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

لما بيَّن سبحانه ضلال من اتخذ معبودًا من دون الله، وضرب له المثل ببيت العنكبوت، أمر في هذه الآية بالتلطف في دعوة أهل الكتاب.

فقد ربطت سورة **العنكبوت** بين رسل الله تعالى من نوح إلى محمد، وهو صاحب الرسالة الأخيرة، التي لا يصح لأحد على وجه الأرض أن يَدين بغيرها.

وقد جاء الإسلام فوجد الوثنيين، وأهل الكتاب المشركين من اليهود والنصارى، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه.

وبعد أن تحدثت السورة عن المشركين الوثنيين في دعوتهم إلى الله تعالى، على ألسنة الرسل السابقين في القرون السابقة، وبيَّنت مصير المخالفين منهم، ومنهم وثنيو أهل الجزيرة، تحدثت في هذه الآية وما بعدها عن دعوة أهل الكتاب.

ولما كان المسلمون مكلفين بنشر الدعوة، وتبليغها للجميع بعد موت رسول الله ﷺ، ومن ذلك الدعوة بالنسبة لأهل الكتاب؟ والعلاقة بين القرآن والكتب السابقة؟

إن الإسلام يؤمن بالرسالات السابقة، على أن كلًّا منها قد أدَّى دوْره في زمانه ومكانه، فدعوة الرسل كلها من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو رَد البشرية إلى ربها؛ لتعبُد إلهًا واحدًا، وتسلُك طريقًا واحدًا، فوجب على كل من لم يؤمن بالرسول الخاتم إلى يوم القيامة أن يؤمن به وبكتابه.

والوحي الذي نزل على موسى وعيسى عليهما السلام، هو نفسه الوحي الذي نزل على محمد ﷺ، فلماذا التفرقة بين الوحْيَيْن؟! وكيف تكون دعوة أهل الكتاب إلى الله تعالى للإيمان بالرسالة الخاتمة؟! وقد وجب على العلماء والحكام تبليغهم دعوة الله ﷻ:

أهل الكتاب صنفان:

١- إن أهل الكتاب صنفان: **صنف مسالم**، لا يقف في وجه الدعوة، ولا يحارب المسلمين، ولا يغتصب أرضنا وديارنا ومقدساتنا، ولا يتعرض لنا بسوء، ولا ينقض لنا عهدًا، ولا يخفر لنا ذمة، ولا يعين على حربنا واغتصاب أرضنا، سواء أكان من أهل الذمة المقيمين في بلاد الإسلام، أم كان في غير بلاد المسلمين، فهذا النوع من أهل الكتاب له ما لنا وعليه ما علينا.

ودعوة هذا الصنف من أهل الكتاب إلى الإسلام، تكون بالأسلوب الحسَن والقول الجميل، واللطف واللين، والدعوة بأيسر الطرق المؤدية إلى الحق، وإبراز حجج القرآن ومحاسنه وآدابه، ويكون القصد من ذلك: رد الباطل والدعوة إلى الحق، بأقرب طريق يوصل إلى بيان الحق وهداية الخلق، وهذا معنى ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

والجدال بالحسنى أنجع في نجاح الدعوة، وقد أمر الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل].

وقال سبحانه لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى أكبر طغاة الأرض: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وقد أوصى الإسلام بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب؛ لأنهم في الأصل يؤمنون بالله واليوم الآخر، فهم مؤهَّلون لقبول الحجة من غير مكابرة، ولأن كتابهم قد أعلمهم أدب الحوار، فيُقتصر في جدالهم على بيان الحجة دون إغلاظ، حذرًا من تنفيرهم، بخلاف الوثنيين فإن فيهم صلَف وجَلافة، ولا يؤمنون بالوحي ولا باليوم الآخر.

وجدال أهل الكتاب يكون فيما يعتقدونه مما يخالف عقائد المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٢- وهناك صنف آخر من أهل الكتاب، وهو **صنف محارب**: يضيق بالإسلام وأهله، ويأبى الاعتراف بالإسلام، ويعمل على التشكيك فيه، وإنقاص لبناته وتنكيس لوائه، فهم يقفون في وجه الدعوة، وينقضون العهد والوعد، ويصدون الناس عن الدخول في الإسلام.

ومنهم من اغتصب أرضنا وديارنا ومقدساتنا مباشرة، أو بالعمل على ذلك بالدعم المادي أو العسكري، وبالغوا في العناد والاعتداء، ومحاولة القضاء على عقيدتنا وتبديد طاقاتنا، ووأد كل نبوغ أو اختراع إسلامي في مهده.

وهذا الصنف من أهل الكتاب في عصر التنزيل يتمثل في بني قريظة وبني النضير، ويتمثل في الصليبية والصهيونية العالمية في وقتنا المعاصر، فهؤلاء هم الذين استثناهم الله تعالى في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين وقفوا في وجه الدعوة والدعاة، فعليكم أن تقاوموهم وتجاهدوهم.

فالمراد بالظلم في الآية: ظلمهم لغيرهم من المسلمين، أما ظلمهم لأنفسهم بالكفر والشرك فهو حاصل على الإطلاق.

هذا: وسورة **العنكبوت** سورة مكية على الأرجح عدا الآيات العشر الأول منها، **فهي** مدنية، ولم يكن القتال قد شُرع للمسلمين وقت نزولها، وكان من اليهود من هو في مكة وما جاورها، فربما وقع بينهم وبين المسلمين جدال واحتجاج في أمر الدين، وتكذيب للرسول ﷺ، فأمر الله المؤمنين أن يجادلوهم بالحسنى، واستثنى مَن ظَلَم منهم المسلمين بقول، أو فعل، أو إيذاء للنبي ﷺ، أو إعلان كفر فاحش، كقول بعضهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، أو إن الله فقير ونحن أغنياء، أو آذوا الإسلام وأهله في صورة من الصور، وهذا حكم عام يشمل أهل الكتاب السابقين والحاليين واللاحقين.

وفي حالة إعلان أهل الكتاب لكفرهم، يتصعَّد الجدال معهم إلى ما يرْدعهم ويمنعهم، فقد شرع الإسلام استعمال الأسلوب الأشد، عند عدم جدوى الأسلوب الحسن.

فيكون **المعنى**: ناقشوا أهل الكتاب بالحسنى، إلا مَنْ أظهر قَصْدة وحاله بعدم إرادة الحق، وأنه يجادل بالباطل للمغالبة، وإلا من أساء إليكم، ولم يستعمل الأدب في جداله، فقابلوه بما

يليق بحاله من الإغلاظ والتأديب بما يؤدي إلى ردْعه وزجْره، إذ لا فائدة في جداله.

والذين ظلموا هم الذين أظهروا العداوة للإسلام، وكابروا في قبول الحجة.

ولما كانت هذه الآية من آخر ما نزل بمكة فهي بمثابة التوطئة لما سيحدث بعد الهجرة من الأمر بقتال اليهود وأشباههم، وليس فيها أمر بقتال أهل الكتاب، فلا يقال: إن آية سورة التوبة [٢٩] نسختها أم بقي حكمها؟

واليهود هم المقصود الأكبر بأهل الكتاب في هذه الآية، فهم الذين كانوا يجاورون أهل مكة في المدينة وما حولها، وهي تشمل النصارى إذا عرضت مجادلتهم كما حدث مع وفد نصارى نجران، وكما يحدث في كل زمان ومكان.

وكان اليهود قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، مسالمين، يقولون: إن محمدًا رسول الأميِّين، كما قال ابن صيَّاد، لما قال له النبي ﷺ: **«أتشهد أني رسول الله؟»** فقال: أشهد أنك رسول الأميِّين، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ودعاهم إلى الإسلام، أسلم عبد الله بن سلام في أول يوم، وأخذ سائر اليهود ينكرون الإسلام بالكلية حسدًا وبغضًا منهم؛ لأنه ينسخ شريعتهم، فأخذوا يكيدون للنبي ﷺ، ونشأ منهم المنافقون.

فلا تضعفوا وتهنوا وتدعوهم إلى السلم، ولا تُرَبُّوا أبناءكم على ولايتهم ومحبتهم، وعلى ترك الجهاد في سبيل الله.

فإن جنحوا للسلم ونشدوه، وكنتم في مركز قوة ويد عليا، ولم يعتدُوا عليكم ويسلبُوكم أرضكم، فاجنحوا له وتوكلوا على الله، والإسلام لم يكن معتديًا في يوم من الأيام.

وإن كنتم في حالة ضعف كبير فهادنوهم، واقبلوا بعض الشروط حتى يقوى جانبكم، ويشتد عودكم.

إن الحروب الدائمة، يثيرها أهل الكتاب مع المسلمين في الماضي والحاضر، خصوصًا أثناء المدة، من زحف الرومان على العالم، ووقوع غرب آسيا وشمال أفريقيا في أيديهم.

فهل كان الإسلام معتديًا حين حرر الأقطار من براثنهم؟ وهل كان معتديًا حين ردَّ الصليبيين على أعقابهم بعد مئات السنين من الكرِّ والفرِّ؟

وفي العصر الأخير هاجم نابليون مصر، وموسوليني ليبيا والحبشة، واجتاح الفرنسيون دول المغرب، واجتاح الإنجليز وادي النيل، وسقطت القارة الإسلامية في أيدي أهل الكتاب، وها هي القدس في أيدي الصهاينة، وفلسطين التي افتتحها عمر، وحررها صلاح الدين، هي الآن في أيدي اليهود بحماية ودعم من النصارى، فمن لها الآن؟ فهل نكون ظالمين، أو إرْهابيِّين حين نعمل على تحرير أرضنا ومقدساتنا وحماية عقيدتنا؟!!

وكل من أشرك بالله تعالى فهو ظالم، وكل من كفر بمحمد ﷺ فهو ظالم.

حكم الأخذ عن أهل الكتاب:

وفي الآية دليل على جواز المناظرة مع أهل الكتاب؛ لإبراز الحق ودحض الباطل، وهو لون من الدعوة إلى الله تعالى.

ونحن نؤمن بالقرآن، كما نؤمن بالتوراة قبل تحريفها، ونؤمن بالإنجيل قبل تحريفه، ونحن نؤمن بالرسالتيْن في مدة صلاحيتهما؛ فليكن الجدال بيْننا مَبْنيًا على الإيمان بما أنزل إلينا وأنزل إليكم، وعلى الإيمان برسولنا ورسولكم، فالوحي المنزل على رسل الله واحد، والتوحيد يجمعنا، والإسلام يجمعنا، وقد أمرنا الله بذلك في هذه الآية وغيرها، وما دمنا نؤمن بكتابكم - يا أهل الكتاب - فلا ينبغي لكم أن تنحرفوا عنا وتعتدوا علينا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩].

فالقدْح في شيء من الكتب الإلهية، قدْح فيها كلها، والقدح في أحد الرسل، قدح في رسل الله جميعًا، وهكذا تكون مناظرة الجاهل عند مقارعة الخصوم، يقْدح في كل ما عندهم من حق وباطل، وهذا ظُلم وخروج عن أدب المناظرة، إذ الواجب قبول ما عند الخصم من الحق ورد الباطل، بعيْن الإنصاف والتجرد ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] ولو كان المناظهر كافرًا.

ومناظرة أهل الكتاب على هذا الأساس، فيها إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، والتسليم لرسول الإسلام، فهذا ما اتفقت عليه جميع الأنبياء والكتب الإلهية، وثبت ذلك لدى الرسل السابقين، وفي كتب الله كلها قبل التحريف والتبديل.

وبعد مجيء محمد ﷺ فإنه لا يُقبل من أحد كائنًا من كان دين آخر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]:

١- روى البخاري وغيره، عن أبي هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»**(١).

وهذا القول لمن لم يقل منهم إن مع الله إلٰهًا آخر، أو أن له ولدًا، أو شريكًا، أو أن يد الله مغلولة، أو أن الله فقير، ولم يؤذ الإسلام وأهله، فهم بهذا قد آمنوا بما أُنزل إلينا وما أُنزل إليهم، أما من قال أو فعل شيئًا من ذلك، فلا ينطبق عليه الحديث.

٢- وروى البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أُنزِل عليكم على رسول الله ﷺ أحدث؟! تقرؤونه غضًا لم يشب، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا، والله، ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم(٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تُكَذِّبوا بحق، وإما أن تُصَدِّقوا بباطل، فإن كنتم سائلين لا محالة، فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»**(٣).

---

(١) البخاري برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) و«فتح الباري» (٨/ ٢٠) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣٨٧) وفي ط مؤسسة الرسالة (١١٣٢٣) والطبري (١٨، ٣٢٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠٧) والسنن (١٠/ ١٦٣).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٢).

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤) وابن عطية (٤/ ٣٢١) وعبد الرزاق (١٩٢١٢)، والحديث فيه جابر الجعفي، ضعيف، وله شواهد صحيحة من طريق عبد الله بن ثابت الأنصاري، وقد ذكره البخاري في ترجمة الباب، ينظر: فتح الباري (١٣/ ٣٣٤) والحديث في مسند أحمد (١٤٦٣١) عن جابر إلى (بباطل) بإسناد فيه ضعف لضعف مجالد. (محققوه)

٤- وعن عطاء بن يسار قال: كانت اليهود يحدثون أصحاب النبي ﷺ فيُسبِّحون كأنهم يعْجَبون، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد»**(١).

والسبب في عدم تصديقهم: أنه وقع خلط في كتبهم؛ لقلة الحفَّاظ المُتْقِنين فيهم، ولتحريفهم كلام الله تعالى، فكان فيه الوضع والخلط، ومن هنا: فإنه لو كان كلامهم باطلًا لم نصدقه، وإن كان حقًّا لم نكذبه، وهذا ما يسمى بالإسرائيليات في التفسير والتاريخ وغيرهما.

وهذا المبدأ نعمل به إذا أخبرونا بشيء لا يوجد في الإسلام ما يثبته ولا ما ينفيه، وادَّعوْا أنه موجود في كتبهم.

أما إن كان الخبر موجودًا في كتابنا، أو في صحيح سنة نبينا -فإنا نأخذه من مصادرنا.

ولهذه المعاني ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون مستسلمون لأمره، مؤمنون بجميع كتبه، متبعون لجميع رسله، ونُتوِّج هذا بالإيمان بخاتم رسله ﷺ.

أَصْنَافُ النَّاسِ تِجَاهَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ

٤٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وكما أنزل الله الكتب على الأنبياء السابقين أنزل القرآن على محمد ﷺ، فكان الناس تجاه هذا الكتاب أصنافًا **ثلاثة أهل الكتاب والوثنيون والجاحدون:**

الصنف الأول: صنف آمن بالقرآن، فعرفه حق المعرفة، ولم يداخله حسد ولا هوى، فأقرّ بالإسلام واتبعه، وهو من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، وغيرهم، ممن تيقن صدقه، وبما تميّزوا به من معرفة الحسن وغير الحسن، والصدق والكذب، فآمن به على بصيرة وعلم، وفيهم يقول تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ويلحق بهم كل من دخل ويدخل في الإسلام من أهل الكتاب إلى آخر الدنيا.

(١) عبد الرزاق (١٠١٦١، ١٩٢١١) والطبري (١٨/ ٤٢٢). ومصنف ابن أبي شيبة (٢٦٤٢٢).

الصنف الثاني: من العرب المشركين الوثنيين، مَنْ آمن بالقرآن أيضًا، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ ولفظ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى من نزل فيهم القرآن وهم العرب، ويلحق بهم كل من اعتنق الإسلام من عبدة الأصنام والأوثان في أرجاء الأرض إلى قيام الساعة.

أما الصنف الثالث: فهم كل من كفر وكذَّب وجحد الحق، ولم يؤمن بالقرآن ورسول الإسلام ﷺ إلى قيام الساعة، ممن دأبُه الجحود، وإنكار الحق والعناد، وهذا حصر لمن كفر بمحمد ﷺ، وهؤلاء هم من قال الله فيهم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فلا ينكرُ القرآن ولا يتشكك فيه إلا كل جاحد معاند، أما من كان قصده صحيحًا فلا بد له أن يؤمن به لما اشتمل عليه من البينات.

وقد عرف اليهود والنصارى وصف محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وعرفوا أنه حق، وأن القرآن حق، فجحدوا ولم يؤمنوا به، والجحود يكون بعد المعرفة.

وفي الآية التالية دليل صحة رسالة محمد ﷺ الذي عرف القوم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، ومنها أنه لم يكن يكتب ولا يقرأ ما هو مكتوب، وأنه أرسل في أمة أمية، لم ينزل عليها كتاب قبل القرآن، وهذا من أكبر الأدلة على صحة رسالته ﷺ.

ثَلَاثٌ مِنْ شُبَهِ الْكُفَّارِ عَلَى الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

الشُّبْهَةُ الْأُولَى: دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٤٨- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أخذ القرآن يفنِّد شُبه المكذبين بالرسول والرسالة، ويقيم الحجة على المبطلين المرتابين، فرسول الله ﷺ عاش بين أظهرهم أربعين سنة من عمره، وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز، وكان قبل أن ينزل عليه القرآن، لم يَقرأ كتابًا مثله، ولا أمسك قلمًا ولا خط حرفًا، ولو كان قارئًا كاتبًا قبل الوحي لارتابوا وشكُّوا، وكان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدًا لا يخط ولا يقرأ كتابًا، ومع هذا فقد قالوا: تعلَّمه من الكتب السابقة، فقال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ

أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومعجزة النبي ﷺ في أميّته، وهكذا وصفته الكتب السابقة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وكان للنبي ﷺ كُتَّابٌ يكتبون له الوحي والرسائل إلى الملوك والرؤساء.

والمبطلون كانوا يعلمون أن النبي ﷺ أميًّا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان].

فالمقصود من الآية: نَفْيُ صفة التعلُّم عن النبي ﷺ وإثباتُ أن القرآن وحي من عند الله، جاء متضمنًا لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وكل إنسان في مكة كان يعلم أن النبي ﷺ لم يجلس إلى معلم، ولم يخط بيده سطرًا واحدًا، ومع هذه الأُمية فقد أتى ﷺ بهذا الكتاب المعجز!!

ومادام النبي ﷺ كان أميًّا، ومع هذا فقد جاء بكتاب عجز أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، ولم تحدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم بأنه ليس من كلام البشر، قال تعالى في الرد على المكذبين:

٤٩- ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

أي ولو فُرض أن محمدًا ﷺ كان يقرأ ويكتب قبل الوحي، ما جاز لهم أن يرتابوا، فهذا القرآن يشهد بذاته أنه ليس من صُنع البشر، وأنه فوق طاقتهم ومعرفتهم، فهو معجزة قائمة، ودلالة واضحة على صدق الرسالة، لا شبهة فيها لدى أهل العلم من هذه الأمة، وهذه الآيات يجدونها في صدورهم ثابتة ومستقرة لا تحتاج إلى دليل آخر؛ فهي آيات **راسخات واضحات في صدور أهل العلم من علماء هذه الأمة وحُفَّاظها**، وهم الذين حفظوه وتدبروه، وعملوا بما فيه، وإذا كان القرآن آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وكان إنكار غيرهم عنادًا لا يضر، ولا يجحد هذا إلا ظالم جاهل يتكلم بغير علم ولا يقتدى بأهل العلم.

أي: ولا يُكذِّب بهذا القرآن إلا كل من تجاوز الحد في الكفر والطغيان، وهم المعاندون الذين يعلمون الحق ويَحيدون عنه ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وفي التفسير المأثور: أن المراد **بصدور الذين أتوا العلم: هم أهل الكتاب**، والمراد **بالآيات البينات: وصف النبي ﷺ بأنه أُمي في التوراة والأنجيل.**

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب وكان أُميًّا.

وقال: كان الله قد أنزل شأن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل لأهل العلم، وعلَّمه لهم، وجعل لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوَّته أن يخرج حين يخرج، لا يعلم كتابًا، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات التي ذكر الله تعالى[١].

فالآيات البينات التي في صدور أولي العلم على الأرجح: هي نَعْتُه ﷺ في التوراة والإنجيل، أنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب، وكان أهل الكتاب يعرفونه بهذه الصفة، وبهذا فسرها الضحاك، وقتادة، والحسن، وغيرهم.

وفي البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[٢].

وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: **«إنما بعَثْتُك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا، لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا»**[٣].

وذلك لأنه محفوظ في الصدور، مهيمن على القلوب، ميسر على الألسنة، معجز في لفظه ومعناه، وهو محفوظ في السطور إلى جوار حفظه في الصدور، بخلاف سائر الكتب

---

(١) الطبري (١٨/ ٤٢٤) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧١).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٦١٩) وفي البخاري برقم (٧٢٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٤/ ٢٩٧) برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

السماوية فهي مكتوبة وغير محفوظة، ولهذا دخلها التحريف، وجاء في وصف هذه الأمة أن: «**أناجيلهم في صدورهم**»[(١)].

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: طَلَبُ الْجَاحِدِينَ أَنْ يُؤَيَّدَ النَّبِيُّ بِالْمُعْجِزَاتِ الْحِسِّيَّةِ

٥٠- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ[(٢)] مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

تتحدث هذه الآية عن طلب المكذبين للنبي ﷺ أن يأتي لهم بمعجزات حسية، مِثْلُ الخوارق التي نزلت على غيره من الرسل: كالعصا، واليد، والناقة، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وجاء ذلك في مثل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الآيات ٩٠-٩٥ من سورة الإسراء]

وقد وصف القرآن هؤلاء الجاحدين بأنهم كافرون ومبطلون وظالمون ومرتابون، وأنهم لا يتأثرون إلا بالمشاهد الحسية، فأخبر سبحانه عن قول المشركين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كالناقة، والعصا، واليد، فكان الجواب مكوَّنًا من **ثلاث نقاط**:

الأولى: أن الآيات من الله تعالى إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، فهي من عند الله، وليست من عندي، وهو الذي يُنزلها على من يشاء من عباده وفق ما يناسب خلقه، ولو علم سبحانه أنكم ستهتدون بها لأجابكم إلى طلبكم ، ولكن الله تعالى يعلم أن سؤالكم للتعنت والعناد، وأنكم لن تؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وكما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الثانية: أن مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار، ولا نُسَلم أن التبليغ يحتاج إلى خوارق العادات التي يطلبونها، وإنما حالهم يقتضي الإنذار بالدلائل العقلية الدالة على صدق البلاغ والإنذار ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فمهمتي هي البلاغ والإنذار، وبعد الإنذار:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

---

(١) ضعفه الألباني عن ابن مسعود في ضعيف الجامع الصغير برقم (٣٤٧٣).

(٢) قرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي وخلف (آية) بالإفراد على إرادة الجنس، والباقون (آيات) بالجمع على إرادة الأنواع.

الثالثة: أن هذا القرآن معجزة قائمة إلى يوم القيامة، محفوظة في الصدور، ومكتوبة في السطور، وما تطلبونه من آيات يستمر ساعة لمن يراه، ثم يذهب.

ثم إن طلب الآيات الحسية، إن كان المقصود منه بيان الحق من الباطل، ونزلت هذه الآيات ولم يؤمنوا بها - كما أخبر رب العالمين - لم يكن لإنزالها فائدة، لأن في القرآن الكفاية لطالب الحق فضلا عما يصيبهم من عذاب قال تعالى:

خَمْسُ مَزَايَا فِي الْمُعْجِزَةِ الْخَالِدَةِ

٥١- ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ(١) أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

قال تعالى في جواب من يطلبون المعجزات الحسية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أعظم من كل معجزة، فهو متناسب مع الرسالة الخالدة، لا ينتهي بوقت معين، ولا يراه فقط أهل مكان معين، وقد عجز المعارضون له -مع فصاحتهم- عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، وهو كتاب فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، مع أن المنزل عليه القرآن رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب، وهو باقٍ في صدورهم وبين أيديهم إلى قيام الساعة، بخلاف المعجزة الحسية فإنها تخص زمانها ومكانها.

والمعنى: هلَّا يكفيهم من الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ آيات هذا القرآن، فإن فيه زهاء ستة آلاف آية، وفي كل منها إعجاز لم يحصل لأحد من رسل الله، وفي هذا الإعجاز **خمس مزايا**:

المزية الأولى: كونه قرآنًا يتلى في مختلف المجامع والآفاق والأزمان، ولا يختص إعجازه بقوم دون قوم، ولا بزمان دون زمان، ولا بمكان دون مكان، كما في المعجزات الحسية، وقد تحدى الناس بمعارضته فعجزوا، فهو معجزة باقية، والمعجزات التي يقترحونها معجزات تزول.

المزية الثانية: أن ما يُدرَك بالعقل والفكر أرفع وأعلى مما يدرك بالحس والمشاهدة،

---

(١) قرأ رويس بضم الهاء من (أو لم يكفهم) وصلًا ووقفًا، والباقون بكسرها.

والقرآن يتلى ويدرك بالعقل.

المزية الثالثة: أن في تلاوة هذا الكتاب رحمة للناس وصلاحًا لدينهم ودنياهم بما اشتمل عليه من التشريع والهداية، والإرشاد والأخلاق، وتحصيل العلم والأحكام والآداب، وهذا يختلف عن المعجزات الحسية فإنها لا تفيد إلا تصديق الرسول.

المزية الرابعة: أن في القرآن تذكرة بخيري الدارين، تشتمل على المواعظ والنُذُر، والتذكير بعواقب الأمور، وفيه إعداد للحياة الأخرى الباقية، وهذا أفضل من المعجزات الصامتة التي لا تدل إلا على صدق الرسول في زمن معيّن.

المزية الخامسة: أنه ليس في استطاعة أحد أن يزعم أن القرآن سحر وشعوذة، أو تخيُّلات وأوهام، كما قال المشركون عن معجزة انشقاق القمر، وكما قال فرعون وقومه لموسى ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾.

والقرآن كتاب يُغني عن كل الكتب، ولا تغني عنه كل الكتب.

جاء عن الزهري أن حفصة ﵂ جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كَتِف -أي: عَظْم عريض- فجعلتْ تقرؤه عليه، والنبي ﷺ يتلوَّن وجهه، فقال: **«والذي نفسي بيده، لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم»**[1].

وجاء نحو ذلك بالنسبة لعمر ﵁، أن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظِّي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»**[2]. وفي لفظ **«ما وسعه إلا اتباعي»**

وهكذا جاءت آثار تنهى عن أخذ أقوال من أهل الكتاب بقصد العمل والاهتداء بها، فإنها لا تخلو من التحريف والتغيير، وقد نزلت لزمان معين ومكان معين، وقد جاء محمد ﷺ برسالة بيضاء نقية تصلح لكل زمان ومكان، ولا يزيغ عنها إلا هالك، وقد أُعطى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (١٠١٦٥) والبيهقي في «الشعب» برقم (٥٢٠٥) وقال الألباني: رجاله ثقات، لكنه منقطع، بل معضل، بين الزهري وحفصة، «الإرواء» (٦/ ٣٧).

(٢) وهذا إسناده ضعيف كما في «المسند» عن عبد الله بن ثابت برقم (١٥٨٦٤، ١٨٣٣٥) وفيه ابن يزيد الجُعفي، (محققوه) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٣): رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابرًا الجُعفي وهو ضعيف، وهو عند عبد الرزاق (١٠١٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠١).

النبي ﷺ جوامع الكلم، واخْتُصِرَ له الحديث اختصارًا.

وقد خُصَّت الرحمة والذكرى في هذه الآية بالذين يؤمنون بهذا القرآن في كل زمان ومكان؛ لأنهم الذين ينتفعون بما فيه من العبر والأحكام والحكم.

كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى صِدْقِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

٥٢- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم إن الله تعالى يقول لنبيه: لا تحزن على كفر هؤلاء بك وبكتابك؛ فإن شهادة الله تعالى كافية في أنك رسول الله وأن القرآن كتابك أوحاه الله إليك.

وقل لهؤلاء المكذبين كفى بالله شهيدًا على أني رسول الله، وكفى به شهيدًا على تكذيبكم ورفضكم للحق الذي جئت به من عند الله، فهو سبحانه شهيد بيني وبينكم.

وهو سبحانه يعلم صدق ما أقوله لكم، وأبلِّغه عن ربي، ولو كنت كاذبًا لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة]. فلْتكْفِكُم هذه الشهادة من الله، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلا يسعكم إلا الإيمان بما جئتُ به.

أما من اشترى الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، والظلمات بالنور، والباطل بالحق، فهو الذي خسر دنياه وأخراه، واستحب العمى على الهدى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ مع وضوح الدلائل والبراهين، أولئك هم الهالكون في الدنيا والآخرة، وستكون عاقبة أمرهم فرطًا، لأنهم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وخسروا النعيم المقيم يوم لقاء رب العالمين في مقابلة العذاب الأليم والعقاب الشديد.

الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ: اسْتِعْجَالُ الْمُكَذِّبِينَ لِنُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا

٥٣- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

في القرآن الكريم وعيد وترهيب لمن لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ، وقد أخذ الجاحدون للرسالة يقولون: أين ما تهددنا به يا محمد؟ أين ما تعدنا به من العذاب؟

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] قالوا ذلك استهزاء واستبعادًا لنزوله، وعدم فهْمهم لوظيفة الرسول ﷺ، فهم بدل أن يؤمنوا به يتحدونه أن ينزل بهم العذاب عاجلًا دون إبطاء ولا تأخير.

ورد أن النضر بن الحارث قال عن القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ووَرَدَ أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله؟.

وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن هذه الأمة؛ لأنها الأمة الأخيرة، ورسولها هو النبي الخاتم، وكتابه باقٍ بين أيديهم إلى يوم القيامة، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]. فهذان أمانان لرفع عذاب الإبادة عن هذه الأمة، **وهما**: وجود النبي ﷺ بينهم حيًّا، وبقاء كتابه ورسالته فيهم بعد مماته، والأمان الثاني هو دوام الاستغفار من أبناء هذه الأمة.

ولولا أن الله تعالى قد قضى بتأجيل عذابهم إلى أجل مسمى، هو يوم القيامة، وهو يوم حلوله بهم - لولا ذلك لنزل بهم العذاب حالًا كما استعجلوه ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

ثم أنذرهم الله تعالى وحذّرهم بأنه سوف يأتيهم العذاب في موعده فجأة وهم لا يشعرون به ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقد وقع بالمكذبين ألوان من العذاب في الدنيا، كيومي: بدر والأحزاب في عهد النبي ﷺ، ويقع بأمثالهم أنواع من العذاب الدنيوي على مدى التاريخ، كإبادة عشرة أسباط ونصف من اليهود على يد (بختنصر) وغيره، وما لحق بالنصارى في الحروب الصليبية وغيرها.

وعدم وقوع العذاب ببعضهم في الدنيا، كيهود اليوم وغيرهم، هو استدراج لهم وإمهال دون إهمال، فيكون المراد بالعذاب في هذه الآية: العذاب الدنيوي، وها نحن نعيش عصرَ أزمة مالية عالمية، وانهيار في الاقتصاد، وغلاء في الأسعار، ونعيش عصر انفلونزا الطيور، وانفلونزا الخنازير، والجمرة الخبيثة، وكلها عقوبات من الله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]

وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[١].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

وإذا لم ينزل العذاب بالظالمين في الدنيا، فإنه سينزل بهم حتمًا في الآخرة، وهو عذاب لا مرد له: سواء عُجِّل لهم بعذاب الدنيا أو أُمهلوا:

وَاسْتِعْجَالُهُمْ نُزُولَ الْعَذَابِ الأُخْرَوِيِّ بِهِمْ أَيْضًا

٥٤- ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

المراد بالعذاب في هذه الآية: هو العذاب الأخروي، نظرًا لورود جهنم فيها، وهو واقع بهم لا محالة، فليس بين هذه الآية والتي قبلها تكرار ولا تأكيد؛ لأن العذاب الثاني غير الأول، وهو عذاب لا معدل عنه ولا صارف له، يحيط بأهله من كل جانب، كما أحاطت بهم الذنوب من كل جانب.

وفي الآية تعجب من سوء تفكيرهم، ومن تعنتهم وعنادهم؛ إذ كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطة بهم يوم القيامة إحاطة السوار بالمعصم، لا مفر لهم منها؟! وعذاب الآخرة، عذاب شامل يأتي أهله من فوقهم ومن تحتهم والعياذ بالله. قال تعالى:

٥٥- ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ[٢] ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وهذه الآية، تصف عذاب الآخرة كأنه مشاهد للرائي؛ فإن العذاب يكون يوم القيامة من فوق رؤوس الكفار، ومن تحت أقدامهم، حيث تغشاهم النار من جميع الجهات، ويقال لهم: هذا جزاء أعمالكم في الدنيا من الشرك والكفر وارتكاب الآثام والجرائم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

---

(١) من حديث أبي موسى الأشعري في صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم (٢٥٨٣).

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء في (ويقول) عودًا على لفظ الجلالة في قوله تعالى: (وكفروا بالله)، وقرأ الباقون بالنون على الالتفات، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

وعن إحاطة العذاب بهم قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. فجهنم محيطة بهم، هي لهم فراش وغطاء:

وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

والكافر لا يستطيع رد النار عن وجهه ولا عن ظهره في هذا اليوم العصيب:

قال سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩].

بل إنهم يسحبون على وجوههم في نار جهنم:

كما قال جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر].

والنار تلفح وجوههم، فتتقلَّص شفاههم، وتعبس وجوههم ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] وهم في عذاب متجدد لا يفترُ عنهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ [الأعلى].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٤]

وأعداء الإسلام هم الذين يتهكَّمون بالوعد والوعيد، ويستعجلون نزول العذاب، وهم الذين يُضيِّقون على الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان.

وأعداء الإسلام هم السابق ذكرهم في الآيات، المتوعَّدون فيها بالعذاب الدنيوي والأخروي.

التَّحْرِيضُ عَلَى الْهِجْرَةِ فِرَارًا بِالدِّينِ

٥٦- ﴿يَٰعِبَادِيَ[1] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي[2] وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ[3] ﴿٥٦﴾﴾

هذه الآية لتحريض المؤمنين على الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام؛ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا عنها إلى أرض أخرى تتمكنون فيها من العبادة، فالموت نازل بكم لا محالة، حيث إن الله ﷻ يوجه عباده المستضعفين في الأرض في كل زمان ومكان إلى هجرة الأماكن التي لا يتمكنون فيها من عبادة الله تعالى، وتبليغ دعوته إلى الناس؛ حتى يتمكنوا من ذلك، وقد يحدث ذلك لبعض المسلمين في بعض بلاد الإسلام، كما يحدث في غير بلاد الإسلام أحيانًا، وكما حدث للمسلمين في مكة في عهد النبي ﷺ.

فإن كنتم -أيها المسلمون- في ضيق من إظهار الإيمان، أو قلة العيش، ولا تستطيعون المقاومة، ولا الجهاد بالكلمة، فاخرجوا إلى أرض أخرى تتمكنون فيها من إظهار الإيمان، والقيام بتكاليف الدعوة، وتجدون سعة في الرزق فيها.

ولهذا خرج المسلمون المستضعفون من مكة إلى الحبشة؛ ليأمنوا على أنفسهم، فوجدوا بها مَنْ آواهم ونصرهم.

ولهذا أيضًا هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، فتكوَّنت فيها دولة الإسلام، وصارت لهم قوة ومنعة، وذلك بعد أن تتابعت الفتن على المسلمين في مكة، فقيل للتاجر الصغير: اغلق دكانك وهاجر؛ لتقيم دولة الإسلام في المدينة، واعبدوني - أيها الناس - في أي مكان من أرض المعمورة؛ إذ ليس هناك ما يجبُركم على الإقامة في أرض لا قدرة لكم فيها على إظهار دينه، فإن أرض الله واسعة.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (يا عباديَ الذين)، وقرأ الباقون بإسكانها.

(٢) قرأ ابن عامر بفتح ياء الإضافة من (أرضيَ واسعة)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ يعقوب بإثبات ياء وصلًا ووقفًا في (فاعبدون)، والباقون بحذفها في الحالين.

ومن خرج مهاجرًا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، رزقه الله من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

ولا تشرع الهجرة لمن كان له في محل إقامته تأثير في دفع الظلم، ونشر الدعوة دون أن يمسه ضرر بالغ في نفسه أو أهله أو ماله.

هَاجِرُوا وَلَا تَخْشَوُا الْمَوْتَ

٥٧- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[١] ﴿٥٧﴾﴾

هاجروا - أيها المسلمون المستضعفون - ولا تخشوا الموت؛ فإنه حتم في كل مكان، لابد منه، ولا محيد عنه، فكونوا في طاعة الله حيث أمركم الله، فإليه المرجع والمآب، ومن تيقن بالموت سهل عليه مفارقة الأوطان، فلا تمتنعوا من الهجرة خوفًا من الموت، ولا تقيموا بدار الكفر خوفًا من الموت؛ لأنه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الآية تحقير لأمر الدنيا ومخاوفها لئلا يلحق بالمهاجر بعد خروجه من وطنه موت أو جوع، فأنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلى الله تعالى، فبادروا إلى طاعة الله تعالى بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومن ذلك الهجرة في سبيل الله تعالى.

فإن أماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لابد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازى كُلًا بعمله.

وقد ذمَّ الله قومًا قبلوا الضَّيْم والظلم، واستكانوا للاضطهاد والذلة، وقعدوا عن الهجرة، فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

---

(١) قرأ شعبة بياء الغيبة في (ترجعون) لمناسبة (كل نفس)، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة (يا عبادي).

عِظَمُ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

٥٨، ٥٩- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم[١] مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي وإذا كنتم -أيها الناس - سترجعون إلينا بعد الموت، فقد بيَّنتُ لكم عذاب من كان كافرًا، بأن النار تكون له فراشًا وغطاء، وتحيط به من جميع الجهات، فأما من كان مطيعًا في الدنيا فله أعظم الجزاء، فقد وعد الله المؤمنين العاملين للصالحات بسكنى الجنة، أي: إنهم سيسكنون جنات عالية، تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار العسل والخمر واللبن والماء، يصرِّفونها كيف شاؤوا، وهم ماكثون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدَّها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»**[٢].

وقد مدح الله تعالى هذه النعم وبيَّن أنها لِمَنْ عَمِل لها في دنياه.

ثم وصف الله تعالى العاملين المستحقين لهذا النعيم بالصبر والتوكل، فهم قد صبروا على تكاليف دينهم، وعلى أذى أقوامهم، وعلى مفارقة الأهل والأوطان، وصبروا على فعل الطاعات، وترك المعاصي، وصبروا على الشدائد والمحن والمصائب، وصبروا على تبليغ الدعوة للخلق والأذى في سبيلها، واعتَمَدُوا على الله في أرزاقهم وهجرتهم، وتوكلوا عليه حق توكله.

ففي الحديث عن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله**

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لنُثْوِيَنَّهم) بالثاء الساكنة، والباقون (لنُبوِّئنهم) بالباء المفتوحة.

(٢) «المسند» (٥/ ٣٤٣) برقم (٢٢٩٠٥) بإسناد حسن، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٦٦) و«صحيح ابن حبان» (٥٠٩) الإحسان، قال محققه: إسناده قوي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو (١/ ٣٢١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو في «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٨٨٣) و«صحيح ابن خزيمة» (٢١٣٧).

لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[١].

وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله؛ فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»**[٢].

الْمُؤْمِنُ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ السَّبَبَ

٦٠- ﴿وَكَأَيِّن[٣] مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

لَمَّا هوَّن الله تعالى من أمر الموت، سيما إذا كان في سبيل مرضات الله، بيَّن ﷻ أن المؤمن ليس من شأنه أن يخاف الفقر أو الضيْعة، ولذلك طمأن الله العبد بأن الرزق على الله، مع ضرورة بذل أسباب تحصيله، وهو سبحانه لن يُضَيِّع أحدًا من خلقه، ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى يرزق الدواب، فكيف لا يرزق الإنسان؟! وكثير من الدواب لا تستطيع تحصيل قُوتها لضعفها، ولا تدّخر لها رزقًا، ويسخر الله لها رزقها كل وقت بوقته، والله - جلَّ وعلا - يرزقها كما يرزقكم، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم في الأرض؛ فالله هو الرازق، وكما يرزق الحيوانات الضعيفة يرزقكم.

وقد كان فقراء المسلمين يخافون الفقر، ويتساءلون قبل الهجرة: كيف نعيش ونحن في دار الغربة؟ كيف نخرج إلى مكان ليس لنا فيه دار ولا مال؟ ومن يطعمنا ويسقينا؟

فكان الجواب في هذه الآية بأن الله تعالى هو الذي يتولى رزقكم، فكم من دابة ضعيفة

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٣٤٤) و«المسند» (١/ ٣٠) برقم (٢٠٥، ٣٠٧، ٣٧٣) بإسناد قوي ورجال ثقات (محققوه) و«المستدرك» (٤/ ٣١٨) قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم (٤/ ٣١٨) صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤٠٢) برقم (٤١٦٤) و«السلسلة الصحيحة» (٣١٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٠٥) وابن حبان (٧٣٠) وعبد بن حميد (١٠) وأبو يعلى (٢٤٧).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٦٠). وصححه الألباني عن أبي أمامة الباهلي في صحيح الجامع الصغير برقم (١٢٠٨٥).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو جعفر والباقون (وَكَائِنْ) وسهل أبو جعفر الهمزة وصلًا ووقفًا مع المد والقصر، وقرأ الباقون (وَكأَيِّنْ) وسهل حمزة الهمزة وقفًا.

لا تقوى على تحصيله وجمعه، ولا على ادخاره لغدٍ، والله تعالى هو الذي يرزقها على ضعفها وعجزها، ويرزقكم أيضًا كما رزق الطير في الهواء، والسمك في الماء، والبذر في جوف الأرض، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود].

عن ابن عباس ﷺ: أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون، فقال لهم: «**اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلَمة**»، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ويسقينا؛ فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[1].

تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَمْسِ حُجَجٍ

الْحُجَّةُ الْأُولَى: اعْتِرَافُ الْكُفَّارِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِهَذَا الْكَوْنِ

٦١- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

من العجيب أن أعداء الإسلام من الكفار والمشركين يعترفون بوجود إله لهذا الكون، ومع هذا فهم يعبدون غيره، ومن ثَمَّ تقيم السورة في هذه الآية وما بعدها خمس حجج على وجوب توحيد العبادة، وعدم صرفها إلا لله تعالى، فالسورة مكية وهي بصدد دعوة غير المسلمين للدخول في الإسلام.

وفي هذه الحجة تعجُّب من تناقض المشركين في اعتقادهم بالله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر، فهم مع كفرهم لا يُثبِتون لأصنامهم شيئًا من الخلق، أو الرزق، أو التدبير، فلئن سألت المشركين -أيها الرسول- من الذى خلق هذا النظام البديع، وهذا الكون بما فيه، فإنهم معترفون بأن الله تعالى خالقه ومبدعه، وأنه الذي خلق العالميْن العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب، وهو الذي ذلل الشمس والقمر، وسخرهما لمصالح العباد، يجريان بنظام دقيق، فكيف يُصرَفون عن الإيمان بالله تعالى خالق كل شيء ومدبره، ويعبدون غيره، مع إقرارهم به؟! وكان عليهم أن يلتزموا بما ألزموا به أنفسهمْ، ويُثبِتوا لها ما أثبتوه من توحيد الخالق سبحانه، والعدول عمن أقروا بعجزه، وأنه لا ينفع ولا يضر.

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٦٠).

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: اعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ

٦٢- ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

وإذا كان الله تعالى هو الرازق لعباده فكيف تعبدون غيره وهو سبحانه المتفضل عليكم بالرزق، يوسّعه على من يشاء ويضيّقه على من يشاء، وفق علمه وحكمته بما يصلح شؤون العباد؟! قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد].

والله تعالى مطلع على خلقه جميعًا، يعلم القانعين، ويعلم أهل الجزع والهلع، ولا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأموركم، وسوف يجازيكم عليها.

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: الِاعْتِرَافُ بِأَنَّ اللَّهَ مُنَزِّلُ الْمَاءِ، وَخَالِقُ النَّبَاتِ

٦٣- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم ذكر سبحانه موجد سبب الرزق غالبا وهو الماء، ولئن سألت المشركين -أيها الرسول- من الذي نزَّل الماء من السحاب، فأنبت به الأرض بعد جفافها؟ ليقولن: الله؛ فهم مقرون ومعترفون بأن منزل الماء هو الله سبحانه، وأن محيي الأرض بإخراج الزرع والثمر والنبات منها هو الله سبحانه.

وبعد الاعتراف الواضح من المشركين بتوحيد الربوبية، يقول الله تعالى لنبيه:

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول الكريم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم، ولزوم الحجة عليهم بأنه - جلَّ شأنه - خالق كل شيء، ورازق كل دابة، ولكنهم مع إقرارهم بأنه سبحانه الواحد

في ملكه فإنهم لا يوحدونه في عبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم ينكرون توحيد العبادة، مع إقرارهم بتوحيد الخالق، كما كانوا يقولون في تلبيتهم بالحج: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، فهذه الصفات الأربع، هي من أفعال الله تعالى وحده، وهي: الخلق، والرزق، والإحياء والإماتة.

مَتَاعُ الدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ لَا يَنْفَدُ

٦٤- ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

ثم بيَّنت الآيات أن ميزان القيم عند الله تعالى ليس في المال والمتاع، ولا في تضييق الرزق وسعته، فهو ظل زائل، وغاية ما في الدنيا لهو ولعب، أما الآخرة فإن نعيمها لا ينفد، ومتاعها لا يزول، وهي الحياة الكاملة، ومن لوازم هذه الحياة، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة والشدة، تتمتع باللذائذ والشهوات، وبكُل ما خُلق للحياة.

وإذا كان هناك من يعبد الحياة بفلسفتها المادية وحضارتها الحديثة، وزخرفها وبهجتها، ويجحد ما بعد هذه الحياة، من الحياة الأبدية السرمدية، ونعيمها الذي لا يحول ولا ينقضي، إذا كان الأمر كذلك فإن هناك عبادًا لله يعلمون أن الوجود في الدنيا موقوت، ومتاعها قليل، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وهم يعملون للدار الآخرة، معتقدين أنها الحياة المستمرة الدائمة، لا موت فيها، ولا ابتلاء، فهي الحياة الكاملة الباقية الدائمة.

ولو كان الناس يعلمون فناء الدنيا وبقاء الآخرة ما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

ولو كانوا يعقلون ما رغبوا في حياة اللهو واللعب، وتركوا دار الجنة والحبور.

واللهو: هو اشتغال الإنسان بما يلهيه ويشغله عما فيه نفع وفائدة، ومنه الاستغراق في متاع الدنيا وملذاتها.

واللعب: هو العبث والهزل، وقضاء الوقت فيما ليس فيه مقصد صحيح، وقدَّم اللعب على اللهو في سورة الأنعام، من قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]؛ لأنها لم تشتمل على اسم الإشارة المفيد لحقارة الدنيا، فبدأ في آية سورة الأنعام باللعب، إشارة إلى تحقيرها؛ لأن اللعب أغرق في قلة

الجدوى من اللهو.

وقدَّم اللهو على اللعب في هذه الآية التي نحن بصددها؛ لأن اسم الإشارة يفيد تحقير الدنيا.

الْحُجَّةُ الرَّابِعَةُ: التَّعَرُّفُ عَلَى اللَّهِ فِي الشِّدَّةِ فَقَطْ

٦٥- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ[(١)] فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

في هذه الآية، إلزام للمشركين بالتوحيد، لأنهم عندما يكونون في البحر وتتلاطم بهم الأمواج، يخلصون له الدعاء، فإذا زالت عنهم الشدة رجعوا إلى شركهم ونسوا ما كانوا فيه من شدة، فَلُجُوءهُمْ إلى الله تعالى في وقت الشدة يستلزم إقرارهم بالله تعالى، وأنه هو ا لذي ينجِّيهم ممَّا هم فيه، ومن ثم يلزم صرف العبادة له دون غيره.

وذلك أن الكافر على ما به من عناد وشرك، إذا وقع في ضيق وشدة، فإنه لا يلجأ إلا إلى لله سبحانه، تاركًا وراءه ما كان يشركه مع الله تعالى في الرخاء.

وكان العرب وقت نزول القرآن عليهم لا يخافون من السفر في البر؛ لأنهم كانوا يسيرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرون في أسفارهم باستراحات يعرفونها، فلا يعتريهم الخوف أثناء التنقل في البر.

وكانوا يخافون من سفر البحر ولا يألفونه، فيضرعون إلى الله تعالى إذا ركبوه، ويطلبون منه النجاة، ويُخلِصون له الدعاء أن يدفع عنهم ما هم فيه من شدة وهول، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ ووقعوا في شدة وكرب، وكان الموت والغرق ماثلًا أمامهم ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ أن ينجيهم إلى البر، فإذا زال عنهم ما هم فيه من شدة رجعوا إلى شركهم، فهم يوحدون الله تعالى في حالة الشدة، ويشركون به في حالة الرخاء، وهؤلاء القوم أفضل حالًا من مشركي زماننا، فهم لا يعرفون الله تعالى في شدة ولا في رخاء.

وكان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا الأصنام معهم، فإذا اشتدت الريح ألقوها في البحر، وقالوا: يارب، يارب، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن

---

(١) قوله تعالى (مخلصين له الدين) معدود آية عند الدمشقي والبصري، ومتروك من العدد عند غيرهما.

تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج منها عكرمة بن أبي جهل فارًّا، وكان كافرًا، فلمَّا ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا يُنجِّي هنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا يُنجِّي في البحر غيره، فإنه لا ينجِّي في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجتُ، لأذهبن فلأضعنَّ يدي في يد محمد، فلأجدنَّه رؤوفًا رحيمًا، فكان كذلك[1].

قال تعالى معللًا كفر الكافرين بأنه للتمتع بلذائذ الحياة:

٦٦- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا[2] فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

والمشركون يعودون إلى شركهم بعد نجاتهم من الشدة؛ ليكونوا بعودتهم إلى الشرك كافرين بنعمة الله عليهم، بعد أن نجَّاهم مما هم فيه، وليكون قصدهم هو التمتع بملذات الدنيا، ولهذا هددهم الله تعالى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون عاقبة كفرهم، وفساد عملهم، بما أعده الله لهم في الآخرة من عذاب مقيم.

الحُجَّةُ الخَامِسَةُ: نِعْمَةُ الأَمْنِ وَالأَمَانِ فِي رِحَابِ الإِسْلَامِ

٦٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ[3] وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾

وهذه حجة خامسة على أهل الشرك، يمن الله عليهم فيها بحرمه الآمن، وأنهم في أمن ورغد من العيش، والناس حولهم يُتخطفون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ونعمتا الطعام والأمْن، مِن أعظم النعم على الإنسان.

لقد كان -ولا يزال- أهل الحرم المكي يعيشون في أمن وأمان، والناس فيه تعظِّم مِنْ أجْل جوار بيت الله الحرام، والقبائل حولهم تتناحر، فيقتل بعضهم بعضًا، ويَسبي بعضهم

(١) ذكره محمد بن إسحاق، كما في الطبراني (١٧/ ٣٧٢).

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بإسكان اللام من (ولْيتمتعوا)، والباقون بكسرها، وهما وجهان في لام الأمر.

(٣) انفرد العدد الحمصي يعدّ (أفبالباطل يؤمنون) آية، ولم يعدها غيره.

بعضًا، ولايجدون الأمن والأمان إلا في ظلّ حرم الله، فهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فلا يليق بهم أن يبدّلوا نعمة الله كفرًا، وكان الأجدر بهم أن يعبدوا الله ويوحدوه، ويصدقوا رسوله، ولكنهم كذّبوا، فآمنوا بباطلهم وكفروا بالله ورسوله، والباطل هو الشرك وعبادة غير الله تعالى.

ونعمة الله تشمل كل نعمة محسوسة أو خفية، وأهل مكة هم المخاطبون وقت التنزيل، والعبرة بالعموم، وكل من ينطبق عليه المعنى فهو داخل في عموم هذه الآية.

وفي عموم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

فكان أهل مكة في بحبوحة من العيش وسعادة من الأمن، والقبائل حولهم يتناحرون، ويُغير بعضهم على بعض، فذكَّرهم الله تعالى بهذه النعمة، فأين ذهبت عقولهم، حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة.

النَّاسُ أَمَامَ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ فَرِيقَانِ: ظَالِمٌ مُكَذِّبٌ وَمُؤْمِنٌ مُخْلِصٌ

٦٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

وفي ختام سورة الابتلاء والفتن، وبعد دعوة الوثنيين وأهل الكتاب إلى الإسلام، تبيِّن السورة أن الناس أمام دعوة الإسلام فريقان:

١- فريق أشرك وكفر، وكذَّب وأنكر رسالة محمد ﷺ، وهؤلاء لا أحد أظلم منهم على وجه الأرض، فلا أحد أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبًا، فنسب إليه الشريك والولد، ونسب إليه ما هو عليه من الضلال والباطل.

ولا أحد أظلم ممن كذَّب بالحق لما جاءه، وهو محمد ﷺ، والقرآن الذي نزَّله عليه.

فالأول: مفترٍ، والثاني: مكذب.

وأصل الظلم: الاعتداء على الآخر، لمنعه من حقه، وأشد منه أن يمنع الحق مستحقه، ويعطيه لمن لا يستحق، وأن يُلصق بأحدٍ ما هو بريء منه، أو يقتطع مال أمرء بغير وجه حق، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

والمشركون قد سلبوا عن الله تعالى صفة الإلهية، ومنحوها لآلهتهم، وأثبتوا له سبحانه كذبًا وبهتانًا ما هو منزه عنه من الصاحبة والولد.

وإلى جوار ذلك فقد سلبوا عن النبي ﷺ صفة النبوَّة والرسالة، ونسبوا له الكذب والافتراء.

فكانوا بمجموع هذه الأمور قد وضعوا الأشياء في غير موضعها، وكانوا بهذا أظلم الناس.

وكل من أشرك بالله، أو كذَّب رسول الله فهو مُتوعَّد من الله تعالى بعذاب جهنم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ بلى، فيها إقامة دائمة لهم، وفيها مسكن لمن كفر بالله وجحد توحيده وكذَّب نبيه.

٦٩- ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

٢- أما الفريق الثاني: فهم المؤمنون، المجاهدون لأنفسهم وأهوائهم وأعدائهم، الذين بذلوا مجهودهم في اتباع مرضاة الله تعالى، فصبروا وصابروا، وأقاموا السُّنَّة وقمعوا البدعة، وصبروا على الفتن والمحن والبلاء والأذى في سبيل الله، وهؤلاء سيهديهم الله وَيُيَسِّرُ لهم سبل الخير، ويوصِّلُهم طريق الجنة، ويثبتهم على الصراط: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا﴾ لنصرة ديننا طلبًا لمرضاة الله، سيدخلهم الله في رحمته ويوفقهم إلى طريق السعادة.

قال أبو مسلم الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال العدو فقط، بل هو نَصْرُ الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأَعْظَمُه، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفس في طاعة الله تعالى، ومعنى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: نوفقهم إلى الطرق الموصلة إلى رضواننا؛ لأنهم علموا، وعملوا بما علموا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والعون في الدنيا، والمغفرة والثواب في الآخرة.

وكان سُكْناهم الجنة لأنهم أحسنوا مع ربهم، حين أخلصوا له العمل، فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقد أحسنوا إلى أنفسهم حين سلكوا بها سبيل النجاة، وأحسنوا إلى الناس بالنصر والتأييد والهداية، فكانت عاقبتهم مغفرة الله تعالى ورضوانه.

تم تفسير (سورة العنكبوت) ولله الحمد والمنة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّومِ (٣٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الروم) هي السورة الثلاثون في ترتيب المصحف، والرابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الانشقاق)، وقبل سورة (العنكبوت).

وهي تسع وخمسون آية في المصحف المكي والمدني الأخير، وستون آية عند غيرهما.

وهي ثمان مئة وتسع عشرة كلمة، وثلاثة آلاف وخمس مئة وأربعة وثلاثون حرفًا.

وسميت سورة (الروم) في عهد النبي ﷺ، ولم يرد ذكْر اسم الروم في غيرها من القرآن.

وهي سورة مكية، قال ابن عباس: نزلت سورة الروم بمكة[١].

وقد نزلت سنة إحدى عشرة من البعثة غالبًا؛ لأن انتصار الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان[٢].

وكان هذا الانتصار بعد سبع سنوات من غلبة الفرس للروم، كما أشار القرآن الكريم.

وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا، فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[٣].

وهذه الرواية على قراءة فتح الغين من (غَلبت الروم)[٤] وهي قراءة شاذة، والرواية التي قبلها على قراءة ضم الغين وهي القراءة المتواترة.

فيكون المعنى: وهم من بعد غلبهم فارس سيغلبهم المسلمون[٥].

---

(١) أخرجه ابن الضريس ١٧ والنحاس ص ٦١١ والبيهقي (٧/ ١٤٣).

(٢) قاله قتادة وغيره، وقد استفاضت الروايات بهذا كما في «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٢٨) وغيره.

(٣) جاء هذا عند الترمذي برقم (٢٩٣٥) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٣٣٨) ورقم (٣٤٢٠) وهو حديث صحيح كما قال الألباني.

(٤) وهي قراءة شاذة وردت عن أبي سعيد، وعليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر، يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٢٧).

(٥) يُنظَر: «أسباب النزول» للسيوطي ٢١٦ و«تفسير الطبري» (٢١/ ١١).

فالآية تحتمل أن تكون بشارة للمؤمنين بالنصر على عدوهم، وقد تحقق هذا في يوم بدر، أو في بيعة الرضوان.

وتَحتمِل أن تكون بشارة للمؤمنين في صدق نبيهم من أن الروم ستغلب فارس.

وجاء من عدة طرق، أن النبي ﷺ قرأ في صلاة الصبح بسورة الروم[1].

وموضوع سورة (الروم) هو موضوع السور المكية، فهي تعالج قضايا العقيدة، والرسالة، والبعث والجزاء:

١- وقد ابتدأت السورة في موضوع العقيدة بالحديث عن قصة معيَّنة، هي قصة الحرب التي دارت بين الفرس والروم، وانتهت في أول الأمر بانتصار الفرس، ثم كان النصر بعد ذلك للروم.

وكان ذلك في وقت قد احتدم فيه الجدل حول العقيدة، بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة، وبين المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر.

وكان الروم أهل كتاب، والفرس مجوسًا يعبدون النار، وأهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المجوس، فنزلت هذه الآية لتبشر بنصر الروم على الفرس.

وفي هذا السياق وبَّخت السورة الكافرين؛ لعدم تفكيرهم في دلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

وأول ذلك التفكير في الكون الصغير، وهو نفس الإنسان المليئة بدلائل التوحيد، ثم التفكير في الكون الكبير بسمواته وأرضه، وما فيهما، وما بينهما.

ومن الدعوة إلى التفكير في النفس والكون إلى وجوب التأمل والنظر في أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا.

وفي هذا السياق تقيم السورة اثني عشر دليلًا على وحدانية الله تعالى في ست آيات منها، وهي من الآية الحادية والعشرين إلى الآية السادسة والعشرين، وتضرب السورة المثل بعد

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (٢٧٢٥) وأحمد في «المسند» برقم (١٥٨٧٣) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي روح فهو حسن الحديث، وأخرجه البزار (٤٧٧) زوائد والطبراني في الكبير (٨٨١).

ذلك على التوحيد والشرك، ثم تأمر الناس باتباع الدين الحق، وإسلام الوجه لله تعالى.

وتُخْتَم دلائل التوحيد هذه بالآية السابعة والعشرين من السورة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

ومن دلائل التوحيد في السورة: أن الله تعالى يرسل الرياح مبشرات بالمطر، والسفن تمخر في عباب البحر بإذنه تعالى، وقد جاء ذلك في الآية [٤٦] حيث يرسل الله الرياح فتثير السحب مثقلة بالماء، فينشره في السماء، ويجعله قطعًا متفرقة فينزل المطر من بين السحاب، كما في الآية [٤٨]. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية ٥٠ من سورة الروم.

٢- وموضوع البعث والنشور في السورة يتخلل دلائل التوحيد، وذلك من الآية الحادية عشرة إلى الآية السادسة عشرة، بالإضافة إلى الآيات [٥٥-٥٧] قرب نهاية السورة، وهو يوم لا ينفع فيه عذر، ولا تُقبل فيه رجعة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقد أفاضت السورة في الاستدلال على البعث؛ لإبطال مزاعم المشركين المنكِرة للحساب والجزاء، ومن ذلك ما جاء مفصلًا في **أربع استئنافات** متماثلة الأسلوب، ابتدأ كلٌّ منها بلفظ الجلالة، وجاءت جارية مجرى الإخبار عن الحقائق التي لا قبل لهم بدحضها، ولا يسعهم إلا الإقرار بها مع العجز عن نقضها.

والاستئناف الأول: مبدوء بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[١١].

ولا ينازع أحد في أن الله تعالى هو خالق الخلق، فالكفار يعترفون بهذا، وإذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ فسيكون جوابهم: هو الله.

قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦].

والاستئناف الثاني: هو المبدوء باسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [٤].

والاستئناف الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [٤٨].

ويُعقب الله تعالى على هذه الآية، فيقول: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

والاستئناف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [٥٤].

٣- وقد أشارت السورة إلى العنصر الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو عنصر الوحي والرسالة، وبدأت ذلك بالتنبؤ بحديث غيبي هام، وهو انتصار الروم على الفرس، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن ثَمَّ إلى دمج الرسول ﷺ في موكب الرسالات الإلهية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [٤٧].

وتبيِّن السورة أن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ، فهو لا يهدي العُمى، ولا يُسمع الصم، والكفار كالموتى لا يسمعون ولا يُبصرون، ولا ينتفعون بالآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، فاصبر -يا رسول الله- على أذى من لم يؤمن حتى يأتي نصر الله.

ويمكن تقسيم السورة على النحو التالي:

١- مقدمة تتناول غلبة الروم للفرس، وذلك في الآيات السبع الأول.

٢- دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله، لغرس عقيدة التوحيد واقتلاع جذور الشرك، وقد استغرق هذا معظم السورة، من الآية الثامنة حتى الآية الثانية والثلاثين.

٣- جولة مع الإنسان حين يمسه الخير أو الضر، وبسط الرزق أو قبضه، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الرابعة والخمسين.

٤- حديث عن الساعة والاستعداد لها في الآيات الخمس الأخيرة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

افْتِتَاحُ بَعْضِ السُّوَرِ بِحُرُوفِ الْهِجَاءِ

١- ﴿الٓمٓ[(١)] ۝١﴾

ابتدأت سورة (الروم) بثلاثة حروف من حروف الهجاء، هي: الألف، واللام، والميم، وهي من المتشابه الذي لا يعلم حقيقة معناه إلا ربُّ العالمين، ومن أرجح ما قيل فيها: إنها للإعجاز القرآني، ولبيان أنه مكوَّن من هذه الحروف التي تنطقونها، وقد عجز البشر عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

وهي أيضًا لإثارة انتباه المشركين حين يستمعون إلى ألفاظ عجيبة لم يعرفوها فيتأملوها، ويجرُّهم هذا إلى الاستماع إلى القرآن والتأثر به، ومن ثَمَّ إلى الدخول في الإسلام، فكأن هذا من أساليب الدعوة، بجذب المستمع، وشدِّ انتباهه؛ حتى يفكر ويعقل.

وسورة (الروم) ثالث سورة بعد سورتي: مريم، والعنكبوت، لم يقع بعد حروف الهجاء في أولها حديث عن القرآن الكريم، وإنما وقع بعدها إعجاز قرآني، هو هنا: الإخبار عن شيء غيْبيٍّ مستقبليٍّ، هو نصر الروم على الفرس في المستقبل بعد بضع سنين من هزيمة الفرس لهم.

من معجزات النبي ﷺ

٢-٥- ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ[(٢)] ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ[(٣)] ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ[(٤)] لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على ألف، ولام، وميم، سكتة لطيفة خفيفة بدون تنفس، على أن كُلًّا منها حرف مستقل، وقد انفرد الكوفي بعدّ (الم) آية، ولم يعدّها غيره.

(٢) لم يعد المدني الأخير والمكي (غلبت الروم) آية، وعدها غيرهما.

(٣) ورد الخلاف عن المكي في (سيغلبون) والصحيح أنه معدود عنده آية كسائر أئمة العدد.

(٤) لم يعد المدني الأول والكوفي (في بضع سنين) آية، وعدها غيرهما.

﴿يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

أي غَلبتْ فارس الروم في أقرب أرض الروم إلى أرض فارس، بغور فلسطين، في أخفض نقطة على سطح الأرض، وهي البحر الميت، وسوف ينتصر الروم على الفرس قريبًا، وهذا النصر سيقع في سنوات لا تزيد على العشر ولا تنقص عن ثلاث، ولله وحده الأمر كله قبل انتصار فارس على الروم، وبعد انتصار الروم على الفرس، ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بهذا النصر، لأن الروم أهل كتاب، وفارس وثنيون، فالروم أقرب إلى الحق، وكان نهاية ذلك سنة (٦٢٤)م زمن انتصار المسلمين في غزوة بدر على المشركين في السنة الثانية للهجرة[1].

سبب النزول: مما ورد في أسباب نزول أول سورة الروم ما جاء عن نِيَار بن مُكْرَم الأَسْلَميّ قال: لما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبُّون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب، ولا يؤمنون ببعث.

فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: ذاك بيننا وبينكم، يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرهان- فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعُوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين؟ فسمِّ بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه، قال: فسمَّوْا بينهم ستَّ سنين، فمضت الست قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين، قال: لأن الله قال ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير[2].

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآيات.

(٢) «سنن الترمذي» (٣١٩٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٢) وهو عند الطبراني في الأوسط مختصرًا (٧٢٦٦) والدارقطني، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن مردويه كما في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠٧٧).

قتال فارس والروم: بعث كسرى جيشًا إلى الروم، واستعمل عليهم رجلًا يسمى (شهريران) فسار إلى الروم بأهل فارس، وظهر عليهم، فقتلهم وخرَّب مدائنهم، وقطع زيْتونهم.

وكان قيْصر قد بعث رجلًا يُدْعى (يحنس)، فالتقى مع (شهريران) بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه بمكة، فشقَّ ذلك عليهم، وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وخرج كفار مكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله الآيات من أول سورة الروم[1].

وكانت هزيمة الروم في الحرب التي جرت بدايتها بينهم وبين الفرس سنة ٦١٥ ميلادية.

ولما نزلت الآية، خرج أبو بكر إلى الكفار يقول: أَفَرِحْتُم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا، ولا يُقرنَّ الله أعينكم، فوالله ليُظهرنَّ الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ، فكذَّبه أُبيُّ بن خلف، وتراهنا على مئة قلوص، فظهرت الروم على فارس، فغلبهم المسلمون[2].

التعريف بالروم: الروم هم النصارى، وهو اسم غَلب في كلام العرب على أمة مختلطة: من اليونان، والصقالبة، والرومان الذين هم من أصل إيطالي، وكانت هذه الأمة في أوربا وآسيا الصغرى التي هي بلاد الأناضول، وأطلق العرب عليهم اسم الروم؛ للتفرقة بينهم وبين الرومان الإيطاليين.

وكانت (بيزنطة) من جملة مملكة (إسكندر المقدوني)، فلما مات، صارت مملكته داخلة تحت سلطة (روما)، فحكمها قياصرة الرومان، إلى أن صار (قسطنطين) قيصر روما، وانفرد بالسلطة في حدود سنة ٣٢٢ ميلادية، فجمع شتات المملكة، وجعل لها عاصمة غربية هي (روما)، وعاصمة شرقية على بقايا مدينة بيزنطة، وسماها (قسطنطينية).

وبعد موته سنة ٣٣٧ ميلادية قُسِّمت المملكة بين أولاده، وصارت مملكة شرقية ومملكة

---

(١) يُنظَر: «أسباب النزول» للواحدي ٢٨٧ و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١) و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٩٩).

(٢) من رواية عكرمة كما في «تفسير الطبري» (١٨/ ٤٥٠) وغيره.

غربية، فاشتهرت المملكة الشرقية باسم بلاد الروم، وعاصمتها (القسطنطينية) ويُعْرف الروم بالبيزنطيين نسبة إلى بيزنطة، اسم مدينة يونانية قديمة، وظلت المملكة الغربية في روما[1].

وهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، والعيص أخ ليعقوب، فهم أبناء عم اليهود نسبًا.

والنصارى يقال لهم: بنو الأصفر، نظرًا للونهم غالبًا، وكانوا على دين اليونان قبل النصرانية، واليونان، من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الأوثان والكواكب السبعة السيارة، وهم الذين أسسوا (دمشق)، وظلوا على ديانتهم إلى ما بعد المسيح بنحو ثلاث مئة عام.

ومنهم (قيصر) الذي ملَك الشام والجزيرة، وأول من دخل في النصرانية.

أول من حرَّف وغيَّر دين النصارى: هو الملك (قسطنطين)، وكانت أمه قد تنصَّرت قبله، ودعتْه إلى دينها، وكان فيلسوفًا فاجتمع حوله النصارى، ووضعوا له أمر العقيدة، وسموها (الأمانة الكبرى) كما فوضوا له أمر القوانين، أي: التحليل والتحريم، فغيَّر دين المسيح، وزاد ونقص، وعبد الصليب، وأحل الخنزير، واتخذ أعيادًا، كعيد: الغطاس والقدَّاس، والصليب، والشعانين، وحوَّل القبلة من القطب الشمالي إلى الشرق، وابتدعوا الرهبانية، وبنوا الكنائس والمعابد، وبنوا مدينة القسطنطينية.

طوائف النصارى الثلاث:

١- وهؤلاء الذين غيّروا دين المسيح يُسمَّون: طائفة المَلْكِية، أي الذين على دين الملك قسطنطين، وهم (البروتستانت) أصحاب الكنيسة الإنجيلية، وهم في: ألمانيا، وإنجلترا، والدانمارك، وهولندا، وسويسرا، والنرويج، وأمريكا الشمالية.

٢- ثم حدثت بعدهم **طائفة اليعقوبية،** أتباع يعقوب الإسكاف، وهم (الكاثوليك)، وهم في: إيطاليا، وفرنسا، وبلجيكا، وهم يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة هي التقاء اللاهوت بالناسوت، أي: الطبيعة الإلهية بالطبيعة الإنسانية، فاختلط كُلٌّ منهما بالآخر،

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢١/ ٤٣) بتصرف.

وكوَّنا إلهًا واحدًا في زعمهم.

٣- ثم جاءت طائفة النسطورية، أصحاب نسطورا، وهم (الأرثوذكس) أصحاب الكنائس الشرقية، ومنهم بابا الإسكندرية، وهم في: روسيا، والبلقان، واليونان، وهم يقولون بأن للمسيح طبيعتين (اللاهوت، والناسوت) واستمروا على النصرانية، كُلَّما هلك قيصر، خلفه آخر، حتى كان آخرهم هرقل.

فالطوائف الثلاث تمثل الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، القائلين بالبنوة، والتثليث، وألوهية المسيح.

٤- وهناك مذهب المَوَارنة: نسبة ليوحنا مارون، الذي ادَّعى أن للمسيح طبيعتين.

ومع أن الإسلام كان حسَن الصلة بالنصارى من الناحية السياسية والاجتماعية، إلا أنه لم يداهن أو يجامل فيما يتعلق بالعقيدة، فقرر وحدانية الله سبحانه، ورفض البنوة والتثليث، فالله تعالى واحد أحد، وليس مُرَكَّبًا من عنصرين، كما يتركب الماء مثلًا من الأوكسجين والهيدروجين، ومقتضى ذلك أن الإلهين الثاني والثالث مخلوقان لله تعالى.

والنصرانية هي الديانة المسيحية التي أُنزلت على عيسى عليه السلام مكملة لرسالة موسى عليه السلام، ومتممة لما جاء في تعاليم التوراة.

وكان لعيسى حواريون اثنا عشر، مذكورون في إنجيل متى، ويقال: إن عيسى اختار سبعين من قومه، أرسلهم ليعلِّموا الناس المسيحية.

ومن الحواريين (يهوذا الإسخريوطي)، وقد اختير بالقرعة لينوب عن (بولس) الذي قال ببنوة عيسى عليه السلام، وقال بالعشاء الرباني، وغُفران الذنوب، وقصة الغداء، ونادى بألوهية الروح القدس، وجعل النصرانية دينًا عامًّا بدلًا من الدين الخاص ببني إسرائيل.

الأناجيل الأربعة: وبعد وفاة عيسى أو رَفْعِه كتب الحواريون أربعة أناجيل:

١- إنجيل (متَّى) نسبة لمن كتبه من الحواريين، تلاميذ عيسى عليه السلام، وهو (متَّى).

٢- إنجيل (مرقص) كتبه (يوحنا) وهو من السبعين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام لتبليغ دعوته في البلاد.

٣- إنجيل (لوقا) وهو طبيب من أصل يهودي، كان يرافق (بولس) في حله وترحاله، وليس من تلاميذ المسيح ﷺ.

٤- إنجيل (يوحنا) وهو ابن صيَّاد، وقد انفرد بالقول بالتثليث، وألوهية المسيح.

والأناجيل الأربعة ليست من إملاء المسيح، وتسمى بالعهد الجديد.

وقبلها العهد القديم الذي هو التوراة.

٥- وهناك (إنجيل برنابا) سُمِّيَ باسم (برنابا) خال (مرقص)، وفيه توحيد الله تعالى، وفيه أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهو يبشر بنبوة محمد ﷺ، ولا يقول بصلب المسيح، ويقول: إن الله تعالى ألقى الشبه على (يهوذا الإسخريوطي) فقتله اليهود، ويقول إنجيل برنابا بنبوة عيسى لا أكثر، وهذا ما يقرره الإسلام، وهذه الفرقة هم الموحدون من فرق النصارى، ولكنها فرقة مغمورة، وليست منتشرة انتشار الفرق الأخرى.

وتنقسم الكنائس في العصر الحاضر إلى قسمين:

١- الكنيسة الغربية اللاتينية، ورئيسها بابا روما.

٢- الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية، ورئيسها بطريرك القسطنطينية.

وسبب الانقسام هو: هل روح القدس منبثق عن الأب، أو عن الأب والابن معًا؟

الفرس: أما الفرس فقد كانت الدولة العظمى الأخرى في العالم، المناوئة للروم، وكانت مملكتهم أوسع وأقوى من الروم، وكانوا يعبدون النار والأصنام، ويجحدون البعث والنشور، وكان ملك الفرس يقال له: (كسرى)، وكان اسمه وقت أن غُلبت الروم (سابور)، ونحمد الله تعالى أن أعزَّ هذه البلاد بالإسلام.

نتائج المعركة بين أقوى دَوْلَتَيْنِ في العالم القديم:

كانت الفرس والروم أقوى دَوْلَتَيْنِ في العالم، وكانتا تقتسمان الأرض، إحداهما في الشرق وهي فارس، والأخرى في الغرب وهي الروم، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وما حولها، ولا تزال هذه المنطقة من العالم مطمع الغزاة في كل زمان.

وكان بين الفرس والروم من الحروب والقتال ما بين الدول المتوازنة عسكريًّا، فبعث

كسرى جيشًا إلى الروم، وبعث قيصر جيشًا، والتقيا في أذرعات وبصرى بالشام، فغلبت فارس الروم في أدنى طرف الأرض بفلسطين من الشام، أي: أقربها إلى بلاد فارس مما يلي الحجاز، وذلك في أرض الجزيرة الواقعة بين نهري: دجلة والفرات، وخسرت الروم مصر والشام واليمن، وحاصر كسرى ملك الروم (هرقل) في القسطنطينية مدة طويلة، بعد أن اضطره لِلُّجُوء إليها.

وكان الروم أهل كتاب، ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس؛ لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر في أصل ما جاء في كتبهم.

أما الفرس فكانوا يعبدون النار، وهم أقرب إلى المشركين عبدة الأوثان من الروم.

قال ابن عباس ﷺ: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكِر ذلك لأبي بكر ﷺ، فذكره لرسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: أما أنهم سيغلبون، فراهن المشركون أبا بكر على أن الفرس ستغلب الروم، ولما انتصر الروم على الفرس أخذ منهم الرهان، وذلك قبل تحريمه في الإسلام[١].

والغريب أن النصارى قالوا: إن محمدًا ﷺ قال ذلك لأنه يكره الفرس، ورفضوا التسليم بأن هذه معجزة تشهد لمحمد ﷺ بصدق الرسالة، والإسلام غني عن شهادتهم!!

ولما غلبت فارس الروم، شقَّ ذلك على المسلمين لَمَّا بلغهم الخبر في مكة، وفرح به كفار مكة.

ولما انتصرت فارس على الروم اعتقد الناس جميعًا أن شمس الروم قد غربت، وأن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»(١/ ٢٧٦) إلى (سيغلبون) كما صحح إسناده على شرط الشيخين أحمد شاكر في حاشية «المسند» برقم (٢٤٩٥) وأخرجه الترمذي، «تحفة الأحوذي» (٩/ ٥١) وهو في السنن برقم (٣١٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى برقم (١١٣٨٩) وفي كتاب «التفسير» برقم (٤٠٩) و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٦) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٣٧٧) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٠) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٥١).

مستقبلهم قد ضاع، والإسلام هو الصوت الوحيد الذي عارض هذه النتائج، وأعلن في ثقة ويقين أن هذه الهزيمة عارضة، وأن هذا الواقع سيزول، وسوف تنتصر الروم على الفرس بعد سنوات تُعدُّ على الأصابع ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

وقد تحقق وعد الله تعالى بنصر الروم على فارس بعد سبع سنين، وظلت هذه المعركة آية تتحدى واقعًا عالميًّا ذلَّ فيه المجوس وعزَّ فيه النصارى، ولم يشك أحد في ذلك.

ووصل خبر انتصار الروم إلى النبي ﷺ يوم أن نصر الله المسلمين على المشركين في غزوة بدر -عند أكثر أهل العلم- ففرح المسلمون بنصرهم على عدوهم، وفرحوا في الوقت نفسه بنصر الروم على الفرس.

وقيل: إن خبر نصرهم وصل إلى النبي ﷺ يوم الحديبية، والأول أصح.

قال ابن عباس ﷺ: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنون ففرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾[1].

وقال الزبير الكلابي: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، وظهورهم على الشام والعراق[2] كل ذلك في خمس عشرة سنة.

ويذكر بعض المؤرخين أن مَلِكَ فارس، غزا بلاد الشام مرتين: مرة سنة ٦١٣م، ومرة سنة ٦١٤م، أي: قبل الهجرة بسبع سنين، ثم نُصرت الروم على الفرس سنة ٦٢١م، أي: قبل الهجرة بسنة[3].

ويُجمع بين هذا وما قبله: بأن فرق العامين قد يكون بالنسبة لبدء المعركة ونهايتها، أو بين التاريخين الهجري والميلادي، فلا تعارض.

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٩٣٥، ٣١٩٢) و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٦) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٣٨، ٢٥٥٠) وهو عند ابن أبي حاتم.

(٢) البيهقي (٢/ ٣٣٤) وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٠٤).

(٣) يُنظَر: «تفسير القاسمي» (٢/ ٤٧٦٥).

ولما انتصر الروم على الفرس بنوا بالعراق مدينة (رومية).

أما قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ فهي جملة معترضة، في ثنايا الحديث على نصر الله للروم بعد هزيمتهم، وجاء هذا الاعتراض قبل نهاية الآيات؛ للإسراع برد الأمر كله إلى الله تعالى في هذا الحادث وغيره، فكل ما يحدث في الكون مردُّه إلى الله تعالى، والأحداث كلها تجري وفق قدر مرسوم.

والمعنى: لله الأمر أوَّلًا وآخرًا، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة، لأن النصر لا يكون لمجرد وجود الأسباب بل لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر، فأمر الله تام نافذ في كل وقت وآن، وليس لأحد من الخلق أن يخرج عما قدره الله وأراده؛ فإن غلبة الغالب، وخُذلان المغلوب بأمر الله تعالى وقضائه.

ويوم يَهزم الرومُ الفرسَ، ويتغلبون عليهم يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لأهل الكتاب على المجوس؛ لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس. قال تعالى:

٦- ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

وهذا النصر وعْد من الله تعالى، لابد أن يتحقق وقوعه وفق النظام الذي أعده الله تعالى لهذا الكون، وطبق ارتباط الأسباب بالمسببات، فهو وعد مؤكد لا يمكن أن يتخلف؛ لأن وعده تعالى حق، وكلامه صدق، وهو عين ما أخبر به محمد ﷺ من نصر الروم على فارس خلال مدة من ثلاث إلى تسع سنوات، وهو خبر صدق، ووعد حق، وأكثر الكفار لا يعلمون صدق وعد الله تعالى.

وهذا من الأمور الغيبية التي أطلع الله عليها رسوله قبل وقوعها، وهي من معجزاته ﷺ.

الْعِلْمُ الدُّنْيَوِيُّ وَالْعِلْمُ الأُخْرَوِيُّ

٧- ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

وعِلْمُ الكفار يختص بالدنيا وحدها، ويتعلق بالماديات والظواهر وعلوم الحياة، وسائر العلوم الدنيوية التجريبية، وهم في غفلة عن العمل لما بعد الموت.

ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أهل العلوم الدنيوية دخولًا أوليًا

من سائر الذين لا يعلمون شيئًا عن خالقهم الذي أوجدهم من العدم،ورزقهم وأمدَّهم بسائر النعم، وهم لا يعلمون شيئًا عن مصيرهم الأخروي،الذي يقيمون فيه إقامة دائمة في عذاب فظيع دائم متجدد.

ومَنْ غَفَل عن ذلك ولم يعلم منه شيئًا، فليس معدودًا في جنس مَنْ يعلم؛ لأن هذا هو العلم الصحيح، والجهل به هو الجهل الحقيقي.

وإذا اقتصر علم الإنسان على علوم الدنيا، فهو علم ضيق المجال، ليس له غاية؛ لأنه سريع الزوال بزوال الدنيا.

وعلم الظاهر: هو متاع الدنيا، ولا يتجاوزها للآخرة.

وعلم الباطن: يتجاوز الدنيا لما بعد الموت، يتجاوزها للدار الآخرة بما يحقق لهم النفع والفائدة، والنجاة في الدار الآخرة.

والغفلة عن الآخرة تجعل المقاييس تختل، والأهداف تتغير، والغايات تختلف؛ لأن حساب الآخرة في حياة الإنسان، وفي ضميره وأعماله يغيِّر ما يقع منه من أقوال وأفعال.

فالعمل لحياة قصيرة تنتهي بموت الإنسان، ليس كالعمل لحياة أبدية بعد الموت، يجني فيها ثمار ما قدم، ولا يلتقي إنسان يعمل للدنيا وحدها ولا يؤمن بالآخرة، بإنسان يعمل للآخرة ويؤمن بها.

والعلم نوعان: **علم دنيوي ظاهر**، يعمل فيه العبد للدنيا وحدها دون ربط بينها وبين الآخرة، ويتم تحصيل هذا العلم لمن يهدف إلى زخرف الدنيا ومتاعها، وهذا العلم يتمثل في: معرفة أمور المعاش، ووجوه الكسب، والتجارة، والعلوم المدمرة لحياة البشر، والعلوم التجريبية المادية، وأهل هذه العلوم قد عرفوا القشور دون اللباب.

وتنكير ﴿ظَٰهِرًا﴾ يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من ظواهرها، فهو علم قليل.

قال ابن عباس ﷺ: الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال[1].

والعلم الآخر: **علم أخروي باطني**: يتجاوز فيه العبد عمله للدنيا إلى الآخرة، فيتزود لها

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٠٥).

بالطاعة والعمل الصالح، فهو يعمل للدنيا باعتبارها مزرعة للآخرة، يطلب العلم الأخروي، ولا ينسى حظه في الدنيا، ويستعين بعلوم الدنيا على إعلاء كلمة الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

وبالنيَّة يحوِّل العبد العمل الدنيوي إلى عمل أخروي، في أكله، وعمله، ونومه، وسلوكه، حتى وجماعه أهله، ودراسته، وتجارته، وزراعته، وصناعته، وغير ذلك فيحصِّل بكل هذا مطلوب الدنيا، ويثاب عليه في الأخرى.

والعمل للدنيا وحدها، يجعل الإنسان يتمتع بها، ويحصِّل نصيبه منها، وليس له نصيب في الآخرة.

أما من يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ودار عبور لها، فإنه يُحصِّل حسنة الدنيا والآخرة: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة].

والعمل للدنيا لا يتعارض مع العمل للآخرة، فما أجمل أن يجتمعا في العبد المؤمن!

ومعرفة العلوم التجريبية لابد منها لإقامة الحياة وتعميرها، وما أجمل أن يجمع العبد بين علوم الدنيا والدين! فيكون ممن حظي بنفع الناس ونفع نفسه، واجتمع له خيرا الدنيا و الآخرة.

ومعنى الآيات [٢-٧] **إجمالًا**: غَلَبت فارس الروم في أدنى أرض الشام ،وسوف يغلب الروم الفرس في مدة من الزمن لا تزيد على تسع سنين، ولا تنقص عن ثلاث.

لله تعالى الأمر كله قبل انتصار الروم وبعده، ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بنصر الله للروم على الفرس، والله ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو العزيز الذي لا يُغلب، الرحيم بمن شاء من خلقه.

وقد تحقق ذلك، فغلَبت الروم الفرس بعد سبع سنين، وفرح المسلمون بذلك؛ لكون الروم أهل كتاب، وإن حرَّفوه.

وقد وعد الله المؤمنين وعدًا جازمًا لا يتخلّف، بنصر الروم النصارى على الفرس الوثنيين، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن ما وعد الله به حق، وإنما يعلمون ظواهر الدنيا

وزخرفها، وهم عن أمور الآخرة -وما ينفعهم فيها- غافلون لا يفكرون فيها[١].

لقد توجهت قلوبهم وأهواءهم وإرادتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها، وغفلت عن الآخرة، فلا إلى الجنة اشتاقت، ولا من النار خافت، ولا من المقام بين يدي الله تعالى ولقائه ارتاعت، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة، وهم إلى جوار ذلك قد بلغوا في علوم الدنيا مبلغًا كبيرًا في مجال: الذرة والفضائيات والأقمار الصناعية، والصناعات النووية، والكهرباء والاتصالات، والمراكب البرية والجوية والبحرية... وكانوا أبلد الناس في أمور دينهم، وأشدهم غفلة عند ربهم وآخرتهم!!

خَمْسُ دَعَوَاتٍ لِدِرَاسَةِ أَسْرَارِ النَّفْسِ وَالْكَوْنِ وَالتَّارِيخِ وَالنَّشْأَةِ الآخِرَةِ

٨- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ[٢] رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

ثم تمضي الآيات مع الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم الكفار في كل زمان ومكان، ممن لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لها، مكتفين بالانهماك في طلب الدنيا والعمل لها، والسعي وراء ملذاتها وشهواتها.

تمضي الآيات لإقامة الربط بين الدنيا والآخرة، وبيان ضرورة العمل للآخرة، وذلك برد الكفار ودعوتهم إلى التأمل والنظر، وإعمال العقل والفكر في خمسة أمور؛ كي يقودهم ذلك إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل للدار الآخرة.

الدَّعْوَةُ الأُولَى: دَعْوَةٌ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي النَّفْسِ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾؟

كيف خلقها الله تعالى؟ وكيف كوَّنها، وأنشأها من العدم، وجعلها أطوارًا في الخلق، وأمدَّها بالروح التي تحيا بها، وأمدَّها بالسمع والبصر وسائر الجوارح؟ فيعلموا أنهم

---

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء بتصرف.

(٢) اختلف علماء الرسم في رسم همزة (بلقاء ربهم) و (لقاء الآخرة) فقيل برسمها على ياء، وقيل برسمها مفردة، والياء بعدها زائدة، ولحمزة فيها عند الوقف: الإبدال ألفًا مع ثلاثة المد، والتسهيل بالروم مع المد والقصر، وتُبدل ياء على الرسم مع ثلاثة أوجه المد ومثله هشام بِخُلْف عنه.

سيعودون للحياة مرة أخرى، كي يُثابون ويُعاقبون.

فإن من فكّر في نفسه عَلِم أن الله تعالى هو الخالق المبدع، ووقف على ذلك ببصيرة نفسه.

قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

والنفس هي أول ما يجب النظر في أحوال خلْقها.

فهل هذه النفس خلقها الله عبثًا، أم خلقها لهدف وغاية؟ والجواب: بل خلقها لتعرف ربها فتعبده، ولتُعمِّر الأرض لمن يأتي بعدها، ومن ثَمَّ للبعث والحساب والجزاء: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

فالآية تنعى على الأشقياء غفْلتهم، وتحضهم على التفكر في أنفسهم؛ لتهتدي إلى الحق، وتعمل للدار الآخرة.

الدَّعْوَةُ الثَّانِيَةُ دَعْوَةٌ إِلَى التأمل في الكون

قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾

أي: وعلى الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، التفكر في هذا الكوْن بعالَميْه: العلوي والسفلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

أي: وما فيهما وما بينهما؛ ليُستدل بهما على توحيد الخالق جلّ وعلا، وعظيم قدرته، وأنهما آيتان من آيات الله تعالى، سخرهما سبحانه لصالح الإنسان ونفْعه، ولم يخلقهما ليخلُدا، وإنما سوف تُطوى صفحتهما يوم لقاء الله تعالى ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وذلك حين ينتهي عمر الدنيا، ويقوم الناس لرب العالمين، حيث يكون الحشر والنشر، والحساب والجزاء، فيقيم سبحانه العدل بين الناس، ويثيب المطيع، ويعاقب العاصي، وهذا هو الحقُّ والعدل الذي قامت عليه السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما.

وإذن فقد خلق الله السموات والأرض لحكمة بالغة، هي إقامة الحق والعدل بين الناس يوم القيامة، بعد أن ينتهي عمر هذه الدنيا، ويكون الحساب والثواب والعقاب.

وفي هذا تنبيه على فناء العالم، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء.

وهذا كقول الله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]

أي: لم يخلقهما سبحانه لهوًا، ولا عبثًا، ولا باطلًا بلا فائدة، وإنما خلقهما لعمارة الأرض، والاستدلال بهما على وجود الصانع سبحانه، فيوحده الناس ويعبدونه، ويعملون لدار البقاء، ولكن المكذبين بهذا اليوم، يُنكرون لقاء الله تعالى جحودًا منهم، وهم لا يعلمون أن مردَّهم إلى الله تعالى بعد فنائهم، وغفلة منهم عن الدار الآخرة.

ولذا لم يستعدّوا للقائه، ولم يصدقوا رسله ولا كتبه، وخلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان، كما قال تعالى:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

وإن كثيرًا من الناس لفي اشتغال بدنياهم عن آخرتهم، ولا يؤمنون بما فيها من حساب وثواب وعقاب، ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين.

وبعض الناس قد آمنوا بربهم، واستعدوا للقاء الله تعالى بالعمل الصالح الذي يُرضي ربهم.

الدَّعْوَةُ الثَّالِثَةُ: دَعْوَةٌ إِلَى دِرَاسَةِ التَّارِيخِ

٩- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم[1] بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

في هذه الآية: الأمر بالسياحة في الأرض، ودراسة التاريخ؛ لمعرفة صدق الرسل فيما جاؤوا به من عند الله تعالى، والتعرف على مصائر الأمم المكذبة لرسل الله، الغافلة عن العمل للدار الآخرة، وما لحق بهم من عذاب استئصال وإبادة الأقوام: كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب . . . إلخ، لما كذَّبوا رسلهم.

فما على المكذبين إلا أن يسيروا في الأرض، ويشاهدوا عقاب الله لهذه الأمم المكذبة لرسل الله، وأمثالهم، ويتأملوا في مصائر الغابرين؛ لإدراك سُنَّة الله تعالى في خلقه،

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسْلهم)، والباقون بضمها.

فالأجيال متواصلة، لا ينعزل بعضها عن بعض.

وقد كان السابقون أكثر قوة، وأشد بطشًا، وأكثر مالًا ومتاعًا، وأعرق حضارة، فقد شقُّوا عن باطن الأرض وزرعوها، وبنوا القصور وسكنوها، ونحتوا البيوت في الجبال، وكانوا أقدر على عمارة الأرض من غيرهم، وعاشوا مدة أطول ممن لحق بهم، فلم تنفعهم عمارة الأرض، ولا طول أعمارهم، ولا ضخامة أجسادهم، ومضت سُنَّة الله فيهم حين كذَّبوا رسل الله، بعد أن جاؤوهم بالحجج الظاهرة، والمعجزات الباهرة، ولم تنفعهم قوتهم ولا أموالهم، فأهلكهم الله، وكانوا أهلًا لهذا الهلاك؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت].

وعذاب الدنيا عذاب معجل، وهو عنوان على العذاب الأخروي.

أَسْوَأُ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ

١٠- ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ[1] الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ[2]﴾

ثم كانت أسوأ العقوبات وأقبحها -وهي العذاب في نار جهنم- لمن كذَّب بآيات الله، وسخر بما أنزل الله على رسله من الكفرة والطغاة، فكان جزاؤهم موافقًا لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)﴾ [محمد].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب برفع التاء من (عاقبةُ) على أنها اسم كان، وخبرها (السوأى)، أي: كان عاقبة الذين أساءوا أسوأ عاقبة، وقرأ الباقون بنصب التاء على أنها خبر كان، واسمها (السوأى)، أي: كان أسوأ عاقبة الذين أساءوا.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الزاي وصلًا ووقفًا من (يستهزئون)، وفيها لحمزة عند الوقف ثلاثة أوجه: التسهيل بين بين، والإبدال ياء، والحذف مع ضم الهمزة.

الدَّعْوَةُ الرَّابِعَةُ: دَعْوَةٌ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي سِلْسِلَةِ نَشْأَةِ الإِنْسَانِ

١١- ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟[١] ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٢] ﴿١١﴾﴾

دعا الله سبحانه الناس إلى التأمل في بدء خلقهم، من أي شيء خُلقوا؟ وكيف أوجدهم الله من العدم؛ ليعلموا أن الله تعالى القادر على البدء، قادر على الإعادة، وإليه يرجع الخلائق جميعًا، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته، وهي دعوة إلى التأمل في النشأة الأولى والنشأة الآخرة، بعد الدعوة إلى دراسة أغوار النفس والكون والتاريخ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت].

فهو سبحانه المتفرد بِبَدْئ الخلق، ثم يعيده،ثم يرجعون إلى ربهم بعد عودتهم إلى الدنيا، ليحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

الدَّعْوَةُ الْخَامِسَةُ: دَعْوَةٌ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١٢، ١٣- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟[٣] وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

لابد للمرء من التأمل في أحوال القيامة على ضوء ما جاء في الكتاب والسُّنة؛ ليتبيَّن من خلال ذلك مصائر المؤمنين والمكذبين، حين يرجع الخلق إلى الله تعالى، ويكونون صنفين: كفارًا، ومؤمنين، وذلك حين ييأس المجرمون من النجاة من النار، فيقلَقون ويتحيرون، ويصابون بالذهول والحيرة، وتنقطع حجتهم، ويفتضح حالهم، وينقطع رجاؤهم وأملهم في النجاة من النار.

---

(١) وقف حمزة وهشام بخلْفه على (يبدأ) بإبدال الهمزة ألفا، ثم تسهيلها بالروم، ثم إبدالها واوًا على الرسم مع السكون المحض، والروم والإشمام، فهذه خمسة أوجه.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وروح بياء الغيبة في (ترجعون) لمناسبة السياق، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات، وقرأ يعقوب بينائه للفاعل، والباقون بينائه للمفعول.

(٣) وقف حمزة وهشام بخلْفه على (شُفَعَٰٓؤُا۟) بإبدال الهمزة ألفًا والتسهيل بالروم مع المد والقصر، وتبدل الهمزة واوًا على الرسم مع ثلاثة أوجه: المد بالسكون المحض، ومثلها مع الإشمام، والروم مع القصر، فهذه اثنا عشر وجهًا، خمسة قياسية، وسبعة للرسم.

ثم ذكر الله تعالى أعظم أسباب هذا اليأس والإبلاس، وهو الشرك بالله تعالى، وذلك حين ينكشف لهم عبث اتخاذ الشركاء والأنداد من دون الله في الدنيا، فلا ينفعوهم في الآخرة، ولا يشفعون فيهم -حسبما كانوا يزعمون- بل يتبرَّأ كلٌّ من العابد والمعبود من الآخر، وتكون الشفاعة لله وحده، ولا تُطلب من غيره، وعندئذ تظهر الحقائق ويعلمون أن هؤلاء الشركاء لا يُرجى منهم نفع، ولا يُخشى منهم ضرٌّ، وذلك أنهم لما قلَّبوا النظر، ولم يجدوا لهم شفعاء يوم القيامة، خاب أملهم، فأُبلسوا وانقطع رجاؤهم فيمن كانوا يتقربون بهم إلى الله تعالى، فكفروا بهم وبعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف].

وفي ساحة الحشر يتبرأ المعبودون من العابدين ويقولون ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

الْجَزَاءُ الْأُخْرَوِيُّ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

١٤-١٦- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾

وفي يوم القيامة يفترق أهل الخير وأهل الشر، كما افترقت أعمالهم في الدنيا، وهذا هو مفترق الطرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر يوم القيامة، حيث يتميز أهل السعادة من أهل الشقاء، ويفترقون بعد البعث والحساب إلى الجنة أو النار، فلا يجتمعون ولا يلْتقون أبدًا، بعد أن يتفرقوا إلى الجهة التي يؤمرون بالتوجه إليها؛ لينال كلٌّ منهم جزاءه، ويكونوا على فريقين، حيث يحكم الله ﷻ بين خلقه، فيقول عن بعضهم: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم فصَّلت الآية هذا التفريق:

١- فأما الذين آمنوا بالله ورسله، العاملون للصالحات، فإنهم يكرَّمُون ويُنَعَّمون ويُسرُّون في بساتين من الجنة، وهم في غاية من النَّضرة، والحبور والسرور والسعادة في جنات النعيم، فينعمون نعيمًا لا يحيط به الوصف.

وقد وردت آثار تفيد أن المراد بالحبور: هو ما يسمعه أهل الجنة من رياح يقال لها: الهفهافة، يطرب لها أهل الجنة[١].

وورد أن الحبور: هو صوت تسبيح الملائكة، كما جاء عن مجاهد، قال: ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الذين كانوا يُنزِّهون أصواتهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان؟ فيُحِلُّهم الله في رياض الجنة من مسك، فيقول للملائكة: أَسْمِعُوا عبادي تحميدي وتمجيدي، وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٢].

٢- وأما الكفار المكذبون للرسل، المنكرون للبعث بعد الموت، فهم في عذاب جهنم مخلدون فيها، جزاء تكذيبهم وكفرهم، ولا يستطيعون الخروج أو الهرب منها، حيث لا يُقضَى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، وقد أحاطت بهم النار من كل جانب، واطلع العذاب على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم، وقطع أمعاءهم.

عَشْرَةُ أَدِلَّةٍ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ تُسْتَهَلُّ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَمْدِهِ

١٧- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾

والذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، ولا يؤمنون بالحساب والجزاء في اليوم الآخر، بحاجة ماسة إلى التأمل والنظر في عجائب الخلق، وأسرار النفس ومشاهد الكون؛ للتعرف على وحدانية الخالق وقدرته، بما يستوجب العمل لما في اليوم الآخر من ثواب وعقاب، وهذا أمر من الله تعالى بتنزيهه عن كل نقص.

فذكر سبحانه في هذه الآية، وما بعدها عشرة أدلة على ذلك، بدأها بتسبيح الله تعالى وحمده في الصباح والمساء والعشيِّ والظهيرة، إشارة إلى تنزيه الخالق سبحانه عن الشرك، وإلى أنه المستحق للعبادة دون سواه، ولكنهم غافلون عن التنزيه اللائق بجلال الله سبحانه.

الآيات السابقة توطئة لما جاء في هذه الآيات العشر:

وقد بدأت هذه الآيات -الناطقة بوحدانية الله تعالى، الشاهدة بربوبيته سبحانه بعد هذا

---

(١) جاء ذلك عن الأوزاعي عند ابن عساكر (٤١/ ٣٤)، (٧٠/ ٥٥).

(٢) أخرجه الدِّينَوَرِيُّ في (المجالسة) كما في «الدر المنثور» (١١/ ٥٨٩).

الافتتاح- بخلق الإنسان، وعمارته للأرض، وبقائه فيها بالتناسل، ومن ثَمَّ إلى مظاهر هذا الكون، ممثلة في خلق السماء والأرض.

ثم تحدثت الآيات عن لوازم الإنسان باختلاف ألسنته وألوانه، ثم ما يعرض له من النوم والسعي، كما ذكرت الآيات عوارض السماء من البرق والمطر، ولوازم قيامهما، فهذه الآيات العشر تبدأ -بعد التسبيح- بخلق الإنسان، وتنتهي بإعادته بعد الموت بالبعث والنشور في الدار الآخرة.

ويأتي تسبيح الله تعالى وحمده تعقيبًا على مشهد القيامة، بعد بيان مصير أهل الإيمان وأهل الكفر، وبعد مقدمة لجولة من التفكير في ملكوت السموات والأرض، وأغوار النفس، وعجائب الخلق.

في رحاب التسبيح والتحميد

للتسبيح معنيان:

المعنى الأول، هو الإيمان، والمعنى الآخر، هو الصلاة

أ- فالتسبيح يكون بمعنى: **الإيمان**، وهو تنزيه الله تعالى بالجنان، وتوحيده باللسان، وعمل صالح بالجوارح، وهذا يشمل جميع الأركان.

وقد سبَّح الله تعالى نفسه في هذه الآية؛ ليرشد العباد إلى كيفية تسبيحه وتقديسه جلّ وعلا في جميع الأوقات.

ومن شأن التسبيح أن يفتح القلب لتدبر الحياة والموت، ويربط العبد بربه في كل وقت وآن.

فسبِّحوا الله - أيها الخلق - ونَزِّهوه عن الشريك والولد والزوجة، وصِفُوه بصفات الكمال والجلال بألسنتكم وقلوبكم، في كل وقت وآن.

ب- ويكون التسبيح بمعنى: **الصلاة**، قيل لابن عباس ﷺ: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ الآيتين. ومما جاء في **فضل التسبيح**:

١- عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم لِمَ سَمَّى الله إبراهيم خليله الذي وفَّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين**

تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشيًا وحين تظهرون»[1].

٢- وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله اصطفى من الكلام أربعًا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال سبحان الله، كُتبت له عشرون حسنة، وحُطت عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر، مثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، مثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قِبلَ نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة، وحُطَّت عنه ثلاثون سيئة»**[2].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة، حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر»**[3].

٤- وعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه»**[4].

٥- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**[5].

٦- وعن جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ أم المؤمنين ﷺ أن النبي ﷺ خرج من عندها ذات غداة، وهي في مسجدها، فرجع بعدما تعالى النهار، فقال: **«ما زلتِ في مجلسك هذا مُذْ خرجتُ بعد»**؟ قالت: نعم، فقال: **«لقد قلتُ بعدَكِ أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنت بكلماتك لوزنَتْهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩) برقم (١٥٦٢٤) قال محققو «المسند»: حديث حسن، إسناده ضعيف، وأخرجه الطبراني (٢٠/ ١٩٢) برقم (٤٢٧، ٤٢٨) وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٢٠): وفيه ضعفاء وُثِّقوا، يعني: ابن لَهِيعة، وأخرجه الطبري في التفسير (١٩٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٣/ ٣٨٧)، (١٧/ ٤٠٥) برقم (٨٠١٢، ٨٠٩٣) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم (١/ ٥١٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٤٠) والبزار (٣٠٧٤) كشف الأستار - والبيهقي في الشعب (٥٧٦).

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٣٩، ٦٤٠٣، ٦٤٠٥).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٣).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦، ٦٦٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٤).

عرشه، ومداد كلماته»[١].

٧- وفي صحيح مسلم: عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: **«أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة»**؟ فسأله سائل من جلسائه، قال: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: **«يسبح مئة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة»**[٢]. قال تعالى:

١٨- ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: وله سبحانه الحمد والثناء في السموات والأرض، والليل والنهار، فهو المستحق لذلك من أهل السموات والأرض، وفوائد هذا الثناء تعود على الخلق وليس عليه سبحانه.

ثم أخذت الآيات تبيِّن دلائل القدرة، وتشهد بوحدانيته تعالى، وربوبيته سبحانه، واستحقاقه للحمد والثناء، وها هي **الأدلة العشرة على وحدانية الله** تبارك وتعالى:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: الإِحْيَاءُ وَالإِمَاتَةُ

١٩- ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ[٣] وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ[٤]﴾

فمن عظيم قدرة الله تعالى، ومن دلائل وحدانيته أنه يُخرج الحي من الميت، كخروج الإنسان من النطفة، والنبات من الأرض، والطير من البيضة.

وفي النطفة حيوانات منوية تنمو، ولكن هذا النمو لا يتحقق إلا بالتفاعل الخاص بالرحم، ولذا صحَّ أن يقال لها: (ميتة) فهي تحمل مادة الحياة، كالحبة والنواة، ولكن هذه الحياة لا تَنمو إلا بالتفاعل مع الأرض، فإن كان في النطفة والبيضة حياة تنمو، إلا أنها ليست كالحياة المعروفة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٨).

(٣) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بتشديد الياء من (الميِّت)، والباقون بالتخفيف.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بخلف عنه بالبناء للفاعل في (تخرجون)، والباقون بالبناء للمفعول، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان. أما الموضع الثاني وهو (إذا أنتم تخرجون) فليس فيه إلا البناء للفاعل لجميع القراء.

ولذا صح أن يقال: إن المؤمن يخرج من الكافر، كما أخرج الله خالد بن الوليد، من الوليد بن المغيرة، وأخرج هند بنت عتبة بن ربيعة، من أبيها، وأخرج أم كلثوم بنت عقبة، من أبيها، وهكذا .

ويُخرج سبحانه الميت من الحي، كالنواة من النخلة، والكافر من المؤمن.

ويحيي الأرض بعد موتها بإخراج الزرع منها بعد يُبْسها وجفافها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومثل هذا الإحياء تَخْرجون من قبوركم؛ للبعث والنشور، والحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

فكما يُحيي الله الأرض بإخراج النبات منها، يُحيي الخلق بالبعث بعد الموت، فلا فرق بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: الْبَدْءُ وَالْإِعَادَةُ

٢٠- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ومن دلائل وحدانيته تعالى وربوبيته، أنْ خلق أباكم آدم من تراب جافٍّ يابس لا حركة فيه ولا نُمُوّ، ثم جعله طينًا لازبًا، ثم حمأ مسنونًا، ثم صلصالًا، ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه، وخلق حواء منه.

ثم خلق ذريته من نطفة يعود أصلها إلى التراب والغذاء الذي خرج منه، ثم تحولت النطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم صارت هيكلًا عَظْميًا، ثم كسا الله العظام باللحم، ثم نفخ فيه من روحه، فصار إنسانًا سميعًا بصيرًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم خرج من بطن أمه صغيرًا ضعيف القُوى والحركة، فلما تكاملت قُواه تحرَّك في الحياة يبني ويعمِّر، أو يخرِّب ويدمر، يعمل للدنيا، أو يعمل للدنيا والآخرة معًا، وهذا معنى: ثم إذا أنتم بشر تتناسلون وتنتشرون في الأرض، تبتغون من فضل الله، وتمشون

في مناكبها، وتتقلبون في أرجائها.

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك»**[(١)].

ووفقًا لاختلاف تربة الأرض، فإن ألوانهم مختلفة، وطباعهم مختلفة، وأخلاقهم مختلفة، واستعدادهم للإيمان والكفر مختلف.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: الْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ

٢١- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ومن آيات الله الدالة على كمال قدرته، أن خلق لكم من جنسكم ونوعكم أزواجًا، كما خلق حواء من آدم، فلفظ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يحتمل خلْق حواء من آدم، فهي مخلوقة من نفس آدم، أي: من ذات شخصه.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وفي صحيح البخاري وغيره: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خُلِقْن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبْتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»**[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٠٠) برقم (١٩٥٨٢، ١٩٦٤٢) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأبو داود (٥/ ٦٧) برقم (٣٦٩٣) والترمذي برقم (٢٩٥٥) وابن حبان (٦١٨١) والطبري في التفسير (٦٤٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥١٨٥، ٥١٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨).

وفي لفظ له: **«إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها، وبها عوج، وإن ذهبْتَ تقيمها كَسَرتها، وكَسْرُها طلاقُها»**(١).

وهكذا صحَّت الأحاديث بخلق حواء من ضلع آدم، ولا يلزم منه نقص ضلوع الذكر عن الأنثى.

وقد أودع الله تعالى في كل من الزوجين عواطف ومشاعر ورغبة وميْلًا تجاه الآخر بما يحقق سكَن النفس، وراحة الجسم والقلب، واستقرار المعاش والحياة؛ وذلك لتطمئن نفوسكم إليها وتسكن بما جعل بينكما من المحبة والشفقة، والمودة والرحمة؛ حتى ينتج عن ذلك التناسل والذرية، ولم يكن بين الرجل والمرأة قبل الزواج سابق معرفة، ولا سبب يوجب التعاطف، ومع هذا فكل منهما بعد الزواج يكون أحب شيء للآخر، ويطَّلع كل منهما على عورات الآخر، بما لم يطلع عليه الأبوان، ولا إخوة الرحم!! ولو جعل الله بني آدم كلهم ذكورًا، وجعل الإناث من نوع آخر، كالجن أو الحيوان، لما حصل بينهم هذا الائتلاف والمودة والرحمة.

وفي هذا عبرة وعظة لمن يُعمِل فكره؛ ويتدبر آيات الله لإدراك حكمة الخالق وكمال قدرته ﷻ.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

٢٢- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ(٢)﴾

ومن دلائل القدرة الإلهية ما يلازمنا في حياتنا من نعم، صباحًا ومساء، فنألفها ونَمرُّ عليها سريعًا دون تأمل ولا نظر، كهذا الخلْق الضخم العظيم (السماء) بما فيها من: أفلاك ومدارات، ونجوم وكواكب، مع أنها مرفوعة بلا عمد، وكذا (الأرض) وما فيها من: كنوز ومياه وثروات، مع اتساعها وامتدادها، وما بينهما من مسافات وأبعاد، فلا تصادُم، ولا خلل، ولا اضطراب.

قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

---

(١) مسلم (١٤٦٨) والبخاري (٥١٨٤).

(٢) قرأ حفص بكسر اللام التي قبل الميم من (للعالِمين) جمع عالِم بكسر اللام، ضد الجاهل، والباقون بفتح اللام وهو كل موجود سوى الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وخلق السموات والأرض وما فيهما آيات دالة على عظمة الخالق وكمال قدرته وحكمته وسعة علمه وعموم فضله ورحمته، وقد نبّه الله العقول بذلك لتدرك أنه وحده الذي يستحق أن يُعبد ويوحّد.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: اخْتِلَافُ الْأَلْسِنَةِ وَالْأَلْوَانِ

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ يلتقي الإنسان بغيره من بني البشر ممن يخالفونه في اللغة، في موسم الحج وغيره، كل منهما له لسان وسمع وبصر.. . يتفقان في الخلْق البشري، وكل منهما لا يفقه كلام الآخر، كأن أحدهما إنسان، والآخر من غير جنس الإنسان، فهذا عربي، وذاك أعجمي، أو تركي، أو روسي، أو فرنسي، أو ألماني، أو هندي، وما إلى ذلك، وكلها ألسنة ولغات متعددة، على كثرتها وتباينها، ووحدة مخارج الحروف، وهكذا يقف الأبيض إلى جوار الأسود، والأسمر، والأشقر، والأصفر، والأحمر، كأن كلًّا منهم مخلوق آخر.

والإسلام لم يفرق بين الناس على أساس اللون، أو الجنس، أو اللغة، بخلاف التفرقة عند بني البشر، وليس أدل على ذلك من التمييز العنصري، والتفرقة بين البيض والسود في أكبر البلاد التي تدَّعي الحرية والمساواة، وترعى حقوق الإنسان، والجميع من أصل واحد، ومادة واحدة، وأب واحد، هو آدم «**كلكم لآدم وآدم من تراب**».

فما الذي فرَّق بينهم في اللغات واللهجات والألوان؟! إنك لا تجد صورتين متفقتين من كل وجه، ولا لونين متفقين من كل وجه سبحان الخلاق العظيم!!

ولو أن الأصوات والصور اتحدت لكانت ضربًا واحدًا، ولَوقَع الالتباس بين الناس، وتعطّل كثير من المصالح، ولَمَا كان بعضهم مسخرًا في خدمة بعض؛ فاختلاف الأشكال والألسنة يميز بين الناس، ويُعرَف كلٌّ منهم بلونه ولسانه وصورته وشكله.

وفي هذا آيات وعبر للعالمين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام، وهم أهل البصيرة والعلم والمعرفة، والعالمون هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات.

وعلى القراءة الأخرى بفتح اللام، يكون المعنى: إن في هذا لعبرة وعظة للخلق جميعًا.

واختلاف اللغات والألوان له علاقة بخلق السموات والأرض؛ بسبب اختلاف الأجواء والبيئات على سطح الأرض، وطبيعة الوضع الفلكي للأرض، ولذا جاء معها في آية واحدة.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الرَّاحَةُ وَالْحَرَكَةُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٢٣- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

خلق الله الإنسان متناسقًا مع الكون الذي يعيش فيه، فحاجته إلى العمل والكدِّ والسعي تكون في ضَوْء النهار، وحاجته إلى النوم والراحة تكون مع ظلام الليل، وجميع الأحياء على وجه الأرض يجمعون بين الليل والنهار والنوم والنشاط بنسب متفاوتة، وهذا من أدلة قدرة الله تعالى، ففي النوم حصول الراحة وذهاب التعب، وفي الانتشار بالنهار طلب الرزق، وفي هذا نفوذ لمشيئة الله تعالى لمن يسمع الموعظة فيتأمل ويعتبر.

ومن رحمته تعالى بخلقه أن جعل لهم وقتًا للراحة والنوم ووقتًا للسعي والعمل، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣] وقد يصاب الإنسان في الليل بالأرق، وهنا علّمنا النبي ﷺ دعاء نَدعو به فيذهب هذا الأرق، وهو علاج نفسي عظيم.

ورَدَ أن زيد بن ثابت ﵁ قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك للنبي ﷺ فقال: **«قل: اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أنم عيني، وأهدئ ليلي»** فقلتها، فذهب عني[1].

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: الْبَرْقُ وَالْمَطَرُ

٢٤- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ[2] مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ

---

(١) الطبراني في «المعجم الكبير» (٥/ ١٢٤) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٧٤٥) وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٥٠) وله شاهد من حديث أنس، حسنه ابن حجر في «الفتوحات الربانية» (٣/ ١٧٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون من (وينزل)، والباقون بتشديد الزاي وفتح النون.

بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ومن عظيم قدرة الله تعالى أن يريكم البرق، ويُسمعكم الرعد الذي يعقبه، وغالبًا ما يصحبهما المطر، فتخافوا من الصواعق، وتطمعوا في الغيث، وينزِّل من السحاب مطرًا تحيا به الأرض بعد جدبها وجفافها، ويغيث الله به العباد والبلاد، ويريكم مقدماته من الرعد والبرق قبل نزوله، فتارة ترجون الخير والنفع، وتارة تخافون الصواعق والسيول، والمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فلا يبطَر ولا ييأس، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد].

وفي هذا مجال خصب للعقل؛ كي يتدبر ويتأمل، ويهتدي لتوحيد خالق هذا الكون.

الدَّلِيلُ الثَّامِنُ: ثُبُوتُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَبَقَاؤُهُمَا بِانْتِظَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ

٢٥- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾

أي: ومن آياته تعالى ثبوت السموات بلا عمد، واستقرار الأرض دون أن تميد، وقيامهما بواجبهما، وأداء مهمتهما، دون تلكؤ ولا انحراف ولا اضطراب، ولا تخلُّف عن نظام السير والحركة، ولا تزلزل للأرض، ولا سقوط للسماء على الأرض، ولا انجراف للأرض في الماء، كل ذلك آية دالة على كمال قدرة الله تعالى، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ﴾ [فاطر: ٤١]
وقال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا اجتهد في اليمين يقول: لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: وهي قائمة ثابتة بأمر الله تعالى لها، وتسخيره إياها.

هذا عن الشق الأول من الآية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.
ويشير الشق الآخر منها وهو قوله ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: إلى البعث والنشور والحساب والجزاء.

فإذا كان يوم القيامة بُدِّلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرج الأموات من قبورهم أحياء بأمره تعالى وبدعائه إياهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال جلَّ شأنه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس].

وكان مُنكرو البعث وهم في الدنيا يستبعدون ذلك، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠].

ومن ذلك قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧].

وأيضًا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء].

وإذا كان هذا الكون يسير وفق نظام محكم دقيق، ملبيًّا أمر الله تعالى، فإن البشر أدعى أن يمتثلوا أمر الله سبحانه، إذا دعاهم للخروج من قبورهم للبعث، والحساب والجزاء، أن يخرجوا سراعًا، تلبية لنداء الله تعالى فورًا، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ويقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]. ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾ [ق: ٤٤].

الدَّلِيلُ التَّاسِعُ: خُضُوعُ الْكَوْنِ كُلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَى

٢٦- ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وبعد هذا التفصيل لكثير من الكائنات، يأتي جماع الكون كله، ما ذُكر منه وما لم يُذكر؛ ليقرر أن جميع الخلائق -في العالميْن العلوي والسفلي- مطيعة لله تعالى، قانتة وخاضعة له سبحانه، من غير منازع ولا معاون ولا معارض، فالكل يسجد لله، والكل يسبح بحمد الله، والكل منقاد لله، مستجيب لأمره.

فمعنى القنوت في الآية: امتثال أمر الله تعالى، والانقياد له في الشهادة لله تعالى بالوحدانية، والاستجابة له حين أخذ عليهم ميثاق التوحيد وهم في أصلاب آبائهم، فاستمر على ذلك كثير منهم، وكثير منهم حقَّ عليه العذاب، والجميع يطيع الله تعالى، وينقاد له بلسان الحال أو المقال، وكلهم يسجد لله تعالى طوعًا وكرهًا، وظلالهم بالغدو والآصال، مع أن الله تعالى قد خلقهم لطاعته، ولكنك قد تبري القلم للكتابة ولا تكتب به، فكان من المخلوقات الأرضية العاقلة مَن أطاع وامتثل، ومنهم من انحرف عن الفطرة، فكفر بالله أو أشرك به، ومنهم من عصى الله تعالى وخالفه في بعض أوامره ونواهيه، وكل هذا وهم في الدنيا.

أما في الآخرة فليس في وسعهم إلا الخضوع والامتثال لما يأمر الله به في شأنهم.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور]؛ لأن امتثال التكليف والطاعة قد انتهى في الدنيا، فتكون هذه الآية معطوفة على الآية قبلها وموضحة لها.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كما أن جميع الخلق قد انقاد لله تعالى، وامتثل أمره في الخلق والتكوين، حين قال له: كن؛ فكان.

الدَّلِيلُ الْعَاشِرُ: قَضِيَّةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٢٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

وفي ختام هذه الجولة في الأنفس والآفاق، تقرر الآية الأخيرة فيها ما بدأته في أولها، وهو حقيقة البعث والنشور التي ينكرها بعضهم، ويغفل عنها آخرون.

وليس هناك ما هو هيِّن وأهون بالنسبة لله تعالى، فكل شيء يسير على الله تعالى، يقول له: كن؛ فيكون، وإنما يخاطب الله تعالى الناس على قدر إدراكهم، فإذا كان البدء أصعب من الإعادة، فكيف يستبعد الكافر إحياء الخلق بعد موتهم؟!

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

والاستدلال بهذا القياس لأنهم أنكروا الإعادة بعد الموت، واعترفوا بالخلق الأول.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي ولله تعالى الوصف الأعلى في كل ما يوصف به، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في أقواله وأفعاله، وتدبير شؤون خلقه، فالمثل الأعلى: كل صفة كمال، وهو الأمر العظيم، والمطلب الكبير، فكل صفة كمال يوصف بها رب العالمين، وكل صفة نقص يتنزه عنها رب العالمين، ومن صفات الكمال: المحبة والإنابة والعبادة، ومن صفات النقص: الغفلة والنسيان.

روى البخاري وغيره، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما**

بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[1].

هذه عشرة أدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى انفراده بالخلق، وعلى إمكانية البعث.

ومنها: خلق الإنسان من تراب، وتقلُّبه أطوارًا في بطن أمه حتى صار بشرًا سويًا، وخلْق الذكور والإناث، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وجعْل الليل منامًا لراحة الناس، والنهار معاشًا لابتغاء الرزق، وإنزال المطر من السماء لإحياء الأرض بالنبات، وثبات السموات والأرض واستقرارهما، وغير ذلك من الأدلة في الأنفس والآفاق.

مَثَلُ الْمُشْرِكِ بِاللَّهِ تَعَالَى

٢٨- ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد هذه الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى بعث الناس بعد موتهم، يضرب الله سبحانه مثلًا عقليًا للمشركين مع الله غيره في عبادته من الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهو مثلٌ مضروب بالعبد الذي يشارك سيده في ماله أو ميراثه، فإذا كنتم لا ترضون أن يشارككم خدَمكم في أموالكم، وأنتم أمام الله سواء في الرزق والعطاء، فكيف ترضون أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء مع الله؟ والكل عبيد الله، وهم أمام رزقه سواء؟

والمعنى: إنكم - أيها الناس - إذا كان لكم عبيد تملكونهم، فإنكم لا تشركونهم معكم في أموالكم ومهام أموركم، وليس من شأنكم أن تقاسموهم أموالكم في حياتكم، أو يرثوها بعد مماتكم، فهل لكم من عبيدكم وإمائكم من يشارككم في رزقكم وأموالكم مع أنكم متساوون في رزق الله؟ إنكم تخافون أن يشاركوكم في أموالكم، كما يخاف الحُرُّ من شريكه الحُرّ،

(١) البخاري برقم (٤٩٧٤، ٤٩٧٥) و«المسند» (٢/ ٣٥٠) برقم (٨٢٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (٨٤٨) والبغوي (٤١).

فإذا كنتم لا تقبلون ذلك فكيف تقبلونه في جنب الله، بأن تجعلوا له شريكًا من خلقه؟ وكيف تقولون: إن من عبيد الله شركاء له في سلطانه وإلهيته، وتسألونهم جلب الخير ودفع الضر؟

قال قتادة: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لمن عدل به شيئًا من خلقه، يقول: أكان أحدكم مشاركًا مملوكًا في ماله ونفسه وفراشه وزوجته؟ فكذلك لا يرضى الله تعالى أن يُعدل به أحد من خلْقه.

وبمثل هذا البيان نوضح البراهين والحجج لأصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها.

وكان أهل الشرك في الجاهلية إذا لبَّى أحدهم عند الكعبة يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، فأنزل الله الآية[1].

وإذا كان من اتخذ من دون الله شريكًا ليس معه شيء من الحق، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل؟ قال تعالى:

٢٩- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

أي: ليس للمشركين حجة، ولا عذر فيما يفعلونه من الشرك بالله تعالى في عبادتهم، ودعائهم، وولائهم.

والسبب في الشرك: أن المشركين اتبعوا هواهم، وقلَّدوا آباءهم، فشاركوهم في الجهل والضلال الذي لا يُرجى معه هدى، وهو اختيارهم بمحض إرادتهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وليس في الآخرة من يخلصهم من عذاب الله، ولا من يشفع لهم عنده.

فلا تعجبوا من عدم هداية من أضل الله، فإن الله قد أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله، إذا لا يوجد منازعًا ولا معارضًا لله تعالى في ملكه.

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس (١٢/ ٢٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٣): فيه حماد بن سلمة، وهو ضعيف.

دِينُ الْفِطْرَةِ

٣٠- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ[1] ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وما دام العقل والمنطق يرفضان الشريك لله تعالى فأخلص العبادة -أيها المخاطب- لله وحده، وتوجه إليه دون سواه، ولا تشرك معه غيره، واستمرْ على ما شرعه الله لك، واثبت على فطرة الله التي فطر الناس عليها، وخلقهم لها، وهي الإسلام والتوحيد، والدين الخالص الذي أخذه الله عهدًا على بني آدم وهم أمثال الذَّرِّ في أصلاب آبائهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُوا۟ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد خلق الله الأولين والآخرين على هذه الفطرة، ولا تبديل لدين الله.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»**[2].

زاد في رواية له في الصحيحين، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيرًا؟ قال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»**[3].

ومن أمارات الشقاء للطفل أن يولد بين يهود أو نصارى أو عبدة أوثان، فيحملوه على اعتقاد دينهم، ولو أن الطفل تُرك على الفطرة دون تأثير من الوالدين أو البيئة لتوجَّه بنفسه نحو التوحيد، واستمر عليه.

---

(١) رُسمت (فطرت) في المصحف بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء، وأمال الكسائي الهاء عند الوقف عليها بخلف عنه.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، «فتح الباري» (٨/ ٣٧٢)، (١١/ ٥١٢) وهو في البخاري برقم (٤٧٧٥، ٦٥٩٩) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧) برقم (٢٦٥٨) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٩٤٥) وابن حبان في الإحسان (١٣٢) والحاكم (٢/ ١٢٣).

(٣) من حديث ابن عباس في البخاري (١٣٨٣، ٦٥٩٧) ومسلم (٢٦٦٠) و«المسند» (١/ ٣٢٨)، (٥/ ٧٣) برقم (٣٠٣٤) وعن أبي هريرة (٧٣٢٥) وغيره.

فالفطرة: هي الجبلَّة التي خُلِقوا عليها، وقد خلق الله الناس قابلين لأحكام الإسلام والدين الحق، والتوحيد الخالص، والحنيفية السمحة.

والمعتبَر في ذلك هو القيام بالتكاليف الشرعية التي يكتسبها العبد بقوله وعمله، وإرادته وفعله بعد صحة الاعتقاد، فهذا هو الذي يؤاخَذ عليه العبد.

أما الإيمان الفطري الذي لا يُترجم عنه عمل ولاسلوك، فهو غير معتبر في حكم الشرع؛ لأن الإنسان في هذه الحالة محكوم له بحُكْم أبويه الكافرين، كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»**[١].

وقد نهى الإسلام عن قتل أولاد المشركين، فقد بعث النبي ﷺ سرية إلى خيبر، فقاتلوا المشركين، وقتلوا الذرية، فلما جاؤوا قال النبي ﷺ: **«ما حملكم على قتل الذرية»**؟ قالوا: إنما كانوا أولاد المشركين، قال: **«وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يُعْربَ عنها لسانها»**[٢].

زاد في رواية: **«فإذا عبَّر عنه لسانه إما شاكرًا، و إما كفورًا»**[٣].

وهذا ما يشير إليه الحديث عن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: **«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا . . .»**[٤].

فمع أنهم خُلقوا حنفاء موحدين، لكنهم انحرفوا عن الفطرة بإرادتهم وتأثير الهوى

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٨) ومسند أحمد (٧١٨١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى (٦٣٩٤) وابن حبان (١٢٨).

(٢) عبد الرزاق (٩٣٨٦) وابن أبي شيبة في الجهاد (١٤٠٧٧) وأحمد (٣/ ٤٣٥) برقم (١٥٥٨٨) والنسائي في الكبرى (٨٦١٦) والحاكم (٢/ ١٢٣) قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم، وقال محققو «المسند» رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن الحسن البصري لم يسمع من الأسود بن سريع.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٢١): فيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات.

(٤) من حديث طويل عن عياض بن حمار في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥) وفي «المسند» (٤/ ١٦٢) برقم (١٧٤٨٤). بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أبو داود الطيالسي (١٠٧٩) والطبراني في الكبير ١٧/ (٩٩٥) والأوسط (٢٩٥٤).

والشيطان، فكانوا من أهل الشقاء، وخالفوا بذلك العهد الذي أخذه الله عليهم وهم في أصلاب آبائهم.

ولا تبديل للمعتقدات التي في الدين الحنيف، فإنها أصل كل شريعة، وأصل الاعتقاد جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية، فالعقل يدركها ويشهد لها ولا يجافيها، وكون الإسلام هو الفطرة صفة اختص بها من بين الديانات ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المناسب لكل زمان ومكان، وهو الدين المهيمن على سائر الديانات.

معنى الفطرة: وقد اختلف السلف في المراد بالفطرة، وأشهر الأقوال أنها الإسلام[1].

ويراد بها ابتداء الخلق، والإقرار بالله تعالى، والمعرفة بوحدانيته تعالى حين أخذهم من صلب آدم، ومنهم من جحد ذلك بعد إقراره، ولا يترتب على هذا الأمر ثواب ولا حكم شرعي، وإنما يترتب الثواب والعقاب على عمله واكتسابه.

وسبب الاختلاف في معنى الفطرة احتجاج القدْرية على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله تعالى، بل بإحداث الناس، فحاول بعض أهل العلم مخالفتهم في التأويل.

هذا هو الطريق المستقيم الموصل إلى رضى الله تعالى وجنته، وأكثر الناس لا يعلمون أنه الحق من عند الله الذي نزل به الوحي على محمد ﷺ؛ لأنهم جهَّال لا علم لهم، أو عندهم علم ولكنهم ضلوا وأعرضوا عنه.

ومقصود الآية: أن الله تعالى يقول لنبيه: لا تهتم بإعراض المكذبين لك، وتوجّه إلى الله بكلِّيتك في صلاتك وصيامك وزكاتك وحجك، وسائر الشرائع الظاهرة، وتوجّه إليه بكليتك في العبادات الباطنة كالمحبة والإنابة والخوف والرجاء، وكن محسنًا في عبادتك الظاهرة والباطنة بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

وإقامة الوجه لله تعالى تعني: إخلاص التوحيد لله سبحانه، وخَصَّ الله إقامة الوجه،

---

(١) ابن حجر في «الفتح» (٣/ ١٩٧).

لأن إقبال الوجه يتبع إقبال القلب، ويترتب عليه سعى البدن، كما قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

وُجُوبُ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى مَنْهَجِ اللَّهِ، وَعَدَمِ الِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ

٣١، ٣٢ - ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟[1] دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

في هذه الآية تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن إنابة القلب تقود البدن إلى إقامة الشرائع الظاهرة والباطنة، وقد خصت الآية الصلاة بالذكر من بين المأمورات، لأنها رأس المأمورات، ولأنها تدعو إلى الإنابة والتقوى، كما خصت الشرك من بين المنهيات، لأنه أصل المنهيات، ولا يقبل معه عمل، والشرك ضد الإخلاص والإنابة.

وبعد أن تتهيأ القلوب مستقيمة على الفطرة لهذا الدين الذي يعصمها من الأهواء والزلل، يبيِّن سبحانه معنى إقامة الوجه للدين، وأنه يتمثل في: الاستقامة على منهج الله، وإسلام الوجه له، والإنابة إلى الله وحده.

فارجعوا إليه -أيها الناس- وأخلصوا له العمل، وراقبوه في السر والعلن، وامتثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي، فأقيموا وجوهكم لخالقكم مقبلين عليه بالاستغفار والإنابة، وأقيموا الصلاة، أي: حافظوا عليها في أوقاتها بأركانها، وواجباتها، وسننها، وشروطها، ولا تشركوا مع الله غيره في العقيدة، أو العبادة، أو القول، أو العمل.

وكما نهى سبحانه عن الشرك نهى عن التفرق في الدين وحذَّر منه.

أي: ولا تكونوا من أهل البدع والأهواء، أو أهل الشرك في عقيدتهم وعبادتهم، كاليهود والنصارى الذين بدَّلوا دينهم وغيَّروه وحرَّفوه، فأخذوا بعضه وتركوا بعضه، تبعًا

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا) من المفارقة وهي الترك؛ لأن من آمن بالبعض وكفر بالبعض ترك الدين القيم، وقرأ الباقون (فرّقوا) بتشديد الراء وحذف الألف.

لأهوائهم وتقليدًا لغيرهم، وصاروا فرقًا وشيعًا وأحزابًا يوافقون أهواءهم ورؤساءهم وأحزابهم في آرائهم، ويُعين بعضهم بعضًا على الباطل، وهم يظنون أنهم وحدهم على حق، وأن غيرهم على باطل، ويفرحون بما لديهم وإن كان باطلًا، ظنًّا منهم أنهم على حق، وربما كانوا على باطل.

مرَّ عمر على معاذ بن جبل ﷺ، فقال عمر: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات:

١ - الإخلاص، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها.

٢- والصلاة، وهي الملة. ٣- والطاعة، وهي العصمة.

فقال عمر: صدقت(١).

والقراءة الأخرى: (مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ)، أي: تركوه وراء ظهورهم، كأهل الديانات الباطلة، كما افترق اليهود والنصارى على فرق عديدة.

وقد سئل النبي ﷺ عن الفرقة الناجية فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(٢).

وما عليه الرسول ﷺ وأصحابه هو الكتاب، وصحيح السنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وقد ظلَّ الناس أمة واحدة على دين واحد هو التوحيد، من لدن آدم إلى نوح، ثم حدث الشرك في عهده، فاختلف الناس بين موحد ومشرك، ووثني، ومؤمن ببعض الكتاب، وكافر ببعض، وهكذا ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وفي الآية نهى للمسلمين وتحذير لهم من التشتت والتفرق، والتعصب لكل حزب، حتى

(١) الطبراني (٢٠/٩٨) والطبري (٢١/٢٦).

(٢) الحاكم (١/١٢٩) قال ابن حجر في «تخريج الكشاف» ص ٦٣: إسناده حسن، وقد حسنه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو، في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٤٣) وهو في سنن الترمذي أيضًا.

لا نشابه غيرنا في تفرُّقهم، فالدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد، والكتاب واحد، والقبلة واحدة.

وقد أشارت الآيات إلى وجود إنابة اختيارية إلى الله تعالى تكون في حال العسر والعسر، والسعة والضيق، وذلك في قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾.

ووجود إنابة اضطرارية لا تكون إلا في حاله الضيق والكرب، فإذا زال عن العبد ما هو فيه نسى ما كان فيه من قبل وإلى هذه الإنابة الاضطرارية تشير الآية التالية ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ كما أن الآية السابقة (٣١) ذكرت الإنابة الاختيارية:

فِتْنَةُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

أَوَّلًا: حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا تَأْتِيهِ النِّعْمَةُ بَعْدَ النِّقْمَةِ

٣٣، ٣٤- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وعقب آيات الفطرة يأتي الحديث عن ثمارها التي تتجلى في ثبوت المؤمن الحق على إيمانه، مهما حدث له من تقلُّبات في صحته، أو ماله، أو ولده، أو جاهه، . . .إلخ. فهو يشكر الله تعالى على السراء ويحمده عليها، ويصبر على الضراء، ويرضى بقضاء الله وقدره، وهو متواضع في جميع أحواله.

وقد صحَّ في حديث صهيب الرومي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**[1].

أما من لا يستند إلى عقيدة صحيحة، فإنه يتأرجح عند تغيُّر الأحداث، عندما يصاب: بمرض، أو فقر، أو هزيمة، أو فقْد ولد، ونحو ذلك، حيث تقرِّبه هذه الأزمات من ربه، فيلجأ إليه سبحانه بالعبادة، ويُقبل على الدعاء والتضرع لله تعالى؛ ليكشف عنه هذا الضر، فإذا أرضاه ربه، وجاءه الرخاء بعد الشدة نسي ما كان فيه من ضر وجَحَد النعمة،

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٩٥) برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

ورجع إلى شركه وكفره، وفي هذا ذمٌّ لهم على فعلهم، وتقبيحٌ لهم على سوء صنيعهم؛ لأن هذه النعمة التي كانوا فيها تقودهم إلى الكفر، أو تكون عاقبتها الكفر، فيكفرون بما آتيناهم من نعم، فاللام في (ليكفروا) لام العاقبة والصيرورة.

وهكذا فإن العبد يلجأ إلى الله تعالى عندما يكون في شدة وبلاء، فينيب إليه سبحانه رغمًا عنه، ثم يعود إلى شِرْكه بعدما يُرفع عنه ما كان فيه من شدة.

وهذا كفر بما منّ الله عليهم به من زوال الشدة، فهلّا قابلوا هذه النعمة بدوام الإخلاص إلى الله تعالى؟

وفي هذا المقام يعاجلهم الله سبحانه بالتهديد، في قوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنه تهديد من رب العالمين، فتمتعوا بالرخاء والصحة، وهذا أمر يَحْمِل الوعيد، أي: فسوف تعلمون عاقبة كفركم وبطركم.

والإنسان يخاف إذا هدده حاكم أو مسؤول، فكيف بتهديد خالق الكون؟!

الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ لَيْسَ لَهُمَا مُسْتَنَدٌ عَقْلِيٌّ وَلَا شَرْعِيٌّ

٣٥- ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

هذا استفهام إنكاري، أي: ما هو سندهم في هذا الكفر أو الشرك؟ فهل عندهم من عذر أو حجة أو برهان، أو كتاب نزل عليهم، فهو ينطق ويُظهر حجتهم بما يأمرهم به من شرك، أو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وهذا تهكم بهم؛ لسفههم وجهلهم، وفيه نفي أن يكون شركهم مبنيًّا على دليل، أو على حجة واضحة، أو على كتاب من الله ينطق ويشهد بشركهم، وهو يُثْبت أنه لا يوجد إلا تقاليدهم الباطلة، وأهواؤهم الفاسدة، وأفكارهم الزائفة، فالله تعالى لم يُنزل عليهم ما يأمرهم بالكفر بنعم الله عليهم، ولا بما وقعوا فيه من كفر وشرك، إنما فعلوا ذلك تقليدًا لغيرهم دون علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].

ثَانِيًا: حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يُصَابُ بِالنِّقْمَةِ بَعْدَ النِّعْمَةِ

٣٦- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ[(١)]﴾

لَمَّا وصف الله سبحانه في الآية السابقة حال الناس إذا أتتهم النعمة بعد النقمة، وما يترتب على ذلك من أن بعض الناس يقلُّ شكره، وينغمس في شهواته وملذاته، بعد أن كان متضرعًا إلى ربه يلتمس فضل الله تعالى ورحمته.

بعد ذلك وصف الله سبحانه في هذه الآية الحالة المقابلة، وهي أن الإنسان إذا نزل به الضر بعد أن كان في نعمة، فإنه يقنط وييأس من رحمة الله، بعد أن كان في فرح ومَرَح، وهذا شأن كثير من الناس إلا من ربط الله على قلبه، فصبر على البلاء، وشكر على السراء، فلم تبطره النعمة، ولم يقنِّطه البلاء.

ونعم الله تعالى على الإنسان لا تُعدُّ ولا تُحصى، وقد يفرح الإنسان بالنعمة التي هو فيها، كالصحة والغنى والأمن والجاه، ثم يألفها، فينسى حقها بعد أن فرح بما أوتي فرحَ أشر وبطر، فإذا فقد ما هو فيه من: صحة، أو رخاء، أو جاه، لسبب من الأسباب، ومنها ارتكاب الذنوب، فإن اليأس يخامره، والقنوط يغلب عليه، فيفقد كل رجاء في كشف الغمة عنه.

والمراد بالرحمة في الآية: أثرها، وهو المنافع والأحوال الحسنة.

والمراد بالسيئة: كل ما يسوء الإنسان ويحزنه، وقد قُدمت الإصابة بالرحمة في هذه الآية، وأُخرت في الآية السابقة، لمناسبة غرض الآيتين، وهكذا يتجلى اليأس واضحًا بعد فقْد العبد للنعمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هود]. فهو لا يستشعر فضل النعمة إلا عند فقدها، كما قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

والإنسان الهلوع هو الذي لا يشكر الله على النعمة، ولا يؤدي حق الله وحق الناس فيها، فيجحدها وينكرها، ويمنع خيره ومعروفه عن الناس، ثم هو يجزع ولا يصبر على الضرِّ إذا

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون من (يقنِطون)، والباقون بفتحها.

أصابه، هذا هو وصف الإنسان الهلوع غير المؤمن، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

فإذا أصابته النعمة مرة أخرى بعد أن فقدها فإنه يفخر ويفرح، ويطغى وينسى ما كان فيه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود].

وهذا هو ما تقرره الآيات في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت].

شَأْنُ الْمُؤْمِنِ الشُّكْرُ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ

٣٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: وبدلًا من يأس العبد وقُنوطه، كان عليه أن يدرك أن الله تعالى هو المعطي المانع، وهو القابض الباسط، يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وفق علمه وحكمته، فهو الذي يُنْعِم بالرحمة ويبتلي بالشدة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، والاستفهام في معنى النفي.

على أن المؤمن مكلف بالشكر في السراء، والصبر على الضراء، والرضى بالقضاء.

والرؤية في الآية معناها: العلم والمعرفة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٥٢].

وعلى الإنسان أن يَبذل الأسباب في تحصيل الأرزاق، ويتكل على مسبب الأسباب.

وقد خُتِمت الآيتان بما يفيد أن المؤمن هو الذي ينتفع ويعتبر بما يُتلى عليه.

الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ

٣٨- ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

أي: وما دام الله هو الذي يعطي ويمنع، فعلى المرء أن يعامل الناس على ضوء ما أُوتي،

ويعطي كل ذي حق حقه، ويصل ببره وعطفه أهل البر والصدقة من الأرحام والمساكين وابن السبيل، وهو الذي انقطع به الطريق بعيدًا عن أهله، يعطيهم من الزكاة ومن الصدقة، والنفقة الواجبة والمستحبة، كل على حسب درجة قُربه وفقره وحاجته، وما تنزل به من جوائح ونوازل، فإن ذلك الإعطاء خير للذين يريدون بعملهم وجه الله تعالى.

فإن لم يرد المتصدق وجه الله تعالى، لم يكن خيرا للمعطِي، وإن كان فيه نفعًا للمعطَى، والذين يعملون هذه الأعمال الخيرة هم الفائزون بثواب الله لهم، الناجون من عقابه، ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]

وقد سمى الله هذا البر وهذا العطاء حقًّا؛ لأن المال مال الله، وقد استخلف خلقه فيه؛ ليبتليهم به.

ولما ذكر سبحانه ما يُقصد به وجه الله تعالى من النفقات، أتبع ذلك بما يُقصد به عرض الدنيا.

مِنْ مَظَاهِرِ الرِّبَا

٣٩- ﴿وَمَا آتَيْتُم(١) مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ(٢) فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أي وما أعطيتم من أموال، طمعًا في أكثر منها عن طريق المعاوضة، فإن هذا المال لا يبارك فيه ولا يزيد عند الله، وما أعطيتم من مال يطهركم من البخل ويطهر أموالكم، من حقوق الآخرين، وتريدون به وجه الله تعالى، فهؤلاء يضاعف لهم الأجر والمثوبة.

وهكذا: بيَّن سبحانه في هذه الآية الطريق لربح الأموال ونمائها، وأن ذلك لا يكون بأخذ زيادة في القرض، فهو ربًا محرم، وليس فيه زيادة للمال، وإنما هو محْق له وخسران.

---

(١) قرأ ابن كثير بقصر همزة (وما آتيتم من ربا) بمعنى: جئتم، والباقون بمدها بمعنى: أعطيتم، أما (وما آتيتم من زكاة) فجميع القراء على مد همزتها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالتاء في (لتربوا) مع إسكان الواو، مضارع أربى وهو منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، وقرأ الباقون بالياء وفتح الواو، مضارع ربى، وهو منصوب بالفتحة الظاهرة، والفاعل في القراءة الأولى: ضمير المخاطبين، وهو ضمير يعود على الربا في القراءة الثانية.

ولا تكون زيادة المال بإعطاء هدية لشخص موسر، بغية ردها مضاعفة، فهو أمر جائز، ولكن لا أجر عليه.

وقد نهى الله رسوله أن يطلب أكثر مما يعطي، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر]. وهذه حرمة خاصة بالنبي ﷺ.

أما الزيادة الحقيقية فهي التي تجعل المال يبارَك فيه في الدنيا، وتجعل القليل منه يؤدي فوائد جمة، ويكون العبد فيه مسدَّدًا، ويرفع الله عنه ما لا يعلم من الحوائج والابتلاءات التي تأكل الأموال، ومع كل هذا فهو مأجور عند الله تعالى، مضاعف له في الثواب.

وطلب الزيادة الحقيقية في الأموال تكون بإنفاق المال في وجوه الخير والصدقات، ابتغاء مرضاة الله تعالى وطلبًا لثوابه ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ أي: وما أعطيتم قرضًا من المال طلبًا للزيادة فيه؛ ليزيد وينمو في أموال الناس، فلا يربو ولا يزيد عند الله في الأجر، بل إنه يُمحق وتقل بركته، وإن كثُر وازداد، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وهذا كمن يعطي هدية طمعًا في ردها أضعافًا ممن أهداه، فهي وإن زادت في الدنيا فإنها لا تزيد عند الله.

وما أعطيتم من صدقة أو زكاة تبتغون بها وجه الله تعالى ورضاه، فإن هذا العطاء هو الذي ينمو، ويضاعف عند الله تعالى.

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي، قال في معنى الآية: هو الرجل يعطي الشيء ليكافئه به، ويزداد عليه فلا يربو عند الله، والآخر يعطي الشيء لوجه الله، ولا يريد من صاحبه جزاء ولا مكافأة، فذلك الذي يضاعف عند الله[1].

والآية عامة تشمل كل من يُقرض المال طلبًا للزيادة، وكل من يعطي هدية بقصد الزيادة في ردها، وتشمل كل ما هو بنحو ذلك.

ثم أرشد سبحانه إلى طريق النماء الحقيقي للأموال، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي:

---

(١) «الدر المنثور» (١١/ ٦٠٤).

وما أعطيتم من زكاة واجبة، أو صدقة تطوع ﴿تُرِيدُونَ﴾ بنفقتكم هذه وجه الله، فإن هؤلاء هم الذين تضاعف لهم أموالهم حقيقة في الدنيا والآخرة. وقد شُرعت الزكاة في مكة بشكل عام، ثم حُدِّدت أنصبتها ومقاديرها في المدينة.

صحَّ في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من تصدق بعِدْل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل»**(١).

فالتمرة تبلغ حجم جبل أُحُد إذا كانت من حلال، وتم التصدق بها ابتغاء وجه الله تعالى، وهذا هو الطريق لنماء المال ومضاعفته.

التدرج في تحريم الربا:

١- وهذه الآية تشير إلى أولى مراحل التدرج في تحريم الربا.

٢- ثم كان النهي عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٣- ثم جاء النهي عن قليله وكثيره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وسبب هذا التدرج في التحريم: أن الربا كان فاشيًا في الجاهلية وصدْر الإسلام، وخاصة في قريش وثقيف، فلما أرشد الله المسلمين إلى مواساة الأغنياء للفقراء، أتبع ذلك بتهيئة النفوس للكفِّ عن التعامل بالربا مع من يقترضون منهم الأموال.

مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ: الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ

٤٠- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢) ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١٠) وهذا لفظه، وانظر: (٧٤٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٠١٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بياء الغيب في (يشركون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب جريًا على نسق الآية.

الله وحده هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي ويميت، وليس بإمكان أحد -كائنًا من كان- أن يفعل شيئًا من هذه الأربع.

فإن الذي خلق الإنسان، وأخرجه عريانًا من بطن أمه، فأطعمه وكساه، وجعل له عرقين رقيقين في صدر أمه يجريان لبنًا خالصًا، حارًّا في الشتاء باردًا في الصيف، وأمده بالسمع والبصر، والقوة والعلم والمعرفة، وهو الذي يرزقه طيلة عمره كما يرزق النملة في جحرها، وكما يرزق كل دابة لا تَقْوى على تحصيل قوتها، وما عليه إلا أن يأخذ بالأسباب.

هذا: وفتنة الفقر والغنى قد طحنت العالم بأسره منذ نشأ، فالخوف من الفقر هو هاجس الطبقة العظمى من الشعوب، ومقاومة الفقر تجري على قدم وساق.

فلا يزال التسابق على الاستثمار والانفتاح الاقتصادي يستولي على أفكار الحكّام، ولا تزال السوق المشتركة حلمًا يراود الكثير من المسؤولين، ولا تزال الرأسمالية يصفو لها الجو على أنقاض الاشتراكية، وقد مُنيت الرأسمالية أثناء كتابة هذه السطور عام ١٤٣٠هـ بانهيار اقتصادي عالمي لم يسبق له نظير، وهو انهيار منذر بإفلاسها وزوال مجدها، كما زال مجد الشيوعية الاشتراكية من قبل.

ولا يزال الخوف من كثرة النسل والعمل على تحديده، أو تنظيمه -هو الشغل الشاغل لبعض الحكام، كأنه المسؤول عن رزق الخلق!! والواقع يُكذب ذلك، فأحوال العالم الاقتصادية في تحسن مستمر مضاعف عن السابق، وقد جاء في الحديث ما معناه:

«إن المال يفيض في آخر الزمان ولا يجد من يأخذه»[1].

والناس في عصرنا يشكون التخمة، والسمنة المفرطة، وكانوا في الماضي يُغمى عليهم من الجوع، وهم في الحاضر يزخمون بكثرة الكماليات، وكانوا بالأمس يستضيئون بالقمر والمصباح، ويشربون من القربة، ويتبرَّدون تحت الشجرة، ويتوسَّدون حشو الليف، ويصنعون خبز وقتهم في التنور بعد طحنه بأيديهم على الرحى، ويذهب الرجل مسافرًا شهرًا إلى الشام على البعير، ويعود في مثله؛ ليأتي بخبر واحد من هناك، فأين هذا من

(١) جاء هذا في أحاديث أشراط الساعة.

مختلف وسائل الراحة والعيش، والتقنية والتقدم والرفاهية التي نعيشها اليوم؟!

وأين هذا من مظاهر كثرة الأموال والكماليات في عصرنا؟!

أما ما يُنفق من ميزانيات الدول على الحروب والدمار، والتدخين والمخدرات والمسكرات، وتبديد الأموال والطاقات فيما لا يعود على الأمة بفائدة، كالكرة والفن، فحدِّث ولا حرج.

وكل هذا مع عدم استثمار الأرض الموات، وعدم التوجه إلى الصناعة لاسِيَّمَا التصنيع الحربي الذي به تحيا الأمة، وتأمن شر عدوها، والأخذ بالأسباب من نواميس الله في الكون، فلا تخشوا الفقر يا قوم، ولا تقلقوا ولا تهلعوا، ولا تضِنُّوا بالمال، وأنفقوا منه في وجوه الخير.

وهو سبحانه الذي يميتكم عند انتهاء آجالكم، وهو الذي يبعثكم يوم القيامة للحساب والجزاء.

وكل هذا من خصائص الله ﷻ، ولم يدَّع أحد أنه خلق شيئًا منها ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ بأن أوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ بما تنمو به أجسادكم، ويحفظ به حياتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والحساب، والثواب والعقاب. هذه أربعة أشياء تكفَّل الله بها لعباده، وهي: الخلق، والرزق، والموت، والحياة بعد الموت. فكيف يشركون مع من انفرد بهذه الأربع، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟
ثم يتوجه القرآن بالسؤال لغير المؤمنين بالله سبحانه، فيقول: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: الذين تشركونهم مع الله تعالى في عبادتكم، هل منهم من يخلق، أو يرزق، أو يحيي، أو يميت؟

ولمّا كان هذا السؤال لا يحتاج إلى جواب؛ لأن الجواب معلوم، فإن الله تعالى لم يذكر لهم جوابًا؛ لأن السؤال معناه النفي، أي: ليس من شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله، من يستطيع أن يفعل شيئًا من ذلك، فكيف أشركتموهم مع الله في عبادته وهو الخالق الرازق المحيي المميت؟

ولذا بادرت الآية بالتعقيب على هذا التساؤل، بتنزيه الله ﷻ عن الشرك، فتقدس سبحانه أن يكون له شريك أو مثيل، أو ولد أو والد، سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

الْحَيَاةُ تَصْلُحُ بِالطَّاعَةِ وَتَفْسُدُ بِالْمَعْصِيَةِ

٤١ - ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم[1] بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية أن سبب ضيق العيش وحلول الأمراض والآفات والأوبئة ونزول البلاء بالناس؛ هو ما قدمته أيديهم من كثرة المعاصي والإفساد في الأرض، حيث نرى بعضهم تحت خط الفقر، والجهل، والتخلف، سِيَّمَا المؤمنين منهم، فهم في ضنك وجدب، وهزائم من قبل الأعداء، وتأخر في الصناعة والتقنية.

وذلك بسبب شؤم المعاصي، وحب الدنيا والركون إليها، ووقوع ألوان من الشرك في الأمة، فكان ذلك عقوبة لما يقترفونه من الذنوب والآثام؛ كي يتوبوا إلى الله تعالى، ويرجعوا إليه، فتصلُح أحوالهم وتستقيم أمورهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى].

وليعلموا أن الله يعجل لعباده بعض العقوبات في الدنيا على سوء أعمالهم، ولو أذاقهم الله عقوبة جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]

والله تعالى لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فحرمان الرزق بسبب التخلي عن منهج الله تعالى، وهو تركٌ لواجب الخلافة في الأرض، وإفسادٌ فيها بمخالفة أمره تعالى، وتبديل هذا الحال مرتبط بإصلاح النفس وإصلاح الأمة.

وكل من عصى الله في الأرض فقد أفسد فيها؛ لأن صلاح الأرض وما فيها يكون بالطاعة وحُسْنِ العمل.

والمراد من الآية: ظهور الفساد بالهزائم والأمراض والنكبات وقلة الأرزاق بسبب ارتكاب المعاصي في كل زمان ومكان، وبما اقترفه الناس من المحرمات، وانتشار الظلم في أرجاء المعمورة.

---

(١) قرأ روح وقنبل بخلف عنه بنون العظمة في (لنذيقهم)، والباقون بالياء لإسناد الفعل إلى ضمير لفظ الجلالة، وهو الوجه الثاني لقنبل.

ومن مظاهر هذه المعاصي: انتشار الشرك، والظلم، وسفك الدماء، والزنى، وكثرة الأحقاد والعدوان، وجور الحكام، وتعطيل إقامة الحدود، فترتب على ذلك قلة الخيرات، ونقص الزروع والثمار، واحتلال بلاد المسلمين، وضعف شوكتهم، وما إلى ذلك.

ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«حدٌّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يُمطَروا أربعين صباحًا»**(١).

والسبب في هذا أن الحدود إذا أُقيمت ترك الناس ارتكاب المحرمات، وإذا تُركت المعاصي كان هذا سببًا في حصول الخير والبركة.

وحين يكثر الخير مع وجود المعاصي، فإن هذا يكون من باب الفتنة والاستدراج.

وقد ورد أنه عند نزول عيسى ﷺ وبعد قتله للدجال، يقال للأرض: أخرجي بركاتك، فيأكل من الرمانة الفئام -أي الجماعة- من الناس، ويستظلون بقحْفها، ويكفي لبن اللقحة -الناقة- الجماعة من الناس، وذلك ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ، فكلما أُقيم العدل كثر الخير والبركة.

ولهذا ثبت في الحديث عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«العبد المؤمن يستريح من نَصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»**(٢).

فالله تعالى يبتلي عباده بنقص الأموال والأنفس والثمرات في الدنيا بسبب الآثام والمعاصي، اختبارًا ومجازاة لهم على صنيعهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله تعالى عن ذنوبهم، ويحكّمون منهج الله في أرضه، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

أما أهل الكفر والضلال فقد يكونون في رغد من العيش على كفرهم، وهذا إمهال لهم، لا إهمال، واستدراج لهم لا إنعام، ولأنهم قوم قد عُجِّلت لهم طيباتهم في الدنيا،

---

(١) النسائي (٨/ ٧٥) وفي الكبرى برقم (٧٣٥١) وبلفظ (ثلاثين صباحًا) برقم (٧٣٥٠) موقوفًا على أبي هريرة برقم (٢٥٣٨) وابن ماجه (٢٥٣٨) وابن حبان (٤٣٩٨) مرفوعًا و«المسند» (٢/ ٣١٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥١٢، ٦٥١٣) و«صحيح مسلم» برقم (٩٥٠).

وحُرموا منها في الآخرة، فالدنيا جنتهم، وهي سجن المؤمن، وجنة الكافر، فالموازنة بين المؤمن والكافر غير واردة.

وفي الآية تهديد للعصاة والمذنبين أن يُقلعوا عن سوء أعمالهم؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب مَنْ سبقهم، وعليهم أن يعتبروا بما حدث لغيرهم:

١- قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

٢- قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

٣- وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن].

وفي الآية التالية دعوة إلى دراسة التاريخ لمعرفة مصير أهل الضلال والشرك:

٤٢- ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

الأمر بالسير في الأرض يشمل التنقل بالأبدان، ويشمل التنقل بالقلوب والأبصار، للنظر والتأمل في عواقب الأمور، والاستفادة مما حدث للآخرين من عقوبات، بسبب انحرافهم عن طريق الهدى والرشاد.

أي: والذين خالفوا منهج الله من الأمم السابقة واللاحقة، حلَّت بهم عقوبة الله تعالى بسبب إفسادهم في الأرض، والله تعالى يحذرنا أن يصيبنا ما أصابهم، وعلينا أن ندرس التاريخ، ونتأمل آثارهم في الأرض، ونتدبر مصارع الظلمة، وإبادة الأمم بسبب كفرهم وشركهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم حتى لا ينزل بكم ما نزل بهم من شر العواقب وعذاب الاستئصال.

وقد كان عذاب الإبادة خاصًا بالأمم السابقة، أما أمة محمد ﷺ فقد رفع الله عنها عذاب الاستئصال؛ لأن هذه الأمة باقية ببقاء الرسالة إلى يوم الساعة.

فاعبدوا الله -أيها الناس- وتأملوا كيف عاقب الله مَنْ كان قبلكم من الأمم السابقة المكذبة لرسل الله تعالى، كقوم نوح، و قوم هود، وقوم صالح، فإنكم ستجدون عاقبتهم أشد عاقبة، ومصيرهم شرُّ مصير؛ لأن أكثرهم كان مشركًا بالله تعالى، فكانت نهايتهم جزاء وفاقًا لأعمالهم، فلا تكونوا مثلهم، واعتبروا بما حدث لهم، واستقيموا على منهج الله، ولا تفسدوا في الأرض بالمعاصي، واعلموا أيها المؤمنون أنكم تختلفون عن غيركم من حيث التمحيص، وسعة الرزق وتقتيره.

الْأَمْرُ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٤٣- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: وإذا كان التوجه نحو المعاصي والذنوب، يُحْرِم العبد الرزق، ويكون سببًا للإفساد في الأرض، فما هو الطريق الذي لا يضل سالكوه، ولا يخيب قاصدوه؟ إنه التوجه بالقلب والقالَب نحو دين الإسلام، بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وإسلام الوجه لله تعالى بتوحيد عبادته، والميل عن الشرك والشركاء، والتمسك بهذا التوجه والاستمرار عليه إلى يوم القيامة، فالإسلام هو الدين الأقوم، وحين تقوم الساعة لا يملك أحدٌ ردَّها، وهذا هو العاصم من فساد الأرض، وسبب مضاعفة الرزق.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: توجَّه إلى الله وحده، وأخلصْ له العمل، واثبت على الدين المستقيم، وهو الإسلام، واستقم على منهج الله، مغتنمًا حياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، قبل أن ينسيك الفقر، أو يطغيك الغني، أو يفسد المرض عليك حياتك، أو يُجهز عليك الموت، أو يأتي الدجال فشر غائب ينتظر، أو تقوم الساعة بغتة وهى أدهى وأمر.

وكن في كل ذلك، منفذًا أوامر الله تعالى، مجتنباً نواهيه، قبل مجيء يوم القيامة، فإذا جاء هذا اليوم فليس في إمكان أحد أن يرده أو يدفعه، وهو يوم لا رجعة فيه.

وقد جاء الأمر بالتمسك بهذا الدين في هذه السورة مرتين: مرة بعد ذكر الأهواء والأحزاب كما سبق في الآية ٣٠، ومرة بعد ذكر الشركاء كما في هذه الآية.

ويوم القيامة يتفرق الناس أشتاتًا موزعين؛ ليُروْا أعمالهم، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أى يتفرقون،

فيكون الناس صنفين: مؤمنين وكفارًا، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود]. وفي هذا اليوم يصدر الناس أشتاتا متفاوتين ليروْا أعمالهم من خير أو شر.

جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ

٤٤، ٤٥ - ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

فأماالكفارفإنهم يخلَّدون في النار جزاء كفرهم،وكلٌّ منهم يتحمَّل وزره وعاقبته وجزاءه، فقد أبغضهم الله ومقتهم وعاقبهم على كفرهم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

وأما هؤلاء المؤمنون العاملون للصالحات فإن الله تعالى سيجزيهم من فضله وإحسانه جزاء ما قدَّموا لأنفسهم في دنياهم،وما هيؤوه لمنزلتهم في أخراهم، فقد هيَّؤوا لها طريق الراحة والسعادة بسبب تمسكهم بالطاعة، وقد أعدوا لأنفسهم المهد الذي يستريحون فيه من الفراش، والمسكن، والقرار بالعمل الصالح، واستعدوا للفوز بمنازل الجنة وغرفاتها، ولن يقتصر جزاؤهم على أعمالهم بل سيجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود،

وقد فعل الله ما فعل، فجعل الناس فريقين؛ ليجزي المؤمنين العاملين للصالحات الجزاء الحسن الذي أعده لهم بفضله وإحسانه، فهو ثوابٌ تفضل الله به على خلقه، الحسنة بعشر أمثالها لعباده المؤمنين الذين يحبهم ربهم، فالرحمة والفضل لمن يحبه الله تعالى بسبب طاعته وحسن عبادته.

والفريق الآخر، هم أهل السخط والغضب، ممن يكرهم الله تعالى بسبب كفرهم وعنادهم.

مِنْ دَلائِلِ الْقُدْرَةِ الإلَهِيَةِ: هُبُوبُ الرِّيَاحِ لِتُبَشِّرَ بِنُزُولِ الْمَطَرِ

٤٦- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ[1] مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: وكيف يكفر بعض الناس بربهم، ولا يفردونه بالعبادة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على بعث الموتى وعلى كمال قدرته ووحدانيته، وعلى أنه المستحق للعبادة دون سواه ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بنزول المطر وإثارة السحاب، فيستبشر الناس بالمطر الذي يحيي الله به العباد والبلاد.

ونعمة المطر قد لا يشعر بها سكان المدن في هذا العصر؛ حيث تُخزَّن المياه وتساق لهم في المواسير، فلا يستشعرون هذه النعمة مع أن حياتهم تتوقف على الزرع والضرع الذي يأتي من البادية، وهم الذين يشعرون بالحاجة إلى المطر؛ إذ يترتب على عدم نزوله هلاك زروعهم ومواشيهم وما يصيبهم من القحط والجدب، وقد لا يمكنهم استخراج المياه التي في جوف الأرض.

وحين ينزل المطر يُغاث الخلق، وتحيا الأرض، وتجود الأنعام بالخيرات، وتجري السفن بأمر الله، وتنتعش التجارة، ولذا فقد سمَّى الله المطر رحمة، فقال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مطرًا تحيا به البلاد والعباد، فتعلمون أن رحمته بنزول الماء منقذة للعباد من القحط والجدب، وجالبة لأرزاقهم ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ السفن في البحار ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالسعي على أرزاقكم، والتصرف في معايشكم.

فهذه ثلاث نعم هي: نزول المطر، وجَرْيُ السفن، وطلب الرزق بالتجارة ونحوها، ورتب على ذلك مقابلة هذه النعم بشكر المنعم سبحانه، أما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهو حال من بدل نعمة الله كفرا وعرض نعمة الله للزوال.

وكل نعمة منها تستوجب شكر الله تعالى بتوحيده وطاعته.

وفي الأثر عن ابن عباس ﷺ: **«اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا، اللهم اجعلها رياحًا**

---

(١) اتفق القراء على قراءة لفظ (الرياح) في هذه الآية بالجمع.

ولا تجعلها ريحًا» وفيه أن النبي ﷺ كان يجثو على ركبتيه حين تهب الريح[١].

ومعلوم أن الرياح تأتي بالخير، وأن (الريح) يأتي بالشر.

قال الألوسي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾.

أي: الجنوب، ومهبُّها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا.

والصَّبَا ومهبُّها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.

والشمال ومهبُّها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر، فإنها رياح الرحمة.

أما الدبور، ومهبُّها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهل، فريح العذاب[٢].

نَتَائِجُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ

٤٧- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

هذه آية معترضة بين الآيات المفصَّلة لأحكام الرياح؛ لتسلية النبي ﷺ، أي: وكما يحيي الله الأرض بوابل السماء، فإنه سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة عن طريق إرسال الرسل، وإنزال الكتب إلى الناس، مبشِّرة ومنذرة، تدعوهم إلى التوحيد، وتحذرهم من الشرك، وتبين لهم بطلان ماهم عليه من الكفر والضلال، وهم رسل كثيرون ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وهم رسل مؤيَّدون من الله تعالى بالمعجزات والبراهين الساطعات، جاؤوا أقوامهم بالبينات وخوارق العادات الدالة على صدقهم، ولكن الناس لم تستقبل رحمة الله تعالى إليهم بالرسالة، بالانتفاع الكامل منها، كما استقبلوا رحمة الله إليهم بالمطر، بالانتفاع منه، بل كان الناس فريقين:

---

(١) الإمام النووي في «الأذكار» نقلًا عن «الأم» للشافعي من حديث ابن عباس، ومسند الشافعي (٤٧) بإسناد فيه نظر، وهو حديث ضعيف كما في «ضعيف الجامع» (٤٤٦١) وقد أخرجه الشافعي في (شفاء العيّ) (٥٠٢) وأبو الشيخ (٨٧٣) والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٢٩).

(٢) «تفسير الألوسي» (٢١/ ٥١).

الفريق الأول: مجرم كافر معاند لم ينتفع بالرسالات، ولم يتدبر آيات الله، ولم يؤمن بها، وصدَّ الناس عن سبيل الله، وهؤلاء انتقم الله منهم، وأهلكهم في الدنيا ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ وكذلك يفعل الله بكل من كذَّب ولم يؤمن، ووقف في وجه الدعوة من أمة محمد ﷺ فيلقى جزاءه في الآخرة.

والفريق الثاني: مؤمن مصدق بكتب الله ورسله، وهؤلاء لهم العاقبة الحسنة، والنصر على عدوهم، والتأييد من الله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقد أوجب الله سبحانه على نفسه نَصْر المؤمن في قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ ووعد به، فضلًا منه سبحانه، وكرمًا وإحسانًا، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١].

فأنتم - أيها المكذبون - إن بقيتم على تكذيبكم حلت بكم العقوبة كما حدث لأسلافكم، ونصرنا دين الله ورفعنا لواءه.

عشرة من عوامل النصر على الأعداء:

ولكن نصر الله للمؤمنين قد يتأخر أحيانًا لعدم أهلية المؤمنين للنصر؛ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم،

وقد يكون لعدم الأخذ بأسباب النصر الواردة في قوله تعالى:

١- ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج]

٢- والواردة في قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال].

فهذه عشرة **أسباب للنصر**، منها أربعة في آية سورة الحج ٤١، وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذه دعائم الإسلام الكبرى.

وفي سورة الأنفال الآية ٦٠:ضرورة إعداد القوة بما يناسب العصر :القوة الجوية، والبرية، والبحرية، وغيرها.

وفي سورة الأنفال أيضًا الآيتان ٤٥، ٤٦ خمسة من عوامل النصر، وهي:

الأول: الثبات، وعدم الفرار عند لقاء العدو.

الثاني: الإكثار من ذكر الله تعالى عند لقاء العدو، فإن فيه شحن القلوب بالإيمان، والتوكل على الله سبحانه.

والثالث: طاعة الله ورسوله في كل ما أمر به الشرع، أو نهى عنه.

والرابع: وحدة الأمة الإسلامية، وقتالها للأعداء تحت راية واحدة مُسْلِمة، وعدم التنازع والاختلاف، فإن فيه تفرقة الأمة، وتمزيق صفوفها.

والخامس: الصبر في مواجهة العدو، والإقدام على المعركة، طلبًا للنصر أو الشهادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

فأين نحن من هؤلاء؟ وذلك أنه عندما كان المسلمون يُبادون في البوسنة والهرسك، ويُختطفون من أرضهم في فلسطين، ويدفنون أحياء في الشيشان، وتدك البيوت على من فيها في العراق، ويُقتلون يوميًّا في أفغانستان، فإن الكثير من جماهير المسلمين في العالم يضحكون ملء أفواههم، ويغرقون إلى آذانهم في اللهو والشهوة.

وبينما كانت البنية التحتية تُدمَّر وتُحرق في لبنان، كان بعض الناس في رقص وشرب ومرح، وبعضهم يُعِدُّ خيامًا راقصة للإفطار والسحور في شهر رمضان، وقضاء ليالي الشهر الفضيل!! ويقع مثل هذا هنا وهناك.

وإذا استوينا مع عدونا في المعاصي غلبونا بقوة السلاح، فلابدَّ لنا من التمحيص لإخلاص الولاء لله تعالى، والنظر في عوامل النصر والهزيمة، ودراسة التاريخ للاستفادة منه، والأخذ بأسباب النصر ماديًّا ومعنويًّا.

لقد فرَّق الله شمْل المتديِّنين من بني إسرائيل قديمًا، وسلَّط عليهم عبدة الأوثان؛ لأن التدين الفاسد ليس جديرًا بالنصر!! وعندما يُصلح المسلمون شؤونهم يقترب النصر منهم.

فوعْد الله القاطع لعباده المؤمنين بالنصر واقع في النهاية بيقين، ولابد لذلك من الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية.

والدليل المعاصر على ذلك أنه لما أخلصت فئة من الناس في التوجه إلى الله تعالى، أيدهم الله بنصر من عنده، كما حدث في حرب العاشر من رمضان، وكما حدث في الجنوب اللبناني.

ونسأل الله تعالى أن يهيئ أسباب النصر في: فلسطين، والعراق، والشيشان، وسوريا ولبنان والسودان والصومال وأفغانستان وغيرها.

هذا: ومن نصْر المؤمن أخاه أن يدفع عنه ميْتة السوء، ويردَّ عنه غيبته، كما جاء في الحديث عن أبي الدرداء ﷺ: **«ما من امرئ مسلم يردُّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة»**[١].

مِنْ مَنَافِعِ الرِّيَاحِ

٤٨- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ[٢] فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا[٣] فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ويمضي سياق آيات الرحمة المبيِّنة لإثارة السحاب وإنزال المطر، بعد أن تخللتْها رحمة الله تعالى بخلقه، وإغاثتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لتبيِّن الآيات منافع الرياح، وكيف يخلق الله السحاب الذي ينزل به الماء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بقدرته، وهي مختلفة جهات الهبوب بين جنوب، وشمال، وصَبا، ودَبور، بخلاف الريح المفردة،

(١) رواه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء، «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٠٢) والبغوي في «شرْح السنة» (٣٥٢٨) وقال الترمذي: (١٩٣١) حديث حسن، وهو في «المسند» (٦/ ٤٤٨) من طريق إسماعيل المعروف بابن عُليَّة وابن أبي الدنيا من طريق جرير، كلاهما عن ليث، وهو ابن أبي سليم، قال محققو «المسند» (٢٧٥٣٦، ٢٧٥٤٣) حسن بطرقه وشواهده، وفيه ليث وشهر بن حوشب، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين والحديث الثاني بإسناد آخر وهو حسن لغيره.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بإفراد لفظ (الريح) في هذه الآية، والباقون بالجمع.

(٣) قرأ ابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بإسكان السين من (كسْفا)، والباقون بفتح السين، وهو الوجه الثاني لهشام.

فيغلب استعمالها في العذاب.

وبسْط الريح، جعْله ممتدًا عامًّا في جو السماء ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ مُثْقَلًا بالمطر ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ أي: ينشر الله هذه الرياح فيوسعها ويمدها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فتُحرِّك السحاب وتسوقه أمامها وتملأ الأفق به في أي منطقة من العالم على أي حالة أرادها الله سبحانه.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ﴾ أي يجعل ذلك السحاب تارة أخرى قطعًا متفرقة، بعضها فوق بعض، غير ممتد في جو السماء، وهذا معنى ﴿كِسَفًا﴾ أي: قطعًا متفرقة كالثلج والبَرد، بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ وهو البرق المصاحب للمطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: من بين السحاب ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي بذلك المطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: فإذا ساق الله الماء إلى من أراد من عباده في أرض دون أرض، وبلد دون بلد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضا بنزوله، ويفرحون بأن الله تعالى أرسل المطر إليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وكانوا قبل نزول المطر عليهم في يأس من رحمة الله:

٤٩- ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ[1] عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

فقد قرر سبحانه في هذه الآية حال القوم من اليأس والشدة قبل نزول المطر بسبب احتباسه عنهم، بأنهم كانوا قبل نزوله عليهم آيسين من نزوله، بعد طول ترقب وكثرة انتظار، وأعرف الناس بنعمة المطر هم أهل البوادي، ومَن تقوم حياتهم على الأمطار في كثير من بلاد العالم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون من (ينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديد الزاي وفتح النون، مضارع نزل.

دَلالَةُ النَّبَاتِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥٠- ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ[(١)] رَحْمَتِ[(٢)] ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَانظُرْ﴾ وتأمل وتدبر -أيها المشاهد- ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة نظرة تأمل واعتبار، وكيف تتحول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح والاستبشار، انظر ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإغاثته لخلقه: من الإنسان، والحيوان، والزرع، والنبات، والشجر، حين أنزل الله الماء من السماء ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ بسببه ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج لتُخرِج نباتها وعُشْبها وزرعها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت].

ثم استدل سبحانه بإخراج النبات من الأرض على إحياء الأجساد بعد موتها.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يعجزه شيء، فالقادر على شقِّ الأرض اليابسة، وإخراج الزرع والكلأ منها، قادر من باب أولى على إعادة الحياة إليكم بعد موتكم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

جَاحِدُ النِّعْمَةِ يُرَاوِدُهُ الْكُفْرُ لِأَدْنَى سَبَبٍ

٥١- ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

وبعد أن صَوَّرت الآية السابقة حال الذين يستبشرون بنزول المطر، تُصوِّر هذه الآية حالهم لو أنهم رأوا الريح مصفرًّا، مفسدًا لزرعهم وضَرعهم ونباتهم، فكان ريحًا مُهلِكًا

(١) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف بجمع (آثار) بألف بعد الثاء، والباقون بالإفراد (أثر) بدون ألف؛ لإرادة اسم الجنس.

(٢) رسمت (رحمت) بالتاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء، ووقف عليها الكسائي بالإمالة.

أتى على الأخضر واليابس، فجعله حطامًا، لَمَكَثُوا بعد رؤيتهم له يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، بدلًا من أن يتوجهوا إليه بالضراعة؛ ليرفع عنهم البلاء، ولكنهم إذا جاءتهم مصيبة جحدوا النعمة السابقة، فالكفر مطبوع في نفوسهم وهو يعاودهم لأدنى سبب، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة].

وهذا الصنف من الناس لا ينفع فيه وعظ ولا زجر:

الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِمَوْعِظَةٍ

٥٢، ٥٣- ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا[١] وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى[٢] ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

شبَّه الله سبحانه الكفار بالموتى، وبالصم والعُمْي، وكما أن الميت أو الأصم لا يسمع ولا يستجيب، ولا تفيد فيه الدعوة، فإذا ولَّى عنك مدبرًا، ثم ناديْته لم يسمع، فكذلك الكافر لا ينتفع بما يسمع، وكما أن الأعمى لا يرى الطريق، فكذلك الكافر لا يُبصر الحقيقة، ولا يستجيب لنداء الحق، وإنما ينتفع بذلك فقط قلب المؤمن.

لأن معه الداعي القوي لقبول النصيحة، وهو استعداده للإيمان، واستعداده لتنفيذ ما أُمر به أو نُهي عنه، فهو موافق للفطرة، مستعمل لجوارحه في طاعة الله.

ولذا: بيَّن سبحانه في هذه الآية أن الكفار كالأموات، لا ينفع معهم نصح ولا تذكير، إشارة إلى عدم انتفاعهم بما يشاهدونه من آيات دالة على توحيد الله تعالى.

فكما أنه ليس في قدرتك -أيها النبي- أن تُسمِع الأموات، ولا أن يبلُغ كلامك الصم، فأنت كذلك لا يمكنك أن تهدي العميان إلى الحق؛ لأنهم مُعْرِضون عنك وعن دعوتك، وكذلك من مات قلبه، وسدَّ أذنه عن سماع الحق، فإنه كالأصم والميت، الذي لا يسمع

---

(١) سهَّل الهمزة الثانية من (الدعاء إذا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها غيرهم.

(٢) قرأ حمزة (تَهْدِي الْعُمْيَ) على أن (تهدي) فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر، و (العمى) مفعول به، وقرأ الباقون (بِهَادِي الْعُمْيِ) على أن (هادي) اسم فاعل خبر ما، و (العمي) مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، ووقف يعقوب وحمزة والكسائي بخُلْف عنهما، بالياء على (بهادي)، والباقون بحذفها.

ولا يرى، فلا تجزع ولا تحزن على عدم إيمانهم.

وقد أخبرنا الله سبحانه عن عدم إيمانهم بمقتضى علمه الأزلي عمن يختار طريق الحق، ومن يختار طريق الضلال، فلا ينتفع بالحق إلا من هدى الله قلبه، فآمن به وامتثل أمره واجتنب نهيه، فهم مطيعون مستجيبون لله تعالى، ينتفعون بالموعظة وتؤثر فيهم، وهذا هو حال المؤمن الذي عَلِم الله منه استعداده للهدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. وهم المؤمنون، والمعنى: أن الكافر لا ينتفع بالموعظة.

وهذا لا ينافي سماع الأموات لكلام الأحياء، كما قال ﷺ في أهل القليب: «**ما أنت بأسمع لما أقول منهم**» وكان النبي ﷺ يخاطب قتلى غزوة بدر من الكفار.

وذلك أنه لما سمع عمر ﷺ نداء النبي ﷺ لهم، قال: يا رسول الله، تناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ فأجابه النبي ﷺ بما سبق.

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا**»، فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنى يجيبون وقد جُيِّفُوا؟ قال: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**» ثم أمر بهم فسُحِبوا فأُلقُوا في قليب بدر[1].

قُدْرَةُ اللهِ تَعَالَى فِي أَطْوَارِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ

٥٤- ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ[2] ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ[2] قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا(١) وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

وبعد أن جالت بنا سورة (الروم) في مشاهد الكون من حولنا، تجول بنا في أنفسنا

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٤) وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٠٦٥، ٣٩٧٦).

(٢) قرأ شعبة وحفص بخلف عنه وحمزة بفتح الضاد في (ضَعف) بالمواضع الثلاثة، والباقون بضم الضاد ومعهم حفص في وجهه الآخر، وهما لغتان، وقيل: إن ضم الضاد يكون في البدن، وفتحها يكون في العقل.

وأطوار نشأتنا على هذه الأرض، وهو استدلال آخر على كمال قدرة الله تعالى.

فالله تعالى بدأ خلق الإنسان من ماء مهين هو النطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كان جنينًا، ثم طفلًا، وهذه هي أحوال الضعف الأوَّل.

ثم جعله شابًّا قويًّا بلغ أشده ورجولته، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة.

ثم صار شيبة شيخًا هرمًا ضعيفًا، خارتْ قُواهُ وضعُفت ذاكرته.

هذه ثلاثة أحوال من الضعف والقوة والشباب والشيبة، يتقلَّب العبد فيها بمشيئة الله تعالى، وهو العليم بشؤون خلقه، القدير على كل شيء.

ومن حكمة الله تعالى أن يرى العبد قوته محفوفة بضَعفيْن، وليس له من نفسه إلا النقص، ولولا أن الله تعالى أمده بالقوة، لما انتقل من الضعف إلى القوة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى.

والضَّعف يعتري البدن والقوة، ويعتري العقل والشهوة، والفكر والإرادة، ضَعْفٌ في كل شيء، لا يَفْلِتُ منه أحد، وهو ضَعف يشمل التكوين الجسدي والعقلي، والعاطفي والنفسي، فالضعف هو المادة الأولى التي يتركب منها كيان الإنسان، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. إنه ضعف في الكيان الإنساني كله:

١- وعن الضعف الأول يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات].

ويقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق].

ويقول ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل].

ويقول جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون].

٢- وعن الضعف الثاني يقول جلَّ شأنه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس].

ويقول أيضًا: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧].

٣- وعن مرحلة القوة يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥، وغافر: ٦٧].

وهكذا فإن هذه الآية جمعت مراحل الإنسان في صورها المختلفة، كي يعلم العبد أن قدرة الله تعالى لا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

وَصْفُ حَالِ الْمُجْرِمِينَ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٥- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ[1] مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ولكي تكتمل جوانب الصورة، بعد ذكر مشاهد الكون، ومشاهد النفس، فإن السورة تصل ذلك بمشاهد القيامة، للربط بين الدنيا والآخرة برباط وثيق، فتبيِّن أن الأجل سريع الانتهاء، وأن الدنيا سريعة الزوال، وأن مدة البرزخ سرعان ما تمرُّ، وأن الساعة تقوم على العباد، فينظرون إلى ما فات خلْفهم من عُمْرٍ مضى، كأنه ساعة من نهار، وكأنهم لم يقيموا في الدنيا إلا عشية أو ضحاها.

قال الربيع بن أنس في معنى الآية: لبثوا في علم الله في البرزخ إلى يوم القيامة؛ لأنه لا يعلم متى وقت الساعة إلا الله، وفي ذلك أنزل الله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

ويوم تجيء الساعةُ يُقْسم المنكرون لها أنهم لم يمكثوا في الدنيا، أو لم يمكثوا في قبورهم، إلا وقتًا قصيرًا من الزمن، كأنه ساعة من نهار، وفي هذا اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، وفيه استقصار لمدة الدنيا، فاستقلُّوا أجل الدنيا لَمَّا عاينوا الآخرة، وخرجوا من قبورهم سراعًا للحساب.

وقد كذَبوا في قولهم، كما كذَبوا في الدنيا وحلفوا أنهم لن يُبعثوا، والله تعالى يفضحهم على كذبهم هذا، حين يتبيَّن خلاف ما زعموا من عدم البعث، ومن تكذيب الرسل والكتب، وهذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: بمثل هذا الكذب وهذه المغالطة والمكابرة كانوا يكذبون في الدنيا بإنكار البعث وتكذيب الرسل.

ففي الدنيا كذبوا بالحق الذي جاء به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا المحسوس، وهو

---

(١) انفرد المدني الأول بعد (يقسم المجرمون) وتركها غيره.

اللبث الطويل في الدنيا، والعبد يبعث على ما مات عليه.

ويوضح هذا المعنى قوله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥٢]. وهذا بعد أن ينشئ الله أجسادهم، ويعيد إليهم عقولهم.

وهم بهذا يعتذرون عما كان منهم من إنكار البعث في الدنيا؛ إذ إنهم لو علموا أن البعث سيكون بعد ساعة من الحلول في القبر لأقرُّوا به، ولكنهم كانوا يُنكرون البعث حتى أتاهم اليقين.

وقيام الساعة معناه: حصولها ووجودها وقيام الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء.

أَهْلُ الْعِلْمِ يَرُدُّونَ عَلَى مُنْكِرِي الْبَعْثِ

٥٦- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: إن أهل العلم يردُّون المكذبين إلى التقدير الصحيح، ويصوِّبون ما قالوه، فيقول الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، من الأنبياء والمؤمنين والملائكة: إنكم مكثْتم في الدنيا، أو في قبوركم وَفْق ما كتبه الله لكم في سابق علمه إلى أن بُعثتم، وهذا معنى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ فقد أعطاكم الله عمرًا يتذكر فيه من تذكر، حتى وصلتم إلى هذه الحال، فهذا هو يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، وأنتم لا تعلمون؛ فلم يزل الجهل شعاركم ولم تزل آثار الكذب تلازمكم، لأنكم لم تطلبوا الحق، ولم تفتحوا عقولكم وقلوبكم له فكذَّبتموه. قال تعالى:

٥٧- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ[1] ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: إن يوم القيامة يوم لا يُقبَل فيه من المكذبين بالبعث والنشور اعتذار عما قالوه وفعلوه، وقد سمى الله قَسَمَهم معذرة عما قالوه في الدنيا من إنكار البعث والنشور، وبيَّن سبحانه أن هذه المعذرة لا تنفعهم في شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء في (تنفع)، والباقون بالتاء.

مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ فهم يعتذرون عن مثل قولهم ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]. وأشباه ذلك كثير في القرآن.

ومن ذلك أنهم أقسموا على إنكار البعث كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾. قال تعالى في تتمة الآية: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

فلا ينفعهم اعتذار، ولا إقرار بذنب، أو طلبُ عفو، ولا يُطلب منهم إرضاء الله تعالى بالتوبة والطاعة والندم، بل يُعاقبون بسيئاتهم ومعاصيهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

وهكذا: فإن كذبوا وزعموا أن الحجة لم تقم عليهم، أو لم يتمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم بشهادة أولى العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم، لم يمكّنوا، ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وإن فات وقت الإعذار لا تقبل معذرتهم.

الإِخْبَارُ عَنْ قَسْوَةِ قُلُوبِ الْكُفَّارِ

٥٨، ٥٩- ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩﴾

يبيِّن القرآن الكريم سبب ما أصاب الكفار من عذاب يوم القيامة، بأنهم لم ينتفعوا بهذا القرآن وما فيه من الأمثال والحِكَم والحجج، فقد بيَّنا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهمْ الأمثال؛ ليتبيَّن لهم الحق فيتبعوه، ومع ذلك فقد ظلُّوا على كفرهم مكذبين معاندين، مع توافر الأدلة والبراهين على توحيد الله سبحانه.

والله تعالى قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل؛ ليعتبروا ويتعظوا فيؤمنوا، ولكنهم كانوا بعد هذا كله يجحدون كل آية، ويتطاولون على أهل العلم الصحيح، ولو أن محمدًا ﷺ جاءهم بكل آية أتى بها الرسل السابقون، كالعصا واليد والناقة، لكذّبوا ولم يؤمنوا، وقالوا: ما أنتم إلا متبعون للباطل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس].

فلو أنهم رأوا كل آية ما آمنوا، ولقالوا: إنها سحر وباطل، كما قالوا عن انشقاق القمر ونحوه.

وبمثل هذه الطريقة، وبسبب ضلال القوم، الذي علمه الله منهم في الأزل، يختم الله على قلوب الكفار، فلا يعتبرون ولا ينتفعون بالآيات البينات.

الْخِطَابُ الأَخِيرُ

٦٠- ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

تتوجه الآية الأخيرة في السورة بالخطاب إلى النبي ﷺ، وإلى كل داعية إلى الله تعالى في كل عصر ومِصْر، بأن يصبر على أذى قومه؛ فإن نصر الله له كائن لا محالة، ولا يستفزه تكذيب غير المصدقين بالبعث والحساب، فكأن الله تعالى يقول له: إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال المكذبين بالبعث والنشور، فاصبر على أذى قومك، ولا يحملوك -أيها الرسول- على الجهل، أو القلق، أو الاستفزاز، واصبر فالصبر، هو زاد العبد في الطريق الشاق، واثبت على ما بعثك الله به؛ فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا مَعْدِل عنه؛ فإن الهدى منحصر فيه.

والخطاب الموجه للرسول ﷺ في القرآن، كهذه الآية ونحوها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]. ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

يراد به التشريع للأمة؛ لأن النبي ﷺ معصوم من الشرك والكفر والجهل الذي يُنهى عنه.

ورد أن علي بن أبي طالب ﷺ ناداه رجل من الخوارج في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فعلم (عليٌّ) مقصده من هذا وتعريضه به، فأجابه (عليٌّ) وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

أي فاحذر أن يستخفّك ضعاف الإيمان وقليلوا اليقين، ويحملوك على عدم الثبات على الأمر.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٣٠٧) والطبري (١٨/ ٥٢٩) والحاكم (٣/ ١٤٦) والبيهقي (٢/ ٢٤٥).

وهكذا: بدأت سورة (الروم) ببيان صدق رسالة محمد ﷺ حين أخبر عن انتصار الروم على الفرس في وقت لاحق.

وثنَّت بالحديث عن آثار الله تعالى الدالة على توحيده وقدرته في الكون والنفس.

وثلَّثتْ بالحديث عن القيامة وما فيها من جزاء للكافرين المكذبين بالله ورسله، وبالنعيم الذي أعدَّه الله لعباده المؤمنين، وهذه العناصر الثلاثة هي:

١- الوحي والرسالة. ٢- التوحيد وعدم الشرك.

٣- الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حشر ونشر، وحساب وجزاء على الأعمال والأقوال.

وهذا هو موضوع السور المكية، ومنها سورة (الروم).

تم تفسير (**سورة الروم**) ولله الحمد والمنة.



فعل أبي؟ قال: مات، قال: الحمد لله، ملكتُ أمري.

قال: ما فعلت أمي؟ قال: ماتت، قال: ذهب هَمِّي.

قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جُدِّد فرشي.

قال: ما فعل أخي؟ قال: مات، قال: انقطع ظهري(١).

وقد شرَّف الله تعالى لقمان، بأن عرض في القرآن ما جاء على لسانه، من قضية التوحيد والشرك، والوصايا الجامعة، وأمره سبحانه أن يشكر نعمة الله عليه؛ لِمَا آتاه من الحكمة التي جمع فيها بين العلم والعمل، وحكمة القول والفصل، وحُسْن المعاشرة والصحبة.

والشكر يكون بالقلب واللسان والأعضاء:

فشكر القلب يكون بالعلم والمعرفة، والنظر الثاقب، والفكر والتأمل.

وشكر اللسان يكون بالحمد والثناء، والتعظيم والتقديس.

وشكر الجوارح يكون بالعمل والطاعة، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

فإن رأى عجْزه وتقصيره في الجميع، فهذا دليل القبول.

وإن اغترَّ بعمله، ورأى أنه على شيء، فهذا دليل النقص.

ومن يشكر ربه، فإنما يعود نفع ذلك عليه، ومن جحد فضل ربه عليه، فإن الله غني عن شكره، غير محتاج إليه، وله الحمد والثناء على كل حال؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن العباد، فإن شَكَر فإن شُكْره يفتح له باب الزيادة، وإلا فما خسر إلا نفسه.

أما الله سبحانه فهو محمود على كل حال، مستحق للحمد لذاته وصفاته، لا يتضرر بكفر الكافر، ولا ينتفع بشكر الشاكر.

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «الزوائد» ص ١٠٧ .

مَوَاعِظُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: أَرْبَعُ وَصَايَا وَسَبْعَةُ تَكَالِيف

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ(١) لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

أ- الوصايا الأربع:

أولًا: نهيه لابنه عن **أعظم الذنوب**، وهو الشرك بالله تعالى:

فقد بدأ لقمان وصاياه لابنه بتعليمه أصول العقيدة، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: إن ابن لقمان كان اسمه (ثاران)، والوالد أشفق الناس على ولده، وهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، وأن يقيه عذاب النار، ويخاف عليه من الهلاك، ولهذا فإن أول وصية من وصايا لقمان لابنه كانت بأن يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا، ثم قال لقمان لابنه محذرًا له من الوقوع في الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ويُحتمل أن يكون هذا خبرًا من الله سبحانه، وليس من كلام لقمان.

روى البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان»**: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

قيل: إن ابن لقمان كان مشركًا، فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده؛ فإن الوعظ زجْر مقترن بالتخويف، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. وكان زجْر لقمان لابنه عن الإشراك بالله.

قال القرطبي: إن امرأة لقمان وابنه كانا مشركيْن، فلم يزل لقمان يعظهما حتى آمنا.

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة، وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس.

---

(١) قرأ حفص بفتح الياء مع تشديدها في (يا بني لا تشرك) وقرأ ابن كثير بإسكانها مخففة، وقرأ الباقون بكسرها مشددة.

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٣٧٢) وهو في البخاري برقم (٤٧٧٦) ومسلم برقم (١٢٤).

وقد أكد لقمان هذه الوصية، مرة بالنهي، وفصْل عِلَّته، ومرة بإنَّ واللام.

والأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، قاعدة الإيمان الأولى التي يأتي بها كل رسول، وتُجادِل فيها كل أمة، والنصيحة من الوالد لابنه مبرَّأة من كل شبهة، وبعيدة عن كل مظِنة.

فلا تسأل -أيها المسلم- إلا الله، ولا تعتقد النفع والضر إلا في الله، ولا تنذُر ولا تذبح إلا لله، ولا تطلب العون والمدد إلا من الله تعالى؛ حتى لا تكون من المشركين، فلا أفظع ولا أبشع ممن سوّى بين المخلوق والخالق، وبين من لا يملك شيئا ومن يملك كل شيء، وبين من يفتقر إلى غيره في كل شيء، ومن هو غني بذاته والكل مفتقر إليه، ولا يوجد أعظم ظلما ممن خلقه الله لعبادته، فعبد مخلوقًا مثله، أو مخلوقًا صنعه بنفسه.

والشرك بالله أكبر الذنوب وأبشعها؛ لأنه وَضْعٌ للعبادة في غير موضعها، وتسويةٌ بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها، فهو ظُلم للنفس عظيم، وأي ظلم؟!

والشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقد سئل النبي ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**[١].

أي: والحال أنه قد انفرد بخلقك، فكيف تتخذ له شريكًا؟

ثَانِيًا: الْوَصِيَّةُ بِالْوَالِدَيْنِ

١٤- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ[٢] ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

ولأن القرآن الكريم يقرن الأمر بعبادة الله وحده بالأمر ببر الوالدين، ولما نهى سبحانه عن الشرك، ومن لوازمه التوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، كما جاء ذلك في سور: [النساء: ٣٦]، و[الأنعام: ١٥١]، و[الإسراء: ٢٣]، و[الأحقاف: ١٥].

---

(١) المسند (٤١٠٢،٢٦١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٦٨) وأبو يعلى (٥٠٩٨).

(٢) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر نون (أنِ اشكر)، للتخلص من التقاء الساكنين والباقون بضمها.

فإنه سبحانه في وصايا لقمان لابنه ثنَّى بالوصية بالوالدين، وعدَّ أن عقوقهما يحدث بمجرد التأفف منهما دون كلام، كما جاء ذلك في سورة الإسراء.

وجاءت هذه الوصية في سورة لقمان، في كلام معترض بين وصايا لقمان لابنه لأهمية البر بالوالدين؛ لما لهما من فضل -بعد الله تعالى- في إيجاد الإنسان؛ إذ الوصية بهما مسندة إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ فأسلوب التخاطب مختلف، والأسلوب يشير إلى أن هذه الآية وما بعدها ليست مما حكاه الله تعالى عن لقمان، بل هي تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ أي: وصيناه بشكرنا، وبشكر الوالدين، وأمرْناه بالقيام بعبوديتي، وألا يستعين بنعمي على معصيتي، كما أمرْناه بالإحسان إلى الوالدين بالقول الطيب والكلام اللين، والفعل الجميل، والتواضع لهما وإكرامهما، وعدم الإساءة إليهما بالقول أو الفعل، وقد وصينا الإنسان بهذا وأخبرْناه أن مصير الخلائق إلى الله الذي وصاهم بهذه الوصية، فيحاسبكم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[1].

وهكذا جاءت الوصية بالوالدين في المرتبة الثانية بعد الأمر بتوحيد الله سبحانه:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٢- وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٤- وفي قوله جل شأنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

والوصية بالوالدين تتكرر في القرآن دون الوصية للوالدين بالولد؛ لأن الفطرة تتكفل

(١) أبو داود (٤٨١١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٩٢) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٤١٧) وابن حبان (٣٤٠٧) «الإحسان»، ومسند أحمد (٧٩٣٩، ٨٠١٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير الجمحي فمن رجال مسلم (محققوه).

وحدها برعاية الأبناء وهي لا تحتاج إلى وصية.

والفطرة تدفع إلى العناية بالجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة؛ فالوالد يبذل كل ما يملك في فرح وسرور من غير ضجَر، لأنه مدفوع إلى ذلك بالفطرة والغريزة والأُبوَّة، وآدم كان له ابن، ولم يكن له أب.

أما الابن فهو في حاجة إلى تكرار النصيحة؛ ليلتفت إلى الجيل الذي ضحَّى، وسكب عُصارة عمره لمستقبل ولده، وهو الآن مُدْبِر عن الحياة، ولا يمكن للابن أن يعوض بعض ما بذله أبوه له، ولو وقف عمره عليه، ولذا كرَّر القرآن الوصية بهما.

وبعد الوصية بالوالدين معًا، خصَّ الأم بالذكر - كما جاء في سورة الأحقاف وغيرها - لتعبها ومشقتها في تربية الولد، فقد حملته أمه، وضعفُها يتزايد كلما ثقُل بطنها؛ إذ الحمل ضعف، والطلق ضعف، والوضع ضعف، والرضاعة ضعف، وكل هذا وهن على وهن، ولهذا جاءت الوصية ثلاثًا بالأم، في مقابل وصية واحدة للأب، وهي توحي بزيادة الاهتمام بالأم لضعفها، ولا تقلل من شأن الأب، ولا تُضْعِفُ من دوْره الأساس، في الكد والنصب لتربية الابن وإطعامه وتعليمه، ولو حَرَم نفسه متع الحياة!!

وفي هذه الآية اختصَّ الله الأم بدرجة ذِكْر الحمل، ودرجة ذِكْر الرضاع، بعد أن أشركها مع الأب في الوصية، فصار للأم ثلاثُ مراتب، وللأب مرتبة واحدة، وأشبه ذلك قول النبي ﷺ حين سأله رجل: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[1].

فجعل له الربع من البر كالآية، ولأن الأم غالبًا ما تكون لينة، وقد يؤدي هذا اللين إلى التفريط في حقها، لذا أكد الإسلام على الاهتمام بها.

عن بريدة عن أبيه: أن رجلًا كان يحمل أمه في الطواف ويطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «**لا، ولا بزفرة واحدة**»[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٧١) و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البزار بسنده، وهو في الأدب المفرد برقم (١١) ج١ ص ١٨) وقد صححه الألباني من آثار ابن عمر.

وقد قرَّرت الآية أن مدة الرضاع سنتان كما قال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامه في نهاية الرضاعة ﴿فِي عَامَيۡنِ﴾ وكما يقرِّره قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وهذه المدة تنقص من الثلاثين شهرًا التي هي مدة الحمل والرضاعة معًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقد استنبط العلماء من هذه الآية: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ويؤخذ منها أيضًا: أن أطول مدة الرضاعة عامان، كما صرَّحت به آيتا سورتي (البقرة ولقمان) التي نحن بصددها؛ إذ ليس فيهما ذِكْر للحمل، فمن أدخل فيهما مدة الحمل من المفسرين فهو مجانب للصواب؛ لأنها تصرح بالفطام.

ثم أمر سبحانه الإنسان أن يشكر الله تعالى؛ فهو الموجد الحقيقي للإنسان، وقَرَن تعالى شُكْره بشكر الوالدين؛ لأنهما السبب المباشر بعد الله تعالى في إيجاد الإنسان في الحياة، ثم يرجع الجميع إلى الله سبحانه في الآخرة فيجازي كلًّا بعمله.

ويؤخذ من الآية: أن نعمة الوالدين على الولد مختصة بالدنيا وحدها، أما نعمة الله تعالى على العبد فهي نعيم الدنيا والآخرة معًا، ونعيم الآخرة لا يدَ فيه لأحد من الخلق، بل هو محض فضل من الله تعالى.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**رغم أنفه**» ثلاثًا، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه، أو أحدهما، أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة**»[1].

فهو مبعد من رحمة الله تعالى.

لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ

١٥- ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾

ومع هذه الكرامة والمنْزلة للوالدين، فإن رابطة العقيدة مقدَّمة على رابطة النسب، وأقوى من رابطة الأبوة والبنوة، فيسقط معها واجب الطاعة للوالدين إذا أمرا بشيء فيه معصية الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥١).

تعالى، وفي مقدمة ذلك الإشراك بالله تعالى، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن هذا لا يُسقط حق الوالدين في حسن المعاملة في الأمور الدنيوية، وواجب الصحبة في الدنيا، وهي رحلة قصيرة لا تؤثر على الحق الأصيل لخالق الكون كله، فبعد أن أمرت الآية السابقة ببر الوالدين، بيَّنتْ هذه الآية أن ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي:

عن مصعب بن سعد عن أبيه: أنه نزل فيه آيات من القرآن قال: حلفتْ أم سعد ألا تكلمه أبدًا؛ حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمتَ أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجَهد، فقام ابن لها يقال له: عُمارة، فسقاها، فجعلتْ تدعو على سعد، فأنزل الله في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ إلى ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ وفيها: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[1] وأم سعد هي: حمنة بنت أبي سفيان بن أمية.

وجاء في لفظ آخر: أن سعد بن مالك (ابن أبي وقاص) قال: أنزلت فيَّ هذه الآية، قال: كنت رجلًا برًّا بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب، حتى أموت فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدَع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يومًا وليلة لم تأكل، فأصبحتْ وقد جهدتْ، فمكثتْ يومًا وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتدَّ جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلت: يا أُمه، تعْلَمين والله لو كانت لك مئة نفْس، فخرجت نفْسًا نفْسًا ما تركتُ ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلتْ ونزلت الآية[2].

ومدلول الآية عام في كل حال مماثلة، وهي تقرر أن حق الله تعالى هو الواجب الأول

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم»، كتاب فضائل الصحابة برقم (١٧٤٨) باب في فضل سعد بن أبي وقاص و«سنن الترمذي» (٣٠٧٩) وأبي داود (٢٧٤٠)، وأخرجه أحمد ضمن حديث طويل بنحوه في المسند (١٥٦٧) بإسناد حسن، من أجل سماك بن حرب، وهو من رجال مسلم، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، وهو أيضًا في الحديث رقم (١٦١٤).

(٢) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٢١٦) وأبو يعلى (٧٨٢) وابن عساكر (٢٠/ ٣٣١) عن داود بن أبي هند وقد رواه الطبراني في كتاب العشرة (١٨/ ٥٥٣) وابن سعد (٤/ ١٢٣).

الذي يجب أن يستقر بلا شبهة ولا غموض، في وُجدان كل مؤمن.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: وإن اجتهد والداك -أيها الولد المؤمن- ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ غيري في عبادتك إياي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لو أنّ الوالدين اجتهدا وأمراك بمعصية من معاصي الله، من كبائر الذنوب، أو ترْك فريضة فرضها الإسلام ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في فِعْل أمْرٍ نهاك الله عنه، أو ترْك واجب أوجبه الله عليك، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتُستحسن في ترك الطاعات المندوبة، ومن ذلك الجهاد إن كان فرض كفاية، وصِلْهُما بالمال والهدايا، وادعهما برفق، وعاملهما في الأمور الدنيوية بالمعروف فيما لا إثم فيه، ولا تظن أن طاعتهما في المعصية من الإحسان إليهما، لأن حق الله تعالى مقدم على كل حق، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، واسلُك -أيها الابن المؤمن- طريق من تاب من ذنبه وأناب إلى الله تعالى، من الأنبياء والصالحين، وارجع إليَّ، وآمن برسولي محمد ﷺ.

وهذه وصية لجميع الناس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في اليوم الآخر ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وأجازي كلًا بعمله في الآخرة، دون أن يخفي عليه خافية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا أسلم أبو بكر رضي الله عنه أتاه عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد، وقالوا له: قد صدَّقت هذا الرجل وآمنت به؟ قال: نعم، إنه صادق، فآمنوا به، ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا، فهؤلاء لهم سابقة الإسلام، أسلَموا بإرشاد أبي بكر رضي الله عنه.

وفي إسلام أبي بكر نزل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

فلما سمعها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧]. إلى قوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]. وهذا مما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾.

وهو النبي ﷺ وأصحابه، وكل من سار على نهجه إلى يوم الدين.

وفي هذه الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بالمال إن كانا فقيرين، وبحسن التعامل

والصحبة في الأمور الدنيوية:

قالت أسماء بنت أبي بكر ﷺ للنبي ﷺ، وقد قدمتْ عليها خالتها في المدينة، وقيل: أمها من الرضاعة، قالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «**نعم**»[١]. وأم أسماء هي قتيلة بنت عبد عزى بن عبد أسعد.

أما أم عائشة وعبد الرحمن، فهي أم رومان، وكانت قديمة في الإسلام.

ومعنى راغبة: أي معرضة عن الإسلام، أو راغبة في الصلة مني.

أين هذه التعاليم من الحضارة العالمية المعاصرة التي تودع الأبوين دور الرعاية للمسنين عند شيخوختهما؟ إنها الحضارة التي تضيق بحقوق الله تعالى!!

ثَالِثًا: الْحِسَابُ الدَّقِيقُ وَالْجَزَاءُ الْعَادِلُ

١٦- ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ[٢] حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

يعود السياق إلى الخبر، بعد الاعتراض بالوصية للوالدين؛ ليتناول -في هذا الخبر الثاني- تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب دقيق، وجزاء عادل في صورة مؤثرة، يرتعش لها الوجدان، حين يُطالِع علم الله تعالى الشامل والدقيق.

وقد أراد لقمان بهذه الوصية أن يُعْلم ابنه، عظيم قدرة الله تعالى وشمول علمه، وبيان أن قدرته تعالى تنال الذرة التي بداخل صخرة صماء محصَّنة محجبة، أو غائرة وغائبة في أرجاء السَّمَوَاتِ والأرض؛ فإن عِلْم الله تعالى محيط بها، وقدرته تنالها.

يا بني، اعلم أن ما تفعله من السيئة أو الحسنة، أو الطاعة أو المعصية، مهما كانت متناهية في الصغر، وكانت على صغرها داخل صخرة صلْبة لا يمكن رؤيتها، ولا التوصل إليها؛ لصغر حجمها، وخفة وزنها، وضَياعها في جوف الأرض، أو في باطن جبل، أو

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٦٥) وحديث أسماء في البخاري برقم (٢٦٢٠، ٥٩٧٩) ومسلم (١٠٠٣).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر برفع (مثقالُ) على أن كان تامة، ومثقال فاعل، وقرأ الباقون بالنصب على أن كان ناقصة ومثقال خبرها.

في أي مكان من العالم العلوي أو السفلي، فإن الله تعالى يأتي بها يوم القيامة، ويحاسب عليها، فهو سبحانه القادر على استخراجها، المحيط بكل صغيرة وكبيرة، لا يخفى عليه شيء مهما دقَّ، ولطُف، وتضاءل ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وجاء في سبب قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾

أن ابن لقمان قال لأبيه: أرأيتَ لو كانت حبة في قعر البحر، أكان الله يعلمها؟ فأجابه بهذا.

وقيل: إنه قال له: أرأيتَ إن عملتُ الخطيئة حتى لا يرى أحد، كيف يعلمها الله؟ فأجابه بهذا.

وقيل عن الصخرة: إنها سجِّين التي يُكتب فيها أعمال الفجار، قيل: وهي تحت الأرضين السبع، والله أعلم.

وورد أن هذه آخر كلمة قالها لقمان، فانشقت مرارة ولده من هيبتها وعظَمتِها، فمات[١].

وعن حفص بن عمر الكِنْدي قال: وضع لقمان جرابًا من خردل إلى جنبه، وجعل يعظ ابنه موعظة، ويُخرج خردلة، فنفِد الخردل، فقال: يا بني، وعظتُك موعظة لوْ وعظْتُها جبلًا لتفطَّر، فتفطَّر ابنه[٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

ويراد بمثقال الذرة، أصغر الأشياء كالهباءة، التي تكون في شعاع الشمس الخارج من الكوة مثلًا، وقد لا تُرى الذرة بالعين المجردة وتدرك بالميكرسكوب، وسواء أكانت هذه الذرة غائبة في جوف الأرض ونحوها، أم ظاهرة في مختلف أرجاء الأرض وجوانبها،

---

(١) «تفسير الخازن» للآية.

(٢) ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٤٣).

فعلم الله محيط بها ويجازى عليها، وهو المحيط بالخفايا والسرائر.

ومما جاء في هذا أن عائشة ﵂ أعطت سائلًا حبة واحدة من العنب، لم يكن أمامها سواها، فأخذ ينظر إليها باحتقار، فقالت: يا هذا، إن الله تعالى يقبل الحسنة بدءًا من وزن الذرة.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لخرج عمله للناس كائنًا من كان**»(١).

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

والمقصود بالآية، الحث على مراقبة الله تعالى في السر والعلن، في كل شيء مهما صغر ودق.

رَابِعًا: الْوَصِيَّةُ بِسَبْعَةٍ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ

١٧ - ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

وذلك أن لقمان انتقل من تعليم ولده أصول الاعتقاد من الإيمان بالله واليوم الآخر، إلى تعليمه أصول العبادات والأعمال الصالحة، وحُسن التعامل مع الناس.

فابتدأها برأس العبادات، وهي الصلاة، ثم برُكْن الإسلام الأعظم، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الصبر على ما يلقاه المرء من الأذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ومن ثَمَّ إلى تعليمه آداب التعامل مع الناس، بعدم احتقارهم، أو التفاخر عليهم، ثم بترويض النفس على خفض الصوت وعدم رفعه.

التَّكْلِيفُ الْأَوَّلُ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

أمرٌ من لقمان لولده بإقامة الصلاة في أوقاتها، مع الخشوع والخضوع، والمحافظة عليها، والقيام بأركانها، وشروطها، وواجباتها، وسننها، وآدابها، وما يتبعها من نوافل،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٨) برقم (١١٢٣٠) وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان وأخرجه أبو يعلى (١٣٧٨) وابن حبان (٥٦٧٨).

فهي رأس الطاعات، وأم العبادات، وعمود الدين، وهي فرق المسلم من الكافر.

التَّكْلِيفُ الثَّانِي: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

وفق مراتبه المستطاعة المعروفة: باليد، أو باللسان، أو بالقلب، مع ظهور آثار الإنكار على المنكر، وذلك بحسب الطاقة والجهد، وترتيب المسؤوليات بلطف ولين وحكمة، ولابد أن يكون المنكَر ظاهرًا دون تجسس، ولا تتبُّع عورات، ويكون من الأمور المتفق على تحريمها، بحيث يجب تركها، وأن يكون المعروف واجبًا فعله، بحيث يأثم تاركه، ويكون المنكر واجبًا تركه، بحيث يحرم فعله، وهذا يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه، وعدم الإنكار فيما فيه سعة بين أهل العلم، طالما صح الدليل مع النص الصريح.

التَّكْلِيفُ الثَّالِثُ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾

والمراد: الصبر على أذى الناس الذين يدعوهم إلى الخير، حين يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، والصبر أيضًا على المحن والابتلاءات، وعلى أداء الطاعات، وترك المحرمات، والصبر على قبول الحق من الناس، وذلك بهضم النفس وعدم التكبر عن قبول ما أوجبه الشرع مما يجب الحرص عليه والعمل به.

فالذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لابد أن يصاب بأذى من الناس، ولذا فقد نصح لقمان ابنه بالصبر على ما يصيبه، وهو يدعو إلى الله عز وجل، وأخبره أن الصبر على تبليغ الدعوة من عزائم الأمور، أي من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفقّ لهذا الصبر إلا أهل العزائم. قال تعالى:

١٨- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ[1] خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

التَّكْلِيفُ الرَّابِعُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (ولا تصاعر) فعل أمر من صاعر، وهو لغة أهل الحجاز، وقرأ الباقون (ولا تصعِّر) من صعَّر وهو لغة تميم، والصعْر: مرض يصيب الإبل في أعناقها فيميِّلها، والمعنى: لا تُمل خدك للناس، أي: لا تُعرض عنهم بوجهك تكبرًا.

أي لا تتكبر، فتحتقر الناس، وتُعْرض عنهم بوجهك تجاهُلًا، فلا تُمِلْه وتعبس بوجهك تكبُّرًا وتعاظمًا، وأقبل على الناس تواضعًا إذا كلَّموك، ولا تعطهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون.

والقراءة الأخرى: (ولا تصاعر) والصَّعر: داء يصيب البعير فيلوي عنقه، وقد شُبِّه به المتكبر.

فالمعنى: ولا تَلْوِي وجهك إعراضًا عن محبيك وعمن سلَّم عليك، ولا تحتقر الضعيف والفقير، واجعل اهتمامك بالجميع سواء، وألن جانبك وابسط وجهك؛ فإن **«تبسمك في وجه أخيك صدقة»** والكبر هو رفض قبول الحق وعدم التسليم به، وازدراء الناس واحتقارهم:

١- في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»**(١).

٢- وعنه ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**، قال رجل: إن الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال ﷺ: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»**(٢).

ومن لوازم الكبر: الإعجاب بالنفس والفخر والخُيلاء والغرور:

٣- وفي حديث أبي ذر ﷺ: ثلاثة يبغضهم الله، وذكر منهم المختال الفخور، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٣).

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يتبختر يمشي في بُردَيْه قد أعجبتْه نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»**(٤).

- وفي حديث أبي هريرة أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: **«رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»**(٥).

---

(١)، (٢) «صحيح مسلم» برقم (٩١).

(٣) من حديث طويل أخرجه الحاكم على شرط مسلم (٢/ ٨٨)، وأخرجه أبو داود والنسائي بتصحيح الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٩١).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٨٨) و«صحيح البخاري» برقم (٥٧٩٠)، والمسند (٨١٧٧، ١٠٨٦٩).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٢).

التَّكْلِيفُ الْخَامِسُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾

أي: لا تمشِ في الأرض بين الناس مُسرعًا مغرورًا، فخورًا مختالًا متكبرًا متبخترًا؛ معجبًا بنفسك، ناسيًا مَنْ أَنْعَمَ عليك، فأنت - أيها المغرور - مهما ضربْت الأرض بقدميْك، ومهما أسْرعت بسيارتك أو درّاجتك أو طائرتك، ومهما زُغت بها يمنة ويسرة، ومهما تقدمْت على غيرك في قيادتك لمرْكبتك، فإن الأرض أقوى منك، ولن يمكنك خرقها بقدميك، ولا بمركبتك، ومهما أسرعت في خَطْوِك فإن الجبال أطول منك، فارفق بنفسك يا مغرور!! فالله تعالى لا يحب كل مُعْجَبٍ بنفسه، متعالٍ على الناس، متكبر عليهم، فخور مغتر، يتطاول على الناس بعدِّ مزاياه ومناقبه، قال تعالى حاثًّا على التواضع والسكينة، ناهيًا عن البطر والتكبر: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء].

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] . قال تعالى حاثًّا على التواضع والسكينة ناهيًا عن البطر والتكبر:

التَّكْلِيفُ السَّادِسُ: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾

١٩- ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

أي: ولا تضرب الأرض بقدمك فهي أصْلب منك، وتوسَّط في مشيك بين الإسراع والتأني؛ فالإسراع من الخيلاء والعجَلة، والتأني من الضعف والوهَن، وكلاهما مذموم، وكن في مشيك بين السكينة والوقار؛ لأن الإسراع يذهب ببهاء المؤمن، والبُطء صفة المتناومين، وخير الأمور العدل والوسط، وليكن مشيك برفق؛ فعباد الرحمن يمشون على الأرض هونًا.

طبِّق هذا وأنت تسير على قدميك، أو بسيارتك، أو بدراجتك، أو في سفينتك أو بطائرتك، أو على دابتك، وغير ذلك؛ فإن هذا من أخلاق المؤمن، وحسن تصرفه، وتعامُله مع الناس، وقيادة السيارة تدل على أخلاق قائدها، فيُحكم بالتهور والطيش على من يتلوَّى في الشارع كالثعبان ينفذ من كل جانب.

ويُحكم بالحماقة على من يريد من الناس أن يوسِّعوا له الطريق، كأنه يمشي وحده في الشارع.

ويُحكم بحسن الأخلاق على من يتفادى أخطاء الآخرين، ويفسح لهم، ويعطيهم حقهم في الطريق، ولا يعتدى عليهم، ولا يُضيّق عليهم فيضطرهم إلى أضيقه.

التَّكْلِيفُ السَّابِعُ: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾

غضُّ الصوت معناه: عدم رفعه بالكلام، وعدم المبالغة فيه، أو التشدُّق به، أدبًا مع الله تعالى ومع الناس، فإن أفظع الأصوات وأنكرها، صوت الحمير، ولو كان في الضجيج ورفع الصوت فائدة ومصلحة، لما اختصّ بذلك الحمار، وارتفاع الصوت دليلُ ضَعْفِ الحجة، واهتزاز الشخصية، وعدم الثقة بالنفس.

وكان النبي ﷺ يحب الصوت الخفيض، ويكره الصوت الجهور، وأقبح الأصوات وأبغضها صوت الحمار؛ لأن له زفيرًا وشهيقًا كصوت أهل النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان].

ولم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخّابًا في الأسواق.

قال الثوري: صياح كل شيء تسبيح، إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان، ولذا سماه الله منكرًا.

وفيه تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيلُه بالنهيق، وهذا غاية الكراهة، والمراد: إنكار صوت جنس الحمير، ولذا وحَّد لفظ الصوت وجمع لفظ الحمير، كما شبَّه النبي ﷺ العائد في هبته بالكلب يعود في قيئه[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا سمعتم صياح الديكة بالليل، فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا»**[2].

وغضُّ الصوت من صفات المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظَر الحديث في: البخاري عن ابن عباس برقم (٢٥٨٩، ٢٦٢١) ومسلم (١٦٢٢) وأبي داود (٣٥٣٨) وابن ماجه (٦٤٨٥) والترمذي، «تحفة الأحوذي» (٤/ ٥٢٢) وهو في سنن الترمذي برقم (١٢٩٨) و«المسند» (٢٥٢٩) وابن حبان (٥١٢١) و«الكبرى» للنسائي (٦٤٨٦).

(٢) «صحيح البخاري»(٣٣٠٣) و«صحيح مسلم»(٢٧٢٩) و«سنن أبي داود» (٥١٠٢) و«سنن الترمذي»(٣٤٥٩) و «سنن النسائي الكبرى» (١١٣٩١) و«المسند» (٨٠٦٤) وابن حبان (١٠٠٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [الحجرات: ٣].

ورفع الصوت والصياح ليس من صفات العقلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات].

قال الحسن: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فردَّ الله عليهم بأنه لو كان خيرًا لفضلَتْهُم به الحمير.

وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير: أوله زفير، وآخره شهيق.

وهكذا: فقد أمر لقمان ابنه بالتوحيد ونهاه عن الشرك، وأمره ببر الوالدين وشكرهما، وعدم طاعتهما في المعصية، وأمره بمراقبة الله تعالى في السر والعلن، ونهاه عن التكبر وأمره بالتواضع، وأمره بالمعروف، وإقامة الصلاة، والصبر على المكاره.

خَامِسًا: وَصَايَا أُخْرَى لِلُقْمَانَ لَيْسَتْ فِي الْقُرْآنِ:

وبعد: فهذه وصايا لقمان لابنه، أودعها الله كتابه؛ ليتلوها الناس قرآنًا إلى يوم الساعة، ومن وصاياه له:

١- يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء.

٢- يا بني، إن الله تعالى إذا استُودع شيئًا حفظه[1].

٣- يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام -يعني: سلِّم عليهم- ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجرِ سهمك معهم -يعني: أقم بينهم- وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوَّل عنهم إلى غيرهم[2].

٤- يا بني، إن الحكمة أجْلَسَت المساكين مجالس الملوك[3].

---

(١) جاء هذا في حديث أخرجه أحمد في «المسند» عن ابن عمر (٢/٨٧) برقم (٥٦٠٥، ٥٦٠٦) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وقد صححه الألباني عن ابن عمر في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٠٨) وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٥٣١) وفي عمل اليوم والليلة (٥١٧).

(٢) رواه ابن المبارك في كتاب «الزهد» عن عون بن عبد الله (٣٣٢).

(٣) رواه السيوطي في «الدر المنثور» عن الثوري بن يحيى (٥/٣١٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ (٣١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة لقمان هي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب المصحف، والسابعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصافات، وقبل سورة سبأ.

وهي أربع وثلاثون آية عند أهل الشام والبصرة والكوفة، وثلاث وثلاثون آية عند الحجازيين.

وكلماتها خمس مئة وثمان وأربعون كلمة، وألفان ومئة وعشرة أحرف.

ولم يُعرف لها اسم آخر غير (سورة لقمان)، وسُمِّيت كذلك لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم.

وسبب نزول السورة: أن قريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه، على وجه الاختبار والتعنت والتعجيز.

وفي حديث البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر، نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات[1].

وسورة لقمان سورة مكية، نزلت على قوم وثنيِّين يعبدون الحجارة والأصنام، شأنها شأن السور المكية، فهي تغرس في نفوس الناس أصول الإيمان المتعلقة بالتوحيد، والوحي والرسالة، واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء. فتخاطب الفطرة البشرية والعقل البشري بدلائل الإيمان، ومؤثرات الكون الناطقة بوحدانية الخالق العظيم، المستحق للعبادة دون سواه.

١- فيذكر الله سبحانه وتعالى في السورة دلائل الوحدانية والقدرة في خلق السَّمَوَات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والأشجار.. إلخ وهذا بالإضافة إلى ما جاء في المقطع الثالث من السورة بذكر جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى.

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٤٦١) في صفة الصلاة، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٣٠). وإسناده ضعيف.

وعن هذا وذاك يقول سبحانه ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٢- وتذكر السورة دلائل النبوة والرسالة في هذا الكتاب المحْكَم، ومعارضة المشركين للوحي والنبوة.

٣ - وتذكر اليوم الآخر، فتحذِّر من هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه والد ولده، ولا مولود والده.

والناس تجاه هذه العناصر الثلاث منهم المؤمن المنعَّم يوم لقاء الله ومنهم الجاحد المعذَّب في نار الجحيم.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع رئيسة**:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الحادية عشرة، وهذه الآيات التي صُدِّرت بها السورة تمهِّد لقصة لقمان، وهي تنوِّه بهدْي القرآن الكريم في جعل الناس **قسمين**:

أ- المحسنون المقيمون للصلاة، المؤمنون بالله واليوم الآخر، مع بيان الجزاء الحسن، المعدِّ لهم في الدار الآخرة.

ب- والمجرمون الذين يشترون الضلالة بالهدى، ويصدون الناس عن سبيل الله، مع بيان الجزاء السيء المعدِّ لهم في الدار الآخرة كذلك.

وذلك ليعلم الناس أن الهدَى هدى الله، وأنه لا يُلتفت إلى أخبار أهل الضلال.

إلى جوار تذكير الناس بالمؤثر النفسي، والعامل الروحاني، وهو أن الخالق لهذا الكون هو المستحق للعبادة دون سواه.

المقطع الثاني: يتناول قصة لقمان الحكيم في وصاياه لابنه في جانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والآداب، وذلك في ثماني آيات، من الآية الثانية عشرة إلى الآية التاسعة عشرة من السورة، وجاء في ذلك أربع وصايا هي: النهي عن الشرك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب دقيق وجزاء عادل، وجاء في الوصية الرابعة: سبعة من التكاليف الشرعية، هي: إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المكروهات، وعدم التكبر، وعدم

الإعجاب بالنفس، والتواضع والسكينة، وخفض الصوت بالكلام. .

المقطع الثالث: يسوق جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى، في تسخير السَّمَوَات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والفُلْكِ التي تجري في البحار بقدرة الله تعالى، إلى جوار بيان علم الله تعالى الشامل المحيط، ونعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ويتخلل ذلك الحض على إسلام الوجه لله، وبيان أن الله تعالى هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ومن ذلك وجوب اللجوء إلى الله تعالى في حالات الشدة والرخاء معًا.

وقد استغرق هذا المقطع من الآية العشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

المقطع الرابع: يمثل ختام السورة، ويهدف إلى معالجة القلوب بدعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، والخوف من لقائه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وتقرير المسؤولية المستقلة، ومن ثَم إلى علوم الغيب الخمسة التي ذُكرت في نهاية السورة،وهي: وقت قيام الساعة، ووقت نزول المطر، وعلم ما في الأرحام، قبل تكوينه وبعد تكوينه، وعلم ما يحدث في المستقبل، وفي أيِّ مكان يموت الإنسان، وهذا المقطع جاء في الآيتين الأخيرتين من السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُنْتَفِعُونَ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ: صِفَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ

١-٣- ﴿الٓمٓ(١) ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً(٢) لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾

تبدأ السورة بحروف الهجاء الثلاثة: الألف، واللام، والميم؛ لبيان أن القرآن المعجز، مؤلف من جنس هذه الحروف، ولجذب المستمع إلى تدبره وتأمله، والله أعلم بمراده.

ثم إن هذا القرآن -المكون من هذه الحروف- كتاب محكم، دقيق مبدع، مبرأ من الخلل والنقص، والتناقض والاختلاف، محفوظ من التحريف والتغيير والتبديل، موصوف بالحكمة البالغة، مشتمل عليها، ناطق بها، فيه سعادة الدنيا والآخرة، والحكيم بمعنى: المحكَم، أي: المبرأ من الكذب والتناقض.

ومن إحكامه: أنه جاء بأجلّ الألفاظ وأفصحها وأبينها الدالة على أجلّ المعاني وأحسنها، ومن ذلك: أن كل ما فيه مطابق للواقع، ولم يخالف ما جاءت به الكتب السابقة، ومن ذلك: أنه يأمر بكل خير وينهي عن كل شر، ويجمع بين الترغيب والترهيب، والقصص والأحكام، ويدعو إلى إعمال الفكر والعقل، وليس منه اختلاف ولا تناقض.

وقد أنزل الله هذا الكتاب؛ ليكون هداية ورحمة للذين يعملون الحسنات، ويحسنون في أفعالهم وأقوالهم، وقد خصهم الله تعالى بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بهذا الكتاب، حيث ينتفع بما في القرآن مِنْ هداية، مَنْ عَلِم الله منهم قبول الهداية، وهم المتقون المحسنون، أما غيرهم فلا يتأثرون به، ولا تُجدي فيهم دعوة ولا موعظة، ومن هُدِيَ فقد أفلح وفاز ونجا، ومن ضلَّ فقد خاب وخسر وهلك، فالناس -إذن- فريقان: أهل السعادة وهم المحسنون، وأهل الشقاء وهم المعرضون المستكبرون عن قبول الدعوة.

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على ألف، ولام، وميم بدون تنفس، وقرأ غيره بعدم السكت.

(٢) قرأ حمزة برفع التاء من (ورحمة) على أنه خبر ثان لاسم الإشارة، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رحمة، وقرأ الباقون بالنصب على الحال.

هذا: وقد عد المصحف الكوفي وحده (الٓمٓ) آية، وتركها غيره.

وفي الآيتين التاليتين وصف للمحسنين بثلاثة أوصاف، قال تعالى:

٤، ٥- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

وقد وصف الله سبحانه الفريق الأول من الناس، وهم أهل الإحسان والإيمان والتقوى، بأوصاف **ثلاثة**:

الوصف الأول: أنهم يقيمون الصلاة المشتملة على عبادة القلب واللسان والجوارح، وفيها الإخلاص ومناجاة العبد ربه، وتجديد الصلة به بين الحين والآخر.

فيحافظون على أدائها في أوقاتها المحددة، مستوفية للشروط والأركان، والسنن والواجبات والآداب؛ حتى تصل العبد بربه، وتأخذ بيده إلى الابتعاد عن الفواحش والمنكرات، مع حرصه على النوافل الراتبة وغيرها.

الوصف الثاني: أنهم يؤتون الزكاة المفروضة عليهم، فيؤدونها لمستحقيها؛ لتحقيق التكافل والتعاون في المجتمع، وتطهير النفس من الشح والبخل، وزكاة المال ونمائه، وإزالة ما بين الغني والفقير من حقد وحسد وبغضاء، مع التصدق بفضول أموالهم، وصلة أرحامهم وأقاربهم.

الوصف الثالث: أنهم يصدِّقون باليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشر، وحشر، وحساب، وجزاء على الأعمال في الجنة أو النار، وهم يوقنون بذلك يقينًا ثابتًا، ولا يظنون ظنًّا فيه ريب أو شك، وهم يعملون لهذا اليوم راغبين في الثواب من الله تعالى.

وخُصت هذه الثلاثة بالذكر دون غيرها لفضلها وأهميتها.

فالمعنى: أن الله تعالى جعل هذا القرآن كتاب هداية ورحمة لمن أقبل عليه وأحسن العمل، فأقام الشرائع، وامتثل الأوامر، واجتنب النواهي، وتخلَّق بأخلاقه، وتأدب بآدابه، وأيقن بما عند الله من نعيم، فرغب فيه، ولم يراءِ أحدًا، ولم يُرِد جَزاءً ولا شكورًا من الناس.

وهؤلاء المتصفون بالأوصاف السابقة على بيان من ربهم ونور، فهم الجامعون بين

العلم والعمل، وهم الفائزون في الدنيا والآخرة.

ولفظ (المفلحون) من الفلاح، وهو الظفر والفوز بالجنة ورضى الله تعالى، والسلامة من سخطه وعقابه.

وقبل أن يبيِّن سبحانه ما أعده للمحسنين في الآخرة من نعيم، عجَّل بذكر الفريق الآخر، وهم:

غَيْرُ الْمُنْتَفِعِينَ بِالْقُرْآنِ وَصِفَاتُهُمْ

٦، ٧ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ[١] عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا[٢] هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ[٣] وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾

والفريق الآخر: هو الذي يشتري لهو الحديث ومُنْكَره؛ لِيُضل غيره، ويَضل هو عن سبيل الله دون علم بعواقب الأمور، وهذا الفريق يعاجله ربه بالعقوبة المهينة مع التحقير له، والتهكم الواضح به؛ لاستهزائه بآيات الله تعالى.

ومجموع الروايات في أسباب النزول تدل على أن الآيتين: السادسة والسابعة، نزلتا في شأن النضر بن الحارث، وتُبَيِّنان أنه كان يهدف إلى إضلال الناس، وصرْفهم عن الدخول في الإسلام، سواء أكان هذا عن طريق إلهائهم بالقصص وأخبار ملوك الفرس، أم عن طريق الجواري والمغنيّات؛ لفتنتهم وإغوائهم.

فالمراد بالناس عند نزول الآية: النضر بن الحارث، وهو يشمل كل من حذا حذوه في صرف الناس عن الإسلام إلى غيره، أو صرفهم إلى الفتن والمضلات من المعاصي والذنوب، فهو ضالٌّ مضل.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بخلف عنه بفتح الياء من (ليَضل) مضارع ضل، وقرأ الباقون بضم الياء. مضارع أضل، وهو الوجه الثاني لرويس.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بنصب الذال من (ويتخذها) عطفًا على (ليضل)، والباقون برفعها عطفًا على (يشتري).

(٣) قرأ نافع بإسكان الذال من (أذنيه)، والباقون بضمها، وقرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير، والباقون بعدم الصلة.

ومن أشهر ما ورد في ذلك **روايتان تؤديان معنى واحدًا**:

إحداهما: أنها نزلت في النضر بن الحارث، كان تاجرًا يأتي (فارس)؛ ليشتري أخبار الأعاجم، ويكتب الكتب من الحيرة والشام فيحدِّث بها قريشًا، ويكذِّب بها القرآن، ويقول لهم: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رُستُم وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن[1].

وثانيهما: أنها نزلت في النضر بن الحارث -أيضًا- اشترى قينة -أي: مغنية- وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول لها: أطعميه واسقيه وغنِّيه، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه[2].

والآية عامة في أمة محمد ﷺ من كل من تنطبق عليه الآية، ممن يضلون عن سبيل الله بكفر أو اتخاذ الآيات هزوًا، أو ليعطلوا عبادة، أو يقطعوا وقتًا في الاستماع إلى منكر مكروه؛ ليكونوا من جملة العصاة.

لهو الحديث: هو كل حديث باطل منكر يلهي الإنسان، ويضيِّع وقته، ويقسِّي قلبه، ويصدُّه عن الحق، ويضلُّه عن طريق الخير والهدى.

والقراءة السبعية الأخرى (لِيَضل) بفتح الياء، والمعنى: ليثبُت هو على ضلاله، ويرْسخ فيه.

فالضلال أو الإضلال عن سبيل الله يكون بعدم الدخول في الإسلام، أو عدم الاستماع للقرآن، أو صد الناس عن ذلك.

وفي معناه: إدمان سماع الباطل، واللهو الماجن، بما يترتب عليه من ترك الصلاة، أو تأخيرها عن وقتها، أو تعليم الناس سُنَّة سيئة، كالشرب والقمار، أو ارتياد دور الفسق والفجور، وما إلى ذلك.

ومن ذلك الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة عن طريق الحق، ويدخل في ذلك كل

---

(١) «أسباب النزول» الواحدي ص ١٩٧ و«زاد المسير» (٦/ ٣١٥) عن ابن السائب ومقاتل بدون سند، ورواه البيهقي في «الشعب» (٥١٩٤).

(٢) «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي ص١٧٢ وهو مروي عن ابن عباس.

كلام محرم، وكل لغو باطل، وكل كفر وفسوق وعصيان.

فمعنى الآية: ومن الناس من يستبدل كل ما يلهي عن طاعة الله تعالى بما يصدُّ عن مرضاته؛ ليضل الناس عن طريق الهدى إلى طريق الهوى، ويتخذ آيات الله سخرية، أولئك لهم عذاب يهينهم ويخزيهم.

ومعنى يضل نفسه، أو يضل غيره بغير علم، أي: إنه يفعل ذلك عن جهل، فهو محجوب عن الحق بسبب اختياره طريق الضلال، فلا يتصرف عن علم ولا عن حكمة، وحَسْبُ المرء من الجهل والضلال أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، ويختار ما يضر على ما ينفع، فكأنه غير عالم بسوء عاقبته.

ونظرًا لما قيل: من أن النضر كان يحاول منع الناس من الدخول في الإسلام، عن طريق إغوائهم وإلهائهم بالغناء، فقد ذكر بعض المفسرين أن الآية نزلت في تحريم الغناء، وأنه هو المراد بلهو الحديث، واستدلوا على ذلك:

١- بما قاله أبو الصهباء: سألت ابن مسعود ﷺ عن هذه الآية فقال: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو -يرددها ثلاث مرات[(١)].

وبهذا فسرها ابن عباس، وجابر بن عبد الله، ومجاهد، وعكرمة، ومكحول، وعمرو بن شعيب.

٢- وقال الحسن البصري: أُنزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[(٢)].

٣- وسئل القاسم بن محمد عن الغناء فقال: أنهاك عنه، وأكرهه لك، قال السائل: أحرام هو؟ قال: انظر يابن أخي، إذا ميَّز الله الحق من الباطل، في أيهما يُجعل الغناء؟[(٣)].

٤- وعن رافع بن حفص المدَني قال: أربع لا ينظر الله إليهن يوم القيامة: الساحرة، والنائحة، والمغنِّية، والمرأة مع المرأة، وقال: من أدرك ذلك الزمان فأولى به طول الحزن[(٤)].

---

(١) «تفسير الخازن»، وأخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٠٩) وابن أبي الدنيا (٢٦) والطبري (١٨/ ٥٣٥) والحاكم (٢/ ٤١١) والبيهقي (٥٠٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١١/ ٦١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا برقم (٤٦) وقال محققه: إسناده لا بأس به.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا برقم (٥٩) وقال محققه: إسناده صحيح.

٥- وعن نافع قال: كنت أسيرُ مع عبد الله بن عمر ﷺ في طريق، فسمع زَمَّارة راع، فوضع إصبعه في أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع، أتسمع؟ قلت: لا، فأخرج إصبعيه من أذنيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع(١).

قال القرطبي: هذه إحدى الآيات التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه.

ولا يُختلف في تحريم الغناء الذي يحرك النفوس إلى الشهوة، ويبعثها على الغزل والمجون.

فأما ما سَلِمَ من ذلك، فيجوز منه القليل في أوقات الفرح، كالعرس والعيد، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق(٢).

وعند السفر لقطع الطريق، وهو يشير إلى ما جاء في الصحيحين من جواز الضرب بالدف في العيديْن والعرس، والتغني بألفاظ ليس فيها العشق والهيام، وليس فيها زرع الحب غير المشروع بين الجنسيْن، ويكون ذلك من الرجال للرجال، والنساء للنساء، من غير احتراف لمهنة الغناء؛ لأنه كسْب غير مشروع، وقد نهى النبي ﷺ عن ثمن الكلب وكسب المزمار.

ومعنى الآية على هذا: ومن الناس من يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على سماع القرآن.

على أن الناس توسعت في أمر الغناء، فأصبح يُضم إليه الرقص والتكسر، والغمز واللمز، والعُري، وكشف العورات، والشرب، وآلات الطرب واللهو، وأصبحت الموسيقى من لوازمه وخرج الناس بذلك عن الكلام الحسن، إلى الكلام القبيح والأفعال القبيحة، وخرجوا من السماع إلى المشاهدة، ورؤية الأحضان والقبلات الحارة، كأنهم زوجيْن في غرفة النوم، والأمر زاد وتفشى، وكأنه صار معروفًا، وعكسه صار منكرًا! نسأل الله العفو والعافية.

فالأغاني داخلة في الآية، وقد استعملها (النضر) للمنع من الهدى والخير، والصدّ عن

---

(١) ابن أبي الدنيا (٦٨) والبيهقي (١٠/ ٢٢٢) وفي «الشعب» (٥١٢٠) وهو عند أحمد (٨/ ١٣٢) برقم (٤٥٣٥) وأبي داود (٤٩٢٤) قال محققو «المسند»: حديث حسن.

(٢) ملخصًا من «تفسير القرطبي» (١٤/ ٥٤) وانظر: «تفسير الألوسي» (٢١/ ٦٧).

سماع القرآن، ففيها لهو وإعراض عن دين الله تعالى بوجه من الوجوه، سواء أكان ذلك للمؤمن بنقص إيمانه والحيلولة بينه وبين طرق الهدى، أم كان للكافر بثباته على الكفر ورسوخ قدمه فيه، وهذا حال الأشقياء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦، ١٧٥].

- وإذا تتلى على الكافر بالله ورسوله آيات القرآن، وهي طريقُه إلى الإسلام والعمل بما فيه، أعرض عنها وتكبر، غير مبال ولا عابئ بها، كأنه لم يسمع شيئًا، كأنَّ في أذنيه صممًا، ومن كانت هذه حاله فبشره -أيها الرسول- بعذاب مؤلم موجع في النار يوم القيامة.

وحب الغناء والقرآن لا يجتمعان في قلب مؤمن، فعاشق الأغنية يضيق ذرعًا بسماع القرآن، قد يستمع ويشاهد -ليلة كاملة- مسرحية، أو فيلمًا، أو حفلة غنائية راقصة، مع شعوره بالراحة النفسية، ولكنه لا يطيق الاستماع إلى القرآن أو خطبة الجمعة، أو درس ديني لمدة نصف ساعة مثلًا.

فإذاعة القرآن الكريم -مثلًا- جامعة إسلامية، فيها شتى المعارف والعلوم الضرورية لثقافة المسلم، وبالإحصاء والتتبع، لا تجد إلا شريحة قليلة من الناس هي التي تواظب على متابعتها، وبعض الناس لا يحاول أن يغذي قلبه وعقله منها ولو ساعة من نهار.

وقد وصف الله تعالى حال محب اللهو والباطل، بأنه إذا تتلى عليه آيات القرآن أعرض عن طاعة الله وتكبر، غير متعظ ولا معتبر، كأنه لم يسمع شيئًا، كأن في أذنيه صممًا، ومن كانت هذه حاله فبشره -أيها الرسول الكريم- بعذاب موجع في النار يوم القيامة.

ومن العبث ما يُسمى بالغناء الديني، أو الأناشيد الدينية والتواشِح الدينية، إذا لازم أيّ منها آلات الطرب والموسيقى، فلا يليق أن نسبّح الله بالأنغام، ولا يليق أن يُتغنى بأسماء الله الحسنى، ولا يجوز مدح النبي ﷺ وإطراؤه بالنغم والطرب، ولا يليق بالعبادة أن يدخلها شيء من هذا القبيل، فمن أراد اللهو والغناء فليفعل، وإثمه عليه، ولكن لا يكون هذا باسم الدين، وقد يتخلل هذا الإطراء شرك صريح: أذكر أننا كنا نفطر في شهر رمضان، وأنا طفل صغير، على هذه الألفاظ يرددها في المذياع، الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب!! وهو يقول: (أغثنا أدركنا يا رسول الله) ما هذا الجهل؟ ما هذا العبث؟ ما هذه العقول التي لم تفرق بين الألف والعصا؟! هل الرسول يغيث أحدًا؟ هل الرسول

يدرك أحدًا؟ فما الذي يفعله رب العالمين إذن؟.

وأذكر وأنا في مقتبل حياتي كنت أخطب الجمعة في قوم من أهل التصوف، وأقول: إن طلب المدد لا يكون إلا من الله تعالى، وإذ بصوت يردّ عليّ مباشرة اثناء الخطبة وهو يقول (مدد يا أبا هاشم) وهو من مشايخهم!.

وَوَضْعُ البشارة موضع الإنذار من باب التهكم والسخرية.

وقد تضمنت الآية ذم المشتري من خمسة وجوه:

١- التولي عن الحكمة. ٢- الاستكبار عن الحق. ٣- الإعراض عن سماع القرآن.

٤- المبالغة في هذا الإعراض بعدم المبالاة بها، وعدم الالتفات إليها.

٥- التهكم بهذا المعرض، والاستهزاء به[1].

والآية دليل على كفر من نزلت فيه هاتان الآيتان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾ [الجاثية].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ﴾ [الكهف: ٥٧].

ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ

٨، ٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

أما أهل السعادة فإنهم يهتدون بكتاب الله عز وجل، وينتفعون بسماعه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ

---

(١) المعنى مقتبس من «البحر المحيط» (٧/ ١٨٤).

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وقد بيَّنت الآيات جزاء المحسنين بعد ذكر جزاء الكافرين.

وبعد أن فَصَلت السورة بين المؤمنين وجزاءهم، بذكر صفات الكافرين المستهزئين وجزاءهم، بيَّنت أن أهل السعادة الذين صدَّقوا بالله ورسله، وعملوا الأعمال الصالحة، لهم نعيم دائم في جنات يتمتعون فيها بما لم يخطر لهم على بال، وحياتهم في تلك الجنات حياة أبدية لا تنقطع ولا تزول، وقد وعدهم الله بذلك وعدًا حقًّا، ووعده سبحانه لا يتخلف، وهو العزيز في أمره الذي يقهرُ كل شيء، ويدينُ كل شيء لجبروته، فهو الغالب الذي لا يُغلب ولا يُقهر، الحكيم في تدبيره وفي كل ما يصدر عنه سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

الْقُرْآنُ يُخَاطِبُ الْعَقْلَ مِنْ خِلَالِ مَخْلُوقَاتٍ أَرْبَعَةٍ

١٠- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

ومن حكمة الله تعالى، وعظيم قدرته، وبراهين توحيده: خلْق السَّمَوَات والجبال والدواب والماء، وهي نعم أربع، سخرها الله سبحانه لنفع الإنسان؛ حيث يلمس أثرها بشكل مباشر كالماء، أو بشكل غير مباشر كالسَّمَوَات.

وأولى هذه النعم: السَّمَوَات:

فقد خلقها الله تعالى في الفضاء الذي لانهاية له، على عِظمها، وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها، ورفعها بغير عمد كما تشاهدونها، فهي مخلوقة بدون دعائم ترتكز عليها، أو تستند إليها، بقدرة قادر، وهي ثابتة لا تزول إلى يوم القيامة، ولا تقع على الأرض إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد: ٢].

وقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾ [فاطر: ٤١]

ولم يدَّعِ أحد من البشر أنه خلق السَّمَوَاتِ، سواء أكانت هي هذه الكواكب، والنجوم، والمجرات السابحة في الفضاء الذي لا يعلم مداه إلا الله تعالى، أم كانت هذه القبة التي تراها العين، وفيها خلائق ضخمة هائلة، فهي معلقة في الفضاء بغير عمد تستند إليها على كلا المعنيين، مع أن الله تعالى زيَّنها بالنجوم للناظرين، فهي ذات منظر خلَّاب، وجمال بديع، لا تملُّ العين من النظر إليه.

والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائد على السَّمَوَاتِ، أي: إنكم تشاهدونها بدون عمد.

وقيل: إنه عائد على العمَد، أي: خلقها بغير عمد مرئية.

فيكون المعنى: أن السماء لها عمَد ولكنها غير مرئية، والمعنى الأول أصح، وعليه جمهور أهل العلم.

قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية، ولا غير مرئية[١].

ثانيتها: الجبال: وهي الرواسي التي أثقلت الأرض وزادتْها ثباتًا؛ لئلَّا تضطرب بأهلها على وجه الماء، وهي جبال عظيمة، ثبّت الله بها جميع أرجاء الأرض وأنحائها.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لئلَّا تميد بكم، ولكي تستقر الأرض بساكنيها.

ونظرة علماء طبقات الأرض: أن هذه الجبال تضاريس في قشرة الكرة الأرضية تنشأ من برودة جوف الأرض، فتنكمش القشرة الأرضية وتتجعَّد، وتُحْدِث المرتفعات والمنخفضات وفق الانكماشات الداخلية، والقرآن يقرر أن هذه الجبال تحفظ توازن الأرض؛ لئلَّا تتأرجح بالخلق، وتتحرك بهم، فتفسد حياتهم.

قال الفخر الرازي: واعلم أن الأرض ثباتُها بسبب ثِقَلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها الله تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة، كما نرى الأرض الرملية، يتنقل الرمل فيها من موضع إلى موضع، فهذه هي حكمة إرسائها[٢].

---

(١) الطبري (٢٠/ ١٣٢).

(٢) «التفسير الكبير» (٢٥/ ١٤٣).

والجبال إحدى عجائب الكون، ولم يدَّعِ أحد من البشر أنه خلقها.

ثالثها: الدواب: فقد نشر الله تعالى في الأرض مختلف أنواع الدواب التي تعقل والتي لا تعقل، وسخَّر الحيوانات لخدمة الإنسان، ولمصالحه ومنافعه، ولا يعلم عددها وأشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولم يدَّعِ أحد من البشر أنه خلق دابة من الدواب مهما كانت صغيرة الحجم، ولمّا بثّ الله سبحانه الدواب في الأرض، عَلِمَ أنه لا بدلها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركًا، وأنبت به من كل زوج كريم.

رابعتها: الماء: وهو إحدى عجائب الكون، الذي لم يدَّعِ أحد أنه خلقه، وهو من أجلّ النعم على خلق الله، تفيض به البحار والأنهار والبحيرات، وتتفجر به العيون والآبار، وكله نازل من السماء وفق نظام دقيق.

وبهذا الماء حياة الإنسان والحيوان والنبات، به يُخرِج الله النبات من الأرض أصنافًا وأشكالًا كريمة، بهيجة نافعة، حسنة المنظر، أزواجًا مختلفة، منها الذكر والأنثى، مجتمعة أو منفصلة، في عود أو عودين، أو زهرة أو زهرتين، والثمرة لا توجد إلا بعد التلقيح، كما يحدث في الحيوان والإنسان والمعادن مما أنبته الله تعالى من الأرض، وقد خلق الله الناس -أيضًا- من نبات الأرض وأخرجه منها إخراجًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ [نوح].

ومع أن الإنسان يقف مشدوهًا مبهورًا أمام جهاز صغير يصنعه، ولكنه يمرُّ بهذه العجائب مغمَّض العينين، مطموس القلب، كأنه لإلفه لها يمر بشيء عادي لا يلفت النظر! وهذه الكائنات العظيمة مخلوقة لله تعالى:

١١- ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾

أي هذا الذي ذكرناه لكم من خلق السَّمَوَاتِ والأرض، والجبال والنبات، والإنسان والدواب والحيوان، وكل ما تشاهدونه في الكون، من خلق الله وحده دون أن يشاركه أحد في الخلق، فماذا خلقتْ آلهتكم التي تعبدونها من دون الله أيها المشركون؟ فإن كانت قد خلقتْ شيئًا فأروني إياه، وهذا سؤال للتهكم والسخرية بهم وبمن يُعبد من دون الله، بل الظالمون لأنفسهم بالشرك في ذَهاب بيِّن عن الحق؛ لأنهم وضعوا العبادة في

غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فهم أضل من الحيوان الأعجم، ومن المعلوم أن هذه الآلهة لم تخلق شيئًا، لأن المشركين أنفسهم يقرون بأن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]

لُقْمَانُ وَمَنَاقِبُهُ

١٢- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

هذه هي الجولة الثانية في السورة، للحديث عن لقمان الحكيم، الذي سُميت السورة باسمه؛ لذكر قصته فيها، وقد منّ الله على عبده لقمان بأن أعطاه العلم النافع والعمل الصالح، وأمره أن يشكره على ما أعطاه، ليزيده من فضله، وأخبر أن الشكر يعود نفعه على من شكر، وأن من لم يشكر يعود وبال ذلك عليه، والله غني بذاته عن شكر غيره له، حميد في صفاته وأفعاله.

وقد ورد أن قريشًا سألت النبي ﷺ عن لقمان، تريد أن تعرف خبره، فقصَّ الله وصيته في القرآن، وهي وصية حافلة بالخير والحكمة.

«ولقمان أعرف من حكماء اليونان الذين اشتهرت أسماؤهم، ففلسفتهم فكر غامض، ونظرات خيالية، أما لقمان فقد لخص الحق في منهج وجيز، أخذ به ابنه، وتركه تراثًا نبيلًا»[1].

وهو لقمان بن باعوراء، قيل: كان في زمن داود عليه السلام، وقيل: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد آتاه الله الفهم والعلم، وحُسن التعبير، والمعرفة والعمل، والإصابة في الأمور، وهو رجل حكيم في المعتقد والفقه والعقل.

وجمهور السلف على أن لقمان كان عبدًا صالحًا، ولم يكن نبيًّا.

ولم يصح سند الروايات التي قالت بنبوته، وهي عن عكرمة والشعبي.

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، «نحو تفسير موضوعي للقرآن» ص ٣١٧ .

١- جاء في الأثر: **«لم يكن لقمان نبيا، ولكن كان عبدًا كثير التفكير، حسَن اليقين، أحب الله فأحبه، ومنَّ عليه بالحكمة»**(١).

وقال قتادة في معنى الحكمة: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبيًّا ولم يُوحَ إليه(٢).

٢- وقال سعيد بن المسيب لرجل أسود: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإن من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومَهْجَع مولى عمر، ولقمان الحكيم، كان أسودًا نوبيًّا ذا مشافر(٣).

قالوا: والنجاشي كان رابعهم، أوتي الحكمة والعقل والفهم، كما أوتي لقمان الفقه في الدين وسلامة العقل.

وقيل: إنه كان عبدًا أسودًا، عظيم الشفتين، مشقق القدمْين.

٣- روى ابن جرير عن خالد الربعي قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أَخرِجْ أطيب مُضْغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذَبحها، فقال: أَخْرِجْ أخبث مُضْغتيْن فيها، فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتُك أن تُخرِج أطيب مُضغتين فيها فأخرجْتهما، وأمرتك أن تُخرِج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما؟ فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبُثا(٤).

٤- وعن عمرو بن قيس قال: مرَّ رجل بلقمان والناس عنده، فقال: ألستَ عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: ألست الذي كنت ترعى جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: تقوى الله، وصدْق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السكوت عما لا يَعْنيني(٥).

٥- وعن عبد الله بن دينار: أن لقمان قدم من سفر، فلقي غلامه في الطريق، فقال: ما

---

(١) القرطبي (١٤/ ٥٩).

(٢) الطبري (٢٠/ ١٣٤).

(٣) الطبري (٢٠/ ١٣٥) عن عبد الرحمن بن حرملة.

(٤) الطبري (٢٠/ ١٣٥) وابن أبي شيبة (١٣/ ٢١٤) وأحمد في «الزهد» ص ٤٩ .

(٥) الطبري (١٨/ ٥٤٨) وابن أبي الدنيا (١١٦، ٦٧٥).

٥- يا بني، اتخذ تقوى الله لك تجارة، يأتك الربح من غير بضاعة.

٦- يا بني، لا تكن أعجز من هذا الديك الذي يصوِّت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

٧- يا بني، اعتزل الشرَّ كما يعتزلك؛ فإن الشرَّ للشرِّ خُلِق.

٨- يا بني، عليك بمجالس العلماء، وبسماع كلام الحكماء؛ فإن الله تعالى يحيي القلب الميت بنور الحكمة.

٩- يا بني، إنك منذ نزلْتَ الدنيا استدبرْتها، واستقبلْتَ الآخرة، ودارٌ أنت إليها تسير أقرب من دار أنت عنها ترتحل.

١٠- يا بني، ارجُ الله رجاء لا تأمنُ فيه مكرَه، وخَفِ الله مخافةً لا تيأس بها من رحمة الله.

١١- يا بني، أكثر من قول: رب اغفر لي؛ فإن له ساعة لا يَرُدُّ فيها سائل.

١٢- يا بني، إني ذقتُ المرَّ كله، فلم أذق شيئًا قط أمَرَّ من الفقر.

١٣- يا بني، حملتُ الحجارة والحديد، فلم أجد شيئًا أثقل من جار السوء.

١٤- يا بني، إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريبة، فاغلبْهُ باليقين والنصيحة، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاغلبْهُ بذكر القبر والقيامة.

١٥- يا بني، لا ترسل رسولًا جاهلًا، فإن لم تجد حكيمًا فكن رسول نفسك.

١٦- يا بني، لا تأكل شِبَعًا على شبع؛ فإنك إن تُلقه للكلب، خير من أن تأكله.

١٧- يا بني، لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة.

١٨- يا بني، لا ترغب في وُدِّ الجاهل، فيرى أنك ترضى عمله.

١٩- يا بني، اتق الله، ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله؛ ليُكرموك بذلك، وقلبك فاجر.

٢٠- يا بني، إياك وشدة الغضب؛ فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم.

٢١- يا بني، لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاوِرْ في أمرك العلماء.

٢٢- يا بني، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وحشْوها الإيمان بالله، وشِراعها التوكل على الله، لعلك تنجو.

٢٣- يا بني، لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم.

٢٤- يا بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغْضِبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فاحذره.

٢٥- يا بني، إياك والدَّيْن؛ فإنه ذلٌّ بالنهار، وهمٌّ بالليل.

٢٦- يا بني، ارجُ الله رجاءً لا يُجَرِّئُك على معصية، وخَفِ الله خوفًا لا يُؤَيِّسُكَ من رحمته.

٢٧- يا بني، ما ندمتُ على الصمت قط، وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.

٢٨- يا بني، إياك والكذب؛ فإنه شهيٌّ كلحم العصفور، عما قليل يقْلي صاحبه.

٢٩- يا بني، احضُر الجنائز ولا تحضُر العُرس؛ فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعُرس يشهِّيك الدنيا.

٣٠- يا بني، لا تكن حلوًا فتُبلع، ولا تكن مُرًّا فتُلفظ.

٣١- يا بني، ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح، امرأة صالحة.

٣٢- يا بني، لا تجالس الفجَّار، ولا تماشهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم.

٣٣- يا بني، جالس العلماء وماشهم، عسى أن تنزل عليهم رحمة، فتصيبك معهم.

٣٤- يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخَرَست الحكمة، وقعدَتِ الأعضاء عن العبادة.

٣٥- يا بني، إنما مَثَلُ المرأة الصالحة كَمَثَلِ الدُّهْن في الرأس، يُليِّن العروق ويحسِّن الشعر، ومثل المرأة السوء كمثل السيْلَ، لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه.

٣٦- يا بني، إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشيت أسرعت، وإذا قعدت رفعت، وإذا غضبت أسمعت، وكل داء يبرأ، إلا داء امرأة السوء.

٣٧- يا بني، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صَلِّها واسترح منها؛ فإنها دَيْن، وصلِّ في جماعة، ولو على رأس زج[(١)].

---

(١) يُنظَر: أسانيد هذه الوصايا المختارة، في «الدر المنثور» (١١/ ٢٦٢) وما بعدها، ويُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/ ٤٠٣) وما بعدها، ويُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢١/ ١٧٠) وما بعدها. و«تفسير الألوسي» و«تفسير الفخر الرازي». في تفسير الآية.

سبعة أَدِلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: تَسْخِيرُ مَا فِي الْكَوْنِ لِخِدْمَةِ الْإِنْسَانِ

٢٠- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ[1] ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

وبعد وصايا لقمان التي جاءت معترضة بين دلائل التوحيد من صفحة الكون المنظور، تعود السورة إلى ما بدأته من استعراض سبعة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تعالى؛ وهي جملة من النعم يمتنُّ بها على عباده ليحمدوه ويشكروه:

ألم تروا - أيها الناس - أن الله ذلَّل لكم ما في السَّمَوَاتِ من الشمس والقمر والنجوم التي تزيِّن السماء، وتستضيئون بها في ظلمات البوادي والقفار، وسخر لكم السحاب والأمطار والرياح، وجعل السماء سقفًا محفوظًا، وذلَّل لكم جميع ما في الأرض من الدواب والجبال والبحار، والنبات والشجر والماء، والزروع والثمار والمعادن وغيرها؛ لمنفعتكم ومصلحتكم، وحفظ حياتكم ومعاشكم.

إسباغ نعم الله على عباده: والناس أمام شكر النعم فريقان:

فريق آمن وعمل صالحًا، وشكر نعمة الله عليه.

وفريق كفر وجادل، وأنكر فضل الله عليه.

فالنعمة هي: ما ينتفع به الإنسان، وما يتلذذ به من كل ما أحله الله تعالى، وهي نوعان:

١- نعمة ظاهرة مشاهدة محسوسة، كنعمة: السمع والبصر والمال.

٢- ونعمة باطنة خفية يجد الإنسان أثرها في نفسه دون أن يراها، كنعمة الإسلام والإيمان وحسن الأخلاق.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بفتح العين وضم الهاء من غير تنوين في (نِعَمَهُ) على التذكير، جمع نعمة، والضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقون بإسكان العين وتاء منونة منصوبة (نِعْمَةً) على التأنيث والإفراد، وهي مصدر أُريد به اسم الجنس

لقد أتم الله عليكم -أيها الناس- نعمةُ ظاهرة على الأبدان والجوارح، ومنها تسوية الأعضاء وحُسْن الصورة، وأنواع الرزق.

ومن النعم الباطنة: العقول والقلوب، وما ادَّخره الله تعالى لخلقه مما لا يعلمون، ومنها: ستر الذنوب، وتكفير الخطايا، وعدم التعجيل بالعقوبة، وحُسْن الخلُق، وصرف البلايا، ورضى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأعظم نعمة على الإنسان: هي نعمة الإسلام، والإيمان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، واليوم الآخر لإثابة المطيعين وعقاب العاصين.

عن ابن عباس ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة؟ فقال: **«أمَّا ما ظهر: فالإسلام، وما سوَّى الله من خلقك، وما أفضل عليك من الرزق، وأما ما بطن: فستْر مساوئ عملك ولم يفضحك»**[1].

وقال الضحاك: الباطنة: المعرفة، والظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء.

ومع هذه النعم وغيرها، فإن الناس لم يؤمنوا، فمنهم من شكر الله تعالى وقام بواجب النعمة عليه، ومنهم من كابر وعاند وجحد، وبدَّل نعمة الله كفرًا، فجادل في الله بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، فهو يجادل في توحيد الله تعالى، وفي إخلاص العبادة له بغير برهان ولا هدى، أي: بغير دليل ولا بيان، ولا كتاب يبيِّن حقيقة دعواه، وإنما جادل تقليدًا لغيره، أو تعصُّبًا لدراسته، أو اقتداءً بمجتمعه وأئمته، من غير علم ولا بصيرة.

قيل: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وأبيِّ بن خلف، وأمية بن خلف، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله تعالى، وفي صفاته بغير علم.

وقال القرطبي: نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته[2] أي: أخذته وهو يجادل في الله، كما

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٧) وكذا البيهقي في «الشعب» (٤٥٠٥) والطبري والديلمي (٧١٦٧) ورجَّح بعضهم أنه موقوف على ابن عباس.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٧٤).

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

التَّقْلِيدُ الأَعْمَى يَقُودُ إِلَى جَهَنَّمَ

٢١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة: كونوا على بصيرة من أمركم، واتبعوا ما أنزل ربكم على رسوله من الأحكام والشرائع، تعللوا بفعل الآباء والأجداد، وقالوا: هذا ما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة الأصنام، والتحاكم لغير الله تعالى، وسائر العادات والتقاليد، فليس لهم من حجة إلا اتباع الآباء والأجداد فيما كانوا عليه من ضلال.

وهنا يأتي استفهام تعجُّبي من فظاعة حالهم، وسوء جهلهم، أي: أيفعلون ذلك ولو كان الشيطان يزين لهم سوء أعمالهم من كُفرهم بالله تعالى، ويأخذ بأيديهم إلى عذاب النار المستعرة؟ فهم كانوا على ضلال، وأنتم خلَفٌ لهم فيما كانوا عليه، قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والآية لم تتحدث فحسب عمَّن كانوا معاصرين لنزول الوحي من الكافرين، بل تشمل كل: ملحد، أو علماني، أو شيوعي، وكل مشرك، أو كافر، وكل من يقلِّد غيره في معصية، أو ذنب صغير أو كبير، في كل زمان ومكان، ويدخل في ذلك الشرك والكفر دخولًا أوَّليًا، فهم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير.

التَّمَسُّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى سَبِيلُ النَّجَاةِ

٢٢- ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾

وإذا كان ما سبق هو حال المجادل الذي لا يستند إلى دليل صحيح في عدم إيمانه بالأدلة الكونية، وشكر النعم السابغة عليه، فإن المؤمن يستسلم لله تعالى استسلامًا مطلقًا، ويُحسن العمل له بإتقان، ويُخلص دينه لله، ويتوكل عليه، ويفوض أمره إليه،

فيُحْسن في عبادته وأقواله وأفعاله، ويُتْقن أعماله.

والمعنى أن من يخضع وينقاد لشرع الله تعالى بإخلاص في دينه واتباع لما جاء به رسول الله، فقد أسلم وجهه لله، فَسَلِم من الهلاك وفاز بالنجاة.

ومن إسلام الوجه لله: الإحسان في جميع العبادات، والقيام بالحقوق والواجبات، والإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذا المتمسك بدين الله تعالى قد أخذ بأوثق سبب موصل إلى ثواب الله ورضوانه، شأن المتوكل على الله الذي أخذ بالأسباب واحتاط لنفسه، فأمسك بحبل قوي متين، مأمون انقطاعه، وهو يتدلى من شاهق، فكأنه أخذ موثقًا من الله ألَّا يعذبه.

وإلى الله وحده تصير كل الأمور، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

ومن لم يسلم وجهه لله، ولم يكن محسنًا، لم يستمسك بالعروة الوثقى وكان من الهالكين، ومرده إلى الله، وإذا كانت هذه نهاية المحسن، فما نهاية من يكفر؟

٢٣- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ(١) كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

أما من استمر على كفره بعد أن بلَغتْه رسالتنا ودعوتنا، فلا يهمنَّك أمره، ولا تحزن على كفره؛ فإن أمر الله نافذ فيه، وهو لن يَفْلِت منا؛ لأنه مأخوذ بعمله ومجازى عليه، وقد أديتَ ما عليك -أيها الرسول- من البلاغ والدعوة، وعلينا الحساب والجزاء، والله عليم بما تكنه صدورهم من الكفر، وإيثارهم طاعة الشيطان على طاعة الله تعالى، قال تعالى:

٢٤- ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

وسوف يُمتَّع هذا الكافر في دنياه متاعًا قليلًا، يُخْدَع به، ثم تكون نهايته فظيعة، فيُدفع إلينا دفعًا لا يملك له ردًّا حين يرجع إلينا فنخبره بأعماله الخبيثة، ثم نجازيه عليها، فلا يهمنك -يا محمد- كُفْرُ مَن كَفَر، ولا ضلال من ضل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛

---

(١) قرأ نافع بالبناء للمجهول في (يحزنك)، والباقون بالبناء للمعلوم.

فإنا سننتقم منهم عاجلًا أو آجلًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾ [يونس].

الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٥- ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

ثم إنكم -أيها المشركون مع الله غيره في عبادته- مُقِرُّون ومُعترفون بأن الله تعالى هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، فهذه السَّمَوَاتُ والأرض، أنتم تقرُّون بضمائركم وألسنتكم وتعترفون بفطرتكم أن الله تعالى خالقها، وأنتم لا تدَّعُون خلْقها، ولم يدَّع أحد خلْقها إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلماذا هذا التناقض؟ وهذا الخلق دليل ماثل أمام العين، لا يحتاج إلا لمجرد النظر، فإذا سألتهم: من خلق هذا الكون بما فيه؟ فسيقولون: الله، فإذا قالوا ذلك، وألزموا أنفسهم بالإقرار، فقل لهم: الحمد لله على إلزامكم الحجة، وقيام الدليل عليكم من أنفسكم، من غير تلكؤ ولا تردد، والحمد لله على إظهار الحق، وإبطال الكفر، ولو كانوا يعلمون حقا أن الخالق الرازق، هو الذي يجب أن يُفرد بالعبادة، لفعلوا، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، فأشركوا معه غيره، وقبلوا هذا التناقض بعد إقرارهم بأن خالق هذا الكون هو الله، ومع ذلك فهم يعبدون غيره، فكأنهم لا يعلمون، إذ لا توجد ثمرة لهذا الإقرار.

الحمد الله على هذا الإقرار القهري أمام الدليل الكوني؛ فإن دعواهم ليست على حق، وأكثرهم لا يعلمون الحق، ولا يقدِّرون من له الحمد والشكر حق قدره، فلذا أشركوا معه غيره.

وقد عبَّر القرآن بلفظ ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾؛ لأن من العرب في وقت التنزيل من كان على التوحيد حنيفًا مسلمًا على ملة إبراهيم، مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، وقسٌّ، وورقة بن نوفل، وهو وصف عام، يتناول حال البشر جميعًا على مدى التاريخ؛ فإن السواد الأعظم من عالم اليوم لا يوحِّدون الله تعالى، وعلى رأسهم النصارى في دعوى التثليث، أو القول بالبُنُوَّة، أو الحلول، والاتحاد، ونحو ذلك.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: جَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ مُلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى:

٢٦- ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾

ومادمتم -أيها المشركون- قد أقررتم بفطرتكم وألستكم أن الله تعالى هو خالق هذا الكون، فإن هذا يستلزم ملكية الله المطلقة لكل ما في السَّمَوَاتِ والأرض، ملكًا وخلقًا وعبيدًا وإيجادًا وتدبيرًا وتقديرًا،وهذا شامل لجميع مافي العالم العلوي والعالم السفلي، فجميع ما في السموات والأرض في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه، تجري عليهم أحكامه القضائية وأحكامه الجزائية، وهو سبحانه الغني لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، والكل مملوك ومسخر ومدبّر ومفتقر إلى الله تعالى، فلا يستحق العبادة إلا الله تعالى، والله هو الغني عن خلقه، وله الحمد والثناء على كل حال.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى

٢٧- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ[1] يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾

أي: ومن مظاهر علم الله الذي لا ينفد، وعلمه الذي لا يتناهى، الموجب لاستحقاقه تعالى للحمد والعبادة، دون سواه، أن أشجار الأرض كلها لو تحولت بفروعها وأغصانها وجُعلت أقلامًا، وتحولت مياه البحر كلها مدادًا، وزيد على هذا البحر سبعة أبحر أخرى؛ ليُكتب بها علم الله تعالى، فإن هذه الأقلام ستتناهي وهذا المداد سينفد، وعلم الله تعالى لا ينفد، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، وإنما لأن علم الله تعالى تتقاصر العقول عن الإحاطة به، وهذا من باب التمثيل لتقريب المعاني إلى الأذهان.

وليس المراد سبعة أبحر على وجه الحصر، وإنما ذكر ذلك على وجه المبالغة.

والمراد: كثرة العدد؛ لأنه لا حصر لكلمات الله، ولا لآياته.

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بنصب (والبحر) عطفًا على محل اسم إن. والباقون بالرفع عطفًا على المصدر المنسبك من أن وما بعدها، وهذا المصدر فاعل لفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده... إلخ.

والمراد: لو جُعلت أشجار الأرض كلها أقلامًا، وكانت الأقلام التي يُكتب بها من البوص أو الغاب، وتحولت مياه الأرض كلها إلى حبر يكتب به، وأخذ كُتَّاب الأرض يكتبون كلمات الله الدالة على علمه المحيط بكل شيء، والدالة على عظمته وصفاته، لانتهى المداد، ونفدت الأقلام، وكلمات الله لم تنته؛ إذ لا يمكن لأحد أن يحيط بها، والبشر يَعْجَز عن الإلمام بالكمال المطلق، ويعجز عن إدراك الكلمات التي لا تنتهي، وعلم الإنسان محدود متناهٍ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. والله عزيز في ملكه، وفي انتقامه ممن أشرك به، حكيم في تدبير شؤون خلقه.

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله من غير تأويل لها بمعنى آخر، ومن غير نفي لها، أو تشبيه، أوتمثيل بغيرها.

وقد صحَّ من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد حتى ترضى»**[(١)].

قيل: إن المشركين قالوا: إن القرآن الذي يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع، فأنزل الله الآية[(٢)].

وقيل: إنه لما سمع اليهود قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. جوابًا لسؤالهم عن الروح، قالوا: قد أوتينا التوراة، وفيها تبيان لكل شيء، فقال ﷺ: **«إنها في علم الله قليل»**، ونزلت الآية، وهذا على القول بأن الآية مدنية[(٣)].

وكان حييُّ بن أخطب قد قال: تزعم يا محمد، أنك أوتيت الحكمة، وتزعم أنَّا لم نؤتَ من العلم إلا قليلًا، فكيف يجتمع هاتان؟ فنزلت هذه الآية، ونزلت آية الكهف[(٤)].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ٣٥٢) برقم (٤٨٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الطبري (١٨/ ٥٧٢) وعبد الرزاق (٢/ ١٠٦) وأبو الشيخ (٧٩) وفي سنده رجل مجهول.

(٣) «الدر المنثور» (١١/ ٦٥٨) والطبري (١٨/ ٥٧٢).

(٤) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج كما في «الدر المنثور» (١١/ ٦٥٨).

وقد جاءت هذه الآية تعقيبًا على قصة أهل الكهف وذي القرنين، كما أن الآية التي في هذه السورة جاءت تعقيبًا على قصة لقمان، وفيها: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾.

وفي الآيتين إشارة إلى سعة علم الله تعالى وشموله، ومن ذلك ما سبق ذكره في السورتين، وأنه تعالى لو أراد أن يُبلِّغ خلْقه ما في علمه تعالى لنفَدَ الكلام، ونفدَت الأقلام، ونفدت السجلات، وما انتهى علم الله تعالى.

بمعنى أن الأشجار التي في الأرض كلها لو كانت أقلامًا، والبحار كلها لو كانت مدادًا، فكُتبت بها عجائب صنع الله تعالى الدالة على كمال قدرته ووحدانيته، لفنيت الأقلام، ونفدت البحار، ولم تنته عجائب الله تعالى، ولم تنقطع كلماته.

قال أبوالجوزاء: لو كانت كل شجرة في الأرض أقلامًا، والبحار مدادًا، لنفد الماء وتكسَّرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات ربي[1].

وفي ختام الآية بيّن سبحانه أن العزة والغلَبة والقوة لله جميعًا في العالم العلوي والعالم السفلي، فلا حول ولا قوة إلا بالله، بعزته قَهَر الخلْق كلهم، وتصرّف فيهم و دبّر أمرهم، وبحكمته خلَق الخلْق، فأمرهم ونهاهم، فهو العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وأمره.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: البَعْثُ وَالنُّشُورُ

٢٨- ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾

وقدرة الله تعالى التي لا تُطال، يسهُل عليها الخلق والبعث، فيستوي عند هذه القدرة خلْق الواحد وخلق الملايين، ويستوي عندها بعث الواحد وبعث الملايين، وذلك بمجرد توجُّه الإرادة إليها دون أيِّ جهد يُبذل.

أي: ما خلْق جميع الناس أول مرة، ولا خلْقكم ثاني مرة، ببعثكم بعد موتكم، إلا كخلق نفس واحدة، وخلق نفس واحدة شيء عجيب، يدل على تمام قدرة الله تعالى التي يستوي فيها القليل والكثير، والبدء والإعادة، والله ﴿سَمِيعُۢ﴾ لأقوالكم، ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالكم، وسيجازيكم

(١) عبد الرزاق (١/ ٤٠٣).

عليها، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر].

ورد أن أُبي بن خلف وآخرين من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن الله خلقنا أطوارًا: نطفة، علقة، مضغة، عظامًا، لحمًا، ثم تزعُم أنا نبعث خلقًا جديدًا جميعًا في ساعة واحدة، وكيف يُحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمنتْها الأرض في قرون كثيرة؟ فنزلت الآية[1].

فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب إلا الجهل بعظمة الله تعالى وقوته وقدرته، وإلا فإن إعادة الخلق بعد موتهم أيسر وأهون في نظر العقلاء.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

٢٩- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾

هذه الآية استدلال على ما تضمنته الآية السابقة من قدرة الله تعالى على البعث، بأن القادر على تغيير أحوال الأرض والسماء، واختلاف الليل والنهار، قادر على بعث الناس بعد موتهم، وهذا استدلال بطريق التمثيل بعد الاستدلال بطريق القياس.

والآيات تؤكد ما سبق ذكره من دلائل القدرة الموجبة لإخلاص العبادة لله تعالى، وإبطال عبادة غيره سبحانه، وتقرير أن القادر على خلقها هو الإله الحق.

ومن ذلك أن الله تعالى يأخذ من ساعات الليل فيطوِّل النهار ويقصِّر الليل، ويأخذ من ساعات النهار فيطوِّل الليل ويقصِّر النهار، فما نقَص من أحدهما زاد في الآخر، وذلك عند اختلاف فصول العام، ولكن طول الألفة يُفقد الحساسية، فلا يلحظ الإنسان هذا المشهد العجيب من خلق الله تعالى الذي لا يتخلف مَرَّة، ولا يضطرب أو ينحرف عن دوْرته المرتبطة بالشمس والقمر، بحيث يجري كلٌّ منهما في مداره، مذلَّلًا ومسخرًا لنفع

---

(١) «روح المعاني» للألوسي (٢١/ ٩١).

الإنسان وغيره إلى أجل محدد معلوم، قيل: هو نهاية الدنيا، وقيل: هو يوم القيامة، والأول أصح.

ويشهد له ما جاء في الصحيحين: عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها، فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت**»[1]. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]. وهذا من علامات الساعة.

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع الشمس من مشرقها، قال: وكذلك القمر[2].

والله تعالى مطلع على أعمال الخلق من خير أو شر، لا يخفى عليه منها شيء، ومن ذلك تعاقب الليل والنهار، والزيادة والنقصان، وكذا جريان الكوكَبيْن في فلكيْهما.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

الإِلَهُ الحَقُّ

٣٠- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ[3] مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾

أي: والسبب في زيادة الليل ونقصان النهار، وبالعكس: أن سنة الله تعالى لا تتغير، وأن أحوال هذا الكون لا تتبدل، فهي ثابتة مستقرة، تسير وفق نظام دقيق محكم، والقائم بهذه الحقيقة الكبرى هو الله سبحانه؛ فهو الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، ورسله حق، وكتبه حق، وعبادته حق، ووعده حق، ووعيده حق، وصفة الألوهية له حق، ولغيره باطل، وهو الذي يحفظ هذا الكون ويدبره، ويضمن له الثبات والاستقرار؛ لأنه سبحانه حق ثابت لا يتغير، ولا يحول ولا يزول، وغير الله تعالى لا يستحق العبادة؛ لبطلان

(١) البخاري (٤٨٠٣) ومسلم (١٥٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح.

(٣) قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالياء في (يدعون) على الالتفات، والباقون بالتاء جريًا على السياق.

ألوهيته، وهو العلي بذاته فوق جميع مخلوقاته، الكبير على كل شيء، له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض، وكل ما عداه خاضع له، فهو وحده المستحق أن يُعبد دون سواه، وكل ما سوى الله تعالى باطل ومحتاج إليه سبحانه.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: جَرْيُ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ

٣١، ٣٢- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ[١] فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

وتمضي الآيات؛ لتأتي بمشهد كوْني من مألوف حياة البشر في الأرض:

ألم تر -أيها المشاهِد- أن السفن تجري في البحر بأمر الله تعالى، نعمة منه على خلقه؛ ليريكم من عجائب صنعه وقدرته ما تعتبرون به، حيث لا تقف السفن غالبًا ولا تغرق، ولو اختلَّت سُنَّة من سنن الله تعالى في البحر: ككثافة الماء، أو نسبة ضغط الهواء، أو درجة الحرارة، أو تيار الهواء أو الماء، لو اختل شيء من ذلك ما جرت السفن في الماء، وهذه الخواص للماء، أو الهواء، أو الحرارة لا ينظِّمها ولا يسيِّرها إلا رب العالمين، ولم يدَّع أحد من الخلق أنه يقوم بهذه المهام في البحار إلا الله سبحانه.

إن في جرْي السفن في البحر لدلالات لكل صبار عن محارم الله، وعلى ما أصابه من ضراء، فهم المنتفعون بالآيات والمواعظ والعبر.

ودلالات لكل شكور لنعم الله عليه، وما أكرمه به من سراء، فالصبار كثير الصبر، والشكور كثير الشكر، والمتصف بهما يكون بين رجاء الثواب وخوف العقاب؛ لأنهم آمنوا باليوم الآخر وما فيه من جنة ونار.

وهاتان صفتان للمؤمن، فالإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، وهو مأجور في الحالتين.

أما غير المؤمن فإنه لا يصبر ولا يشكر، فإن أصابه ضرٌّ لجأ إلى الله تعالى، فإذا نجاه الله تعالى مما هو فيه من الضر فإنه لا يشكر من العباد إلا القليل.

---

(١) عدّ (مخلصين له الدين) آية البصري والشامي، وتركه غيرهما.

أحوال الناس عند الخوف من الغرق:

فإذا ركب الناس السفن وغطَّاهم الموج من فوقهم فارتفع منسوب الماء وكان كالجبال أو السحاب في كثرته وارتفاعه، وهم كالريشة في مهب الريح، قد أصابهم الذعر والخوف من الغرق، فإذا أنقذهم الله منه، وأخرجهم إلى شاطئ البحر **صاروا ثلاثة أنواع من البشر**:

النوع الأول: مؤمنون صادقون، شكَروا الله تعالى، فابتَهلوا له، وأخلصوا في الدعاء، وكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ونسوا جميع من سواه حين نجاهم الله إلى البر، وأخرجهم من تلك الشدة، فهم موقنون بآيات الله تعالى، شاكرون لأنعمه، صابرون على ما أصابهم، وهذا شأنهم في السراء والضراء، وهذا النوع من الناس معلوم من هذه الآية، فهم السابقون بالخيرات. ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

والنوع الثاني: مقتصد: متوسط الحال، لا ينجرف إلى النسيان، ولا يقوم بالشكر على وجه الكمال، وإنما هو مقتصد في العبادة والدعاء، وهؤلاء هم المقتصدون في الطاعة والعبادة، المتوسطون في العمل، الذين قال الله فيهم: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

أما النوع الثالث: فهو نوع كافر بنعمة الله عليه، جاحد لها، ينكر فضل الله عليه بمجرد زوال الخطر عنه، وعودة الرخاء إليه، وهذا النوع من الناس على خطر عظيم، فهم الظالمون لأنفسهم، الذين ختم الله بهم الآية، ووصفهم بالجحود والغدر والكفر، وما يجحد بآيات الله وحججه الدالة على كمال قدرته إلا كل غادر ناقض للعهد، جَحُود لنعم الله عليه.

جاء في الأثر: أن عكرمة بن أبي جهل لما هرب يوم الفتح من رسول الله ﷺ ركب البحر، فأصابتهم ريح عاصف، فقال أهل السفينة: أخلصوا؛ فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا مًا هنا، فقال عكرمة: ما هذا الذي تقولون؟ فقالوا: هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله، فقال: هذا إله محمد الذي كان يدعونا إليه، لئن يُنجِّي في البحر إلا الإخلاص، ما ينجِّي في البر غيره، ارجعوا بنا، فرجع فأسلم[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

---

(١) «الإصابة»: ترجمة عكرمة، وأخرجها الدارقطني والحاكم وغيرهما.

وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس].

وهذا هو حال الكافر الظالم لنفسه بالكفر والشرك، الذي يتعرف على الله تعالى في الرخاء وينساه في الشدة.

الْمَسْؤُولِيَّةُ فَرْدِيَّةٌ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

هذه الآية بمثابة المقصد من الخطبة بعد ذكر مقدماتها، وتهيئة النفوس إلى قبول الهداية، والتأثر بالموعظة الحسنة، وتقوى الله تعالى تبدأ بمعرفة وحدانيته سبحانه والتصديق برسوله ﷺ، وتنتهي بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات في الظاهر والباطن وسائر الأحوال.

وبمناسبة الفزع والهول الذي يصيب الناس وهم في عُرض البحر والأمواج تلاطمهم، كما هو في الآية السابقة، تذكِّرهم هذه الآية بيوم الفزع الأكبر، والهول الأعظم، فتأمرهم أن يستعدوا لهذا اليوم بتقوى الله تعالى، وطاعة أمره واجتناب نهيه، والخوف من لقائه، والحذر من يوم القيامة، وهو يوم لا ينفع فيه والد ولده، ولا مولود يحمل عن أبيه شيئًا، مع أن الوالد أشفق الناس على ولده، والولد له واجب حق التربية، ومع ذلك فإن أواصر القربى والدم، ووشائج الرحم والنسب، تنقطع يوم القيامة، فلا يهتم قريب بقريبه، ولو كان أقرب الناس وأحبهم إليه، وكل واحد يقول: نفسي نفسي، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار].

فالإنسان هو الذي يصنع مستقبله، إن نجا فبحسناته، وإن هلك فبسيئاته ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ

إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

فلا يوجد أحد يزيد في حسنات الآخر، ولا أحد ينقص من سيئات غيره، إلا بمقدار أخذ الحقوق واستيفاء المظالم.

ويوم القيامة يوم لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله تعالى، ولا يشفع فيه أحد إلا بإذنه، ولا يُؤاخذ فيه أحد بعمل أحد، ولا يهتم فيه أحد بأحد، كلٌّ مشفق على نفسه، وكلٌّ يحمل وزره هو، وكلٌّ يُسأل عن نفسه، وعما تحمَّل من مسؤوليات.

إن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء، حق ثابت لا يتخلف، فاخشوا يومًا هذا شأنه، ولا تنخدعوا بالحياة الدنيا وزخرفها فتُنسيكم الآخرة، فلا تغتروا بها، ولا يغرنكم بالله الغرور.

والغَرور -بفتح الغين- هو: الشيطان، وكل ما يلهي عن طاعة الله تعالى وذكره، من مال ومتاع وجاه، أي: فلا يخدعنكم بالله خادع من شياطين الإنس والجن، فيزين لكم الدنيا وطول الأمل، والغُرور -بضم الغين- هو: طول الأمل.

وقد نزلت هذه الآية بمكة، وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين، وربما كان الأب مسلمًا والولد كافرًا، وربما كان العكس، وقد يتوهَّم بعض الكافرين أن الإنسان لو كان صادقًا في تعامله مع الناس، وله أب مسلم أو ابن مسلم، فإنه يدفع عنه العذاب يوم القيامة، لو كان هناك بعث وحساب وجزاء، كما يقولون!

وقد لفت الله سبحانه أنظار عباده وهم في دار المهلة، كي يستعدُّوا لهذا اليوم، فيتزوّدوا بالتقوى والعمل الصالح، ويبتعدوا عن المعاصي والذنوب، قبل أن يفوت وقت العمل، ويأتي يوم الحساب والجزاء.

مَفَاتِحُ الْغَيْبِ الْخَمْسُ

٣٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ[(١)] ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف، بتخفيف الزاي وإسكان النون، من (وينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديد الزاي وفتح النون، مضارع نزَّل.

وفي ختام السورة: تقرير لموضوعها على وجه العموم، وتصوير لعلم الله الشامل، ولعجز الإنسان الكامل عن معرفة مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا هو سبحانه، فقد تقرر في السورة أن الله تعالى قد أحاط علمًا بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يُطلع الله بعض عباده على بعض الأمور الغيبية، ولكن هناك أمورًا خمسة، طوى الله علمها عن جميع خلقه، فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب.

جاء الحارث بن عمرو -من أهل البادية- إلى النبي ﷺ، فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجدبت، فقل لي متى ينزل الغيث؟ وتركتُ امرأتي حُبْلى فمتى تلد؟ ولقد علمتُ أين وُلدتُ، فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾[1].

وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله**» وقرأ الآية[2]

ومعنى الآية في خمس نقاط:

أَوَّلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾

فهو وحده يعلم متى تقوم، ولا يعلم وقت قيامها نبي مرسل، ولا ملَك مقرب، لا في أي سَنة، ولا في أي شهر، ولا في أي يوم أو ليلة، وقد جعلها الله تعالى غيبًا؛ ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقُّع مستمر، وعمل صالح لا ينقطع، واستعداد لها، فقد تأتيهم الساعة بغتة، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولما سئل النبي ﷺ عنها قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**».

وأجاب ﷺ سائلًا عنها بقوله: «**ماذا أعددت لها**»؟ فالعمل هو الأهم، وليس معرفة وقت مجيئها، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾ [الشورى].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها**

---

(١) الطبري (٢١/ ٨٧) والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٩) والواحدي في «أسباب النزول» ص١٩٩ وابن أبي حاتم عن مجاهد والبغوي في التفسير، و«تخريج الكشاف» (٣/ ٧٧).

(٢) الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٠) و (٥/ ٣٥٣) برقم (٤٧٦٦، ٥١٣٣، ٥٢٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري في «فتح الباري» (٢/ ٦٠٩) و (٨/ ٣٧٣) ومن أرقامه في البخاري (١٠٣٩، ٤٧٧٨) و أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢٤٦).

بأعلم من السائل، ولكن سأحدثكم عن أشراطها: إذا وَلَدَت الأمة ربتها، فذلك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان، فذلك من أشراطها، في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله»، ثم تلا الآية[1].

ثانيًا: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾

فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلًا أو نهارًا، صيفًا أو شتاء إلا الله سبحانه، فهو الذي ينزله وفق حكمته سبحانه في المكان الذي يريده من العالم، وبالمقدار الذي يريده، وهو جلَّ شأنه منشئ الأسباب التي تكوِّنه، فيُنزِل المطرَ من السحاب بإذنه تعالى.

وقد يَعرِف الناس بالتجارب والمقاييس قُرْب نزول المطر، ولكن الله وحده هو الذي يخلق الأسباب التي تنشئه وتنزله، وعلم الله تعالى هو العلم الصحيح الشامل الذي لا يزيد ولا ينقص، ولا يتغير ولا يتبدل.

ثالثًا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾

فهو سبحانه يعلم ما في أرحام الإناث، من أول لحظة التقاء النطفة بالبويضة، ويعلم كل طور من أطوار النطفة، قبل أن يكون للحمل حجم أو جرم، وقبل أن يتحدد للناس نوع الجنين من ذكر أو أنثى، وقبل أن تتحدد معالمه وملامحه، ويعلم سبحانه نوعه ولونه، وكونه تام الخلقة أو ناقصها، وكونه شقيًّا أو سعيدًا، غنيًّا أو فقيرًا، ذكيًّا أو غبيًّا... إلخ.

والله تعالى هو الذي خلق النطفة وأنشأها ويعلم ما تشتمل عليه.

ويُطْلِع الله الملائكة الموكلة به على كونه ذكرًا أو أنثى، وشقيًّا أو سعيدًا، وعلى رزقه وأجله، بعدما يصير مضغة، فيقضي الله ما شاء، كما صح ذلك في حديث ابن مسعود ﷺ في مسلم وغيره.

والأشعة فوق الصوتية تُظهر نوع الجنين بعد ظهوره في بطن الأم، وليس هذا من باب الغيب، فكل ما يعلمه البشر من العلوم لا يعدُّ غيبًا، فلو تم التعرف على ما في النطفة، أو البويضة بمعرفة نوع الجنين، وكونه ذكرًا أو أنثى، ونحو ذلك بمقتضى خواص أودعها الله تعالى في الخلية الأولى، فليس هذا أيضًا من باب الغيب.

---

(١) ابن أبي شيبة (١٥/١٦٧) والبخاري (٥٠) بنحوه، وكذا مسلم (٩، ١٠) وابن ماجه (٤٠٤٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٦٨) وهذا لفظه عن عبد الله بن مسعود قال محققوه: صحيح لغيره.

رابعًا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾

من خير أو شر، أو نفع أو ضر، أو عسر أو يسر، أو صحة أو مرض، أو طاعة أو معصية، أو ربح في المال والتجارة أو خسارة فيهما، فلا يعلم ما في الغد إلا الله تعالى، ولا تدري نفس شيئًا من كسب دينها ودنياها فيما يستقبل من الزمان.

خامسا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

ولا تدري نفس في أي مكان تُقبر، فذلك أمر وراء الحجُب الإلهية، ولا يعلم أحد أين مضجعه من الأرض: في بر، أو بحر، أو سهل، أو جبل، أو جو، أو فضاء... إلخ.

فربما أقام الإنسان بأرض وضُربت فيها أوتاده، وصمم على ألا يبرحها، ثم تقتضي إرادة الله تعالى أن يموت في مكان لم يخطر له على بال.

قال ابن مسعود: كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الغيب الخمس، ثم تلا الآية[1].

فهي آية حاصرة لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ولن تجد من المغيبات شيئًا إلا اشتملت عليه، كما جاء في حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس**» وقرأ الآية ﷺ[2].

ورد أن ملَك الموت مرَّ على سليمان ﷺ، فأخذ ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال له: ملَك الموت، قال: كأنه يريدني، فطلب الرجل من سليمان أن تحمله الريح إلى بلاد الهند، ففعل، وقبض ملك الموت روحه هناك.

ثم عاد ملك الموت لسليمان، وقال له: كان دوَامُ نظري إليه تعجُّبًا منه؛ لأني أُمرت أن أقبض روحه بالهند، فلما رأيتُه عندك تعجبتُ، ثم ذهبتُ في الموعد المحدد لقبض روحه فوجدته هناك[3].

وفي الحديث عن مطر بن عكامِس، وأبي عزة أن رسول الله ﷺ قال: : «**إذا قضى الله**

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٥٦)، والحديث في المسند (٥٢٥٣) صحيح لغيره والحميدي (١٢٤).

(٢) «المسند» (٢/ ٨٥) برقم (٥٥٧٩) إسناده صحيح على شرط الشيخين وبنحوه في البخاري (٤٧٧٨) والطبراني في الكبير (١٣٣٤٤) والطبري في التفسير (٢١/ ٨٨). وانظر تخريجه قبل صفحتين.

(٣) من «تفسير النسفي» للآية بتصرف.

لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة»[١].

وفي لفظ: **«ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة»**[٢].

وصحَّ عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله، وما تدري نفس بأي أرض تموت»**[٣].

وورد أن المنصور رأى صورة ملَك الموت في النوم، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبَّروها بخمس سنوات، أو أشهر، أو أيام، فقال: أبوحنيفة: هذه هي العلوم الخمسة، لا يعلمها إلا الله، ومنها: وقت الأجل، لا يعلمه ملَك الموت، ولا غيره من الخلق.

والآية عامة تشمل علم الزمان والمكان، والحاضر والمستقبل، وخواطر النفس، وما خفي عن العين.

ولما خصص الله بالذكر هذه الأمور الخمسة عمم علمه بجميع الأشياء، فهو سبحانه محيط بالسرائر والخفايا، ومن حكمته تعالى أن أخفى علم هذه الخمس، عن العباد، لأن في ذلك من المصالح والفوائد ما لا يعلمه إلا الله.

والله تعالى هو المختص بعلم ذلك كله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أي: محيط بالظواهر والبواطن، لا يخفى عليه شيء منها، ومن ادَّعى معرفة شيء من هذه الخمس من المنجمين والعرَّافين وغيرهم، فهو كافر بالقرآن؛ لأنه خالَفه.

تم تفسير (سورة لقمان) ولله الحمد والمنة.

---

(١) الحاكم (١/ ٤٢) والترمذي (٢١٤٧) و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٤٥). و (١٧٤٦) بتصحيح الألباني، وقال الترمذي حديث صحيح، وأبو عزة له صحبة، والحديث في مشكاة المصابيح (١١٠).

(٢) الطبراني في «الكبير»، في «مسند أسامة بن زيد» (١/ ١٧٨) قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٩٦): ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أحمد (٢/ ٥٢) برقم (٥١٣٣) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري في التفسير (١٠٣٩، ٤٦٩٧، ٧٣٧٩) والطبري (١٨/ ٥٨٦) وابن أبي حاتم (٧٣٦٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ (٣٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة السجدة هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النحل، وقبل سورة نوح.

وهي سبع وعشرون آية عند البصريين، وثلاثون آية عند غيرهم.

وثلاث مئة وثمانون كلمة، وألف وخمس مئة وثمانية عشر حرفًا.

وشهرتها سورة (السجدة)، وتسمى سورة (ألم تنزيل)، أو (ألم تنزيل السجدة)، أو (ألم السجدة)، وتسمى أيضًا: سورة (المضاجع).

قراءتها في فجر الجمعة وعند النوم

عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾[1].

ويُقصد بقراءتهما في صلاة الصبح يوم الجمعة حصول السُّنَّة، ويكون السجود تبعًا لذلك، ولا يلزم قراءتهما في كل يوم جمعة، ولا يقرأ بعضهما، ولا يُقرأ بسورة السجدة في الركعتين، فإن السُّنة لا تحصل بذلك.

وعن جابر ﷺ قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، «فتح الباري» (٢/ ٣٨٠/٤٣٨٠) وفي البخاري (٨٩١، ١٠٦٨) و«صحيح مسلم» (٢/ ٥٩٩) برقم (٨٨٠) والنسائي (٩٥٤) وابن ماجه (٨٢٣) وابن أبي شيبة (٢/ ١٤٠) وله طرق أخرى عن ابن عباس وغيره.

(٢) أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٠) برقم (١٤٦٥٩) قال محققوه: حديث صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣١٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٥٤٢) و«السلسلة الصحيحة» (٥٨٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٢٤) وعبد بن حميد (١٠٤٠) والدارمي (٣٤٠٤).

أغراض السورة: وسورة السجدة، سورة مكية، تعالج قضية الوحي وصدق الرسول ﷺ، كما تعالج قضية التوحيد، وقضية البعث والمصير، وهذا الأخير هو المحور الذي تدور عليه السورة، وكل السور المكية تعالج هذه القضايا الثلاث بأسلوب خاص ومؤثرات خاصة، تلتقي كلها في مخاطبة العقل والقلب البشري؛ لإيقاظ الفطرة، وإحياء الإيمان في النفوس:

١- تبدأ السورة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، فتردُّ على الذين زعموا أن محمدًا ﷺ افترى القرآن من عند نفسه، وتدْحَضُ هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان، وتُفيد في صدْرها أن هذا القرآن قد نزل من عند الله تعالى يقينًا إلى أمة لم تألف الوحي من قبل، فصاغها في قالب جديد، وحمَّلها رسالة عالمية، وكانت الرسالات قبله رسالات محلية قديمة في بعض القبائل، أو البلاد، أو الشعوب، انتهت هذه الرسالات في مكانها، و زمانها، أو بانتهاء المدة التي من المفروض لها أن تنتهي فيها، أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة عالمية، تَحرَّك بها العرب، فغيَّروا وجه العالم.

٢- وبعد الحديث عن الوحي والرسالة في الآيات الثلاث من أولها، تتناول السورة جانب العقيدة والتوحيد في ست آيات بعدها، فتلفِت النظر إلى خالق هذا الكون الرحْب، وهيْمنته عليه وتدبير أمره، ورفْع الأمر إليه من الأرض إلى السماء.

كما تلفتُ النظر إلى نشأة الإنسان وأطوار خلقه، وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك، والناس بعد ذلك قليلًا ما يشكرون.

٣- وفي الجولة الثالثة للسورة، تتناول جانب البعث والحساب، والثواب والعقاب، فتردُّ على المنكرين بَعْثهم، بعد تفرق ذَرَّاتِهم في التراب، بصيغة الجزم واليقين أنهم راجعون إلى ربهم في يوم يشتد فيه الحساب، وأنهم سيندمون على إلحادهم وكفرهم عندما يُنكِّسون رؤوسهم عند ربهم، ويعلنون يقينهم بالحق الذي أنكروه من قبل، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ رأينا بأعيننا، وسمعنا بآذاننا أنَّ البعث والحساب حق ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[١٢]. ولكن هذا اليقين جاء بعد فوات الأوان.

والقرآن الكريم يوقظ عقول وقلوب الأشقياء بهذه الآيات وأمثالها، قبل فوات الأوان وهم في الدنيا.

وقد استغرقت هذه الجولة خمس آيات من السورة من الآية العاشرة إلى الآية الرابعة عشرة.

٤- وبعد ذمِّ الجاحدين للتوحيد، المكذبين بيوم الدين، يأتي الوجه المقابل بالثناء على المؤمنين الصادقين، وهو مشهد ساطع مضيء في مقابل المشهد البائس المكروب، وتصف السورة هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يقضون ليلهم في ارتكاب الجريمة، ولا في السهرات الحمراء، والمتع الحرام، إنهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١٦].

إن الصلاة لا مكان لها - غالبًا - عند أهل المدينة المدنيَّة.

أما المؤمنون المخلصون فهم يقيمون الصلاة سحابة النهار وبعض الليل، ولن يفلح إلا من قدم الإيمان والعمل الصالح ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

وسينتقم الله من المجرمين الكافرين، ويذيقهم من عذاب القبر وعذاب الآخرة.

٥- ثم ذكَّر الله تعالى نبيه ﷺ بما لقيه المرسلون قبله من العنت والتكذيب وتحمُّل المشاق، وعلى رأسهم موسى عليه السلام، فما عليك -يا محمد- إلا أن تصبر وتتحمل؛ فإن الله تعالى سيفصل بينك وبينهم يوم لقائه.

٦- ويعقُب ذلك إشارة إلى مصارع المكذبين لرسلهم في الأمم السابقة.

وكما أن الله تعالى يحيي الأرض الموات بنزول الماء عليها، فإنه تعالى يحيي قلوب عباده بالوحي المنزل من السماء، ويبعثهم بعد موتهم للحساب والجزاء، فأعرض -أيها الرسول- عن المكذبين بك وبدعوتك، وانتظر الفرج والفتح عليك بالنصر من الله تعالى، فإنه آتٍ لا محالة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قَضِيَّةُ الْوَحْي وَالرِّسَالَةِ

١، ٢-﴿الٓمٓ[١] ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا[٢] رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾

بدأت السورة بحروف الهجاء الثلاثة، للتنبيه على إعجاز القرآن، ولَفْتِ انتباه غير المؤمنين لتأمل القرآن والعمل بما فيه، فإن كنتم في شك منه فهاتوا مثله، واستعينوا بمن شئتم، أو هاتوا مثل عَشْر سور منه، أو مثل سورة واحدة ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

وهذه الأحرف تمهيد لما يُذكر بعدها من أن هذا القرآن المنزل على رسول الله ﷺ المكوَّن من مثل هذه الحروف، لاشك أنه منزل من عند الله تعالى، رب الخلق أجمعين، وكل آية منه تَنْبِضُ بالإعجاز القرآني، وتشير إلى القوة الكامنة فيه، وكلما اتسعت دائرة العلم والثقافة لدى الإنسان ازداد يقينه بالقرآن، واهتزَّ كيانه، ورجف فؤاده أمام أسرار القرآن وفَيْض فتوحاته الربانية.

قال البيضاوي: أشار أولًا إلى إعجاز القرآن، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريْب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكارًا له وتعجبًا منه، ثم بيَّن المقصود من إنزاله[٣].

وهكذا، يخبر رب العالمين، أنه أنزل هذا الكتاب مشملًا على ما فيه صلاح البشر وتمام أخلاقهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنه لاشك في أنه تنزيل من حكيم حميد، قال تعالى:

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على ألف، ولام، وميم سكتة يسيرة بدون تنفس، وبدونها قرأ غيره.
هذا: وقد عد الكوفي (الٓمٓ) آية وأسقطها غيره.

(٢) قرأ حمزة بخلف عنه بمد اللام من (لا ريب) أربع حركات للمبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

(٣) البيضاوي (٢/ ١١١).

وإذا كان هذا القرآن معجزًا، موحى به إلى النبي ﷺ، فكيف يقول المكذبون: إن محمدًا اختلقه وأتى به من عنده؟ ليس الأمر كذلك، فقد كذَبوا في ادعائهم هذا الافتراء، بل هو الحق الثابت المنزل من عند الله تعالى، المطابق للفطرة؛ كي يقيم منهج الحياة بين الناس على أساس من العدل والحرية والكرامة والمساواة.

أنزل الله هذا القرآن على محمد ﷺ؛ لينذر به قومًا ما جاءهم من رسول قبل محمد ﷺ، وهم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد جاء قبلهما رسل كثيرون، كإبراهيم، وهود، وصالح عليهم السلام، ولما طالت الفترة بعد آخر رسول من بني إسرائيل أرسل الله محمدًا ﷺ.

وقد كان العرب على وجه الخصوص أمة لم يأتهم رسول بين إسماعيل ومحمد، فنزل هذا القرآن لهم ولغيرهم لعلهم يهتدون بهديه، فيعرفوا الحق، ويؤمنوا به وبمن أُنزل عليه؛ حيث لا تقوم الحجة على الخلق بالشرائع والعمل بها إلا عن طريق إرسال الرسل؛ لأن علم الشرائع لا يُدرَك بغيرهم، وذلك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فإذا ثبت أن القرآن تنزيل من رب جميع الكائنات، وأنه لا يحق لأحد أن يرتاب فيه، فكيف تزعمون أن محمدًا ﷺ قد افتراه واختلقه، وهو الحق من رب محمد ﷺ؟! ولو أنه افتراه لأظهر الله أمره وقطع دابره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

ثم إن هذا الكتاب جاء لإخراجكم من الظلمات إلى النور، ومن تقليد الآباء والأجداد إلى اتباع طريق الحق والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام].

وقد خاطبت هذه الآيات العرب أوّلًا؛ لأنهم هم الذين كلَّفهم الله تعالى بحمل مشعل الهداية إلى الناس كافة، ومن ديارهم انطلقت الرسالة الأخيرة إلى الخلق أجمعين، فإذا تأصلت فيهم الدعوة أوّلًا انتقلت إلى سائر أصقاع الأرض بعدهم، فهل علماء الأمة وحكامها عاملون على نشر الدعوة في العالم؟

التَّوْحِيدُ وَأَدِلَّتُهُ

٤- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

أما معرفة الله تعالى، وقيام الحجة على توحيده سبحانه، فطريقها العقل، وكتاب الله المنظور في هذا الكون، وكتابه المسطور بين أيدينا، فهذه الطريقة توصل إلى معرفة الله تعالى في كل زمان ومكان، ولما كان بعض الخلق يُشركُ مع الله تعالى غيره في عبادته، فقد ذكرت السورة بعض آثار الله تعالى في الكون؛ ليميزوا بها بين من يستحق العبادة، ومن لا يستحق.

وهذه بعض أدلة التوحيد في الكون والإنسان:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: مِنَ الْكَوْنِ:

وقد اشتملت هذه الآية على **قضايا ثلاث**، هي: خلق الكون، والاستواء على العرش، ونفي الشفاعة والولاية عن أحد من خلق الله، إلا بإذنه تعالى:

القضية الأولى: خلق العالميْن العلْوي والسُّفْلي

الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السموات بلا عمد، مع ارتفاعها وإحكامها، وخلق الأرض في عجائبها وكنوزها وإبداعها، وخلق ما بينهما من الخلائق الهائلة التي نجهل عنها الكثير، وذلك في ستة أيام، ابتدأت يوم الأحد، وانتهت بيوم الجمعة الذي خُلِق فيه آدم ﷺ، وهل هذه الأيام الستة، من أيام الدنيا، أو هي قدر أيامها أوهي من أيام الله؟ الله أعلم.

فحقيقة هذه الأيام عند الله تعالى، ولا سبيل إلى تحديدها وتعيين مقدارها؛ فالأيام التي نعرفها تنشأ من دوْرة الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة، فينتج عنها الليل والنهار، وهذا مقياس لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة بالنسبة لهذا الكون الرحب الشاسع، وما عداها من أيام الله ليس معلومًا لنا، وقد تكون هذه الأيام الستة قدر أيام الدنيا، وأن الله تعالى خاطبنا بما نعلم، وهذا ما يظهر لي، والله أعلم.

وهذه المدة المحددة بستة أيام لحكمة يعلمها الله تعالى، قد تكون لتعليمنا التأني، أو نحو ذلك، ولو شاء سبحانه لخلقها في لمح البصر، بكلمة (كن) فيكون.

وهذه الأيام أولها الأحد، وآخرها الجمعة، وبهذا قال عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، والضحاك، ومجاهد، واختاره الطبري، وبه يقول أهل التوراة(١).

وصحَّ في الحديث: أن اليوم الذي بدأ فيه الخلق هو يوم السبت وليس يوم الأحد، كما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: **«خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الأشجار يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر آخر الخلق، آخر ساعات النهار»**(٢).

ومقتضى هذا الحديث أن خلق السموات والأرض كان في سبعة أيام.

قال ابن عطية: ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتُدئ يوم السبت، فهذا يخالف الآية، اللهم إلا أن يكون أراد في الآية جميع الأشياء غير آدم، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يخلق فيه شيء، مما بين السماء والأرض؛ لأن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما(٣).

وعلى هذا يمكن الجمع بين الآية والحديث، بأن تحديد بدء الخلق بيوم الأحد، منقول عن أهل الكتاب، وخلْق التربة يوم السبت، وخلق آدم يوم الجمعة، بينهما تلازم، فتكون مدة الخلق ستة أيام كما في الآية وانظر تفسير الآية ١٢ من سورة فصلت.

القضية الثانية: استواء الرحمن على عرشه:

ثم استوى ﷻ على العرش، أي: علا وارتفع على عرشه استواءً يليق بجلاله لا يُكيَّف، ولا يشبَّه باستواء المخلوقين، والعرش هو سقف المخلوقات، وهو سرير الملك، أو

---

(١) يُنظَر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢١١).

(٢) هذا لفظ النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٩٤٣) وبأطول منه في رقم: (١١٣٢٨) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٨٩) و«المسند» (١/ ٣٢٧) برقم (٨٣٤١) وابن حبان (٦١٦١) برقم (٨٣٤١) قال ابن كثير: تكلم عليه ابن المديني والبخاري في «التاريخ الكبير» وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، وليس مرفوعًا والله أعلم، يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٢٦) وقد رد الألباني هذا في «الصحيحة» (١٨٣٣)، وقال محققو المسند: الصحيح أن هذا الحديث موقوف على كعب الأحبار، وليس من قول النبي ﷺ.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٥٨) والحديث برقم (٢٧٨٩) وهو السابق ذكره في صحيح مسلم.

كرسيُّه، وهو غيب لا يعلمه إلا الله.

القضية الثالثة: إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع:

وليس لكم -أيها الناس- من وليٍّ يلي أموركم، أو شفيعٍ يشفع لكم عند الله، أو ناصرٍ ينصركم؛ لتنجوا من عذابه تعالى عند تجاوزكم لحدود الله، والخروج على تعاليمه.

أفلا تتعظون وتعتبرون، فتُفرِدوا الله تعالى بالألوهية، وتخُصُّوه بالعبادة؟ فإنَّ تذكُّر هذه الحقيقة يردُّ القلب إلى الله تعالى دون سواه، قال تعالى:

٥- ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

أي: إن تدبير أمر المخلوقات المقدّر عند الله تعالى، والذي شرعه لخلقه في السموات والأرض وما بينهما، فيُسعِد به ويُشقي، ويُغني ويُفقر، ويُعز ويُذل، ويكرم ويهين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، كل ذلك يكون بتنزيل أمره تعالى وحُكْمه من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وما يتنزل من القضاء والقدر فيهما، وما يوحي به سبحانه إلى ملائكته، ثم يصعد ذلك التدبير إلى الله تعالى في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي تعدونها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والذي ينزل ويصعد هو جبريل عليه السلام، وهذا التدبير لشؤون الدنيا والصعود بالأعمال إلى الله تعالى يستمر في الدنيا إلى فنائها، ولذا كان حساب اليوم بألف سنة مما نعدُّ من أيام الدنيا، باعتبار المسير العادي لبني آدم.

أما عروج الملائكة وجبريل عليه السلام الوارد في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: ٤].

فإن هذا يكون في يوم القيامة، وهي المسافة بين الأرض وسدرة المنتهى.

وورد أن يوم الحساب يكون قصيرًا على المؤمن، وطويلًا على الكافر، فيكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا[١].

---

(١) ينظر: «المسند» بنحوه (٣/ ٧٥) والبغوي في «شرح السنة» (١٥/ ١٢٩) وفيه ابن لهيعة، سيئ الحفظ، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٣٧)، وغيرهم.

فلا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا حتى يقضي الله بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

قال ابن عباس ﷺ لما سأله ابن فيروز عنها: أيام سماها الله تعالى، لا أدري ما هي، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم[(١)].

وقال أيضًا: هذا في الدنيا، تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة[(٢)].

وجاء في أحاديث الإسراء أن ما بين السماء والأرض خمس مئة عام، وسُمك كل سماء كذلك، وما بين كل سماء وسماء مثله.

قال قتادة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ينحدر الأمر من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، مقداره ألف سنة في السير، خمس مئة حين ينزل، وخمس مئة حين يعرج[(٣)].

قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: إن الأرض تلفُّ حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة، وتلفُّ حول الشمس خلال ٣٦٥ يومًا، والشمس وأُسْرتها تجري في مدار حاشد بالنجوم، والمجرات السابحة في الفضاء، لا ندري إلا القليل من شؤونها.

والضوء يقطع المسافة بين الأرض والشمس في بضع دقائق، ما هذا الملكوت الضخم؟ إن إدارة شؤونه تحتاج بمقاييسنا الزمنية إلى أزمنة بعيدة، إلى ألف عام أو أكثر، لكنها في عمل الخالق الكبير لا تستغرق زمانًا يذكر، ما المدة التي تستغرقها العين في نظر المرئيات؟ لا شيء.

إن الله تعالى يريد فيفعل، فإذا في دنيانا محو وإثبات، ووجود ومَوَات، وهزائم وانتصارات[(٤)].

وقيل: إن الضمير في ﴿مِقْدَارُهُۥٓ﴾ عائد على التدبير، أي: كان التدبير المنقضي في يوم واحد، ألف سنة لو دبَّرها البشر.

---

(١) «تفسير الخازن» للآية، ويُنظَر: عبد الرزاق (٢/ ١٠٨) والحاكم (٤/ ٦١٠).

(٢) الطبري (١٨/ ٥٩٤).

(٣) عبد الرزاق (٢/ ١٠٨) والطبري (١٨/ ٥٩٣).

(٤) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٣١٩ .

وقال مجاهد: إن الله تعالى يدبر، ويُلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عندنا، وهو اليوم عنده، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها[(١)].

والمقصود من الآية: التنبيه على عظيم قدرة الله تعالى وسَعة ملكوته وحسن تدبيره.

ويُجمع بين آية سورة السجدة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وقوله ﷻ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج]. بما يأتي:

(أ) المراد بالألف التي في سورة (الحج): هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

وأما الألف التي في سورة (السجدة) فهي مقدار سيْر الأمر وعُروجه إليه تعالى.

أما يوم الخمسين ألف في سورة (المعارج) فهو يوم القيامة.

(ب) أو أن المراد بها جميعًا: يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل له قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾[(٢)] [المدثر]. قال تعالى:

٦- ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

ذلك الخالق المدبر لشئون العالمين، الذي استوى على العرش، عَالِمٌ بكل ما يغيب عن الأبصار: مما تكنه الصدور وتخفيه النفوس، وعَالِمٌ بما تشاهده الأبصار، فبسعة علمه، وكمال قدرته، وعموم رحمته، أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وأودع فيها من المنافع ما أودع، وهو الذي لا يُغلب، الرحيم بعباده، المطلع على كل شيء، ومنه علم قيام الساعة، فهو من الغيب الذي حجبه الله تعالى عنا لحكمة عظيمة.

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٥٨).

(٢) يُنظَر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٦/ ٥٠٣).

الدَّلِيلُ الثَّانِي: مِنَ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ

٧-٩- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ[1] وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾

هناك ارتباط وثيق بين نهاية الآية السابقة ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهي وصف لخالق الكون وصانعه، وبين بداية هذه الآية ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ويستحب الوصل بين الآيتين لبيان المعنى؛ فالله تعالى الموصوف بالعزة والرحمة، هو الذي أحكم خلْق كل شيء، فخلقه خلقًا يليق به ويوافقه ويهديه إلى وظيفته المنوطة به، فسبحان من هذه صنْعتُه، وسبحان من هذه آثار قُدرته، فأتقن وأحكم كل شيء خلَقه، وجعل لكل مخلوق صورته المناسبة لأداء مهمته، من حيث شكله وهيئته وأعضاؤه بما يتفق مع وظيفته في الحياة، وما يصلح به معاشه من سائر الحيوانات والطيور والدواب:

فهذه السمكة، وهذه الزاحفة، وهذا الحيوان، وهذا الإنسان، وهذا الكوكب السيار، وهذا النجم الثاقب، وهذه العوالم والأفلاك، وهذه دقات القلب، وهذه دورة الدم، وهذا مدُّ البصر، وهذه حاسة السمع والشم، وهذا الحس والشعور.

إنه مهرجان ضخم من أصناف الخلق عجيب، في تناسق وإحكام وإبداع وجمال.

قال بعض العلماء: لو تصورتَ مثلًا أن للفيل مِثْلَ رأس الجمل، وأن للأرنب مِثْلَ رأس الأسد، وأن للإنسان مثلَ رأس الحمار، لوجدتَ في ذلك نقصًا كبيرًا، وعدم تناسب وانسجام.

ولكنك إذا علمتَ أن طول عنُق الجمل، وشقَّ شَفتِه؛ ليسهُل تناول الكلأ عليه أثناء السير.

وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير؛ لتناول طعامه وشرابه.

لو علمت كل هذا لتيقنْتَ أنه صُنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾.

---

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، بفتح اللام من (خلَقه) على أنه فعل ماض، والجملة صفة لكل، أو شيء. والباقون بإسكانها، على أنه مصدر، وهو بدل اشتمال.

إنها رحلة ممتعة في هذا الوجود، يبدؤها سبحانه بخلق الإنسان، حيث خصَّ آدم بالذكر بعد أن عم جميع الخق فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ والإنسان هو آدم أبو البشر، وهذه إشارة إلى سلسلة التراب التي خُلق منها آدم، حيث جُعل هذا التراب طينًا، ثم طينًا لازبًا، أي: لاصقًا، ثم حمأ مسنونًا، أي: تُرك هذا الطين حتى اسودَّ، ثم أصبح صلصالًا كالفخار، ثم نفخ الله فيه من روحه، فصار بشرًا سويًّا.

أبصر النبي ﷺ رجلًا قد أسبل إزاره، فقال: «ارفع إزارك»، فقال: يا رسول الله، إني أحنف[١] تصطك ركبتاي، فقال: **«ارفع إزارك، فإن كل خلْق الله عز وجل حسن»**[٢].

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة ﷺ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لحقنا عمرو بن زُرارة الأنصاري في حُلَّة قد أسبل، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه، فقال: يا رسول الله، إني أحْمَشُ الساقين -أي: دقيقهما- فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمرو بن زُرارة، إن الله قد أحسن كل شيء خلَقه، يا عمرو بن زُرارة، إن الله لا يحب المسبلين»**[٣].

أما ذرية آدم فقد خُلقت هي الأخرى من سلسلة، ولكنها من ماء مهين حقير يُصبُّ في أرحام النساء، وهذا الماء هو النطفة التي تخرج من بين الصلب والترائب، وهي في الأصل من الغذاء الذي يرجع أيضًا إلى التراب، فكأن التراب هو أصل الناس جميعًا، وإذا مات فإنه يتحلل ويعود إلى عناصره.

ثم جعل الله هذه النطفة علقة بعد أربعين يومًا، ثم مضغة بعد فترة مماثلة، ثم سواه بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروفه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه في موضعه المناسب له، ونفخ الله فيه من روحه، بأن أرسل إليه الملَك، فنفخ فيه الروح، فأصبح إنسانًا بعد أن كان جمادًا، كما نفخ في آدم وعيسى، فكان من هذا الكائن العضوي إنسان

---

(١) الحنَف: إقبال القدم بأصابعها على القدم الأخرى.

(٢) أحمد (٤/ ٢٩٠) برقم (١٩٤٧٢، ١٩٤٧٥) وهو صحيح الإسناد عن الشريد بن سويد، على شرط مسلم (محققوه) والطبراني (٧٢٤٠) قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٢٧): ورجال أحمد رجال الصحيح، وأخرجه الحميدي (٨١٠).

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٢٤): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٨٢).

ذو سمع وبصر، وحسٍّ وإدراك، وعقل وقلب وفؤاد، يُميز بين الأصوات، والألوان، والذوات، والأشخاص، كما يميز بين الخير والشر، والنافع والضار، ومع كل هذه الوظائف والخصائص البشرية، فقليل من الناس يشكرون ربهم على ما أنعم به عليهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون].

وقد أضاف الله تعالى الروح إلى نفسه تشريفًا للإنسان، وإيذانًا بأنه خلْق عجيب، وصُنْع بديع، وأن له شأنًا عظيمًا عند الله تعالى، فالذي خلق كل شيء، وخاصة الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، وأخرج أصله من تراب، ثم كوَّن فيه نظام التناسل من ماء مهين، كيف تُعجزه إعادة أجزائه يوم البعث والنشور؟!

الْيَوْمُ الْآخِرُ آتٍ لَا مَحَالَةَ

١٠- ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ (١) بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

في هذه الآية ردٌّ على منكري البعث، وتأكيد لوقوعه؛ وذلك أنه في كل لحظة من لحظات الحياة تُولَد المواليد في العالم، وهو مشهد مألوف لدى الإنسان، ولكنه يمر عليه دون فكر ولا نظر؛ لكثرة وقوعه وتكراره، ويمر الإنسان كذلك بأطوار خَلْقِه وحياته دون تأمل ولا اعتبار، ولم يدَّع أحد من البشر أنه خلَق الآخر، ولكن القرآن يأتي دائمًا بالنشأة الأولى؛ ليذكِّرنا بما يعقُبها من النشأة الآخرة، فيستدلوا بالأولى على الآخرة، ويعلموا أنه لا وجه لاعتراضهم وشكِّهم، فهذا الشك في البعث من بعض الناس غريب كل الغرابة.

والمعنى: قال المكذبون بالبعث، المنكرون لليوم الآخر على سبيل الاستبعاد: أئذا صارت لحومنا وعظامنا ترابًا في جوف الأرض، أنُبعث مرة أخرى في خلق جديد، ونعود إلى الحياة الدنيا ثانية؟ وهذا استبعاد للبعث مع الاستهزاء والسخرية.

إنهم يستبعدون ذلك بعد موتهم ودفنهم، وتحوُّلِ أجسادهم إلى رُفات يغيب في

---

(١) (لفي خلق جديد) عدّها آية أهل الشام والحجاز، وتركها البصري والكوفي.

الأرض، ويختلط بترابها.

إنه بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، وعقولهم القاصرة، التي تقيس قدرة الله تعالى على قدرتهم!! وهم لا يطلبون بإنكارهم البعث، التوصل إلى الحق، وإنما هو الكفر والعناد وعدم الاعتراف بلقاء ربهم الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم، إنهم - لانطماس بصائرهم واستيلاء الجحود على قلوبهم- كافرون مكذبون بلقاء ربهم، منكرون لإعادة الحياة إليهم بعد موتهم، والباعث على إنكارهم للبعث، هو إصرارهم على الكفر الذي لا تنفع معه الآيات والأدلة، ولوكان قصدهم معرفة الحق لا استفادوا من الأدلة القاطعة كالشمس في رابعة النهار، ومن ذلك: أن الإعادة أسهل من البداية في مفهوم العقلاء، والأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها، وهكذا:

ثم إن الذي يتولى قبض الأرواح ملَك خاص مُوكّل بقبضها وله أعوان يساعدونه. قال تعالى:

١١- ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[١] ⑪﴾

يردُّ الله سبحانه على اعتراض المكذبين بالبعث وشكهم فيه، فيقرر وفاتهم في الدنيا وعودتهم إلى الله تعالى في الآخرة، ويكتفي في الاستدلال على ذلك بالمشاهد الحسية التي نراها بأبصارنا ونسمعها بآذاننا.

والمعنى: قل لهم -أيها الرسول- يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم لقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، ولن تتأخروا لحظة واحدة، ثم إلى ربكم ترجعون فتردون إليه؛ ليجازيكم على أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وملَك الموت له أعوان ينتزعون الأرواح من الأجساد، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم، تناولها ملَك الموت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وفي بعض الآثار: إن ملك الموت اسمه (عزرائيل)، وهذا من الإسرائيليات.

---

(١) قرأ يعقوب بالبناء للمعلوم في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمجهول.

وفي حديث البراء بن عازب (الطويل): أن النبي ﷺ ذَكَر فيه :أن ملَك الموت إذا أخذ روح الميت، أخذها من يده بسرعة، ملائكةٌ فصعدوا بها إلى السماء، وبيَّن ﷺ ما تُعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخْذ الملائكة لها من ملَك الموت، فدل هذا على أن ملك الموت معه ملائكة آخرون يأخذون من يده الروح، وأن لملَك الموت أعوانًا يعملون بأمره.

قال مجاهد: جُمعت له - أي لِملَكِ الموت - الأرض فصارت مثل الطَّسْت، يتناول منها حيث يشاء[1].

وقال مجاهد أيضًا: ما على ظهر الأرض من بيت شَعْرٍ أو مدَرٍ، إلا وملَك الموت يُطيف به كل يوم مرتين[2].

مَشْهَدُ مُنْكِرِي الْبَعْثِ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

١٢- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

وبمناسبة البعث يأتي مشهد حافل بالتأثُّرات والحركات والحوار، كأنه واقع مُشَاهَد شاخص للعيان: ولو ترى -أيها المخاطب- إذ المجرمون الكافرون الذين أنكروا البعث في الدنيا قد خفضوا ونكسوا رؤوسهم يوم القيامة عند ربهم من الحياء واليأس، والخزي والذل، وهم معترفون بالخطيئة، مُقِرُّون بالحقيقة التي جحدوها، موقنون بما شكُّوا فيه، ويقولون: ربنا أبصرنا حقيقة الأمر، وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وقد كنا في الدنيا بمنزلة العمى الصم، وقد تُبْنا إليك ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا نعمل صالحًا، فقد أيقنَّا الآن وآمنا بوحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يُعبد أحد سواك، ولا أن يكون لنا رب غيرك، فوعْدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، وقد كنا في الدنيا مكذِّبين بوحدانيتك، وأنك لن تبعث مَنْ في القبور.

ولو رأيت -أيها المخاطب- ما هم فيه من خزي وذل وندم، لرأيتَ أمرًا عظيمًا وخَطْبًا جسيمًا، وحالًا مُزعجة، وأقوامًا خاسرين، وسؤالًا غير مجاب.

---

(١) الطبري (٢١/ ٦٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٦١) عن عبد الرزاق بسنده.

١- وهذا كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد].

وكل ما يحدث في الكون بقضاء الله وقدره، وفْق ما عَلمه من خلْقه قبل وجودهم في هذه الحياة:

الْإِنْسَانُ يَصْنَعُ مُسْتَقْبَلَهُ بِنَفْسِهِ

١٣- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقبل أن يعلن السياق مصير أهل الشقاء المحتوم، يقرر الحقيقة التي تتحكم في حياة الناس قبل هذا المصير، فلو شاء ربك لجعل للناس جميعًا طريقًا واحدًا، هو طريق الهدى والرشاد، والتوفيق للإيمان.

كما وحَّد طريق الحشرات والطير والدواب، وجعلها تهتدي إليه سبحانه بفطرة كامنة فيها، وكما جعل الطريق الوحيد للملائكة هو الطاعة والانقياد.

ولكن اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل للإنسان والجن طريقًا مميزًا يختار فيه طريق الهدى أو الضلال بنفسه.

فهو سبحانه يريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، وليس بطريق الإجبار والإكراه، والله تعالى يعلم ما سيختاره كل مخلوق من الثقلين بنفسه وكامل حريته، عندما يكون بالغًا مكلفًا، فكشف الله ذلك للملائكة، وسجَّل على الناس ما سيحدث منهم مستقبلًا في أم الكتاب.

وعِلْمُ الله تعالى لا يتخلف، وإلا كان -تعالى الله عن ذلك- جاهلًا بحال مَنْ خلَق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ [المُلْك: ١٤].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان]. وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد]

أي: أرشدناه إلى طريق الهدى والضلال، وعليه أن يختار.

لقد كتب الله في الأزل وجوب عذاب من كفر من الإنس والجن في نار جهنم، وقرر مِلأها بمن كفر منهم، وذلك وفق ميول الناس، واختيارهم طريق الضلال وسلوكهم الطريق المؤدي إلى جهنم، وهذا معنى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦].

فهم الذين ضلُّوا أوَّلًا، وهم الذين زاغوا أوَّلًا عن طريق الهدى، وهم الذين فسقوا وخرجوا عن الصواب والرشاد، ويقال لهؤلاء المجرمين عند دخولهم النار:

١٤- ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

أي أنه يقال للمجرمين يوم القيامة الذين سألوا الرجعة إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم:

فذوقوا العذاب بسبب غفْلتكم عن الآخرة، وانغماسكم في شهوات الدنيا، إنا تركناكم اليوم في العذاب بسبب إصراركم على كفركم.

ويقال لهم أيضًا: امكثوا في نار جهنم، فهو عذاب خالد لا ينقطع، وذلك بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر بالله ومعاصيه.

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ [النبأ].

وهذا مشهد من مشاهد الدار الآخرة، عجَّل الله لنا به في الدنيا، ونحن في فُسْحة من الوقت؛ لتدارُك الأمر قبل فوات الأوان.

ويُسدل الستار على أهل المصير المحتوم بعد كلمة الفصل، وهو مشهد من شأنه أن يحيي القلب الميت!! ليفتح الستار عن أهل السعادة، بذكر صفاتهم ونعيمهم عند ربهم:

أَهْلُ السَّعَادَةِ وَنَعِيمُهُمْ

١٥- ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾

هذا وصف لأكمل حالات الإيمان، وذلك أنه لما بيَّنت الآيات السابقة، عاقبة أهل الشقاء الوخيمة، أتبعتْها ببيان حال السعداء في مشهد تخْفق له القلوب، وتستروح له النفوس، وتشرئب له الأعناق طمعًا في فضل الله تعالى.

ويبدأ هذا بذكر أوصاف هؤلاء السعداء، والثناء عليهم، فهم المؤمنون المصدقون بالقرآن، العاملون بما فيه، الذين تخشع قلوبهم وتقشعِرُّ أبدانهم إذا وُعظوا بالقرآن، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، وسجدوا لربهم خاشعين مطيعين، وسبَّحوا بحمد ربهم في سجودهم وهم في ذل وانكسار، من غير استعلاء ولا استكبار، مستشعرين جلال الكبير المتعال، وهذا بخلاف أهل الكفر المعرضين عن آيات الله تعالى، الذين لا يتعظون ولا يعتبرون. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد، حتى ما يجد أحدنا مكانًا لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة[(١)].

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويلتي، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار**»[(٢)].

وسجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع في الصلاة وخارجها. قال تعالى في وصف أهل السعادة:

١٦- ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

صوَّر القرآن في هذه الآية هيئة أجساد أهل الإيمان الكامل، ومشاعر قلوبهم أثناء

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (٥٧٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨١).

تهجدهم بالصلاة في قيام الليل، حيث ترتفع جنوبهم عن فُرش النوم، فيتركون الراحة والشهوة، ولذّة المنام والمضاجع اللينة؛ لأن لها مع ربها شُغلًا بالتوجه إليه، والوقوف بين يديه، يتنازعها الرجاء في رحمة الله تعالى، والخوف من عذابه في دعائها لربها والناس نيام، وهم في طاعة الله وفي سبيله، ينفقون أموالهم من الزكوات والكفارات في مصارفها، وينفقون على من تلزمهم نفقتهم من الزوجات الأبناء والأقارب، ويخرجون النفقة المستحبة في وجوه الخير.

وهكذا وصف الله أهل السعادة بثلاثة أشياء هي:

١- صلاة التهجد. ٢- والدعاء في جلب المصالح الدينية والدنيوية.

٣- والإنفاق مما رزقهم الله تعالى.

وقد ذكرت الآية السابقة ثلاث صفات لهم كذلك، وهي:

١- إنهم يخرون لله سجدا إذا تليت عليهم آياته فيتدبروها ويعلموا بها.

٢- إنهم يسبحون بحمد الله بكرة وعشيا.

٣- إنهم لا يستكبرون على عبادة الله ولا على خلق الله.

فهذه ستة أوصاف في الآيتين للمؤمنين بآيات الله.

إنها صورة مشرقة مضيئة، في مقابلة الصورة المخزية الفاضحة قبلها.

وأشهر الأقوال أن المراد بالتجافى في الآية: صلاة الليل.

والمراد من تجافي الجنب: صلاتا العشاء والفجر في جماعة، وكلما استيقظ العبد ذَكَر الله تعالى، ويتكرر هذا في الليلة الواحدة، فيكثر السهر بقيام الليل، والدعاء إلى الله تعالى.

أحاديث في معنى الآية:

١- وعن أسماء بنت يزيد ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمِع الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم من أوْلى بالكرم، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع»**[1].

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو يعلى في «المسند الكبير»، يُنظَر: «المطالب العالية» (٤/ ٣٧٣).

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة[١] وهم الذين يدعون ربهم خوفًا من عذابه، وطمعًا في رحمته، وينفقون مما رزقهم الله في سبيل الله وفي طاعته.

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾ [الزخرف].

٣- وعن أنس ﷺ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقدًا قط قبل العشاء، ولا متحدثًا بعدها، فإن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[٢].

٤- وأخرج الإمام أحمد وغيره: عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى يعجبُ من رَجُلَيْن: رجل قام إلى صلاته من تحت فراشه تاركًا زوجته وأحبابه، فيقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي ترك فراشه وأهله وحِبَّه وقام إلى صلاته رغبة فيما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم، فعلم ما عليه في الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندي، فيقول الله ﷻ لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهريق دمه**»[٣].

٥- وعن عبادة بن الصامت، وكعب، قالا: إذا حُشِر الناس نادى منادٍ: هذا يوم الفصل، أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ أين الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم؟ ثم يخرج عنق من النار فيقول: أُمرت بثلاثة: بمن جعل مع الله إلهًا آخر، وبكل جبار عنيد، وبكل معتدٍ، لأنا أعرف بالرجل من الوالد بولده، والمولود بوالده[٤].

---

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٣١٩٦) في كتاب «التفسير»، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٤) وفي التعليق الرغيب (١/ ١٦٠) وهو في الطبري (١٨/ ٦١١).

(٢) عبد الرزاق في «المصنف» (٢١٣٨) وعن عائشة (٢١٣٧) قال الهيثمي (١/ ٣١٦) عن الأخير: رجاله رجال الصحيح.

(٣) ينظر: الحديث في «المسند» (١/ ٤١٦) برقم (٣٩٤٩) بإسناد حسن، وصحح الدار قطني وقفه، وفي «سنن أبي داود» (٥٢٣٦) بنحوه، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣) وابن أبي عاصم في السنة (٥٦٩) وأبي يعلى (٥٣٦١).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص ١٦٨ .

في فضل قيام الليل:

(أ) في حديث طويل: أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: **«ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»**، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١].

(ب) وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»**[٢].

(ج) وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تفطَّرت قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»** فلما كثر لحمه صلى جالسًا، فإذا أراد أن يركع، قام فقرأ ثم ركع[٣].

(د) وكان من أول ما قاله النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة مهاجرًا: **«يأيها الناس، أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**[٤].

ولم تذكر نافلة في القرآن إلا صلاة الليل ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[الإسراء].

---

(١) من حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣١) برقم (٢٢٠١٦) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وقال الترمذي: حسن صحيح (٢/ ٨٦) برقم (٢٦١٦) وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٣) وابن ماجه برقم (٣٩٧٣) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣٩٤) و«مصنف عبد الرزاق» (٢٠٣٠٣) والطبراني في «الكبير» (٢٦٦) والبزار في «كشف الأستار» (٢٧) وابن ماجه (٣٩٧٣) وعبد بن حميد (١١٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١١٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٣٧) وانظر: (١١١٨) وعن المغيرة (١١٣٠، ٤٨٣٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٢٠) مختصرًا، (٧٣١) مطولًا، وعن المغيرة برقم (٢٨١٩).

(٤) من حديث عبد الله بن سلام في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٤، ٢٦٣٠) بتصحيح الألباني والترمذي (٢٤٨٥) والحاكم (٣/ ١٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣١)، وفي سنن أبن ماجه (٣٢٥١).

ثم ذكر سبحانه جزاء أهل السعادة يوم لقائه فقال:

١٧- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ[1] لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: ولأن نعيم أهل الجنة غيب، يجلُّ عن الوصف، ولا يحيط به العقل، فقد أجمله الله تعالى في عبارة قصيرة، ولمحة وجيزة؛ ليذهب فيها التالي لها كل مذهب، ويتصور فيها خياله كل وصف ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: فلا تعلم نفس مما ادَّخره الله لهؤلاء المؤمنين، مما تقرُّ به العين، وينشرح له الصدر، جزاء لهم على أعمالهم الصالحة.

ولفظ (نفس) نكره في سياق النفي، أي فلا يعلم أحد، ويدخل في ذلك نفوس الخلائق جميعًا، على مختلف رغباتها وشهواتها وملذاتها، وما نتمناه ونشتهيه.

قال ابن عباس ﷺ: هذا ما لا تفسير له، أي: فلا تعلم نفس من أهل الدنيا ما أعده الله لهم؛ لأن إدراك العقل ينتهي إلى ما لا يدركه البصر، وما يدركه السمع من محاسن الأقوال والأفعال والمرئيات، وإلى ما يبلغ به خياله من مجموع ما يعهده في حياته.

والمعنى: فلا يعلم أحد من أهل السعادة ما أعده الله له من الخير الكثير والنعيم المقيم، والفرح والسرور، واللذة والحبور، مما لم يخطر لهم على بال، ولم تره أعينهم، ولم تسمعه آذانهم، جزاء ما صلّوا في الليل، ودعوْا ربهم، ولم يُراؤوا بعملهم، فأخفى الله أجرهم.

والإنسان لم يعهد في حياته أنهارًا من العسل واللبن والخمر، ولم يعهد قصورًا من ذهب أو فضة، ولم يعهد قبابًا من لؤلؤ، ولا أشجارًا من زبرجد، ولا أزهارًا من ياقوت، ولا ترابًا من مسك وعنبر، ولا نحو ذلك مما أعده الله في الجنة لعباده المتقين مما لا يحيط به الوصف، ولا يدرك كنهه البشر؛ لأن ما يخطر على قلب البشر هو ما ينتهي إليه الوصف المعهود إليه، وما تنتهي إليه دلالة اللغة في الألفاظ، وما في الجنة أعظم وأكبر من ذلك، لا يتسع خيال الإنسان لاستيعابه، ولا يعلم كنْهه إلا الله، فاللهم إنا نسألك من فضلك.

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب بإسكان الياء من (أخفي) على أنه فعل مضارع مرفوع؛ لتجرده من الناصب والجازم، وهو مسند إلى ضمير المتكلم، وقرأ الباقون بفتح الياء على أنه فعل ماض مبني للمجهول، ونائب فاعله ضمير يعود على (ما).

أحاديث في معنى الآية:

١- في صحيح مسلم وغيره: عن المغيرة بن شعبة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ على المنبر يُخبر الناس أن موسى ﷺ سأل ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة؟ فأخبره أنه آخر أهل الجنة دخولًا، وأنه يُعطى مثل مُلك خمسين مَلِكًا من ملوك الدنيا، ثم يقول الله له: ولك ما اشتهت نفسك، ولذّت عينك.

ثم سأل موسى عن أعلى أهل الجنة منزلة؟ فقال: أولئك الذين غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[١].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تُبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»**[٢].

٣- وعن سهل بن سعد ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يصف الجنة حتى انتهى، ثم قال: **«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»**، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآيتين.

قال أبو صخر: فذكرتُه للقرطبي، فقال: إنهم أخفوْا عملًا، وأخفى الله لهم ثوابًا، فقدموا على الله، فقرَّت تلك الأعين[٣].

٤- وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»** اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٤].

٥- قال ابن مسعود ﷺ: في التوراة مكتوب: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٨٩) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٩٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٦).

(٣) ابن أبي شيبة (١٣/ ١٠١) ومسلم (٢٨٢٥) وأحمد (٣٧/ ٤٨٣) (٢٢٨٢٦) والطبراني (٦٠٠٢) والحاكم (٢/ ٤١٣).

(٤) البخاري (٤٧٧٩) و«فتح الباري» (٨/ ٣٧٥) ومسلم (٤/ ٢١٨١) برقم (٢٨٢٤) والترمذي (٣١٩٧).

المضاجع، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[١].

المُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي الْجَزَاءِ

١٨- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾

بيَّن ﷻ أن الأبرار والفجار لا يستوون؛ لأن عدالة الله تبارك تعالى تقتضي جزاء كلِّ فريق بما عمل، أفمن كان مطيعًا لله ﷻ، مصدقًا برسوله ﷺ، موقنًا بوعده تعالى للمؤمنين بالجنة، وبوعيده للكافرين بالنار - قد عمّر الإيمان قلبه، وانقادت له جوارحه، وعمل بمقتضى هذا الإيمان، وترك ما يُسخط الله تبارك وتعالى - هل يستوي هذا بمن كان كافرًا بالله ورسوله، مكذبًا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب؟ قد تعطّل قلبه عن الإيمان، وعُدم فيه الوازع الديني، فأسرعت جوارحه إلى المعاصي، وخرج بفسقه عن طاعة الله والرسول؟ هل يستوي هذا وذاك؟

الجواب: لا يستويان عند الله تعالى؛ ولا يستويان في عقل ولا شرع، كما لا يستوي الليل والنهار، ولا الضياء والظلمة، فكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة، لأنهم لم يستووا في العمل وهم في الدنيا، فكيف يستوون في الجزاء في الآخرة؟ فلا عجب إذن أن يَلْقَىٰ كلٌّ منهما جزاءه المناسب، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ أنه كان بين عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط، نزاع وخصومة، فقال الوليد بن عقبة لعليّ ﷺ: اسكت، فإنك صبي، وأنا والله أبسَطُ منك لسانًا، وأشجع منك جَنانًا، وأملأ منك حشوًا في الكتيبة، فقال له عليّ: اسكت فإنك فاسق، فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ قال:

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٦٣).

يعني بالمؤمن: عليًّا، وبالفاسق: الوليد بن عقبة[(١)].

والمعنى عام يشمل كل مؤمن وفاسق إلى قيام الساعة.

ثم فصَّل سبحانه جزاء كل فريق، فذكر أوَّلًا ثواب المؤمنين، قال تعالى:

١٩- ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

أما الذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالكعبة قبلة، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها من فرائض ونوافل، واستقاموا على منهج الله تعالى، فلهم جنات المأوى أعدها الله لهم، يأوون إليها في الدار الآخرة، في ملذات وخيرات وأفراح ونعيم، ورضوان من الله أكبر، وتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وهم يقيمون في نعيمها ضيافة لهم، فالجنة هي المأوى الحقيقي، والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، وهذه الجنة جزاء لهم بما عملوه في الدنيا من طاعته سبحانه بامتثال أمره واجتناب نهيه فأعمالهم الصالحة في الدنيا هي التي أوْصلتهم إلى تلك المنازل العالية، التي لا يمكن الوصول إليها بالأموال ولا بالأولاد ولا بالجاه ولا بالجنود والحراس، ولا سبيل لها إلا بالإيمان والعمل الصالح، ثم ذكر سبحانه جزاء أهل النار، فقال:

٢٠- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: وأما الذين فسقوا، وخرجوا عن طاعة الله ورسوله، وعملوا بمعاصيه فمستقرهم ومنزلهم دار جهنم، يأوون إليها، ويقيمون فيها ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ولا يُفتّر عنهم العذاب ساعة واحدة.

قال الفُضَيْل بن عياض: والله إن الأيدي لمُوثقة، وإن الأرجل لمقيَّدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم[(٢)].

---

(١) من «تفسير ابن كثير» و«الخازن» و«البيضاوي» للآية، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٩٢ والسيوطي (٢٢١) و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٠٥) و«الدر المنثور» (٥/ ١٧٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٦٩).

إنهم يحاولون الفرار من النار والخروج منها فلا يستطيعون، ثم يسألون خزنة جهنم أن يخففوا عنهم ولو قليلًا من العذاب، فيلُومُوهم على كفرهم لومًا شديدًا، ويذكِّروهم بعدم الاستجابة لرسل الله في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر]. ولو يومًا واحدًا.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر]. فلن يستجاب لكم.

ثم يذهبون إلى (مالك) خازن النار، فيطلبون منه القضاء عليهم في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم بعد طول مدة: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف].

لذا فإنه يقال لأهل جهنم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، فهو تقريع لهم، مصحوب بالدفع إلى نار جهنم والتعذيب فيها، والعياذ بالله!! قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يُدفعون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾.

ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور].

ولأهل النار عذاب في الدنيا، وفي قبورهم، قبل عذاب جهنم، كما قال تعالى:

٢١- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذا وعيد لأهل النار بالعذاب الدنيوي قبل عذاب الآخرة، ومن ذلك ما يكون عند الموت، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ لهم بالعذاب، ويقولون لهم ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]

والله تعالى لا يحب أن يعذب عباده، ولكنَّ بعضهم يُصِرُّ على موجبات العذاب، وهذا وعيد لهم بالعذاب وهم في الدنيا؛ كي يرجعوا إلى الله تعالى، وتستيقظ فِطَرهم، فيبتليهم الله تعالى بالهزائم والفتن، وجُثُوم العدو على صدورهم، والتحكم فيهم، وتدنيس

مقدساتهم، ويبتليهم بالزلازل والمحن والمصائب، والآفات، والجوع والمرض، وجور الحكام، دون أن يؤثر هذا فيهم، وهذا هو العذاب الأدنى الذي يكون في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

والعذاب في الدنيا قد لا يكون موصولًا بالموت، فيذيقهم الله منه حتى يتوبوا إلى ربهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]

ومن العذاب الأدنى: سؤال القبر وعذابه، وكونه حفرة من حفر النار، قال تعالى عن آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذا في البرزخ بدليل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] والقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وهو عنوان لما بعده، فاعتبروا يا عباد الله، فإذا لم يعتبروا وهم في الدنيا، ويعملوا للنجاة من العذاب الأكبر يوم لقاء ربهم، فهم ظالمون لأنفسهم:

٢٢- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ولا أحد أشد ظلمًا لنفسه ممن وُعظ بدلائل قدرة الله تعالى وتوحيده، ثم أعرض عنها وجحدها وتركها، فلم يتعظ، ولم يعتبر، ولم ينتفع، ولكنه استكبر وتمادى في غيه وطغيانه، فلم يؤمن بها ولم يتّبعها بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، ولذا: توعّدهم الله تعالى وهددهم بالعذاب، فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: ننتقم ممن أعرض عن آيات الله وحُججه، ويا لَهُ من تهديد، ووعيد من الجبار المنتقم!! قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر].

وجاء في الأثر عن معاذ بن جبل ﷺ: **«ثلاث من فعلهن فقد أجرم: مَنْ عقَد لواءً في غير حق، ومن عقَّ والديه، ومن مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم»**[1].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٩) و«المطالب العالية» (٤٠٩٣) والطبراني (١١٢) وقد ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٩٥١) باعتباره حديثًا مرفوعًا للنبي ﷺ.

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَتَأَسَّى بِمُوسَى فِي صَبْرِهِ عَلَى إِعْرَاضِ قَوْمِهِ

٢٣- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

هذه الآية لبيان أن ما لقيه محمد ﷺ من إعراض قومه عنه هو نظير ما لقي موسى ﷺ من قوم فرعون، فلا تحزن -أيها الرسول- ولتكُن لك فيه أسوة، ولا تكن في شك من لقاء موسى في الدنيا والآخرة.

ومن هنا كان الحديث عن موسى عليه السلام، وبني إسرائيل في هذه السورة، إشارة خاطفة لمجرد الربط بين ما لقيه موسى ﷺ من قومه، وما لقيه محمد ﷺ من قومه، من أذى وعنَت، فاصبر -يا محمد- كما صبر موسى.

والمعنى: ولقد آتينا موسى التوراة، كما آتيناك القرآن يا محمد:

١- فلا تكن -أيها الرسول- في شك من نزول التوراة على موسى، وتلقِّي موسى لها بالرضى والقبول.

٢- ولا تكن في شك مما لقيه موسى من الأذى، وقد جعلنا التوراة كتاب هداية لبني إسرائيل يدعوهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

٣- وقال بعضهم ولعله الأنسب: فلا تكن -يا محمد- في شك من لقاء موسى:

فقد روى ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مررت ليلة أُسري بي على موسى بن عمران، رجل آدم، طوال، جعْد، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلْق، إلى الحُمرة والبياض، سبْط الرأس**» ورأيت مالكًا خازن النار، والدجال في آيات أراهُنَّ الله إياه ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال: كان قتادة يفسرها أن النبي ﷺ قد لقي موسى عليه السلام[١].

وهذا الحديث يفسر الآية.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٦٥) و«صحيح البخاري» (٣٢٣٩) و«تفسير الطبري» (٢١/ ١١٢).

وفي صحيح مسلم: عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيتُ على موسى ليلة أُسري بي، عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره**»[١]

فالأنبياء لا تأتي عليهم الأرض، وصلاته ذِكر وشُكر لا تكليف.

وصح في حديث العروج : أن النبي ﷺ رأى موسى في السماء السادسة، وقد ذُكر موسى ﷺ في الآية، ولم يُذكر عيسى ﷺ؛ لأن النصارى يعترفون برسالة موسى، ولم يقل اليهود: إن عيسى ابن الله، فكان الاستدلال بموسى أوقع.

وقال أبو العالية: فلا تكن في مرية من لقاء موسى، قيل: أوَلقِيَ موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[٢] [الزخرف: ٤٥]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

والمقصود من الآية: تقرير رسالة موسى ﷺ وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحْيٌ سماويٌّ، وكتاب إلهي، قبل أن تمتد إليه أيدي اليهود بالتحريف والتبديل.

٤- وأخرج الطبراني بسند صحيح إلى ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ أن المعنى: فلا تكن في مرية من لقاء موسى ربه، وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل[٣].

فهذه أربعة معانٍ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

والمعنى: ولقد أنزلنا التوراة على موسى كما أنزلنا القرآن على محمد.

١-فليس غريبًا أن يصيبك من الأذى مثل ما أصاب موسى من قوم فرعون.

٢-ولا تكن في شك من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج.

٣-ولا تكن في شك من لقاء موسى يوم لقاء رب العالمين.

٤-ولا تكن في شك من نزول التوراة على موسى،فقد صدقها القرآن وأثنى عليها قبل أن تحرّف.

ثم مدح الله تبارك وتعالى من أسلم من اليهود فقال:

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٥).

(٢) ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١١/ ٧١٠).

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٣٧) والبيهقي (٢/ ٣٨٦).

٢٤- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا[(١)] صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: وجعلنا من بني إسرائيل هُداة ودعاة إلى الخير، علماء بالشرع وطرق الهداية، يأتمُّ بهم الناس، ويدعونهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وهؤلاء هم الذين دخلوا في الإسلام منهم، فالكتاب الذي أنزل إليهم فيه هدى ونور، والمؤمنون به منهم أئمة يهدون بأمر الله، ومنهم أتباع مهتدون بهم، والنوع الأول أرفع درجة وأعلى مقامًا، وقد نالوا هذه الدرجة العالية، لأنهم صبروا على أوامر الله تعالى وطاعته، وما رزق الله عبدًا رزقًا خيرًا له وأوسع من الصبر.

ولفظ ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية للتبعيض، وهذا يصدق على من قال الله فيهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف].

وهو ينطبق على عبد الله بن سلام، وتميم الداري، وغيرهما، ممن اعترفوا برسالة محمد ﷺ، ولم ينكروا علاماته في التوراة.

وفي الآية تحذير وتنبيه لكل من لم يعتنق الدين الأخير، وبشرى لهم بأنهم إن آمنوا وأطاعوا جعل الله منهم أئمة وهداة يُقتدى بهم.

ولا يدخل في الآية من بقي على اليهودية منهم إلى يومنا، وإلى قيام الساعة.

وهناك مسائل، اختلف منها بنو إسرائيل، فمنهم من أصاب الحق، ومنهم من أخطأ عن عمد أو خطأ، والله تعالى سيفصل بينهم يوم القيامة، فيصدّق أحد الفريقين ويكذب الآخر:

٢٥- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولا يزال الحديث موصولًا عن يوم القيامة وما فيه من الحكم والقضاء، والفصل بين العباد، فيتناول السياق الفصل يوم الحساب والجزاء، بين محمد ﷺ وقومه، كما يفصل بين المؤمن والكافر، وبين أهل السعادة وأهل الشقاء.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم من (لما) على أن اللام حرف جر، وما مصدرية مجرورة باللام، والجار والمجرور متعلق بـ(جعل)، أي: جعلناهم أئمة هادين لصبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم، على أن (لما) ظرفية بمعنى حين، أي: جعلناهم أئمة هادين حين صبْرِهم.

وكذلك الشأن في اختلاف بني إسرائيل في شأن موسى عليه السلام، واختلافهم في أمور الدين، والبعث، والثواب والعقاب، وغير ذلك، فكل ذلك متروك إلى الله تعالى، يقضي بينهم بالعدل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فيميز المحق من المبطل، ويجازي كلًّا منهم بعمله، وما يستحق من الجنة أو النار.

وفي هذا تثبيت لقلب النبي ﷺ على ما يلْقاه هو والمسلمون معه من التكذيب والإعراض، والصبر على الشدائد، وليكون هذا منهجًا يحتذيه الدعاة إلى الله تعالى بعده في كل زمان ومكان.

الِاعْتِبَارُ بِمَصَارِعِ الْغَابِرِينَ

٢٦- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

في هذه الآية إظهار الحجة على الكفار إلى يوم القيامة، بالأمم السابقة الذين كفروا برسلهم فأهلكهم الله تعالى.

فهذه جولة مع مصارع الغابرين؛ لنأخذ العبرة منهم؛ كي نثبُت على الحق ونتمسك به، وحتى يرتدع الكفار عن كفرهم، فسُنة الله تعالى في خلقه ماضية لا تتخلف.

ومن المعلوم أن العرب -وهم نواة الإسلام الأولى، وفيهم نزل القرآن- يمشون في مساكن عاد وثمود، وغيرهما، ويعرفونها.

والقرآن يستنكر أن تكون مصارع هؤلاء الظلمة بين أيدينا، ثم لا نتوقَّى مثل مصيرهم.

والمعنى: أوَلم يتبيَّن لهؤلاء المكذبين للرسول ﷺ كم أهلكنا قبلهم من الأمم السابقة على كثرتهم، يمشون في مساكنهم فيشاهدونها عيانًا في أسفارهم، وهم لا يرون فيها أحدًا، كديار قوم لوط وقوم شعيب، فهل غفلوا عن ذلك ولم يعرفوه؟ إن في هلاك المكذبين عظات ودلالات يُستدل بها على صدق الرسل، وبطلان ما عليه الأقوام من الشرك، والله تعالى مُجازى العباد حين يبعثهم للحشر والحساب.

أفلا يسمع هؤلاء المكذبون بالرسل مواعظ الله وحججه، فينتفعوا بها؟ وهذا كقوله

تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم]. وغير ذلك من الآيات.

إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ كَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الأَرْضِ

٢٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

في هذه الآية إظهار الحجة على الكفار، بقدرة الله تعالى على البعث بعد الموت، والاستدلال على ذلك بإحياء الأرض الموات بالماء والنبات.

حيث يعود السياق فيربط العبد بربه مرة أخرى؛ بذكر دليل من أدلة التوحيد الذي هو موضوع السورة، وموضوع حوار المشركين الأساس.

وبمناسبة ذكر مصارع الغابرين، وتسوية بيوتهم بالتراب، يأتي هذا الدليل، وفيه مشهد الحياة وهي تدب في الأرض الميتة.

أي: أولم ير المكذبون بالبعث بعد الموت، فيشاهدوا بأعينهم، أننا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الجامدة، التي لا نبات فيها، فإذا هي خضراء يانعة بالزرع والثمار مختلفة الألوان والمذاق، تأكل منها الأنعام، وتتغذى بها أبدانهم، فيعيشوا بها؟ أفلا يرون ذلك فيعتبروا، ويعلموا أن الله تعالى الذي فعل ذلك، قادر على إحياء الأموات ونشرهم من قبورهم؟

والأرض الجرُز: هي التي تشرب السيول لا المطر.

قال ابن عباس: هي أرض أبين باليمن وهي أرض لا تُنبت شيئًا.

وعن إخراج النبات من الأرض قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس].

فالمعنى: ونخرج بهذا الماء زرعًا وكلأً تأكل منه أنعامهم وتتغذى به أبدانهم، أفلا

يرون هذه النعم بأعينهم، فيعلموا أن الله الذي فعل ذلك قادر على إخراج الأموات أحياء من الأرض، كما أخرج النبات من الأرض اليابسة بعد أن غاب فيها البذر، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يوفقوا للخير.

ومما يُذكر في هذا أن أهل مصر كانوا قبل الفتح الإسلامي إذا مرَّ اثنا عشر يومًا من شهر (بؤونة) القبطي الذي يقل فيه منسوب الماء جدًّا، فإنهم يأتون ببنتٍ بكرٍ، ويزيِّنونها بالحليِّ والثياب، ثم يُلْقونها في نهر النيل؛ كي تجْري مياهه -على حد زعمهم.

فلما فُتحت مصر، وعَلم عمرو بن العاص بهذا كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه بطاقة وأمره أن يُلْقي بها في النيل بدلًا من الجارية، ففتحها عمرو فإذا فيها:

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر.

أما بعد: فإنك إن كنت تجري من قِبَلِك فلا تجرِ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك، فنسأل الله أن يُجريك.

فألقى عمرو بالبطاقة في نهر النيل، وأصبحوا يوم السبت، وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة، وقطع الله تلك العادة عن أهل مصر إلى الآن[١].

يَوْمُ الْفَتْحِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

٢٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨﴾

في نهاية السورة يأتي هذا السؤال من المكذبين بالرسول ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى، فهم يتساءلون على سبيل السخرية والتهكم: متى هذا الفتح؟ فما المراد بالفتح المذكور؟

إنه اليوم الذي ينصر الله فيه نبيه في الدنيا والآخرة.

وكان المسلمون يتحدَّوْن المشركين بأن الله سيفتح عليهم، وينصُرهم ويُظهر دينهم، فيتهكَّم بهم الكفار، بالسؤال عن هذا الوقت، الذي سيفتح الله عليهم فيه، وكان أصحاب النبي ﷺ يقولون للكفار: إن الله تعالى ناصرنا ومظهرنا عليكم، فيقولون: متى هذا

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٣) وهو في كتاب «السُّنة» للالكائي برقم (٦٦) قسم كرامات الأولياء وهو أثر مرسل، عن ابن إسحاق عن ابن لهيعة.

الفتح؟ أي: متى يأتي هذا اليوم الذي يتم فيه الفتح على محمد ﷺ فيُنصر علينا؟ يقولون ذلك استهزاءً واستعجالًا لنزول العذاب بهم، فكان الجواب: إن العذاب سينزل بهم سريعًا بدون مهلة. قال تعالى:

٢٩- ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ويأتي الجواب في هذه الآية على طريقة الأسلوب الحكيم، بأن يوم الفتح الحق، هو يوم القيامة، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بيننا وبينكم، وينقطع أملكم في رجاء النجاة من النار، أو الاستفادة من الندم، أو التوبة، فهو يوم لا يُقبل فيه من الكفار إيمان ولا اعتذار، فلماذا يستعجلون؟ ويوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي؛ حيث يفصل الله بيننا وبينكم، فينصر المؤمنين على الكافرين، ولا يُمهلون أو يُؤخرون للتوبة، ولا يُقبل منهم إيمان ولا اعتذار: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]. إنه يوم القيامة الذي يكون فيه الفصل والحكْم والقضاء بين العباد، والكفار يستبعدون مجيء هذا اليوم، وينكرون البعث والنشور، ويقولون: متى يأتي هذا اليوم الذي يتم فيه الفصل بين العباد.

الْخِطَابُ الْأَخِيرُ فِي السُّورَةِ لِكُلِّ دَاعِيةٍ

٣٠- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: فأعرض -يا أيها الرسول - ويا كُلَّ داعية إلى الله، في كل زمان ومكان- عن المكذبين بك، ولا تبالِ بهم ولا بإعراضهم وتكذيبهم لك، وانتظر ما الله صانع بهم؛ فإن الله منجز وعده لك وناصرك عليهم، إنا متربصون بكم دوائر السوء وحوادث الزمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور]. وستكون العاقبة بنصر الله وتأييده لنبيه، ولسائر الدعاة إلى الله تعالى، وحلول العذاب بالكافرين.

وقيل: إن المراد بالفتح هو نصر النبي ﷺ عليهم في الدنيا، كما حدث يوم بدر وما بعده.

والآية عامة في كل داع إلى الله، وكل مكذب بالدعوة إلى يوم القيامة.

تم تفسير (سورة السجدة) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَحْزَابِ (٣٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الأحزاب) هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الأنفال)، وقبل سورة (المائدة)، وهي ثلاث وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وألف ومئتان وثمانون كلمة. وخمسة آلاف وتسع مئة وتسعون حرفًا.

وسُميت سورة (الأحزاب)؛ لتحزُّب اليهود والمشركين من قريش، وكنانة، وغطَفان، ضد الإسلام وأهله، وكانوا عشرة آلاف، أرادوا غزْوَ المسلمين في المدينة، فردَّ الله كيدهم، وكفى المؤمنين القتال.

وسورة (الأحزاب) سورة مدنية باتفاق، وكان نزولها سنة خمسٍ من الهجرة، وقيل: سنة أربع، وهي السنة التي وقعت فيها غزوة الأحزاب، وتسمى غزوة الخندق.

وقد نُسخ من سورة (الأحزاب) (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم)[1] وبقي حكمها والعمل بها، كما هو ثابت في صحيح السُّنَّة، غير أن الرجم لا يختص بالشيخين، بل يشمل الشابيّن أيضًا، لأن المراد بالشيخ والشيخة: الزاني المحصن، كبيرًا كان أو صغيرًا ولهذا فإن (عمر) ﷺ لَمَّا طلب كتابتها في المصحف قال له النبي ﷺ **«لا أستطيع»**[2].

والخلاصة: أن فريضة الرجم للزاني الثيب، ثابتة بالسنة القولية والفعلية، للكبير والصغير، ورفْض النبي ﷺ كتابتها في المصحف لعلمه أنها ستنسخ لفظًا.

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٥/ ١٣٢) برقم (٢١٢٠٧) عن أبي بن كعب، بإسناد فيه عاصم بن بهدلة، وبقية رجاله ثقات، انظر (٢١٥٩٦) عن زيد بن أرقم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت، فقد روى له النسائي وهو ثقة (محققوه) وهو في «مسند الطيالسي» برقم (٥٤٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧١٥٠) ورقمه في ط الرسالة (٧١٠٨، ٧١٠٩، ٧١١٢) وابن حبان (٤٤٢٨) «الإحسان» (١٣٣٦٣) وعبد الرزاق (٥٩٩٠) و«المستدرك» (٤/ ٣٥٩) كلهم عن عاصم عن زرِّ بن حُبَيْش، وصححه الحاكم.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد الصادق عرجون، في كتابه (محمد رسول الله) (٤/ ١١٩) وكلام البخاري في صحيحه في تحقيق الحديث (٦٨٢٩) من المسند، وابن حجر في الفتح (١٢/ ١٤٣) وانظر كلامنا في أول سورة النور.

ومن سورة الأحزاب ما نُسخ حكمه وتلاوته معًا.

وافتقد زيد بن ثابت ﷺ آية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [٢٣].

وهو يَنْسخ مصحف عثمان ﷺ، والآية محفوظة في صدره وصدور كثير من الصحابة ﷺ، ولكنه لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري.

وكان لابد من وجود الآية مكتوبة عند اثنين على الأقل من الصحابة، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

كما افتقد زيد ﷺ الآيتين الأخيرتين من سورة (التوبة)، فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس.

عن ابن عباس ﷺ أن عمرَ ﷺ قام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أُنزل عليه، آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألْبتّة) ورجم رسول الله ﷺ ورجمْنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضِلوا بترك فريضة أنزلها الله[١].

والأحاديث تشير إلى أن سورة الأحزاب كان فيها قرآن، ثم نسخ لفظه وحكمه.

ويمكن تقسيم السورة إلى **خمسة مقاطع**:

المقطع الأول: يأمر الله تعالى فيه الأمة في شخص نبيها ﷺ بطاعة الله وحده، واتباع أمره والتوكل عليه، وتنهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وفيه إبطال لما كان عليه الناس قبل الإسلام فيما يتعلق بالظهار والتبنِّي، وفيه تقرير أن النبي ﷺ هو الوالد الروحي للأمة، وهو أحرص الناس على هُداها، ورمز الإسلام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وكان النبي ﷺ لا يصلي على الميت الذي يتحمل دينًا عليه، فلما نزلت هذه الآية، وفتح الله على رسوله ﷺ بالغنائم أخذ يتحمل ديون الناس، ويصلي على المؤمنين، ويواسي الفقراء، ويكفل

---

(١) الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٣) ورقمه في رواية أبي مصعب عن أُبَيّ بن كعب (١٧٦٦) بنحوه ويُنظَر: البخاري (٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١).

اليتامى. . . ، وكما اعتُبر النبي ﷺ أبًا للمؤمنين، فإن زوجاته أمهات لهم في البِرِّ والحُرمة وعدم الزواج بهن.

وفي هذا المقطع إبطال التوارث عن طريق المؤاخاة، وفيه ميثاق التوحيد الذي أخذه الله تعالى على الخلق، وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل، وقد جاءت هذه الأحكام في الآيات الثماني الأولى من السورة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين، وهو في وصف ردِّ كيد الأحزاب المهاجمين ودفع جيوشهم، وفيه وصف لحال المؤمنين الصادقين، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، وهو وصف يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة.

المقطع الثالث: يتناول الحديث عن زوجات النبي ﷺ، وتخييره لهن بين الصبر على شظف العيش، أو التسريح بإحسان، والأمر لهن بعدم الخروج من بيوتهن إلا لحاجة مشروعة، وعدم اللين في مخاطبة الرجال، وعدم التبرج، فإنهن في موضع القدوة لغيرهن من سائر النساء، وقد ساوى الله تعالى بين الرجال والنساء في الثواب والعمل، وقد تناول هذا المقطع زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ﵂؛ لإبطال ما كان يترتب على قاعدة التبنِّي التي أبطلها الإسلام.

وأعقب ذلك بعض الأحكام المتعلقة بالزواج، وتنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ، ومن ثَم إلى تشريع الحجاب، وبيان محارم النساء.

ويُختم هذا السياق بأمر النساء جميعًا بالتستر والاحتشام عن طريق الثياب الواسعة السميكة غير اللافتة للنظر؛ حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس، ولا يتعرضْن للأذى، وحتى تُصان أعراض المسلمين، وتنقطع ألسنة المرجفين. وقد استغرق هذا المقطع معظم السورة من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الثانية والستين.

المقطع الرابع: يتناول الحديث عن القيامة، وما يتبع ذلك من سلوك الطريق القويم، وعدم التقليد واتباع أهل الضلال، وحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وذلك في الإحدى عشرة آية التي انتهت بها السورة.

تلخيص أغراض السورة في ثلاث نقاط:

أولًا: الأحكام التشريعية: كأحكام الظِّهار والطلاق والتبنِّي وما يترتب عليه من تشريع، وقصْر الإرث على الأقارب، وتعدد الزوجات، والحجاب الشرعي، والصلاة على الرسول ﷺ وما يتعلق بشؤون الدعوة.

ثانيًا: الحديث عن غزوتَي: الأحزاب وبني قريظة، وكشف خفايا المنافقين.

ثالثًا: التوجيهات والآداب الاجتماعية: كآداب الوليمة، والستر، وعدم التبرج، وآداب احترام الرسول ﷺ وزوجاته، ورضى الناس بما رزَقهم الله تعالى، وحمل الأمانة، وغير ذلك.

خمسة نداءات للنبي ﷺ:

وقد تضمنت السورة **خمسة نداءات للنبي** ﷺ بصفته هادي الأمة، وقائدها لتنفيذ ما يُطلب في كل نداء مما يخصه، أو يخص الأمة:

النداء الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾

وهو بغرض تحديد واجبات الرسالة ووجوب الانتماء إلى الله وحده، وعدم الركون لغير المسلمين وفي هذه الآية، و الآيتين بعدها ثلاثة توجيهات للنبي ﷺ، تحمل نهيًا وثلاثة أوامر، كلها زيادةُ تثبيتٍ للنبي ﷺ، كما تقول للمتفوق: دُم على هذا التفوق، ولا تتراخ، فالنبي ﷺ لم يُفرِّط في تقوى الله تعالى، ولم يهادن أهل الكفر والنفاق، ولم يتبع غير الوحي المنزل، ولم يتوكل على غير الله سبحانه، والخطاب في كل ذلك يراد به الأمة.

النداء الثاني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [٢٨]

وهو بغرض التنويه بمقام أزواجه ﷺ فبيْتُ النبوة بيتٌ يكتفي بأيْسر الزاد، ولا مكان فيه للشهوات والملذات، وهو غير بيت الملوك.

وقد كان النبي ﷺ خارجًا عن سلطان بطنه، ولا مجال في حياته للاستكثار من أطايب الطعام والشراب واللباس، لكن زوجاته ﷺ جئْن من بيوت ثراء وسيادة، ألِفْن فيها رغد العيش، ولذا فسُرعان ما اجتمعْن ضدَّه ﷺ يطلبْن نفقة أوسع، ومتاعًا أرغد، فجاء الوحي يصادر هذا كله! وقد خيَّرهُنَّ الله تعالى بين الطلاق، أو الرضى بمعيشة الكفاف، فاخترن الله ورسوله.

وقد اختارت أمهات المؤمنين عيش الكفاف على ترك بيوت النبوة، واستحققْن شرف الصحبة الكريمة.

النداء الثالث ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [٤٥].

وهو بغرض شؤون الرسالة في معاملة الناس؛ ومخاطبة الناس كافة إلى قيام الساعة.

فلا يوجد قبل محمد ﷺ نبوة عامة للبشر كلهم، وكان كل نبي يُرسل إلى قومه خاصة.

أما الشمس التي طلعت على الكون كله، فهي شمس النبوة الخاتمة.

وإذا كان محمد ﷺ شاهدًا على أمته، فإن أمته شاهدة على الناس أجمعين بهذا الكتاب المبين.

النداء الرابع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [٥٠].

وهو بغرض سيرته ﷺ مع زوجاته، فليست كل امرأة تصلح لعظيم، وهناك طبقات معينة، اختار الله منها أمهات المؤمنين، فكنَّ مؤمنات قانتات تائبات عابدات.

وقد جاء الإسلام فوجد الرجال لا يقفون عند حد في تعدد الزوجات، فحدده الإسلام بأربع.

وقد أسلم رجل وعنده عشر زوجات، فأمره النبي ﷺ بإمساك أربع، وتسريح الباقيات.

والنبي ﷺ لم يطبِّق ذلك العدد المحدد بأربع على نفسه بأمر ربه؛ وذلك لأن نساء النبي ﷺ قد اخترْنه على أهليهن، وآثرْن البقاء معه على شظف العيش، فلا يسوغ ترك إحداهن، وزواجهنَّ بغير النبي ﷺ مستحيل؛ لأن الله تعالى حرمهنَّ على الأمة، ولو عاد بعضهن إلى أهليهن لأجبرُوهنَّ على الكفر، فالحَلُّ هو البقاء في عصمته ﷺ، وكان بينهن عجائز، ثم قال له ربه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [٥٢].

وقد تزوج النبي ﷺ زوجاته جميعًا بعد موت خديجة ﵂، وتم ذلك خلال سبع سنوات فحسب، أي: في الفترة من سنِّ ٥٣ إلى ٦٠ من عمره الشريف، وهي فترة الأسفار والغزوات، وبعد أن ولَّى الشباب، وكثرت الأشغال، ولم يُنْجِب ﷺ منهن جميعًا، ولم يتزوج النبي ﷺ في السنوات الثلاث من آخر عمره ﷺ.

وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض في شأن تحديد عدد الزوجات بأربع، باستثناء ما

خصَّ الله به رسوله ﷺ بأكثر من ذلك لصالح نشر الدعوة، وتآلف القلوب المختلفة، دون معرفة الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ودراسة الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ، على أن الصعلوك من أبناء الحضارة المعاصرة ينال أكثر من ذلك العدد سفاحًا لا نكاحًا!

النداء الخامس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [٥٩].

هذا النداء بغرض تبليغ آداب التستر لجميع المؤمنات، وعدم التسكع في الطرقات أو الأسواق أو النوادي؛ لأن الرجال يطمعون في المرأة المبتذلة!

والحق أن المرأة المتبرجة المبتذلة لسان حالها يدعو الرجال للتعرض لها، والمرأة المحتشمة الجادة، تصُون نفسها عن الطامعين فيها.

ستة نداءات للمؤمنين:

ومع هذه النداءات الخمسة التي وُجهت للنبي ﷺ، فإن في السورة **ستة نداءات أخرى وُجِّهت للمؤمنين:**

النداء الأول: يتناول الموقف شديد الحرج، عند هجوم الأحزاب على المدينة، حين جاؤوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [٩].

فلم يفقد المؤمنون رباطهم، وأحكموا الدفاع عن المدينة، وهبت رياح النكبة، فأطارت الخيام، وأكفأت القدور فقرروا الرحيل، واكتفوا من الغنيمة بالإياب، ورَدَّ الله غيظهم في نحورهم، وكفى المؤمنين القتال.

النداء الثاني: للمؤمنين الذين يذكرون الله تعالى، ويسبحونه في صباحهم ومسائهم، ويُصلُّون على رسوله ﷺ ويسلِّمون، ولا يؤذون الله ورسوله والمؤمنون:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.

فإن هذه الرسالة تقوم على الانتماء إلى الله تعالى، وإعلاء شعائر دينه، واليقين بلقائه، فإذا نسي المسلمون ربهم، ولم يستعدوا للقائه، كانوا أهلًا لأن يطأهم الأعداء بأقدامهم!

النداء الثالث: في حكم فقهي يتعلق بطلاق المرأة قبل الدخول بها، فلها حق الزواج

بآخر، دون أن تعْتد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ الآية: [٤٩].

والإسلام يوجب الالتزام بأصول الطاعات وفروعها، وتطبيق أحكامه قلبًا وقالبًا.

النداء الرابع: في آداب الوليمة، وأن الدخول لها يكون بإذن، بعد إعداد الطعام، والخروج يكون بعد تناول الطعام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٣].

ويلزم لذلك تنظيم وقت الزيارة وتحديدها، واحترام أقات الناس، وعدم تضييعها سدى، والالتزام بآداب الشرع في الاستئذان، وعدم إحراج أهل البيت وعدم تتبع عوراتهم، ومن دُعيَ فلْيجب، ومن لم يُدْع فلْيحتجب، وشرّ الولائم يُدْعى لها الأغنياء دون الفقراء.

النداء الخامس: يحمي أعراض الأنبياء وسيرتهم من تطاول الرعاع عليهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الآية: ٦٩].

النداء السادس للمؤمنين في السورة: يأمرهم بالتقوى والصدق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾.

وقد خُتِمت السورة بخلاصة وجيزة لأعمال البشر، تتعلق بحمل أمانة التكليف الذي يُميز الأخيار من الأشرار[١].



(١) استفدت في هذه النداءات من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم». للشيخ محمد الغزالي.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَمْرٌ وَاحِدٌ وَثَلَاثَةُ نَوَاهٍ

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾

افتُتِحت سورة (الأحزاب) بنداء سيد الخلق ﷺ بوصف النبوة على سبيل التشريف والتعظيم.

ونداءات الرسول ﷺ من رب العزة له في القرآن، تكون بوصف النبوة والرسالة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾. وهكذا.

وكذلك الإخبار عنه ﷺ يأتي بوصف النُّبوة مثل: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨]. ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وبوصف الرسول مثل: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

ويأتي أيضًا باسمه العَلَم مثل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [٤٠]. تعليمًا للناس وتلْقينًا لهم.

وفي الحديث: عن جبير بن مُطْعِم، عنه ﷺ قال: «**إن لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدَمي، وأنا العاقب**»(١).

وهذا هو النداء الأول للرسول ﷺ في هذه السورة من نداءات خمسة، بغرض تبليغ رسالته ﷺ للناس كافة على أكمل وجه؛ حتى لا يُفسد عليه أعداء الإسلام ما أُمر بتبليغه، على حدِّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد وجَّه الله تعالى رسوله ﷺ في الآية الأولى من هذه السورة **بتوجيهيْن**:

التَّوْجِيهُ الْأَوَّلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

وفيه الأمر بتقوى الله تعالى، أي: بالثبات عليها وذلك أنه إذا أُمر الإنسان بشيء وهو

---

(١) عن جبير بن مُطْعِم في البخاري برقم (٣٥٣٢، ٤٨٩٦، ٤٨٩٨) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٤).

متلبس به، فمعناه: طلب الاستمرار عليه، أي: دُم واثبُت على تقوى الله سبحانه، بالعمل بأمره واجتناب محارمه، وليقتديَ بك المؤمنون، فإن تقوى الله تعالى رأس الفضائل، وهذا تنبيه بالأعلى على الأدنى.

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله.

والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أمره واجتناب نهيه.

والنبي ﷺ لم يفرط في تقوى الله تعالى في يوم من الأيام، والأمر الموجه له في ذلك لزيادة الثبات عليها، ولتقتدي الأمة به ﷺ.

فيا مَنْ مَنَّ الله عليه بالنبوة واختصه بالوحي، وفضّله على سائر خلقه، اشكرنعمة ربك عليك، ودُم على تقواه بامتثال أمره واجتناب نهيه، وبلِّغ رسالة ربك، وابذل النصيحة لخلق الله أجمعين.

التَّوجِيهُ الثَّاني: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

وهذا يعني عدم طاعة الكافرين والمنافقين، أو مهادنتهم، أو اتخاذهم أولياء وأنصارًا، أو الاستماع إلى آرائهم واقتراحاتهم، أو ائتمانهم على أسرار الدولة، وأسرار المسلمين، فلا يصدّنك عن دعوة ربك، كافر مظهر عداوته، ولا منافق يعلن خلاف ما يبطن، ولا تتبع أهواءهم فيضلوك عن الصواب: والنبي ﷺ لم يهادن الكفر ولا النفاق يومًا، ولكن الله تعالى أمره بذلك لطلب الثبات على عدم طاعتهم، ولتتأسى به الأمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكل شيء مما ظهر وما بطن ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير شؤون خلقه، وفي أمره ونهيه، فلا تهتم -أيها الرسول- بما هم عليه من ضلال وكُفر، ولا عليك منهم، والله تعالى حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين؛ لأنه عليم حكيم، فلا يأمر إلا بما فيه الإصلاح.

جاء في **أسباب النزول** أن أبا سفيان ونفرًا من مشركي مكة، منهم عكرمة وعمرو بن سفيان، قدموا على النبي ﷺ في المدينة بعد غزوة أحد، فأذن لهم بالنزول على رأس المنافقين -عبد الله بن أبيّ بن سَلول- ثم ذهبوا إلى النبي ﷺ ومعهم معتِّب بن قُشير،

والجدُّ بن قيس، وطُعْمة بن أبيْرق، وكان عنده عمر بن الخطاب، فقام إلى الرسول ﷺ: عبد الله بن أبي سَرح، وطُعْمة بن أُبيرق، وقالا له: اذكر آلهتنا: اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فغضب المسلمون، وهَمَّ عمر بقتل النفر القُرشيين، فمنعه النبي ﷺ؛ لأنه أعطاهم الأمان، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، فنزلت هذه الآية[1].

أي: اتق الله -أيها النبي- في حفظ الأمان لمن ائتمنك، ولا تطع الكافرين وكان منهم في وقت التنزيل النفر القرشيون، المذكورون في سبب النزول، ولا تطع المنافقين، وكان منهم في عصر التنزيل عبد الله بن أُبيٍّ، ومن معه.

والخطاب يعم كل داعية إلى الله عز وجل إلى قيام الساعة.

التَّوْجِيهُ الثَّالِثُ فِي النِّدَاءِ الأَوَّلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ

٢- ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

﴿وَاتَّبِعْ﴾ يا رسولنا ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من قرآن وسُنَّة، فإن فيهما الهدى والرحمة، والإنقاذ من الضلال إلى الهدى، واعمل بما في الشرع القويم، والدين الحكيم، مع أن النبي ﷺ لم يتبع غير الوحي المنزل عليه، فهو الذي تولاه بالتربية والرعاية.

وفي هذا إشارة إلى ما سينزل عليه ﷺ من الوحي في شأن التبني وغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: مُطَّلع على كل ما تعملون وتقولون، لا يخفى عليه شيء منه، محيط بحركات النفوس وخفايا القلوب، وسيجازيكم يوم القيامة على ما قدمته أيديكم من خير أو شر.

---

(١) يُنظَر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٩٢، قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (١٣٢): ذكره بغير سند، وذكره الثعلبي والماوردي والقشيري وغيرهم.

(٢) قرأ أبو عمرو بياء الغيبة في (بما تعملون) جريًا على نسق الكلام، والباقون بتاء الخطاب على الالتفات في هذه الآية ومثلها الآية التاسعة.

التَّوْجِيهُ الرَّابِعُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

أي اعتمدْ -أيها الرسول - على ربك في جميع شؤونك، وفوّض أمرك إليه، وحسبك بالله حفيظًا لمن توكل عليه وأناب إليه، وبعد ذلك لا تهتم بأمر الكافرين والمنافقين، سواء أكانوا معك أم كانوا عليك، ورُدَّ الأمر إلى الله تعالى في ثقة وطمأنينة، ولا يهمنَّك كيْدهم ولا مكرهم، وكفى بالله وكيلا تعتمد عليه في كل خطْب وكرب، فيُسر لك كل عسير، ويُسهل لك كل صعب، ويدفع عنك كل شر، ويُزيل عنك كل مكروه.

وهذه العناصر الأربعة، وهي: تقوى الله تعالى، وعدم طاعة المخالفين، واتباع وحي الله سبحانه، والتوكل عليه، هي رصيد الداعية، ومنهج الدعوة.

إِبْطَالُ ثَلَاثٍ مِنْ عَادَاتِ الجَاهِلِيَّةِ

٤- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى[(١)] تُظَٰهِرُونَ[(٢)] مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾

وبعد هذه المقدمة للسورة، يأتي ذكر بعض العادات التي كانت متفشية في الجاهلية، وهي لا تتناسب مع شريعة الإسلام، فأبطلها، وذكر منها في هذه الآية **ثلاثة أشياء**:

العادة الأولى: الزعم بأن يكون للرجل قلبان، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ أي: ما خلق الله لأحد من البشر، قلبين في صدره.

فإن قلتم: إن فلانًا له قلبين، تكونوا قد كذبتم على الخلقة الإلٰهية.

وهذه الفقرة من الآية تُشير إلى أكذوبة، كانت في الجاهلية، حيث كانوا يزعمون أن

---

(١) قرأ البزي وأبو عمرو بتسهيل همزة (اللائي) مع المد والقصر، وحذف الياء، ولهما إبدال الهمزة ياء ساكنة مع المد المشبع، وقرأ ورش وأبو جعفر بهمزة مكسورة مسهلة مع المد والقصر بدون ياء وصلًا، وقرأ قالون وقنبل ويعقوب بهمزة مكسورة محققة بدون ياء وصلًا ووقفًا، وقرأ ابن عامر والكوفيون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة مدية وصلًا ووقفًا.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (تَظَّهَّرُونَ) وقرأ ابن عامر (تَظَّاهرون) وقرأ عاصم (تُظَاهِرُون)، وقرأ الباقون وهم حمزة والكسائي وخلف بفتح التاء وعدم تشديد الظاء وألف بعدها، (تَظَاهرون).

(جميل بن مَعْمر الفهري) له قلبان، أي: عقلان يعملان في وقت واحد، فكان لشدة كفره يقول: إن في جوفي قلبين، أعقِلُ بكل واحد منهما، أفضَلُ من عقل محمد[1] فسمَّوه ذا القلبين.

وكان -جميل- واعيًا حافظًا لما يسمع، فلما هُزم المشركون يوم بدر رآه أبو سفيان وهو معلِّق إحدى نعْليه في يده، والأخرى في رجله -من شدة الذعر والهلع- فسأله أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال: انهزَموا، فقال له: فما بال إحدى نعليك في يدك؟ قال: ما شعرتُ، فعرفوا أنه لوكان له قلبان لما نسي نعله في يده.

وأيضًا فإن (عبد الله بن خطل التيمي) كانوا يسمونه ذا القلبين، وكان اسمه في الجاهلية عبد العزى، فلما أسلم، سماه الرسول ﷺ عبد الله، ثم كفر، وقُتل صبرًا يوم فتح مكة، وهو الذي تعلَّق بأستار الكعبة، ولم يَعفُ عنه النبي ﷺ.

فنفت الآية نفيًا عامًّا، أن يكون لأحد من الناس قلبان، لا جميل بن مَعْمر، ولا ابن خطل، ولا غيرهما.

العادة الثانية: أن الزوجة لا تكون أُمًّا بمقتضى الظهار، كما جاء ذلك في هذه الآية، وبيَّنتْ أنه من عادات الجاهلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: إنَّ الله تعالى لم يجعل المرأة الواحدة زوجًا للرجل، وأُمًّا له في وقت واحد، فالزوجية والأمومة لا يجتمعان في امرأة واحدة.

وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي.

وقد جاء الكلام عن الظهار وحكمه وكفارته في سورة (المجادلة) التي نزلت قبل سورة (الأحزاب)، وكان الظهار يعدُّ طلاقًا في الجاهلية، فسماه الإسلام ظهارًا، وشرع له كفارة، وبيَّن أن الزوجة لا تكون أُمًّا بهذا القول، ولا تحرُم على زوجها كحرمة الأمهات، بل هو منكر من القول وزور، وهذا تمهيد لتشريع إبطال التبني.

قال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:

(١) قاله مجاهد كما في تفسير الطبري (١٩/ ٨) وغيره، وقاله السُّدِّي كما في تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١١).

٢]. ، فلا يقل أحدكم لزوجته (أنت عليّ كظهر أمي، أو كأمي) فإن أمك مَنْ ولدتْك، وهي أعظم الناس حرمة عليك، وزوجتك أحل الناس لك، فكيف تشبِّه أحد المتناقضين بالآخر؟

العادة الثالثة: إبطال التبني وآثاره، كما ذكرتْه هذه الآية ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله الأبناء الذين تتبنَّوْنَهُم، وليسوا من أصلابكم، ما جعلهم الله لكم أبناء في الشرع على الحقيقة، فإن أبناءكم مَنْ ولدتموهم وكانوا منكم، أما هؤلاء فهم أدعياء، والدَّعيّ: هو الولد الذي يدّعيه الرجل، أو يُدْعى إليه بسبب تبنِّيه، وقد أراد الإسلام أن يبطل هذه العادة، فقدّم لها ببيان قبحها.

فالتبني كالظهار في التحريم الأبدي، فلا تكون الزوجة المظاهَر منها كالأم في الحرمة، ولا يثبت النسب بالتبني من قول الشخص للدَّعيّ: هذا ابني، فهو كلام بالفم لا يُعتدُّ به، وليس له أصل ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم﴾ الذي تقولونه بأن فلان ابن فلان الذي ادّعاه، قول باطل لا حقيقة له، تقولونه ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾اليقين والصدق ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: يبيِّن لعباده طريق الرشاد، ويهديهم سواء السبيل، فقوله حق، وشرعه حق، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الآية ٤٠].

وفي الآية التالية أمر بترك القول الباطل ونسبة الأبناء إلى آبائهم الحقيقيين.

لَا يُنْسَبُ المُتَبَنَّى لِمَنْ تَبَنَّاهُ وَلَا يَحْمِلُ اسْمَهُ

٥- ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

بهذه الآية شرع سبحانه في إبطال التبني، وقد كان يترتب عليه في الجاهلية: أن المتبنَّى يُنسب إلى مَنْ تبنَّاه، ويأخذ حق الابن تمامًا، فيرثه إذا مات، ولا يتزوج ابنة مَنْ تبنَّاه، ويُعدُّ ابنًا لامرأته، وأخًا لذريته، فأبطل الإسلام هذا كله بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: انسبوا أدعياءكم لآبائهم الحقيقيين، هو أعدل وأقوم وأهدى عند الله تعالى، وأشرف للآباء والأبناء.

وفي الآية نَهْي عن أن يُنسب الولد لغير أبيه، كما في الأثر: «**من انتسب إلى غير أبيه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا**».

ولعل المراد: تعمّد الانتساب إلى غير الأب.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: فإذا لم تعرفوا آباءهم الأصليين لتنسبوهم إليهم، فهم إخوة لكم في الدين والعقيدة، وليس عدم معرفة الآباء عذرٌ لكم في أن تدعوهم إلى من تبنّاهم، لأن المحذور لا يزول.

وهم مواليكم، أي: أولياؤكم في الدين، فليقل أحدكم: يا أخي، يا مولاي، أي: يا أخي في الدين، ويا مولاي في الدين، فادعوهم بالأخوة الإيمانية، والموالاة في الله، واتركوا دعوتهم إلى من تبناهم.

ولهذا قال ﷺ لزيد بن حارثة كما في حديث البراء: **«أنت أخونا ومولانا»**[1].

وقال ﷺ في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه: **«ما زلنا ندعوه إلا زيد ابن محمد حتى نزل القرآن» وفي لفظ: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل»[2] بعد أن كان يقال له: زيد بن محمد.**

وفي لفظ آخر قال ابن عمر رضي الله عنه: ما كنا ندعو زيد بن حارثة،إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فقال الناس: زيد بن حارثة، وسالم مولى أبي حذيفة، وكان يقال له: سالم بن أبي حذيفة، وغير ذلك.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن أبا حذيفة وكان ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ تبنَّى سالِمًا، وأنكحه بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، كما تبنَّى رسول الله ﷺ زيدًا، وكان مَنْ تبنَّى رجلًا في الجاهلية دعاه الناس إليه، وورث من ميراثه حتى أنزل الله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3].

زاد في رواية: **«فرُدُّوا إلى آبائهم، فمن لم يُعلَم له أب كان مولًى وأخًا في الدين»**، فجاءت سهلة بنت سُهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ، فقالت: إن سالِمًا كان يُدْعَى لأبي حذيفة، وإن الله قد أنزل في كتابه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ وكان يدخل عليَّ وأنا فُضُلٌ -

---

(١) من حديث البراء بن عازب في البخاري برقم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظَر: البخاري (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٤٠) والترمذي (٣٢٠٩) وغيرهم.

(٣) ينتظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٠٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٥٣).

أي: يظهر منها أطرافها، مثل: الشعر، والوجه، واليد -ونحن في منزل ضيِّق، فقال النبي ﷺ: «**أرضعي سالمًا تحرُمي عليه**»[١].

وهذا أمر خاص بسالم، لا يقاس عليه غيره، كما في لفظ الحديث، نظرًا لأن سالمًا كان قد تربّى في البيت بمنزلة الابن، ولا سبيل إلى إخراجه والتنكّر له.

والمراد بالولاء في ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ ولاء المحالَفة، وليس ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولا إثم ولا حرج على الإنسان فيما وقع فيه من باب الخطأ دون أن يتعمد ذلك، كأن يسبق لسان أحدكم دعْوته إلى من تبنّاه، أو ظن أنه أبوه، فنسبه إليه، وهو ليس بأبيه على الحقيقة، فالإنسان غير مؤاخذ في مثل هذا، قال تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فهو الذي يؤاخذكم به ويحاسبكم على العمْد دون الخطأ.

والخطأ في هذا المجال هو نسبة الولد لغير أبيه ظنًّا أو نسيانًا بعد النهي عن ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ واسع المغفرة لمن أخطأ ﴿رَّحِيمًا﴾ أي: عظيم الرحمة بمن تاب من ذنبه، حيث لم يعاقبكم على ماسبق، ولم يؤاخذكم على الخطأ.

وفي الحديث: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢] وبهذا تقرر إبطال حكم التبني.

ومن ذلك ما جرى على ألْسنة الناس في شأن المقداد، فكانوا يقولون: المقداد بن الأسود نسبة للأسود، بن يغوث، الذي تبناه في الجاهلية، ولما نزلت هذه الآية قال: أنا المقداد بن عمرو:

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٣٣٢، ١٣٨٨٥، ١٣٨٨٧) وابن حبان (٤٢١٤، ٤٢١٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرطهما، ويُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٥٣).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) بتصحيح الألباني، وكذا في المشكاة (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وإرواء الغليل (٨٢) وأخرجه ابن حبَّان (٧٢١٩) والحاكم (٢/ ١٩٨) والدارقطني (٤/ ١٧٠) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٣٥٦) والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٧٠).

١- وعن سعد بن أبي وقاص، وأبي بكرة ﷺ كلاهما قال: سمعتْهُ أذناي ووعاه قلبي، أن محمدًا ﷺ قال: **«من ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»**[1].

٢- وفي حديث أبي ذر ﷺ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«ليس مِنْ رجل ادَّعى لغير أبيه - وهو يعلمه- إلا كفر، ومن ادَّعى قومًا ليس له فيهم نسب، فليتبوَّأ مقعده من النار»**[2].

٣- وفي حديث واثلة بن الأسْقَع: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أعظم الفرى أن يَدَّعِيَ الرجل إلى غير أبيه، أو يُرِيَ عينه ما لم يره، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل»**[3].

ومن أشهر مَن حدث لهم التَّبنِّي في الجاهلية أربعة:

١- زيد بن حارثة، تبنَّاه النبي ﷺ.

٢- عامر بن ربيعة، تبنَّاه الخطاب، أبو عمر بن الخطاب ﷺ.

٣- سالم، تبنَّاه حذيفة ﷺ.

٤- المقداد بن عمرو، تبنَّاه الأسود بن عبد يغوث.

قصة تبنّي (زيد) وإبطال التبني:

أما زيد بن حارثة الذي نزلت فيه هذه الآية، فقد كان أبوه حارثة بن شَراحيل الكلبي من قبيلة طيِّئ، وكان قد تُوُفِّيَ، وترك جبلة وزيدًا، فبقيا في حِجْر جدهما، ثم جاء عمَّاهما وطلبا من الجد كفالتهما، فأعطاهما جبلة، وبقي زيد عند جده، فأغارت على بلادهم خيل من تهامة فأخذت زيدًا، وظل جده يبحث عنه، وأنشد أبياتًا منها:

بَكيتُ على زيْدٍ وَلَمْ أدرِ ما فَعلْ   أحَيٌّ فيُرجَى أمْ أَتى دُونَهُ الأجلْ

ثم علم جدّه أن الذين أسروهُ باعُوه بمكة، واشتراه (حكيم بن حزام بن خُوَيْلد) من سوق عكاظ، ثم أعطاه لعمته (خديجة بنت خويلد)، وتزوجها النبي ﷺ وهو عندها، ثم وهبتْه خديجة للنبي ﷺ، فأعتقه وتبناه، وكان هذا قبل البعثة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣٢٦، ٤٣٢٧، ٦٧٦٦، ٦٧٦٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٩).

ثم إن زيدًا قد خرج إلى الشام في إبل لأبي طالب، فمرَّ بأرض قومه، فتعرَّف عليه عمه، وجاء جده وعمه يريدان شراءه من النبي ﷺ، فقالا له: أنتم حرَمُ الله وجيرانُه وعند بيته، وإن ابني عبدك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، وسنعطيك ما أحببت من الفداء، فطلب النبي ﷺ أن يخيِّراه بين أن يذهب معهما، أو يبقى مع رسول الله ﷺ، فاختار البقاء مع النبي ﷺ، وعندئذ أشْهد النبي ﷺ قريشًا أن زيدًا ابنه، فكان يُدْعى زيد بن محمد، وآخى النبي بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فانصرف جدُّهُ وعمُّه ورجعا إلى الشام[1] وزوَّجه النبي ﷺ زينب بنت جحش ﷺ.

ولما نزلت هذه الآية سماه النبي ﷺ زيد بن حارثة، وبطل هذا التبنِّي، وبطلت الآثار المترتبة عليه، ومنها أن المتبنَّي يتزوج زوجة المتبنِّي بعد طلاقها وانتهاء عدتها، وتزوج النبي ﷺ زينب بعد أن ساءت العشرة بينها وبين زيد وطلقها، وقُتل زيد في غزوة مؤتة بأرض الشام سنة ثمان من الهجرة، ﷺ وأرضاه.

والإسلام بهذا يحرص على إعطاء كل ذي حق حقه، فالطلاق الجاهلي -الذي سماه الإسلام ظهارًا- أبطله الإسلام؛ لأنه كان يجعل المرأة -المظاهَر منها- محرَّمة على الرجل، وتبقى معلَّقة، لا هي مطلقة فتتزوج غيره، ولا هي زوجة لمن ظاهر منها، فجعل الإسلام لهذه الحالة مخرجًا بمشروعية الكفارة وعوْدتها إليه.

وكان التبنِّي فيه خلْط للأنساب، وعلاقة غير مشروعة، فأبطله الإسلام، وحذَّر من دعوى الابن لغير أبيه تحذيرًا شديدًا.

ثَلَاثُ قَضَايَا شَرْعِيَّةٍ

٦- ﴿ٱلنَّبِيُّ[2] أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى

---

(١) يُنظَر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار هجر، (٤/ ٨٢) و (٢/ ٤٢٣) و«تفسير الخازن» للآية، ورواية ابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (١١/ ٧٢٢) وفيها أن الذي قدم إلى مكة أبوه وعمه، وليس فيها ذكر لأخيه جبلة، وانظر ما جاء في تفسير الآية (٣٧). من هذه السورة.

(٢) قرأ نافع بالهمزة بدلًا من الياء في (النبي) فتجتمع همزتان مع (أوْلَى) فتُبدل الأولى واوًا خالصة، والباقون بياء مشددة.

ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

ولما أبطل القرآن بنوة زيد بن حارثة، وبيَّن أن محمدًا ﷺ ليس أبًا لأحدٍ من الناس، أثار هذا سؤالًا في نفوس الناس عن مدى صلة المؤمنين بنبيِّهم، وهل هي كعلاقة الأجانب من المؤمنين بعضهم ببعض؟

لذلك: فإن الله تعالى يُعلِّم المؤمنين حقوق نبيهم ومكانته وحرمته، وقد تناولت هذه الآية **قضايا ثلاث:**

القضية الأولى: أن النبي ﷺ مُقَدَّم على النفس: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: أنه -ﷺ- أقرب للمؤمنين من أنفسهم في أمور الدنيا والدين، وهو -ﷺ- أولى بالمحبة والطاعة من محبة أنفسهم وطاعتها، فإذا دعاهم الرسول إلى أمر، ودعتْهم أنفسهم إلى خلافه، وجب عليهم أن يؤثروا ما دعاهم إليه الرسول ﷺ على ما دعتْهم إليه أنفسهم؛ لأنه -ﷺ- لا يأمرهم إلا بما فيه نفعهم في الدنيا والآخرة، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم.

قال ابن عباس ﷺ في معنى (إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء ،كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعة أنفسهم)، وذلك لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك واتباع الهوى والشيطان، ورسول الله يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، فالرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأنه بذل لهم من النُّصح والشفقة والرحمة والرأفة ما كان به أرحم الخلْق بهم، وأعظم منة عليهم، وقد جلب لهم كل خير، ودفع عنهم كل شر، وعلى هذا فلو تعارض مراد الرسول مع مراد النفس، قُدم مراد الرسول ﷺ، ولا يعارض أحد قول الرسول ﷺ، وتُقدم محبته على محبة الخلق كلهم، ويُفدى بالنفس والمال والولد.

وفي **سبب النزول: أن النبي** ﷺ كان إذا دعا الناس إلى الجهاد يقول قوم: نذهب نستأذن آباءنا وأمهاتنا، فنزلت هذه الآية؛ لتبيِّن أنه لا استئذان مع أمر النبي ﷺ؛ لأنه أولى بكل مؤمن من نفسه، وأولى به من أبيه وأمه وابنه وأخيه؛ وذلك لأن ولاية النبي ﷺ على أمته ولاية عامة، تشمل منهاج الحياة بحذافيرها، وليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحي من ربه.

وهذه الولاية تتقدم على قرابة الدم، بل وتتقدم على النفس، وهي تشمل أحاسيسهم

ومشاعرهم، فيكون شخصه ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، فلا يرغبون بأنفسهم عن نفسه، ولا يُقدِّمون شيئًا على ذاته.

ومحبة النبي ﷺ ليست كلمة تُقال، بل هي قول وفعل يرتقي بالعبد إلى أعلى الدرجات، وهذه **أمثلة من شفقة الرسول ﷺ على أمته**:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم فتقتحمون فيه»**[1].

٢- وفي حديث جابر ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفَراش يقعْن فيها، وهو يذُبُّهن عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تفلَّتون من يدي»**[2].

فقد شبَّه النبي ﷺ المذنبين من أمته بالفَراش الذي يرمي نفسه في النار، وهو ﷺ يُمسكُ بملابسهم ومَعْقِد الإزار منهم؛ ليمنعهم من الوقوع فيها، ولكنهم يحاولون الوقوع فيها المرة تلو المرة بارتكاب الذنوب والمعاصي.

والرسول ﷺ حريص أشد الحرص على أن يُبعدهم عن النار، وهذا منتهى الشفقة على أمته، وإخلاص النصح لهم، فكان ما يختاره النبي ﷺ لهم مقدمًا على ما يختارونه لأنفسهم، ولهذا وجب على المؤمنين أن يكون الرسول ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، وحُكْمُه عليهم أنفذ من حكمهم على أنفسهم؛ لأن شفقته عليهم أكثر من شفقتهم على أنفسهم.

٣- ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: **«ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثْهُ عصبته، فإن ترك دَيْنًا أو ضياعًا فيأتني فأنا مولاه»**[3].

٤- وعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: **«أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل**

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٤) والبخاري (٣٤٢٦، ٦٤٨٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٥).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨١، ٢٣٩٩) والبغوي (٢٢١٤) و«المسند» (٢/ ٣٣٤) برقم (٨٤١٨) حديث صحيح و«تفسير الطبري» (٢١/ ٧٧).

مات وترك دينًا فإليَّ، ومن ترك مالًا فلورثته»[١].

٥- وفي صحيح مسلم، وغيره: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت، عليه الدَّين، فيسأل: «**هل ترك لدينه من قضاء؟**» فإن حُدِّث أنه ترك وفاء، صلَّى عليه، وإلا قال: «**صلوا على صاحبكم**» فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوُفِّيَ وعليه دين فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالًا فهو لورثته**»[٢].

وحب النبي ﷺ مقدم على حب النفس:

٦- في الحديث أيضًا: عن أبي هريرة أيضًا: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**»[٣].

٧- وفي الحديث: عن عمر ﷺ قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا، والذي نفسي بيده يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**»[٤] أي: الآن كمُل إيمانك يا عمر.

القضية الثانية: زوجات النبي ﷺ أمهاتنا:

والنبي ﷺ أبٌ للمؤمنين، يربيهم كما يربي الوالد أولاده، ويترتب على هذه الأبوة، أن نساءه أمهاتنا في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية.

وفي هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ أي: وحرمة أزواج النبي ﷺ على أمته كحرمة أمهاتهم، فلا يجوز نكاح زوجاته من بعده كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الآية ٥٣].

وهنَّ كأمهاتهم في الحُرْمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز

---

(١) «المسند» (٣/ ٢٩٦) برقم (١٤١٥٨، ١٤١٥٩) وعن أبي هريرة (٩٩٨٣) وهو حديث صحيح، و«سنن أبي داود» برقم (٢٩٥٦)، وهذا لفظه عن جابر، وأخرجه أبو يعلى (٦٣١٢) ومسلم (١٦١٩) (١٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٣/ ١٢٣٧) برقم (١٦١٩) وهو عند البخاري (٢٢٩٨، ٥٣٧١) والطيالسي (٢٤٥٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٣٢).

الخلوة بهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [٥٣].

ولا يجوز الزواج بهن، ولا التوارث، ولا يتعدَّى هذا التحريم إلى بناتهن ﷺ مع أنهن لم يلدْن، كما لا يتعدى إلى أخواتهن، ولا يدخل في ذلك ملك اليمين، ولذا فإن (مارية ﷺ) لم تكن من أمهات المؤمنين.

ولما تزوج النبي ﷺ (صفية بنت حييٍّ) يوم قريظة، قالوا: أهي من أمهات المؤمنين، أم مما ملكت يمينه؟ فقالوا: ننظر فإن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإذا لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما بنى بها ضرب عليها الحجاب، فعلموا أنها من أمهات المؤمنين.

قال مسروق: قالت امرأة لعائشة: يا أمه، فقالت: لست لكِ بأم، وإنما أنا أم رجالكم(١) وهذه الأمومة لا تصدق إلا على من دخل بها النبي ﷺ، أما من طلقها قبل الدخول بها، فلا يقال لها أم المؤمنين، على الأصح، وذلك مثل (أسماء بنت النعمان الكِنْديَّة)، ومثل (بنت الجوْن) التي عقد عليها، ولم يدخل بها وتزوجت الأشعث بن قيس.

القضية الثالثة: التوارث بالعصب والنسب لا غير:

وقد جاءت هذه القضية في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيرث بعضهم بعضًا، ويبرُّ بعضهم بعضًا، فإن هذا أولى من الميراث بالحِلف والنصرة والتبنيّ، سواء أكان الأقارب مؤمنين مهاجرين أوغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون عليهم، وهذا معنى ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

أي: وكما أبطل الإسلام أحكام التبني وأحكام الظهار، أبطل التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، فنَسخت هذه الآية وآيات المواريث، توارث الولاية والحلف بالمؤاخاة الذي كان بين المهاجرين والأنصار، وأثبتها للإخوة الحقيقيين، أي: إن ذوي القرابة من المسلمين بعضهم أحق بميراث بعض في حكم الله وشرعه، من الإرث بالإيمان والهجرة.

وكان المسلمون يتوارثون في أول الإسلام بالهجرة والإيمان والحِلْف، دون الرحم، ثم نُسخ ذلك بآية المواريث.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٧٠) والبيهقي (٧/ ٧٠) وابن سعد (٨/ ١٧٨).

وتوضيح ذلك: أن النبي ﷺ لَمَّا نزل المدينة مهاجرًا، جعل لكل رجل من المهاجرين أخًا له من الأنصار، فآخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين الزبير وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري، فتوارث هؤلاء وغيرهم بتلك المؤاخاة زمانًا، كما يرث الأخ أخاه، ثم نُسخ هذا الحكم بعد ذلك بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٧٥]. كما نُسخ التوارث بالتبني.

والمراد بأولي الأرحام: الإخوة الأشقاء، فإنهم مقدمون في الميراث على الإخوة لأب، فبيَّنت الآية أن أُولى الأرحام، بعضهم أولى ببعض في الميراث، من ولاية المتآخين من المهاجرين والأنصار.

وولاية الأرحام لا تقتصر على الإخوة فحسب، بل تشمل ذوي الأرحام جميعًا كما هو مفصَّل في أحكام المواريث، فيكون هذا الحكم ناسخًا للتوارث بالهجرة والحلف والمؤاخاة الذي شُرع عند قدوم المهاجرين إلى المدينة، وفيه أنه لا يرث من لم يهاجر من المؤمنين، كما لا يرث المؤمنون الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ مِنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة:٦٢]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ [الأنفال: ٧٢]. فتوارث المسلمون بالهجرة زمانًا، ثم نُسخ ذلك كما سبق بيانه.

والمعنى: فكل ذي رحم أوْلى بإرث قريبه من أن يرثه أنصاريٌّ إن كان الميت مهاجرًا، أو أن يرثه مهاجر إن كان الميت أنصاريًا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ أي: إلا أن تتصدقوا عليهم، أو تُحْسِنوا إليهم في حياتكم بالبر والنُّصرة، والصلة والإحسان، والوصية في حدود الثلث، وبسْطُ اليد بالمعروف؛ فإن هذا مما حثَّ الله عليه، كما أنهم يُعْطَوْن شيئًا غير محدّد مِنْ تركة الْمُتَوَفَّى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء].

أي: أعطوهم شيئًا مَّا، وطيِّبوا خاطرهم بشيء من التركة، وأحسنوا لهم في القول.

ثم إن هذا الحكم المذكور مقدَّر ومكتوب في اللوح المحفوظ، فيجب عليكم العمل به

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ومما كُتب عند الله تعالى أن الكافر لا يرث مسلمًا.

وبهذا فإن هذه الآية توجب تقديم محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ على محبة النفس، بكمال الانقياد لله ورسوله، وتوجب احترام أمهات المؤمنين، وأن مَنْ سبَّهنُ فقد باء بالخسران، وتُبيِّن الآية أيضًا أن الزوجة لا تكون أمًّا بحال، كما تنسخ التوارث بالأخوة الإيمانية بتوارث القرابة في النسب.

ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَوَاثِيقِ

٧- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾

يخبر الله سبحانه أنه أخذ العهد والميثاق من النبيين عمومًا، ومن أولى العزم منهم خاصة: أن يقوموا بدين الله، والجهاد في سبيل الله، ويبلِّغوا دعوته إلى الناس كافة، وألا يكتموا منها شيئًا، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وأن هذا سبيل الله مشي فيه جميع الأنبياء، حتى خُتموا بأفضلهم، وهو محمد ﷺ، فوجب عليهم أن يؤمنوا به وبدعوته، والله سائلهم عن هذا العهد الغليظ.

وفي هذه الآية والتي بعدها تذكير الله تعالى لنبيه محمدا ﷺ **بثلاثة أنواع** من المواثيق:

أولها: ميثاق التوحيد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، والرسل في مقدمتهم.

وثانيها: ميثاق البلاغ الذي أخذه الله على الرسل، ولعله المقصود الأساس من هاتين الآيتين.

وثالثها: الميثاق الذي أخذه الله سبحانه على الرسل، أن يُصدِّقوا محمدًا ﷺ، ويؤمنوا به وبدعوته حين يبعثه الله تعالى في آخر الزمن.

وقد صحَّت الأحاديث بأن محمدًا ﷺ كان نبيًّا وآدم بين الروح والجسد، وأن الميثاق أُخِذ على آدم أن يؤمن بمحمد ﷺ أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، كما أُخذ على سائر الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

١- أخرج ابن سعد وغيره عن عامر أن رجلًا قال للنبي ﷺ: متى استُنْبِئْت؟ قال: «**وآدم**

بين الروح والجسد حين أُخذ مني الميثاق»[١].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أنه قيل للنبي ﷺ: متى وجبت لك النبوَّة؟ قال: «**بين خلْق آدم ونفخ الروح**»[٢].

ويحتمل أن يكون المعنى: قُدِّر له ﷺ وقُرِّرت له النّبوة قبل أن يخلق آدم.

٣- وعن أبي الجَدْعاء ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، متى كنتَ نبيًّا؟ قال: «**إذْ آدم بين الروح والجسد**»[٣]. وغير ذلك من الأحاديث والآثار.

٤- ومنها ما جاء عن قتادة أن النبي ﷺ: «**كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث**»[٤] فهو معنى صحيح، على أن النبوة قُدِّرتْ له قبل خلق آدم، كما في الأحاديث السابقة.

هذا: وبعد أن أمر الله نبيه بعدم اتباع الكافرين والمنافقين، ولما ذكر الله سبحانه ثلاثة أمثلة من مسائل الجاهلية الضالة، وهي زعم أن يكون للرجل قلبان، وأن الزوجة لا تكون بالظهار أمًّا، وإبطال عادة التبني.

بيَّن سبحانه أن الذي أمر به نبيه، هو من العهود التي أخذها على النبيين والمرسلين من أول عهود الشرائع، فسنة الله فيهم واحدة، وهم مأمورون بنصرة الدين وقول الحق، وتبليغ الرسالة، دون ملاينة الكافرين والمنافقين، ولا خشْيتهم ولا مجاراتهم، أو موافقتهم على ضلالهم قال سبحانه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وفي هذه السورة قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾.

---

(١) ابن سعد (١/١٤٨) والحديث عند أحمد (٢٧/١٧٦)، (٣٨/٢٥٧) (١٦٦٢٣، ٢٣٢١٢) قال محققوه: إسناده صحيح. ورجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٥٦) والحاكم (٢/٦٠٩) والبيهقي (٢/١٣٠) وصححه الألباني أيضًا في السلسلة الصحيحة (١٨٥٦) ومشكاة المصابيح (٥٧٥٨).

(٣) ابن سعد (١/١٤٨)، (٧/٥٩) وهو عند الطحاوي في «مشكل الآثار» برقم (٥٩٧٦) قال محققه: إسناده صحيح، وجاء هذا اللفظ أيضا عن أبي هريرة في الترمذي وغيره كما في تخريج الحديث السابق.

(٤) الطبري (١٩/٢٣)، وهو حديث ضعيف كما في السلسلة الضعيفة (٦٦١).

أي: واذكر يا محمد حين أخذنا من النبيين العهد المؤكد بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ على وجه الخصوص.

وهذا الميثاق جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

أي وأخذنا العهد والميثاق على الرسل جميعًا أن يأمروا الناس بإخلاص العبادة لله وحده، وينصحوا لقومهم، وأخذنا منهم الميثاق بتقوى الله تعالى، ونبذ طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحى الله به إليهم.

ثم ذكر ﷺ خمسة من الرسل الذين أخذ الله عليهم هذا العهد المؤكد، وهم أولو العزم منهم، فابتدأ بآخرهم لشرفه وفضله قائلًا: ﴿وَمِنكَ﴾ أي: محمد ﷺ المخاطب بالآية، ثم رتبهم بحسب وجودهم فقال: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وخص هؤلاء الخمسة بالذكر؛ لكونهم أصحاب الكتب والشرائع.

وأولو العزم من الرسل، هم الذين كابدوا أقوامهم، وصبروا على أذاهم، أكثر من غيرهم، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد جاء ذكرهم مصرحًا به في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم عظَّم الله سبحانه من شأن هذا الميثاق، وسماه ميثاقًا غليظًا، يجب الوفاء به وبما التزموا به من تبليغ الشرائع، فقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

والله سبحانه سيسأل المرسل إليهم عن هذا الميثاق، فيثيب الصادقين الموفِّين بعهدهم، ويعذب الكافرين الناقضين لعهدهم مع الله تعالى ومع رسله.

ثم بين سبحانه العلة في إرسال الرسل، وأنها إثابة المطيعين وعقاب العاصين فقال:

٨- ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

أي: وقد أخذ ﷻ العهد والميثاق من أولئك الرسل؛ ليُعظِّم سبحانه جزاء الذين يُوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، وليشدِّد جزاء الذين يكفرون بما جاءت به رسل الله ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾ أي: ليسأل المرسلين عما أجابتهم به الأمم، فيجزي المؤمنين الجنة، ويجزي الكافرين عذابًا شديدًا في جهنم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وكما يسأل عيسى ﷺ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

والحكمة من سؤال الرسل يوم القيامة هي تبكيت مَنْ كَفَرَ بهم وتقبيحهم، وإذا كان الرسل يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم؟!

وقد جمعت الآية بين ثواب الصادقين وعقاب الجاحدين المكذبين.

غَزْوَةُ الأَحْزَابِ

٩- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

بعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، بيَّن سبحانه أن من النعم التي أنعم بها على المؤمنين، أنْ ردَّ عنهم كيد الكافرين والمنافقين يوم غزوة الأحزاب، وغزوة الأحزاب من الأحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

وللقرآن الكريم طريقته الخاصة في عرض الغزوات، وله أسلوبه الخاص في الوصف والتعقيب، ووقوفه أمام بعض المَشاهِد والأحداث، وإبرازه للقيم والسنن؛ لأن القرآن يهدف إلى هداية البشر وتربية الأمة، وهذا يختلف عن سرد أحداث القصة في كتب السُّنَّة والسيرة.

وغزوة الأحزاب هي غزوة الخندق الذي حُفر حول المدينة حين تجمَّعت الأحزاب من قريش، وغطفان، وقبائل نجد مع يهود المدينة على حرب النبي ﷺ.

والآيات التي تكلَّمت عن هذه الغزوة في السورة جاءت على النحو التالي:

١- الوصف العام للغزوة، وذلك من الآية التاسعة إلى الآية الحادية عشرة.

٢- موقف المنافقين واليهود من المسلمين، وذلك من الآية الثانية عشرة إلى الآية

الحادية والعشرين.

٣- موقف المؤمنين في غزوة الأحزاب، وذلك، من الآية الثانية والعشرين إلى الآية الخامسة والعشرين.

٤- أمّا نهاية المعركة، فقد جاء في الآية الخامسة والعشرين.

٥- جاءت نهاية اليهود الذين ظاهروا المشركين وأعانوهم، في الآيتيْن السادسة والعشرين والسابعة والعشرين.

وسبب هذه الغزوة: أنه بعد غزوة أُحد، تهادنت قريش مع المسلمين لمدة عام، وقال أبو سفيان للمسلمين: موعدنا بدر من العام القابل، وتخلف أبو سفيان عن موعده، فلم يحدث قتال بين المسلمين والمشركين في هذه المدة، إلا ما كان من (عامر بن مالك) حين سأل رسول الله ﷺ بَعْد أربعة أشهر من انقضاء غزوة أحد، أن يوجهه ومعه أربعون من المسلمين إلى أهل نجد، يدعونهم إلى الإسلام، فغدرت قبائل نجْد بهم فقتلوهم، وكان هذا كيدًا كاده عامر بن مالك، وهذا ما يُعرف بموقعة (بئر معونة)، حيث غدرت قبائل بني سُلَيْم بأربعين من المسلمين فقتلوهم.

ولما أجلى النبي ﷺ بني النضير عن المدينة؛ لغدْرهم ونقضهم عهد المسلمين، نزلوا على بني قريظة وأهل خيبر، فاغتاظ اليهود، وخرج منهم سلَّام بن أبي الحُقَيْق، وحُيَيُّ بن أخْطب وغيرهما، فقدموا على قريش بمكة، وتآمروا مع غطَفان على غزو المدينة.

أحداث الغزوة:

فخرجت قريش وبنو كنانة في عشرة آلاف بقيادة أبي سفيان، وخرجت غطفان بقيادة (عُيينة بن حصن) في ألفْ من الجنود، وخرجت هوازن أيضًا بقيادة (عامر بن الطفيل).

ودسَّ أبو سفيان (حُييَّ بن أخطب) على بني قريظة؛ لينقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، ويكونوا معهم عليه، وكانوا نحو ثمان مئة مقاتل، فنقضوا العهد، وأجابوهم لذلك، فاشتد الأمر على المسلمين.

وأبلغت قبيلة خزاعة رسول الله ﷺ بعزم الأحزاب على غزو المدينة.

فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يحيط بالمدينة، تحصينًا لها من دخول العدوِّ، وهو أمر لم تعْهده العرب من قبل، وتم حفر الخندق، وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وهو يساوي ربع جيش العدو تقريبًا.

وجاء الأعداء، فدخلتْ قريش من جهة الغرب، أسفل الوادي، بين الجرْف وزُغَابة، ودخلت غطفان وهوازن من جهة الشرق، أعلى الوادي، إلى جانب جبل أحد، وعسْكَر المسلمون تحت جبل (سَلْع)، وجعلوا ظهورهم إلى الجبل، وكان الخندق بينهم وبين العدو.

وكانت بنو قريظة قد عاهدوا النبي ﷺ على الهدنة، وألا يلحقه منهم ضرر، فلما تمكن الحصار بالمسلمين استجابوا لدعوة بني النضير، فنقضوا العهد، وصاروا حزبًا من الأحزاب، فضاق الحال، وساءت الظنون، وظهر النفاق.

وقام نعيم بن مسعود الأشجعي بدوْر الوقيعة بين قريش وقريظة وغطفان، فخذَّل بينهم، وكان قد أسلم دون علم قومه.

ودام الحصار بضعًا وعشرين ليلة، لم تقع فيها حرب بين الطرفين، إلا مصارعة بين ثلاثة اقتحموا الخندق من جهة ضيِّقة بين الخندق وجبل (سلْع)، وقَتَل عليٌّ بن أبي طالب أحدهم، وفرَّ صاحباه.

ولحقت بالمسلمين شدة من هذا الحصار، وخَوْفٌ من كَثرة عدوِّهم، حتى كاد النبي ﷺ يصالحهم على نصف ثمار المدينة، واستشار أصحابه، فلم يقبل سعد بن معاذ بهذا.

فأرسل الله سبحانه ريحًا شديدة على الأحزاب، اقتلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وأثارت الذعْر بينهم.

وظنت قريش أن قريظة صالحت المسلمين على قتال الأحزاب، فأجمعوا أمرهم أن يرحلوا عن المدينة، فارتحلوا مهزومين بقدرة الله تعالى، وانصرف المسلمون متوجهين إلى المدينة.

وقال أبو سفيان لقومه: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، أي: الخيل والجمال، وأخلفتْنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا

بناء، فارتحِلوا فإني مرتحل، ثم جلس على جمَله وهو معقول، فضربه، فقام وهو على ثلاثة أرجل، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم[١].

وهكذا ردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان هذا في شهر شوال سنة خمس من الهجرة، كما قال ابن إسحاق، وهو الصحيح.

معنى الآية: ونعود إلى معنى الآية: أي يا معشر الذين صدَّقوا بالله ورسوله، اذكروا نعمة الله تعالى التي أنعمها عليكم في المدينة أيام غزوة الأحزاب، حين اجتمع عليكم المشركون من خارج المدينة، حيث جاءتكم جنود أهل مكة والحجاز من فوقكم، وأهل نجد من أسفل منكم، واليهود والمنافقون من المدينة وما حولها، وكانوا عددًا لا قِبَل لكم به، يريدون إبادتكم والقضاء عليكم، فأحاطوا بكم من كل جانب،وخندق رسول الله حول المدينة، فحاصر الأعداء المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، ودام الحصار مدة طويلة فأرسل الله عليهم ريحًا شديدة اقتلعت خيامهم، وأثارت خيولهم ورمت قدورهم، وأرسل عليهم ملائكة من السماء لم تروْها، فوقع الرعب في قلوبهم، وانقلبوا خائبين كما في الحديث: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«نُصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدبور»**[٢] والله تعالى لا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء قدير.

أخرج البيهقي في «الدلائل» عن حذيفة ﷺ قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافُّون قعودًا، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوْقنا، وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت قطُّ علينا أشد ظلمة ولا أشد ريحًا منها، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن منهم أحد إلا أذن له، فيتسللون في الخروج، ونحن ثلاث مئة، وقد استقبلنا النبي ﷺ رجلًا رجلًا حتى أتى عليَّ فقال: ائتني بخبر القوم، وقال رسول الله ﷺ: **«اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه،**

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣١).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٦١٧) و«المسند» (٢٠١٣)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٦٤١) والطبراني (١١٠٤٤).

وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته»[1] فجئت، فإذا بالريح في عسكرهم، ما تُجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفُرشهم، الريح تضربهم بها وهم يقولون: الرحيل، الرحيل، فجئتُ فأخبرته خبر القوم وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[2].

الْوَصْفُ الْعَامُّ لِابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

١٠- ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠[3] ⁽١٠⁾﴾

فصَّل ﷺ ما حدث في تلك الغزوة، في هذه الآية وما بعدها، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: اذكروا يا معشر المؤمنين، حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي من جهة المشرق، وهم قبيلتا أسد وغطفان، ويهود بني قريظة، يقودهم: مالك بن عوف، وعيينة بن حصن، وطلحة بن خويلد، وحُييُّ بن أخطب.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: من بطن الوادي من جهة المغرب، حيث جاءتكم قريش وكنانة، يقودهم: أبو سفيان، والأعور، عمرو بن سفيان، من جهة الخندق، فنزلت طائفة من أعلى المدينة، وطائفة من أسفلها، وتم إحكام الحصار.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ شخصت من شدة الحيرة والدهشة، فلم تنظر إلا إلى الأعداء، وملَّت وتعبت من استدامة النظر.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن مكانها في الصدر، من شدة الرعب،

---

(١) من حديث طويل عن حذيفة عند الحاكم (٣/ ٣١) وصححه أبو نعيم في «الدلائل» (٤٣٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥٠) وابن عساكر (١٢/ ٢٨٢).

(٢) «زاد المسير» (٦/ ٣٥٦) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٥١). وانظر حديث ابن عمر في المسند (٤٧٨٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٤٠) وابن ماجه (٣٨٧١) وابن حبان (٩٦١).

(٣) قرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر بألف بعد نون (الظنونا) الثانية وصلًا ووقفًا، تبعًا لرسم المصحف، وقرأ ابن كثير وحفص والكسائي وخلف بإثبات الألف وقفًا وحذفها وصلًا إجراء للفواصل مجرى القوافي، وقرأ الباقون بحذف الألف في الحالين؛ لأنها لا أصل لها.

ففزعت فزعًا شديدًا، حتى لكأن الحلقوم انتقل من مكانه إلى أعلى حتى قارب أن يخرج من الفم، وبلغت الروح التراقي من شدة الخوف، وهذا كقولهم: تنفَّس الصعداء.

عن أبي سعيد ﷺ قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: **«نعم، قولوا: اللهم استُر عوْراتنا وآمن روعاتنا»** قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح[1].

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: ولَمَّا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، خافوا أن يُهزموا حين رأوْا شدة الحصار وقوة الأحزاب، فتعددت الظنون، واختلفت الأقاويل.

قال الحسن البصري: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون[2].

فالمؤمنون ظنوا خيرًا، والمنافقون ظنوا شرًّا، فظنوا أن الله تعالى لن ينصر دينه، ولن يُعلي كلمته.

قال قتادة: نزلت هذه الآية يوم الأحزاب، وقد حُوصر المسلمون شهرًا، فخنْدق رسول الله ﷺ - أي حفر خندقًا - وأقبل أبو سفيان بقريش ومن معه من الناس حتى نزلوا بعَقْوة رسول الله ﷺ -أي: بساحة واسعة- وكاتبَتِ اليهود أبا سفيان فظاهروه، فبعث الله عليهم الرعب والريح، فذُكر أنهم كانوا كلما بنوْا بناء قطع الله أطنابه، وكلما ربَطوا دابة قطع الله رباطها، وكلما أوقدوا نارًا أطفأها الله، حتى لقد ذُكر لنا أن سيد قوم يقول: يا بني فلان، هلُمَّ إليَّ، حتى إذا اجتمعوا عنده، قال: النجاة النجاة، أُوتيتم. وذلك لِمَا بعث الله عليهم من الرعب[3].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما حفر رسول الله ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي والمسلمين جَهْدٌ شديد، فمكثوا ثلاثًا، لا يجدون طعامًا حتى ربط النبي ﷺ على

---

(١) «المسند» (٣/٣) عن أبي عامر العقدي برقم (١٠٩٩٦) بإسناد ضعيف من هذا الطريق، وأخرجه الطبري (٢١/١٢٧) والبزار كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٣٦) وقال: إسناده متصل ورجاله ثقات وهو في «تفسير الطبري» (٢٥١١٩)، وأبي داود (٥/ ٣١٤) والنسائي (٦٠) وابن ماجه (٣٨٧١) وهو عند البزار (٣١١٩) (زوائد) والطبراني في الكبير (٣٧١٠) وطرقهم متعددة.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٤٦).

(٣) «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٨).

بطنه حَجرًا من الجوع[١]. قال تعالى يصف بلاء المؤمنين:

١١- ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾

أي: وفي ذلك الزمان والمكان، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، وحوصر المسلمون، امتحن الله المؤمنين، واختبرهم بالجوع والحصار، وابتلاهم بالخوف والقتال، فاضطربوا اضطرابًا شديدًا، حتى لكأن الأرض تتحرك تحت أقدامهم، وهذا يعني اضطراب القلوب وفزعها، وفي هذا اليوم العصيب محَّص الله القوم، وعُرف المؤمن من المنافق، وظهر هذا للعيان.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد صار إيمان المؤمنين عين اليقين ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

وكما ظهر إيمان المؤمنين، تبيّن نفاق المنافقين وظهر ما كانوا يضمرونه:

وَصْفُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَالْكَشْفُ عَنْ حَقِيقَتِهِمْ

١٢- ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾

أي: ومما زاد في بلاء المسلمين وحُزْنهم ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين، قصدوا بها إدخال الشك في قلوب المؤمنين، لعلهم يردُّونهم عن دينهم، فقالوا: إن الله وعد المسلمين النصر فكانت الهزيمة، وهذا وعد كاذب للتغرير بنا بالوقوع فيما لا طاقة لنا به، وهذه عادة المنافقين في الشدائد والمحن.

وهكذا، فإن الذين في قلوبهم مرض، كانوا مترددين بين الإيمان والكفر، فأخلصوا النفاق - يومئذ - وصمموا عليه، فكشف كل منهما عما في نفسه الخبيثة وطبْعه الذميم.

قال معتَّب بن قُشير: يعدُنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يستطيع أن يفارق رحْله ويذهب إلى الغائط[٢].

---

(١) ابن أبي شيبة (١٤/ ٤١٨) والبيهقي (٣/ ٤٢٢) وهو في البخاري مطولًا برقم (٤١٠١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن قتادة بسند صحيح، والبيهقي (٣/ ٤٢٥).

فهذا الذي وعدنا به محمد ﷺ من النصر والتمكين ما هو إلا باطل من القول، وتغرير بكم، فلا تصدقوه.

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ[1] لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

يثرب: هو الاسم القديم لمدينة الرسول ﷺ، وقد سُميت يثرب باسم رجل من العماليق، من نسل إرم بن سام بن نوح، كان قد نزل بها في قديم الزمان، فسميت باسمه.

وورد أن للمدينة في التوراة أحد عشر اسمًا هي: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكينة، والجابرة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة [٢].

وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله تعالى للمدينة: يا طيبة، ويا طابة، ويا مسكينة [٣].

وقد غيَّر الإسلام اسمها، وكره التسمية القديمة.

جاء في الأثر عن البراء بن عازب ﷺ: **«من سمى المدينة يثرب، فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة، هي طابة»**[٤].

وقال أبوعبيدة: **يثرب**: اسم أرض بما فيها من النخل والحوائط، والمدينة.

وهاتان طائفتان من المنافقين، إحداهما تشير على المجاهدين بالرجوع إلى المدينة إذ لا قدرة لهم على قتال الأعداء - على حد زعمهم - وفرقة أخرى يتعللون بأنهم يخافون على بيوتهم من مهاجمة الأعداء، والله تعالى يكشف حال الفريقين في الآيتين السابقتين

وقد أفصحت هذه الآية عن قول الذين في قلوبهم مرض، وهم: أَوْس بن قَيْظيٍّ،

---

(١) قرأ حفص بضم الميم الأولى من (لا مُقام) على أنها اسم مكان من أقام، أي: لا مكان إقامة لكم، وقرأ الباقون بفتح الميم، اسم مكان من قام، أي: لا مكان قيام لكم، أو مصدر منه، أي: لا قيام لكم.

(٢) ، (٣) من «تفسير ابن كثير» للآية (٦/ ٣٨٨).

(٤) «المسند» (٤/ ٢٨٥) بسند ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد، وبقية رجاله ثقات كما قال محققوه، برقم (١٨٥١٩). وأخرجه أبو يعلى (١٦٨٨) وابن أبي شيبة في تاريخ المدينة (١/ ١٦٤) وابن عديّ في الكامل (٧/ ٢٧٣٠).

وجمْعٌ من عشيرته، وعبد الله بن أبيٍّ بن سلول وأشياعه، حين قالوا للمؤمنين: لا قرار لكم هنا، ولا إقامة لكم في معركة خاسرة، فارجعوا إلى منازلكم داخل المدينة، واتركوا محمدًا وأصحابه، وفي هذا تخذيل عن الجهاد بدعوى أنهم لا قدرة لهم على قتال العدو.

وكان المسلمون قد جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، ووجوههم إلى العدوِّ، وجعلوا الخندق بينهم وبين الأحزاب، فقال المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة لنا، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة[1].

وقد ذكرت الآية موقف جماعة أخرى من المنافقين كانوا يستأذنون في الانصراف عن ساحة المعركة، ويطلبون من النبي ﷺ أن يعودوا إلى منازلهم قائلين: إن بيوتنا خالية من الحراسة، وغير محصنة، وإنهم يخشون عليها من السرقة، أو من هجوم العدوّ.

وقد كذَّبهم الله تعالى، وبيَّن أن بيوتهم ليست كما يقولون، وإنما هم يتعللون بذلك للفرار من ساحة القتال، قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ فقد كانت بيوتهم محصنة بخندق، وجيوش المسلمين تحرسها.

وهذه الطائفة من المنافقين أفردهم القرآن بالذكر؛ لأنهم رجعوا دون إذن النبي ﷺ، وكان عددهم ثمانين رجلًا من بني حارثة، وكانت بيوتهم مجاورة لبني سلمة في أقصى المدينة.

وقد ورد أن بني حارثة أرسلت أوس بن قَيْظيٍّ إلى النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا عورة، ولا يوجد دار من دور الأنصار مثل دورنا، فليس بيننا وبين غطفان أحد يردُّهم عنا، فَأْذن لنا نرجع إلى دُورنا، وإلى ذرياتنا ونسائنا، فأذن لهم ﷺ فبلغ ذلك سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة، إلا صنعوا هكذا، فردَّهم[2].

وهؤلاء هم الذين قال عنهم علَّام الغيوب: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

وهذا كشف آخر عن حقيقة المنافقين.

---

(١) يُنظَر: «فتح القدير» للشوكاني (٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظَر: ابن إسحاق (٢/ ٢٢٢).

١٤- ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا[(١)] وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن جيوش الأحزاب لو غزت المدينة من جميع جوانبها، واستولوا عليها، وكان جيش المسلمين خارج المدينة وسأل الجيش الغازي هؤلاء المنافقين أن يقوموا بالدسِّ والوقيعة والتفريق بين صفوف المسلمين لخرجوا لذلك مسرعين، ولم يخافوا على بيوتهم من اللصوص كما زعموا، ولم يتباطؤوا في السعي بدسِّ الفتنة والوقيعة بين المسلمين.

والمعنى: ولو سألوهم الشرك بالله تعالى والرجوع عن الإسلام لأجابوا إليه مبادرين، وما تأخروا عنه إلا شيئًا يسيرًا، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: ولو دخل الغزاة المعتدون، المدينة من جميع جوانبها وقطنوا فيها، وبقي جيش المسلمين خارجها، ثم طلُب منهم الفتنة، أي إثارة الخلاف بين المسلمين بالتفريق بينهم، أو طُلب منهم الردة عن الإسلام، لأجابوهم لِمَا طلبوا، ولفعلوا ذلك مسرعين دون تأخير، وهذا غاية الذم لهم.

ويصح أن يكون المعنى: ولو أن مقتحمًا اقتحم عليهم بيوتهم هذه التي يزعمون أنها عورة، وهم قابعون فيها، ثم طلب منهم أن ينضموا إليه في قتال المسلمين لأسرعوا لتلبية طلبه، وكانوا مطيعين له كل الطاعة.

ومن شأن المنافقين نقض العهود مع الله ومع الناس، وهؤلاء كانوا قدعاهدوا النبي ﷺ على أن لا يفرُّوا من القتال بعد الذي حدث منهم في غزوة أحد، وقد تكرر هذا منهم في هذه الغزوة، قال تعالى:

١٥- ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

أي: والذين قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وهم بنو سلمة، وبنو حارثة، وكانوا يوم غزوة أُحد، قد جَبُنوا وتخاذلوا عن ملاقاة العدو، ثم تابوا، وعاهدوا النبي ﷺ وحلفوا أنهم لا

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وابن ذكوان بخلف عنه بقصر همزة (لآتوها) أي: بحذف الألف بعدها من الإتيان، بمعنى: جاؤوها، وقرأ الباقون بمد الهمزة، أي: بإثبات ألف بعد الهمزة بمعنى: أعطوها، من الإيتاء، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

يولُّون الأدبار، ولا ينصرفون عن صفوف المسلمين بعد هذه الغزوة، وسيكونون معهم في الدفاع عن المدينة التي يسكنونها، ولكنهم لم يوفُوا بعهودهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]. ثم طرأ على بني حارثة نفاق وضعف جديدان في هذه الغزوة بعد أن عاهدوا الله من قبل على عدم الفرار، فذكَّرهم الله سبحانه في هذه الآية، بأنهم كانوا قد عاهدوا الله تعالى على يد رسوله ﷺ قبل غزوة الخندق، ألَّا يفرُّوا من الجهاد إن شَهِدوا حربًا، ولا يتأخروا إن دُعوا إلى الجهاد، ولكنهم خانوا عهدهم وتخاذلوا.

وسيسألهم ربهم عن ذلك العهد، ويحاسبهم على عدم الوفاء به ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: جديرًا بالوفاء والصدق، قبل أن يُسألوا عنه في الآخرة، وسوف يجازي الله كل ناقض للعهد بما يستحقه من عقاب.

ثم إن التخاذل عن الجهاد، والفرار من ساحة المعارك، لا يقدم في العمر ولا يؤخر، ولو عاش الإنسان بعض الوقت، فإن متاعه في الدنيا قليل لا يستحق بيع الآخرة به، قال تعالى:

خَوْفُ الْمُنَافِقِينَ وَتَثْبِيطُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ

١٦- ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾

في هذه الآية يصحح الله تعالى الزعم الذي دعا المنافقين إلى الفرار من المعركة، ونقْض العهد مع المسلمين، وهو الخوف من الموت أو القتل.

فقد علم سبحانه أنهم ما أرادوا إلا الفرار جُبْنًا، فبيَّن سبحانه أن الفرار لا ينجّي من الموت حتف الأنف، ولا من القتل بيد العدوّ، فإن الأسباب تنفع إذا لم يعارضها القدر، فإذا جاء القدر تلاشي كل سبب، وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان أنها تنجيه.

قل - أيها الرسول- لهؤلاء المنافقين الذين يفرون من القتال طمعًا في البقاء، وحرصًا على الحياة: إن فراركم لن يؤخر آجالكم لمن حضر أجله، ولن يدفع عنكم الموت أبدًا، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

﴿وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة].

وإن فررتم أو هربتم ونجوتم من الموت -على سبيل الفرض- فلن تتمتعوا بعد هذا الفرار إلا زمنًا قليلًا بقدْر ما بقي من أعماركم المحدودة.

فمن لم يمت بالسيف مات بغيره، تنوعت الأسباب والموت واحد.

وهكذا فقد وبخهم الله تعالى على الفرار من ساحة المعركة، ثم أعلمهم أنه لا عاصم لهم من عذاب الله، وأنهم لن يفلتوا من عقابه.

والفرار من ساحة المعركة غير مأذون فيه إذا كان العدوُّ ضِعْف المسلمين في عدده وعُدته، فإن كان العدو أكثر من ذلك، جاز، كما قال تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٦].

كما يحرم الفرار إذا كان المسلمون يزحفون نحو الأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال].

ولعل هذا التوبيخ على الفرار في غزوة الأحزاب، كان قبل التخفيف الذي جاء في سورة الأنفال؛ لأن جيش الأحزاب كان أربعة أمثال جيش المسلمين، وكان المسلمون في حصار، ولم يكونوا زاحفين نحو أعدائهم.

ثم بين سبحانه أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئًا إذا أراده الله بسوء، قال تعالى:

١٧- ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

وأخيرًا، حَكمَ - سبحانه - بأنهم لن يجدوا غير الله وليًّا يُعينهم، ولا نصيرًا ينصرهم.

﴿قُلْ﴾ - يا أيها النبي - لهؤلاء المنافقين: إن قدرة الله تعالى محيطة بالمخلوقات، فإن شاء عطَّل تأثير الأسباب في المسببات، فربما أتت الرزايا من جهة الفوائد، وإذا أراد الله بعبده سوءًا فلا عاصم له من الله تعالى، وإن أراد به رحمة فليس في استطاعة أحد أن يمنع هذه الرحمة، فلا قريب ينفعه، ولا ناصر ينصره، فمن ذا الذي يمنعكم ويجيركم من عذابه إن قدَّر هلاككم، ومن يمنع عنكم خيره إن قدَّر بقاءكم ونَصْركم، فهو المعطي

المانع، النافع الضار، ولا يجد هؤلاء المنافقون لهم من دون الله وليًّا يواليهم ولا نصيرًا ينصرهم، ثم توعدّ الله المثبطين عن الجهاد وتهددهم بقوله:

١٨- ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية نوعًا ثالثًا من المنافقين، يظنون لجهلهم أن الله تعالى لا يعلم بواطن الأمور، فيُخْفُون مقاصدهم عن رسول الله ﷺ، فبيَّن ﷻ أنه يعلم الذين يقعدون عن الجهاد، ويدْعون غيرهم إلى القعود عن الجهاد، ممن قالوا لغيرهم: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أو قالوا: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا إلينا، واتركوا جيش المسلمين، فالله تعالى يعلم المثبطين غيرهم عن الخروج للقتال، ممن لم يخرجوا، ويعلم الذين قالوا لمن خرج مجاهدا: ارجعوا إلى المدينة ولا تورِّطوا أنفسكم، وهؤلاء المثبطون أشد الناس حرصًا على التخلف عن الجهاد، لما فيهم من جُبن ونفاق وعدم صبر وإيمان، فهم لا يأتون القتال إلا قليلا مُراءاة للناس وليس بدافع الإيمان.

وَرَدَ أن أحد المؤمنين رجع إلى بيته، فوجد أخاه المنافق أمام طعام شهيٍّ، فقال له: أتجلس هكذا ورسول الله في القتال؟ فقال له أخوه: هلمَّ إلى ما أنا فيه من طعام وشراب، ودع عنك محمدًا، فإنه لا قبل له بأعدائه، وإنه لهالك، فشتمه أخوه المؤمن وقال: لأُخبرنَّ رسول الله ﷺ، فلما وصل إليه وجد الآية قد نزلت(١).

وقال ابن السائب: نزلت هذه الآية في (عبد الله بن أبيّ) وأمثاله من المنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة، فكانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له: اجلس ولا تخرج، ويكتبون إلى من في المعسكر أن هلمُّوا إلينا فإنا في انتظاركم(٢).

فالله تعالى يعلم ما تكنُّه الضمائر، ويعلم ما يقوله المثبِّطون للعزائم، من الذين يعوِّقون الناس عن الجهاد.

والاعتقاد بأن الله تعالى لا يعلم خفايا القلوب ليس بعجيب لدى أهل الكفر:

جاء في صحيحي البخاري ومسلم: عن ابن مسعود ﷺ أنه: اجتمع عند البيت قرشيَّان

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد كما في «الدر المنثور» (١١/ ٧٥٥).

(٢) «تفسير الألوسي» (٢١/ ١٢٣).

وثقفيٌّ، أو ثقفيَّان وقرشيٌّ، كثيرةٌ شُحُمُ بطونهم، قليلةٌ فقْه قلوبهم، فقال أحدهم: أتروْن أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إذا أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] [فصلت].

وفي هذه الآية بيَّن سبحانه أنه محيط بالمنافقين، وأنهم لن يفلتوا من عقابه، وأنه تعالى يعلم المثبطين عن الجهاد في سبيل الله، الذين يسعوْن بالتخذيل بين صفوف المسلمين، ويعلم حقيقة الذين يدْعون إخوانهم في النفاق إلى القعود عن الجهاد، فيقولون لهم: تعالَوْا وانضموا إلينا واتركوا محمدًا، ولا تشهدوا لهم قتالًا فإنا نخاف عليكم الهلاك.

وهؤلاء المنافقون مع تخذيلهم وتعويقهم طرق الجهاد لا يأتون القتال إلا نادرًا، من باب الرياء والسُّمعة وخوف الفضيحة، فهم لا يُقبلون على القتال إلا إقبالًا قليلًا، تارة يخرجون مع المؤمنين؛ لإيهامهم أنهم معهم، وتارة يخرجون رياء، أو طمعًا في الغنيمة.

جُبْنُ الْمُنَافِقِينَ وبُخْلُهُمْ

١٩- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ[2] ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

أخذت السورة تُصوِّر ما جُبل عليه المنافقون من: جُبن وبُخْل وخَوَر، وتكشف أحوالهم.

١- فوصفتْهم - **أوَّلًا** في هذه الآية - **بشدة البخل**، فهم بخلاء بأبدانهم وأموالهم، فلا يجاهدون بالنفس ولا بالمال، وهم يمنعون المؤمنين من بذل ما في وُسعهم من المال أو المعونة أو الصلة والمودة؛ وذلك لِمَا في نفوسهم من العداوة والحقد عليهم، إنهم يَشِحُّون ببذل أنفسهم إذا دُعوا إلى الجهاد، حُبًّا في الدنيا وكراهية في الموت، فهم أشحاء بالنفس والمال ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ فهم يَشِحُّون بأنفسهم، ويشحُّون بإخوانهم، ويشحُّون بأموالهم، إنهم يشحُّون بكل ما فيه نفع للمؤمنين.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٧، ٧٥٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٥).

(٢) أمال الألف التي بعد الجيم من (جاء) ابن ذكوان وحمزة وخلف وهشام بخلف عنه.

٢- ووصفتْهم - **ثانيًا - بالجبن والخورَ**، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي فإذا رأَوْا جيوش العدوِّ مقبلة وحضرت ساعة القتال، خافوا الهلاك على أنفسهم، ورأيتهم في رُعب شديد لا نظير له، حتى إنَّ أعينهم تدور في أحداقهم، كحال المغشيِّ عليه من سكرات الموت لذهاب عقولهم، خوفًا من القتل وفرارًا منه ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا تصوير لحال المنافقين عندما يتوقَّعون الشدائد ويخافون من الموت، فهم بخلاء جبناء عند لقاء العدو.

٣- أما حالهم عند حلول الأمان وذهاب الخوف، فإنهم يرفعون أصواتهم، ويَصِيحُون بالمَلامة على من عرَّضهم لخطر الحرب، وعدم الانصياع إلى مشورتهم ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ أي: انتهت الحرب وذهب الرعب ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: رموكم بألسنة سليطة مؤذية، وبالغوا في ذمكم.

٤- وهم عند حصول الغنائم يطلبون القسمة وأخذ نصيبهم منها، قائلين: إنا شهدنا وقاتلنا، وهم عند ملاقاة العدو أجبن قوم وأضعف جند، فهم ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: إن المنافقين عند لقاء العدو وشدة البأس، جُبناء ببذل أنفسهم، أشحاء بأموالهم، وعند تقسيم الغنائم بخلاء وحسدة.

وهم في حالة السلم يُسرعون إلى مَلامَتِكُم وخصومتكم، ولا يواسونكم بأموالهم للتجهيز للقاء العدو، فهم أشحة على كل ما فيه الخير للمسلمين.

وقد كان المنافقون يوهمون المسلمين أنهم منهم، فكشف الله دخائلهم بأنهم قوم قد أسلموا في الظاهر، ولكن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ولذا، بيَّن سبحانه سوء مصيرهم، فأبطل الله ثواب أعمالهم بسبب نفاقهم؛ لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وأذهب ثوابها، وكان هذا الإحباط هيِّنًا على الله تعالى، وكل شيء سهل هين على رب العالمين، ولكنه سبحانه أراد أن يبيِّن أن أعمالهم جديرة بالإحباط لصدورها عن قلوب مريضة ونفوس خبيثة، وهذا النوع من الناس لا ينقطع في جيل من الأجيال، فهو موجود في كل زمان ومكان.

- أما المؤمنون فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقهم لبذل أموالهم، فجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا النفس والنفيس لإعلاء كلمة الله تعالى.

ثم كشف القرآن عن حالة أخرى من أحوال جبن المنافقين، وهي أنهم يتمنون عند لقاء العدوّ أن يكونوا خارج المدينة، يتسمَّعون أخبارهم، ولو أنهم كانوا داخل المدينة مصادفة لكان مشاركتهم في القتال صورة ورياءً، قال تعالى:

٢٠- ﴿يَحْسَبُونَ[1] ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ[2] عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

ختم الله - سبحانه - هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحن، فكشف - جلَّ شأنُه - عن حالهم بأنهم قوم بلغ بهم الجبن والخوَر أنهم بعد رحيل الأحزاب عن المدينة، يظنون من شدة الخوف، أنهم لم يذهبوا عنها، وبعد زوال أسباب الخوف لا يزالون يعيشون في جبنهم، فهم ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ وهذا من شدة الخوف والجبن، مع أن الله تعالى هزمهم شر هزيمة.

وإن عاد الأحزاب مرة ثانية إلى المدينة تمنَّى أولئك المنافقون أنهم لو كانوا غائبين عن المدينة بيْن أعراب البادية؛ حتى لا يتعرضوا للقتال.

ثم بيَّن سبحانه أن المنافقين يتلهفون على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين، فهم يسألون القادمين من المدينة والذاهبين إليها عن أحوالكم، ويتجسسون من بعيد على أخباركم ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾، ماذا حصل لكم؟

ثم أخبر سبحانه أن المنافقين لو كانوا موجودين في ساحة المعركة لامتنعوا عن القتال معكم؛ إلا ما كان من باب الرياء وإيهام المشاركة، وذلك لشدة جبنهم وضعف يقينهم، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وذلك لحرصهم على الحياة، فهم لا يقاتلون رغبة، وإنما يقاتلون لئلَّا يكشف أمرهم.

وكيف تشحون - أيها المنافقون - بأنفسكم عن أمر جاد فيه رسول الله ﷺ بنفسه، لقد حضر الهيْجاء بنفسه، وشارك في حفر الخندق بنفسه، وباشر الحرب بنفسه، فتأسّوْا برسول الله ﷺ:

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسبون)، والباقون بضمها.

(٢) قرأ رويس بتشديد السين من (يسّاءلون)، والباقون بتخفيفها، ووقف عليها حمزة، بنقل حركة الهمزة إلى السين، مع حذف الهمزة، وله أيضًا إبدالها ألفًا.

وُجُوبُ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ

٢١- ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ[١] حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

استدل الأصوليون بهذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن تأسَّى به الأمة في جميع الأحكام، إلا ما دل الدليل على الاختصاص به، والمتأسى برسول الله ﷺ يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى دار النعيم، أما المتأسى بغيره فيما يخالف شرع الله تعالى فهو صاحب الأسوة السيئة ممن قال الله فيهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٢] ويوفق للأسوة الحسنة من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان والخوف والرجاء، يدفعه إلى التأسى برسول الله ﷺ[٢].

وبعد أن تعرَّض القرآن الكريم بالتوبيخ للذين لم يتأسَّوْا برسول الله ﷺ، ولم يقتدوا به من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، أثنى على المؤمنين الذين يرجون الله واليوم الآخر، وذكروا الله كثيرًا، فهم الذين يتأسون برسول الله، ويهتدون بهديه.

أما الآخرون فالذي منعهم من التأسي برسول الله ﷺ، هو النفاق، ومرض القلب يكون بالشك في هذا الدين.

وهذا كقوله تعالى عن المنافقين: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة].

ثم أعقب ذلك ببيان حال المؤمنين، فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة].

والآية كما قال ابن كثير: أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أُمر الناس بالتأسي بالرسول ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه حين تضجَّر القوم، وزُلزلوا واضطربوا في أمرهم، فكان رسول الله ﷺ مصدر الثقة والرجاء والاطمئنان.

---

(١) ضم عاصم همزة (أُسوة) وكسرها الباقون، والأولى لغة قيس وتميم، والثانية لغة أهل الحجاز.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

لقد كان لكم -أيها المؤمنون- في أقوال رسول الله وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تتأسوْن بها، فالزموا سنته، فإنما يسلكها ويتأسى بها من كان يرجو الله واليوم الآخر، وأكثروا من ذكر الله، واستغفروه، واشكروه في كل حال.

مواقف إيمانية في حفر الخندق:

وقد كان في يوم الخندق كثير من المواقف التي تؤخذ مثلًا للتأسي برسول الله ﷺ في سائر أحواله، منها: أن النبي ﷺ شارك أصحابه في حفر الخندق، وفي الضرب بالفأس، وحمل التراب، وشاركَهم في أراجيزهم وأناشيدهم، وهم يقومون بهذا العمل الشاق، وشاركهم في تحمل آلام الجوع وآلام السهر، بل كان ﷺ هو القائد الحازم، وهو القائد الرحيم الذي يلجأ إليه أصحابه عندما يَعْجزون عن إزالة عقبة صادفتْهم خلال حفْرهم للخندق:

١- فعن جابر بن عبد الله ﷺ أن الصحابة ﷺ كانوا إذا اشتدت عليهم في بعض الخندق كُدْية -أي: صخرة عظيمة- شكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء، فتفل فيه، ثم دعا بما شاء أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكُدْية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبيًّا، لانهالت، أي: لتفَتَّت حتى عادت كالكثيب، أي: الرمل المتجمع، لا تردّ فأسًا ولا مِسحاة[1].

٢- وكان زيد بن ثابت ﷺ فيمن ينقل التراب، فقال ﷺ: **«أما إنه نِعْم الغلام!»** وغلبتْهُ عيناه فنام في الخندق، وكان الحر شديدًا، فأخذ (عمارة بن حزم) سلاحه وهو لا يشعر، فلما قام فزع، فقال ﷺ: **«يا أبا رُقاد، نمت حتى ذهب سلاحك!»** ثم قال: **«من له علم بسلاح هذا الغلام؟»** فقال عمارة: يا رسول الله هو عندي، فقال: **«رده عليه»**[2].

ونهى ﷺ أن يُروَّع المسلم، ويؤخذ متاعه ولو لعبًا!

٣- وعن سلمان الفارسي ﷺ قال: ضربتُ في ناحية من الخندق، فغلظتْ عليَّ صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أَضْرِبُ، ورأى شدة المكان عليَّ، نزل، فأخذ المِعْول من يدي، فضرب به ضربة لمعتْ تحت المِعْول برْقُه، قال: ثم ضرب به ضربة

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٩).

(٢) في إسناده الواقدي كما قال ابن حجر، تنظر غزوة الأحزاب في كتب السيرة.

أخرى، فلمعتْ تحته بَرْقَة أخرى، قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعتْ تحته برقة أخرى، قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت؟ لَمعَ المِعْول وأنت تضرب؟ قال: **«أوَ قد رأيتَ ذلك سلمان؟»** قال: قلت: نعم، قال: **«أمَّا الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح بها عليَّ المشرق»**(١).

وهذه الآية وإن كان نزولها في غزوة الأحزاب، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذه القدوة، وهذه المحبة، ثابتة وحاصلة للمؤمنين حق الإيمان، الذين يرجون ثواب الله تعالى ويؤمِّلون رحمته، الملازمون لذكر الله سبحانه، فهم المنتفعون بالتأسي برسول الله ﷺ.

ومن التأسي برسول الله ﷺ ما جاء عن سعيد بن يسار قال: كنت مع ابن عمر ﷺ في طريق مكة، فلما خشيتُ الصبح نزلتُ فأوترتُ، فقال ابن عمر: أليس لك في رسول الله أسوة؟ قلت: بلى، قال: فإنه كان يوتر على البعير(٢).

ومثله صلاة النافلة في الطائرة، أو السيارة، أو الباخرة، ونحو ذلك، أينما توجّهت.

وعن حفص بن عاصم قال: حدثني أبي أنه سمع ابن عمر ﷺ يقول: صحبتُ رسول الله ﷺ فكان لا يزيد في السفر على ركعتين، وأبا بكر، وعمر، وعثمان كذلك ﷺ(٣).

وعن ابن عباس قال: إذا حرَّم الرجل عليه امرأته فهي يمين يكفرها، وقرأ الآية(٤).

---

(١) يُنظَر: ابن إسحاق (٢/ ٢٤٥) وابن أبي حاتم عن السدي كما في «الدر» (١١/ ٧٥٠) وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب (١٤/ ٤٢١).

(٢) البخاري (٩٩٩) ومسلم (٧٠٠) والترمذي (٤٧٢) والنسائي (١٦٨٧) و مالك (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظَر: «البخاري» (١١٠١، ١١٠٢) وهذا لفظه، ومسلم (٦٨٩) و ابن ماجه (١٠٧١).

(٤) البخاري (٤٩١١) ومسلم (١٤٧٣) والطيالسي (٥٧٥٧) وعبد الرزاق (١١٣٦٣).

وَصْفُ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ تَجَمُّعَ الأَحْزَابِ

٢٢- ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال المنافقين الذين في قلوبهم مرض وفي أقوالهم عند الخوف من القتال، وذكر المثبطين غيرهم عن الجهاد، وما نتج عن ذلك من التخاذل عن الجهاد والشك في وعد الله ورسوله.

بعد هذا، قابل الله تعالى بين ذلك وبين صبر المؤمنين على الشدة، وتصديقهم وعد الله تعالى لهم بالنصر على لسان نبيه ﷺ، وما قاله المؤمنون عند رؤيتهم كثرة جنود قريش ومَنْ تحزَّب معهم بما يُظهر روح الإيمان والتضحية، ويدل على الإخلاص واليقين.

﴿وَلَمَّا رَءَا﴾ أي: شاهد ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزّبوا واجتمعوا حول المدينة قادمين نحوها، وأحاطوا بها من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، -عندئذ - تذكروا وعد الله لهم بالنصر، وأنه قد اقترب موعده، فـ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء، وأن الضيق يعقبه فرج ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فيما أخبرنا به، فأنجز وعده، وصدق رسوله فيما بشر به من فتح البلاد، وهزيمة الأعداء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ النظر إلى الأحزاب، وما رأوْه من كثرة جندهم، وشدة الضيق والحصار ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله قويًا ثابتًا، وتصديقًا جازمًا ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضائه وانقيادًا لأمره.

وكان الله سبحانه قد وعد المؤمنين بالنصر أكثر من مرة، في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

وكانت هذه الآية من سورة (البقرة) قد نزلت قبل غزوة الأحزاب بعام، فلما رأى المؤمنون الأحزاب وزلزلوا زلزالًا شديدًا، علموا أن ذلك هو الوعد الذي وعدهم الله به، وأنه ناصرهم على عدوهم، فلم تزدهم رؤية الأحزاب خوفًا على خوفهم، وإنما زادتهم إيمانًا على إيمانهم، فانقادوا وأطاعوا وسلّموا لملاقاة العدوّ تسليمًا.

ذكر ابن إسحاق وغيره: أنه لما اشتد البلاء على المسلمين استشار الرسول ﷺ سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، في أن يعطي ثمار المدينة تلك السنة عُيينة بن حصْن، والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان على أن يرجعا عن المدينة، فقالا: يا رسول الله، هو أمر تحبُّه فنصنعُه، أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: **«بل شيء أصنعه لكم»** والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبُوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مَّا، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله: **«فأنت وذاك»** فكان هذا التسليم هو موقف المؤمنين في هذه الشدة.

ولما ذكر تعالى أن المنافقين عاهدوا الله أنهم لا يولّون الأدبار، ثم نقضوا هذا العهد، ذكر في مقابل ذلك وفاء المؤمنين بالعهد:

ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رِجَالٍ وَفَّوْا بِعُهُودِهِمْ مَعَهُ

٢٣- ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾

أي: من بين المؤمنين رجال كثيرون صادقون، نذروا أنهم إذا أدركوا حربًا لنصرة الإسلام والمسلمين مع المؤمنين، ثبتوا وقاتلوا معهم حتى يُستشهدوا، وقد وفَّوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله عليه، فبذلوا مُهَجهم في مرضاة الله، وضحوا بأنفسهم في سبيل طاعته، فكان من المؤمنين رجال أدركوا أمنيتهم، ووفَّوا بنذرهم ووعدهم وعهدهم، فقاتلوا حتى قُتِلوا يوم غزوة أحد: كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ فجاهدوا، وصبروا على البأساء والضراء، وضبروا حين البأس وشدة القتال، حتى استُشهِدوا في سبيل الله.

وقضاء النحْب لا يعني الموت بالضرورة، يدل عليه أن النبي ﷺ كان على المنبر فقال له أعرابي: يا رسول الله، من الذي قضى نحبه؟ فسكت ﷺ ساعة، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد، وعليه ثوبان أخضران، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا ممن قضى نحبه»**[1]،

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٨٧) و«طبقات ابن سعد» (١، ٢/ ١٨٥) و«تفسير الطبري» وانظر: «سنن الترمذي» (٣٢٠٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بُكَيْر، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٢٥) عند في أبي يعلى (٦٦٣).

وقال معاوية: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»[١].

وطلحة بن عبيد الله لم يمت في حياة النبي ﷺ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة: كعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وسعيد بن زيد، وأمثالهم، فإنهم منتظرون حصول النصر، أو إدراك فضل الشهادة.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: ما غيَّروا عهد الله، ولا نقضوه، ولا بدَّلوه كما فعل المنافقون.

وهذه الآية يُحتمل أن تكون قد نزلت مع بقية سورة (الأحزاب)، فتكون تذكيرًا بما حدث يوم أُحد، ويحتمل أن تكون قد نزلت قبل ذلك، ويكون موضعها في هذه السورة بتوقيف من رسول الله ﷺ للتنبيه على المعنى المذكور فيها:

وهذه جملة من الأحاديث في نزول الآية:

١- أخرج البخاري وغيره بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه ﷺ قال: لما نسخْنا الصحف -أي: التي كانت عند حفصة- فقدتُ آية من سورة (الأحزاب)، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحَد إلا مع (خزيمة بن ثابت الأنصاري)، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٢].

٢- وفي البخاري وغيره: أن أنس بن مالك ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أنس بن النضر[٣].

٣- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: غاب عمِّي أنس بن النضر عن قتال يوم بدر، فلما قدم قال: غبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدني الله ﷻ قتالًا لَيَرَينَّ اللهُ ما أصنع.

فلما كان يوم أحد انكشفَ الناس، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -

---

(١) جامع الترمذي رقم (٣٢٠٢) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث معاوية إلا من هذا الوجه، وإنما رُوِيَ هذا عن موسى بن طلحة عن أبيه. وسيأتي قريبًا.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٠٧، ٤٧٨٤) وهو في «المسند» (٥/١٨٨) برقم (٢١٦٤٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والترمذي برقم (٣١٠٤) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٤٠١)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص (٢٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٠٣) مطولًا.

يعني: المشركين- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني: المسلمين- ثم مشى بسيفه، فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أُحد، واهًا لريح الجنة، قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدْناه بين القتلى، به بضع وثمانون جراحة، من ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فقد مثَّلوا به، قال: فما عرفناه، عرفتْه أخته ببنانه.

قال أنس: فكنا نقول: أنزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ فيه، وفي أصحابه[١].

٤- وورد أن هذه الآية نزلت أيضًا في طلحة بن عبيد الله، فقد قُطعت يده وهو يدافع عن رسول الله ﷺ يوم أحد، وجاء عن عليٍّ ﷺ أنه قيل له: حدِّثْنا عن طلحة، قال: ذاك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ لا حساب عليه فيما يستقبل[٢].

٥- وعن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طلحة ممن قضى نحبه**»[٣].

وقيل أيضًا: إنها نزلت في مصعب بن عمير.

٦- فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف عليه ودعا له، ثم قرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ثم قال: «**أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله، فأتوهم وزُورُوهم، والذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردُّوا عليه**»[٤].

٧- وفي رواية أبي ذر ﷺ قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مرَّ على مصعب بن عُمير مقتولًا على طريقه، فقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٥].

وتعدد أسباب النزول سائغ، وموجود في كثير من الآيات:

---

(١) البخاري (٦/ ١٦) برقم (٢٨٠٥) ومسلم (٣/ ١٥١٢) برقم (١٩٠٣) والترمذي (٢/ ١٥١) برقم (٣٢٠٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والطبري (٢١/ ١٤٧).

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٩١).

(٣) حديث حسن صحيح كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٩، ٢٩٤١) والطبري (١٩/ ٦٦) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٠٢، ٣٧٤٠)، وقد سبق قريبًا.

(٤) صححه الحاكم على شرط الشيخين (٢/ ٢٤٨) ولم يوافقه الذهبي، ورواه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٨٤).

(٥) صححه الحاكم (٣/ ٢٠٠) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٨٥) وهو يشهد لما قبله.

وهكذا فإن أمثال هؤلاء من الصحابة لم يزالوا على العهد، لا يبدلون ولا يتغيرون، فهم الرجال على الحقيقة، أما من عداهم فهم صور رجال ولا رجال!!

قال تعالى في جزاء المؤمنين الصادقين:

٢٤- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية، الحكمة من هذا الابتلاء الذي حدث يوم الخندق للمؤمنين والمنافقين، بأن الله تعالى سوف يثيبهم على إيمانهم وجهادهم؛ بسبب صدقهم في أقوالهم وأفعالهم، واستواء ظاهرهم وباطنهم، ووفائهم، وحسن صنيعهم أحسن الجزاء.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ﴾ [المائدة: ١١٩] **والمعنى**: أن الله تعالى قدّر ما قدّر من المحن والزلازل في يوم الأحزاب وغيرها لتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ إن شاء، لأنهم لم يوفُّوا بالوعد، وتغيرت أحوالهم عند حلول الفتن، وتعذيبهم بألا يوفقهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، ويستوجبوا النار، وهذا بسبب نفاقهم، ونقضهم للعهود، وموتهم على ذلك ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ من النفاق فيرحمهم ولا يعذبهم، ويخرجهم من النفاق إلى الإيمان بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وقد تاب كثير من المنافقين بعد ذلك، منهم (مُعتِّب بن قشير)، فقد تاب الله عليهم وقبل توبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ واسع المغفرة لذنوب المسرفين على أنفسهم إذا تابوا ﴿رَّحِيمًا﴾ واسع الرحمة بهم، حيث وفقهم للتوبة النصوح، فقبلها منهم، وستر عليهم ما فعلوه.

ولفظ ﴿كَانَ﴾ في جانب الله تعالى يدل على الاستمرار والدوام، فالرحمة والمغفرة صفتان ذاتيتان لله تعالى.

نِهَايَةُ المَعْرَكَةِ

٢٥- ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية، المصير الذي انتهت إليه أحزاب الكفر والنفاق، حيث ردَّ الله الأحزاب على أعقابهم خائبين خاسرين مغتاظين، فهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ﴾ في الدنيا ولا

في الآخرة، بل إنهم قد اكتسبوا الآثام والذنوب بمبارزتهم للنبي ﷺ وهمِّهم بقتله، وكفى الله المؤمنين شر أعدائهم بما أرسله على الأحزاب من ريح مزَّقت شملهم، وجنود لم يروها، فقد أرسل الله على الأحزاب ريح الصّبا، فزعزت مراكزهم، وقوضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وملأ الله قلوبهم رعبًا، فانصرفوا بغيظهم، وكان سبب هذا الانتصار ريح جنّدها الله تعالى لأحبابه، وملائكة لم تظهر في أرض المعركة.

وممّا تضرع به النبي ﷺ إلى ربه في غزوة الأحزاب، كما جاء عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[١].

ولهذا قال ﷺ: من حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيحين «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**»[٢].

وأخرج ابن سعد وغيره، عن سعيد بن المسيب قال: لما كان يوم الأحزاب حُصِر النبي ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خَلَص إلى كل امرئ منهم الكَرْب، وحتى قال النبي ﷺ «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إنك إن تشأ لا تُعبد**»، فبينما هم على ذلك إذ جاءه (نعيمُ بنُ مسعود الأشجعيُّ)، وكان يأمنه الفريقان جميعًا، فخذَّل بين الناس، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[٣].

وقد حُبس المسلمون يوم الخندق عن صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فأمر النبي ﷺ بلالًا، فأقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أذن للمغرب فصلاها وهكذا[٤]، وكان ذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٩٣٣) (٤١١٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٤٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٤١١٤) ومسلم مع اختلاف في اللفظ برقم (٢٧٢٤).

(٣) «طبقات ابن سعد» (٢/ ٧٣) و«مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٣٦٨).

(٤) يُنظَر: هذا المعنى في حديث أبي سعيد في «صحيح سنن النسائي» (٦٣٨) وإرواء الغليل (١/ ٢٥٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٧٠) والبيهقي (٣/ ٤٤٥) وابن خزيمة (٢/ ٩٩) و«المسند» (٣/ ٢٥) وانظر البخاري (٤١١٢) ومسلم (٦٣١) عن جابر عن عمر.

وختم الله أحداث غزوة الأحزاب بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كل أمر يريده، وهو سبحانه لا يُغالَب ولا يُقهر، وهو جلَّ شأنُه ﴿عَزِيزًا﴾ في ملكه وسلطانه.

والعزة والقوة صفتان ثابتتان لله تعالى.

ومن هذه العزة والقوة صَرْفُ الأحزاب عن المسلمين بأسباب هيَّأها الله سبحانه.

ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ: **«لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»**[1] وقد تحقق هذا، فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين، وكان ﷺ هو الذي يغزوهم، حتى فتح الله عليه مكة.

وعن سليمان بن صُرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: **«الآن نغزوهم ولا يغزونا»**[2].

ثم بيّن سبحانه المصير الذي حلّ بأهل الكتاب حين عاونوا الأحزاب على قتال النبي ﷺ بأن ألقى الله في قلوبهم الرعب فاستسلموا وخضعوا، فقتل المسلمون رجالهم وأسروا نساءهم وورثوا ما خلّفوه من أرض وديار وأموال:

غَدْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعُقُوبَتُهُمْ

٢٦- ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ[3] ٱلرُّعْبَ[4] فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية ما حلَّ ببني قريظة بسبب نقضهم للعقود، لمَّا رأوا الأحزاب قد تجمعوا، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول ﷺ والمؤمنين، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين الرسول، وتعاونوا مع المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين ومَنْ عاونهم، تفرغ الرسول لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ فيهم، كما

---

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/ ٤٣١) عن محمد بن إسحاق.

(٢) «المسند»: (٤/ ٢٦٥) و«صحيح البخاري» برقم (٤١٠٩).

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلًا من (في قلوبهم الرعب) وضمهما حمزة والكسائي، وخلف وصلًا كذلك، والباقون بكسر الهاء وضم الميم، ووقف الجميع بكسر الهاء وسكون الميم.

(٤) ضم عين (الرعُب) ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب، وأسكنها غيرهم.

سيأتي، وكان النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة قد عقد معهم، ومع بني النضير، وبني قينقاع، مهادنة، أوجب لهم فيها النصرة والحماية والأمان، على ألا يغدروا، ولا يفجُروا، ولا يتجسسوا، ولا يُعينوا عدوًّا، ولا يمدُّوا أيديهم بأذى.

نقض اليهود للعهود:

١- أما **بنو قينقاع**، فقد حقدوا على المسلمين لَمَّا نصرهم الله في غزوة بدر، فأخذوا يتحرشون بهم، ويتنكرون للعهد الذي بينهم، مخافة أن يستفحل أمرهم، فلا يستطيعون مقاومته بعد أن انتصر على قريش، فحذرهم النبي ﷺ مغبة نقضهم للعهد والتحريش بالمسلمين، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا عِلْم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، والله لئن حاربناك لتعْلمنَّ أنا نحن الناس.

وحدث أن امرأة عربية مسلمة كانت تشتري ذهبًا من صائغ يهودي، فربط ذيل ثوبها في أعلى ظهرها، وهي لا تشْعر به، فلما قامت انكشفت عورتها، فوثب إليه مسلم فقتله، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ كلٌّ منهم قومه، فوقع القتال بين المسلمين ويهود بني قينقاع، وانتهى الأمر بأن يأخذوا أموالهم وأمتعتهم عدا السلاح ويخرجوا عن المدينة.

٢- أما **بنو النضير**، فإن النبي ﷺ خرج إليهم سنة أربع بعد غزوة أُحُد، يطلب منهم مشاركتهم في دية قتيلين وفق المعاهدة التي تمت بينهما، فتآمروا عليه وهو جالس تحت جدار أَحَدِ بيوتهم، أن يُلقوا عليه صخرة ويتخلصوا منه، فأعلم الله رسوله ما كان من أمرهم، فرجع إلى المدينة، وأمر بالتهيؤ لهم، فتحصنوا في حصونهم، ثم استسلموا دون حربٍ ولا قتال، فخرج بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام، يحملون أمتعتهم دون السلاح.

٣- أما **بنو قريظة** -وهم موضوع هذه الآية- فقد نقضوا عهدهم السابق ذكره، بأن أعانوا الأحزاب، وحاصروا المدينة، وقد انضم إليهم (حُيَيُّ بن أخطب) من بني النضير، وهو الذي حرَّض أبا سفيان على غزو المدينة.

أمْرُ الله لرسوله في شأن بني قريظة:

ولما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الأحزاب، بعد أن نصره الله عليهم، رجع إلى المدينة ظُهرًا وأراد أن يغتسل ويستقر، ولكن جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو في بيت أم سلمة يقول له: أوَضعْتَ السلاح يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال: ولكن الملائكة لم تضع السلاح منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فتزلزل حصونهم، وكانت حصونهم في الجنوب الشرقي من المدينة، فنادى النبي ﷺ: «**لا يُصلِّينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقالوا: لا نصلي حتى نأتيها، فوصلوها بعد العشاء وهم لم يُصلّوا العصر، تمسكًا بظاهر لفظ الرسول ﷺ، وقال بعضهم: بل نصلي، فصلُّوها في الطريق، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف أحدًا.

وخرج الجيش حتى وصل إلى قرية بني قريظة، فتحصن أهلها بحصونهم، فحاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار، طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم (أبا لبابة بن عبد المنذر)؛ ليتشاوروا معه، فأشار إليهم أبو لُبابة بيده، أي: إنه الذبح، ثم ندم وقال: خُنْتُ الله ورسوله، وربط نفسه في المسجد حتى أنزل الله توبته.

ثم أرسلوا إلى النبي ﷺ (شاس بن قيس)، يعرضون عليه أن ينزلوا على مِثْل ما نزلت عليه بنو النضير، على أن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح، فأبى النبي ﷺ، وبعد مداولات كثيرة، نزلوا على حكم (سعد بن معاذ)، وكان بينهم وبين الأوس حِلْف فَرَجَوْا أن يَحْنُو عليهم، فحكم سعد أن تُقْتل المقاتِلة، وأن تُسْبى النساء والذرية، وأن تكون ديارهم وأموالهم للمهاجرين دون الأنصار، فأمضى رسول الله ﷺ ما حكم به سعد، وقُتل الرجال المقاتلون، وكانوا زهاء سبع مئة، وأُسر النساء والصبيان، وكان ممن قُتل (حُييُّ بن أخطب النَّضري) الذي أدخلهم في الغدر برسول الله ﷺ، فجيء به ويداه مجموعة إلى عنقه، وعليه حُلَّتان، فلما رأى النبيَّ ﷺ قال: والله يا محمد، ما لُمتُ نفسي في عداوتك، ولقد اجتهدتُ، ولكن من يخذل الله يُخذل، ثم قال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله وقدَره، ملحمة كُتِبتْ على بني إسرائيل، ثم تقدم فضُربت عنقه.

وكان النبي ﷺ قد قال لسعد: «**لقد حكمتَ فيهم بحكم الله فوق سبع سموات**»[١].

ومنذ ذلك الحين ذلَّت اليهود، وضعُفت حركة النفاق، فطأطؤوا رؤوسهم، وتبع ذلك أن المشركين لم يفكروا في غزو المسلمين بعدها، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم.

وهكذا اليهود لا يفيد فيهم إلا القوة وإعمال السلاح، أما المعاهدات والاتفاقات، فكما أخبر علام الغيوب: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]. والتاريخ يعيد نفسه، معهم في فلسطين.

ذلكم ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود بعد رحيل جيوش الأحزاب، حيث أنزل الله يهود بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم نزولًا على حُكم الإسلام ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: ألقى الله الخوف في قلوبهم، فلم يقدروا على القتال فهُزموا واستسلموا لكم، ومكنكم الله منهم ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم مَنْ قاتل منهم من الرجال المقاتلين ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذرية.

البُشْرَى بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَفَارِسٍ وَالرُّومِ

٢٧- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا[٢] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾

أي: وملَّككم الله -معشر المؤمنين- أرض بني قريظة، وعقارهم، وخيلهم، ومساكنهم، وأموالهم المنقولة، كالحليِّ والسلاح والمواشي، وغير المنقولة، كالمزارع والبيوت، والحصون المنيعة التي تركوها.

ثم بشَّرهم الله تعالى بأن يفتح عليهم أرضًا أخرى، وقد فتح الله عليهم خيبر، بعد عام

---

(١) تُنظَر القصة في: «صحيح البخاري» برقم (٣٠٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأخرجه مسلم (١٧٦٨) وفي «طبقات ابن سعد» (٣/ ٤٢٦) و«البداية والنهاية» (٤/ ١٢٣) و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٩) ويُنظر: «المسند» (٥/ ٣١١) برقم (١١١٧٠) وأبو داود برقم (٤٤٠٤) والترمذي برقم (١٥٨٤) والنسائي في «السنن» (٨/ ٩٢) والكبرى برقم (٨٦١٩)، وأبو يعلى (١١٨٨) وابن حبان (٧٠٢٦).

(٢) حذف أبو جعفر همزة (تطؤوها) وصلًا ووقفًا، فينطق بواو ساكنة بعد الطاء المفتوحة، بدون همز، والباقون كقراءة حفص، ووقف عليها حمزة بالحذف والتسهيل.

وشهر واحد من غزوة بني قريظة، وفتح عليهم بعد ذلك فارس والروم وغيرهما، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ أي: لم تتمكنوا من دخولها قبل ذلك لمنَعتها وعزة أهلها، وهي أرض خيبر.

ثم ختم الله غزوة بني قريظة ببيان قدرته تعالى على كل شيء، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يَفْلِتُ من عقابه ظالم، محارب لله ورسوله.

وبهذا أتم الله على رسوله المنة بالقضاء على اليهود من المدينة وما جاورها، وأسبغ عليه النعمة، وأقرّ عينه بخذلان عدوه.

نِسَاءُ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ خِيَارَيْنِ

٢٨- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

ولما أفاء الله على نبيه بغنائم بني النضير، وبعدها غنائم بني قريظة، وفرض الله له الخمس، طمع أزواج النبي ﷺ في التوسع في أمر المعيشة، ولم يَطلُبْن منه ذلك قبل أن يفيء الله عليه بهذه الأموال، ظنًّا منهن أن النبي ﷺ كسائر الرجال، إذا وسَّع الله عليهم في الرزق توسَّعُوا في الكماليات وزيادة المتع، فأخذْن يُطالبْنه بمزيد من النفقة فوق طاقته، ولم يزلْن يطلُبْن مزيدًا من النفقة حتى شق ذلك على الرسول ﷺ فآلى منهن شهرا:

قال عمر ﷺ: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله به على رسوله ﷺ، مما لم يُوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خالصة، ينفق منها على أهله نفقة سَنَتِهم، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عُدةً للمسلمين.

أما أرض بني قريظة، فقد قُسمت على المهاجرين بحكم سعد بن معاذ.

ولعل أزواج النبي ﷺ لَمَّا رأيْن أن زوجات المهاجرين قد اتسعت أرزاقهنَّ أردْن أن يكنَّ مثلهن، فسألْنَه أشياء من زينة الدنيا، كما دل عليه قول عمر لحفصة ﷺ: لا تستكثري النبي، ولا تُراجعيه في شيء، وسليني ما بدا لك.

قال في البحر المحيط: لما نصر الله نبيه، وفرَّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدْن حوله، وقُلْن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحليّ والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلَمْنَ قلْبه بمُطالَبتِهنَّ له بتوسعة الحال، وأن يعامِلَهُنَّ بما يعامِل به الملوك والكبراء أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن.

والنبي ﷺ لم يتعلق قلبه بالدنيا، إلا بما فيه قوام الحياة، فكان ﷺ يقول: **«مالي وللدنيا؟!»**.[1]

ولما طلبتْ منه فاطمة ﵂ أن يعطيها خادمًا للمساعدة على شؤون الحياة، وكانت تُدير الرحى، وتطحن الْحَبَّ، وقد أفاء الله عليه بكثير من الأموال والسبايا، ومع ذلك فقد أبى أن يعطيها هي وعليًّا، ويترك أهل الصُّفَّة، فوجَّهَهُما إلى التسبيح والتحميد والتكبير، وقال: هذا خير لكما من خادم.

لقد اختار النبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، ليس عجزًا عن متاع الحياة؛ فقد عاش ﷺ حتى فُتحت له الأرض، وكثُرت غنائمها، وجاءتْه أموال البحرين واليمن، فقسَّمها ولم يُبقِ شيئًا لنفسه.

وراودتْه جبال مكة أن تكون له ذهبًا فأبى، وقال: أجوع يومًا فأشعر أني محتاج إلى ربي فأسأله، وأشبع يومًا فأشكر فضل الله عليَّ.

وتقول عائشة ﵂: إنا كنا لننظر الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ما يوقد في أبيات رسول الله نار، وكان طعامهم التمر والماء، وكان هذا من النبي ﷺ استعلاء على متاع الحياة، ورغبة فيما عند الله تعالى.

ولم تكن الطيبات محرمة على رسول الله ﷺ وأهل بيته، وإنما تركها ترفُّعًا على المتاع واللذائذ بحرية تامة، ورغبة صادقة.

(١) مسند أحمد (٣٧٠٩) عن عبد الله بن مسعود، وهو حديث صحيح، (محققوه) ومن حديث ابن عباس (٢٧٤٤) بإسناد صحيح، والترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) والطيالسي (٢٧٧) وأبو يعلى (٥٢٩٢).

ولكن نساء النبي ﷺ بَشَر كسائر البشر، يتطلعْن إلى متاع الحياة، فراجعْن النبي ﷺ في أمر النفقة، وتحسين أحوال المعيشة، ولكنه لم يستقْبل هذه المراجعة بالترحيب، رغبة منه ﷺ في أن تظل حياته وحياة مَنْ معه على هذا النمط، من التسامي على الشهوات والملذات، وإنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى.

وعَلِم الله تعالى منه صِدْق ذلك، فأمره أن يُخيِّرهنَّ بين أن يعشْن معه عيشة الكفاف والزهد في زينة الحياة الدنيا، وبين أن يفارقهُن ويَدْفع لهن مُتْعة الطلاق؛ ليحصُلْن على ما يشتهينه من زينة الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ اللاتي في عصمتك، وقد اجتمعْن عليك يطلبْن منك زيادة النفقة ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ من المال والمتاع، والمأكل والمشرب، والملبس، وسائر ألوان النعيم، ولا تستطعْن الصبر على المعيشة معي، فلَكُنَّ أنْ تخترن مفارقتي إن أردتُنَّ ذلك ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أقبِلْنَ عليَّ لأخيركنَّ بين أن ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ شيئًا مما عندي من متاع الدنيا، وليس المراد متعة الطلاق بل المراد متاع الدنيا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أفارقكن بالطلاق دون ضرر ولا إيذاء، وهذا هو **الخيار الأول**.

عن جابر ﷺ قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا، والنبي جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأُكلِّمَنَّ النبي ﷺ لعلَّه يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيتُ ابنة زيد -يعني: امرأة عمر- سألتْني النفقة آنفًا فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: **«هنَّ حولي يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها، وقام عمر ﷺ إلى حفصة ليضربها، كلاهما يقولان: تسألان النبي ما ليس عنده؟ قال: وأنزل الله الخيار**[1].

وكان هذا التخيير بعد أن آلى النبي ﷺ منهن شهرًا، ولَمَّا خيَّرهُن واخترْن الله ورسوله والدار الآخرة، مدَحهُنَّ الله تعالى، وقصَرهُ على هؤلاء الزوجات التسع، فلا يتزوج غيرهن، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ

(١) «المسند» (٣/ ٣٢٨) برقم (١٤٥١٥) بإسناد صحيح وانظر (١٤٥٢٧، ١٤٦٩٢) وهو في مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٩٢٠٨).

حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [٥٢]. وجاء **الخيار الآخر** في قوله تعالى:

٢٩- ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

أي: إن كنتن يا نساء النبي، ترغبْن في رضى الله ورسوله، وتُؤثِرْن ذلك على متاع الحياة الدنيا، وتُفَضِّلْن ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وما أعده الله لَكُنَّ يوم الحساب والجزاء، فاصْبرن على ما أنتُنَّ عليه، وأطعْنَ الله ورسوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا كبيرًا لا يوصف في جنة النعيم، فكان أن اخترْن الله ورسوله والدار الآخرة، ولم يتخلف منهن واحدة، وبهذا التخيير سلم النبي ﷺ من تبعة الحقوق الزوجية، وبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ونزه الله أمهات المؤمنين عن أن يخترن الدنيا على الآخرة، وسلمت زوجاته من الإثم والتعرض لسخط الله، وفي هذا التخيير الرضى والقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنها القلق وعدم الرضى، ويكون سببًا في زيادة أجرهن ومضاعفته، ويكنّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء سواهن.

هذا: ولما خرج النبي ﷺ من إيلائه ونزلت هذه الآية، ابتدأ بعائشة ؓ، فقال لها: **«إني ذاكر لك أمرًا، فلا عليكِ ألَّا تستعجلي حتى تستأمري أبويْك»**، ثم تلا هاتين الآيتين، فقالت عائشة: أفي هذا أستأمر أبويَّ؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وقال لسائر أزواجه مثل ذلك، فقلن مثل ما قالت عائشة ؓ[1].

التعريف بأمهات المؤمنين:

وأزواج النبي ﷺ المعنيات في هذه الآية واللاتي تُوُفِّيَ عنهن، تسع: خمس من قريش، هن: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسوْدة، وأم سلمة، وأربع من غير قريش، هن: صفية بنت حُييٍّ النَّضريَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينت بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصْطَلقية. وهذه نبذة يسيرة عنهن رضي الله عنهن:

١- سوْدَة بنت زَمْعة العامرية، دخل بها النبي ﷺ بمكة، وتُوُفِّيَت بالمدينة، وكان قد أراد

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٥) و«صحيح مسلم» (١٤٧٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩٢٠٨) و«المسند» (١٤٥١٥) بإسناد صحيح و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٠١).

طلاقها لكبر سنها، فآثرت البقاء مع النبي ﷺ، وتترك ليلتها لعائشة ﵂.

٢- عائشة بنت الصديق، لم يتزوج بكرًا سواها، عقد عليها وهي بنت ست سنوات قبل الهجرة بسنتين، ودخل بها وهي بنت تسع في المدينة، وتُوُفِّيَ عنها وهي بنت ثماني عشرة، وتُوفيت بالمدينة ودُفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة ﵁، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين من الهجرة.

روى البخاري وغيره بسنده عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: **«يا عائشة، هذا جبريل يُقرئك السلام»**، فقلتُ: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، تَرى ما لا أرى، (تريد رسول الله ﷺ) [١].

٣- حفصة بنت الفاروق، تزوجها النبي ﷺ ثم طلقها، فجاءه جبريل ﵇، وقال له: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوَّامة قوَّامة، وإنها زوْجتُكَ في الجنة، تُوُفِّيَت بالمدينة سنة ثمان وعشرين ﵂.

٤- أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها (رملة)، كانت قد هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة، فمات زوجها هناك، فتولَّى عثمان بن عفان عقْد قرانها لرسول الله ﷺ في الحبشة، ودفع لها النجاشي المهر، أربع مئة دينار، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها قبل أن يسلم.

٥- أم سلمة، واسمها (هند بنت أبي أمية بن المغيرة)، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة، وقد دخل جبريل على النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي وهو عندها فرأتْه، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتًا، توفيت سنة اثنتين وستين من الهجرة ﵂.

٦- زينب بنت جحش، بنت عمته: أميمة بنت عبد المطلب، كان قد زوجها النبي ﷺ إلى زيد بن حارثة فطلقها، وتزوجها النبي ﷺ بعد إبطال قاعدة التبني في الإسلام، بأمر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [٣٧]. وكانت تقول لسائر أزواج النبي ﷺ: زوجكُنَّ أهاليكُنَّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات. تُوفيت بالمدينة سنة عشرين من الهجرة ﵂.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢١٧، ٣٧٦٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٤٧).

٧- صفية بنت حُيَيٍّ، سُبيتْ في غزوة خيبر، سنة سبع، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، وهي بنت سيد بني النضير، وكانت زوجةً لسيد بني قريظة، تُوفيت سنة سبع وثلاثين، وقيل: سنة خمسين من الهجرة، ﵂.

٨- جُوَيْرِية بنت الحارث، سُبيتْ في غزوة بني المصطلق، وهي بنت سيِّدهم، تزوجها النبي ﷺ سنة ست من الهجرة، وأُعتق بسببها مئة، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. تُوفيت سنة ست وخمسين من الهجرة، ﵂.

٩- ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج ﷺ من أمهات المؤمنين، وهي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس ﵄، تُوفيت سنة ثلاث وستين من الهجرة.

وكان له من السراري اثنتان: مارية، وريحانة.

وهناك نساء عقد عليهن ولم يدخل بهن، منهن: الكلابية، وأسماء بنت النعمان بن الجَوْن، وقتيلة بنت قيس، وغيرهن.

وقد تزوج النبي ﷺ (أميمة بنت شراحيل) وطلقها ليلة الدخول بها؛ لأنه لما مدَّ يده إليها كرهت ذلك[1].

أما ابنة الجَوْن، فلما أُدخلت على رسول الله ﷺ، ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: **«لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك»**[2].

وهذا بخلاف (زينب بنت خريمة الهلالية)، الملقبة أم المساكين، فقد كانت متوفاة وقت نزول هذه الآية.

وهذا بخلاف زوجته الأولى خديجة بنت خويلد ﵂، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وآمنت به ونصرتْه، ولم يتزوج عليها وهي معه حتى ماتت، ومنها جميع أبنائه إلا إبراهيم، فهو من مارية، وقد أقرأها ربنا السلام على لسان جبريل، وبشرها بالجنة.

---

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٥، ٥٢٥٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٤).

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى جبريل ﷺ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك، فأقرئها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصَب، لا صخَب فيه ولا نصَب[1].

توفيت ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد أمضى معها النبي ﷺ شبابه حتى بلغ الخمسين من عمره.

وظل بعدها نحو ثلاث سنوات بلا زواج، أي إلى الثالثة والخمسين من عمره، ولم يتزوج ﷺ بعد سن الستين، فهذا العدد من الزيجات كان في خلال سبع سنوات، كانت كلها سفرًا، وغزوات، وكلهن ثيِّبات إلا عائشة، ولم يُنجب منهن جميعًا.

وقد ألَّف النبي ﷺ بزيجاته بين العشائر والقبائل، وحفِظَ عليهن دينهُن بزواجه لهن.

وكانت هذه الزيجات خاصية من خصوصيات النبي ﷺ وليست لأحد غيره.

مُضَاعَفَةُ الأَجْرِ وَالْعُقُوبَةِ لِزَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

٣٠، ٣١- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ[2] يُضَٰعَفْ[3] لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ[4] صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ[5] أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

وبعد أن أمر الله رسوله أن يخاطب أزواجه ويُخيِّرهنَّ بين متاع الدنيا، ورضى الله ورسوله، تولَّى الله - سبحانه - خطابهنَّ بنفسه، بعد أن اخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة، وقد سمَّاه عمر بن الخطاب ﷺ عهدًا، وكثيرًا ما كان يقرأ في صلاة الصبح بسورة الأحزاب، فإذا بلغ هذه الآية رفع صوته، فسئل عن ذلك فقال: «**أُذكِّرُهُنَّ العهْد**».

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٢٠، ٧٤٩٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٣٢).

(٢) قرأ ابن كثير وشعبة بفتح ياء (مبينة)، والباقون بكسرها.

(٣) قرأ ابن كثير وابن عامر بنون العظمة، وتشديد العين مكسورة في (نُضَعِّفْ لها العذابَ) على البناء للفاعل و (العذاب) مفعول به، وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (يُضعَّفْ لها العذابُ) على البناء للمفعول و (العذاب) نائب فاعل، وقرأ الباقون (يُضاعفْ لها العذابُ)، مبنيا للمفعول و (العذاب) بالرفع نائب فاعل.

(٤)، (٥) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (وتعمل) و (نؤتها)، والباقون بتاء التأنيث.

ولما كان الأجر الموعود به على هذا العهد، أن يؤتيهنَّ الله أجرًا عظيمًا، فإن الله تعالى جعل عذابهنَّ على المعصية مضاعفًا كذلك -على فرض وقوع المعصية من بعضهن- لأنهنَّ في مهبط الوحي، ومَنْزل أوامر الله تعالى ونهيه، فضاعف الله لهن الأجر والعذاب، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ناداهنَّ الله تعالى بهذا الوصف؛ لبيان أن ما سيُلقى عليهنَّ خبر يناسب قدْرهنَّ من كونهنَّ في بيت النبوة، يا من اخترْن الله ورسوله والدار الآخرة، ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أي: بمعصية ظاهرة القبح، بالوقوع في كبيرة من الكبائر، كنشوز وسوء خلق، فإن الله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين.

ولفظ الفاحشة حين يأتي **منكَّرًا** يراد به: المعصية، وكل ما يستفحش من قبيح القول أو الفعل، وإذا أتت الفاحشة **مُعرفة** يراد بها: الزنى واللُّواط.

ومن تفعل فاحشة منهنَّ فلها مثل عذاب غيرها مرتين؛ لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحًا وأكبر جُرمًا، وزيادة قُبح المعصية تتبع زيادة الفضل، فكانت العقوبة مغلَّظة، صيانة لجنابِهنَّ وجَناب رسول الله ﷺ، فيكون جزاؤهنَّ ضِعْف جزاء غيرهنَّ من النساء، وفي هذا تحذير لهن حتى يحتطْن لأنفسهن.

وَرَدَ أن زين العابدين بن علي بن الحسين ﷺ، قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم؛ فغضب وقال: نحن أحرى أن يجري فينا ما أجراه الله على نساء نبيه ﷺ، أنَّ لِمُسيئِنا ضعْفين من العذاب، ولِمُحْسننا ضعْفين من الأجر.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أن منزلتهنَّ لا تمنع من وقوع العذاب بهنَّ مضاعفًا حال ارتكابه، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ أي: كان ذلك التضعيف للعذاب سهلًا وهينًا على الله سبحانه.

- أما في حالة طاعتهنَّ فقد بيَّن الله تعالى أنَّ من تواظب منهنَّ على طاعة الله والرسول، وتتقرب إلى الله تعالى بفعل الخيرات وعمل الصالحات، يعطها الله ثوابًا مضاعفًا، مرة لحرصها على طاعة الله، ومرة لحرصها على طاعة رسول الله.

والقنوت لله تعالى هو: الخضوع والخشوع، وملازمة الطاعة لله ﷻ.

والقنوت للرسول ﷺ هو: الدوام على طاعته سبحانه؛ فإن في طاعة الرسول طاعة لله

ﷺ، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا فإن من تعمل بما أمر الله به، وتتزود بعمل الخيرات وصالح الأعمال نعطها ثواب عملها، مثْلَيْ ثواب عمل غيرها من سائر النساء.

فإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها بالنسبة لعامة المسلمين، فهي لَهُنَّ بضعف ذلك، وهيَّأنا لها رزقًا كريمًا في الجنة زيادة على أجرها، فإن لَكُنَّ - أيتها الزوجات - درجة عالية في منزلة رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل الخلق، وهذا من خصائص أزواج النبي ﷺ؛ حيث جعل الله حَسَنتهنَّ كحسنتيْن لغيرهن، وجعل سيئتهنَّ بمقدار سيِّئتيْن لغيرهن، وذلك لعظم مكانتهن وقُرْبهن من رسول الله ﷺ.

تِسْعَةُ آدَابٍ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَلِغَيْرِهِنَّ مِنْ بَابِ أَوْلَى

٣٢- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بجملة من الآداب الشرعية، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وكلها تهدف إلى بُعد المرأة عن منطقة الخطر، وملازمة تقوى الله تعالى، وهذه الآداب هي:

الْأَدَبُ الْأَوَّلُ: زِيَادَةُ فَضْلِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى غَيْرِهِنَّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾.

أي: لستن في الفضل والمنزلة والشرف، كغيركُنَّ من النساء إن خِفْتُن الله تعالى، وفي ذلك نفي للمساواة بينهن وبين سائر النساء بشرط التقوى، فكأن الله تعالى يقول: أنتُنَّ أمهات المؤمنين وأفضل النساء؛ وذلك لقربهن واتصالهن بالنبي ﷺ وتخلقُّهن بأخلاقه، واقتباسهن من هديه ﷺ؛ فنساء النبي ﷺ أفضل نساء الأمة إنْ داومْن على تقوى الله تعالى، وقد قيَّد الله سبحانه هذه الأفضلية بملازمة التقوى والتزوُّد منها، فقال تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ وهذا شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن اتقيتن الله فأنتُنَّ بأعلى المراتب، ففضْلكُنَّ على سائر النساء لِمَا منحكُنَّ الله من صُحبة رسوله ﷺ، فأنتنَّ أحق بالتقوى من سائر النساء.

وقريب من هذا المعنى قول النبي ﷺ لحفصة: «**إنَّ عبد الله -أخاها- رجل صالح، لو كان يقوم من الليل**»[1]، فلما أبلغتْ حفصةُ عبدَ الله بذلك لم يترك قيام الليل أبدًا؛ لأنه عَلم أن المقصود: هو التحريض له على قيام الليل.

وهذا الفضل خاص بنساء النبي ﷺ لا يشاركهن فيه غير هنّ.

الْأَدَبُ الثَّانِي: النهي عن الخضوع في القول ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

في هذا نهي لنساء الأمة، وفي مقدمتهن زوجات النبي ﷺ ألا يتحدَّثْن مع الأجانب بصوت ليِّن، فيه لُطْف وتحبُّب وتودُّد وتكسُّر؛ حتى لا يطمع فيهن من كان في قلبه فُجُور وميل إلى النساء، فيظن أنه المعنيُّ بهذا، وأن هذه المرأة التي تُحادثه تستميل جانبه برقة الكلام وطيب المحادثة، وقد يكون في هذا إثارة للشهوات والغرائز، وإن كانت المرأة سليمة القصد عفيفة النفس، ولكن طبيعتها هكذا، فالقرآن يعلِّمنا أن تَحْذَر المرأة من الخضوع بالقول إلا لزوجها لِتحْفظ عفافها، وتصون عرضها، وحتى لا يطمع فيها الطامعون، وفي هذا نهي عن مقدمات الزنى ووسائله.

والمراد بالمرض في الآية: حب الشهوة والرغبة الجنسية، لأن القلب غير صحيح، فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله، ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض، أما القلب المريض فإنه يتحرك لأدنى الأسباب.

وإذا كان الإسلام ينهى عن مجرد الكلام العادي من المرأة، إذا كان فيه رقة وتكسُّر، بالنسبة للرجل الأجنبي، فكيف بالأغاني الماجنة وما فيها من ألفاظ الحب والهيام، والآهات والغرام، مع صحبة الموسيقى الصاخبة؟ وكيف بالأفلام والمسلسلات مع ما فيها من الرقص والخلاعة والتصنع وتعمد الغناء المثير، والخضوع بالقول، والعُرْي والفجور؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفي الآية دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد، ولما كان الكلام الليِّن وسيلة للفعل السيئ فقد نهى عنه الإسلام.

---

(١) البخاري (١١٢١) ومسلم (٢٤٧٩) وأخرجه أحمد في المسند (٤٤٩٤، ٦٣٣٠)، وهو عند عبدالرزاق في المصنف (١٦٤٥) وابن حبان (١١٢١) وابن ماجه (٣٩١٩).

الأَدَبُ الثَّالِثُ: الأمر بِالِاعْتِدَالِ فِي القول ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أي: تكلَّمْنَ بالكلام الذي ليس فيه ريبة، ولا تُنْكِره الشريعة، ولا يستميل قلوب الرجال، ويثير عواطفهم.

هذا: ولما نهى الإسلام المرأة عن الخضوع في القول للرجال الأجانب، ربما يتوهم متوهم أنهن مأمورات بالإغلاظ في القول، فدفع ذلك بقوله (وقلن قولا معروفا) أي قولًا غير غليظ ولا جاف، وليس بليِّن خاضع أيضًا.

وهكذا نهى الله - سبحانه - المرأة عن الخضوع في القول، ثم أمرها بالقول الحسن المحمود بطريقة طبيعية.

والقول المعروف هو الذي يألفه الناس بحسب العُرف العام، في ألفاظه ومدلُولاته، وطريقة أدائه، بحيث لا يجد الذي في قلبه حب النساء مَدْخَلًا ولا سبيلًا إلى الطمع فيمن تحدِّثه.

الْأَدَبُ الرَّابِعُ: أَمْرُ الْمَرْأَةِ بِمُلَازَمَةِ الْبَيْتِ

٣٣- ﴿وَقَرْنَ[1] فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ[2] تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الْزمْنَ بيُوتَكُن، لأنه أسلم وأحفظ لكُنّ، ولا تخرجْن منها إلا لضرورة، كما جاء في الحديث: «**إن الله أذن لكن أن تخرجْن لحوائجكن**» أي: حاجات الإنسان من صلاة، وطلب علم، وعلاج، وعمل، وصلة رحم، ونحو ذلك.

فالبيت هو الأصل، ولا يخْرجن منه إلا لحاجة مشروعة: كالعلاج والحج وطلب العلم ونحو ذلك.

وكانت زوجات النبي ﷺ يخرجن لزيارة أهليهن، ويخرجن في: الغزوات والحج والعمرة.

وخروج عائشة ﵂ في وقعة الجمل إلى البصرة، كان باجتهاد منها للسَّعْي بالصلح بين

---

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف من (وقرن) فعل أمر من قرِرْن يقرَرن، والباقون بكسر القاف فعل أمر من قرَّ بالمكان يَقْرِر.

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (ولا تبرجن) مع المد المشبع، والباقون بعدم التشديد مع عدم المد وهو الوجه الثاني للبزي.

فريقي الفتنة، بعد أن ذهب الناس إليها، وظنوا أنهم يستجيبون لها، فخرجت للصلح بين طائفتين اقتتلا، وكاد الصلح يتم، لولا دعاة الفتنة، ولا ينبغي تتبع كلام المؤرخين.

ومن الحوائج الشرعية: الصلاة في المسجد بشرط التحجب وعدم التطيب:

كما قال ﷺ في حديث عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن أبيه عن أمه، عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تَفِلاَت**» قالت عائشة: ولو رأى حالهن اليوم لمنعهن[1]. وفي رواية: «**وبيوتهن خير لهن**».

وهذا الحكم واجب حتمًا على أمهات المؤمنين، وهو واجب كمالٍ لسائر النساء، فالبيت وتربية الأولاد هو مهمة المرأة الأولى، وقد أوجب الإسلام النفقة على الرجل، وجعل المرأة مكفولة في كل حال: وهي أم، وهي أخت، وهي بنت، وهي زوجة، بحيث لا يلزمها السعي على المعاش.

ولو أن الرجال وحدهم، يتقلَّدون الوظائف في الدولة، مع زيادة أجورهم، لكفى الرجل المرأة، وتزوجت كل الإناث، ولَمَا وجدْنا رجلًا عاطلًا بدون عمل، ولما احتاجت المرأة إلى العمل إلا ما لا بد منه من الوظائف النسائية، كطبٍّ وتمريضٍ وعلاجٍ وتعليم البنات، وإن وُجدت امرأة بلا عائل فطريقها الضمان الاجتماعي، وكفالة الدولة لها.

وفي هذا حفظ للأعراض، وقلة الطلاق، وتربية الأولاد، وقصر المرأة على الرجل، وعدم ترجُّلها أو تمرُّدها عليه بسبب اكتفائها المادي، وهذا هو المناسب لطبيعة المرأة.

قال مسروق: كانت عائشة إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بكت حتى يبتلَّ خمارها[2].

وقال محمد بن سيرين: نُبِّئْتُ أنه قيل لسوْدة زوج النبي ﷺ: ما لَكِ لا تحُجِّين ولا تعتمرين كما تفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججتُ واعتمرتُ، وأمرني الله أن أقرَّ في بيتي،

---

(١) قال محققو المسند: المرفوع منه حديث صحيح لغيره، لأن في إسناده عبدالرحمن بن أبي الرجال متكلّم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وقول عائشة صحيح، أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤٤٠٦) ويشهد له حديث ابن عمر بإسناد صحيح برقم (٤٥٢٢) وحديث زينب الثقفية زوجة ابن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (١٤٢، ٤٤٣).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٨/ ٨١) وعبد الله بن أحمد ص ١٦٤.

فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت، قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أُخرجتْ بجنازتها[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها**»[(٢)].

الْأَدَبُ الخَامِسُ: النَّهْيُ عَنِ التَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾

بعد أن أمر الله النساء بأن يلْزمْنَ بيوتهن، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة، فإذا خرجن فلْيخرجن محتشمات، عليهن الوقار، ولا يبدين شيئًا أمر الله بستره، بعد ذلك نهاهن الله - سبحانه - في هذه الجملة من الآية عن التبرج، وعدم الخروج متجملات متطيبات.

والتبرج: هو إظهار المرأة محاسنها الذاتية، وكذا محاسن حُليها وثيابها على مرأى من الرجال الأجانب.

والجاهلية: هي المدة التي كان الناس عليها قبل الإسلام بعد اندثار رسالة عيسى عليه السلام.

والمراد: لا تُظْهِرْن محاسِنكُن كما كانت تفعل نساء الجاهلية قبل الإسلام.

قال محمد بن كعب: الجاهلية الأولى بين عيسى ومحمد عليهما السلام[(٣)].

وقال مجاهد: كانت المرأة تخرج فتمشي بين الرجال، فذلك تبرج الجاهلية الأولى[(٤)].

وكما يفعله بعض نساء العصر من الكاسيات العاريات المتبرجات المتبخترات، ممن

---

(١) البزار (٢٠٦١) و«صحيح سنن الترمذي» (٩٣٦) وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٣١٠٩) وإرواء الغليل (٢٧٣) وابن خزيمة (١٦٨٦) وابن حبان (٥٥٩٨) «الإحسان» وصححه السيوطي في «فيض القدير» (٩١٩٣).

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٣٠). وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٩٠) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ورجاله رجال الصحيح، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح برقم (٣٤٤) وأخرجه ابن خزيمة (٩٣٣) وابن حبان (١٢، ٤١٢) وقال الهيثمي : رجاله موثقون.

(٣) ابن سعد (٨/ ١٩٨).

(٤) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر» (١٢/ ٣٤).

يمشين مشية فيها تبختر وتصنّع.

وينبغي على المرأة ألا تلبس كعبًا عاليًا مدبّبًا، ولا تَضْرب الأرض برجلها، وتُلْفت أنظار الناس إليها، ولا تُظْهِر شَعْرها، أو تضع المساحيق وهي خارجة من البيت، ولا تلبس الملابس الضيقة أو الفاتنة أو الملفتة.

وفي حديث أبي أُذَيْنة الصَّدَفِيِّ: أن رسول الله ﷺ قال: **«شرُّ نسائكم المتبرجات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم»**[1].

أي: لا يدخل الجنة من النساء إلا قليلًا؛ وذلك لأن **الغراب الأعصم**: هو الأبيض الجناحين، وهو قليل نادر.

الْأَدَبُ السَّادِسُ: أَمْرُ المَرْأَةِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: أدِّين الصلاة كاملة في أوقاتها قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وهي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. مع الخشوع والإخلاص فيها، وتمام الأركان والواجبات والسنن، ولا يوجد أحد من خلق الله يرتفع فوق التكاليف الشرعية مهما بلغت درجة ولايته.

ولما أمر الله نساء النبي ﷺ بالتقوى عمومًا، أمرهن بعد ذلك بالطاعة، والصلاة أكبر العبادات وأجل الطاعات، وجواز السفر إلى دار النعيم.

الْأَدَبُ السَّابِعُ: أَمْرُ المَرْأَةِ بِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

أي أخْرِجْنَ الزكاة الواجبة لمستحقيها، وتصدقن بفضول أموالكُنَّ، وأحسِنَّ إلى خلق الله.

وهكذا بعد أن نهاهن الله تعالى عن الشر كالخضوع بالقول، وعدم التبرج، أمرهن بالخير، وأعظمه الصلاة والزكاة.

والزكاة عبادة مالية تطهر النفس من الشح والبخل، وتطهر المال من حق الفقير، وتنمي ﷺ وتحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع، وتزيل ما في نفس الفقير من حقد وحسد على الغني.

---

(١) الحديث عند البيهقي في سننه (٧/ ٨٢) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٤٩).

الأَدَبُ الثَّامِنُ: الأَمْرُ بِطَاعَةِ اللهِ وَالرَّسُولِ ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾

أي: وامتثلْن أمر الله تعالى في جميع الأوامر والنواهي؛ لِتَنَلْنَ مرتبة المتَّقيات، وقد خص الله - سبحانه - الصلاة والزكاة بالذكر، ثم جاء الأمر بالطاعة بصفة عامة؛ لأن **الصلاة**: أصل العبادات البدنية، **والزكاة**: أصل العبادات المالية، فمن التزم بهما أدَّى ما دونهما، ويدخل في الأمر بالطاعة: كل ما أمر الله به ورسوله على سبيل الإيجاب وعلى سبيل الاستحباب.

من هم أهل البيت؟ ثم وجَّه الله الخطاب لنساء النبي ﷺ المعنيات بهذه الآداب بالدرجة الأولى، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: إنما أوصاكُنَّ الله بهذه الأوامر وتلك النواهي؛ لأنه سبحانه أراد لَكُنَّ التخْلية عن النقائص، والتحْلية بالكمالات؛ ليزكِّيكُن ويُبْعِد الأذى والسوء والشر عن أهل بيت النبي ﷺ من زوجاته وذريته ﷺ، ويطهر نفوسكُنَّ غاية الطهارة من أوضار الذنوب والمعاصي، **فمن هم أهل بيت النبوّة**:

القول الأول: أنهم أهل الكساء:

١- في صحيح مسلم وغيره: عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج ذات غداة، وعليه مِرْط مرحَّل - **والمرط المرحل**: هو الكساء المنقوش - من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، وجاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(١)].

ومقتضاها أن الله تعالى حفظ أزواج بيته ﷺ من ارتكاب الكبائر، وزكى نفوسهن.

وتشمل الآية فاطمة وابنيها الحسن والحسين وزوجها عليًا كما صح ذلك في هذا الحديث.

٢- ومن ذلك ما جاء عن أنس ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «**الصلاة، يا أهل البيت**» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ

---

(١) مسلم في الفضائل (٢٤٢٤/ ٦١) ورقم (٢٠٨١) وأحمد في المسند (٦/ ١٦٢) برقم (٢٥٢٩٥) في شطره الأول، إلى (أسود) وإسناده صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة برقم (١٢١٥١) وأبو داود برقم (٤٠٣٢) والترمذي (٢٨١٣) وقال: حديث حسن غريب صحيح، والحاكم (٤/ ١٨٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي (٢/ ١٤٩) وفيه هذه الزيادة (فجاء الحسن بن علي..) من طريق محمد بن بشر عن زكريا، به، الخ كما هي في صحيح مسلم (٢٤٢٤).

عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

٣- وأخرج الطبراني وأحمد وغيرهما بسند صحيح: عن أم سلمة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «**ائتني بزوجك وابنيْه**»، فجاءت بهم، فألقى عليهم كساءً فَدَكِيًّا، ثم وضع يده عليهم، ثم قال: «**اللهم إن هؤلاء أهل محمد، فاجْعل صلَواتِك وبركاتِك على آل محمد، كما جعلْتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»، قالت أم سلمة: فرفعتُ الكساء لأدْخُل معهم، فجذَبَهُ من يدي، وقال: «**إنك إلى خير**»[2].

٤- وعن أم سلمة ﵂ قالت: إن هذه الآية نزلت في بيتها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قالت: وأنا جالسة عند الباب، فقلت: يا رسول الله، ألستُ من أهل البيت؟ فقال: «**إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ**» قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعليٌّ وفاطمة والحسن والحسين، فجللهم بكساء وقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا**»[3] ففي هذه الأحاديث ذِكْرُ أهل الكساء.

القول الثاني: أنهم نساؤه ومن حُرم الصدقة:

والحديث التالي يوسع دائرة أهل البيت، ويضم إليهم من ذُكروا فيه:

٥- أخرج مسلم وغيره بسنده قال: حدثني يزيد بن حيَّان قال: انطلقتُ أنا وحصين بن سَبْرة، وعمر بن مسلم، إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد خيرًا كثيرًا، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلْفه، لقد لقيتَ يا زيد خيرًا كثيرًا، حدثْنا يا زيد ما سمعتَ من رسول الله ﷺ، قال: يابن أخي، والله لقد كَبُرتْ سني، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أَعِي من رسول الله

(١) «المسند» (٣/ ٢٥٩) برقم (١٣٧٢٨، ١٤٠٤٠) بإسناد ضعيف، لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان (محققوه) و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٠٦) وابن أبي شيبة برقم (١٢٣٢٢) والطبراني (٢٢/ ٤٠٣) برقم (١٠٠٢) وصححه الحاكم (٣/ ١٥٨) على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وأخرجه الطيالسي (٢٠٥٩) وأبو يعلى (٣٩٧٨).

(٢) الطبراني (٢٦٦٤، ٢٦٦٥) وأحمد (٤٤/ ٣٢٧) (٢٦٧٤٦) قال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، وشهر بن حوشب، وبقية رجاله رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، وأخرجه أبو يعلى (٧٠٢٦) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧٦٩).

(٣) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٤٠٤، ١٤٠٥) وورد في «المسند» بنحوه (٦/ ٣٠٥) برقم (٢٦٥٠٨) بنحوه، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٩) وأخرجه غيرهم وقال محققو المسند وهو حديث صحيح له ثلاثة أسانيد وذكروها (٤٤/ ١١٩).

ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلِّفوني، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا بماء يُدعى (خُمًّا) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال: «**أما بعد، ألا يا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به**»، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكِّركُم الله في آل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»، ثلاثا، فقال له حصين: ومَن أهلُ بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: **إن نساءَه من أهل بيته، ولكن أهل بيته مَن حُرم الصدقة بعده**، قال: ومَن هم؟ قال: **هم آل عليٍّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس**، قال: كل هؤلاء حُرم الصدقة؟ قال: **نعم**[1]. وقوله: (**إن نساءه من أهل بيته**) أي بالمعنى العام.

وقوله: (**ولكن أهل بيته**) أي بالمعنى المخصوص.

والمعنى في الآية: إن الله يأمركن يا أهل بيت النبوة، بما يأمركم به، وينهاكن بما ينهاكم عنه، ليذهب عنكم الأذى والشر والخبث حتى تكونوا ظاهرين مطهرين، فاحمدوا الله واشكروه على هذه التزكية وهذا التطهير.

القول الثالث: أنهم نساؤه وذريته:

هذا: وقد نزلت الآية في أزواج النبي ﷺ بوصفهن أهل بيته، فهُن المعنيّات أوّلًا، وكان ذلك قبل أن يدعو لأهل الكساء، ونزلت الآية في بيت أم سلمة، ولما سألته: ألسْتُ من أهل بيتك؟ قال: «**إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ**» أي: وأزواجه هم أهل بيته، ثم ألحق بهن أهل الكساء، كما ألحق الحرم المدني بالحرم المكي في الحرمة.

ولو لم يُدخل النبي ﷺ أم سلمة رضي الله عنها في الكساء لأن فيه رجلًا أجنبيًّا عنها، هو عليّ رضي الله عنه.

ونظير ذلك قوله تعالى في زوجة إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وكلمة آل أعم من كلمة أهل، فالأولى تشمل عامة الأقارب والثانية تعني الزوجات والأبناء.

---

(١) مسلم: (٢٤٠٨) (٣٦) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨١٧٥)، والمسند (١٩٢٦٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم وأبو داود (٤٩٧٣) وابن خزيمة (٢٣٥٧) والبغوي في وشرح السنة (٣٩١٣) وغيرهم.

وعلى هذا: فأهل البيت:

١-هم أهل الكساء، كما جاء في أحاديث الكساء.

٢- وهم أزواجه، لأنهن أهل بيته، وهُن المعنيّات في الآية ومنهن أم سلمة.

٣- وهم أيضًا كل مَن حُرم الصدقة من آل بيت النبي ﷺ. وهم: آل علي، وعقيل، وجعفر، والعباس.

وقصْر أهل البيت على أهل الكساء يلغي الأدلة الأخرى كحديث غديرخم و أحاديث تحريم الصدقة.

الأَدَبُ التَّاسِعُ: الأَمْرُ بِمُدَارَسَةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

٣٤- ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

آيات الله: هي القرآن. **والحكمة**: هي السُّنَّة، فاعملْن بهما يا نساء النبي، ويا نساء الأمة؛ فهما من نعم الله عليكنَّ، ففيهما الفوز والفلاح والنجاة، فإنّ بيوتكُن مهبط الوحي، فلا تَنْسيْن ما يُتلى فيها من القرآن والحديث، فأنتُنَّ أحق بالعمل الصالح، وشارِكْن -أيها النساء- في تبليغ الدعوة، فلأَنْ يهدي الله بِكُنَّ رجلًا واحدًا، أو امرأة واحدة، خير لَكُنَّ من حمُر النعم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ بِكُنَّ إذْ جعلَكُنَّ في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والسُّنَّة، وهو سبحانه ﴿خَبِيرًا﴾ بِكُنَّ إذ اخْتاركُنَّ لرسوله ﷺ أزواجًا.

وفي الآية أمر بذكر الكتاب والسنة، وما فيهما من أحكام وأسرار وخفايا، وهذا يشمل ذكر الألفاظ بالتلاوة، وذكر المعاني بالتدبر والتفكر، واستنباط الأحكام والعمل بما فيها، والله تعالى يعلم خفايا الصدور، وأسرار الأمور، وخبايا السموات والأرض، وفي هذا حث على إخلاص الأعمال لله، والله تعالى يجازي على تلك الأعمال خيرها وشرها.

عَشْرُ مَرَاتِبَ فِي الطَّاعَةِ لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ

٣٥- ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أن أمهات المؤمنين لَسْن كسائر النساء، وأن أجر العمل الصالح يضاعَفُ لهن مرتين، فإنَّ هذا يثير تساؤلًا في نفوس المسلمات عمومًا: أهنَّ مأجورات على ما يعملْن من الحسنات؟ وهل هُنَّ مأمورات بمثل ما أُمرت به أزواج النبي ﷺ، أم أن هذا خاص بهنَّ؟ فكانت هذه الآية جوابًا لذلك؛ ففيها ذكر لبقية النساء، وفيها مساواة النساء بالرجال في الطاعات والعبادات وسائر الشرائع الظاهرة والباطنة.

وهذه جملة من الأحاديث الواردة في أسباب نزول الآية:

١- جاء من عدة طرق عن أم سلمة ﵂ أنها قالت للنبي ﷺ: يا نبي الله، ما لي أرى الرجال يُذكَرون في القرآن، والنساء لا يُذْكرْن، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[1].

٢- وفي لفظ النسائي: عن عبد الرحمن بن شيبة قال: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذْكر الرجال؟! قالت: فلم يَرُعْني ذات يوم ظُهْرًا إلا نداؤه على المنبر، وأنا أُسَرِّح رأسي، فلففْتُ شعْري ثم خرجتُ إلى حُجرة بيتي، فجعلتُ سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: **«ياأيها الناس، إن الله يقول في كتابه»**: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخر الآية[2].

٣- وأتت أم عُمارة الأنصارية رسول الله ﷺ، فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرْن بشيء، فنزلت الآية[3].

٤- وعن أسماء بنت عميس لما رجعتْ من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، دَخلتْ على نساء النبي ﷺ، فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قيل: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسار، قال: **«وممِ ذلك؟»** قالت: لأنهنَّ لا يُذكَرْن بالخير، كما تُذكر الرجال، فأنزل الله الآية[4].

---

(١) «المسند» (٢٦٥٧٥، ٢٦٦٠٣، ٢٦٦٠٤) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٥) والطبراني (٥٥٤) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) «سنن النسائي» (٤٢٥) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٤٣٤) وهو في «المسند» (٦/ ٣٠١) برقم (٢٦٥٧٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والطبراني في (الكبير) (٥٥٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٤١٦) وصححه الألباني في كتاب «التفسير» للنسائي (٣٢١١).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٦٥) قال الألباني: صحيح الإسناد، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٥/ ٣١).

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن مقاتل.

وجاء مثل ذلك عن عدد من النسوة ،دخلْن على زوجات رسول الله ﷺ وسألن عن ذلك.

٥- وعن أم سلمة بنت أبي أمية، وأنيسة بنت كعب الأنصارية ﵄ قالت للنبي ﷺ: ما بال ربنا يذكرُ الرجال ولا يذكرُ النساء في شيء من كتابه؟ ونخشى ألا يكون فيهن خير، فأنزل الله الآية.

وقد ذكر الله تعالى للنساء مع الرجال في هذه الآية عشر مراتب مدحهن معهم، وهذه المراتب العشر هي: الإسلام، والإيمان، والطاعة، والصدق، والصبر، والخشوع، والصدقة، والصوم، والعفة، وكثرة الذكر، وبيانها بالتفصيل فيما يأتي:

أولًا: الانقياد لأمر الله تعالى:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي: المنقادين والمنقادات لأمر الله تعالى، وهم المتمسكون بأوامر الإسلام، المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساء.

والإسلام بالمعنى الشرعي: هو الشرائع الظاهرة للقائمين بها، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا.

ثانيًا: مرتبة الإيمان: وتصحيح الاعتقاد، وموافقة الظاهر للباطن، جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: المصدقين بالله وآياته، وما أنزل على رسله وأنبيائه.

والإيمان بالمعنى الشرعي هو الشرائع الباطنة من عقائد القلب والأعمال، وهو: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

فالإسلام عمل الجوارح، والإيمان عمل القلوب:

١- فإن اجتمعا معًا فهو الإيمان الكامل، والإسلام فيه مستلزمٌ للإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات].

٢- وإذا انفردا، دل كل منهما على أركانه المعروفة، فالإسلام عمل الظاهر، والإيمان عمل الباطن كما في الآية التي معنا: المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، فلكل منهما معنى:

٣- وإن أتى العبد بأعمال الجوارح والقلب غير مصدق، فهو النفاق؛ لعدم تمكن الإيمان من القلب، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

٤- وقد يرتفع الإيمان عن صاحبه وقت ارتكابه للكبائر، ثم يعود إليه؛ لأن الإيمان والكبائر لا يجتمعان في وقت واحد.

ولذا: جاء في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**(١).

فالإيمان يُسلَب من العبد وقت ارتكاب الكبيرة فيكون كالظلة، ثم يعود إليه.

ثالثًا: مرتبة الطاعة: وقد جاءت هذه المرتبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي: المطيعين لله ورسوله والمطيعات، المواظبين والمواظبات على مًا يرضي الله ورسوله.

فالقنوت: هو العبادة في سكونٍ وتضرعٍ وخشية، وهو ينشأ عن الإسلام والإيمان، قال تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم].

ونفى الله سبحانه التسوية بين القانت الخاشع وبين غيره في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر].

رابعًا: مرتبة الصدق في الأقوال والأفعال:

لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ أي: الصادقين والصادقات مع الله في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم وإيمانهم، والذين ينطقون ويعملون بما يوافق الواقع ولا يخالفه.

والصدق صفة محمودة، من أصول الديانة، كالوفاء بالعهد، والوفاء بالنذر، كما قال تعالى عمّن جمعوا خصال البر: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهو من علامات

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٨١٠) و«صحيح مسلم» (٥٧).

الإيمان، فالمؤمن قد يكون بخيلًا أو جبانًا، ولكنه لا يكون كاذبًا، والصحابة لم يُجرَّب عليهم الكذب في الجاهلية ولا في الإسلام.

خامسًا: مرتبة الصبر على ما أمر الله به فيما سرَّ وأساء.

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أي: الصابرين والصابرات على فعل الطاعات، وترك المحرمات والشهوات والشبهات، والصابرين والصابرات على المكاره، وعلى الشدائد والمصائب، وهذا يدل على قوة العزيمة، وتوطين النفس على تحمل المشاق، ومن أهمه: الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على قبول الحق من الناس.

سادسًا: مرتبة الخشوع والتواضع لله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي: الخائفين من الله تعالى والخائفات، والمتواضعين لله تعالى بجوارحهم وقلوبهم والمتواضعات.

والخشوع صفة تجعل القلب والجوارح في انقياد تام، ومراقبة لله ﷻ، واستشعار لعظمته وهيبته، ويدخل في ذلك الخشوع في الصلاة، وتجنب المعاصي، والإحسان في القول والعمل إلى عباد الله، وجميع القُرب بالنوافل، والتوبة من الكبائر والصغائر.

سابعًا: مرتبة التصدق على سبيل الفرض والنفل

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي: المتصدقين والمتصدقات فرضًا ونفلًا، بالأموال وغيرها على الفقراء والمساكين، بإخراج الزكاة وصدقات التطوع، وبذل الخير إلى المحتاجين دفعًا لحاجتهم، وعونًا على مساعدتهم.

والصدقة تشمل جميع الأُعطِيَات، وإنفاق المال، وبذل المعروف، والرفق بالآخرين.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «.. **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[1].

وفي حديث أنس ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة**

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣١) من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

السوء»[١]، و**«داووا مرضاكم بالصدقة»**، و**«الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»**[٢].

وفي الصحيحين: عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظُر أيْمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشْأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**[٣].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

ثامنًا: المحافظة على الصوم المفروض، والتقرب إلى الله بالصوم المسنون:

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ يشمل صيام الفرض والنفل، فالصوم زكاة البدن، يطهِّره ويزكيه.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«الصوم لي وأنا أجزي به»**[٤] فهو تقرب إلى الله تعالى، واستعلاء على شهوات الحياة وملذاتها.

والصوم فيه تشبُّه بالملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وفي الصوم كسر للشهوة، ولذا: فإن الإسلام جعله علاجًا لمن لا يستطيع الزواج **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[٥].

تاسعًا: العفة والطهارة:

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: حافظين أنفسهم عن الزنى ومقدماته،

---

(١) من حديث أنس عند الترمذي برقم (٦٦٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) من حديث كعب بن عجرة في الترمذي برقم (٦١٤) و«المسند» (٣/٣٢١) من حديث جابر برقم (١٥٢٨٤) بإسناد قوي على شرط مسلم ورجال ثقات، (محققوه) وعن معاذ برقم (٢٢٠١٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٣٩، ٧٤٤٣) و«صحيح مسلم» (١٠١٦).

(٤) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد في «صحيح مسلم» برقم (١١٥١) و«صحيح البخاري» برقم (١٩٤٦، ٧٤٩٢).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (١٩٠٥، ١٥٠٦٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠٠).

وعن كشف العورة، واللواط، والسحاق، والاستمناء.

فحفظ الفرج يعني: التعفف عن أن يضع الإنسان شهوته في غير ما أحل الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون].

عاشرًا: الإكثار من ذكر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي: إنهم يذكرون الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم، قائمين وقاعدين، وعلى جنوبهم، وفي جميع أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يذكرونه في صباحهم ومسائهم وأدبار الصلاة المكتوبة وعند النوم ونحو ذلك:

١- وفي حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**سبق المفردون**» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟ قال: «**الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»(١) قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢- وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم**»(٢).

٣- وفي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»(٣).

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٦).

(٢) الحديث في «صحيح الجامع» (٤٣٣٧) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٢)، وهو في مسند أحمد (٩٣٥١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي صحيح مسلم (٢٦٧٥) والترمذي (٣٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٧٧٣٠) وأخرجه البخاري (٧٤٠٥).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٢٣) وهو في «السنن» برقم (١٣٣٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٣١٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١١٦١، ١٢٨٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٣١٠، ١١٤٠٦) وأبو يعلى (١١١٢) وابن حبَّان (٢٥٦٨).

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1] فالجزاء من جنس العمل وفي رواية (**وحفتهم الملائكة**) .

ويدخل في ذلك الأذكار التي تعقُب الصلاة، وأذكار الصباح والمساء، ولا يدخل فيه تمايُل بعض المتصوفة يمنة ويسرة، وما يصحب ذلك من عبث وهمْهمة .

قال عطاء بن رباح:

١- من فوَّض أمره إلى الله فهو داخل في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ .

٢- ومن أقرَّ بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ .

٣- ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السُّنَّة، فهو داخل في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ .

٤- ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ .

٥- ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعن الرذيلة، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ .

٦- ومن صلى فلم يعرف مَنْ عن يمينه وعن شماله، فهو داخل في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ .

٧- ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم، فهو داخل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ .

٨- ومن صام في كل شهر أيام البيض، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ .

٩- ومن حفظ فرجه عما لا يحل، فهو داخل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ .

١٠- ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ .

---

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٠، ٢٦٩٩).

وقد أعدَّ الله لهؤلاء المتقين الأبرار المتصفين بهذه الأوصاف العشرة، أعظم الأجر والمثوبة في جنات النعيم، مع تكفير ذنوبهم وسيئاتهم بسبب ما فعلوه من صالح الأعمال، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، والنفع المتعدّي للآخرين، والقاصر على النفس، والمشتمل على فعل الخير وترك الشر، ومن قام بها قام بالدين كله ظاهره وباطنه، وقام بالإسلام والإيمان والإحسان.

لذا: فإن الله تعالى غفر لهم ذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، وأعطاهم أعظم الأجر، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله من فضله.

قِصَّةُ زَيْنَبَ وَزَيْدٍ رضي الله عنهما

٣٦- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ[(١)] لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

بعد أن ذكر الله - سبحانه - خصال أهل الإيمان من الرجال والنساء، أتبع ذلك ببيان أن طاعة الرسول ﷺ ملحقة بطاعة الله تعالى، وأنها طاعة واجبة، وليس في وُسع مسلم أن ينفك عنها، وأن الرجال والنساء فيها سواء، فبيَّن تبارك وتعالى أنه لا ينبغي لكل من الرجال والنساء إذا حكم الله فيهم حكمًا أن يخالفوه بأن يختاروا غير الذي قضاه الله، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [٦].

وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ [القصص: ٦٨].

ولا يليق بمن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، ومن لم يسلك الطريق الموصلة إلى الله تعالى فقد باء بالعقوبة والنكال، لأنهم جعلوا أهواءهم حجابًا بينهم، وحجابًا مِن أمر الله ورسوله.

سبب النزول: وقد نزلت هذه الآية في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة رضي الله عنه،

---

(١) قرأ هشام وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (أن يكون)، والباقون بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

لما خطبها النبي ﷺ له، فاستنكفتْ وأبتْ هي وأخوها عبد الله؛ لأنها قرشية وهو عبد مملوك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فرَضِيتْ وأذْعنَتْ، وجاء أخوها إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، مُرْني بما شئت، قال: **«زوِّجْها من زيد»، فرضِي وزوَّجَها**(١).

وكان زواج زينب بزيد في مكة قبل الهجرة، ومقتضى ذلك أن هذه الآية مكية، وأنها أُلحقت بهذه السورة المدنية؛ لتكون مقدمة لذكر قصة زواج رسول الله ﷺ بزينب ﵂.

روى جابر بن زيد، أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، كانت أول من هاجر من النساء بعد صُلْح الحديْبية، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة بعد أن طلق زينب، فسخطت هي وأخوها، فنزلت هذه الآية فرضيا(٢).

والآية عامة في جميع الأمور، وفيها أن صيغة الأمر عزيمة، ما لم يصرفها صارف عن الوجوب، وليس فيها اختيار للعبد:

فقد ورد أن رجلًا سأل ابن عباس ﵄ عن صلاة ركعتين بعد العصر فنهاه، وقرأ الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

فلا يصح لمؤمن أو مؤمنة، إذا أراد الله ورسوله أمرًا، أن يختاروا ما يخالف ذلك، بل يجب عليهم أن يذعنوا ويسلِّموا، وأن يكون رأيهم تابعًا لحكم الله ورسوله، وقد شدد الله النكير على من يخطئ طريق الحق ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: بَعُدَ عن طريق الصواب بُعْدًا ظاهرًا، وهذا بيان لسوء عاقبة من خالف أمر الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. قال تعالى:

---

(١) يُنظَر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٣٣).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ١١٤).

(٣) عبد الرزاق (٧٩٧٥) والبيهقي (٢/ ٤٥٣).

إبْطَالُ التَّبَنِّي

٣٧- ﴿وَإِذْ[١] تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

ثم شرع سبحانه في إبطال حكم التبنِّي الذي كان قائمًا في الجاهلية، وهذا تشريع عام للمؤمنين حتى لا يتساوى أدعياء التبنيّ بالأبناء الحقيقيين، وقد كان هذا من الأمور المعتادة التي لا يمكن أن تزول إلا بحادث كبير، فكانت إزالته بقول رسول الله ﷺ وفعله، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: اذكر -يا محمد- وقت قولك لزيد بن حارثة، الذي أنعم الله عليه بالإسلام والإيمان والهداية، وأنعمت عليه -يا محمد- بالعتق من الرق والتحرير من العبودية، وحُسْن التربية والمحبة والإكرام: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: أبقِ على زوجك، زينب بنت جحش، في عصمتك ولا تطلقها، واتق الله فيها، واصبر على ما بدَر منها في حقك، وكانت قد تعالت عليه بِحَسَبِها ونسبها.

ترجمة زيد بن حارثة: زيد بن حارثة من بني كلب، من تغلب باليمن، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة من بني معْن، قد خرجت به إلى زيارة قومها فأغارت عليهم خيل من بني القين بن جَسْر، فكان زيد ممن سُبي في هذه الغارة، وبيع في سوق حُباشة بناحية مكة، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبتْه إياه، وكانت سنُّه إذ ذاك ثماني سنوات، فحج ناس من بني كلب، ورأوا زيدًا فعرفوه وعرفهم، فأعلموا أهله ووصفوا لهم مكانه، فقدم جده وعمه كعب إلى مكة؛ ليدفعا له الفدية ويأخذاه، فكلَّما النبي ﷺ فيه -وكان هذا قبل البعثة- فأُتي به فعرفهما، فقال له النبي ﷺ: «**اخترني أو اخترهما**»، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، فانصرف جده وعمه وطابت أنفسهما ببقائه عند النبي ﷺ، وعندئذ خرج به النبي ﷺ إلى (الحجر) وقال لمن حضر: «**اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه**»، فصار ابنًا للنبي ﷺ، وأسماه زيد بن محمد[٢].

---

(١) أدغم الذال في التاء من (وإذ تقول) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقون.

(٢) هذه إحدى الروايات في شأن زيد، وانظر ما جاء في تفسير الآية الخامسة من هذه السورة.

١- ولما كبُر زيد، زوَّجه النبي ﷺ (أم أيمن) مولاته، فولدتْ له أسامة بن زيد، وطلقها.

٢- فزوجه النبي بعدها (زينب بنت جحش) بمكة.

وبعد الهجرة آخى النبي ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب.

ولما بطل حكم التبني بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [٤]، صار يسمى زيد بن حارثة حِبَّ رسول الله ﷺ.

وفي سنة خمس هجرية بعد غزوة الأحزاب طلَّق زيد زينب.

٣- فزوَّجه رسول الله ﷺ (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط)، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب، فولدت له زيدًا ورقية، ثم طلقها.

٤- وتزوج (درة بنت أبي لهب)، ثم طلقها.

٥- وتزوج (هند بنت العوام) أخت الزبير.

وشهد زيد بدرًا والمغازي كلها، وقُتِل في غزوة مؤتة سنة ثمان وهو أمير الجيش، وسنه خمس وخمسون سنةً ﷺ.

زينب بنت جحش: أما زينب، فهي بنت جحش الأسَدية، كان اسمها بَرَّة، فلما تزوجها النبي ﷺ سماها زينب، وأبوها جحش بن أسد بن خزيمة من بني أسد، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، تزوجها زيد في الجاهلية، ثم طلقها في المدينة، وتزوجها النبي ﷺ سنة خمس، وتُوفيت سنة عشرين وعمرها ثلاث وخمسون سنة.

وتُخفي في نفسك ما الله مبديه:

وكانت زينب قد بقيت في عصمة زيد سنين ولم تلد، فكان كلما يأتيها يحدُث بينهما خلاف، وتترفع عليه، فلما تكرر ذلك عزم على أن يطلقها، فكان يأتي إلى النبي ﷺ يُعْلمه بعزْمه على طلاقها؛ لأنه تزوجها منه، فيقول له النبي ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ يا زيد، وكان يقول له ذلك بصفة الولاء والصحبة، لا بصفة التشريع والرسالة.

رَوَى علي زين العابدين: أن الله تعالى أوحى إلى النبي ﷺ أنه سينكح زينب[1].

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

وعن الزهري: أن جبريل عليه السلام أعلم محمدًا ﷺ أن الله تعالى زوَّجه زينب، وكان الرسول ﷺ يُضمر في نفسه ما سيُظهره الله تعالى؛ لأن النبي ﷺ كان يَعْلَم أن زيدًا سيطلِّق زينب وأنه سيتزوجها، ولم يؤمر بتبليغ ذلك للناس، فكان هذا سرًّا في نفسه.

كما حدث أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ في المنام بقطعة من حرير فيها صورة عائشة رضي الله عنها يقول له: هذه امرأتك، ولم يُعلِم النبي ﷺ عائشة ولا أباها إلا بعد أن تزوجها، وهذا معنى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي -يا محمد- في نفسك ما أوحى الله به إليك من طلاق زيد لزوجته وزواجك منها، والله تعالى مُظْهِر ما أخفيْت، وتخاف من المنافقين أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، والله تعالى أحق أن تخاف.

وخشيةُ النبي ﷺ من الناس ليس معناها: أنه يترك ما يكرهه الناس، ويفعل ما يرضوْنه، ولكن معناها: أنه يتوقع أن يصدر من المنافقين ما يكرهه النبي ﷺ، ولذا فقد أقدم على الزواج من زينب، وما فعله النبي ﷺ قبل ذلك كان خشية كلام المنافقين؛ حتى لا يكون كلامهم فتنة لضعفاء الإيمان.

هذا هو قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ حيث إن الزواج من امرأة ابن المتبنَّى كان محرمًا، وكان أمر الله تعالى للنبي ﷺ أن يتزوج امرأة متبناه، هو بداية إبطال هذه القاعدة، ومعنى ذلك: بيان أن زواج النبي ﷺ من زينب سيكون موضع ريبة من الناس، وقيل وقال؛ لأنه حُكْم جديد، ليس له نظير سابق، لذا: أراد النبي ﷺ أن يصون نفسه من ألسنتهم.

كما أن النبي ﷺ أخفى في نفسه إصرار زيد على طلاق زينب؛ لكثرة تفاخُرِها عليه، وسماعه منها ما يكره، وعدم صبره على معاشرتها، ووجود التنافر بينهما، وكَثْرة شكواه من ذلك، فكان كلما جاء للنبي ﷺ، وقال له: إني أريد أن أفارق صاحبتي، يقول له النبي ﷺ: **أرابك منها شيء؟** فيقول: لا، والله ما رأيت منها إلا خيرًا، ولكنها تتعاظم عليَّ لشرفها وتؤذيني، فيقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يا زيد.

قالت عائشة رضي الله عنها: لو كَتَم رسول الله ﷺ شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية(١).

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٧٧) والترمذي (٣٢٠٧، ٣٢٠٨) والطبري (٩/ ١١٧) والطبراني (١١١).

وقال عمر وابن مسعود وعائشة ﭫ: ما نزل على رسول الله آية هي أشد عليه من هذه الآية.

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السُّدي قال: بلَغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهتْ ذلك، ثم إنها رضيتْ بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله نبيَّه ﷺ بعدُ أنها من أزواجه، فكان يستحيي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدًا[1].

قال أنس: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: **«اتق الله وأمسك عليك زوجك»** فنزلت ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه الآية، فتزوجها رسول الله ﷺ فما أوْلَم على امرأة من نسائه ما أوْلَمَ عليها، ذبح شاة ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكُنَّ أهاليكُنَّ، وزوجني الله من فوق سبع سموات[2].

والحاصل: أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله تعالى إياه أن زيدًا سيطلق زينب، وأنها ستصير زوجته، وأن الذي كان يخشاه قول الناس: تزوَّج امرأة ابنه، وأن الله تعالى أراد إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من أحكام التبنِّي، بأمرٍ هو أبلغ ما يكون في الإبطال، وهو زواج إمام المسلمين من امرأة مَنْ كان يُدعى ابنًا له؛ ليكون هذا أدعى لقبول الناس، وعدم مساواة المتبنَّى بالابن الصُّلْبي، وجعْل زوجة المتبنَّى أجنبية من المتبنِّي.

زواج النبي ﷺ من زينب بأمر الله تعالى:

وطلَّق زيد زينب، ولما انقضت عدتها، قال رسول الله ﷺ لزيد: **«اذكُرها عليَّ»** -أي: اخطبها لي- قال: فانطلقتُ، فقلتُ: يا زينب، أبشري، أرسل رسول الله يذكُرك -أي:

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٤٠٣).

(٢) ينظر البخاري (٧٤٢٠) و في «المسند» (١٩/ ٤٩٢) (١٢٥١١) والترمذي (٣٢١٣) والحاكم (٢/ ٤١٧) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٥٧).

يخطبك- قال لها زيد ذلك، بعد أن عظُمت في نفسه، وأدار لها ظهره، ونكص على عقبيه، فقالت: ما أنا بصانعة حتى أُؤَامر ربي، أي: إني لن أجيب حتى أستخير الله تعالى، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن(١).

وفي هذا بيان أن الذي قام بخطبتها للنبي ﷺ زوجها السابق زيد، وأن النبي ﷺ دخل عليها بغير إذن بعد أن أمره ربه بالزواج منها، وأن زينب لم تُجب زيدًا إلا بعد أن استخارت ربها ودعته، وأن كل من وكَّل أمره إلى الله يسَّر الله له ما هو الأنفع في الدنيا والآخرة(٢).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: قضى حاجته منها، فطابت نفسه ورغب عنها، وطلقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي: زوجناك إياها -يا محمد- بغير مهر، فكانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكُنَّ أهاليكُنَّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات(٣) وهذه خصوصية للنبي ﷺ.

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب ﵂: أنا التي نزل تزويجي من السماء.

وقالت عائشة ﵂: أنا التي نزل عذري من السماء، فاعترفت لها زينب ﵂.

وعن المغيرة عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدلُّ عليك بثلاث ما من نسائك: إن جَدِّي وجَدُّك واحد، وإني أنكَحنيكَ الله من السماء، وإن السفير جبريل ﵇(٤).

الفائدة من هذا الزواج:

وقد زوَّج الله زينب ليكون هذا الزواج أسوة في إبطال عادة تحريم زوجات مَن كانوا

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٢٨) و«المسند» (٣/ ١٩٥) و «سنن النسائي» (٦/ ٧٩) من طريق سليمان ابن المغيرة عن ثابت عن أنس.

(٢) أشار إلى هذه المسائل ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤٠٣).

(٣) البخاري برقم (٤٧٨٧، ٧٤٢٠) والترمذي (٣٢١٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (٢/ ٤١٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١).

يتبنَّونهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم، وقد قطع الله هذه النسبة بقوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [٤]. وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [٤٠].

وجاء الاحتراز الصريح من الابن الدعيّ، في قوله تعالى في سياق حصر المحرمات: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقد بيَّن الله تعالى حكمة زواج الرسول ﷺ من زينب في قوله سبحانه: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي: من تبنَّوْهم ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: بعد طلاقها وانتهاء عدتها، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ لا عائق له، ولا مانع منه.

وقد كان زواج زينب من رسول الله ﷺ أمرًا كائنًا في علم الله تعالى، فكان أمر الله نافذًا لا محالة، **ويؤخذ من هذه القصة:**

١- أن الله تعالى ذكر زيدًا باسمه الصريح في القرآن ولم يذكر غيره، وأن الله تعالى أنعم عليه بالإسلام والإيمان، فهو مسلم بظاهره وجوارحه، مؤمن بقلبه وباطنه.

٢- مشروعية الزواج من زوجة المتبنَّى، وقد كان هذا الزواج غير مألوف قبل إبطال التبنى وتطبيق هذا التشريع بالفعل المقترن بالقول.

٣- قيام الرسول ﷺ بتبليغ الوحي حتى ما فيه عتاب له.

٤- المستشار مؤتمن ولو كانت المشورة فيها مصلحة له أو حظ للنفس.

٥- لا يجوز التعرض للمرأة المتزوجة بالرغبة في الزواج منها إلا بعد طلاقها وانتهاء عدتها.

٦- وفيها بيان لفضل زينب ﵂ حيث تولى الله تزويجها من رسوله بدون خطبة ولا شهود ولا مهر.

٣٨- ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

نفى ﷻ الحرج عن سيد المرسلين ﷺ في زواجه من زوجة مُتَبنَّاه، ودَفع طعْن من طعَن في كثرة أزواجه، وأنه لا وجه له في هذا المطعَن، وقرر سبحانه أن محمدًا ﷺ متبع لسُنَّة الأنبياء الذين سبقوه في اتباع ما أحل الله له.

ولَمَّا أمر الله تعالى رسوله بزواج زينب التي فارقها زيد، كان سبحانه عالِمًا بأن ذلك ليس فيه حرج لرسوله ﷺ؛ لأنه لا يخلُّ بمقام النبوة، وفيه بيان أن تناول المباحات من سنن الأنبياء، وأنه ليس على الرسول ﷺ ذنب ولا إثم، ولا لوم ولا عتاب، فيما أحل الله له من زواج امرأة مَنْ تبناه بعد طلاقها من زيد، وأن هذه التوسعة عليه في الزواج سُنَّة الأنبياء الماضية، وأن الله تعالى قد أباح له ما أباحه لهم، وهي سُنَّة قديمة فيهم، ومن ذلك أن داود ﷺ كان له مئة امرأة، وكان لسليمان ثلاث مئة امرأة، وعدد من السُّريَّات[1].

وكان أمر الله تعالى في هذا الزواج وغيره قضاء مبرمًا، وحكمًا نافذًا لابد من وقوعه، قال تعالى في وصف المرسلين الذين هذه سنتهم وعادتهم فقال:

٣٩- ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

أثنى الله تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين، بأنهم يفعلون كل مأمور، ويتركون كل محظور، وهم الذين يبلِّغون رسالات ربهم، وفيها أوامر الله تعالى ونواهيه إلى من أُرسلوا إليهم، وبيَّن سبحانه أن رسل الله جميعًا يخافون الله وحده ولا يخافون أحدًا غيره في كل ما يأتون ويذرون، وما يقولون ويفعلون، وكفى بالله تعالى محاسبًا لهم، وحافظًا لأعمالهم، يعلم ما تقوله ألسنتهم، وما تفعله جوارحهم، وما تكنه صدورهم، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا.

وسيد الناس في تبليغ الرسالة وغيرها هو محمد ﷺ، فقد قام بتبليغ الرسالة إلى الثقلين، وأظهر دين الله على جميع الشرائع، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصة، وبعثه الله إلى الخلق جميعًا وإلى أن تقوم الساعة، وورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى مَن قام بها أصحابه ﷺ، وورثهم كل خلَف عن سلَف.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحقرن أحدكم نفسه، أن يرى أمرًا لله فيه عليه مقالًا، ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول:** رب

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٩٥).

خشيت الناس، فيقول: فأنا أحق أن يُخشى»[١].

وفي حديث أبي سعيد أيضًا **«لا يمنعنَّ أحدَكم هيبةُ الناس أن يقول في حق إذ رآه، أو شهده، أو سمعه»** قال أبو سعيد: وددت أني لم أسمعه[٢].

وذلك لصعوبة العمل به في عدم السكوت عن الحق.

خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﷺ

٤٠- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ[٣] ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

ولما تزوج النبي ﷺ بزينب، حدث ما توقعه من قبل، حيث قال الناس: إن محمدًا تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى ما يبطل قولهم، ويحدد مهمة النبي ﷺ في قومه، ويبيِّن سبحانه أن محمدًا ﷺ ليس أبًا حقيقيًا لزيد بن حارثة، ولا لغيره، أبوة تترتب عليها آثارها وأحكامها، من الإرث والنفقة والزواج وغيرها.

أخرج الترمذي عن عائشة ﵂ قالت: لما تزوج النبي ﷺ قالوا: تزوج حليلة ابنه فنزلت الآية[٤].

وبهذه الآية قطع الله تعالى ونفى نفيًا تامًّا أن يكون زيد بن حارثة ابنًا للنبي ﷺ، لا أُبوَّة نسب، ولا أبوة ادعاء.

ذرية النبي ﷺ

وكان للنبي ﷺ وَلَدَان وُلدا بمكة، من خديجة ﵂ وهما: الطيب والطاهر، أو هما اسمان لمسمى واحد، والابن الثاني هو القاسم، وَوُلِد له أيضًا إبراهيم بالمدينة، من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صغارًا، ولم يكن أحد منهم موجودًا وقت نزول هذه الآية.

---

(١) «المسند» (٣/ ٣٠)، (٣/ ٨٤) برقم (١١٢٥٥، ١١٨٦٨، ١١٦٩٩) قال محققوه: وأبو الْبَخْتَرِي لم يسمع من أبي سعيد، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه ابن ماجه عن أبي كريب برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٤٢): هذا بإسناد صحيح، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣٧) والترمذي (١٩١) وقال: حسن صحيح، وابن حبَّان (٢٧٨) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٩٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١٠١٧، ١١٤٠٣، ١١٨٦٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) قرأ عاصم بفتح التاء من (وخاتَم) على أنه اسم للآلة كالطابع، والباقون بكسرها، اسم فاعل.

(٤) «سنن الترمذي» برقم (٣٢٠٧) والسيوطي (٢٢٨).

أخرج عبد الرزاق والطبري بسنديهما الصحيح، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في زيد، إنه لم يكن بابنه، ولَعمْري ولقد وُلِد له ذكور، إنه لأبو القاسم وإبراهيم والطيب والمطهر[١].

والمعنى المنفي في الأبوة: هو الأبوة المباشرة لزيد ولغيره، فلا يُلتَفت لكونه ﷺ جَدًّا للحسن والحسين وغيرهما رضي الله عن الجميع.

فالمراد: نفي أبوة الصُلْب لا أبوة الرحم.

ولما أراد الله تعالى قطع النبوة في بني إسرائيل، صرف عيسى ﷺ عن الزواج.

ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين، لم يُبق الله له ذرية من الذكور بعد وفاته، فمات إبراهيم رضيعًا، ووُلد له من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﷺ، وقد مات في حياته ﷺ ثلاث منهن، وتأخرت فاطمة ﷺ فماتت بعده ﷺ بستة أشهر، ومات القاسم والطاهر وإبراهيم صغارًا.

ثم بيَّن سبحانه أن مهمة الرسول ﷺ تنحصر في الرسالة، فقد ختم الله به النبوة إلى يوم القيامة، فلا نبي بعده ولا معه، وحين ينزل عيسى ﷺ قبل قيام الساعة، فإنه يحكم بشريعة محمد ﷺ ويصلي إلى قبلته.

قال ابن عباس ﷺ في معنى الآية: يريد ولو لم أَخْتم به النبيين، لجعلتُ له ولدًا يكون بعده نبيًّا[٢].

وقد أجمع الصحابة ﷺ على أن محمدًا ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء، وتواتر ذلك في الأجيال بعدهم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذا: لم يترددوا في تكفير كل مدَّعٍ للنبوة: كمُسَيْلِمة الكذَّاب، والأسود العنسيِّ وغيرهما، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة.

وكل ما سبق لا ينافي ما ذُكر، من أن النبي ﷺ أب للمؤمنين أبوة روحيّة، وأن زوجاته أمهاتهم لا يجوز الزواج منهن، ولا يجوز الخلوة بهن، ولا أن يكنَّ من المحارم، وبمناسبة ختم النبوة يحسن بنا أن نُلقى ضوْءًا على **بعض من ادّعُوا النبوة مؤخرًا**.

---

(١) عبد الرزاق (٢/ ١١٨) وابن جرير (١٩/ ١٢٢).

(٢) «تفسير الكشاف» (٣/ ٤٣٠).

البابية والبهائية والقاديانية

١- ولم تُقْدِم طائفة ممن ينتسبون إلى الإسلام -في الوقت الحاضر- على ادعاء النبوة، إلا البابية التي ظهرت في فارس بشيراز، سنة مئتين وألف هجرية.

واسمه السيد علي أحمد، أخذ عن رجل من المتصوفة الباطنية، اسمه أحمد زين الدين الإحسائي، وقد زعم أنه أُوحي إليه بكتاب اسمه البيان، وأن القرآن أشار إليه في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن]. وقد حُكم عليه بالقتل في تبريز سنة ١٢٦٦هـ.

٢- **والبهائية** شعبة منها، مؤسسها: بهاء الدين ميرزا حسين علي، من طهران، وأخرجتْه حكومتها إلى بغداد، ثم نقلتْه الدولة العثمانية إلى سجن عكًّا، فسجن سبع سنوات، ثم أُطلق سراحه، وتنقّل في أوربا وأمريكا، ثم عاد إلى حيْفا، ومات فيها سنة ١٣٤٠هـ[1].

٣- وفي القرن الثالث عشر الهجري ظهر **قاديان** من باكستان، يدَّعي النبوة، واسمه: ميرزا غلام أحمد ١٢٥٢-١٣٢٦هـ وأتباعه يسموْن الأحمدية، وهم المعروفون بالقاديانيين، وهم يعتبرونه إمام العصر، والمسيح الموعود، وأن النبوة لم تنقطع، وأنه من من جملة الأنبياء، ويفسرون ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بأنه طابعهم وليس آخرهم، وأن كل نبي يظهر بعد محمد ﷺ تكون نبوته مطبوعًا عليها بخاتم تصديقه، ولا يمكن أن تُصدق الآن نبوة أيِّ نبي إلا بخاتمه[2] على حد زعمه.

وغلام أحمد القادياني يدَّعي الرسالة، ويقول: أرسلني ربي لدعوة الخلق، وآتاني آياتٍ بينات، لأدعو خلْقه إلى دينه، فطوبى للذين يَقبلونني ويذكرون الموت، أو يطلبون الآيات، وبعد رؤيتها يؤمنون[3].

وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

أنَّ المراد بأولي الأمر، جسمانيًّا: ملك بريطانيا، ورُوحيًّا: إمام الزمان، يعني: نفسه، وأن الشخص الجسماني لا يخالفنا في مقاصدنا، ويمكننا أن تحصل لنا منه الفائدة

(١) يُنظَر: «التحرير والتنوير» (٢٢/٤٦).

(٢) جاء هذا في كتاب ميرزا غلام أحمد القادياني المسمى «ملفوظات أحمدية» ص ٢٩٠ .

(٣) من كتابه «التبليغ» ص ٤٣-٤٥ .

الدينية، فهو يكون منَّا.

ولذا: فنصيحتي لجماعتي أن يَعُدُّوا ملك الإنكليز من أولياء أمرهم، ويطيعوه بصدق القلب؛ لأن هؤلاء لا يُحرجوننا في مقاصدنا الدينية[١].

ويقول أيضًا: إن إحسان الحكومة الإنكليزية إلينا كبير، ونحن نعيش براحة واطمئنان كبيرين، وتتم مقاصدنا، إن أعظم مقصد لنا هو تبليغ الدين، ولأجل تتميم هذا المقصد نجد كل حرية، ويمكننا التبليغ في كل ركن من المملكة الإنكليزية حيث نشاء، وإذا ذهبنا للتبليغ في الممالك الأخرى فهم لا يساعدوننا[٢].

ويقول أحد أتباعه: إن طاعة غير المسلمين، إذا مُنحوا الحرية الدينية، سواء أكانوا من الإنكليز أم من غير الإنكليز، واجبة، وبما أن الإنكليز لا يتعرضون للدين، يجب طاعتهم[٣].

وبهذا يتضح أن القادياني هذا رسول من قبل بريطانيا -كما يتضح من كلامه وكلام أتباعه- فهي حركة سياسية للنيل من الإسلام، ولهم في الوقت الحاضر عدة قنوات فضائية بعدة لغات؛ لنشر دعوتهم، ولذا أسهبتُ في بيان شأنهم بخلاف غيرهم.

هذا: ومقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإذا لم تكن نبوة بعد محمد ﷺ فلا رسول بعده من باب أولى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يقل خاتم المرسلين، وبذلك تواترت **الأحاديث في ختم النبوّة**:

١- عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبِنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة**»[٤].

---

(١) من كتابه «ضرورة الإمام» ص ٣٨ .

(٢) من كتابه «بركات الخلافة» ص ٦٥ .

(٣) من كتاب «الجماعة الأحمدية والإنكليز» ص ١٨ لمؤلفه منير الحصن من دمشق.

(٤) «المسند» (٥/١٣٦) برقم (٢١٢٤٣، ٢١٢٤٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه) و«سنن الترمذي» (٣٦١٣) وانظر: «البخاري» (٣٥٣٤) ومسلم (٢٢٨٧). وعبد بن حميد (١٧٢).

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي**» قال: فشَقَّ ذلك على الناس، فقال: «**ولكن المبشرات**» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «**رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة**»(١).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحلتْ لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون**»(٢).

٤- وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي**»(٣).

٥- وأخرج أحمد عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «**في أمتي كذَّابون ودجَّالون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي**»(٤).

٦- وفي لفظ آخر: عن ثوبان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعمون أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»(٥).

وقد ختم الله هذه الآية بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فقد شرع لكم على ألسنة رسله ما فيه صلاحكم، وختم هذه الرسالات بنبيكم محمد، فقابلوا ذلك بالشكر والطاعة.

---

(١) «المسند» (٣/ ٢٦٧) برقم (١٣٨٢٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وانظر (١٢٠٣٧). والترمذي برقم (٢٢٧٢)، والحاكم (٤/ ٣٩١) وابن أبي شيبة (١١/ ٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٣) و«سنن الترمذي» برقم (١٥٥٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٥٦٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٤).

(٤) «المسند» (٣٨/ ٣٨٠) (٢٣٣٥٨) قال محققوه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الصحيح، وانظر (٧٢٢٨) وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٢٦) وفي الأوسط (٥٤٤٦) والبزار (٢٨٨٨) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٥٣).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٧٧)، وهو في السنن (٤٢٥٢) والمسند (٢٢٣٩٥) من حديث طويل إسناده صحيح على شرط مسلم، والطيالسي (٩٩١) ومسلم (١٩٢٠، ٢٨٨٩) والترمذي (٢١٧٦) وابن حبان (٧٢٣٨) وغيرهم.

ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى طِبُّ الْقُلُوبِ وَشِفَاءُ الْأَبْدَانِ

٤١ ، ٤٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أمر الله المؤمنين أن يُقبلوا عليه بالإكثار من ذكره تعالى بالتهليل، والتحميد، والتكبير، والتمجيد، والتقديس، في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وأقل ذلك أن يلازم الإنسان على أوراد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس، وعند النوازل ومختلف الأسباب.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فَذِكْرُ الله تعالى طب النفوس ودواؤها، وعافية الأبدان وشفاؤها، وبه تطمئن القلوب وتنشرح الصدور، فعليهم أن يشغلوا ألسنتهم به؛ لأن في الذكر والتسبيح إشارة إلى التبرُّؤ مما قاله المرجفون في حق النبي ﷺ، كما في قوله تعالى:
﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور].

وإشغال المؤمنين بذكر الله تعالى عوضًا عن الخوض في الباطل، يماثله قول الله تعالى لمن كانوا يتفاخرون بآبائهم وأحسابهم في مناسك الحج كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فذكرُ الله تعالى أنفع لكم، وأبعد عن إثارة الفتن بين المسلمين، فاذكروه سبحانه بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم.

قال ابن عباس ﷺ: لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذَرهم في حالة العذر، إلا ذِكْر الله تعالى، فلم يجعل الله له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذُر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، وأمرَهم به في جميع الأحوال، فقال سبحانه:
﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا غير محدد بعدد، ولا مقيَّدًا بحال من الأحوال، بل اذكروه في الصحة والمرض، والغنى والفقر، والليل والنهار، والبرِّ والبحر والجو،

والسر والعلانية، والمسلم لا ينسى ربه أبدًا![1] ومن الأحاديث الواردة في **فضل الذكر**:

١- ما جاء عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلْقوْا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم»**، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«ذكر الله ﷻ»**[2].

٢- وعن عبد الله بن بُسْر ﷺ قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: **«من طال عمره وحسن عمله»**، وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرت علينا فَمُرْني بأمر أتشبَّثُ به، قال: **«لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله»**[3].

٣- وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من قعد مقعدًا لم يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تعالى تِرَة، ومن قام مقامًا لم يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تِرَة، ومن اضطجع مضطجعًا لا يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تِرَة»**[4] أي: نقْص وتبِعة وحسرة وندامة.

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مثل الذي يذكُر ربه والذي لا يذكر**

---

(١) يُنظَر: الطبري (١٩/ ١٢٤).

(٢) «المسند» (٥/ ١٩٥) برقم (٢١٧٠٢، ٢١٧٠٤) يرفعه إلى أبي الدرداء، يرفعه إلى النبي ﷺ و«سنن الترمذي» برقم (٣٣٧٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٧٩٠) وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٨٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٥١٩) والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٢٤٤) ومالك في الموطأ (١/ ٢١١) والحديث مختلف في رفعه ووقفه.

(٣) «المسند» (٤/ ١٩٠) برقم (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وعن أبي بكرة في «المسند» برقم (٢٠٤١٥) وفيه: فأي الناس شر؟ قال (من طال عمره وساء عمله) وإسناده حسن وكذا (٢٠٥٠٠) (محققوه) وأخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٥) و(ابن ماجه) برقم (٣٧٩٣) من حديث معاوية بن صالح، قال الترمذي: حسن غريب، والبيهقي في الشعب (٥١٥).

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة (٤٨٥٥) والترمذي (٣٣٨٠) وابن حبان (٨٥٣) و«المسند» (٩٥٨٣) وهو حديث صحيح، والكبرى للنسائي (١٠١٦٤)، وفي عمل اليوم والليلة (٤٠٦) والطبراني في الدعاء (١٩٢٧).

ربه، مثل الحي والميت»[1].

٥- وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من قوم جلسوا مجلسًا لم يذكروا الله فيه، إلا رَأَوْا حسرة يوم القيامة»**[2].

٦- ومجالس الذكر رياض الجنة، كما روى ابن أبي الدنيا من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«يأيها الناس، ارْتعُوا في رياض الجنة»**، قلنا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: **«مجالس الذكر»** ثم قال: **«اغدوا ورُوحوا فاذكروا الله، فمن كان يحبُّ أن يعلَم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله يُنْزِل العبد منه حيث أنزله من نفسه»**.

وفي الحديث عن أنس ﷺ **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال حلق الذكر»**[3].

٧- ومجالس الذكر مجالس الملائكة، كما في الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوْا: هلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . . »**[4].

٨- وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله: مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**[5].

٩- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال **«مَنْ قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة، كانت له عَدْل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزًا**

(١) البخاري برقم (٦٤٠٧) ومسلم برقم (٧٧٩) بلفظ مختلف.

(٢) «المسند» (٢/ ٢٢٤) برقم (٧٠٩٣) قال محققوه: وهو حديث صحيح وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٨٠): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٩٢٠) والبيهقي في الشعب (٥٣٣).

(٣) الترمذي (٣٥١٠) وهو في المسند (١٢٥٢٣) عن أنس قال محققوه: إسناده ضعيف لضعف محمد بن ثابت البناني وقال الترمذي: حسن غريب، وأخرجه أبو يعلى (٣٤٣٢) والبيهقي في الشعب (٥٢٩) وغيرهم.

(٤) وهو حديث طويل في البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).

(٥) البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة، حُطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر» [١].

١٠- وعن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّم من أسلم يقول: **«اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني»**[٢].

والذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الله تعالى وصفاته والثناء عليه وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق بجلاله، كأن يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ويقول: سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

ويقول: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

وكذا ما فيه ثناء على الله تعالى بجميل أسمائه وصفاته وآلائه.

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وثانيهما: ذكر أوامر الله تعالى ونواهيه وأحكامه، بقراءة القرآن، وهو أفضل الذكر، ثم الأحاديث النبوية، والسيرة العطرة، والأحكام الفقهية، والتوحيد، والتفسير، والأخلاق، وما إلى ذلك.

وليس من الذكر التمايل يمنة ويسرة، مع الإتيان بألفاظ ليس فيها صريح لفظ الجلالة، ولا تمام كلمة التوحيد مما هو شعار لبعض المتصوفة.

والذكر أفضل من الدعاء، ولهذا فإن الدعاء يُبدأ بالذكر، أي: بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

والتسبيح: هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وهو من جملة الذكر، وقد خصَّه

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٩١) و«صحيح البخاري» (٣٢٩٣، ٦٤٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٩٧).

الله تعالى بالتنبيه عليه لبيان فضله وشرفه، كما خصَّ جبريل وميكائيل من بين الملائكة.

والمعنى: أَشْغِلُوا ألسنتكم -أيها المسلمون - بتنزيه الله تعالى في الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضة، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله تعالى، وفيه كف اللسان عن كل إثم، وإعانة على كل خير.

قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وفي هذا إشارة إلى المداومة على تنزيه الله تعالى والثناء عليه.

١- وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«من قال في يوم مئة مرة: سبحانه الله وبحمده؛ حُطَّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»**(١).

٢- وفي الحديث الآخر: عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه ﷺ قال: **«أيعجز أحدكم أن يكتسب في اليوم ألف حسنة»**؟ فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: **«يسبح مئة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويُحطُّ عنه ألف خطيئة»**(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ قال حين يُصبح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»**(٣).

جَزَاءُ الذَّاكِرِين عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

٤٣- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

---

(١) البخاري (٦٤٠٥) و(٢٤٦٦) ومسلم (٢٦٩١/٢٨) ورقم (٢٢٤٤) والنسائي في اليوم والليلة (١٠٦٦٢). والموطأ (٢/ ٩٢٩) وأبوداود (٢٥٥٠) وأحمد (٢/ ٣٧٥) برقم (٨٨٧٣).

(٢) مسلم (٢٦٩٨/٣٧) وأحمد (١/ ١٨٥) برقم (١٤٩٦، ١٦١٣) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، (محققوه) والترمذي (٣٤٦٣) والنسائي في اليوم والليلة (٩٩٨٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٩٤) وأبو يعلى (٨٢٩) والطبراني (١٧٠٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٩٣).

أي: وإذا ذكرتم الله بكرة وأصيلًا، فإن الله تعالى يجازيكم بما هو أفضل منه، وهو صلاته - جلَّ شأنُه - وصلاةُ الملائكة عليكم.

أي: يرحمكم ربكم على الدوام، ويثني عليكم، ويعتني بأمركم.

وتدعو لكم ملائكته من حملة العرش، وهم أفضل الملائكة، وكذا مَن حول العرش، فتطلب لكم الرحمة من الله تعالى وتستغفر لكم، فإن الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرع ودعاء.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ١٥٧].

قال أنس: لما أنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ قال أبو بكر: يارسول الله، ما خصَّك الله بشيء إلا وقد أشركنا فيه، فأنزل الله هذه الآية(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه ما لم يُحدث: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة»**(٢).

قال سُلَيْم بن عامر: جاء رجل إلى أبي أمامة ﷺ، فقال: إني رأيت في منامي أن الملائكة تصلي عليك كلما دخلْتَ، وكلما خرجْتَ، وكلما قُمتَ، وكلما جلسْتَ، قال: وأنتم لو شئتم صلَّت عليكم الملائكة، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾(٣).

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٩٨) وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٧١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٩) و«صحيح مسلم» (٢٧٣، ٢٧٤).

(٣) الحاكم (٢/ ٤١٨) والبيهقي (٧/ ٢٥).

أي: إن الله تعالى يصلي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه ذكرًا كثيرًا بكرة وأصيلًا.

وأفضل صيغة للصلاة على النبي ﷺ: هي الصلاة الإبراهيمية التي في نهاية التشهد؛ فقد سئل النبي ﷺ كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ قال: **«قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهمَّ بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»**[1].

وأبخل الناس من بخل بالصلاة على نبيِّ الهدى، وهو من الثلاثة الذين أبعدهم الله تعالى وطردهم من رحمته؛ لأنهم لم يصلوا على رسول الله ﷺ عند ذكر اسمه الشريف والثلاثة هم: العاق ومن لم يصل على النبي ومن أدرك رمضان ولم يغفر له، والصلاة على النبي ﷺ تبلُغه وتَصِلُ إليه من أي مكان من العالم، يستوي في ذلك القريب والبعيد.

وصيغ الصلاة على النبي ﷺ التي تجعلها بعض الطرق الصوفية علامة أو شعارًا يُميِّز كل طريقة عن غيرها، كلها صيغ مردودة ليس لها أصل في الشرع، من كتاب ولا سنة.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي: يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان، ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ويدخلكم في ساحة الرحمة.

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ جعل من صلاته وصلاة ملائكته عليهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والهدى والعلم والعمل، فإن هذا من أعظم النعم عليهم.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين لله تعالى، فيقبل منهم القليل من العمل، ويعفو عن الكثير من الذنوب.

ومن رحمة الله بهم في الدنيا هدايتهم إلى الصراط المستقيم، ومن رحمته بهم في الآخرة أنهم يأمنون من الفزع الأكبر، ويفوزون برضى ربهم، ورؤية وجهه الكريم، وحصول الأجر العظيم الذي لا يعرف كنهه إلا رب العالمين.

وفي «صحيح البخاري»: عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبْي قد أخذتْ صبيًا لها فألصقتْه إلى صدرها وأرضعتْه، فقال: **«أترون هذه تُلْقِي ولدها**

---

(١) من حديث كعب بن عُجرة في البخاري (٣٣٧٠، ٤٧٩٧) ومسلم (٤٠٦١).

في النار، وهي تقدر على ذلك»؟ قالوا: لا، قال: «فوالله، للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها»[١]. قال تعالى مبيِّنًا تحية أهل الإيمان في الجنة:

٤٤- ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

أي: وتحية المؤمنين في الجنة يوم لقاء رب العالمين، هي السلام، حيث تسلِّم عليهم الملائكة في الجنة، وعند قبض أرواحهم، ويسلِّم بعضهم على بعض وهم في دار النعيم، ويسلم عليهم ربهم:

١- أما سلام الله على المؤمنين في الجنة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس].

٢- وأما سلام الملائكة عليهم في الجنة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

٣- وبشرى الملائكة لهم عند خروج الروح، جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

٤- وأما سلام بعض المؤمنين على بعض في الجنة، فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس].

٥- روى البراء بن عازب ﷺ قال: يلْقَوْن مَلَك الموت لا يقبض روح مؤمن إلا يُسلِّم عليه[٢].

٦- وعن ابن مسعود ﷺ قال: إذا جاء مَلَك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربك يُقرئك السلام[٣] وقيل: تُسلِّم عليهم الملائكة حين يخرجون من قبورهم تبشرهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي: تحية المؤمنين من الله في الجنة يوم القيامة حين يلقونه سلام وأمان لهم من عذاب الله، وعند قبض أرواحهم، وهم على

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٩٩).

(٢) ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٦٧) والطبري (١٤/ ٢١٤) والحاكم (٢/ ٣٥٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٠٣).

(٣) الطبراني (١١٨٤١) والخطيب (٣/ ٣١٩).

الصراط، وعند الفزع الأكبر، وهم سالمون من الآفات والأمراض والأعراض، وقد أعدَّ الله لهم ثوابًا حسنًا هو الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تِسْعَةُ أَوصَافٍ لِلنَّبِيِّ الخَاتَمِ

٤٥، ٤٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ[١] إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

هذا هو النداء الثالث للنبي ﷺ في السورة، وهو يتناول أوصاف النبي الخاتم بعد النداء الأول في بدء السورة المتعلق بذات النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

وبعد النداء الثاني المتعلق بزوجات النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾.

وفي هذا النداء الثالث تسعة أوصاف للنبي ﷺ، هي كونه ﷺ:

١- شاهدًا. ٢- مبشرًا. ٣- نذيرًا. ٤- داعيًا إلى الله.

٥- سراجًا منيرًا. ٦- مبشرًا للمؤمنين. ٧- غير مطيع للكافرين والمنافقين.

٨- يتحمل أذاهم. ٩- متوكلًا على الله.

١- فالشاهد: هو النبي ﷺ شاهدا بصحة ما هو صحيح من الشرائع، وشاهدا ببطلان ما أُلصق بها أو نُسخ منها، فهو ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي الحديث: عن أنس ﷺ: يُسأل كل رسول هو بلَّغ؟ فيقول: نعم، فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته.

ومحمد ﷺ شاهد على أمته في حياته، وشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر في

---

(١) قرأ نافع بالهمزة بدل الياء في لفظ (النبي) وعليه، يكون مع ما بعدها همزتان في (النبي إنا): الأولى همزة مضمومة، وهي التي قرأ بها نافع، فوق ياء (النبي) والثانية همزة مكسورة، من (إنا) بعدها وذلك في (إنا أرسلناك) وكذا (إنا أحللنا)، في الآية التاسعة والأربعين، فتسهل الهمزة الثانية منهما وتبدل واوًا خالصة، وباقي القراء بتحقيق الهمزتين.

عرصات القيامة قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

فالنبي ﷺ يشهد على أمته، ويشهد على جميع الأمم أنَّ رسلهم قد بلَّغوهم رسالات ربهم، وأمته كذلك تشهد على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهو ﷺ شاهد على من استجاب لدعوته، وعلى من أعرض عنها، وعلى من استجاب لها ثم بدَّل.

في حديث الحوض: عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«لَيَرِدَنَّ عليَّ ناس من أصحابي الحوض، حتى إذا عرَفْتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**[1]. وفي رواية: **«فأقول: تبًّا وسُحْقًا لمن أحدث بعدي»**.

ومعنى أحدثوا: غيَّروا وبدَّلوا وارْتدوا، فقد جاء في بعض روايات الحديث:

«إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقْتهم».

فهو ﷺ شاهد لله بالوحدانية، وشاهد على الناس بأعمالهم، وشاهد بإبلاغ الرسالة لأمته، وشاهد على أن الرسل السابقين قد بلَّغوا رسالات ربهم إلى أممهم، وشاهد على من صدَّق أو كذَّب بالرسالة، فقوله ﷺ مقبول عند الله تعالى لهم وعليهم، كما يُقبل قول الشاهد العدْل في الحُكْم.

٢- وأرسلناك -يا رسولنا- **مبشرًا** للمؤمنين بالجنة، وعظيم الأجر والمثوبة، والرحمة والرضوان، والمبشَّر، هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا، بكل ثواب ديني ودنيوي، ولهم البشرى في الأخرة بالنعيم المقيم.

وقُدِّمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلَب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين من أمته، والبشرى هي الخبر السار.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٨٢) و«صحيح مسلم» (٢٣٠٤) ومسند أحمد (١٣٩٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد بن حميد (١٢١٣).

قال ابن عباس ﷺ: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ عليًا ومُعاذًا، فبعثهما إلى اليمن، وقال لهما: «**اذهبا فبشِّرا ولا تنفِّرا، ويسِّرا ولا تُعسِّرا، فإنه قد أنزل عليَّ...**» وقرأ الآية[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة الفتح: ٨].

٣- وأرسلناك -يا محمد- **نذيرًا** لمن كفر وكذَّب بعذاب النار، والإنذار هو الخبر السيئ، أو قُرْب حلوله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. كأن العذاب الشديد قد حلَّ بهم.

والمنذَرون، هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، يُنذَرون بالعقوبات الدنيوية، ويُنذرون بالعقاب الأليم يوم لقاء رب العالمين.

ويشمل لفظ النذير جميع ما في القرآن من النواهي والزواجر والعقوبات.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] -صعد ﷺ على الصفا، وكان مما قاله ﷺ: «**فإني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد**»[2].

ومنه النذير العريان، فالنذير: هو الذي يأتي بخبر حلول العدوِّ بديار القوم.

والعريان: هو الذي ينزع ثيابه ليشير من مكان مرتفع، فيراه مَن لا يسمع نداءه، فيعلم أنه قد حلَّ بهم ما يسوؤهم، وقد نُبِّئ ﷺ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأُرسل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

٤- وأرسلناك -أيها الرسول- **داعيًا** الخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته التي خُلقوا لأجلها، بادئًا بتعريفهم بربهم وتنزيههم عن كل ما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبادات، مع إخلاص الدعوة إلى الله، وكل ذلك، بأمر الله وإذنه، وليس من تلقاء نفسه.

والدعوة إلى الله تعالى تشمل أصول الاعتقاد والعبادة؛ وكذا كل ما يتعلق بصفات الدعاة من الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة عليهم.

والإذن من الله تعالى لنبيه بالدعوة، جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٨٩).

(٢) البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦) عن قَبِيصة بن مُخارق وزهير بن عمرو.

ومثله قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه].

وتفاصيل العقائد والعبادات، وما يبشر به وينذر، حفل به الكتاب والسنة.

٥- وأرسلناك -يا محمد- **سراجًا منيرًا** لمن استنار به، فأمْر النبي ﷺ ظاهر فيما جاء به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.

وقد شُبِّه النبي ﷺ بالسراج المنير؛ لأن الله تعالى جَلَّى به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجَلَّى ظلام الليل بالسراج المنير، ويُهتدى به، فرسالة النبي ﷺ كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لَبس فيها، ولا تترك للباطل شبهة إلا فضحتْها، كما يُضيء السراج الوقَّاد ظلمة المكان.

وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي ﷺ من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم.

ويشمل بيان ما أدخله أهل الكتاب على كتبهم من التحريف والتبديل والتغيير، فيُظهرها ويكشفها.

فهذه **خمسة أوصاف** للنبي ﷺ كلها ثناء وجمال، جاء ختامها بأنه ﷺ السراج الوضَّاء الذي يبدد الله به ظلمات الضلال، فقد عرّفنا الخير والشر، وطريق السعادة والشقاء.

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا[1].

(أ) فقوله: وحرزًا للأميين، يقابلها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

(ب) وقوله: ليس بفظ ولا غليظ، يقابله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» برقم(٢١٢٥) ورقم: (٤٨٣٨) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٧٣) و«المسند»: (١١/ ١٩٣) (٦٦٢٢) ويُنظَر: «العهد القديم» الإصحاح الثاني والأربعون، بتصرف قليل، و«سفر أشعيا».

﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(ج) وقوله: ولا صخَّاب في الأسواق، يقابله قوله تعالى على لسان لقمان: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

(د) وقوله: ولا يدفع السيئة بالسيئة، يقابله قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

(هـ) وقوله: ولكن يعفو ويصفح، يقابله قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

(و) وقوله: حتى يقيم به الملة العوجاء، يقابله قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(ز) وقوله: ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، يقابله قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن العرباض بن سارية ﷺ صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي مُنْجَدِلٌ في طينته، وسأخبركم عن ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت»، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْن، وأنَّ أم رسول الله ﷺ رأتْ حين وضعتْه نورًا أضاء لها قصور الشام، ثم تلا الآيتين**[1]. وجاء **الوصف السادس** في قوله تعالى:

٤٧- ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾

٦- وأمرناك -يا رسولنا- أن تبشر المؤمنين العاملين للصالحات، بصفة خاصة، بما أعده الله لهم في الدار الآخرة من الفضل الكبير، والثواب الجزيل في جنات النعيم، وذلك أنه بعد أن وصف الله رسوله بهذه الصفات السابقة، أتبع ذلك بتبشير المؤمنين برضى الله تعالى عنهم، ونهيه عن طاعة الكافرين.

أي: بشِّر أهل الإيمان بالثواب العظيم في روضات الجنات، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) «المستدرك» (٢/ ٤١٨) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، والحديث بدون ذكر الآية عند أحمد (٢٨/ ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٩٥) (١٧١٥٠، ١٧١٥١، ١٧١٦٣) قال محققوه: صحيح لغيره، دون (وكذلك أمهات النبيين ترين) وأخرجه ابن حبان (٦٤٠٤) والطبراني في الكبير (١٨/ ٦٢٩) وغيرهم.

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

والمبشّر به، هو الفضل الكبير، بالنصر في الدنيا، وهداية القلوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق، وحصول النعم، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

عن الربيع عن أنس ﷺ قال: لما نزلت: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]. نزل بعدها: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. فقالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ قال: **الفضل الكبير: الجنة**(١).

وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عند الله فضلًا كبيرًا وهو الجنة(٢).

هذا: ولما كان من البشر من يصدُّ الداعين إلى الله تعالى من أهل الكفر والنفاق، فقد نهى سبحانه عن طاعتهم وحذَّر منهم، وجاء ذلك في **التوجيه السابع** للنبي ﷺ:

٤٨- ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

٧- ونهيناك -أيها الرسول- عن طاعة الكافرين والمنافقين، أي: لا تطع قول كل كافر أو منافق، يصدك عن الدعوة إلى الله، واثبت على ما أنت عليه من الحق، وامض في طريق تبليغ الدعوة، لا تطعهم في المساهلة أو المداهنة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على وحي الله، وفي هذا نهي له ﷺ عن أن يسمع منهم ما كانوا يطلبونه منه على وجه النصيحة له وهم له غاشُّون، وهذا درس لنا في التعامل مع غير المسلمين لنكون على حذر من أمرنا. وعدم طاعتهم لا يقتضي أذاهم، ولذا: قال تعالى:

٨- ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ فإن عدم إيذائهم يدعو إلى جلْبهم، وقبولهم الدعوة، وكف أذاهم، فأعرض عن أقوالهم وأفعالهم المؤذية، كي يقتدي بك الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، بأن يكون همهم الأكبر وشغلهم الشاغل، هو دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى،

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٩٠).

ولا يثنيهم عن ذلك ما يلاقونه من أذى، فلا يمنعك هذا من تبليغ الرسالة، ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى.

٩- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به في كل أمورك واعتمد عليه بعد بذل الوسائل والأسباب ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فإنه يكفيك ما أهمك من أمور الدنيا والآخرة

عِدَّةُ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا

٤٩- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ[١] فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ[٢] مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن طلاق زيد لزينب ﷺ، تحدثت هنا عن طلاق المرأة التي عُقد قرانها ولم يتم الدخول بها، وهذا تخصيص لعموم آيات العدة في سورة البقرة [٢٢٨-٢٣٤] التي نزلت قبل هذه السورة، وكذا آية سورة الطلاق [٤] التي نزلت بعدها.

والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا عقدتم على النساء ولم تدخلوا بهن، ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وقد ذكر البخاري منهم اثنين وعشرين، ما بين: صحابي وتابعي وإمام، وهو أن المرأة إذا طُلقت قبل الدخول بها فلا عدة عليها، فتذهب وتتزوج من فورها مَنْ تشاء.

ولا يُستثنى من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها الذي عَقد عليها ولم يدخل بها، فإنها تعتدُّ عليه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن قد دخل بها، وهذا بالإجماع أيضًا، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وهذا من باب الحُزْن والحداد على من ارتبطت به في عقد النكاح، وليس من باب براءة الرحم.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (تُماسُّوهن) مع المد اللازم، والباقون (تَمَسُّوهن).

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (عليهن) وصلًا ووقفًا، ووقف عليها بهاء السكت بخلف عنه.

والكتابيات يدخلْن في هذا الحكم تحت المؤمنات، وقد خصَّ المؤمنات بالذكر لأنهن الأغلب.

ويشبه هذا الحكم مَن راجع المرأة في عدتها ثم طلقها قبل أن يمسها، فإنه لا يلزمها عدة في المستقبل؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها.

كما أن المطلَّقة بعد الدخول بها، عليها العدة إجماعًا، فتحيض ثلاث مرات، أو ثلاثة أشهر، إن كانت لم تبلغ سن الحيض، أو كان الحيض قد انقطع عنها، وتكون العدة بوضع الحمل إن كانت المطلقة حاملًا.

والنكاح: هو العقد الذي يكون بين الرجل والمرأة، لتكون زوجًا له بواسطة وليها، فيُعبَّر عن العقد بالنكاح، لأنه طريق إليه، وهو في الحقيقة: الدخول والوطء والجماع.

والمسُّ: هنا هو الجماع بالإجماع.

والعدة: هي المدة التي تنتظر فيها المرأة دون زواج، لمعرفة براءة رحمها من الحمل.

ويدل على جواز الطلاق قبل المسيس قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦] والمسيس هو الوطء.

واتفق الفقهاء على أن الطلاق قبل النكاح لا يقع أخذًا من الآية ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ فقد رتب الطلاق على النكاح.

وبحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «**لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك**»[1].

وحديث المسور بن مخرمة: «**لا طلاق قبل نكاح**»[2].

(١) جزء من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في «المسند» (٢/ ١٨٩) برقم (٦٧٦٩) (٦٧٨٠) وإسناده حسن و«سنن الترمذي» برقم (١١٨١) وقال: حديث حسن. وأبي داود برقم (٢١٩١) وابن ماجه برقم (٢٠٤٧) وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ١٧٣) وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٤٠٢)، وهو عند عبدالرزاق (١١٤٥٦) والطيالسي (٢٢٦٥).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٠٤٨) رُوِي موقوفًا في البيهقي: (٧/ ٣٢٠) وفي رفعه ضعف في السند؛ لضعف جويبر بن سعيد البجلي، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٧) حسن صحيح، وصححه مرفوعًا في إرواء الغليل (٧/ ١٥٢) وعن علي بن أبي طالب في صحيح ابن ماجه (١٦٦٨).

واختلفوا فيمن علَّق الطلاق قبل الدخول كمن قال: إن تزوجتُ فلانة فهي طالق، فقال بوقوعه الحنفية والمالكية، ولا يقع عند الشافعية والحنابلة.

وجمهور العلماء (المالكية والحنفية والحنابلة) على أن الخلوة الصحيحة بالمرأة المخطوبة أو المعقود عليها، توجب المهر كاملًا، وتوجب العدة، وذهب الشافعية إلى أن الخلوة لا توجب ما يوجبه الجماع من العدة والمهر، ولكلٍّ منهما دليله.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسها، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها، ولها أن تتزوج من شاءت، فإن كان قد سَمَّى لها صداقًا فليس لها إلا النصف، فإن لم يكن سَمَّى لها صداقًا متَّعها على قدر عُسْره ويسره، وهو السراح الجميل[(١)].

وعن حُسيْن بن ثابت قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين فسأله عن رجل قال: إن تزوجتُ فلانة فهي طالق، قال: ليس بشيء، بدأ الله بالنكاح قبل الطلاق فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾[(٢)].

ويؤخذ من هذا أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلق قبل أن ينكحها، أو علّق طلاقها على نكاحها، لم يقع.

وعن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس ﷺ عن الرجل يقول: إن تزوَّجتُ فلانة فهي طالق، قال: ليس بشيء، إنما الطلاق لمن يملك[(٣)].

وكذلك لو قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، أو إن تزوجتُ فلانة فهي طالق؛ فليس كل هذا بشيء.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا طلاق فيما لا تملك، ولا بيع فيما لا تملك، ولا عتق فيما لا تملك، ولا وفاء نذر فيما لا تملك، ولا**

(١) الطبري (١٩/ ١٢٨).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٧٩).

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٧٩). وانظر الحديثين السابقين.

نذر إلا فيما ابتُغي به وجه الله تعالى، ومن حلف على معصية فلا يمين له، ومن حلف على قطيعة رحم فلا يمين له»[١].

متعة المطلقة قبل الدخول:

ثم إن المطلقة قبل الدخول بها، لها حق المتعة، كما قال تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن من أموالكم مُتْعة يتمتَّعن بها بحسب الوُسْع، جبرًا لخواطرهن لأجل فراقهن، وكون المتعة على قدر وُسع المطلِّق أخْذًا من قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وفي البخاري: عن سهل بن سعد وأبي أُسَيد ﷺ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أُدخلت عليه بَسَطَ يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يُجَهِّزها ويكسوها ثوبين رَزاقِيَّتين[٢].

فالمتعة مستحبة لمن طُلِّقت قبل الدخول بها، ولها نصف المهر، لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وبعد المتعة يُطْلِق الرجل سراحها ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: خلوا سبيلهن مع الستر الجميل دون أذى أو ضرر، فالسراح الجميل هو الكلمة الطيبة دون أذى بالقول أو الفعل ولا منْع واجب لها.

أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النِّسَاءِ أَحَلَّهُنَّ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ

٥٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ[٣] إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً

---

(١) عبد الرزاق (١١٤٥٦) والنسائي (٣٨٠١) وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٩١٦، ١٩١٨). و في مسند أحمد (٦٧٨٠) بنحوه.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٦، ٥٢٥٧).

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبي) فتجتمع همزتان مع (إنا) فيكون له في الهمزة الثانية الإبدال واوًا، والباقون بياء مشددة.

مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

هذا هو النداء الرابع للنبي ﷺ في السورة، وهو في بيان ما أحلَّ الله تعالى له من الزوجات والإماء، وفيه إجابة للمنافقين والمرجفين الذين استنكروا زواجه ﷺ من زينب ﵂.

وإجابة للنسوة اللاتي استنكرْن على المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ببيان مشروعية ذلك له ﷺ على وجه الخصوص، وقد أحل الله لنبيه ﷺ صنوفًا من النساء أربعة:

١- صنفًا يُدفع له المهر، وهنَّ **الممهورات**.

٢- وصنفًا يُتمتع به بملك اليمين، وهنَّ **المملوكات**.

٣- وصنفًا من أقاربه، من نساء قريش وبني زُهرة، وهنَّ **المهاجرات**.

٤- وصنفًا رابعًا ينكِحُه بدون مهر، وهنَّ **الواهبات أنفسهن**.

وفي ذلك امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ، وتذكير له بنعم الله تعالى عليه.

وقد خصَّ الله سبحانه رسوله ﷺ بخصائص لم يشاركه فيها أحد، تيسيرًا له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة، وتأليف قلوب العشائر، وجمع القبائل، ومن ذلك اختصاصه ﷺ بأكثر من أربع، ونكاح الواهبات أنفسهن بدون مهر.

وقد اشتملت هذه الآية على **الأصناف الأربعة السابق ذكرها**، والصنف الرابع فقط هو الخاص بالنبي ﷺ، والثلاثة قبله مشتركة، وبيان ذلك فيما يأتي:

الصِّنْفُ الأَوَّلُ: الْمَمْهُورَاتِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾

أي: أبحنا لك -أيها الرسول - أن تتزوج كل امرأة أعطيتها مهرها، وهذا أمر غير خاص بالنبي ﷺ، وإنما يشترك معه فيه جميع المؤمنين إلى قيام الساعة.

وسُمي المهر أجرًا؛ لأنه يقابل الاستمتاع بما يحل الاستمتاع به من الزوجة.

وهذا الصنف منه القريبات القرشيات، وهن: عائشة، وحفصة، وسوْدة، وأم سلمة، وأم حبيبة، ومنهن غير القريبات، وكان مَهْره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصف الأوقية، إلا أم حبيبة فقد أمهرها النجاشي أربع مئة دينار.

الصِّنْفُ الثَّانِي: مِلْكُ الْيَمِينِ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾

من السبْي في الغزوات أي: وأبحنا لك ما ملكت يمينك من الإماء، مما أنعم الله به عليك عن طريق الفيء، كصفية وجُويْرية، وجاء التقييد لملك اليمين، أن يمتلكهن عن طريق الغنائم في قوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ لأنهن أفضل من اللاتي يُملَكْن بالشراء، فقد بُذل في إحرازهن جهد ومشقة في الحرب بالانتصار على الكفار.

وكان مهر (صفية بنت حُيَيٍّ ﵂) أن أعتقها النبي ﷺ من الأسْر، فمهرها عتقها، وهي من بني إسرائيل.

أما (جُويرية ﵂) فقد كاتبها ابن قيس على أن تدفع له أقساطًا من المال، ثم يعتقها في النهاية، فأدى النبي ﷺ ما عليها، وكان هذا مهرها وتزوَّجها عليه الصلاة والسلام، وهي من بني المصطلق.

ومَلَك ﷺ (ريحانة بنت شمعون النضرية)، من سبايا بني قريظة، (ومارية القبطية) أم ابنه إبراهيم التي أهداها له المقوقس ملك مصر.

وهذا الصنف أيضًا غير خاص بالنبي ﷺ وإنما يشترك معه غيره من جميع المؤمنين.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: قَرِيبَاتٌ مِنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ:

من جهة الأب أو الأم، مؤمنات مهاجرات ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: وأبحنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات، بشرط الهجرة إلى المدينة، ولا يشترط فيها مصاحبة النبي ﷺ، وإنما المراد: الاشتراك في الهجرة مطلقًا، سواء أكان ذلك قبل هجرة النبي ﷺ أم بعدها، أم معه ﷺ، والهجرة لا تكون إلا بعد إيمان، ويكون ذلك بعقد الزواج المعروف.

عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرتُ إليه فعذرني، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فلم أكن أَحل له؛ لأني لم أهاجر، وكنت من الطلقاء[1].

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن لا أعرفه إلا من هذا الوجه عن السدي، وهو برقم (٣٢١٤) وانظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٥) وابن سعد (٨/ ١٥٣) وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم (٦٣٠).

وكانت أم هانئ قد مات زوجها وترك صغارًا، فلما أدرك بنوها، عرضتْ نفسها على النبي ﷺ، فقال ﷺ: «**أما الآن فلا**»[1].

وليس المقصود خصوص هذه القرابة، وإنما ذُكِرْن للتنويه بمنزلة القرابة.

أما شرط الهجرة فقد انقضى بفتح مكة.

وبنات عم النبي ﷺ هن بنات إخوة أبيه، مثل: بنات العباس، وبنات أبي طالب، وبنات أبي لهب، أما بنات حمزة فإنهن بنات أخيه من الرضاعة لا يحللْن له.

أما بنات عماته: فهن بنات عبد المطلب، مثل زينب بنت جحش، أمها، أميمة بنت عبد المطلب.

وبنات خاله: هن بنات عبد مناف بن زُهرة، مثل عبْد يغوث بن وهب، أخو آمنة، ولم يذكر له بنات.

وأما بنات خالته: فربْعة بنت وهب.

وبنات العم والعمات من قريش، وبنات الخال والخالات من بني زهرة.

ويؤخذ من هذا أن من عدا هؤلاء من الأقارب غير محللات، لأن الآية حصرت المحللات وما عداهن من الأقارب يدخل في الأصول أو الفروع اللاتي لا يحل الزواج بهن، كما جاء ذلك مفصلًا في آية سورة النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ . .﴾ [الآية.

وهذه الأصناف الثلاثة: وهي الزواج بالصداق، وملك اليمين، وزواج الأقارب المذكورين، تشمل جميع الأمة، ولا تخص النبي ﷺ وحده.

الصِّنْفُ الرَّابِعُ: الْوَاهِبَاتُ:

وهذا الصنف خاص بالنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأبحنا لك امرأة مؤمنة، منحت نفسها لك -أيها النبي- من غير مهر، حبًا في الله ورسوله، وتقربًا لك -أيها الرسول- إن كنت تريد الزواج منها، خالصة لك، وليس لغيرك أن يتزوج بالهبة، بل يجب دفع مهر المثل.

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٥٣).

أما غير المؤمنة، فلا تحل لك مطلقًا، وإن وهبت نفسها لك، وخصوصية النبي ﷺ في ترك المهر لا في نفس النكاح.

وهل كان عند النبي ﷺ امرأة موهُوبة أم لا؟

١- قال ابن عباس ومجاهد: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها له، ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين، وما ذُكر في الآية على سبيل الفرض والتقدير.

٢- وقال آخرون: كانت عنده موهوبة وهي (زينب بنت خزامة الأنصارية الهلالية) المعروفة بأم المساكين، ولم تلبث عنده إلا قليلًا، ثم تُوفِّيَت سنة ثلاث من الهجرة.

وتزوج أيضًا بطريق الهبة (ميمونة بنت الحارث الهلالية).

وهناك ثلاث نساء وهبْن أنفسهن للنبي ﷺ ولم يثبت أنه تزوجهن، وإنما زوَّجهن غيره، وهن: أم شريك بنت جابر الأسدية، أو العامرية، وخولة بنت حكيم السَّلمية، وليلى بنت الحطيم.

ومعنى وهبت نفسها للنبي: أنها ملَّكته نفسها تمليكًا شبيهًا بِمِلْك اليمين بدون مهر، أما **الأحاديث والآثار الواردة في ذلك فمنها:**

١- ما رواه سهل بن سعد الساعدي ﷺ: أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة، فقالت: يا رسول الله، إني وهبت من نفسي، فقامت طويلًا، فقال رجل: زوِّجْنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: **«هل عندك من شيء تُصْدِقُها إياه»**؟ قال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال ﷺ: **«إن أعطيتَها إياه جلست لا إزار لك، فالتمس شيئًا»** فقال: ما أجد شيئًا، فقال: **«التمس ولو خاتَمًا من حديد»** فلم يجد شيئًا، فقال له النبي ﷺ: **«هل معك من القرآن شيء»**؟ قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها، فقال له رسول الله ﷺ: **«زوَّجناكها بما معك من القرآن»**[1].

٢- وروى البخاري وغيره: أن ثابتًا البناني قال: كنت عند أنس وعنده ابنة له، قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله، ألك فيَّ

(١) «المسند» (٢٢٧٩٨، ٢٢٨٣٢، ٢٢٨٥٠) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٣٥) وهذا لفظه، وانظر: (٢٣١٠) و«صحيح مسلم» من طريق آخر برقم (١٤٢٥) بنحوه و«الموطأ» (٢/٥٢٦) وعبد الرزاق (١٢٢٧٤) وأبو داود (٢١١١) والترمذي (١١١٤) والنسائي (٣٣٥٩).

حاجة؟ فقالت بنتُ أنس: ما أقل حياءها!! واسوأتاه، واسوأتاه، قال: **«هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها»**(١).

٣- وعن عائشة رضي الله ﷺ قالت: كنت أغار من اللاتي وهبْنَ أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك(٢).

٤- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده أن النبي ﷺ تزوج ثلاث عشرة امرأة:

ست من قريش، هن: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسوْدة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي،وزينب أم المساكين -وامرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء- وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية.

والسبيَّتان: صفية بنت حيُيِّ بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية(٣).

٥- وأخرج الطبري بسنده،عن محمد بن أبي موسى، عن زياد، قال لأُبَيِّ بن كعب: هل كان للنبي ﷺ لو ماتت أزواجه أن يتزوج؟ قال: ما كان يحرم عليه ذلك، فقرأتُ عليه هذه الآية، فقال: أحلَّ الله له ضربًا من النساء، وحرَّم عليه ما سواهن، أحلَّ له كل امرأة أتى أجرها، وما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه، وبنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، وكل امرأة وهبت نفسها له إن أراد أن يستنكحها خالصة له من دون المؤمنين(٤).

٦- وأخرج الطبري بسند حسن، عن قتادة قال: ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل، بغير أمر ولي ولا مهر، إلا للنبي، كانت له خالصة من دون الناس، ويزعمون أنها نزلت

---

(١) «المسند» (٣/ ٢٦٨) برقم (١٣٨٣٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«صحيح البخاري» برقم (٥١٢٠، ٦١٢٣). وأخرجه ابن ماجه (٢٠٠١) والنسائي في الكبرى (١١٤١٣) وأبو يعلى (٣٤٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٨، ٥١١٣) ومسلم (١٤٦٤).

(٣) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٧٠) من طريق وكيع بلفظ: تزوج رسول الله (امرأة من بني الجون فطلقها، وهي التي استعاذت منه.

(٤) «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩) وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (١١٧١) وحسنه المحقق.

في ميمونة بنت الحارث أنها التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

٧- وأخرج ابن سعد، عن ابن أبي عون، أن ليلى بنت الحطيم، وهبت نفسها للنبي ﷺ، ووهبْن نساءٌ أنفسهن، فلم نسمع أن النبيَّ ﷺ قبل منهن أحدًا[١].

أي: لم يدخل بواحدة منهن، وإن كان مباحًا له ذلك؛ لأنه راجع إلى إرادته، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾[٢].

وقال قتادة: كان مما فرض الله عليهم ألَّا تُزوَّج امرأة إلا بوليٍّ وصداق عند شاهديْ عدْل، ولا يحل لهم من النساء إلا أربع، وما ملكت أيمانهم.

هذا ما أحللناه لك يا محمد بصفة خاصة، وأما أمتك فقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم، بألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، وألا يتجاوزوها مع شروط العقد، وسائر الحقوق، من المهر، والولي، والشهود، والنفقة، وما أبحنا لهم من ملك اليمين.

أما أنت -أيها الرسول- فقد رخَّصنا لك ما سبق ذكره، ووسَّعنا عليك ما لم نوسِّع على غيرك؛ لئلا يضيق صدرك في نكاح من نكحْتَ من هؤلاء الأصناف ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا تعليل لما شرعه الله تعالى لنبيه خاصة، وهو يعود إلى أول الآية وما في ثناياها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لذنوب عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة عليهم ورفع الحرج عنهم، ولا يزال سبحانه واسع الرحمة والمغفرة بعباده.

تَخْيِيرُ الرَّسُولِ ﷺ فِي القِسْمَةِ بَيْنَ زَوجَاتِهِ

٥١- ﴿۞ تُرْجِى[٣] مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ[٤] إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى

---

(١) ابن سعد (٨/ ١٥١) والطبري (١٩/ ١٣٤).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٥٢٦).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة ويعقوب بهمزة مرفوعة في (ترجي)، والباقون بياء مدية ساكنة.

(٤) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة في (تؤوي) واوًا مظهرة وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، ويزيد وجهًا آخر، هو إبدال الهمزة واوًا وإدغامها في الواو بعدها.

قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

وكما خيَّر الله - سبحانه - رسوله ﷺ في أمر النفقة، بأن يُمسك من زوجاته مَنِ اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ويفارق من اختارت الدنيا، فكان منهن أن اخترْن رسول الله ﷺ على هذا الشرط الذي هو من خصائص النبي ﷺ.

كذلك فإن الله تعالى خيَّر رسوله في أن يسوي أوْلا يُسوِّي بين نسائه في النفقة والمبيت بلا حرج عليه، بعد أن كانت القسمة بينهن واجبة عليه.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: تؤخر من تشاء من نسائك في القسْم وفي المبيت، فلا تؤويها إليك ولا تبيت عندها، وتضم إليك من تشاء، فتؤويها وتبيت عندها، وذلك أن التسوية بينهن في القسمة كانت واجبة عليه ﷺ، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه هذا الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن، سواء قسم لهن أم لم يقْسم، أو قَسَم لبعض دون بعض.

ومع هذا التخيير فإن النبي ﷺ سوَّى بينهن في القسمة، ولم يُخرج واحدة منهن عن القسمة، إلا سوْدة ﵂ عن رغبة منها، فعندما عرض عليها الطلاق، فضَّلتْ أن تبقى في عصمة النبي ﷺ قائلة: لا تطلقني حتى أُحشر في زمرة نسائك، وتنازلتْ عن ليلتها لعائشة ﵂، فكانت عائشة ﵂ تأخذ ليلتها وليلة سَوْدة.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما جاء في البخاري وغيره:

عن معاذة عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا، بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنتُ أقول: إن كان ذاك إليَّ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا[1].

ففي الآية والحديث أنَّ حُكْمُ التخيير عامٌّ في الواهبات أنفسهن للنبي ﷺ وفي غيرهن، وأن النبي ﷺ مخير في القسم بينهن، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم.

ولما قسم لهن النبي ﷺ اختيارًا فَرِحْنَ بذلك واستبشرْنَ، وحملْن ذلك جميلا، واعترفْن بمنّته عليهن في قسْمه وتسويته بينهنَّ، وإنصافه لهنَّ، وعدْلِه فيهن.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٩) و«صحيح مسلم» (١٤٧٦).

وعن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «**اللهم إن هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١). زاد أبو يعلى: يعني القلب.

وقبل نزول هذه الآية كانت سوْدة ﷺ قد أسقطت حقها في المبيت، وتنازلتْ عنه لعائشة ﷺ، ولما نزلت هذه الآية صار النبي ﷺ مخيَّرًا في القسْم بين زوجاته.

قال الشوكاني: والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله ﷺ كي يصنع مع زوجاته ما شاء، من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضمٍّ، مَنْ أَرْجَأَ، وإرجاء من ضَمَّ إليه، وما شاء في أمرِهِنَّ فَعَل، توسعة عليه ونفيًا للحرج عنه(٢).

وعلى هذا **فالإرجاء**: هو التأخير إلى وقت مستقبل.

والإيواء: هو ضم الشيء وجعْله في مكانه.

وهذا الإرجاء وذلك الإيواء، يتعلقان بقسمة النبي ﷺ بين زوجاته، فقد وسَّع الله عليه فأباح له أن يُسقط حق بعض نسائه في المبيت معهن، بحيث يصير هذا الحق ملكًا له يتصرف فيه كيف يشاء، بخلاف بقية المسلمين.

قال الزهري: ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرْجأ أحدًا من نسائه، بل آواهن كلهن.

وما ورد من أنه ﷺ آوى بعضهن وأرجأ بعضهن فهو ضعيف.(٣)

ولم يتزوج النبي ﷺ واحدة بعد نزول هذه الآية.

الرأي الآخر في معنى الآية:

وإرجاء الموهوبات: عدم قبول نكاح الواهبة، **وإيواؤهن**: قبول هبتهن.

---

(١) «المسند» (٦/ ١٤٤) برقم (٢٥١١١) بإسناد رجاله ثقات (محققوه) وأبو داود برقم (٢١٣٤) والترمذي برقم (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٣) وفي الكبرى (٨٨٩١) وابن ماجه برقم (١٩٧١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٨٦) وابن حبان (٤٢٠٥).

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٢٨٧).

(٣) انظر: ما جاء عن أبي رُزيْن العُقيْلي ومجاهد والشعبي، من أنه ﷺ أرجأ ميمونة وسودة وجُويرية وأم حبيبة وصفية، فكان يقسم لهن ما شاء دون مساواة مع الأربع الباقيات، فيما أخرجه ابن سعد (٨/ ١٩٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٤) وابن جرير (١٩/ ١٤٠).

وقد قيل إن هذه الآية تخص من وهبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ، حيث خيّره ربه بأن يقبل منهن ما يشاء ويترك ما يشاء.

قلت: وهذا القول يتفق مع آخر الآية السابقة، وفيها ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ الآية ، ويرشحه أن النبي ﷺ لم يرجىء أحدًا من نسائه كما قال الزهري.

ولم يُحفظ عن النبي ﷺ أنه آثر إحدى زوجاته بليلة سوى ليلة **سوْدة** التي وهبتْها لعائشة، واستمر الأمر على ذلك إلى وفاته ﷺ.

وكان يطوف كل ليلة على بيوت أزواجه في مرضه الذي تُوُفِّيَ فيه، من بداية شكواه ﷺ وهو في بيت ميمونة ﵂ إلى أن جاءت ليلة عائشة ﵂، فأذِنت له أزواجُه أن يُمرَّض في بيتها رفقًا به ﷺ، كما جاء في الصحيح.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا التخيير لا يوجب الاستمرار، بل أذن الله تعالى له أن يرجع إلى من يعزلها منهن، فإن أراد العودة إليها، فلا جناح عليه من إيوائها ثانية. قال تعالى:

﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أي: إنه لا يتعين عليك هذا الأمر، وإذا أحببت أن تؤوي إليك امرأة كنتَ قد أخَّرتها وعزلْتها عن القسمة، فلا إثم عليك في ذلك، فلك أن تؤخر من تشاء في نَوْبتها، وتضم إليك من تشاء في غير نوبتها، وترُدُّ إلى فراشك من عزلت منهن، وهذا تفضيل للنبي ﷺ على سائر الرجال.

وهذا التخيير أقرب إلى أن ترتاح قلوبهن، وتفرح ولا تحزن، ويرضيْنَ كُلهن بما قسم الله لهن. ثم بيّن سبحانه الحكمة في هذه التوسعة، وأن الأمر بيد النبي ﷺ، وأن ما جاء إليهن منه ﷺ هو تبرع منه وليس واجبًا عليه، وأن هذا شَرْع وحُكْم من الله تعالى يجب عليهن قبوله.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي شرعه الله لكُنَّ ﴿أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ فإنهن إذا علِمْنَ أن هذا أَمْرُ الله تعالى فيهن طابت أنفسهن، فلا يَشعُرْن بالحزن والألم؛ لأن ذلك جاء من طريق الوحي وليس باجتهاد منك، وهنَّ يعلْمن أنك لم تترك واجبًا ولم تفرط في حق لازم عليك.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ من حب النساء والميل إلى بعضهن دون بعض.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في القلوب، يعلم ما تُظهرون وما تُخفون.

﴿حَلِيمًا﴾ يضع الأمور في نصابها، ولا يعاجل بالعقوبة، بل يؤخر ويمهل.

قَصْرُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَزْوَاجِهِ التِّسْعِ

٥٢- ﴿لَا يَحِلُّ(١) لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ(٢) بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

وبعد أن كرم الله تعالى نبيه في الآية السابقة، كرم أزواجه في هذه الآية؛ لأنهن اخترن الله ورسوله، فأكرمهن الله تعالى بأن قصرهُ ﷺ عليهن وحرَّم طلاقهن، رضي الله عنهن.

والمعنى: لا يباح لك - أيها الرسول - النساء من بعدِ هؤلاء الزوجات التسع اللاتي في عصمتك، ولا يحل لك أن تُطلِّق واحدة منهن وتتزوج مكانها أخرى في المستقبل ولو أعجبك جمالها، وبهذا أمَّنَهن الله من الطلاق ومن الضرائر، لأن الله تعالى قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلا يكون بينه وبينهن فرقة.

قال زيد بن أسلم: كانوا في الجاهلية يقول الرجل للرجل، وله امرأة جميلة: تبادل امرأتي بامرأتِك، وأزيدَكَ إلى ما ملكت يمينُك(٣).

فهؤلاء النسوة قد اخترنَك على زينة الدنيا، ورضينَ الحياة معك بطيب نفس مع شظف العيش.

وقد اشتملت هذه الآية على حُرمة الزواج بغير التسع اللاتي هُنَّ في عصمته ﷺ عند نزول الآية، كما اشتملت على حرمة تطليق واحدة منهن للزواج بأخرى بدلًا منها.

والنساء التسع اللاتي حرَّم الله على نبيه الزيادة عليهن والاستبدال بهنَّ، هُنَّ: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسَوْدة، وأم سلمة، وصفيَّة، وميمونة، وجُويرية، وزينب بنت جحش.

ولعل المراد بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: غير هؤلاء النسوة التسع، وجاء استعمال ﴿بَعْدُ﴾ بمعنى غير، في اللغة كثير، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: فمن يهديه غير الله.

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بتاء التأنيث؛ في (لايحل) لأن الفاعل حقيقي التأنيث، والباقون بياء التذكير، للفصل بين الفعل والفاعل.

(٢) قرأ البزي بخلْف عنه بتشديد التاء وصلًا من (تبدل)، والباقون بعدم التشديد، وهو الوجه الثاني للبزي.

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٢/ ١٠٤)

وحمل ﴿بَعْدُ﴾ على المعنى المعروف، وهو الشيء المتأخر، أي: من بعد ما أحللنا لك الزواج بالأصناف الأربعة المذكورة في آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ يقتضي أن تكون آية ﴿لَا يَحِلُّ﴾ ناسخة لها.

والقول بعدم النسخ أولى من القول به؛ لأن الآية نزلت مع السورة قبل وفاة النبي ﷺ بأكثر من خمس سنوات، وعليه فالإباحة في الآية إباحة تكريم للنبي ﷺ[1].

وقال قتادة: لما خيَّرهن الله ورسوله والدار الآخرة قصره عليهن، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله.

فلم يُبح الله له أن يُطلِّق ولا واحدة منهن، ولم يُبح له تعويض امرأة قديمة بحديثة.

ثم استثنى الله - سبحانه - من عدم الزيادة على الزوجات، وعدم استبدالهن بغيرهن: ملك اليمين من الجواري، والإماء اللاتي يملكُهُن ﷺ عن طريق السبْي في الحروب، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فحلال لك منهن ما شئت.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ لا يغيب عنه شيء، فهو مطَّلع على جميع أحوالكم فاحذروه، وفي هذا تحذير من مجاوزة حدود الله تعالى، وتخطِّي حلاله وحرامه.

وجاء في روايات ضعيفة أن الله تعالى أحل لرسوله قبل موته أن يتزوج من شاء:

١- قالت عائشة ﵂: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحل له النساء[2].

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢١/٧٨).

(٢) «سنن النسائي» (٦/٥٦) برقم (٣٢١٦) وصحيح النسائي (٣٠٠٣ و ٣٠٠٤) والترمذي (٥/٣٥٦) والدارمي (٢/١٥٤) و«المستدرك» (٢/٤٣٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الترمذي، وصحح إسناده الألباني في «صحيح الترمذي أيضًا» (٢٥٦٨) وهو في «المسند» (٢٤١٣٧) حديث ضعيف، واختلف فيه على عطاء بن أبي رباح، ولذا فقد ضعفه محققو المسند، ونقلوا قول أبي بكر بن العربي في أحكام القرآن (٣/١٥٧١): هو حديث واهٍ ومتعلّق ضعيف، وانظر في المسند (٢٥٤٦٧) و (٢٥٦٥٢) وهو في مصنف عبدالرزاق (١٤٠٠١). و«الكبرى» للنسائي (٥٢٩٤، ٥٢٩٥).

هذا: ويجمع بين قول الألباني وقول ابن العربي ومحققي المسند: بأن صحة الإسناد لا يلزم منها صحة المتن والمعنى، فقد يكون الحديث صحيح الإسناد ضعيف المتن، والعكس صحيح والله أعلم.

٢- وفي لفظ آخر: حتى أُحِلَّ له أن يتزوج من النساء ما شاء [١]

٣- وعن أم سلمة قالت: لم يمتْ رسول الله ﷺ حتى أَحَلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم.[٢] وكذلك قالت عائشة[٣]. وهذه الأحاديث الثلاثة ضعيفة وإن صح سند بعضها، فصحة السند لا تعني صحة الحديث.

آيَةُ الْحِجَابِ وَآدَابُ الضِّيَافَةِ

٥٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ[٤] إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ[٥] مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا بشرطين، هما: الإذن لهم بالدخول، وأن يكون الجلوس بمقدار الحاجة، والسبب أن هذا كان يؤذي النبي ﷺ، فيستحِي أن يقول لكم: أُخرجوا، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، هذا أدب الدخول في بيوته ﷺ.

أما الأدب في خطاب زوجاته، فإذا أردتم أن تسألوهن شيئًا كالأواني ونحوها، فليكن بينكم وبينهن ساتر يستر النظر عنهن، والحكمة في هذا الحجاب، أنه أبعد عن الريبة وعن أسباب الشر، وأقرب إلى طهارة القلب.

---

(١) المسند (٢٥٦٥٢) قال محققوه: حديث ضعيف، وهو في مصنف عبدالرزاق (١٤٠٠١) وتفسير الطبري (٢٢/ ٣٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٢٣).

(٢) ابن سعد (٨/ ١٩٤) وابن أبي حاتم.

(٣) كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٦٨) وعبد الرزاق في «المصنف» (٤٠٠١) و«المسند» (٤٠/ ١٦٥) (٢٤١٣٧) وإسناده متكلم فيه كما سبق بيانه.

(٤) وقف قالون بالهمز في (النبيء) ووصلها بياء مشددة، وقرأ ورش بالهمز في الوصل والوقف، وله في الهمزة الثانية التسهيل والإبدال ياء ساكنة عند الوصل.

(٥) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بدون همز في (فاسألوهن)، والباقون بالهمز، ووقف عليها حمزة بالنقل.

وختمت الآية بقاعدة عامة تقرر أنه يحرم عليكم أن تؤذوا رسول الله بقول أو فعل، ومن جملة إيذائه ﷺ أن تتزوج زوجاته من بعده، فهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يحل نكاحهن بعده لأحد من أمته[1].

وقد تضمنت هذه الآية أمران:

أحدهما: الأدب في أمر تناول الطعام والجلوس بعده. **وثانيهما**: في أمر الحجاب.

أولًا: آداب الضيافة: لما ذكر الله تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه وآدابه معهن، أتبع ذلك ببيان آداب الأمة معهن عند إرادة الدخول عليهن وعند خطابهن في حياتهن، وتحريم الزواج بهن إلى قيام الساعة.

سبب نزول آية الحجاب: قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش ﵂ حين دخل بها النبي ﷺ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة:

١- ففي الصحيحين وغيرهما: عن أنس بن مالك ﵁ أنه كان ابن عشر سنين مَقْدَم النبي ﷺ المدينة، وكانت أم هانئ تواظب على خدمة النبي ﷺ فخدمتُه عشر سنين، قال: وتُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، وكنت أَعْلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل.

وكان أول ما نزل في دخول رسول الله ﷺ على زينب بنت جحش، حين أصبح بها عروسًا، فدعا القوم، فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهط عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج، قال أنس: وخرجتُ معه لكي يخرجوا، فمشي النبي ﷺ ومشيتُ معه حتى جاء عَتَبة حُجْرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعْتُ معه، حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعتُ حتى إذا بلغ عَتَبة حُجْرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالسِّتر، وأُنزل الحجاب.

زاد في رواية قال: فدخل النبي ﷺ البيت، وأرخى السِّتر، وإني لفي الحجرة وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾[2].

٢- وفي لفظ آخر: قال أنس بن مالك: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش،

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٦٢٧، ٤٧٩١، ٤٧٩٢، ٦٢٣٩) ومسلم برقم (١٤٢٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٢٠).

دعا القوم فَطَعِمُوا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام مَنْ قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقْتُ فجئتُ، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبتُ أدخلُ، فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله الآية(١).

٣- وفي رواية ثالثة لأنس بن مالك أيضًا: أنَّ أم سُليم ﵂ صنعتْ للنبي ﷺ ليلة عُرسه بزينب، طعامًا، وقالت له: اذهب إلى رسول الله ﷺ وأقرئه السلام، وأخبرْه أن هذا منا قليل.

قال أنس: والناس - يومئذ - في جَهد، أيْ: جوع وتعب، فأمره النبي ﷺ أن يضعه في جانب من البيت ويدعو الناس، فدعا ثلاث مئة رجل، والطعام في إناء صغير، فقال ﷺ: **«جِئْ به»**، قال: فجئتُ به، فوضع يده عليه ودعا، وقال: **«ما شاء الله»**، ثم أمرَهم يتحلّقون عشْرة عشْرة، وأمرَهم أن يُسمُّوا الله ويأكلوا، فأكلوا، ثم قال لي: **«ارفعه»**، قال: فرفعتُه، فلا أدري أكان حين وضعتُه أكثر أم حين رفعتُه؟

قال: وتخلَّف أناس في بيت رسول الله ﷺ وأخذوا يتحدثون، وزوج رسول الله التي دخل بها مُوَلِّية وجْهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ - وكان أكثر الناس حياء- فخرج وسلَّم على نسائه، فلما رَأوْهُ جاء، ابتدَرُوا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ فأرخى السِّتر، وأنا في الحُجرة، فمكث قليلًا، وأنزل الله القرآن، فخرج يقرأ على الناس هذه الآية.

قال أنس: فقرأهُنَّ عليَّ قبل الناس، فأنا أَحْدَثُ بهنَّ عهدًا(٢).

٤- وقال ابن عباس ﵄: نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين، كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون(٣).

هذه بعض الأحاديث التي تحمل سبب نزول آية الحجاب التي ابتدأت بالنهي عن دخول

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٩١، ٥١٥٤) وغيرهما و«صحيح مسلم» (٨٩، ١٤٢٨).

(٢) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٢٨) والترمذي برقم (٣٢١٨) والنسائي: (٦/ ١٣٦) والبخاري (٤٧٩١، ٥١٦٣، ٧٤٢١) والحاكم (٢/ ٤١٧).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٩٥).

بيت النبي ﷺ لطعام ونحوه إلا بإذن، حيث كان للنبي ﷺ في المسجد مجلس يجلس فيه، فمن كانت له مهمة عنده فليأته هناك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي صدَّقوا وأيقنوا بالله ورسوله وأطاعوه ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ أي: بغير إذن للدخول فيها لتناول طعام ونحوه، وإضافة البيوت للنبي ﷺ؛ لأنها كانت مِلْكًا له في ساحة المسجد، وبعد موته ﷺ سكن فيها نساؤه حتى تُوُفيتْ آخرهن، رضي الله عنهن، ثم آلت هذه البيوت للمسلمين؛ لأن الأنبياء لا يُوَرثون.

تاريخ دخول بيوت النبي ﷺ في المسجد:

وحين توسعة المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، وفي عهد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- أُدخلت هذه البيوت في المسجد على النحو الذي يراه المسلمون اليوم، فدخول قبريْ محمد ﷺ وأبي بكر ﷺ في المسجد، أمْرٌ حَدَثَ في هذا الوقت المتأخر، وكلاهما محاط بعازل عن المسجد من الأرض إلى السقف، ولو تغير الوضع عن هذا، لأثار حفيظة جماهير المسلمين، فلا يُحتَجُّ بذلك على جواز بناء المساجد على القبور.

ونعود لمعنى الآية: فلا تدخلوا - أيها المسلمون - بيوت النبي ﷺ لأي غرض من الأغراض، سواء أكان ذلك لوليمة أم نحوها ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي لتتناولوا طعامًا غير منتظرين نُضْجه، وليس المراد خصوص الطعام، ولكنه مثال ضُرب لموافقته سبب النزول.

ويلحق بدعوة الوليمة كلُّ دعوة أخرى مشروعة.

وليس في الآية تقييد للاستئذان بقصد الطعام، فإن هذا أمر مشروع بقصد الطعام وبغير قصد الطعام، في جميع البيوت، ومنها بيوت النبي ﷺ.

وقد كان هناك قوم يتحينون طعام النبي ﷺ، فيدخلون بيته ويقعدون منتظرين نضج الطعام.

وهذه الآية تشملهم، وتشمل أمثالهم، ممن يدخلون بيوت الناس بغير إذن، ويجلسون منتظرين تمام صنع الطعام، فليكن الحضور بدعوة، وليكن في الوقت المناسب دون إرباك أهل البيت وإحراجهم كما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ لتناول طعام ونحوه ﴿فَٱدْخُلُوا۟﴾ فإذا أكلتم أو قضيتم حاجتكم فانصرفوا وتفرقوا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ ولا

تمكُثوا في البيت متناولين لأطراف الحديث بينكم، وهذا إشعار بأن الجلوس بعد الطعام غير مرغوب فيه؛ وهذا معنى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ لأن هذا الانتظار أو هذا الاستئناس يؤذي أهل البيت، ويشلُّ حركتهم، ويضيِّق على من فيه.

ثم بيّن سبحانه حكمة هذا النهي وفائدته فقال:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الجلوس الزائد عن الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ فيشق عليه حبْسُكم إياه عن شؤون بيته ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ﴾ أن يدعوكم لإخراجكم من المكان، مع أن ذلك حق لصاحب البيت ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ أي: لا يترك تأديبكم ببيان الحق لكم حياء منكم، قالت عائشة ﵂: حسبك من الثُّقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم. وهذا حكم عام، تَمَّ تطبيقه عند نزول الآية على بيوت سيد الخلق ﷺ.

وقد حثَّ الإسلام على إجابة الدعوة، ولو كانت على أدنى طعام:

عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دعا أحدكم أخاه فليجب، عُرسًا كان أو غيره»**[1].

كما رغَّب الإسلام في الانصراف عقب الطعام:

عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«لو دُعيتُ إلى ذراع لأجبت، ولو أُهدي إليَّ كُراع لقبلت»**[2].

قال ابن كثير زاد في رواية: **«فإذا فرغتم من الذي دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض»**[3].

والبقاء في بيت النبي ﷺ بعد تناول الطعام، فيه سوء أدب معه، فإذا كان ﷺ يستحيي منكم، فقد ذَبَّ الله عنه، وبيَّن أنَّ من واجبات الدين، ألَّا يستحيي أحد مَن إقامة الحق.

وهذا المعنى فهمتْه أم سُليم ﵂ من الآية، وأقرَّها النبي ﷺ على فَهْمِها، فقد جاءت أم

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٢٩) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٦٨) وانظر: (٥١٧٨) و«المسند» (١٠٢١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٢٨٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير للآية (٦/ ٤٥٤) وليست هذه الجملة ضمن الحديث قبلها، كما توهَّم بعضهم.

سُليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احْتلمت؟ فقال ﷺ: «**نعم، إذا رأت الماء**»، فقالت أم سلمة: آلله! أوَ تحتلم المرأة؟ فقال: «**تَرِبَتْ يداك، فبم يشبهها ولدها؟**»[1].

فأم سُليم لم تسْتح من السؤال عن الحق المتعلق بها، والنبي ﷺ لم يسْتح من إجابتها.

وقد جمع علي بن أبي طالب ﷺ بين طلب الحق وبين الاستحياء منه، حين أرسل المقداد ﷺ، يسأل النبي ﷺ عن الرجل إذا اقترب من أهله فخرج منه المذْي، ماذا عليه؟ قال عليٌّ: فإن عندي ابنة رسول الله ﷺ وأنا أستحيي أن أسأله.

وقد كان الرجل فيما مضى لا يبني بيتًا إلا إذا تزوج.

وفي حديث ابن عمر ﷺ قال: كنت عزبًا أبيت في المسجد.

ومن أجل ذلك سمُّوا الزواج بناء.

وكانت الستور مرخاة على أبواب بيوت النبي ﷺ المفتوحة في المسجد، فكشف السِّتر ثم أرخاه؛ لأن البيوت لم تكن لها أبواب محكمة آنذاك.

ثانيًا: وجوب الحجاب على النساء:

وبعد آداب الاستئذان والضيافة يأتي الأمر بالحجاب الذي هو موضوع الآية، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: إذا سألتم نساء رسول الله ﷺ خاصة، أو سألتم نساء المؤمنين حاجةً، كالسؤال عن صاحب البيت، أو قضاء معونة من الأواني ونحوها، أو كلمتموهن لأي سبب من الأسباب، فاسألوهن من وراء ساتر أو حاجز، كالجدار، أو الباب، أو ستر الوجه، فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال.

أحاديث أخرى في سبب نزول آية الحجاب:

١- عن أنس بن مالك ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أَمَرْتَ أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب[2].

---

(١) من حديث أم سلمة في «صحيح مسلم» برقم (٣١٣) و«صحيح البخاري» برقم (١٣٠، ٢٨٢، ٣٣٢٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٩٩) و«صحيح البخاري» (٤٧٩٠، ٤٠٢).

٢- وعن عائشة ﵂ قالت: خرجتْ سَوْدة لحاجتها ،بعدما ضُرب الحجاب، وكانت امرأة جسيمة، لا تَخْفى على من يعرفها، فرآها عمر ﵁ فقال: يا سوْدَة، أما والله ما تَخفيْن علينا، فانظري كيف تخرُجين؟ قالت: فانكفأتْ راجعة، ورسول الله في بيتي وإنه ليتعشَّى، وفي يده عِرْق، فدخلتْ فقالت: يا رسول الله، إني خرجتُ لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رُفِع عنه، وإن العِرْق في يده ما وضعه، فقال: «**إن الله أذن لكُنَّ أن تخرجْن لحاجتكن**»[١].

وفي رواية: أن زينب بنت جحش قالت: عجبًا لك يابن الخطاب تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فما زال عمر حتى نزلت آية الحجاب[٢].

٣- وقال عمر بن الخطاب ﵁: وافقت ربي في ثلاث:

فقلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلًّى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبْتهُن؟ فأنزل الله آية الحجاب.

وقلت لأزواج النبي ﷺ لَمَّا تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]. فنزلت كذلك[٣].

قال تعالى يمدح الحجاب ويبيِّن الحكمة فيه: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: إن عدم مخالطة النساء للرجال وجهًا لوجه، أزكى وأتقى لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر التي تَعْرِض للرجال في شأن النساء، وللنساء في شأن الرجال، وأنفى للريبة، وأبعد عن التهمة، فالرؤية والمحادثة سبب الفتنة، وبريد الزنى وسلاح الشيطان، وكلما بعُد الإنسان عن دواعي الشر، كان ذلك أسلم له وأطهر لقلبه، وليس كما يقول أرباب الشهوات، من أن الممنوع مرغوب، وأن عدم مخالطة النساء بدون حجاب، يؤدي إلى كَبْت، ويسبب

---

(١) «المسند» (٦/ ٥٦) والبخاري برقم (١٤٦، ٤٧٩٥) ومسلم برقم (٢١٧٠).

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود (١٩/ ١٦٥) وعن ابن مسعود أيضًا عند ابن مردويه كما في «الدر» (١٢/ ١٧٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٠٢) يُنظَر: (٤٤٨٥، ٤٧٩٠) و«صحيح مسلم» (٢٣٩٩) مختصرًا.

عُقَدًا في النفس، ويولِّد انفجارًا عند أول لقاء!! فهل ما يحدث في بلاد الغرب من الخلوة بالنساء والمخالطة التامة، أدّى إلى طهارة القلوب والبعد عن الفاحشة؟ أم أن الخطر قد تفاقم، والمواليد غير الشرعيين أكثر من غيرهم، والعلاج أصبح عسيرًا؟!

والآية وإن كانت قد نزلت في أزواج النبي ﷺ تعظيمًا لرسول الله، وتكريمًا لشأنه، ولكن الحكم يعمُّ جميع المسلمين، فهي أوامر إلهية يستوي فيها جميع الخلق، فإذا كان نساء رسول الله ﷺ -وهُنَّ أهل بيت النبوة، وأهل الطهر والعفاف-، لا يجوز الخلْوة بهن ولا النظر إليهن، مع نفي الريبة عنهن؛ لأنهن أمهات المؤمنين، فلاشك أن غيرهن -من باب أولى- لا يجوز الخلْوة بهنَّ، ولا سؤالهن، أو التحدث إليهنَّ إلا من وراء حجاب؛ لأن الفتنة بالنساء متحققة.

في حديث عقبة بن عامر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»، قال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[1].

ومما يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [٥٩].

ويشهد له أيضًا: (قرينة طهارة القلوب) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

فهل الحجاب أطهر لقلوب الصحابة، وليس أطهر لقلوب بقية المسلمين؟ وأيهما أولى بهذا؟

فهذه العلة دالة على عموم حكم الحجاب.

١- **هذا**: ومن المعلوم أن المرأة لو كانت شابة جميلة مثيرة للفتنة -فإنه يجب عليها ستر الوجه باتفاق، ولو كان هذا الجمال مصطَنعًا بالمساحيق ونحوها.

٢- ومعلوم أيضًا أن المرأة بعد بلوغ سن اليأس لا حرج عليها في عدم ستر وجهها وكفيها.

٣- ومعلوم كذلك أن إحرام المرأة في وجهها وكفيها في الحج والصلاة، وأنه يجوز لها أن تغطيهما وهي محرمة، دون نقاب، ودون إلصاق بالوجه، عند وجود الرجال الأجانب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٣٢) و«صحيح مسلم» (٢١٧٢).

٤- وشعر المرأة ونحرها وساقاها وذراعاها عورة بالإجماع يجب سترها جميعًا.

٥- أما الوجه والكفان في الأحوال العادية فهما موضع خلاف بين الأئمة، مع الإجماع على أن سترهما أكمل وأفضل.

٦- والمجتمعات لها حكمها وتقاليدها، فالمرأة التي تكشف وجهها في مجتمع لا يفعل ذلك، تكون جرثومة في هذا المجتمع؛ لأنها تكون شاذة عنه فتجذب الأنظار إليها.

وغطاء الوجه من باب العادة والتقليد لا أجر عليه، فيجب أن يكون ذلك عبادة لله ﷻ وامتثال أمره.

والسائق والخادم والبواب والعامل ونحوهم -أجانب عن المرأة، حكمهم حكم غيرهم، فلا يصح التهاون بشأنهم.

وقد أمر الله تعالى القواعد من النساء أن يستعففْن خيرًا لهن، فكيف بغير العجائز؟ فالأمر في الآية لرجال الأمة ونسائها.

ثم خاطب الله المؤمنين خطابًا عامًّا في كلمة جامعة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: وما ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن تؤذوا رسول الله في أي أمر من الأمور، وبأي لون من ألوان الأذى، سواء أكان ذلك بدخول بيوته بغير إذنه، أم بحضوركم إليها انتظارًا لنضج الطعام ونحوه، أم بجلوسكم بعد الأكل دون مقتضًى، أم لمجرد المؤانسة والمحادثة، أم بغير ذلك مما يتأذى به الناس، فإن هذا أمر مستقبح وغير لائق، ومما يؤذى النبي ﷺ نكاح أزواجه من بعده، فإن هذا غير لائق بمقام النبوة، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ولا يحل لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواج رسول الله ﷺ بعد وفاته؛ لأنهن أمهاتكم، ولا يحل للرجل أن يتزوج أمه، وقد تضمنت هذه الفقرة من الآية **حكمين**:

الحكم الأول: تحريم إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو فعل، لأن ذلك من شأنه أن يغضبه ويسيء إليه. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ الآية: [٥٧].

الحكم الثاني: ما سبق ذكره وهو تحريم أزواج رسول الله ﷺ على الناس بعده؛ لأنهن أمهاتهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [٥].

وهو حكم دائم في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته، وهُن زوجاته في الدنيا والآخرة.

وربما تمنَّى بعض الناس في حياة النبي ﷺ أن يتزوج بعض زوجاته بعد وفاته، فجاءت هذه الجملة من الآية قاطعة لهذه الآمال.

والظاهر أن هذا التحريم لا يشمل النساء اللاتي عقَد عليهنَّ رسول الله ﷺ ولم يدخل بهن:

مثل (المرأة الكِنْدية) التي استعاذت منه ﷺ، فقال لها: الحقي بأهلك، فتزوجها الأشعث بن قيس في زمن عمر بن الخطاب ﷺ.

ومثل: (قُتيلة بنت قيس الكلبية) التي زوَّجها أخوها الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ، ثم حملها معه إلى حضرموت، فتُوُفِّيَ رسول الله ﷺ قبل رجوعها ولم يدخل بها، فتزوَّجها عكرمة بن أبي جهل، وهَمَّ أبو بكر بعقابه، فقال له عمر: إن رسول الله لم يدخل بها، وهي روايات ضعيفة.

والصحيح أن النبي ﷺ رجع عن زواج الأولى، وقال: لقد استعذتِ بمعاذ، وأن الثانية لم يعقد عليها[١].

ثم بيّن سبحانه أن أذاكم لرسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده، ذنب عظيم عند الله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وهذا إعلام من الله تعالى بتعظيم رسوله ﷺ وإيجاب حُرْمته حيًّا أو ميتًا.

وقد طيَّب الله نفْس رسوله ﷺ، وأسرَّ قلبه، فامتثلت الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه، ولله الحمد والشكر.

مصافحة النساء الأجنبيات: ومما يتعلق بهذا عدم جواز مصافحة الرجل الأجنبي للمرأة الأجنبية، بدليل أن النبي ﷺ لم يصافح النساء وقت البيعة يوم فتح مكة، وقال: «**إني لا أصافح النساء**»[٢] جوابًا لمن قالت له: امدد يدك لأبايعك يا رسول الله.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩) والأحاديث السابقة عند الآية الثامنة والعشرين.

(٢) ينظر تخريجه فيما يأتي.

وكانت مبايعته ﷺ للنساء كلامًا، وتقول عائشة ﵁: ما مست يده يد امرأة قط وفي حديث عائشة أيضًا: والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قطُّ[١]. غير أنه بايعهن كلامًا[٢].

والمرأة أعرف الناس بزوجها، فقد يصدِّقُه الناس كلهم في أمر، وهي التي تكذِّبه، فهي أعرف الناس بدواخله، سِيَّمَا فيما يتعلق بأمور النساء، ولم يحدث مثل هذا من زوجات النبي ﷺ.

ولا يجوز للرجل أن يمس شيئًا من بدنه بدن امرأة قطُّ، فقد جاء في الحديث: «**لأن يمس أحدكم جمرة من نار، فتخلُص إلى بدنه، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له**»[٣].

وفي الحديث: عن أميمة بنت رُقَيْقَة في بيعة النساء: «**إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمئة امرأة**»[٤]. وفي لفظ: «**إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة**».

وهذا يدل على أن حكم الحجاب عام؛ لأن الإسلام حين يخاطب رجلًا أو امرأة، فإن الحكم يتناول الجميع، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

هذا فضلًا عن النظر إلى أخت زوجته،أو زوجة أخيه، أو يسافر معها، أو تجلس أمامه بزينتها، وملابس بيتها التي تكشف عن رأسها وأطرافها!!

وقد تحج معه أو تعتمر، وهذا من الجهل الفاضح بمباديء الإسلام. قال تعالى:

٥٤- ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

ثم حذَّر الله ﷻ من مخالفة أمره تعالى، وبيَّن أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء من أحوال

---

(١) البخاري برقم (٢٧١٣).

(٢) البخاري (٥٢٨٨) ومسلم (١٨٦٦).

(٣) أخرجه الطبراني بسند صحيح كما في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٤) الأول لفظ النسائي، والثاني لفظ الترمذي، وأخرجه الدارقطني وهو على شرط الشيخين. يُنظَر: «المسند» (٦/٣٥٧) برقم (٢٧٠٠٧، ٢٧٠٠٨، ٢٧٠٠٩) إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) والنسائي في «الكبرى» (٨٧١٣) ومالك في «الموطأ» (٢/٩٨٢) والدارقطني (٤/١٤٧) و«سنن الترمذي» برقم (١٥٩٧) و«سنن النسائي» (٧/١٤٩) وابن حبَّان (٤٥٥٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٨٧٤) والطبراني في «الكبير» (٤٧٢) والطيالسي (١٦٢١) ولفظا الحديث جاءا في «المسند». وأميمة بنت رُقيقَة روى لها أصحاب «السنن» هذا الحديث الواحد.

خلْقه، فقال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ أي: تظهروه على ألسنتكم مما نهاكم الله عنه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تضمروه في قلوبكم مما يؤذي رسول الله ﷺ أو يضر بالمؤمنين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه شيء مما ظهر أو بطن، وسيحاسبكم الله عليه.

مَحَارِمُ المَرْأَةِ

٥٥- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

ولما أنزل الله تعالى آية الحجاب، قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضًا يا رسول الله، نكلِّمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله تعالى يخصص هذا العموم، ويَستثني المحارم، فبيَّن سبحانه أنه لا إثم على النساء في ترك الحجاب عند محارمهن، فيجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب، وأن تُظهر أطرافها أمامهم بدون ساتر، وقد ذكرت الآية ستة أصناف من المحارم، وهم:

الأب وإن علا، والابن وإن سفل، والأخ الشقيق أو لأب أو لأم، وابن الأخ كذلك، وابن الأخت أيضًا، والمرأة الأخرى، وملك اليمين.

فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عليهم ﴿فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾.

ولم يُذكر العم والخال صراحة؛ لأن ذِكْر أبناء الإخوان يدخل تحته العم، وذِكْرَ أبناء الأخوات يدخل تحته الخال، فكان رفع الحرج عنهما، رفعًا عن الأعمام والأخوال، ولأن العم صنو الأب، والخال والد، فهما يجريان مجرى الوالدين، وهما معلومان من مفهوم الآية هنا بالضرورة، ومن منطوق الآية، المصرحة بذكر العم والخال، وهي مقدمة على ما يفهم من هذه الآية وذكر أبناء الإخوة والأخوات في هذه الآية يوجب عدم الاحتجاب على العم والخال من باب أولى.

وجاء في بعض الآثار: أن العم والخال لم يُذْكرا؛ لأنه قد يكون لهما مصلحة في ذلك، فيصفان المرأة لِابنيْهِما، وكما رُفع الجناح عن النساء رُفع عن الرجال أيضًا، فلا جناح عليكم ولا عليهن.

وبعد ذكر المحارم الأربعة السابقة، وهم الأب والابن والأخ وأبناء الأخ والأخت، قال سبحانه: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: النساء المؤمنات، وقال بعضهم: جميع النساء، ووصف المرأة من المرأة، لزوجها، منهيٌّ عنه، ويحرم وصفها للمسلم أو الكافر على حد سواء ما دام أجنبيًّا عنها.

وغير المسلمات لا يؤتمنَّ لعدم وجود الوازع الديني، ومعرفة الحلال والحرام.

أما **ملك اليمين** فالمراد به: الأمَة الأنثى والعبد المملوك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ وبعضهم خصَّ ملك اليمين بالمرأة دون الرجل.

فهذه ستة أصناف من المحارم، جاءت هنا على وجه الاختصار؛ لأن المقصود في هذه الآية: هو التنبيه على تحقيق الحجاب ليفضي ذلك إلى تقوى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أن يَراكُنَّ أحد غير هؤلاء، وأن تتعديْن ما حرَّم الله، وأن تُبدين زينتكُن لغير محارمكُن، أو تتركْن الحجاب أمام من يجب عليكُنَّ الاحتجاب عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

وقد ذُكرت هذه المحارم بأوسع من ذلك في سورتي: [النساء: ٢٢-٢٤]، و[النور: ٣١].

وبيَّنت السُّنَّة أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

الصَّلاةُ عَلَى سَيِّدِ الخَلْقِ ﷺ

٥٦- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أحكام معاملة أزواج النبي ﷺ أعقب ذلك بالثناء عليه، وتشريف مقامه بالصلاة والسلام عليه من خالق الكون سبحانه، ومن أشرف الخلق بعد الرسل وهم الملائكة الكرام، ومن عباد الله المؤمنين.

١- والصلاة من الله تعالى، تعني: رحمته ورضوانه ورفع قدره.

٢- والصلاة من الملائكة، تعني: الدعاء والاستغفار.

٣- والصلاة من المؤمنين: تضرع ودعاء، وتعظيم وتوقير.

أي: إن الله - جلَّ شأنُه - يرحم نبيه، ويعظِّم شأنه، ويرفع مقامه، ويثني عليه عند الملائكة المقربين.

وكذا ملائكته الأبرار، تُثْني على النبي ﷺ، وتدعو له أن يظفر بأعلى الدرجات وأسماها.

فيا مَنْ آمنتم بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، أكثروا من الصلاة والتسليم عليه محبةً وتعظيمًا له، فحقُّه عليكم عظيم، وهو الذي أنقذكم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ففي هذه الصلاة على رسوله، مكافأة لبعض حقوقه عليكم، ولَمَّا كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر سبحانه أن يكافئه على ذلك.

وفي هذه الصلاة على النبي ﷺ تشريف لكم، ورفع لدرجاتكم، وحصول الأجر والمثوبة لكم.

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ أفضل الأولين والآخرين، وأن الله تعالى يثني عليه في الملأ الأعلى، وأن العالم العلوي والعالم السفلي يصليان ويسلمان عليه.

فالله تعالى يُثْني على نبيه عند الملائكة المقربين لمحبته له، وملائكتُه يُثْنُون عليه ويدْعُون له ويتفرعون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾.

ثم أمر الله عباده المؤمنين به، والمؤمنين برسوله ﷺ، العاملين بشرعه، أن يصلوا ويسلموا عليه تحية وتعظيمًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، اقتداءً بالله وملائكته، وجزاءً له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا لسيئاتكم.

والسلام هو التحية، بمعنى: الأمان والسلامة.

وفي الحديث عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**والسلام كما قد عُلمتم**»[1].

وكان ابن عمر ﷺ يقول بعد وفاة النبي: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته.

والجمهور على أن السلام يكون باللفظ الذي كان في حياته ﷺ، وليس بما يبتدعه بعض الناس.

---

(١) من حديث طويل في صحيح مسلم (٤٠٥) وسنن أبي داود (٩٨٠) وسنن الترمذي (٣٢٢٠) وسنن النسائي (٣/ ٤٥) وقال الترمذي: حسن صحيح وانظر الحديث رقم (٣) الآتي عن أبي مسعود البدري.

وقال ﷺ للذي سلَّم عليه، فقال: عليك السلام يا رسول الله، قال له: **«إن هذه تحية الموتى، فقل: السلام عليك»**(١).

فالآية تضمنت شيئين: الصلاة على النبي، والتسليم عليه، والمسْلِم مخير بأن يجمع بينهما، أو يُفرد كُلًّا منهما.

ففي الأثر أن النبي ﷺ قال: **«لقيتُ جبريل، فقال لي: أُبشِّرك أن الله يقول: من سلَّم عليك سلَّمتُ عليه، ومن صلى عليك صليتُ عليه»**(٢).

والأفضل أن يجمع العبد بين الصلاة والسلام معًا، وإذا ضم إليهما البركة كان أكمل.

حكم الصلاة على النبي ﷺ ودواعيها:

وظاهر الأمر في الآية أنه للوجوب، قيل: الوجوب في العمر مرة، وقيل: في التشهد في الصلاة، وقيل: الوجوب، كُلَّما ذُكِر اسم النبي ﷺ، وهو الأرجح، وقال الشافعي بوجوبه في التشهد، ولا خلاف في استحباب الاستكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ، وخاصة عند وجود أسبابها.

ومن أسبابها ودواعيها: ذكره ﷺ، وعند افتتاح الخطب، ومنها خطبة الجمعة، وكذا عند افتتاح الكتُب والرسائل، وعند افتتاح الدعاء واختتامه، وعند سماع الأذان وانتهائه، وعند دخول المسجد والخروج منه، وفي التشهد الأخير، وفي يوم الجمعة وليلتها، وفي صلاة الجنازة، وفي دعاء القنوت، وعند زيارة قبر النبي ﷺ، وعند فراغ المحْرم من تلبيته، وعلى الذبيحة، وقد كان الصحابة يصلون على النبي ﷺ إذا تذاكروا بعض شؤونهم، كما يُترحَّم على الميت.

وعلى المسلم أن يشمل بصلاته الآل والصحب، والصلاة والسلام على النبي ﷺ دون ذكر آله صلاة مبتورة، كما صحّت الأحاديث بذلك.

وتشرع الصلاة والسلام على جميع رسل الله وأنبيائه وعلى ملائكة الله الكرام، وقد

---

(١) من حديث أبي جُريٍّ الهُجَيْمي، جابر بن سليم، في صحيح سنن أبي داود (٣٤٤٢،٤٣٤١) بتصحيح الألباني وصحيح سنن الترمذي (٢١٩٠،٢١٨٩) عن أبي تميمة الهُجَيْمي.

(٢) ذكره القاضي عياض في «الشفاء».

أُحدثت الصلاة على النبي ﷺ في أوائل الكتب والرسائل زمن هارون الرشيد، سنة إحدى وثمانين ومئة[1].

أفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ:

والصلاة الإبراهيمية، هي أفضل صيغة للصلاة على النبيِّ ﷺ، فلا يصح تركها وأخذ غيرها، لا سِيَّمَا الصيغ التي تتميز بها كل طائفة من طرق التصوف، ففيها تقدم بين يدي الله ورسوله:

١- ففي حديث كعب بن عجرة ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: **«قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»**[2].

٢- وعن أبي حُمَيْدٍ الساعدي ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»**[3].

٣- وعن أبي مسعود البدري ﷺ قال: أتانا النبي ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال: **«قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على**

---

(١) ذكر ذلك ابن الأثير في «الكامل» والقاضي عياض في «الشفاء» وابن سيده في «المخصص».

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٩٧) و«صحيح مسلم» (٤٠٦) وأبو داود (٩٧٦، ٩٧٨) والترمذي (٤٨٣) والنسائي (١٢٨٨، ١٢٨٦) وابن ماجه (٩٠٤) وعبد الرزاق (٣١٠٥) و«المسند» (١٨١٠٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٧).

(٣) أخرجه الستة إلا الترمذي، يُنظَر: «جمع الفوائد» (٢/ ٦٧٨) والبخاري(٣٣٦٩، ٦٣٦٠) ومسلم (٤٠٧) وأبوداود (٩٧٩) وابن ماجه (٩٠٥) وعبد الرزاق (٣١٠٣) ومسند أحمد (٢٣٦٠٠) وهو عند مالك في الموطأ (١/ ١٦٥).

إبراهيم، إنك حميد مجيد، والسلام كما علمتم»[١].

وجاء لفظ: **«وعلى آل إبراهيم»** في حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو[٢].

وقد ورد هذا الحديث من عدة طرق، وفي جميع كتب الحديث.

أما فضل الصلاة على النبي ﷺ فقد ورد فيها الكثير من الأحاديث:

١- ففي الحديث: عن عامر بن ربيعة ﷺ: **«من صلَّى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلَّى عليَّ، فَلْيُقِلَّ عبدٌ من ذلك أو ليكثر»**[٣].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«من صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلَّى الله عليه بها عشرًا»**[٤].

٣- وفي الحديث: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«رَغِم أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِم أنفُ رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدرك عنده أبواه الكِبَر فلم يُدخلاه الجنة»**[٥].

٤- وفي حديث أبي هريرة أيضًا: أن النبي ﷺ قال: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»**[٦].

---

(١) رواه الستة إلا البخاري، يُنظَر: «جمع الفوائد» (٢/ ٦٧٧) و«الموطأ» (١/ ١٦٦) وعبد الرزاق (٣١٠٨) وهو عند مسلم (٤٠٥) وأبي داود (٩٨٠) والترمذي (٣٢٢٠) والنسائي (١٢٨٤).

(٢) عند ابن خزيمة (٧١١) والحاكم (١/ ٢٦٨) والبيهقي (٢/ ١٤٦).

(٣) «المسند» (٣/ ٤٤٥) برقم (١٥٦٨٠، ١٥٦٩٠) وهو حديث حسن وابن ماجه برقم (٩٠٧) من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة، وأخرجه الطيالسي (١١٤٢) وأبو يعلى (٧١٩٦) والبغوي في شرح السنة (٦٨٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٨) وأبو داود برقم (١٥٣٠) والترمذي برقم (٤٨٥) و«المسند» (٧٥٦١) وهو حديث صحيح (محققوه) والنسائي (١٢٩٥)، وأخرجه أبو يعلى (٦٥٢٧) وابن حبان (٩٠٥).

(٥) «سنن الترمذي» برقم (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٢١) و«صحيح الأدب المفرد» (٥٠٢)، والمسند (٧٤٥١) وهو حديث صحيح بإسناد حسن كما قال محققوه.

(٦) «سنن أبي داود» (٢٠٤٢) والطبراني في الأوسط (٨٠٢٦) و«المسند» (٢/ ٣٦٧) برقم (٧٨٠٤)، بإسناد حسن، (محققوه).

٥- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»**[(١)].

٦- وعن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«البخيل الذي مَنْ ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ»**[(٢)].

٧- وأخرج أبو داود وغيره: أن فَضَالة بن عُبيد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته، لم يمجِّد الله تعالى، ولم يصلِّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«عَجِل هذا»** ثم دعاه، فقال له أو لغيره: **«إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه جلَّ وعزَّ، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعدُ بما شاء»**[(٣)].

٨- وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»: عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ رَقَي المنبر، فلما رَقَى الدرجة الأولى قال: **«آمين»** ثم رَقَي الثانية فقال: **«آمين»**

ثم رَقِيَ الثالثة فقال: **«آمين»** فقالوا: يا رسول الله، سمعناك تقول: **«آمين»** ثلاث مرات، قال: **«لمَّا رقيتُ الدرجة الأولى، جاءني جبريل فقال: شَقِيَ عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يُغفر له، فقلت: آمين، ثم قال: شقِيَ عبد أدرك والديْه أو أحدهما، فلم يُدخلاه الجنة،**

---

(١) «سنن النسائي» (٣/ ٤٣) و«المسند» (١/ ٤٤١) برقم (٤٣٢٠، ٧٤٢٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم والدارمي (٢٧٧٧) والطبراني في «الكبير» (١٠٥٢٨، ١٠٥٣٠) وابن حبَّان (٩١٠) «الإحسان» والحاكم (٢/ ٤٢١) و«صحيح الجامع» (٢١٧٤) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٣٥٥) وأسنده الهيثمي للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح، «المجمع» (٩/ ٢٤) وقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» حديث (٢٦): هذا إسناد صحيح.

(٢) «سنن الترمذي» (٣٥٤٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٦٢٥٥) و«المسند» (٣/ ٢٥٧) (١٧٣٦) بإسناد قوي ورجال ثقات (محققوه) والحاكم (١/ ٥٩) قال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ١٦٨): لا يقصر عن درجة الحسن و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨١١).

(٣) أبو داود (١٤٨١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٧) وابن حبَّان (١٩٦٠) «الإحسان» والحاكم وصححه بموافقة الذهبي (١/ ٢٣٠) و«المسند» (٦/ ١٨)، برقم (٢٣٩٣٧) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والبزار في مسند (٣٧٤٨) وابن خزيمة (٧١٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٤٢) وقال الترمذي (٣٤٧٧) حسن صحيح.

فقلت: آمين، ثم قال: شقِيَ عبد ذُكِرتَ عنده ولم يصل عليك، فقلت: آمين»(١).

٩- وفي حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة -أي: نقص- فإن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم»**(٢).

١٠- وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما اجتمع قوم ثم تفرقوا على غير ذكر الله وصلاة على النبي ﷺ إلا قاموا على أنتن جيفة»**(٣).

وَعِيدُ مَنْ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ

٥٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ولمَّا أمر الله تعالى بتعظيم رسوله، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته بأي وجه من الوجوه، وتوعّد من يفعل ذلك باللعن والعذاب المهين، فقد، بيَّن سبحانه أن الذين يؤذون الله تعالى بالشرك أو الكفر أو النفاق أوالفسوق، ويشمل ذلك ما قاله بعض اليهود: عزير ابن الله، وما قاله بعض النصارى: المسيح ابن الله، أو أنه هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ومن ذلك وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله، كقول اليهود: يد الله مغلولة، وقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، أو الذين يؤذون الله تعالى بمخالفة أمره ونهيه، أو ارتكاب كبائر الذنوب، وسائر المعاصي والآثام.

أو يؤذون رسول الله ﷺ بأي لون من ألوان الأذى، بالأقوال أو الأفعال، أو بالتكذيب أو السخرية أو الاستهزاء أو الطعن في شريعته، أو عن طريق الرسوم أو الأفلام والمسلسلات أو السب أو الشتم، أو التنقُّص له أو لدينه، أو يؤذونه بارتكاب ما لا يرضاه الله ورسوله، بمخالفة أمره ونهيه، فإيذاءُ رسول الله ﷺ إيذاءٌ لله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

---

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٠٠).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٩١)، والسلسلة الصحيحة (٧٤).

(٣) البيهقي (١٥٧٠) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٨٠).

وفي الحديث: عن عبد الله بن المغفل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن آذاني فقد آذى الله**»[١].

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»[٢].

وفي الحديث القدسي أيضًا: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب...**»[٣].

والله ﷻ لا يلحقه أذى، وإيذاؤه سبحانه معناه: مخالفة أمره ونهيه، أما رسول الله ﷺ فقد يلحقه أذى البشر، كالذين قالوا: إنه ساحر أو مجنون، أو قالوا: إنه شاعر أو كاهن، وقد شُجَّ وجهه الشريف، وكُسرت رباعيته، وهؤلاء جميعًا توعدهم الله تعالى بالطرد والإبعاد من رحمته، ولهم في الآخرة عذاب يذلهم ويهينهم. قا تعالى:

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

ثم ألحق سبحانه حرمة المؤمنين بحرمة الله ورسوله، تنويهًا بشأنهم.

فالذين يؤذون أهل الإيمان بقول أو فعل قبيح أو فاحش منكر، يتعلق بأنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، بغير ذنب فعلوه، أو جناية ارتكبوها، فقد ارتكبوا أفحش الذنوب، وأقبح الأفعال والأقوال، وارتكبوا الإثم البيِّن، وحمَّلوا أنفسهم البهتان والكذب والزور، واستحقوا عذاب الدنيا والآخرة، ومن ذلك استحلال عرض المسلم، والغيبة والنميمة، والكذب والزور...

ونظرًا لأن الناس يؤذي بعضهم بعضًا، فيعتدي بعضهم على بعض، ويدفع بعضهم بعضًا، فقد قيَّد الله - سبحانه - إيذاء الناس لبعضهم بقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾. أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى.

---

(١) جزء من حديث في «المسند» (٤/ ٨٧) برقم (٢٠٥٤٩، ٢٠٥٧٨، ١٦٨٠٣) بإسناد ضعيف لجهالة عبدالرحمن بن زياد وبقية رجاله ثقات (محققوه) والترمذي برقم (٣٨٦٢) من حديث عبد الله بن المغفل، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ١٢٣) وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٩٢) وابن حبان (٧٢٥٦) والبغوي في شرح السنة (٣٨٦٠).

(٢) البخاري برقم (٤٨٢٦) ومسلم برقم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) البخاري (٦٥٠٢).

أما في جانب الله تعالى ورسوله، فلم يذكر هذا القيد؛ لأن الإيذاء يقع من الناس، ولا يُتصور وقوعه من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ.

وقد جمع - سبحانه - بين البهتان والإثم المبين للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه في حق المؤمنين، والمؤمنات؛ إذ البهتان هو الكذب الصريح المفترى، والإثم المبين هو الذنب العظيم الذي لا يخفى قبحه.

ولذا جاء في حديث عائشة ﵂: **«أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم»**[١].

ولهذا فإن سبَّ آحاد المؤمنين يوجب التعزير بحسب حالته وعُلُوّ مرتبته، فتعزير مَنْ سَبَّ الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم، والسب من غير المسلمين يوجد مقاطتهم وإنهاء العلاقات معهم ومعاملتهم بالمثل.

لِبَاسُ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ

٥٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

وبعد النهي عن أذى المؤمنين، يأتي الحديث عن اتقاء أسباب أذى المؤمنات باللباس الساتر، الذي لا يُعرِّض المرأة لمعاكسة الرجال والتحرش بها، مع البدء بأزواج النبي ﷺ وبناته؛ لأنهن أكمل النساء، ثم يأتي بعدهن نساء المؤمنين بصفة عامة، فقد أمر الله الجميع أن يُغطِّين وجوههن وصدورهن بإسدال مافوق الثياب على رؤوسهن ووجوههن وصدورهن من خمار أو غطاء أو رداء، والحكمة في ذلك حتى لا يظن أحد أنهن غير عفيفات فيتعرض لهن من في قلبه مرض، وقد يظن أنهن خدمًا أو إماءً فيتهاون بهن ويتعرض لهن بالأذى، فالحجاب حاسم لمطامع الطامعين.

سبب النزول: عن أبي مالك قال: كان نساء المؤمنين يخرُجْن بالليل إلى حاجاتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهن ويؤذونهن؛ فنزلت هذه الآية[٢].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٦٧١١).

(٢) يُنظَر: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٧٦).

وقال السُّدِّي: كانت المدينة ضيقة المنازل، وكان النساء إذا كان الليل خرجْن فقضيْن الحاجة، وكان فُسَّاق من فُسَّاق المدينة يخرجون، فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا: هذه أمة، فكانوا يراودونها، فأنزل الله تعالى الآية[١].

قال ابن عباس ﷺ: كانت الحرة تلبس لباس الأَمَة، فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن، **وإدناء الجلباب**: أن تَتَقنَّع وتشُدَّه على جبينها[٢].

وأسباب النزول هذه، لا تعني أن الإسلام يفرق بين الحرائر والإماء، فيبيح للأمة من التبذل وعدم التستر ما لا يبيحه للحرائر، بل إن هذه الأسباب تقرر واقعًا كان موجودًا في المجتمع العربي.

ولما نزلت هذه الآية، عمَّت الجميع، فأمرت الإناث جميعًا، سواء كُنَّ متزوجات أم غير متزوجات، حرائر أم إماء، شريفات أم غير شريفات، أمرتْهن جميعًا بالستر والحجاب. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ ليس قيدًا ولا شرطًا في الآية، إنما هو لبيان الواقع الجاري وقت نزول الآية، فإن المرأة إذا كانت غير محتشمة طمِع فيها الرجال، ولو كانت أمة سوداء، حرة أو رقيقة، وحتى لا يُعرفْن بأنهن راغبات في أن يتعرض لهن الرجال، فعليهن بالحجاب والاحتشام، سواء كُنَّ إماء، أم حرائر، أم خدمًا، أم ممرضات، أم عاملات، ونحو ذلك.

أخطاء في مفهوم الحجاب:

فإذا كُنَّ غير محتشمات تعرض لهن الرجال بالأذى؛ لأنهم عرفوا ميولهن لذلك؛ بما أعرب عنه لباسهن غير الساتر لعوراتهن.

وأذكر أني رأيت رجلًا يفتح باب سيارته ويسير في محاذات امرأة تسير في شارع جانبي، وهو يحادثها ويطلب منها الركوب في السيارة، فعاتبْتُه في هذا، فقال: أما ترى

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٣٠٣) و«الدر المنثور» (١٢/ ١٤٤) وابن كثير (٦/ ٤٨٢).

(٢) الطبري (١٩/ ١٨٢).

أنها تلبس نصف عباءة، ولو كانت لا تريد المعاكسة للبست عباءة كاملة ساترة، قلت في نفسي: هذا شأن صاحبة نصف العباءة، فما بالنا بمن تكشف عن ساقيها وذراعيْها؟ وما بالنا بالكاسية العارية؟ إنهن باسم الحرية الشخصية فعلْن ما هو أكثر من هذا.

ولا ريب أن المرأة المحتشمة كاملة الحجاب، يهابُها الرجال، ولا يتعرضون لها بأذى، فاعتبِرْن يا نساء العالمين، واعلمْن أن حجاب المرأة عنوان إكرامها واحترامها، وأن عدم الحجاب عنوان ابتذالها وإهانتها، ومن الغرائب أن الحجاب أصبح يُطلق على حالات عجيبة في دنيا الجهال بالدين، فقد يَعْنُون به غطاء الشعر فقط، بشيء جميل مزخرف ملفت، هو أجمل من الحقيقة المجردة، ويصحب ذلك لبس بنطال ونحوه، وقد تغطي رأسها وتلبس الضيّق جدًّا وتضع المساحيق، ويسمون هذا و ذاك ونحوهما حجابًا، فيا للعجب من تحريف شرع الله وتبديله.

والمعنى: يأيها النبي، بلّغ أوامر الله تعالى إلى عباده المؤمنين، وابدأ بنفسك، فمُرْ زوجاتك أمهات المؤمنين الطاهرات، وبناتك الفُضْليات، أن يرتدين الجلباب الشرعي، الذي لا يصف جسد المرأة، ولا يشفُّ عما تحته، الساتر لجميع بدن المرأة، وليس ثياب شهرة، ولا خاصًا بالرجال، ولا لافتًا للأنظار في لونه أو لمعته أو زخرفته، ونحو ذلك، وأن يكون ثيابًا واسعًا فضفاضًا سميكًا، سابغًا على القدمين واليدين.

وأن يحتجبْن عن أنظار الرجال ليكُنَّ قُدْوة لسائر النساء في التعفف والتستر والحشمة؛ حتى لا يطمع فيهن فاسق، أو ينال من كرامتهن فاجر، وأمر سبحانه نساء المؤمنين جميعًا أن يلبسْن الجلباب السابغ الذي يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، وأن يُرخين على رؤوسهنَّ ما يغطِّي الشعْر والنحر والصدر.

فالجلباب هو الثياب الخارجية التي تلبسها المرأة عند خروجها من البيت، وهو ما يسمى بالعباءة، أو الملحفة، أو الملاءة، تُغطِّي به رأسها وصدْرها، وهو قطعة واحدة، ساترة لجميع بدن المرأة.

والنساء قديمًا كان منهن الحرائر، ومنهن الإماء، فكانت الأَمة إذا خرجتْ تضع القناع، ولا تلبس الجلباب، فتظهر منها ذوائب شعرها ونحرها وفتحة صدرها، فيعرفون أنها أمة، فيتعرض لها الفساق بالأذى والمعاكسة.

وكانت النسوة الحرائر لا يلبسْن الجلباب ليلًا في الظلام، حين يخرجْن بين النخيل لقضاء حاجتهن، فأمر الله - سبحانه - نساء المؤمنين جميعًا حرائر أو إماءً، مربيات أو خادمات أو غيرهن، أن يَلْبسْن الجلباب السابغ الساتر؛ حتى لا يكُنَّ هدفًا للمغرضين، ولئلا يتشبهْن بالفواجر، فإن النساء الكاسيات العاريات، أكثر من الإماء اللاتي تحدثتْ عنهن الآية مبيَّنًا في سبب النزول.

وحال الفسَّاق واحد في كل زمان ومكان، فالمرأة المحتشمة التي لا يظهر منها شيء بِمَلَابِسها الفضفاضة الخشنة، لا يتعرض لها أحد، ويهابها الناس ويحترمونها.

والمرأة الأخرى تُعرف بعلاماتها، وأنها أهل لذلك، فيطمع فيها الطامعون.

والإسلام لا يفرق في أحكامه وصيانته للمجتمع بين امرأة وأخرى، ويطلب الستر والعفة من الجميع، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اللباس الساتر ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن بسترِهنَّ ووقارهنَّ لَسْنَ ممن يُعرِّضْن أنفسهن للرجال، ويتَّسِمْن بالخلاعة والتبرج، فيتجنب الرجال إيذاءهنَّ، فَيَسْلَمُون ويسْلَمْن.

ومن طبيعة الخدم والمتبرجات أن يُكْثِرن من الخروج، ويترددْن على الأسواق والحفلات والمجامع، لذا أمر القرآن نساء المؤمنين جميعًا حرائر وإماء، ومن في حكمهن، بالتستر والعفة، وبهذا قال أبوحيان وغيره.

ثم ختم الله الآية بقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لكم ما سلف ﴿رَّحِيمًا﴾ بما أوضح لكم من الحلال والحرام، ولم يزل سبحانه واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب وأناب.

ومن **الأدلة على وجوب الحجاب** قوله تعالى:

١- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [٣٣]

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [٥٣].

٣- وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [٥٩].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور: ٦٠].

١- وفي حديث أم سلمة ﷺ قالت: لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهنَّ ألبسة سُود يلبسنها[1].

٢- وفي البخاري: عن عائشة ﷺ قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. شققْن مروطهنَّ فاخْتمرن بها [2].

٣- وفي لفظ آخر: أخذْنَ أُزْرَهُن فشققْنها من قِبَل الحواشي فاختمرْن بها [3].

٤- وفي حديث عائشة ﷺ قالت: إن لنساء قريش لَفضلًا، ولكنْ والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أُنزِلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فانقلب رجالهنَّ إليهنَّ يتلُون عليهنَّ ما أُنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مُرطها، فأصبحْن يصلِّين الصبح معْتجرات، كأن على رؤوسهن الغربان[4].

وقد سدّ الإسلام طرق الفتنة فحرم الخلوة بالمرأة مطلقًا.

٥- وفي الحديث: عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[5].

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢/١٠١) برقم (٢٣٧٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٥٦) وصححه الألباني أيضًا في حجاب المرأة المسلمة (ص٣٨) وابن أبي حاتم.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧٥٨) وانظر: (٤٧٥٩)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٤٥٧) وكتاب الحجاب للألباني (ص٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٧٥٩) وانظر: (٤٧٥٨).

(٤) «سنن أبي داود» (٤١٠٠، ٤١٠١)، بنحوه عن عائشة وأم سلمة ﷺ.

(٥) أخرجه الشيخان عن عقبة بن عامر الجهني في البخاري (٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) وهو في «سنن الترمذي» (١١٧١) و«مسند أحمد» (١٧٣٤٧) وابن حبَّان (٥٥٨٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٧٢).

٦- وفي حديث ابن عباس ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: **«لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم»**[١].

٧- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها»**[٢].

واستشراف الشيطان معناه: أنها لا تمر بأحد إلا أعجبته.

تَهْدِيدٌ لِأَهْلِ النِّفَاقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

٦٠، ٦١- ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾

ولما توعد الله سبحانه الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بِغَضَبِه عليهم في الآخرة، توعَّدهم بعقاب في الدنيا، إن لم يُقْلِعوا عن ذلك.

وقد ذكرت الآية **ثلاثة أصناف** من الناس وهم:

١- **المنافقون**: الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، وعلى رأس ذلك إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وإظهار العفة وإبطان حب النساء.

٢- **والذين في قلوبهم مرض**: وهم ضعاف الإيمان، ومرضى القلوب ويراد بهم: أهل الفسق والفجور من الطامعين في النساء، المتطلعين لغير أزواجهن.

٣- **والمرجفون في المدينة**: وهم الذين يُروِّجون الشائعات، وينشرون الرذيلة في المجتمع، ويحبون إشاعتها، إلى جوار نشر الأكاذيب وأخبار السوء.

ومنهم الذين يُخوِّفون المسلمين ويُرَهِّبونهم من الأعداء، فيذْكرون لهم كثرة العدوّ وقلّتهم، وقوة العدوّ وضعفهم، وهكذا، وفي هذا تعريض بسب الإسلام وأهله، وتوهين من قوة المسلمين، وإرجاف بهم، ووصف النفاق يشمل هذه الصفات الثلاث.

---

(١) البخاري (١٨٦٢، ٣٠٠٦، ٥٢٣٣) وهذا لفظه، ومسلم (١٣٤١) وابن ماجه (٢٩٠٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٧٤) و«المسند» (١٩٣٤) وابن حبَّان (٢٧٣١).

(٢) رواه الترمذي والطبراني في «الكبير»، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ورجاله موثقون. وانظر تخريجه بأوفى من ذلك في آية (وقرن في بيوتكن).

١- فقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: لئن لم يَكُفّ الذين يضمرون الكفر في قلوبهم، ويظهرون الإيمان للناس، ويتركون ما هم فيه من عداءٍ وكيدٍ لكم.

٢- ولئن لم يترك مَرْضَى القلوب فِسْقهم وفجورهم من الذين في قلوبهم مرض، أي: شك وريبة، وضعف إيمان، وحب للنساء وطمع فيهن.

٣- ولئن لم ينتهِ المرجفون في المدينة الذين يَنْشُرون الأخبار الكاذبة، ويروِّجون لها، ويُذيعونها بين الناس، ويقللون من شأن المسلمين، ويعظمون شأن غيرهم، لإحداث القلاقل والاضطراب، وبلبلة الأفكار في المجتمع.

لئن لم ينته أهل هذه **الأصناف الثلاثة** -المنافقين، ومرضى النفوس، والمرجفين- عن قبائحهم وشرورهم ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنَّك -أيها الرسول- عليهم، فتعاقبهم، في أثناء حياتك فلا يساكنوك في المدينة إلا قليلا حتى يخرجوا منها ملاحقين بالمذمة والعار.

أو يُسلِّط الله عليهم الحاكم المسلم، بعد الرسول ﷺ فيعاقبهم، ثم لا يمكثون ولا يقيمون معك -أيها الرسول- في المدينة إلا زمنًا يسيرًا، ولا يقيمون في أي بلد يحكمه حاكم مسلم إلا زمنًا يسيرًا، إذ لا يكون لهم طاقة به وليس لديهم قوة ولا امتناع منه.

وقد وعد الله رسوله بخروج أعدائه من المدينة، وطرد اليهود منها، وتم له ذلك في حياته.

وهو تهديد لكل مرجف في أي زمان ومكان، ممن يؤذون المسلمين والمسلمات، ويذيعون الرعب والخوف وسوء الظن في نفوس الناس، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣].

وقد كان اليهود والمنافقون إذا خرجت سرية من السرايا، يوقعون في نفوس الناس أن المسلمين قد قُتِلوا وهُزِموا، وأن العدوَّ في طريقه إليهم، وكانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتفشو فيهم الأخبار الكاذبة، فعاقب الله اليهود بالجلاء عن المدينة، وهو حُكم ينطبق على جميع المسلمين في ظلال القوة الإيمانية والعسكرية.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا الصنف من البشر -وهم أهل النفاق- مطرودون من رحمة الله تعالى بسبب سوء أفعالهم، فإذا ما ظُفر بهم في أي مكان، أُخذوا أُسارَى أذلاء، وقُتِلوا قتلًا شديدًا؛ حتى يُقْلعوا عن قالة السوء وإشاعتها، وإيذاء الناس ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾

أي: أينما حلُّوا وَوُجِدوا ﴿أُخِذُوٓاْ﴾ أسرى بالقهر والقوة، فلا يحصل لهم أمن ولا استقرار، فيخشوْن أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا، وهذا معنى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ فلا يُفْلِتْ منهم أحد، ما داموا مقيمين على النفاق ونشْر الأخبار الكاذبة بين المسلمين، بغرض إيقاع الفتنة والفساد بينهم.

وبهذا الوعيد انْكفَّ المنافقون عن أذى المسلمين وعن الإرجاف في المدينة، ولم يقع في المنافقين قتل ولا أسر، ولا خرج منهم أحد من المدينة.

والآية ترشد إلى إصلاح الفاسد من أفراد الأمة أو طوائفها، كما قال ﷺ: **«لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله»** ولهذا شرع الإسلام استتابة المرتدِّ، ودعوة الكفار إلى الإسلام قبل غزوهم.

تَأْدِيبُ الفُجَّارِ وَالفَسَقَةِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى

٦٢- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن سُنَّة الله تعالى اقتضت تأديب الفجَّار والفسقة؛ حتى يُقلعوا عن فسادهم وفجورهم، ممن هم في الأمم السابقة واللاحقة، من كل أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين وغيرهم.

فلا تحزن - يا رسولنا - ويا أيها الداعي إلى الله - على وجود المنافقين؛ فإن ذلك سنة قديمة، لم يخلُ منهم زمان ولا مكان ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾.

أي: إن هذه طريقة الله تعالى في منافقي الأمم الماضية، أن يؤسَرُوا ويُقْتلوا أينما كانوا ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أيها المخاطب ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ أي: طريقته مع الذين خلوا ولا مع الحاضرين ولا من يأتي بعدهم ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ ولا تغييرًا ولا تحويلاً، لقيامها على الحكمة الإلهية، والعدالة القوية، في تأديب الذين يسعون في الأرض بالفساد، ويؤذون الله ورسوله والمؤمنين.

فلا تحزن - يا مسلم - على كيد المنافقين؛ فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منها زمن من الأزمان.

عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ

٦٣- ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

ولما هدد الله - سبحانه - المنافقين بعذاب الدنيا، أتبع ذلك بذكر عذاب الآخرة، بدءًا بقيام الساعة التي يخوض فيها المكذبون الساخرون، والمؤمنون الخائفون، وأهل الكتاب والمنافقون.

وقد تكرر في القرآن ذِكْرُ سؤال الناس عن الساعة، التي يكون فيها الحساب والجزاء، فالمشركون كانوا يسألون عن الساعة استعجالًا بها على سبيل التكذيب والاستهزاء.

واليهود كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة امتحانًا؛ لأن الله تعالى قد استأثر بعلمها في كل كتاب منزل، ومنها التوراة، وبعضهم يسأل عنها تعنتًا وتعجيزًا.

والسائلون عن الساعة **أصناف أربعة**:

١- منهم المكذبون، وهم أكثر السائلين، وسؤالهم سؤال تهكم؛ لأنهم يستدلون بتأخر مجيئها على عدم وقوعها، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

٢- ومنهم المؤمنون المصدقون بوقوعها، لكنهم يسألون عن أحوالها وأهوالها، وهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

٣- ومنهم المؤمنون الذين يسألون عنها محبة لمعرفة موعد قيامها، وهؤلاء نُهوا عن الاشتغال بها، كما جاء في الحديث: عن أنس ﷺ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فقال: «**ماذا أعددت لها**»؟ فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم، سوى أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «**أنت مع من تحب**»[(١)].

وفي حديث جبريل ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[(٢)].

٤- وصنف من الناس يسأل عن الساعة اختبارًا للنبي ﷺ لعله يجيب بما يخالف ما في علمهم، فيجعلون ذلك حجة على عدم نبوته ﷺ، وهؤلاء هم اليهود الذين سألوا عن

(١) البخاري (٣٦٨٨) ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) من حديث الإسلام والإيمان والإحسان عن عمر ﷺ في الصحيحين.

الروح، وعن أهل الكهف، وعن ذي القرنين.

وقد بيَّن الله - سبحانه - أن علم الساعة من الغيوب الخمس، التي استأثر الله بها في مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝﴾ [النازعات]. وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وفي هذه الآية تهديد للمستعجلين، وتبكيت للمتعنتين، ولفظ: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في الآية عام يعم جميع السائلين عنها، أي: لعل وقتها وزمانها يكون قريبًا؛ فكل آتٍ قريب.

وقد قَرُب إتيان الساعة بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ [القمر]. وقال ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى[1].

وقد أمر الله نبيه أن يرد عليهم بأن علم قيامها عند الله، فليس لي ولا لغيري علم بها، ثم إن قيام الساعة في القريب أو البعيد ليس فيه نتيجة ولا فائدة، وإنما الفائدة في الربح والخسارة، والشقاء والسعادة، والثواب والعقاب، ولعل قيام الساعة يكون قريبًا، فماذا أعددتم لها؟ وفيما يأتي من آيات إخبار بمن يستحق العذاب فيها من المكذبين بقيامها، ووصف لهذا العذاب:

حَظُّ الكَافِرِينَ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ عَذَابُ السَّعِيرِ

٦٤، ٦٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية حظ الكافرين في الآخرة من وعيد الساعة، وهو عذاب

(١) من حديث أنس في البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١).

السعير، بعدما بيَّن حظهم في الدنيا باللعن والأسْر والقتل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله، أي: أبعدهم وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾ أي: نارًا موقدة، شديدة الحرارة وشديدة الاشتعال في أجسامهم، وهم ماكثون فيها أبدًا، فلا يخرجون منها ولا يزولون عنها ولا يحولون، وليس لهم في جهنم ولي يدافع عنهم، ولا نصير ينصرهم، فيُخرجهم من عذاب النار، فإذا انتفى الولي والناصر فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا هم يُنصرون ويُمنعون من عذاب الله، بل يتخلّى عنهم الولي والنصير، قال تعالى:

٦٦- ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠[1] ﴿٦٦﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية حسرات الكفار، عندما يحلُّ بهم العذاب في الآخرة، بعد أن انقطع رجاؤهم في الولي والناصر، وهم يتقلَّبون في نار السعير من جهة إلى جهة، كاللحم الذي يُشوى في النار، ويُسحبون فيها: تارة على وجوههم، وتارة على ظهورهم، وتارة على بطونهم.

وهذا التقلُّب لوجوههم في النار، كي تناله بلهيبها من كل وجه، وحتى تستريح الجهة الأخرى.

وخُصّص الوجه بالذكر؛ لأنه يؤذَى بجرِّه في النار أكثر من غيره، فهو مقر الحواس الرقيقة التي هي: العينان، والفم، والأذنان، والأنفاس، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويبلغ بهم العذاب كل مبلغ ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل التحسر والتفجع وهم نادمون متحسرون على ما فاتهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فَسَلِمْنَا من هذا العذاب وفُزْنا بجزيل الثواب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان].

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة ويعقوب بحذف ألف (الرسولا) و (السبيلا) في الآية التالية وصلًا ووقفًا، والباقون بإثباتها وقفًا وحذفها وصلًا.

ويومئذ يتمنى الكافر لو كان مسلمًا ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر].

ولما علموا أنهم وكبراءهم مستحقون للعذاب، أرادوا أن يتشفُّوا ممن أضلوهم:

٦٧، ٦٨- ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا[1] وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا[2] ﴿٦٨﴾﴾

وهكذا يقول الكافر يوم الحسرة والندامة: إنا أطعنا أئمتنا في الضلال من الرؤساء والحكام ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ في الشرك والكفر ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: أزالونا عن طريق الهدى والإيمان.

وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فكلكم مشترك في الكفر والمعاصي، فتشتركون اليوم في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم عن بعض، بحسب تفاوت الجُرم والذنب.

ربنا عذِّبهم مِثْلَيْ عذابنا الذي تُعذِّبنا به، بسبب ضلالهم في أنفسهم، وإضلالهم لغيرهم، فهم سبب عذابنا، واطْرُدْهُم من رحمتك طردًا شديدًا.

وفي هذا دليل على أن طاعة غير الله تعالى في مخالفة أمره وأمر رسوله ﷺ، موجبة لعقاب الله تعالى وسخطه، وأن التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، وعلى المسلم أن يحذر من ذلك.

إيذاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عليه السلام

٦٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾

وبعد أن تحدثت الآيات عمن يؤذون الله ورسوله والمؤمنين، تحدثت عن إيذاء بني إسرائيل لنبي الله تعالى موسى عليه السلام تسرية عن رسول الله ﷺ، وتحذيرًا للمؤمنين من إيذاء رسول الله بوجه من الوجوه.

---

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب بالجمع في (ساداتِنا) جمع سادة، والباقون بالإفراد (سادتَنا) جمع سيد.

(٢) قرأ عاصم وهشام بخلف عنه بالباء في (كبيرا) من الكبر، أي: أشد اللعن وأعظمه.

فيا أيها المؤمنون، لا تؤذوا رسول الله محمد، فتقابلوه بضد ما يجب له من الاحترام والتقدير، ولا تتشبهوا بمن آذوْا نبي الله موسى بن عمران، فأظهر الله براءته، إذ أنه ليس محل تهمة ولا أذية، وكان عند الله مقرَّبًا من خواص المرسلين، فاحذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا مثلهم.

هذا: وقد كان موسى عليه السلام شديد الحياء والتستر، فقال بنو إسرائيل: ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر، أي كبير الخصْيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يُبرئه من قولهم، فاغتسل يومًا ووضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجَر بثوبه، فطلبه موسى ورآه قوم من بني إسرائيل على أحسن ما خلق الله، فزال عنه ما ظنّوه فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان موسى حَظِيًّا عند الله، لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، وكان مستجاب الدعوة، وكان مُحبَّبًا مقبولًا.

ولم يحدد القرآن نوع هذا الإيذاء من بني إسرائيل لموسى عليه السلام، ولكن وردت روايات في الصحيحين وغيرهما تُعيِّنه، وهي **روايات ثلاث:**

الأولى: أن موسى صلى الله عليه وسلم صعد الجبل مع هارون، فمات هارون، فقالوا لموسى: أنت قتلْتَه، فبرَّأه الله من ذلك بشهادة الملائكة، حيث أمرهم الله تعالى أن يحملوه ويمرُّوا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرفت بنو إسرائيل أنه قد مات، فانطلقوا به فدفنوه فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله إلا الرَّخْم[(١)]، فجعله الله أصم أبكم[(٢)].

قال ابن حجر في فتح الباري: وما في الصحيح أصح من هذا، وهو القول الثالث.

الثانية: أن قارون استأجر امرأة بغيًّا؛ لِتتَّهِم موسى عليه السلام في نفسها على ملأ من بني إسرائيل، فبرَّأه الله من ذلك، وخسف بقارون وبداره الأرض وأهلكه الله[(٣)].

وقرأ الباقون بالثاء (كثيرا) من الكثرة، أي: مرة بعد مرة.

(١) الرَّخم: نوع من الطير معروف، واحدته: رَخمة.

(٢) جاء ذلك عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن عليّ بن أبي طالب، في «المطالب العالية» ق ١٢٦/ب (٣٨١٩، ٤٠٦٦) و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢) والحاكم (٢/ ٥٧٩) وصححه ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر: هذا إسناد صحيح، في «المطالب العالية»، وقال في «الفتح» (٨/ ٥٣٤): إسناده قوي.

(٣) نقله السيوطي في «الدر» (٥/ ١٣٦) عن ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم.

الثالثة: روى أبو هريرة ﷺ: أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عُراةً، ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى ﷺ يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر -أي: كبير الخصيتين- قال: فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حَجَر، ففرَّ الحَجَر بثوبه، فسعى موسى خلْفه يقول: ثوبي، ثوبي، حتى نظرتْ بنو إسرائيل إلى سوءة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فوقف الحَجَر، حتى نظر إليه موسى، وأخذ ثوبه فلبسه، وأخذ يضرب الحجر بعصاه[1].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن موسى كان رجلا حييًا سِتِّيرًا فقال فريق من قومه: ما نراه يستتر إلا من عاهة فيه، أي: برص، أو أنه آدر، فأظهر الله براءته في هذه الآية**»[2].

ولذا: فإن النبي ﷺ قال كما في حديث ابن مسعود ﷺ: «**رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[3].

وعن إيذاء بني إسرائيل لموسى يقول سبحانه على لسان موسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهذا الأذى لم يكن من قبيل التكذيب، ولكنه من باب سوء الأدب، وعدم رعايتهم حسن الأدب مع أعظم الناس ﷺ، وقد آذوه أكثر من مرة، وذلك حين قالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. وحين قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾

---

(١) يُنظَر الحديث في: البخاري برقم (٢٧٨)و (٣٤٠٤) و مسلم (٣٣٩) و«المسند» (١٣/ ٥٠٧) (٨١٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (٢/ ١٢٤) والترمذي (٣٢٢١) وابن حبان (٦٢١١) والبيهقي (١/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٤، ٤٧٩٩) و حديث أبي هريرة في «المسند» (٣/ ٥١٤) برقم (١٠٦٧٨). والترمذي (٣٢٢١) والنسائي في الكبرى (١١٤٢٥).

(٣) البخاري برقم (٣٤٠٥) و(٤٣٣٥)و (٦٠٥٩) ومسلم برقم (١٠٦٢) وحديث ابن مسعود في «المسند» (١/ ٣٥٩)، (١/ ٣٨٠) برقم (٣٦٠٨، ٤١٤٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«تفسير الطبري» برقم (٢٢/ ٣٧)، وأبو يعلى (٥٢٠٦)

أي: يأيها الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله، لا تؤذوا رسول الله بقول أو فعل، والتزموا الأدب والطاعة، والاحترام لنبيكم ﷺ، واحذروا أن تفعلوا معه كما فعل بنو إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام، حيث آذوه بشتى أنواع الأذى، فبرأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: عظيم القدْر والجاه، حيث اختاره الله واصطفاه لحمل الرسالة، وكان له عند الله وجاهة، لا يسأله شيئًا إلا أعطاه.

وقد دلت الآية على وجوب توقير النبي ﷺ وتجنُّب ما يؤذيه، وتلك هي سنة الصحابة والمسلمين.

وقد حدثت فلَتات من بعض الصحابة قبل أن يكتمل فيهم التخلُّق بآداب القرآن، كالذي قال للنبي ﷺ: (هذه قسمة ما أريد بها وجه الله) والذي قال عن الزبير لَمَّا اختلف معه على الماء:(أن كان ابن عمتك يا رسول الله) وهكذا.

القَولُ السَّدِيدُ وَأَثَرُهُ عَلَى العَبْدِ

٧٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾

وبعد أن نهى الله المسلمين عن التشبه ببني إسرائيل في إيذاء نبيهم، أمرهم أن يتصفوا بالتقوى وسداد القول؛ في جميع أحوالهم، في السر والعلن، لأن التقوى جماع الخير في القول والعمل، والقول السديد مبعث الفضائل، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي يا من صدقتم بالله واتبعتم رسوله، خافوا الله أن تَعْصَوْه، وراقبوه في السر والعلن، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، ولا تخالفوا ذلك فتستحقوا العقاب.

﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: قولوا كلامًا صادقًا مستقيمًا موافقًا للصواب، خاليًا من الكذب والباطل والانحراف عن الحق، فيه لين ولُطف ونصح وإرشاد.

والكلام يكون بابًا عظيمًا من أبواب الخير، أو بابًا كبيرًا من أبواب الشر.

«وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»[(١)].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤١٢) وهو من حديث معاذ في الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) ومصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣) والمسند (٢٢٠١٦) بإسناد صحيح بطرقه وشواهده، وأخرجه غيرهم.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١].

«رحم الله امرأ قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم»[٢].

«نضَّرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها»[٣].

وبالقول السديد تشيع الفضائل، فيرْغَبُ الناس فيها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات فيغترُّ الناس بها، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

والقول السديد يشمل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى، والأذان والإقامة، وتلاوة القرآن، ومدارسة السنة، وذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد وغيرهما، وطلب العلم الشرعي والتفقه في الدين، ونحو ذلك من كل قول صحيح صادق خال من الانحراف عن الحق والصواب.

أمّا ما يترتب على القول السديد من نتائج فقد جاء في قوله تعالى:

٧١- ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

أي: فإن أنتم اتقيتم الله تعالى وقلتم قولًا سديدًا، وفَّقكم لصالح الأعمال، وتقبَّلها منكم وغفر لكم ذنوبكم ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمر ونهى ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي فقد نال غاية المطلوب، وظفر بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة.

ويترتب على الإخلال بالتقوى، فساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم حصول الأجر والمثوبة عليها.

حَمْلُ أَمَانَةِ التَّكْلِيفِ

٧٢- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾

---

(١) البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧، ٧٤).

(٢) غاية المرام (ص٢١٥) وهو ضعيف.

(٣) الترمذي (٢٦٥٨) والمسند برقم (١٦٧٣٨) عن جبير بن مطعم، حديث صحيح لغيره.

وبما أن سورة - الأحزاب - مليئة بأحكام التشريع التي كلَّف الله بها الإنسان، فقد جاءت هذه الآية في نهاية السورة، مقررة لمضمون ما فيها، ومبينة للقاعدة العامة التي تشمل جميع التكاليف الشرعية.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ هذا العرض كان في الأزل، في مبدء التكوين، عندما تعلقت قدرة الله تعالى بخلق العالم السفلي والعلوي بما فيه من: الإنسان والحيوان، والسموات والأرض والجبال؛ كي يقوم الإنسان بما خُلق من أجله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أما **الأمانة** فهي ما ائتمن الله عليه المكلفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، في السر والعلن، وهذا يشمل القيام بكل المأمورات من: الفرائض، والنوافل، والحدود، وقضاء الدَّيْن، وغُسل الجنابة، وحفظ المرأة فرجها، والعدل، ووفاء الكيل والميزان، والوفاء بالعقود والعهود، وأداء الأمانة المالية والعينية، وما إلى ذلك.

ويشمل الانتهاء عن جميع المحرمات والمكروهات، من الكبائر والصغائر، وهكذا: كل أمر ونهي، أو شأن، اؤتمن الإنسان عليه من أمور الدنيا أو الدين فيما يتعلق: بالعقائد، والعبادات، والأخلاق، والأمانات التي تقابلها الخيانة، وحفظ العقل والنفس والدين والعرض والمال.

وحملُ الإنسان لهذه الأمانة، معناه: تقبله للقيام بهذه التكاليف، والتزامه بالوفاء بها مع ثقلها وضخامتها. فالإنسان ملتزِم بهذه التكاليف بفطرته، وإن كان الناس متفاوتين في القيام بما ائْتُمِنوا عليه، فمنهم من يحافظ عليه، ومنهم من يضيعه:

أحاديث وآثار في الأمانة:

١- في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: «**فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**»[1].

٢- وفي الحديث عن حذيفة ﷺ: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل**

(١) في البخاري (٥٩، ٦٤٩٦).

أثرها مثل أثر الوكت،[١] ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل أثر المَجْل[٢] كجمر دخرجْتهُ على رِجْلك فنفط، فتراه منتبرًا[٣] وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعْقَلَهُ وما أظْرَفَهُ وما أجْلَدَهُ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمان ولا أبالي أيكم بايعْتُ، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانيًّا رده عليَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا»[٤].

٣- وفي الحديث عن أنس ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»**[٥].

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحُسْن خليقة، وعفة طُعمة»**[٦].

٥- وفي حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشُر سرَّها»**[٧].

٦- وعن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا حدَّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»**[٨].

٧- أخرج الطبري بسند حسن: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

---

(١) الوكت: الأثر اليسير كالنقطة في الشيء من غير لونه.

(٢) المجْل: الجلد الغليظ.

(٣) المنتبر: المنتفخ. ونفط، يعني: ارتفع.

(٤) أخرجه الشيخان وغيرهما عن حذيفة بن اليمان، البخاري برقم (٦٤٩٧) ومسلم برقم (١٤٣، ٧٠٨٦) و«المسند» (٥/ ٢٨٣) برقم (٢٣٢٥٥) وغيرهم.

(٥) «المسند» برقم (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣١٩٩، ١٣٦٣٧) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات، وابن أبي شيبة (١١/ ١١) وعبد بن حميد (١١٩٨) وأبو يعلى (٢٨٦٣) والبزار (١٠٠) كشف.

(٦) «المسند» (٢/ ١٧٧) برقم (٦٦٥٢)، بإسناد ضعيف لانقطاعه، (محققوه) وأخرجه الحاكم (٤/ ٣١٤) والبيهقي في الشعب (٥٢٥٧) وانظر صحيح الجامع (١/ ٣٠١).

(٧) مسلم (١٢٤، ١٤٣٧) و«المسند» (١٨/ ١٩٧) (١١٦٥٥). وابن أبي شيبة (٤/ ٣٩١) والبيهقي في الشعب (٥٢٣١) وابوداود (٤٨٧٠).

(٨) حسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٠) وهو عند الطيالسي (١٨٧٠) وأحمد (٢٢/ ٣٦٢) (١٤٤٧٤) وإسناده حسن (محققوه) بشواهده، وأبي داود (٤٨٦٨) والترمذي (١٩٥٩) وأبي يعلى (٢٢١٢).

﴿ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ قال: الأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدَّوها أثابهم، وإن ضيَّعوها عذَّبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولا زُهدًا في ثواب ولكن تعظيمًا لدين الله أن يقوموا به، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها على ظلمه وجهله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال].

ولا سبيل لحمل الإنسان لأمانة التكليف إلا بما أودع الله فيه من العقل الذي ميَّزه به عن سائر المخلوقات الأرضية، وهو مطالب بحفظها والوفاء بها، دون إضاعة ولا إجحاف، فإذا لم يفِ بها يكون قد ظلم نفسه وجهل حق الله عليه.

جاء في الأثر: أن الله تعالى قال لآدم: إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال، فلم تُطِقْها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يارب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُوزيت، وإن أسأت عوقبت، فتحمَّلها آدم، فقال: بين أذني وعاتقي، قال الله تعالى: أمَا إذا تحملْت فسأعينُك وأجعلُ لبصرك حجابًا، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فارْخ عليه حجابه، وأجعلُ للسانك لَحْيَيْنِ وغِلافًا، فإذا خشيتَ فأغلقه، وأجعلُ لفرجك لباسًا، فلا تكشفه على ما حرمتُ عليك.

قال مجاهد: فما كان بين أن تحملها وبين أن أُخرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر(١).

أما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فهو عرْض حقيقي وَفْق ظاهر الآية، وليس من باب المجاز، ولا من باب ضرب المثل بالسموات والأرض والجبال، على أنه لو جاز تكليفها لثقل عليها القيام بواجب الأمانة، ولكنه تكليف حقيقي، بمعنى: أن الله تعالى جعل فيها إدراكًا ونُطْقًا بكيفية يعلمها الله تعالى، بحيث تعقل السؤال والإجابة.

وفي كثير من آيات القرآن الكريم بيان لإدراك ونُطْق الجمادات، فالسموات والأرض ومن فيهن وما فيهن يسبحون بحمد الله، ولكنا لا نفقه تسبيحهم، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، ولو نزل القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، وقد حنَّ الجذع لرسول الله ﷺ، وسُمع له أنين في المسجد، وسبح الحصى بين كفَّي النبي ﷺ،

---

(١) «تفسير الخازن» (٣/ ١٨٠) و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٩٠) و«تفسير الطبري» (١٩/ ٢٠٢).

وسلَّم عليه الشجر والحجَر والمدَر، واشتكى البعير للنبي ﷺ أن صاحبه يؤذيه، وهكذا.

وعرْض الأمانة على هذه المخلوقات، هو من باب التخيير لا من باب الإلزام؛ لأنه لو كان مُلْزِمًا لم يكن لها أن تمتنع؛ لأن الجمادات كلها خاضعة مطيعة لله سبحانه، فكلها تسجد لله تعالى بلا استثناء، بخلاف الإنسان، فكثير منه حق عليه العذاب، وليس من بين هذه المخلوقات مَنْ يتمرَّد على مهمته، أو يخرج عن وظيفته، فالشمس تدور في فلَكها دورتها المنتظمة، وتُرسل أشعَّتها دون خلل أبدًا، والأرض تدور دورتها، وتُخرج زرعها، وتُواري موتاها، وتتفجر منها الينابيع بصفة دائمة، وهكذا سائر الكائنات.

أما الإنسان فقد خاف على نفسه وأشفق عليها من عواقب حملها أن ينشأ عنها عذاب الله وسخطُه بسبب التقصير في أداء ما كلف به.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ والتزم بها على ضعفه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ شديد الظلم والجهل لنفسه إذا لم يحفظ الأمانة.

أَقْسَامُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ

٧٣- ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

ثم إن الله تعالى قسَّم الناس بالنسبة إلى حمل الأمانة، إلى ثلاثة أقسام:

منافقون ومشركون وكلاهما معذب، ومؤمنون مرحومين:

١- **فالمعذبون** هم الذين ظلموا أنفسهم ولم يقوموا بواجبهم تجاهها، وهم أهل النفاق الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وهؤلاء قد قاموا بحمل الأمانة ظاهرًا لا باطنًا.

٢- وأهل الشرك في عبادتهم لغير الله تعالى، وهم الذين تركوها ظاهرًا وباطنًا وهذا النوع هو الظلوم الجهول.

أما النوع الثالث فهو الإنسان **المرحوم**، وهو الذي قام بأداء الأمانة، فحفظها وقام بها، وهم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعملوا بطاعته وتركوا معاصيه.

وهذا الفريق منه من قام بواجب الأمانة على الوجه الأكمل، ومنه من عصى الله تعالى

في بعض أوامره ونواهيه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين منهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم، يعفو ويتجاوز ويبدل السيئات حسنات.

وهو جلَّ شأنُه واسع المغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [٢٤].

وقد ختم الله السورة بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى سعة فضل الله تعالى، فهو سبحانه جواد كريم واسع المغفرة عظيم الرحمة.

تم تفسير (سورة الأحزاب) ولله الحمد والمنة



الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢١-٢٤	التَّقْلِيدُ الأَعْمَى يَقُودُ إِلَى جَهَنَّمَ - التَّمَسُّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى سَبِيلُ النَّجَاةِ	٤٦٩
٢٥	الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى	٤٧١
٢٦،٢٧	الدليل الثالث: جميع ما في الكون ملك لله - الدَّلِيلُ الرابع: عِلْمُ اللهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى	٤٧٢
٢٨	الدَّلِيلُ االخامس: الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ	٤٧٤
٢٩	الدَّلِيلُ السادس: تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر	٤٧٥
٣٠	الإِلَهُ الْحَقُّ	٤٧٦
٣١،٣٢	الدَّلِيلُ السَّابِع: جَرْيُ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ - أحوال الناس عند الخوف من الغرق	٤٧٧
٣٣	الْمَسْؤُولِيَّةُ فَرْدِيَّةٌ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ	٤٧٩
٣٤	مَفَاتِحُ الْغَيْبِ الْخَمْسُ - أَوَّلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ - ثانيًا: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾	٤٨٠
	ثالثًا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ رابعًا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ -خامسا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾	٤٨٢
	تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - قراءتها في فجر الجمعة وعند النوم - أغراضها ومقاطعها	٤٨٥
١-٣	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - قَضِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ	٤٨٨
٤-٦	التَّوْحِيدُ وَأَدِلَّتُهُ - الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: مِنَ الْكَوْنِ وفيه ثلاث قضايا	٤٩٠
٧-٩	الدَّلِيلُ الثَّانِي: مِنَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ	٤٩٥
١٠،١١	الْيَوْمُ الآخِرُ آتٍ لَا مَحَالَةَ	٤٩٧
١٢	مَشْهَدُ مُنْكِرِي الْبَعْثِ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ	٤٩٩
١٣-١٤	الإِنْسَانُ يَصْنَعُ مُسْتَقْبَلَهُ بِنَفْسِهِ	٥٠٠
١٥-١٧	أَهْلُ السَّعَادَةِ وَنَعِيمُهُمْ - أحاديث في معنى الآية - في فضل قيام الليل	٥٠٢
١٨-٢٢	الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي الْجَزَاءِ	٥٠٨
٢٣-٢٥	أَمْرُ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَتَأَسَّى بِمُوسَى فِي صَبْرِهِ عَلَى إِعْرَاضِ قَوْمِهِ	٥١٢
٢٦	الِاعْتِبَارُ بِمَصَارِعِ الْغَابِرِينَ	٥١٥
٢٧	إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ كَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الأَرْضِ	٥١٦
٢٨-٢٩	يَوْمُ الْفَتْحِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ	٥١٧
٣٠	الْخِطَابُ الأَخِيرُ فِي السُّورَةِ لكل داعية	٥١٨
	تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَحْزَابِ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مقاطعها - أغراضها - خمسة نداءات للنبي ﷺ	٥١٩
	النداء الأول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ النداء الثاني ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ [٢٨]	٥٢٢
	الثالث ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [٤٥] الرابع ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [٥٠].	٥٢٣
	النداء الخامس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [٥٩].	٥٢٤
	ستة نداءات للمؤمنين - آية الأمانة	٥٢٤
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - أَمْرٌ وَاحِدٌ وَثَلَاثَةُ نَوَاهٍ - التَّوْجِيهُ الأَوَّلُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾	٥٢٦
	التَّوْجِيهُ الثَّانِي: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾	٥٢٧
٢،٣	التَّوْجِيهُ الثَّالِثُ فِي النِّدَاءِ الأَوَّلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ - التَّوْجِيهُ الرَّابِعُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾	٥٢٨

فهرس الموضوعات